

العالم الإسلامي

في العصر الأموي

(٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)

دراسة سياسية

أ. د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ الإسلامي / جامعة الأزهر

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العالم الإسلامي في العصر الأموي

دراسة سياسية

الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

عبد اللطيف ، عبد الشافي محمد .
العالم الإسلامي في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) : دراسة سياسية / تأليف عبد الشافي محمد عبد اللطيف . - ط ١. - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، [٢٠٠٧] .
٥٣٦ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٨ ٥٨٧ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - العالم العربي - تاريخ - العصر الأموي
أ - العنوان
٩٥٣,٠٣

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

العالم الإسلامي في العصر الأموي

(٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)

دراسة سياسية

تأليف
أ. د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف
أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة الأزهر

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

أحمدك اللّٰهم وأستعينك وأستهديك ، وأعوذ بك من شرور نفسي وسيئات أعمالي ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك ورسلك ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ؛ فهذا الكتاب دراسة للجانب السياسي للعالم الإسلامي في عصر الدولة الأموية ، الذي يعتبر من أكثر عصور التاريخ الإسلامي في تعدد قضاياه السياسية ، وتشعب حوادثه التاريخية ، ولقد كان الدافع لهذا العمل أن تلك الحقبة من تاريخ المسلمين لا تزال في حاجة إلى دراسة واعية متأنية ، يكون رائدها البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة ، مستقاة من أوثق مصادرها ، وإلى كلمة حيادية منصفة تقوم على تحليل الروايات ومقارنة الحوادث واستنطاق النصوص التاريخية ؛ ذلك لأن معظم الكتابات المعاصرة - وهي كثيرة - التي تناولت هذا العصر اتخذت موقفًا معاديًا للأمويين ، معتمدة في ذلك على روايات خصومهم ، أو آراء ذوي الهوى والميول من المؤرخين ، فجاء تاريخ خلفائهم وولاتهم مشوهًا ، يشوبه كثير من الزيف والتحريف والبعد عن حقائق التاريخ ، وقد تضافرت عدة عوامل أسهمت في ذلك التشويه ، وصبغت عصر بني أمية بألوان قاتمة مظلمة ، منها :

١ - أن معظم الأمويين وقفوا من الرسالة المحمدية موقف العداء المطلق ، وحملوا لواء معارضتها وشن الحرب ضدها أكثر من عشرين عامًا ، ولم يدخلوا الإسلام إلا عند فتح مكة سنة (٨هـ) ومع أنهم أسلموا وحسن إسلامهم ، إلا أن بعض خصومهم استغلوا هذا الموقف ، واتخذوا منه ذريعة للنيل منهم والتشهير بهم .

٢ - أن بني أمية دخلوا في صراع سياسي مع آل البيت - منذ مقتل عثمان ﷺ فمالت عواطف كثير من المسلمين إلى آل البيت نظرًا لمكانتهم في نفوس الناس ، وعمّق هذا الشعور ما تعرض له بعض أفراد آل البيت من المآسي مما خلق شعورًا يكاد يكون عامًّا بالكراهية للأمويين ، حيث لم يكن من السهل على أي مسلم - مهما كان مذهبه واتجاهه السياسي - أن يرضى عن حادث مقتل الحسين ﷺ ذلك الحادث الذي شغل حيزًا كبيرًا في كتب المؤرخين ، وأساء إلى سمعة الدولة الأموية .

٣ - ما وقع فيه بعض خلفاء وولاة بني أمية من أخطاء جسيمة مثل غزو المدينتين

المقدستين - مكة والمدينة - مما هز مشاعر المسلمين ، وتردد صداه في نفوسهم وكتاباتهم .

٤ - كثر أعداء بني أمية من الشيعة والخوارج ومن الحاقدين عليهم والطامعين في الحكم - مثل المختار الثقفي ، وابن الأشعث ، وابن المهلب وغيرهم - مما اضطر الأمويين إلى الدخول معهم في معارك طاحنة والتنكيل بهم . وفوق ذلك الموالي الفرس الذين لم ينسوا زوال دولتهم على أيدي العرب ، فصبوا جام غضبهم على الأمويين واتهموهم بالتعصب ضدهم .

تجمعت كل هذه العناصر الموتورة - وكان لكل منها شعراء وخطباء ونقلة للأخبار ورواة - وراحت تبث الشائعات في جوانب العالم الإسلامي وتضخم الأخطاء الصغيرة وتفتعل الأكاذيب وتلفق الروايات عن العصر الأموي ورجاله ، كما شارك دعاة بني العباس - إبان المرحلة السرية لدعوتهم والتحضير للثورة على الدولة الأموية - في هذا التيار وأخذوا يركزون على تشويه سمعة الخلفاء والولاة ليخلقوا رأيًا عامًّا معاديًا للدولة ، وقد نجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا .

٥ - ظلت هذه الأخبار والشائعات يتردد صداها على ألسنة الناس حتى بدأ عصر التدوين ، فدون المؤرخون كل ما وصل إلى سمعهم سواء أكان حقًّا أم باطلًا .

وكان من سوء حظ الأمويين أن تاريخهم دُوِّن في عصر خصومهم العباسيين ، وقد لعبت تلك الخصومة - التي بلغت حد استئصال شأفة الأمويين ونبش قبورهم - دورها في تشويه هذا التاريخ وطمس معالمه .

لقد أدت تلك العوامل مجتمعة إلى تشويه كثير من جوانب التاريخ السياسي لعصر بني أمية وتزييف عديد من حقائقه وتلفيق الشائعات والأباطيل حول خلفائه وولاته .

فلئن كان بعض الأمويين عادى الإسلام في البداية ، وتأخر إسلامهم ؛ إلا أنهم لما أسلموا عام الفتح أظهروا من حسن البلاء في الفتوحات وقاموا بأدوار بارزة في رفع راية التوحيد ، وأبدوا من الحب لدين الله والجهاد في سبيله ما لفت إليهم الأنظار ، حتى إن الرسول ﷺ أسند إلى كثير منهم أجلَّ الأعمال وأخطرها ، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون الثلاثة من بعده ، ولكن على الرغم من ذلك كله فإن بعض

الكتّاب والمؤرخين - سواء ممن اندفعوا وراء رغبة العباسيين والتقرب إليهم بالإساءة إلى الأمويين ، أو ممن سيطر عليهم الهوى ، وأعماهم التعصب المذهبي - لم يستطيعوا التخلص من نظرتهم إليهم قبل إسلامهم ، فراحوا يعيرونهم بأنهم « الطلقاء وأبناء الطلقاء » ونسوا أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، بل وصل التحامل ببعضهم إلى حد اتهامهم بالكفر [1] .

ومن العجيب أن تلك النظرة لا زالت تتردد على أقلام بعض الباحثين والكُتّاب حتى عصرنا الحاضر ، فها هو الكاتب الإسلامي الشهير ، المرحوم الأستاذ سيد قطب ، الذي تعتبر مؤلفاته من أكثر الكتب الإسلامية رواجًا وتأثيرًا - وبصفة خاصة في عقول الشباب المسلم - يقول عنهم : « وبنو أمية في الإسلام هم بنو أمية في الجاهلية » [2] . ولم يكتفِ بوصفهم بالظلم والطغيان ، بل راح يشكك في عقيدتهم وإخلاصهم لدينهم [3] . فهل حقًّا لم يؤثر إسلام الأمويين في سلوكهم وأخلاقهم ؛ فظلوا على جاهليتهم ؟ وهل غاب ذلك عن رسول اللَّه ﷺ حين سُرَّ بإسلامهم وقربهم ، وأسند إلى كثير منهم أخطر الأعمال فيما يتعلق بمصير الدولة وأمنها ، بل فيما يتعلق بعقيدتها حيث اتخذ منهم كُتَّابًا للوحي ؟

ومثل آخر من تحامل المعاصرين على بني أمية ، يمثله المرحوم الأستاذ عباس العقاد في بعض كتاباته ، وبصفة خاصة كتابه « معاوية بن أبي سفيان في الميزان » حيث عمد إلى تجريح معاوية - الصحابي الجليل - ووصفه بصفات هي أبعد ما تكون عنه ، فالمصادر - حتى المعادي منها لبني أمية - تُجمِع على أن من أبرز صفات معاوية رضي الله عنه الحلم والتسامح والكرم ، وهي صفات جمعت القلوب وألفتها حوله ، وتجمع المصادر أيضًا على تسمية عام توليته الخلافة بعام الجماعة ، ويقول عنه : « ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح ، لما وصفه بغير مفرق الجماعات » [4] هذه أمثلة

---

(١) انظر على سبيل المثال ما يزعمه الجاحظ بهذا الصدد ، حيث يتهم معاوية بالكفر في رسالة له عن بني أمية ، ملحقة بكتاب - النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم - للمقريزي (ص٩٤) - وانظر أيضًا ما يقوله المقريزي نفسه المذكور (ص١٥-٣١) ، حيث يرمي الأمويين صراحة بالكفر ، والعياذ باللَّه .

(٢) سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص ١٨٥) .

(٣) المرجع السابق (١٨٢ - ٢١٦) .

(٤) (ص ٦٦) من الكتاب المشار إليه .

قليلة من حشد كبير من تحامل المعاصرين على بني أمية [١] .

وإذا كانت تلك آراء بعض المؤرخين والكُتَّاب في بني أمية ، فإن هناك فريقًا آخر كان لهم من الوعي الفكري والأمانة العلمية ما منعهم من الاندفاع وراء هذا التيار والانزلاق في متاهات التعصب الأعمى والجري وراء التقاط الشائعات والأكاذيب مثل خليفة بن خياط والطبري وأمثالهما ، ولكن المشكلة بالنسبة لهذا الفريق أنهم - من موقع الأمانة العلمية والحياد - قد دونوا في كتبهم كل ما وصل إليهم من روايات دون نقد أو تحليل - إلا في القليل النادر - ودون التمييز بين غثها وسمينها ، فحفلت كتبهم بحشد من الروايات المدسوسة والأخبار المتعارضة والآراء المتناقضة ، تاركين كل ذلك - على ما هو عليه - لفطنة الباحث وتمحيص الدارس وتحليل المتخصص ، ولم يفت مؤرخًا كبيرًا كالطبري أن ينبه إلى هذا في مقدمة كتابه ملقيًا تبعة ما في هذه الروايات والأخبار على الرواة ، فيقول : « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من بعض ناقليه إلينا ، وأنَّا إنما أدَّينا ذلك على نحو ما أدي إلينا » [٢] .

---

(١) ومن يريد المزيد من أمثلة تحامل المعاصرين على بني أمية فليقرأ أحدث كتاب يمس الموضوع ، وهو كتاب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي الذي طبع (في ١٩٨٤م) في دار غريب للطباعة بالقاهرة بعنوان « علي إمام المتقين » - الجزء الأول - والذي نشر قبل ذلك في جريدة الأهرام في مقالات أسبوعية ، كانت تظهر كل يوم أربعاء ابتداء من (٥ رمضان ١٤٠٣هـ) حتى (٩ ربيع الأول ١٤٠٤هـ) . وليقرأ كذلك مقالات الدكتور حسين مؤنس التي بدأ يكتبها في مجلة أكتوبر الأسبوعية ، تحت عنوان « تاريخ موجز للفكر العربي » ابتداء من العدد (٣٧١) بتاريخ (١٩٨٣/١٢/٤م) والتي حمل فيها على بني أمية حملة قاسية ، ووصفهم بأنهم « طواغيت » (ص ٢٦) من العدد (٣٧١) . ووسم حكومة معاوية ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك « بالظلم والطغيان والاستبداد » ، (ص٢٤) من العدد (٣٧٢) في (١٩٨٣/١٢/١١م) . والعجيب في الأمر أن الدكتور مؤنس يصور الخوارج - وهم المرفوضون والمدانون من الأمة بإجماع علماء أهل السنة - كما لو كانوا هم وحدهم الذين يمثلون الإسلام الصحيح ، وأن بني أمية كانوا هم الخارجين على الإسلام . وهكذا نرى أنه لا يزال بعض الباحثين يكيل التُّهم جزافًا لبني أمية ، ويستقي معلوماته عنهم من المصادر المتطرفة في عدائها لهم ، ويتجاهل - لا ندري لماذا - المصادر المحايدة والمعروفة بالاعتدال والنزاهة ، وأغلب ظني لو أن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي والدكتور حسين مؤنس قد اطلعا على كتب ؛ مثل كتاب « العواصم من القواصم » لابن العربي ، و « منهاج السنة النبوية » للإمام ابن تيمية ، لَغَيَّرا كثيرًا من أفكارهما وآرائهما عن بني أمية .

(٢) تاريخ الطبري (٢٥/١) . ولابن الأثير قول مماثل في مقدمة كتابه « أسد الغابة في معرفة الصحابة » (١٤/١) .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن للباحث المتجرد من الميول والأحكام المسبقة أن يستخلص التاريخ الصحيح ويستكشف وجه الحقيقة لعصر بني أمية ويضعهم في المكان اللائق بهم في مسيرة التاريخ الإسلامي .

وإنما يتأتى له ذلك بأمرين :

١ - تمحيص ما حفلت به المصادر الأصلية التقليدية كالبلاذري والطبري وابن الأثير ومن على شاكلتهم ، وذلك بمقارنة الحوادث ودراسة ظروفها ودوافعها ، وتحليل الروايات المتعارضة حولها ، وشخصيات القائمين بها والمشتركين فيها .

٢ - عدم الاعتماد على هذه المصادر التقليدية وحدها ، فهناك مصادر لا يلتفت إليها كثير من الباحثين ، وقد أثبتت التجربة في هذه الدراسة أن في كتب مثل : « العواصم في القواصم » لابن العربي ، و « منهاج السنة » لابن تيمية ، تفسير كثير من المواقف المنسوبة لبني أمية ، وكشف المغزى الحقيقي لعديد من القضايا مما يغير تلك الصورة القاتمة المرسومة عنهم في أذهان بعض الكُتّاب والدارسين .

هذا وستقوم دراستنا للعالم الإسلامي وأحداثه وقضاياه السياسية في عصر الدولة الأموية على أساس أنها - كغيرها من دول التاريخ - لها إيجابياتها وسلبياتها ، ولهذا فنحن نسلط الأضواء على جوانبها السياسية لمعرفة ما لها من حسنات وسيئات آخذين في الاعتبار الظروف التي كانت تعيشها وأن رجالها - كغيرهم من البشر - ليسوا معصومين من الوقوع في الخطأ .

كما أن هناك أمرًا ينبغي الحرص على الإشارة إليه وهو أن هذه الدراسة ستتناول أحداثًا وقضايا كان كثير من الصحابة - رضوان اللّٰه عليهم - أطرافًا فيها ، والصحابة كلهم عدول بتعديل اللّٰه ورسوله لهم ، والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الواردة في فضلهم وعدالتهم كثيرة [1] .

ولا يحتاج أحد منهم - بعد تعديل اللّٰه ورسوله لهم - إلى تعديل أحد من الخلق ، يقول ابن حجر : « على أنه لو لم يرد من اللّٰه ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصر الإسلام ... والمناصحة في

---

(١) انظر في فضائل الصحابة وعدالتهم : فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٤٨) وما بعدها . وصحيح البخاري (٢/٢٨٧) وما بعدها . وصحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٤٨) وما بعدها . وأسد الغابة لابن الأثير (١/٤) وما بعدها ، والإصابة لابن حجر (١/ ١٠) وما بعدها . ومنهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٢٦٠) وما بعدها .

الدين ، وقوة الإيمان واليقين - القطع على تعديلهم والاعتقاد على نزاهتهم ، وأنهم كافة أفضل من جميع الخالفين بعدهم » (١) .

ويقول ابن حزم : « الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعًا ، قال اللَّه تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] فثبت أن الجميع من أهل الجنة ، وأنه لا يدخل أحد منهم النار ؛ لأنهم المخاطبون بالآية السابقة » (٢) . ولكن هناك فرقًا بين العدالة والعصمة من الخطأ ، يقول ابن تيمية : « والقاعدة الكلية في هذا أن لا نعتقد أن أحدًا معصومًا بعد النبي ﷺ فالخلفاء وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ » (٣) فإذا نسب خطأ إلى هذا أو ذاك من الصحابة ، فلا يظنن أحد أن ذلك ينقص من قدرهم - حاشا للَّه - لأن من أخطأ منهم أخطأ مجتهدًا ، ولم يتعمد ذلك الخطأ .

وقد أخطأ بعض الصحابة أخطاء جسيمة في حياة النبي ﷺ فعفا عنهم ، ولم يؤثر ذلك في مكانتهم عنده ، فقد كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير الرسول ﷺ لفتح مكة ، ومع أن هذه جريمة عقوبتها الإعدام في كل القوانين - لأنه أفشى أسرارًا عسكرية للأعداء وقت الحرب - إلا أن الرسول ﷺ قَبِلَ عُذْرَه وعفا عنه (٤) . ثم أخطأ خالد بني الوليد في قتل من قتل من بني جذيمة بعد فتح مكة ، وقد غضب منه الرسول غضبًا شديدًا ، ورفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » (٥) فرسول اللَّه يبرأ من صنيع خالد ولكنه لم يبرأ من خالد نفسه ، بل اعتبر عمله اجتهادًا خاطئًا ودفع دية هؤلاء القتلى ، كل هذا يدل على وقوع الخطأ منهم ولكن خطأهم لا يمنع من عدالتهم .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المصادر الأصلية ، مثل : تاريخ خليفة بن خياط ، و « فتوح مصر » لابن عبد الحكم ، و « فتوح البلدان » للبلاذري ، وتاريخ الطبري ، و « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ، و « البداية والنهاية » لابن كثير ، و « البيان المغرب » لابن عذاري ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته وغيرها من مؤلفات

---

(١) الإصابة (١/ ١١) .
(٢) المصدر السابق (١/ ١١ ، ١٢) .
(٣) منهاج السنة (٣/ ١٧٦ - ١٧٧) .
(٤) ابن هشام ، السيرة (٤/ ١٧) .
(٥) المصدر السابق (٤/ ٥٤) .

أهل السنة المعتدلين ، ولم أغفل مصادر المؤرخين المعروفين بميولهم الشيعية ، مثل اليعقوبي والمسعودي وابن الطقطقا .

كما رجعت إلى أمهات كتب التراجم والطبقات ، مثل : طبقات ابن سعد ، و « فضائل الصحابة » لأحمد بن حنبل ، و « أسد الغابة » لابن الأثير ، و « الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر ، و « سير أعلام النبلاء » للذهبي ، وأهم كتب الحديث مثل صحيحي البخاري ومسلم ، ومن أهم الكتب التي أفادت منها هذه الدراسة : كتاب « العواصم من القواصم » لابن العربي ، وكتاب « منهاج السنة النبوية » لابن تيمية ، كما أنني رجعت إلى مؤلفات المحدثين في هذا الموضوع سواء أكانت عربية أم مترجمة من لغات أجنبية ، وأفدت منها كثيرًا .

ولقد كان العزم في البداية منعقدًا على أن يكون هذا الكتاب شاملًا لدراسة العالم الإسلامي في العصر الأموي من جميع جوانبه ، ولكن ضخامة المادة العلمية وتشعبها جعلتني أقصر الدراسة هنا على الناحية السياسية ، على أن تكون الناحيتان الاجتماعية والاقتصادية موضوع كتاب لاحق إن شاء الله .

ولهذا فقد قسمت الكتاب بعد هذه المقدمة إلى ستة فصول وخاتمة :

وكان الفصل الأول عن قيام الدولة الأموية ، والثاني عن خلفائها ، والثالث عن الفتوحات في هذا العصر وجهود الأمويين فيها وسياستهم في البلاد المفتوحة ، وتناول الفصل الرابع انتشار الإسلام في البلاد المفتوحة ، والخامس عن سياسة الأمويين في مواجهة الأحزاب المعارضة والثورات التي قامت ضد دولتهم ، وكان الفصل السادس عن سياستهم الداخلية وأسلوبهم الإداري في حكم العالم الإسلامي مع الإشارة إلى الأجهزة والدواوين والنظم ، وفي الخاتمة لخصت أبرز نقاط الكتاب والنتائج التي تضمنها .

وبعد ؛ فإن كنت قد وفقت إلى ما قصدت فالفضل والمنة لله وحده ، وإن كنت قد قصرت فالكمال لله وحسبي أنني حاولت ، والله من وراء القصد عليه توكلت وإليه أنيب .

عبد الشافي محمد عبد اللطيف

غرة رمضان سنة ١٤٠٤هـ

الأول من يونيو سنة ١٩٨٤م

العالم الإسلامي



في العصر الأموي



الفصل الأول

قيام الدولة الأموية

الفَصْلُ الأوَّلُ

قيام الدولة الأموية

شهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين :

ينتسب الهاشميون والأمويون إلى جد واحد هو عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة ، وكان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة في مكة ، لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش ، وجميع قريش تعرف ذلك ، وتسلم لهم الرياسة عليها [١] .

وترجع زعامة بني عبد مناف لمكة ورياستهم عليها إلى عهد جدهم قصي ابن كلاب بن مرة الذي استطاع إقصاء خزاعة عن زعامة مكة وتولى زمام الأمور فيها . يقول ابن إسحاق : « فولي قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهله فملكوه ، فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكًا أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ...» [٢] .

وهكذا جمع قصي في يده السلطتين الدينية والزمنية في مكة ، وأصبحت له السيادة عليها ، فلما كبر سنُّه خص ابنه الأكبر عبد الدار بما كان له من أمر مكة والبيت ، ولعل ذلك كان تعويضًا له عما فاته من ذيوع الصيت والشرف الذي كان لبقية إخوته . يقول ابن إسحاق : « فلما كبر قصي ورَقَّ عظمه وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب ، قال قصي لعبد الدار : أما واللَّه لألحقنك بالقوم ، وإن كانوا قد شرفوا عليك ، فأعطاه داره ، دار الندوة ، والتي لا تقضي قريش أمرًا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة » [٣] ، وبعد وفاة قصي ، وَفَّى أبناؤه لأخيهم الأكبر عبد الدار ولم ينازعوه في الأمر احترامًا لرأي أبيهم ، ولكن بعد وفاة عبد الدار وعبد مناف أجمع أولاد عبد مناف بن قصي – عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل – على أن يأخذوا ما بأيدي أبناء عمهم عبد الدار من أمر مكة والبيت ورأوا أنهم أولى بذلك لشرفهم وفضلهم في قومهم ، فنشأ بسبب ذلك نزاع

---

(١) انظر : عبد الملك بن حسين العصامي ، النجوم العوالي (٣/٢) .
(٢) سيرة ابن هشام (١٣٦/١ – ١٣٨) ، وانظر: أنساب الأشراف للبلاذري (٤٩/١) .
(٣) سيرة ابن هشام (١٤١/١) ، وأنساب الأشراف (٥٣/١) .

أدى إلى انقسام قريش إلى طائفتين : طائفة مالت إلى أبناء عبد الدار وعضدتهم ؛ ولعلها كانت ترى في ذلك محافظة على التقاليد والأعراف السائدة ، وطائفة مالت إلى أبناء عبد مناف ولعلها كانت تنظر إلى واقع الأمر من ارتفاع مكانة بني عبد مناف بين قومهم فرأت أنهم أولى وأحق بوظائف الكعبة وأمر مكة [١] ، وكاد النزاع يؤدي إلى حرب أهلية في مكة بين الفريقين ولكن عقلاء القوم خافوا عاقبة هذا النزاع وأثره على مكة كلها فتداركوا الأمر وسعوا في عقد صلح تقسم بمقتضاه الوظائف على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء اللَّه تعالى بالإسلام [٢] .

حصل أبناء عبد مناف على الرفادة والسقاية طبقًا لما تم الاتفاق عليه فخصوا بها أخاهم هاشم بن عبد مناف ؛ لأنه كان أكثرهم ثروة ، جاهًا ، وبعد وفاة هاشم صارتا للمطلب بن عبد مناف ، ثم لعبد المطلب بن هاشم ، ثم للزبير بن عبد المطلب ، ثم لأبي طالب بن عبد المطلب ، ثم للعباس بن عبد المطلب [٣] حتى جاء الإسلام والأمر على ذلك .

ومما تقدم يتضح لنا أن أبناء عبد مناف جميعًا ، ومنهم الهاشميون والعبشميون كانوا يدًا واحدة في نزاعهم مع أبناء عمهم عبد الدار حول مناصب الكعبة كما أنهم لم يختلفوا على تقسيم ما حصلوا عليه ، بل سلموه لأخيهم هاشم بن عبد مناف ؛ لما كان يتمتع به من يسار وسعة في الرزق . وهذا يؤكد أن العلاقات بين الهاشميين والأمويين قبل الإسلام كانت علاقات أخوة متينة وتضامن كامل . حتى جاء الإسلام فوقف معظم الأمويين موقف العداء من الدين الجديد وصاحبه ﷺ ، ثم هداهم اللَّه إليه فانخرطوا فيه يذودون عن بيضته ويشاركون في فتوحاته إلى أن قتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ، فبدأ النزاع بين علي بن أبي طالب ﷺ وبين معاوية ابن أبي سفيان ﷺ حول مقتل الخليفة والقصاص من قتلته مما سنفصله فيما بعد . ولكن بعض المؤرخين راح يؤصل هذا النزاع بين الهاشميين والأمويين ويعود إلى ما قبل الإسلام ، فألّف المقريزي كتابه الذي سماه « النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية

---

(١) سيرة ابن هشام (١/١٤٢ ، ١٤٣) . (٢) المصدر السابق (١/١٤٤) .

(٣) أنساب الأشراف (١/٥٧) وسيرة ابن هشام (١/١٤٧) .

وبني هاشم » ادعى فيه أن العداوة بينهم مستحكمة وقديمة [١] .

وهذا الذي ذهب إليه المقريزي وجاراه فيه كثير من الباحثين المحدثين [٢] لا سند له من التاريخ . وكل ما كان بين بني هاشم وبني أمية قبل الإسلام لم يكن يخرج عن المنافسة على الشرف والسيادة مثلما حدث بين أبناء عبد مناف بن قصي وعبد الدار ابن قصي - كما ذكرنا آنفًا - ولم يصل أمر المنافسة هذا إلى خصومة أو حرب بين الهاشميين والأمويين ، بل كانوا إذا تنافسوا في أمر تنافروا فيه والمنافرة نوع من أنواع الاحتكام إلى أحد الكهان - على عادتهم في الجاهلية - وكانوا يرضون بما يقضي به الكهان ، ومثل ذلك ما حدث بين هاشم بن عبد مناف وبين ابن أخيه أمية ابن عبد مناف يقول البلاذري : « كان أمية بن عبد شمس ذا مال ، فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم في إطعام قريش فعجز عن ذلك ، فشمت به ناس من قريش وعابوه لتقصيره ، فغضب ونافر هاشمًا على خمسين ناقة سود الحدق ، تنحر بمكة ، وعلى الجلاء عشر سنين ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي - وهو جد عمرو بن لحي ، وكان منزله عسفان - قضى الكاهن لهاشم على أمية ؛ فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين » [٣] .

هذا هو الذي يثبته التاريخ بين هاشم وابن أخيه أمية بن عبد شمس وهو كما قلنا نوع من الاحتكام أو التقاضي ، وكان أمرًا شائعًا بين العرب ، وكان الذي يؤدي إليه التنافس على الشرف والسؤدد ، ولم يكن وليد عداء مستحكم بين أبناء العمومة يمنعهم من التضامن والوقوف معًا عندما يواجههم خطر يهددهم جميعًا ، ولهذا وقفوا صفًّا واحدًا في حرب الفجار الأخيرة ، التي كانت بين قريش وكنانة وبين قيس غيلان والتي كانت قيادة قريش فيها لحرب بن أمية ، وقد شهدها رسول اللَّه ﷺ وعمره عشرون سنة ، وقال ﷺ عنها فيما بعد : « **كنت أنبل عن أعمامي** » ، أي : أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها [٤] .

بل لدينا من شواهد التاريخ ما يدل على قوة العلاقة بين بني هاشم وبني أمية ، فقد كان عبد المطلب بن هاشم - زعيم الهاشميين في عصره - صديقًا لحرب بن أمية -

---

(١) انظر : (ص ١١) من الكتاب المشار إليه .

(٢) انظر : على سبيل المثال : د . عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية (٢/ ١٥) .

(٣) أنساب الأشراف (١/ ٦١) .

(٤) ابن هشام (١/ ٢٠١) .

زعيم الأمويين - كما كان العباس بن عبد المطلب بن هاشم صديقًا حميمًا لأبي سفيان ابن حرب بن أمية ، وفي قصة إسلام أبي سفيان عند فتح مكة ، ودور العباس فيها أكبر دليل على ذلك كما سنذكره بعد قليل . والغريب أن المقريزي الذي ألف كتابًا خاصًا عن علاقات الهاشميين والأمويين وجعل محوره النزاع والتخاصم يعترف بالصداقة الوطيدة التي كانت بين العباس وأبي سفيان [١] ، فإذا كانت الصداقة قائمة ووطيدة بين زعماء البيتين - الأموي والهاشمي - وهم أبناء أب واحد ، هو عبد مناف ابن قصي ، فإن الحدس بتأصيل النزاع بينهما بعد الإسلام والرجوع به إلى ما قبل الإسلام لاسند له من التاريخ .

أما قصة إسلام أبي سفيان - قبيل دخول الرسول ﷺ مكة ، عام الفتح - ودور العباس فيها ، والذي يعتبر أكبر دليل على قوة العلاقة والمودة بين كبيري بني هاشم وبني أمية ، فملخصها - كما يرويها ابن إسحاق [٢] - : أن العباس بن عبد المطلب كان حريصًا على ألا يدخل رسول اللّٰه ﷺ مكة عنوة فخرج عله يجد أحدًا يبلغ أهلها بمسير رسول اللّٰه ﷺ على رأس جيشه لفتحها ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه ، فالتقى بأبي سفيان الذي كان بدوره قد خرج يتحسس الأخبار - وكان فرحه بذلك عظيمًا - فقال لأبي سفيان : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول اللّٰه ﷺ في الناس ، واصباح قريش واللّٰه ! قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قال : ... واللّٰه لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب هذه البغلة ، حتى آتي بك رسول اللّٰه ﷺ فأستأمنه لك . فأخذه إلى رسول اللّٰه ﷺ وما زال يستعطفه حتى صفح عنه ، ولم تهدأ نفس العباس حتى تم إسلام أبي سفيان على يدي رسول اللّٰه ﷺ فهذا الحرص من العباس على إسلام أبي سفيان وتأمينه إلى الحد الذي جعله يغلظ في القول لعمر بن الخطاب عندما استأذن النبي في ضرب عنق أبي سفيان ، عَلامَ يدل ؟ ألا يدل على حسن العلاقة بين أبناء العم ؟ ولم يكتف العباس بتأمين أبي سفيان ، بل ما زال بالرسول ﷺ حتى أعطى أبا سفيان ما لم يعطه أحدًا من قريش من ميزات .

قال العباس : قلت : يا رسول اللّٰه ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا ، قال : « **نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ،**

---

(١) انظر: النزاع والتخاصم (ص ٢٩) ، ويشير المقريزي إلى دور العباس في إسلام أبي سفيان وحرصه على ذلك .

(٢) انظر: القصة بتمامها في سيرة ابن هشام (٢٠/٤ - ٢٢) .

ومن دخل المسجد فهو آمن »[١] هذه القصة الثابتة تاريخيًا تسد الطريق على كل من يحاول أن يختلق عداوة وخصومة قديمة بين بني هاشم وبني أمية ، فلو كان هذا العداء قديمًا لما كانت أمام العباس فرصة أعظم من هذه ليقتل أبا سفيان ويتخلص منه أو يدع عمر يقتله ، ولكنه بذل قصارى جهده في الحفاظ على سلامته وإسلامه ، بل أغلظ لعمر في القول لما هَمَّ بقتله ، ولم يزل برسول الله ﷺ يستعطفه ويسترضيه ، حتى أخذ له منه الأمان ، ولما أسلم أخذ له منه امتيازًا على غيره ، كل هذا يدل على حسن العلاقة بين زعيمي فرعي عبد مناف : هاشم وأمية .

وقد وقف النبي ﷺ من بني أمية وأهل مكة جميعًا الموقف الذي يتناسب مع خُلقِه وعطفه ورحمته ، لا الموقف الذي يستحقونه ، بسابق كفرهم وعنادهم ، ونصبهم الحرب له ، فقد صارت حياتهم معلقة بكلمة منه قال لهم : « **يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟** » قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** »[٢] صدق من سماك بالمؤمنين رؤوف رحيم .

هذا موقف الرسول ﷺ من أهل مكة جميعًا بعد فتحها ، أما موقف بني أمية من الرسول ﷺ قبل الفتح فنحن ندينه ، ولا يستطيع أحد الدفاع عنه . ولكن هذا الموقف العدائي الذي وقفه معظم بني أمية من الرسول ﷺ والإسلام ، لم يكن ينبعث - في نظرنا - من عداء قديم مستحكم بين الهاشميين والأمويين ، وإنما كان بسبب المنافسة على الشرف والسؤدد في بيئة تقيم وزنًا كبيرًا لهذه الأمور ، فإذا كانوا قد تنافسوا ، وكادوا يقتتلون على أمور مثل السقاية والرفادة ... إلخ ؛ فكيف بالنبوة ، وهي شرف ما بعده شرف ؟! ولكنهم نسوا أن النبوة هبة من الخالق ﷻ يهبها لمن يشاء من عباده ، فهو وحده الذي يعلم حيث يجعل رسالته ، فالنبوة ليست من الأمور التي يدعيها الناس ويقتتلون عليها ، أو يخصون بها من يشاؤون من زعمائهم ، ولما زعموا أن الرسول ﷺ غير جدير بالرسالة ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] . رد الله تعالى عليهم هذا الزعم الباطل فقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

وهذا الموقف العدائي الذي وقفه معظم بني أمية من الرسول ﷺ ودعوته

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٢٠ - ٢٢) ونسب قريش (ص ١٢٢) .
(٢) ابن هشام المصدر السابق (٤/٣٢) .

شاركهم فيه كثيرون من بطون قريش ، مثل بني مخزوم وبني جمح وغيرهم ، كما شاركهم فيه عدد من بني هاشم أنفسهم ، فعداء أبي لهب عم النبي ﷺ وابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ، عداء هؤلاء للنبي لم يكن أقل من عداء أبي سفيان بن حرب وبني أمية له .

ومع أن الجميع أسلموا بعد فتح مكة وحسن إسلامهم وأبلوا بلاء حسنًا في نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله ؛ إلا أن بعض الناس نسي كل عداوات قريش للرسول ﷺ ولم يذكروا إلا عداء بني أمية ، وكأنهم وحدهم الذين وقفوا هذا الموقف ، ومع أن الإسلام يجب ما قبله ، إلا أن بعض ذوي الأهواء لا يريد أن يفهم ذلك ، ولا يكفون عن ذكر المواقف السيئة لبني أمية التي كانت قبل إسلامهم وكان القوم ما أسلموا أو ما جاهدوا في الله حق جهاده ، حتى إن هؤلاء المدعين لتأصيل العداوة بين البيتين قديمًا نسوا أن بعض بني أمية كانوا من السابقين إلى الإسلام ، بل إن عدد السابقين إلى الإسلام من بني أمية ربما كان أكثر من السابقين إليه من بني هاشم ، فقد كان عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية من السابقين إلى الإسلام ، وكذلك كان أبناء سعيد بن العاص ، خالد بن سعيد وعمرو بن سعيد ، من السابقين إلى الإسلام فقد أسلم خالد بن سعيد بن العاص وكان خامسًا في الإسلام كما تقول ابنته أم خالد : « كان أبي خامسًا في الإسلام - أي أسلم بعد أربعة سبقوه فقط - وهاجر إلى أرض الحبشة وأقام بها عشر سنين ، وولدت أنا بها » [١] . وكذلك أسلم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص وهاجر الهجرتين [٢] . ثم لحق بهما أخوهما أبان ابن سعيد [٣] . وكان خالد وأبان ابنا سعيد بن العاص من كُتَّاب الوحي للرسول ﷺ [٤] . ولكن رغم إسلام هؤلاء الرجال من بني أمية منذ البداية ، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة ، ورغم إسلام جميع بني أمية عند فتح مكة ، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم ، والاعتماد عليهم في جلائل الأعمال - كما سنذكره بعد قليل - إلا أن كل ذلك لم يشفع لهم عند أصحاب الأهواء ، حتى الكلمات الطيبة التي قالها الرسول ﷺ في معرض العفو العام عنهم ، وفي اليوم الذي سماه يوم بر ووفاء ، وهي

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٢٦٠/١) ، والإصابة لابن حجر (١٦/١) .

(٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٢٦١/١) ، والإصابة (١٦/١) .

(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٢٦١/١) ، والإصابة (١٥/١) .

(٤) أبو الحسن الخزاعي ، تخريج الدلالات السمعية (ص١٥٩) .

قوله ﷺ : « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » حتى هذه الكلمات ، جعل بعض الناس منها سُبَّة في جبين بني أمية وحدهم ، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء . ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وكانت لهم مواقف مشهودة في نصرة الإسلام في حياة الرسول ﷺ وبعده في الفتوحات في عهد خلفائه الراشدين ، يقول الإمام ابن تيمية ردًّا على صاحب كتاب « منهاج الكرامة » ، الذي يذم معاوية بأنه طليق ابن طليق : « وأما قوله : إنه الطليق فهذا ليس نعت ذم ، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح ، الذين أسلموا عام فتح مكة ، وأطلقهم النبي ﷺ وكانوا نحوًا من ألفي رجل ، وفيهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ويزيد بن أبي سفيان وحكيم بن حزام وأبي سفيان بن الحارث ، ابن عم النبي ﷺ الذي كان يهجوه ، ثم حسن إسلامه ، وعتاب بن أسيد ، الذي ولاه النبي ﷺ مكة لما فتحها ، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم . ومعاوية ممن حسن إسلامهم باتفاق أهل العلم ؛ ولهذا ولاه عمر ابن الخطاب ﷺ موضع أخيه يزيد بن أبي سفيان لما مات أخوه يزيد بالشام ... وعمر لم تكن تأخذه في الله لومة لائم ، وليس هو ممن يحابي في الولاية ، ولا كان ممن يحب أباه أبا سفيان ، بل كان من أعظم الناس عداوة لأبيه أبي سفيان قبل الإسلام ، حتى إنه لما جاء به العباس يوم فتح مكة كان عمر حريصًا على قتله ، حتى جرى بينه وبين العباس نوع من المخاشنة ، بسبب بغض عمر لأبي سفيان [1] ، فتولية عمر لابنه معاوية ليس لها سبب دنيوي ، ولولا استحقاقه الإمارة لما أمره ، ثم إنه بقي في الشام عشرين سنة أميرًا وعشرين سنة خليفة ، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له ، وهو أعظم الناس إحسانًا إليهم وتأليفًا لقلوبهم » [2] .

فتعبير الأمويين بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء يكشف عن الحقد الدفين عند بعض الغلاة من الشيعة وغيرهم . فَبَنُو أمية يدخلون في جملة مسلمة الفتح الذين وعدهم الله بالحسنى في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] .

---

(١) لم يكن بغض عمر لأبي سفيان ﷺ لسبب شخصي ، وإنما كان لعداوة أبي سفيان للإسلام قبل أن يسلم ، فلما أسلم وحسن إسلامه ، زال سبب عداوة عمر له ، بل إن عمر كان يحترم أبا سفيان لمكانته في قومه .

(٢) منهاج السنة (٢/٢٠٢) .

اللَّه ﷺ يعدهم بالحسنى جزاء قتالهم وجهادهم ، حتى مع تأخر إسلامهم ؛ رحمة منه ﷺ .

ولكن بعض أصحاب الأهواء من المؤرخين يأبى إلا أن يرميهم بالكفر (١) ، نعيذ أنفسنا وإياهم باللَّه من ذلك .

الأمويون في عهد النبي ﷺ :

ذكرنا - آنفًا - أن معظم الأمويين كانوا قبل فتح مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب في الجبهة المعادية للرسول ﷺ بل كانت لهم قيادة قريش وحلفائها في كل المعارك إلى أن كان فتح مكة فأسلموا جميعًا وحسن إسلامهم ، وبعد أن أسلموا وعرفوا حقيقة الإسلام وعظمته أدركوا جسامة الخطأ في تأخرهم عن الإسلام ، وأن هذا التأخير قد نزل بهم درجة عن السابقين ، كتب أبو سفيان لابنه معاوية بعد أن ولاه عمر ابن الخطاب ﷺ الشام خلفًا لأخيه يزيد ، فقال له : « يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخَّرنا ، فرفَعَهم سبقهم وقدَّمهم عند اللَّه وعند رسوله ، وقصر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا أتباعًا ، وقد ولَّوك جسيمًا من أمورهم فلا تخالفهم » (٢) .

فهذا كلام رجل مدرك لحقيقة موقفه وموقف أسرته ، نادم على تأخر إسلامه وإسلامهم ؛ لأن هذا التأخير قعد بهم عن مركز الصدارة الذي كانوا يحتلونه ، فلو أسلموا من البداية لكان لهم التقدم والقيادة ، وفي الحقيقة يمكن القول : إن أبا سفيان وسائر بني أمية الذين كانوا يتمتعون بمركز ممتاز في مكة قبل الإسلام قد تصوروا أن الإسلام خطر على مركزهم الاجتماعي والاقتصادي ؛ فقاوموه وصدوا الناس عنه ، ولو كانوا يعلمون أن الإسلام ما جاء إلا لينتشلهم من وهدة الشرك والوثنية إلى الوحدانية الحقة ، وليفتح أمامهم أبواب المجد الحقيقي لما أبطؤوا عنه . فلما تبين لهم ذلك ورأوا أمر الإسلام قد ظهر واتضح وعلموا أنه كان مع اللَّه إلهًا آخر لأغنى عنهم شيئًا - كما قال أبو سفيان - وشرح اللَّه صدورهم للإسلام ، أسلموا إسلام الشرفاء ، وأقبلوا على الإسلام يضاعفون جهودهم ليكفروا عن تأخيرهم وسابق

---

(١) انظر : ما يقوله المقريزي في كتابه النزاع والتخاصم (ص١٥) ، في جرأة عجيبة عن رجل من كبار التابعين ، ومن فقهاء المدينة المعدودين وهو عبد الملك بن مروان . يقول : « ... فإن عبد الملك بن مروان أبا الخلفاء من بني مروان أعرق الناس في الكفر ؛ لأن جده لأبيه الحكم بن أبي العاص ... وجده لأمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص » ثم يكرر الكلام نفسه في (ص٣١) .

(٢) البداية والنهاية (١١٨/٨)

عداوتهم ، ويعوضوا ما فاتهم من الجهاد مع رسول اللَّه ﷺ فألقوا بأنفسهم في معارك الإسلام الكبرى ، غير هيابين ولا وَجِلين ، واستشهد منهم من استشهد ، وهم كثيرون ، ولم يتوانَ من تأخر به الأجل عن خدمة الإسلام والإخلاص له .

وقد عرف النبي ﷺ للأمويين قدرهم ، فسُرَّ بإسلامهم ، ورحب بهم ، وأفسح لهم مكانًا في دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم . فقد أعطى الرسول ﷺ لأبي سفيان ميزة لم يعطها أحدًا من مكة ، حين قال : « **من دخل دار أبي سفيان فهو آمن** » وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان ، يدل على تقدير الرسول للزعماء وأصحاب الكلمة في قومهم . واستعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران استجابة لطلبه ، كما اتخذ ابنه معاوية كاتبًا له . روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن أبا سفيان طلب من النبي ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين ، وأن يجعل معاوية كاتبًا بين يديه فاستجاب له النبي ﷺ [(١)] . وكان أول والٍ على مكة - وهي أشرف بلاد اللَّه - بعد فتحها رجلًا من بني أمية ، هو عتاب ابن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس .

يروي ابن إسحاق عن زيد بن أسلم أنه قال : « لما استعمل النبي ﷺ عتاب ابن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهمًا ، فقال أيها الناس : أجاع اللَّه كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول اللَّه ﷺ كل يوم درهمًا فليست بي حاجة إلى أحد » [(٢)] .

كما استعمل رسول اللَّه ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادي القرى وتيماء وتبوك ، وقُبض رسول اللَّه ﷺ وعمرو عليها [(٣)] . كما استعمل الحكم بن سعيد بن العاص على سوق مكة [(٤)] ، واستعمل خالد بن سعيد ابن العاص على صنعاء [(٥)] ، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين ، وقُبِض رسول اللَّه ﷺ وهو عليها [(٦)] .

كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان ﷺ من كتاب الرسول ﷺ [(٧)] .

وخلاصة القول : فقد قُبض رسول اللَّه ﷺ ومعظم رجالات بني أمية على

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦٢/١٦) ، والبداية والنهاية (١١٩/٨) .
(٢) سيرة ابن هشام (٦٩/٤ - ١٤٩) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٩٧) .
(٣ - ٦) تاريخ خليفة بن خياط (٩٧/١) ، ومنهاج السنة (١٧٥/٣ ، ١٧٦) .
(٧) تخريج الدلالات السمعية لأبي الحسن الخزاعي (ص ١٥٩ - ١٦٢) .

مختلف الأعمال من الولاية والكتابة وجباية الأموال ، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر منهم [١] .

واستعمال النبي ﷺ لأكثر رجال بني أمية أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم ، فلو لم يكن الرسول ﷺ مطمئنًا إلى كفاءتهم وقدرتهم وأمانتهم لما عهد إليهم بعمل من الأعمال ؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يحابي أحدًا - حاشا لله - ولم يكن يستعمل إلا أهل الكفاية والأمانة ، فهو القائل : « **من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله** » [٢] .

وقد كان بنو أمية - الذين عملوا للرسول ﷺ - أهلًا للثقة التي أولاهم إياها ، وكانوا عند حسن ظنه بهم ، فلم نسمع أن أحدًا منهم خان أو غل أو قصَّر ، ولم يدَّعِ أحد من خصومهم شيئًا من ذلك [٣] . ولم نسمع أن الرسول ﷺ غضب على أحد منهم ، وحسبهم ذلك شرفًا وفخرًا .

الأمويون في عهد أبي بكر ﷺ :

لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ، وبويع أبو بكر الصديق ﷺ بالخلافة ، فسار على نهج الرسول ﷺ في استعمال بني أمية ، والاستعانة بهم في جلائل الأعمال ، وقد استجابوا للصديق ، ولكنهم فضلوا الجهاد في سبيل الله على الأعمال الإدارية . فاشتركوا في معارك الإسلام الكبرى في عهدي الصديق والفاروق ، سواء في حروب الردة ، أو في معارك الفتوح في الشام وفارس . حدَّث عمرو بن سعيد الأشدق أن أعمامه خالدًا وأبانًا وعَمرًا رجعوا من أعمالهم حين بلغهم موت رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله ﷺ ارجعوا إلى أعمالكم ، فأبوا ، وخرجوا إلى الشام فقتلوا ﷺ [٤] .

ولما عزم الصديق ﷺ على فتح الشام ، عقد لواء من الألوية الأربعة الرئيسية ليزيد ابن أبي سفيان ، أسوة بكبار الصحابة - أبي عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص

---

(١) منهاج السنة (١٧٥/٣)

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية (ص ١١) .

(٣) العجيب أن المقريزي الذي ألف كتابه « النزاع والتخاصم » وملأه بالتشنيع على بني أمية واتهامهم بأبشع التهم ، لم يستطع أن ينكر أن الرسول ﷺ استعمل بني أمية في سائر الأعمال ، فهل استعملهم وهم لا يستحقون ذلك ؟!

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٦٢/١) .

وشرحبيل بن حسنة - يقول الذهبي عن يزيد بن أبي سفيان : « وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم ، عقد له أبو بكر ، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه ، وما ذلك إلا لشرفه ، وكمال دينه » (١) . وقد نهض يزيد بمهمته على أحسن وجه ، وكان مثالًا للمجاهد المسلم ، بطلًا مقدامًا ، حميد السيرة حسن الأخلاق ، استمر في جهاده ، يفتح ويغزو ويعلي راية الإسلام ، حتى وافته منيته في طاعون عمواس ، في خلافة الفاروق سنة ١٨هـ . فتسلم الراية منه أخوه معاوية ابن أبي سفيان ﵄ الذي كان أبو بكر ﵁ قد أرسله ردءًا وعضدًا لأخيه يزيد ، فاضطلع بمهمة فتح سواحل الشام ، وكان له فيها ذكر حسن وأثر جميل (٢) .

أما أبوهما أبو سفيان ﵁ فقد كان كبر سنه ، ولم يقو على القتال ، ولكنه لم يرض أن يتخلف عن الغزو ومصاحبة جيوش الفتح ، فكان دوره تحريض المسلمين على القتال وبث روح الجهاد والتضحية فيهم ، وهو دور لا يقل أهمية عن دور المقاتلين ، يقول المصعب الزبيري - وعداء الزبيريين للأمويين معروف - : « ذكر سعيد بن المسيب عن أبيه قال : خفيت الأصوات يوم اليرموك إلا صوتًا ينادي : « يا نصر اللّه اقترب » فنظرت فإذا أبو سفيان تحت راية ابنه » (٣) . ويقول الطبري : « وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ، فيقول : اللّه اللّه ، إنكم ذادة العرب ، وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللّهم إن هذا يوم من أيامك ، اللّهم أنزل نصرك على عبادك » (٤) .

هذا هو أبو سفيان في مصادر التاريخ الإسلامي الموثوق بها ، ولكنه عند بعض الباحثين المحدثين رجل أسلم إسلام الشفة واللسان ، لا إيمان القلب والوجدان وما خالطت قلبه بشاشة الإيمان قط (٥) . ولا ندري كيف اطلع هذا الباحث على قلب صحابي من صحابة رسول اللّه - تجمع المصادر على أنه أسلم وحسن إسلامه - حتى عرف إن كان الإيمان خالطه أم لا ؟

جاهد أبو سفيان وبنوه وأهله في سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم ، ووعدهم اللّه

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٢٨/١) وما بعدها ، وانظر كذلك : تاريخ خليفة بن خياط (ص ١١٩) ، وأسد الغابة (٤٩١/٥) .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان (ص ١٦٦) وما بعدها .

(٣) نسب قريش (ص ١٢٢) .

(٤) الطبري (٣٩٧/٣) .

(٥) سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام (ص ١٨٣) .

بالحسنى ، ووعده حق . ومن يرى غير ذلك فحسابه على الله .

وكان على رأس أحد جيوش أبي بكر إلى الشام بطل آخر من أبطال بني أمية ، وهو خالد بن سعيد بن العاص ، الذي استشهد هو وإخوته - كما ذكرنا آنفًا - في معارك المسلمين مع الروم .

وهكذا استمر الأمويون يعملون في عهد أبي بكر ، مجاهدين في سبيل الله ، مفضلين ميادين القتال على الأعمال الإدارية ، ولو كانوا يبحثون عن المناصب والجاه والمال لقعدوا في ولاياتهم وأعمالهم الإدارية كما طلب منهم أبو بكر .

الأمويون في عهد عمر بن الخطاب ﷺ :

عندما توفي الصديق ﷺ في جمادى الآخرة سنة ١٣هـ ، وبويع الفاروق بالخلافة سار على نهج صاحبيه في استعمال بني أمية والثقة فيهم ، فلم يعزل أحدًا منهم من عمل ، ولم يجد على أحد منهم مأخذًا ، والكل يعرف صرامة عمر ، وتحريه أمر ولاته وعماله ، وتقصيه أعمالهم وأخبارهم ، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم ، فاستمرارهم في عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم ، فقد بقي يزيد بن أبي سفيان واليًا على دمشق . كما زاد عمر في عمل معاوية بالشام ، فقد ضم إليه ولاية حمص فوق ما كان يتولاه من أعمال مدن الساحل .

ومما يجدر ذكره هنا أن عمر عزل عن حمص صحابيًّا جليلًا من كبار الصحابة وزهادهم ، هو عمير بن سعد ﷺ ، وكان عمر يسميه « نسيج وحده » ولم يعزله لخيانة ، ولكنه كان يريد رجلًا أقوى منه ، فاختار معاوية لقدرته وحزمه وحسن أدائه للأمور . ومما يزيدك يقينًا بكفاية معاوية أن عمير بن سعد نفسه شهد له شهادة حق ، فقد روى عنه أنه قال : لا تذكروا معاوية إلا بخير ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **اللَّهم اهْدِ به** » [1] .

وكما أسند عمر ولاية الشام لمعاوية خلفًا لأخيه يزيد بن أبي سفيان سنة ١٨هـ . كذلك استعمل عمر ﷺ رجلًا آخر من رجالات بني أمية وهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط . فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ١٥هـ [2] أن الوليد بن عقبة كان أميرًا

(١) البداية والنهاية (١٢٢/٨) ، ويروى أن الذي شهد هذه الشهادة لمعاوية أمير المؤمنين عمر ، فإن كان هو الذي شهدها له وروى دعاء رسول الله ﷺ لمعاوية بأن يهدي الله به ، فذلك أمر عظيم لعظم مكانة عمر . انظر العواصم . هامش (ص ٨٣) .

(٢) تاريخ الطبري (٦٠٢/٣) .

على بلاد تغلب وعرب الجزيرة ، يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام ؛ لئلا يؤتوا من خلفهم ، فانتهز الوليد فرصة وجوده وولايته على هذه الجهات ، التي كانت مليئة بنصارى القبائل العربية ، فأخذ مع جهاده الحربي والإداري ، يدعو إلى دين اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على اعتناق الإسلام .

وهكذا استمر الأمويون في خلافة الفاروق ، وكانوا من خيرة عماله ، وعلى كثرة محاسبة عمر للولاة والعمال وعزل بعضهم بسبب التقصير أو الإهمال ، فقد بقي معاوية طوال خلافته في عمله مواجهًا للروم واقفًا لهم بالمرصاد ، ضابطًا لعمله قائمًا فيه بالقسط ، مرضيًّا عنه من الرعية ومن الخليفة .

الأمويون في خلافة عثمان ﷛ :

تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد استشهاد عمر ﵄ في أواخر ذي الحجة سنة ٢٣هـ ، وذلك طبقًا للمنهج الذي وضعه عمر قبل وفاته لاختيار من يخلفه في إمارة المؤمنين ، وحيث لم يكن هناك نظام ثابت ، أو قاعدة محددة مقررة لشغل منصب الخلافة ، فإن هذه القضية تقع في دائرة الاجتهاد ، وتبادل الآراء والمشورة للوصول إلى أفضل الطرق لشغل هذا المنصب الخطير . ولقد فكر عمر ﷛ طويلًا في هذا الأمر وقلَّبه على جميع الوجوه وهو يعاني من آلام الطعنة الغادرة التي سددها إليه أبو لؤلؤة المجوسي ، فاستبعد أن يعهد إلى شخص بعينه ، كما صنع أبو بكر معه ، ولا بد أن عمر كان مقتنعًا بأن هذه الطريقة لم تعد ملائمة ، كما أنه لم يشأ أن يترك المشكلة بدون حل والأمة بدون إمام ؛ فهداه تفكيره إلى أسلوب جديد ، وهو جعلها شورى بين ستة من كبار الصحابة ، الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة وتوفي وهو عنهم راضٍ ، وهم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد اللَّه ، والزبير بن العوام ، رضي اللَّه عنهم جميعًا .

وبعد مشاورات طويلة ، وفي جو من الحرص التام على مصلحة الأمة ، وعلى جمع الكلمة في هذا الوقت العصيب ، الذي صاحب موت الفاروق ﷛ ، وقع الاختيار على عثمان بن عفان ﷛ ؛ فاختيار عثمان جاء ثمرة التشاور بين كبار الصحابة من أهل الشورى ومن غيرهم ، وهم جميعًا أهل لهذه المسؤولية وأمناء على مصالح الأمة ومستقبلها ، لا يتطرق الشك إلى إخلاصهم وسلامة نواياهم .

والطريقة التي اختير بها عثمان ﷛ أحيطت بكل الضمانات التي تكفل الوصول

إلى شغل منصب الخلافة ، وبأسرع ما يمكن ؛ لتستمر مسيرة الأمة .

وعلى كل حال عرضنا هنا بإيجاز موضوع اختيار عثمان وبيعته وخلافته في هذا البحث ؛ لنكشف زيف ما يثيره البعض حول علاقة بني أمية بموضوع اختيار عثمان ﷺ من ناحية ، واستغلالهم لخلافته للتمكين لأنفسهم في الدولة الإسلامية ؛ تمهيدًا للوثوب إلى منصب الخلافة نفسه في نهاية الأمر من ناحية ثانية ؛ فقد جنح الخيال ببعض الباحثين إلى القول بأن الدولة الأموية قامت بالفعل في عهد عثمان [(١)] . وسيتضح لنا أن هذا القول لا يستند على أساس من الواقع التاريخي ، ولا يقوم عليه دليل مقنع .

ففيما يتعلق بالنقطة الأولى ، وهي علاقة بني أمية باختيار عثمان لمنصب الخلافة ، فإننا نقرر أن المصادر الإسلامية الموثوق بها لا تمدنا بأية معلومات عن أي دور لبني أمية في هذا الاختيار ؛ لأن هذا الأمر كان موكولًا لكبار الصحابة من السابقين ، بل إلى عدد محدود منهم ، وهم الستة الذين رشحهم عمر ، وحصر الأمر فيهم ليختاروا واحدًا منهم ، فاختاروا عثمان ، ولما بايعه أهل الشورى بايعه المسلمون الموحدون في المدينة من صحابة وتابعين ، ولم يتخلف عن بيعته أحد [(٢)] . ولما صارت بيعتهم له إلى الأمصار بايعه الناس كلهم ، ولم يتخلف أحد ، ولم يعترض أحد . فالزعم بأنه كان لبني أمية دور في ذلك زعم لا يسنده أي دليل ، ولن نطيل الوقوف عند هذه النقطة ؛ فالحق فيها واضح بيِّن .

أما النقطة الثانية ، وهي استغلال بني أمية لخلافة عثمان ، واستحواذهم على الولايات الكبرى ، وعلى النفوذ في الدولة كلها ؛ فهي التي تستحق البحث والتمحيص لبيان وجه الحق فيها ؛ لأنها كانت أكبر المآخذ التي ادعاها خصوم عثمان ﷺ وأثاروا عليه الناس بسببها ، وشغبوا عليه وقتلوه ظلمًا من أجلها ، ونكبوا الإسلام والمسلمين بجريمتهم الشنعاء ؛ حيث حصروا أمير المؤمنين ، ومنعوا عنه الماء ، وهو الذي كان

---

(١) يقول سيد قطب في كتابه « العدالة الاجتماعية في الإسلام » (ص ١٩٤) - ما نصه : « مضى عثمان إلى رحمة ربه ، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل ، بفضل ما مكن لها في الأرض وبخاصة في الشام ، وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية العريقة المجافية لروح الإسلام من الاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع ... إلخ .

(٢) منهاج السنة (١٤٣/١) - وانظر قصة الشورى وبيعة عثمان بتمامها في الطبري (٢٢٧/٤) وما بعدها .

قد اشترى بئر رومة للمسلمين من ماله الخاص ، ليشربوا منه ، وكان دلوه كسائر دلائهم وقتلوه وهو يقرأ القرآن .

فهل مكن عثمان فعلًا لبني أمية في الدولة الإسلامية ، ومهد لقيام الدولة الأموية ؟ عندما توفي عمر وبويع عثمان ﷺ ، كان على رأس الولايات الكبرى في الدولة الإسلامية : المغيرة بن شعبة في الكوفة ، وأبو موسى الأشعري في البصرة ، ومعاوية ابن أبي سفيان في الشام ، وعمرو بن العاص وعبد اللَّه بن سعد في مصر (١) . وقد بقي هؤلاء الولاة على ولاياتهم في مطلع خلافة عثمان دون تغيير يذكر ، ثم بدأ التغيير ، فلماذا وكيف غيَّر عثمان بعض ولاته ؟ وسنقصر كلامنا على هذه الولايات الأربع الكبرى ؛ لأهميتها ، ولأن التغيير شمل معظمها ومنها جاءت الشكوى والفتنة ، وسنبدأ بمصر .

ولاية مصر في عهد عثمان :

كان على مصر في بداية عهد عثمان أميران ، هما : عمرو بن العاص وعبد اللَّه ابن سعد بن أبي سرح . يقول ابن عبد الحكم : « فتوفي عمر - رحمة اللَّه عليه - ومصر على أميرين : عمرو بن العاص بأسفل الأرض ، وعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح على الصعيد » (٢) . فلما توفي عمر ، أبقى عثمان الأمر على ما كان عليه ، لكن عمرو بن العاص طلب من عثمان عزل عبد اللَّه بن سعد ، وأن يفرده وحده بولاية مصر . فأبى عثمان ، فاستعفاه عمرو فأعفاه ، وهذه رواية ابن عبد الحكم عن الليث ابن سعد ، حيث يقول : « وطمع عمرو بن العاص لما رأى من عثمان أن يعزل له عبد اللَّه بن سعد عن الصعيد ، فوفد إليه وكلمه في ذلك ، فقال له عثمان : ولاه عمر بن الخطاب الصعيد ، وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة ، وقد علمت أنه أخي في الرضاعة ، فكيف أعزله عما ولاه غيري ؟ فغضب عمرو وقال : لست راجعًا إلا على ذلك . فكتب ابن عفان إلى عبد اللَّه بن سعد يُؤَمِّره على مصر كلها ، فلبث عبد اللَّه بن سعد عليها أميرًا محمودًا ، وغزا فيها ثلاث غزوات كلهن لها شأن : إفريقية والأساور وذات الصواري » (٣) .

---

(١) انظر الطبري (٢٤١/٤) - وتاريخ خليفة (ص ١٥٥) وفتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ١١٨) - والكندي كتاب الولاة وكتاب القضاة (ص ١١) .

(٢) فتوح مصر (١١٨) .

(٣) فتوح مصر (ص ١١٨ - ١١٩) وانظر الولاة والقضاة للكندي (ص ١١) .

هذه رواية مؤرخ مصر الإسلامية ابن عبد الحكم - عن فقيهها الليث بن سعد - ويؤيده فيها الكندي ، ومنها يتضح أن عثمان لم يعزل عمرًا ، وإنما هو الذي أبى العودة إليها إلا على شرط الانفراد بها فكأنه استقال من ولايته ولم يعزل .

ولكن الأمر صور عند بعض الباحثين على غير حقيقته ، فزعموا أن عمرًا كان واليًا وحيدًا على مصر ، ولم يذكروا شيئًا عن ولاية عبد اللّه بن سعد على الصعيد من قبل عمر بن الخطاب ، وادعوا أن عثمان عزل عمرًا وولاه على مصر ؛ لأنه أخوه من الرضاعة محاباة له . والقصد من هذا واضح ، وهو تعميق الإحساس عند الناس بأن أمر الولاية والعزل في عهد عثمان لم يكن يخضع لاعتبارات الأمانة والمصلحة العامة ولكن كان لإرضاء الأقرباء وتحقيق سيطرتهم على مقاليد الحكم في الدولة ، وأن هؤلاء الأقرباء لم يكونوا أهلًا للولاية .

وإليك ما يقوله مؤلف كتاب « الفتنة الكبرى » بهذا الصدد : « فإذا تركنا الشام ، ومضينا نحو الغرب انتهينا إلى مصر ، وكان عمر قد ترك عمرو بن العاص واليًا عليها ، فأقره عثمان ، كما أقر غيره من عمال عمر وقتًا ما . ولكن العام الأول من ولاية عثمان لم يكد ينقضي حتى جعلت قرابة عثمان تنظر إلى مصر نظرة لا تخلو من طمع فيها وطموح إليها ، والناس يختلفون في عزل عمرو عن مصر ، وتولية عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح عليها ، فقوم يزعمون أن المصريين شكوا عمرًا إلى عثمان فعزله عنهم ، وآخرون يزعمون أن عمرًا لم يعزل لسخط المصريين عليه أو ضيقهم به ، وإنما هو الكيد ؛ عزل أميرًا وولى مكانه أميرًا آخر . والشيء البين من أحاديث الرواة هو أن عثمان كان يرشح عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح ، أخاه من الرضاعة لأمر عظيم » [١] .

فالشيء البيِّن لدى هذا الكاتب هو أن عثمان كان يرشح أخاه لأمر عظيم ، وأن هذا الأمر العظيم هو ولاية مصر ، التي انتزعها من عمرو بن العاص - في رأيه - وأسندها إلى أخيه . ولم يذكر لنا الكاتب من هم هؤلاء الرواة ولا ما هي أحاديثهم التي استقى منها هذا الأمر البيِّن ؟ ولم يذكر شيئًا عن ولاية عبد اللّه بن سعد على الصعيد من قبل عمر بن الخطاب ؛ ليوحي للقارئ أن عثمان جاء بأخيه ووضعه على هذه الولاية الخطيرة ؛ لمجرد أنه أخوه .

ولا ندري إذا كان هذا الكاتب يعتبر ابن عبد الحكم والكندي - وهما من أوثق

(١) انظر الفتنة الكبرى د . طه حسين . عثمان (ص ١٢٢) .

المصادر في تاريخ مصر الإسلامية - من الرواة أم لا ؟ ولماذا أعرض عن ذكرهما لولاية عبد الله بن سعد على الصعيد منذ عهد عمر بن الخطاب ﷺ ؟ .

وعبد اللَّه بن سعد عند ابن عبد الحكم والكندي والذهبي أمير محمود السيرة ؛ يقول الذهبي عنه : « عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح العامري قائد الجيوش ، أبو يحيى القرشي العامري ... وكان فارس بني عامر ، المعدود فيهم ، غزا إفريقية ... » [1] .

ولكنه عند مؤلف « الفتنة الكبرى » شخص آخر تمامًا ، غير الذي يعرفه علماء المسلمين ، فهو يقول عنه : « ولم يكن عبد اللَّه بن سعد رجل صِدق ، ولم يكن المسلمون يرضون عنه » [2] ويذكر بعد ذلك ردته وسخريته بالقرآن - بعد أن كان من كتاب الوحي - وإهدار الرسول ﷺ دمه يوم فتح مكة .

وهذا كله حق لا ريب فيه ، ولكن الحق الذي لا ريب فيه كذلك أن الرجل أسلم يوم فتح مكة ، وحسن إسلامه ، وعفا عنه الرسول ﷺ . يقول عنه الذهبي : «إن عبد اللَّه بن سعد أسلم يوم الفتح ، ولم يعد ولا فعل ما ينقم عليه بعدها ، وكان أحد عقلاء الرجال وأجوادهم » [3] . والذهبي مؤرخ ومحدِّث ومن علماء الرجال ، فلو كان في إسلام عبد اللَّه بن سعد بعد الفتح أي مطعن لما سكت عليه . ولو كان عبد اللَّه بن سعد رجلًا غير صادق ما أسند إليه عمر بن الخطاب عملًا ، ولكن بعض المغرضين لا يكفون بين الحين والآخر عن ترديد نفس المزاعم الباطلة والافتراءات التي كان السبئية يرددونها عن عثمان بن عفان وولاته ؛ قصدًا إلى تشويه حقائق التاريخ أو قصورًا منهم عن استيعاب أحداثه .

ولاية الكوفة في عهد عثمان :

كانت الكوفة من الولايات التي حدث فيها التغيير ، وانبعثت منها الفتنة في عهد عثمان ﷺ ، فلماذا كان التغيير ؟ وكيف نشأت الفتنة ؟

عند وفاة عمر ﷺ كان المغيرة بن شعبة واليًا على الكوفة ، فعزله عثمان في السنة الأولى من خلافته .

وولى مكانه سعد بن أبي وقاص ، عملًا بوصية عمر بن الخطاب ؛ حيث قال عند

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٣/٣) - وانظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٩) ، والكندي - الولاة والقضاء (ص ١١) وما بعدها .

(٢) الفتنة الكبرى ، عثمان (ص ١٢٤) . (٣) سير أعلام النبلاء (٣٤/٣) .

موته : « أوصي الخليفة من بعدي أن يستعمل سعد بن أبي وقاص ؛ فإني لم أعزله عن سوء ، وقد خشيت أن يلحقه من ذلك وكان أول عامل بعث به عثمان سعد ابن أبي وقاص على الكوفة ، وعزل المغيرة بن شعبة » [١] .

مكث سعد بن أبي وقاص في ولاية الكوفة عامًا وبعض عام ، واليًا على صلاتها وحربها ، وعبد اللَّه بن مسعود على خراجها – أي على بيت المال – ثم نشأ خلاف بينهما بسبب قرض اقترضه سعد من بيت المال حين طالبه عبد اللَّه بن مسعود بتسديده ، وتطور الخلاف إلى ملاحاة بالكلام ، وارتفع أمرهما إلى عثمان فغضب عليهما ، وهمَّ بهما – كما يروي الطبري – لكنه ترك ذلك ، واكتفى بعزل سعد ، وولَّى مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو أخوه لأمه ، وهو في الوقت نفسه من البيت الأموي .

وكانت ولاية الوليد على الكوفة من أسباب الطعن على عثمان ، والشغب عليه من دعاة الفتنة الذين اتهموه بأنه ولى أقرباءه وترك كبار الصحابة .

وحقيقة الأمر أن القضية لم تكن ولاة عثمان وقرابتهم منه ، وما نسب إليهم من أعمال ولفِّق لهم من تهم ، لم يكن كل ذلك سبب الفتنة ؛ وإنما كانت هناك أيد خفية تنسج خيوطها للفتك بدولة الإسلام ، لا بالخليفة وحده ، وسيتضح لنا ذلك جليًّا مما سنذكره من أحداث . لقد كان الوليد بن عقبة واليًا لعمر بن الخطاب على تغلب وعرب الجزيرة – كما ذكرنا سابقًا . وإذن فهو رجل ليس من عامة القوم ، بل من المشهود لهم بالكفاءة والعدل وقوة العزيمة ويؤيد ذلك ما قام به من أعمال عظيمة في ولايته لعمر ، وما كان له من أيادي في خدمة الإسلام ، فاختيار عثمان له بعد ذلك كان عن تجربة سابقة أهلته لولاية أخطر الأمصار وأكثرها شغبًا ، فلقد كانت الكوفة منبع المتاعب والفتن منذ عهد عمر ﷺ ، فقد ضج منهم عمر وبرم بهم ؛ لكثرة شغبهم على الولاة ، وروي عنه قوله : « لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير » [٢] .

يروي الطبري عن الشعبي : أن الكوفة كانت أول مصر نزغ الشيطان بينهم في الإسلام [٣] ؛ لأنهم شغبوا على أميرهم الوليد بن عقبة واتهموه بأقبح التهم ، مع أن الرجل كان كما يروي ثقاة المؤرخين من خيرة الولاة ، ومن أهل الجهاد والغزو والعدل

(١) تاريخ الطبري (٤/٢٤٤) .
(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (٣/٣٢) .
(٣) تاريخ الطبري (٤/٢٥١) .

والصلاح . يقول الطبري : « فقدم الكوفة وكان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم ، فكان ذلك خمس سنين ، وليس على داره باب » [١] . ويقول : « كان الوليد أدخل على الناس خيرًا . حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ، ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك » [٢] . ويقول : « كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن الفيض بن محمد قال : رأيت الشعبي جلس إلى محمد بن عمر بن الوليد - ابن عقبة - فذكر غزو مسلمة - ابن عبد الملك - فقال : كيف لو أدركتم الوليد غزوه وإمارته ! إن كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا ، ما قصر ولا انتقض عليه أحد ، حتى عزل عن عمله » [٣] . هذا هو الوليد بن عقبة كما يراه علماء الأمة ومؤرخوها ، فماذا فعل معه أهل الكوفة ؟ وماذا تقولوا عليه ؟

لقد افتروا عليه كثيرًا من الافتراءات ، ولفقوا له تهمًا باطلة ، كان أخطرها اتهامه بشرب الخمر ، وقد شهدوا عليه بذلك عند عثمان وأقام عليه الحد ، وعزله عن الكوفة ، فهل كانت هذه التهمة صحيحة ؟

إن المصادر التي تناولت هذه القصة تشير إلى أن هذه التهمة باطلة ، لفقها قوم موتورون ؛ لأن الوليد أقام الحد على أبنائهم بسبب جريمة سرقة ارتكبوها . وملخص القصة كما يرويها الطبري : «أن بعض شباب أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي داره ثم قتلوه . وأحاط الناس بهم ، فأخذوهم ، وفيهم زهير بن جندب الأزدي ، ومورع بن أبي مورع الأسدي ، وشبيل بن أبي الأزدي ، في عدة ، فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه ... فقتله بعضهم ، فكتب الوليد فيهم إلى عثمان ، فكتب إليه في قتلهم ، فقتلهم على باب القصر في الرحبة » [٤] .

ولكن آباء هؤلاء القتلة الذين قتلوا قصاصًا حقدوا على الوليد ، وأخذوا يتجسسون عليه ، ويتربصون للإيقاع به ، حتى كان لهم ما أرادوا في نهاية الأمر .

يقول الطبري : « فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورع وجندبًا ، وهم يحقدون له مذ قتل أبناءهم ، ويضعون له العيون ، وقال لهم : هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد ؟ [٥]

---

(١) تاريخ الطبري (٢٥٢/٤) . (٢) تاريخ الطبري (٢٧٧/٤ ، ٢٧٨) .

(٣) تاريخ الطبري (٢٧٤/٤) - وانظر ترجمة الوليد بن عقبة في نسب قريش (ص ١٣٨) وأسد الغابة (٤٥١/٥) وسير أعلام النبلاء (٤١٢/٣) والبداية والنهاية (٢١٤/٨) .

(٤) تاريخ الطبري (٢٧١/٤ ، ٢٧٢) .

(٥) أبو زبيد شاعر جاهلي إسلامي ، كان يقيم عند أخواله بني تغلب أثناء إمارة الوليد بن عقبة على =

فثاروا في ذلك ، فقال أبو زينب وأبو مورع وجندب لأناس من وجوه أهل الكوفة : هذا أميركم ، وأبو زبيد - الشاعر - خيرته ، وهما عاكفان على شرب الخمر ، فقاموا معهم - ومنزل الوليد في الرحبة ، وليس عليه باب - فاقتحموا عليه من المسجد وبابه إلى المسجد ، فلم يفجأ الوليد إلا بهم ، فنحى شيئًا فأدخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره ، فإذا طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه استحياء أن يروا طبقه ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فقاموا فخرجوا على الناس ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وسمع الناس بذلك . فأقبل الناس عليهم يسبونهم ويلعنونهم » [١] . إلى هذا الحد يصل الافتراء والمكر وسوء الأدب بهؤلاء القوم فيقتحمون على الأمير داره دون إذن منه . وهو أمر في حد ذاته منافٍ تمامًا لآداب السلوك الإسلامي وتعاليم الشريعة السمحة مع عامة الناس ، فكيف بالأمير وهو لم يكن يعاقر خمرًا أو يرتكب إثمًا ؟! ولما علم الناس بفعلتهم سبوهم ولعنوهم . ومع سوء صنيعهم ، فقد كان الوليد كريمًا معهم حليمًا عليهم ؛ فلم يفضحهم ، وتغاضى عن فعلتهم .

يقول الطبري : « فستر عليهم الوليد ذلك ، وطواه عن عثمان ، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء ، وكره أن يفسد بينهم ، فسكت عن ذلك وصبر » [٢] .

ولكنهم لم يكونوا أهلًا للعفو والصفح ؛ فقد تأصل الحقد والغل في قلوبهم ، ولهذا أخذوا في مواصلة المكيدة للأمير وجندوا بعضًا من الذين كان قد عزلهم عن بعض الأعمال ، وأوعزوا إليهم بالذهاب إلى عثمان ﷺ في المدينة ، واتهام الوليد بشرب الخمر ، فلما كلموا عثمان في ذلك ، قال لهم : من يشهد ؟ قالوا : أبو زينب وأبو مورع ، فاستدعاهما ، وقال لهما : كيف رأيتما ؟ قالا : كنا من غاشيته ، فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر ، فقال : ما يقيء الخمر إلا شاربها ، فبعث إليه ، فذهب إليه وحلف أنه ما شرب ، وأنهم كاذبون ، وأخبره خبرهم ، ولكن عثمان قال له : « نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار ، فاصبر يا أخي » فأمر سعيد بن العاص فجلده [٣] .

= بلادهم ، كان وقع عليه ظلم واضطهاد ، فأخذ له الوليد بحقه ، فشكرها له ، وانقطع إليه . فلما ولي الوليد الكوفة أتاه مسلمًا معظمًا على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة ، وكان يغشى مجلس الوليد كثيرًا للمودة التي كانت بينهما فلفقت لهما هذه التهمة الخطيرة . انظر الطبري (٤/٢٧٣) .

(١) تاريخ الطبري (٤/٢٧٤) . (٢) المصدر السابق (٤/٢٧٤) .

(٣) نفسه (٤/٢٧٦) - وانظر القصة بتمامها في نفس المصدر (٤/٢٧٢ - ٢٧٨) .

ثم عزله عن ولاية الكوفة ، وهكذا ذهب الحقد والكيد والوشاية برجل من خيرة الولاة ، حزمًا وعزمًا وغزوًا وإحسانًا للناس ، حتى لقد اعتبر عزله عن الكوفة مصيبة عند صلحاء أهلها ، وبكاه الأحرار والمماليك .

وهكذا كان الوليد بن عقبة عند كبار المؤرخين ، ولكنه عند الدكتور طه حسين شيء آخر فهو يقول : « وجملة القول أن الوليد إنما كان رجلًا من قريش ، أسلم إسلامًا ظاهرًا ، واحتفظ بجاهليته كلها ... ومهما يكن من شيء فقد عزل الوليد ، وذوو الرأي في الكوفة ضيقون به ساخطون عليه » (١) .

ولا ندري كيف اطلع هذا الرجل على قلب الوليد - بعد هذه القرون الطويلة - حتى عرف أن إسلامه كان ظاهريًا فقط ، وأنه احتفظ بجاهليته كلها ؟ ومن أي مصدر عرف أن ذوي الرأي في الكوفة كانوا ضيقين به ، ساخطين عليه ؟ مع أن الطبري يقول : « ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك » (٢) .

ثم كيف يستعمل أبو بكر وعمر ﭬ رجلًا كان إسلامه ظاهريًا ويثقون فيه ، وأمامهما آلاف من المسلمين ؟ فهل خدعهما الوليد حتى جاء صاحب الفتنة الكبرى ليكشف لهما أنهما كانا مخدوعين فيه ؟!

ولمصلحة مَنْ يُشوَّه التاريخ الإسلامي ، وتُلطخ سمعة رجاله وقواده الأبطال الذين حملوا راياته ورفعوها عالية خفاقة ؟ وهل هناك أمة تصنع بأبطال تاريخها ، كما نصنع نحن بأبطال تاريخنا ؟ فبدلًا من أن ندرس سيرتهم وأمجادهم لأبنائنا حتى يشبوا على الرجولة والفضيلة ، نقدمهم لهم جاهلين منافقين ، مقترفين لما حرم الله .

ولاية سعيد بن العاص على الكوفة :

عزل عثمان بن عفان الوليد بن عقبة عن الكوفة سنة (٣٠هـ) ، وولى عليها سعيد بن العاص ، فلما دخلها وجدهم بشرِّ حال ، وقد أطلت الفتنة فيها بخطمها وعينيها . كما جاء في أول تقرير بعثه إلى الخليفة بعد وصوله مباشرة ، حيث جاء فيه : « إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها » (٣) .

---

(١) الفتنة الكبرى ، عثمان (ص ٩٨ - ١٠٠) .
(٢) تاريخ الطبري (٢٧٨/٤) . (٣) المصدر السابق (٢٧٩/٤) .

لقد وقع البلاء إذن بين أهل الكوفة ، ونبتت فيها الفتنة ، وأفرخت ، حتى اصطلى المسلمون جميعًا بنارها ، وفي مقدمتهم الخليفة المظلوم نفسه . فقد غلب عليها أجلاف العرب ، الذين لم يتشرفوا بصحبة الرسول ﷺ ولم يتأدبوا بآدابه وقد وجد فيهم عبد اللّٰه بن سبأ ضالته ، ونفث فيهم سمومه ، وأشعل بينهم نار الفتنة التي لم يستطع أحد إطفاءها .

كان رد عثمان ﷺ على رسالة سعيد بن العاص : « أما بعد ؛ ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح اللّٰه عليهم تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعًا لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به . وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعطهم جميعًا بقسطهم من الحق ، فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل » (١) .

« فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية ، فقال : أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبئ عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة ، وخلة ذي الخلة ، وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف ، وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره ، فكأنما كانت الكوفة يبسًا شملته نار ، فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم ، وفشت القالة والإذاعة » (٢) .

يتضح من هذا حرص الخليفة وواليه على الكوفة على إقامة الحق والعدل ، ومعرفة أقدار الناس والإحسان إليهم وسد حاجاتهم ، كما أن سعيدًا اتخذ من القراء والصالحين بطانة وسمارًا ، مما يدل على رغبته في العدل والإصلاح . ولكن خطة التآمر مضت في طريقها تفسد كل رغبة في الإصلاح ، ففشت قالة السوء واضطرمت الكوفة نارًا .

أمام هذا الوضع المتدهور في الكوفة ، لم يجد سعيد بن العاص بدًّا من الكتابة إلى عثمان ﷺ يشرح له الموقف . فجمع عثمان الناس في مسجد الرسول ﷺ ووضح لهم الأمر ، وأخبرهم بأن إذاعات السوء قد فشت في الكوفة ، واستشارهم ، فأجمعوا على أخذهم بالشدة والحزم وعدم التساهل ، ونصحوه بألا يطمعهم فيما ليسوا له بأهل ؛ لأن الأمور إذا نهض بها من ليس لها بأهل أفسدها . ولكن عثمان ﷺ كان لديه إحساس بخطورة الموقف دل عليه قوله لهم : « يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا ؛ فقد دبت إليكم الفتن » (٣) .

(١ ، ٢) المصدر السابق (٢٧٩/٤) . (٣) المصدر السابق (٢٧٩/٤ ، ٢٨٠) .

نعم دبت الفتن ، وأشار الناس على الخليفة بالحزم والضرب على أيدي العابثين ، الذين أخذوا يعكرون صفو الأمة . ولكن الخليفة يرحمه اللَّه غلب عليه اللين والعطف ، فلم يقابل الأمر بما كان يستحقه ، فاستمرأ هؤلاء القوم هذا اللين ، ومضوا في غيهم وضلالهم ، يتزعمهم في ذلك الأشتر النخعي ويزيد بن قيس .

جمع عثمان ﷺ عماله : معاوية بن أبي سفيان ، وعبد اللَّه بن سعد وسعيد بن العاص ، وعبد اللَّه بن عامر ، وأدخل معهم عمرو بن العاص ، ليشاورهم في الأمر ، وأشار كل واحد بما يراه لإصلاح الأحوال [١] . ولما أزمعوا العودة إلى أعمالهم ، وسار سعيد بن العاص إلى الكوفة ، سبقه إليها الأشتر ؛ ليفسد قلوب الناس عليه وعلى الخليفة ، ويوغر صدورهم فقال لهم : إن سعيدًا عازم على إنقاص أعطياتكم . « ويزعم أن فيأكم بستان قريش . فاستخلف الناس ، وجعل أهل الحجى ينهونه فلا يسمع منهم » [٢] .

نجح الأشتر في تأليب الناس ، وأحيا فيهم النزعة العصبية البغيضة ، فمنعوا سعيدًا من دخول الكوفة ، وأعدوا له من الذين استهوتهم الفتنة ، واستخفهم الأشتر ، وتزعم الذين خرجوا لمنع سعيد من دخول الكوفة يزيد بن قيس ، ولم يخرج معهم أحد من أهل الصلاح ، بل بقي حلماء الناس وأشرافهم ووجوههم في المسجد ، وذهب من سواهم - وعمرو بن حريث يومئذٍ خليفة ، أي خليفة سعيد على الكوفة - فصعد المنبر ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، وقال : اذكروا نعمة اللَّه عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا ، بعد أن كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . فلا تعودوا في شر قد استنقذكم اللَّه ﷻ منه ، أبعد الإسلام وهديه وسنته لا تعرفون حقًّا ولا تصيبون بابه ؟! » [٣] .

ضاع هذا الصوت ، كما ضاعت كل الأصوات العاقلة في بيداء الفتنة . وعزم الأشرار على منع سعيد من دخول الكوفة ، فرجع إلى المدينة وأخبر عثمان بما حدث معه ، فقال له عثمان : فماذا يريدون ؟ قال : أظهروا أنهم يريدون البدل ، قال : فمن يريدون ؟ قال : أبا موسى الأشعري . قال : أثبتنا أبا موسى عليهم ، واللَّه لا نجعل

---

(١) أشار عبد اللَّه بن عامر بشغل الناس بالغزو والجهاد ، وأشار سعيد بن العاص بأخذهم بالشدة . وأشار معاوية برأي قريب من رأي سعيد ، وهو إعادة العمال إلى أعمالهم وليؤدب كل منهم أهل الشر والشقاق في ولايته ، وأشار عبد اللَّه بن سعد بتأليف قلوبهم بالمال . انظر الطبري (٣٣٤/٤) .

(٢) المصدر السابق (٣٣١/٤) . (٣) المصدر السابق (٣٣٢/٤) .

لأحد عذرًا ، ولا نترك لهم حجة ، ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون [١] .

وهكذا كان حرص الخليفة على إصلاحهم وإجابة مطالبهم وعلى إيثار العافية لهم وللأمة ، فلم يعمد إلى القسوة مع أنها كانت مطلوبة ؛ بل ضرورية في مثل هذه الحالة ، ولم يغضب عليهم لطرد واليه ومنعه من دخول ولايته ، بل قبل مطلبهم .

وكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ؛ فقد أمَّرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد ، والله لأفرشن لكم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي . فلا تدعوا شيئًا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم عليَّ حجة » [٢] .

فهل هناك ديمقراطية - في القديم أو الحديث - توخاها حاكم فصنع مثلما صنع الخليفة عثمان مع أهل الكوفة ؛ حيث لم يدع طريقًا يؤدي إلى صلاحهم إلا التزمها . فنزل على رغبتهم وعزل الوالي الذي رفضوه وعين لهم من اختاروه وأحبوه .

ولكن هؤلاء القوم لم يكونوا يبغون إصلاحًا ، بل كانوا أهل فساد وإفساد ، وكانت خطتهم تآمر وكيد للإسلام والمسلمين ، وسوف نحاول هنا البحث عن الحقيقة لكشف أبعاد مؤامرتهم وبواعثها وأهدافها ؛ حتى يمكن تصحيح بعض المواقف التي لا زالت غامضة في التاريخ الإسلامي ، وتنقيتها من الزيف والتشويه الذي لحق بها ، وحتى يعرف المسلمون تاريخهم كما يجب أن يعرفوه .

وقبل أن نتناول هذه الحركة وأطرافها التي أشعلت الفتنة وأغرقت الأمة الإسلامية في بحر من الدماء ينبغي أن نعرف ماذا كان من أمر البصرة . بعد أن عرفنا أمر مصر والكوفة ؛ حتى نلمَّ بجميع أطراف الموقف كله .

ولاية البصرة في عهد عثمان :

كانت البصرة من الولايات التي حدث فيها تغيير للولاة في عهد عثمان ، وكان ذلك من أسباب اشتراك أهلها مع أهل الكوفة والفسطاط في الشغب عليه .

كان أبو موسى الأشعري واليًا على البصرة عند وفاة عمر ، واستمر عليها في عهد عثمان إلى أن عزله سنة (٢٩هـ) بناءً على طلب أهلها وشكواهم منه ، ويذكر الطبري في سبب عزله : أن أهل إيذج والأكراد كفروا - أي نقضوا الصلح -

---

(١) المصدر السابق (٤/٣٣٢) .
(٢) المصدر السابق (٤/٣٣٦) .

« فنادى أبو موسى في الناس ، وحضهم وندبهم ، وذكر فضل الجهاد في الرجلة - أي أن يسير المرء راجلًا لا راكبًا - حتى حمل نفر على دوابهم ، وأجمعوا على أن يخرجوا رجالًا . وقال آخرون : لا والله لا نعجل بشيء حتى ننظر ما صنعيه ؛ فإن أشبه قوله فعله فعلنا كما فعل أصحابنا . فلما كان يوم خرج أخرج ثقله من قصره في أربعين بغلًا ، فتعلقوا بعنانه ، وقالوا : احملنا على بعض هذه الفضول ، وراغب من الرجلة فيما رغبتنا فيه ، فقنع القوم حتى تركوا دابته ومضى . فأتوا عثمان ، فاستعفوه منه ، وقالوا : ما كل ما نعلم نحب أن نقول ، فابدلنا به » [1] .

وعلى عادة عثمان ﷺ في الاستجابة لرغبات أهل الولايات ، عزل أبا موسى الأشعري بناء على رغبة أهل البصرة ، وولى عبد الله بن عامر وهو : « عبد الله بن عامر ابن كريز بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف الأمير أبو عبد الرحمن القرشي العبشمي الذي فتح إقليم خراسان . رأى النبي ﷺ وروى عنه حديثًا في : « **من قتل دون ماله** ... » [2] . وهو ابن خال عثمان ، وأبوه عامر بن عمة رسول الله ﷺ البيضاء بنت عبد المطلب ... وكان من كبار ملوك العرب وشجعانهم وأجوادهم ، وكان فيه رفق وحلم » [3] .

ويقول ابن كثير [4] : « ولد - عبد الله بن عامر - في حياة رسول الله ﷺ وتفل في فيه ، فجعل يبتلع ريق رسول الله ﷺ فقال : « **إنه لمسقاء** » فكان لا يعالج أرضًا إلا ظهر له الماء ، وكان كريمًا ممدوحًا ميمون النقيبة ، استنابه عثمان على البصرة بعد أبي موسى ، ففتح خراسان كلها ، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وبلاد غزنة » [5] .

ولما علم أبو موسى بعزله وتولية عبد الله بن عامر ، قال لأهل البصرة : « قد أتاكم فتى من قريش كريم الأمهات والعمات والخالات ، يقول فيكم بالمال هكذا وهكذا » [6] .

---

(١) الطبري (٤/٢٦٥) ، ابن الأثير (٣/٩٩) .

(٢) الحديث بتمامه : « من قتل دون ماله فهو شهيد » صحيح مسلم بشرح النووي (٢/١٦٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/١٨ ، ٢١) . انظر البداية والنهاية (٨/٨٨) ، طبقات ابن سعد (٥/٤٤) ، نسب قريش (١٤٧ ، ١٤٨) ، المعارف (٣٢٠) ، أسد الغابة (٣/١٩١) ، الكامل في التاريخ ، (٣/ ٩٩) ، الطبري (٤/٢٦٤) وما بعدها .

(٤) البداية والنهاية (٨/٨٨) .

(٥) هذه الأقاليم فتح معظمها في عهد عمر ﷺ ، ولكن بعد استشهاده كثر الانتقاض من أهلها في عهد عثمان فكان عمل ابن عامر ردهم إلى الطاعة وتثبيت الفتوحات .

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/١٩) وتاريخ خليفة (١٦١) .

وقد بقي عبد اللّه بن عامر واليًا على البصرة ، حوالي ست سنوات (٢٩ - ٣٥هـ) . وهو من خيرة ولاتها ، وكان غازيًا مجاهدًا ، تصدى لكل محاولات الانتقاض من جانب الفرس . وقد امتدت فتوحاته إلى ما وراء النهر - يقول البلاذري : « ففتح ابن عامر ما دون النهر - نهر جيحون - فلما بلغ أهل ما وراء النهر أمره طلبوا إليه أن يصالحهم ففعل ، فيقال : إنه عبر النهر حتى أتى موضعًا موضعًا . وقيل : بل أتوه فصالحوه ، وبعث من فيض ذلك ، فأتته الدواب والوصفاء والوصائف والحرير والثياب ثم أحرم للّه شكرًا » [١] .

فما هو العيب إذًا في هذا الوالي الكفء المجواد ، الذي كان من كبار ملوك العرب وشجعانهم كما يقول الذهبي ؟

لا عيب إلا أنه كان قريبًا لعثمان ! وإذا كان قريبًا لعثمان ، فهو قريب للنبي ﷺ فجدته لأبيه البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم .

ولاية الشام في عهد عثمان :

توفي عمر ﷺ ومعاوية أمير على الشام كله [٢] . واستمر على ولايته في عهد عثمان ، ومعاوية في الواقع قد اضطلع بالعمل في الشام منذ مطلع خلافة الصديق ، حيث أرسل ردءًا لأخيه يزيد بن أبي سفيان - كما سبقت الإشارة إليه - في سنة ١٢هـ . وقد أبلى معاوية بلاء حسنًا في فتوحات الشام ، وبخاصة في فتح منطقة الساحل ، التي ظل واليًا عليها ، ثم ضم له عمر بن الخطاب ولاية حمص ، وبعد وفاة أخيه يزيد عيَّنه عمر مكانه ، ثم جمع له الشامات كلها .

وأقره عثمان عليها ؛ فظل واليًا قائمًا بأمر ولايته خير قيام ، متصديًا لأعداء الدولة في الداخل والخارج ، بحزم لا لين فيه وعزيمة لا تعرف الكلل ، ساهرًا على أحوال رعيته في يقظة ، يقوِّم معوجها في رفق وعدل ، ويلمُّ شاردها في سرعة ومضاء ، ومما يشهد له بحسن الإدارة والفضل والفخر أنه أنشأ أثناء خلافة عثمان الأسطول الإسلامي الذي غزا به جزيرة قبرص وهزم البيزنطيين في موقعة ذات الصواري سنة (٣٤هـ) .

ولهذا فلم يكن هناك ما يبعث على الشكوى ضد معاوية لا في عهد عمر ولا في عهد عثمان .

---

(١) فتوح البلدان (ص ٥٠٤) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٢٧/٣) .

(٢) خليفة بن خياط - تاريخ (ص ١٥٥) - وأبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم (ص ٨٠) .

ولم يشترك أحد من أهل الشام في تلك الفتنة التي راح ضحيتها الخليفة عثمان ﷺ .

وخلاصة القول أن ولاة عثمان كانوا من خيرة أكفاء الرجال وإذا ما تجاوزنا تلك الهنات التي قلما يسلم منها إنسان أيًّا كان موقعه فإننا لا نجد عند واحد منهم ما يقدح في دينه أو أمانته في خدمة الإسلام والسهر على رعاية دولته .

ولم يستطع أحد من الذين نقموا على عثمان تولية هؤلاء الرجال ، أن يقيم بينة على خطأ كبير أو ظلم وقع على إنسان ، أو تعطيل لحد من حدود اللَّه ، وكل ما أثاروه كان كيدًا للإسلام وتآمرًا على رجاله مَن نوع ما لفَّقوه للوليد بن عقبة وإشاعات السوء ملؤوا بها البلاد على هؤلاء الولاة الذين لا ذنب لهم إلا أنهم من أقرباء عثمان . وإذا كانت تولية الأقرباء من أكبر المآخذ على عهد الخليفة عثمان ، فلماذا لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لعهد الإمام علي ﷺ ؟ أم أن الهوى هو الذي حكم على الشيء نفسه أن يكون معيبًا في عهد ومحمودًا في عهد آخر ؟!

يقول ابن تيمية : « ومن العجب أن الشيعة ينكرون على عثمان ، ما يدَّعون أن عليًّا كان أبلغ فيه من عثمان ، فيقولون : إن عثمان ولَّى أقاربه من بني أمية ، ومعلوم أن عليًّا ولَّى أقاربه من أبيه وأمه . كعبد اللَّه بن العباس ، فولَّى عبيد اللَّه بن العباس على اليمن ، وولَّى على مكة والطائف قثم بن العباس ، أما المدينة فقيل : ولَّى عليها سهل ابن حنيف ، وقيل ثمامة بن العباس ، وأما البصرة فولَّى عليها عبد اللَّه بن العباس ، وولَّى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر ، الذي تربى في حجره .. ثم إن الإمامية تدعي أن عليًّا نص على أولاده في الخلافة ، وولده على ولده الآخر ، وهلم جرًّا .

ومن المعلوم أنه إن كانت تولية الأقربين منكرًا ، فتولية الخلافة العظمى أعظم من إمارة بعض الأعمال ، وتولية الأولاد أقرب إلى الإنكار من تولية بني العم »[1] .

ثم إن عليًّا ولَّى زياد بن أبي سفيان ، والأشتر النخعي ، ومحمد بن أبي بكر « وأمثال هؤلاء ، ولا يشكُّ عاقل أن معاوية بن أبي سفيان كان خيرًا من هؤلاء كلهم »[2] .

ثم إن هؤلاء الذين ولَّاهم عثمان ، كان معظمهم ممن ولَّاهم الرسول ﷺ - كما أشرنا آنفًا - واستعملهم أبو بكر وعمر ، فاقتدى عثمان بفعلهم .

ومما يزيد هذا الأمر إيضاحًا قول ابن تيمية [3] : « ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش

---

(١) منهاج السنة (١٧٣/٣ ، ١٧٤) . (٢) المصدر السابق (١٧٣/٣) .

(٣) المصدر السابق (١٧٥/٣ ، ١٧٦) ، وانظر كذلك تاريخ خليفة بن خياط (ص٩٧) ، وتخريج =

فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس ؛ لأنهم كانوا كثيرين ، وكان فيهم شرف وسؤدد ، فاستعمل في عزة الإسلام على أفضل الأرض - مكة - : عتاب ابن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، واستعمل على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية ، واستعمل أيضًا خالد بن سعيد بن العاص على صدقات مذجح وعلى صنعاء اليمن ، فلم يزل حتى مات رسول الله ﷺ واستعمل عمرو بن سعيد بن العاص على بعض السرايا ، ثم استعمله على البحرين فلم يزل عليها بعد العلاء بن الحضرمي حتى توفي رسول الله ﷺ .

فيقول عثمان : أنا لم أستعمل إلا من استعمله رسول الله ﷺ ومن جنسهم ومن قبيلتهم ، وكذلك أبو بكر وعمر بعده ، فقد ولَّى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان ابن حرب في فتوح الشام ، وأقره عمر ، ثم ولى عمر بعده أخاه معاوية ، وهذا النقل عن النبي ﷺ في استعمال هؤلاء ثابت ومشهور عنه ، بل متواتر عند أهل العلم ، ومنه متواتر عند علماء الحديث ، ومنه ما يعرفه العلماء منهم ، ولا ينكره أحد منهم ، فكان الاحتجاج على جواز الاستعمال من بني أمية بالنص الثابت عن النبي ﷺ أظهر عند كل عاقل من دعوى كون الخلافة في واحد معين من بني هاشم بالنص ؛ لأن هذا كذب باتفاق أهل العلم بالنقل ، وذلك صدق باتفاق أهل العلم بالنقل » .

وغني عن البيان أن الإمام ابن تيمية لا يقصد - كما لا نقصد نحن كذلك - أن ينتقد عليًّا ﷺ ، ولا أن يقول : إنه أتى منكرًا حين ولَّى أقرباءه ، وإنما يريد أن يفضح أهل الأهواء الذين يكيلون بكيلين مختلفين ، فإذا ولَّى عثمان أقرباءه فهذا إثم كبير ، وإذا ولَّى علي أقرباءه فهذا عمل عظيم ، وليس هذا من الإنصاف في شيء .

وخلاصة القول أن عثمان ﷺ لم يول أحدًا من أقربائه لهوًى في نفسه ، أو لأنه ترك من كان يجد خيرًا منه ، وكيف يفعل ذلك وهو قد سمع رسول الله ﷺ يقول : « **من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولَّى رجلًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله** » (١) ؟! وإنما كانت تولية هؤلاء أو عزلهم تقوم على اجتهاده الخاص في حدود تعاليم الشريعة ، فإن كان مصيبًا فله أجران ، وإن كان مخطئًا فله أجر ، ولم يكن الأمر يختلف بالنسبة للإمام علي عن ذلك .

يقول أبو بكر بن العربي (٢) : « الولايات والعزلات لها معانٍ وحقائق لا يعلمها

= الدلالات لأبي الحسن الخزاعي (ص ١٥٩ - ١٦٢) .

(١) ابن تيمية - السياسة الشرعية (ص ١١) . (٢) العواصم من القواصم (ص ٢٤٣ - ٢٤٤) .

كثير من الناس ، لقد علمتم أن رسول الله ﷺ مات عن زهاء اثني عشر ألفًا من الصحابة معلومين ، منهم ألفان أو نحوهما ، مشاهير في الجلالة ، ولّى منهم أبو بكر سعدًا وأبا عبيدة ويزيد وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، ونفرًا غيرهم فوقهم ، وولّى أنس بن مالك ، ابن عشرين سنة على البحرين ؛ اقتداءً برسول الله ﷺ في عتاب [1] . ومتى كان استوفى المشيخة حتى يأخذ الشبان ، وولى عمر كذلك ، وبادر بعزل خالد ؛ وذلك كله لفقه عظيم ، ومعارف بديعة بيانها في موضعها من كتب الإمامة والسياسة والأصول » .

فالعلة في الحقيقة في الطعن على ولاة عثمان ، والنقمة عليهم - لم تكن بسبب ظلم وقع منهم على أحد ، ولو كانت هذه هي العلة ، لكان في عزل الولاة الذين كانت الشكوى منهم ما يسد تلك الذريعة ؛ فقد عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة وولّى سعيد بن العاص ، ولما رفضوا سعيدًا عزله وعين لهم بدله من اختاروه وهو أبو موسى الأشعري ، فلم يقنع الثائرون الذين أثاروا الفتنة وعكروا صفو الأمة الإسلامية بذلك ، ولم يرعووا عن غيِّهم وإفسادهم ، ولا عادوا إلى رشدهم وصوابهم [2] ، بل كلما لان لهم الخليفة ونزل على رغباتهم تمادوا في ضلالهم ، وازدادوا عتوًّا وعقوقًا ؛ لأنهم لم يكونوا يبحثون عن حقٍّ ولا يسعون إلى رفع ظلم ، وإنما كانوا يبحثون عن مطامع شخصية ، وكانوا يطمعون فيما ليسوا له بأهل ، فلما لم يصلوا إلى ذلك ملأ الحقد قلوبهم ، وصمموا على إفساد أمر الأمة الإسلامية ، وقد أصاب ابن خلدون كبد الحقيقة في وصف الذين أثاروا الفتنة على عثمان وعماله حين قال : « وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار - البصرة والكوفة ومصر - جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ولا هذبتهم سيرته وآدابه ، ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان ، وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار ، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب ، السابقين الأولين إلى الإيمان ، فاستنكفوا عن ذلك وغصوا به ؛ لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ، ومصادمة فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة ، وقبائل كندة والأزد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا إلى الغض من قريش

١ يقصد عتاب بن أسيد فقد كان شابًا حين ولاه النبي ﷺ مكة كما أشرنا سابقًا .
٢ ابن خلدون - المقدمة (٢/٦٢٠) .

والأنفة عليهم والتمريض [١] في طاعتهم ، والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم ، والطعن فيهم بالعجز عن السوية [٢] ، والعدول في القسم عن التسوية ، وفشت المقالة بذلك ، وانتهت إلى المدينة ، وهم من علمت ، فأعظموه وأبلغوه عثمان ، فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر ، بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم ، فلم ينكروا على الأمراء شيئًا ، ولا رأوا عليهم طعنًا ، وأدوا ذلك كما علموه ، فلم ينقطع الطعن من أهل الأمصار ، وما زالت الشناعات تنمو . ورمي الوليد بن عقبة - وهو على الكوفة - بشرب الخمر ، وشهد عليه جماعة منهم ، وحدَّه عثمان وعزله ، ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال ، وشكوا إلى عائشة وعلي والزبير وطلحة ، وعزل لهم عثمان بعض العمال ، فلم تنقطع ألسنتهم » [٣] .

المؤامرة الكبرى على الأمة الإسلامية :

عرفنا أن ولاة عثمان ﷺ كانوا من خيرة الرجال ، لم يقترفوا خطأ من الأخطاء التي تتنافى مع الدين أو الأمانة - كما شهد بذلك علماء الأمة - غير أن الذين أشعلوا نار الفتنة صمموا على تنفيذ خطتهم بالكيد للأمة الإسلامية وإغراقها في بحر من الدماء . ولقد استطاعت هذه القلة الحاقدة - مع الأسف - أن تفسد الأمر كله على الكثرة من أصحاب النوايا الطيبة ، بل إنها تمكنت من استغلال بعضهم لصالحها - أحسن استغلال - وسخرتهم في تنفيذ مؤامرتها .

ولقد كان من سوء الطالع أن ظهرت على مسرح الأحداث شخصية - اتفقت أهدافها مع أهداف تلك القلة الحاقدة - فقامت بدور كبير في إذكاء نار الفتنة وإشعال أوارها ، هذه الشخصية هي :

عبد الله بن سبأ :

كان ابن سبأ يهوديًّا من صنعاء ، وكانت أمه سوداء ، ولهذا قيل له : « ابن السوداء » . وقد كان هذا اليهودي يمتلئ حقدًا على الإسلام والمسلمين فبيَّت في نفسه أمرًا لتخريب دولة الإسلام ، فبدأ تخطيطه الخبيث بادعاء الإسلام - في عهد عثمان - ليسهل عليه تحقيق ما أراد ، ثم أخذ يتنقل في الأمصار يتصيد فرائسه

(١) المقصود بالتمريض هنا : التوهين والإضعاف .
(٢) السوية : الاستواء والاستقامة .
(٣) المقدمة (٢/٦١٩ ، ٦٢٠) .

ويجندهم لتنفيذ خطته ، وقد وجد ضالته في هؤلاء الذين وصفهم ابن خلدون فسمم أفكارهم ، وألَّبهم على الخليفة وعماله ، أو قل : وجد عندهم الاستعداد للتخريب فلم يضيع الفرصة ؛ « فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام [(١)] ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما يقول : العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذِّب أن محمدًا يرجع ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . قال : فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها . ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر [(٢)] . فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعةً ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون ... فأتوا (أهل المدينة) عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله ، ما جاءني إلا السلامة ، قالوا : فإنا قد أتانا ... وأخبروه بالذي أسقطوا عليه ، قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليَّ » [(٣)] .

قبل أن نرى بماذا أشار أهل المدينة على الخليفة لتدارك هذه الفتنة ينبغي أن نتدبر

---

(١) هذه شهادة من الطبري على أن أهل الشام لم يشتركوا في الفتنة ، وهي في الوقت نفسه شهادة لمعاوية ﷺ بأنه كان ضابطًا لولايته ، يقظًا حذرًا ، لم يعط فرصة لابن سبأ أن يفسد عليه أمره .

(٢) الطعن على الأمراء إذن لم يكن سوى ذريعة ووسيلة لتحقيق الهدف وهو الأمر الذي يدعو إليه ابن سبأ وهو خلع عثمان ﷺ أو قتله .

٣ الطبري - تاريخ (٤/٣٤٠ ، ٣٤١) .

هذا الذي يقوله الطبري - المؤرخ الثقة [١] - فماذا نجد فيه ؟ إننا نجد أنفسنا أمام مؤامرة على الخليفة ورجال دولته ، أجاد ابن سبأ حبكها ، وجند لها كل الحاقدين الذين استبدت بهم المطامع والأهواء ، فلم يرعوا في الإسلام والمسلمين إلًّا ولا ذمة ، ولما لم يجدوا ما يأخذونه على الخليفة وعماله ، وضع لهم ابن سبأ الخطة وحدد لهم الذريعة التي يستهون بها به عامة الناس البسطاء ، وهي الطعن على الأمراء ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ للتلبيس على الناس ، ولإخفاء هدفهم الحقيقي ؛ وهو خلع الخليفة أو قتله . ولنعد إلى عثمان لنرى بماذا أشار عليه أهل المدينة ، كما أخبروه بالذي وصلهم من إذاعات السوء ، وقال لهم : أنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا عليَّ ، فقالوا له : « نشير عليك أن تبعث رجالًا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم . فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة ابن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل عبد اللَّه بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالًا سواهم ، فرجعوا جميعًا قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ، ما أنكرنا شيئًا ، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، وقالوا جميعًا : الأمر أمر المسلمين ، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم » [٢] .

فهذه شهادة كبار الصحابة وثقاتهم ، الذين أرسلهم عثمان إلى الأمصار ؛ ليتحققوا له من صحة الأقاويل التي افتراها السبئية على عماله ، فقد عادوا وأخبروا بأنهم ما نكروا شيئًا على العمال ، ولا أنكر المسلمون عليهم شيئًا ، وهؤلاء الصحابة لم يكن أحد منهم من بني أمية ، وإلا لاتهموا بالتواطئ مع عثمان وعماله . ولكنهم كانوا فوق الشبهات ، وشهادتهم شهادة عدول .

ولكن السبئيين تمكنوا من اقتناص أحد هؤلاء الصحابة الكبار ، وهو عمار بن ياسر ، الذي أرسل إلى مصر ، فضموه إلى صفوفهم ، وكان عمار صيدًا سمينًا بالنسبة لهم ؛ لما له من تأثير كبير على الناس ، لمكانته ومكانة أسرته في الإسلام .

---

(١) يقول القاضي أبو بكر بن العربي : بعد رده على الشبهات وإذاعات السوء التي أذاعها المفترون على عثمان وعماله ، وينصح المسلمين ويحذرهم من النقل عن عامة المؤرخين من أهل البدع والأهواء : « ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، ولا تسمعوا لمؤرخ كلامًا إلا للطبري ، وغير ذلك هو الموت الأحمر ، والداء الأكبر ، فإنهم ينشئون أحاديث كلها استحقار للصحابة والسلف ، والاستخفاف بهم ... وخروج مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الهوى ، فإذا قاطعتم أهل الباطل ، واقتصرتم على رواية العدول ؛ سلمتم من هذه الحبائل » العواصم من القواصم (ص ٢٤٨) .

(٢) الطبري (٣٤١/٤) ، ومقدمة ابن خلدون (٦١٩/٢) .

يقول الطبري : « واستبطأ الناس عمارًا حتى ظنوا أنه اغتيل ، فلم يفجأهم إلا كتاب عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح ، يخبرهم أن عمارًا قد استماله قوم بمصر ، وقد انقطعوا إليه ، منهم عبد اللّه ابن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة ابن بشر » (١) .

إن عجبنا لا ينتهي من قدرة ابن سبأ على إتقان دوره وحبك خطته ، ويبدو أنه كان يتمتع بذكاء فائق - شأن معظم المتآمرين في تاريخ البشرية - وإلا لما استطاع أن يستغوي هذا العدد الكبير من الناس ، حتى إنه لم يسلم منه ذلك الصحابي الجليل الذي وضع الخليفة فيه ثقته وأرسله إلى مصر ليتقصَّى له الحقائق ، فما زال به حتى أغواه وجعله ينضم إلى عصابة السوء ، ولا بد أن ابن سبأ قد قدر مكانة عمار بين المسلمين ، وأدرك أن انضمامه إلى جماعته يقوي حركتهم ، فلم يدعه يفلت من بين براثنه .

إن هذا الدور الخطير الذي قام به ابن سبأ ، لا يقل بشاعة عما صنعه حاقد آخر على الإسلام والمسلمين ، وهو أبو لؤلؤة ، ذلك المجوسي الذي اغتال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكل منهما - في رأيي - لم يكن يمثل نفسه فقط ، وإنما كان يمثل تيارًا سريًّا يعمل في الخفاء ضد الإسلام والمسلمين ، بعد أن عجز عن العمل في العلن .

فإقدام أبي لؤلؤة على جريمته الشنعاء ، واغتياله أعدل الحكام ؛ إنما كان انتقامًا لدولة الفرس التي أزالها المسلمون من الوجود في عهد عمر ليحرروا شعب الفرس من العبودية والظلم والكفر ، ويقيموا فيهم العدل والحرية والمساواة .

فلم يكن أبو لؤلؤة - عندما أقدم على فعلته - مدفوعًا بعدم إنصاف عمر له في شكواه من سيده المغيرة بن شعبة ؛ وإنما كان ذلك حقدًا يغلي في قلبه على المسلمين وخليفتهم ، يقول ابن الأثير : « ولما قدم سبي نهاوند المدينة جعل أبو لؤلؤة - غلام المغيرة بن شعبة - لا يلقى منهم صغيرًا إلا مسح رأسه وبكى ، وقال له : أكل عمر كبدي . وكان من نهاوند ، فأسرته الروم ، وأسره المسلمون من الروم فنسب إلى حيث سبي » (٢) . فليس هناك شك في أن قتل عمر كان نتيجة حقد وتدبير مؤامرة ، فأبو لؤلؤة لم يكن وحده ، وإنما كان له شركاء كثيرون منهم الهرمزان ، وجفينة (٣) ، وربما لم يكن كعب الأحبار بعيدًا عن هذه المؤامرة (٤) .

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٣٤١/٤) . (٢) الكامل في التاريخ (١٦/٣) .

(٣) انظر الطبري - تاريخ (٣٤٣/٤) .

(٤) انظر المصدر السابق (١٩١/٤) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٠/٣) .

فهذه المؤامرة التي نفذها مجوسي واشترك في تدبيرها معه مجوسي آخر ونصراني - ليست بعيدة الشبه بمؤامرة ابن سبأ ؛ فكلتاهما تتشابهان من حيث الدافع والهدف والدلالة . فقد كان دافع الأولى هو الانتقام للفرس ، كما كان دافع الثانية هو الانتقام لليهود ، وقد استهدفت كل منهما شخصية خليفة المسلمين باعتباره رمزًا لوحدة الدولة وصمام كيانها ورأس بنيانها . وأيضًا فإن تدبير المؤامرتين يدل على أن هناك تيارات خفية كثيرة كانت تكيد للإسلام والمسلمين وتحاول تقويض بنيان دولتهم ، ومع هذا التشابه فقد كانت مؤامرة ابن سبأ أحكم وأشمل وأوسع نطاقًا ؛ ذلك لأنه إذا كانت فاجعة الأمة الإسلامية في مقتل الخليفة عمر تعد خسارة كبرى إلا أن تلك المؤامرة لم يشترك فيها مسلم ، ولم تخلف ذيولًا تؤدي إلى فتنة بين المسلمين . أما تدبير ابن سبأ فلم يقتصر على مقتل نفس زكية ، بل أغرق الأمة كلها في مأساة دموية راح ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين ، كما كانت بابًا من الشر لم يغلق حتى اليوم ، وخلفت وراءها أتباعًا وأشياعًا كانت - ولا زالت - تظهر في صورة أو أخرى ، ولعلي لا أكون بعيدًا عن الصواب إذا قلت : إن إحكام مؤامرة ابن سبأ أيقظ ذيولًا وأتباعًا لمؤامرة أبي لؤلؤة أخذت تبث سمومها منذ ذلك الحين - وبخاصة في عهد بني أمية - لتقويض الوحدة الإسلامية وهد كيانها .

إن تلك الصفحات من التاريخ الإسلامي ينبغي أن تلقى عليها الأضواء ، وتوجه إليها عناية الدارسين لتوضيح أبعادها وخفاياها عسى أن يتنبه المسلمون ، ويستخلصوا منها دروسًا وعبرًا يكون لها أثرها في حاضرهم ومستقبل أيامهم .

نعود إلى عثمان ﷺ لنرى كيف بدأ يعالج الموقف بعد أن استفحل أمر السبئية ، وبعد أن عاد الصحابة الذين أرسلهم إلى الأمصار ليكشفوا له الحقائق ، ما عدا عمارًا ، الذي جنده السبئيون ، وضموه إلى صفوفهم .

بدأت معالجة عثمان ﷺ للموقف بأن كتب إلى أهل الأمصار : « أما بعد ؛ فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إليَّ أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون وآخرون يضربون ، فيا من شتم سرًّا وضرب سرًّا ، من ادعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان ، مني أو من عمالي ، أو تصدقوا فإن اللَّه يجزي المتصدقين .

فلما قرئ في الأمصار أبكى الناس ، ودعوا لعثمان ، قالوا : إن الأمة لتمخض بشرٍّ ، وبعث إلى عمال الأمصار ، فقدموا عليه : عبد اللّه بن عامر ، ومعاوية ، وعبد اللّه ابن سعد ، وأدخل معهم في المشورة : سعيد بن العاص وعمرًا - ابن العاص - فقال : ويحكم ! ما هذه الشكاية ، وما هذه الإذاعة ؟! إني واللّه لخائف أن يكون مصدوقًا عليكم ، وما يعصب هذا - أي يناط - إلا بي ، فقالوا : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء - مما يتقوله المتقولون - لا واللّه ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلًا ، وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها » (١) .

حقًّا أنها إذاعة كاذبة ، وكيد وتضليل ومؤامرة نجح ابن سبأ في حبكها وتدبيرها ووجد لها أرضًا خصبة بين الحاقدين من العرب في كل قطر - ما عدا الشام - حيث استطاع أن يكون شيعة من هؤلاء ، ففي الكوفة جماعة بزعامة عمرو بن الأصم ، وكان منهم الأشتر النخعي ، وزيد بن صوحان ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد اللّه ابن الأصم . وفي البصرة جماعة أخرى بزعامة حرقوص بن زهير السعدي ، وكان منهم حكيم بن جبلة العبدي ، وذريح بن عباد العبدي ، وبشر بن شريح ، وابن المحرش ابن عبد بن عمرو ، وجماعة ثالثة في مصر على رأسها الغافقي بن حرب العكي ، ومن بينهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر التجيبي ، وعروة ابن شييم الليثي ، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وسودان بن رومان الأصبحي ، وزرع ابن يشكر اليافعي ، وسودان بن حمران السكوني ، وقتيرة بن غلان السكوني .

تلك هي الجماعة التي أخذت على عاتقها في الأمصار الثلاثة تدبير أمر الفتنة وتنفيذها . وقبل أن نمضي معهم لنعرف حجم الجريمة التي ارتكبوها في حق الأمة الإسلامية ، ينبغي أن نوضح دور الدعوة التي دعا إليها صحابي جليل هو أبو ذر الغفاري ﷺ ومدى مساهمتها في اشتعال الفتنة ، دون قصد منه ، أبو بعبارة أكثر تحديدًا : كيف استغل السبئة أبا ذر ودعوته في تحقيق أهدافهم ؟

أبو ذر الغفاري ودعوته :

كان أبو ذر الغفاري - واسمه جندب بن جنادة بن سكن (٢) - من السابقين إلى

---

(١) الطبري (٣٤٢/٤) .

(٢) هذا هو المشهور في اسم أبي ذر على ما رجحه ابن حجر في الإصابة (١١٨/١١) وما بعدها .=

الإسلام ، فقد أسلم قبل الهجرة إلى المدينة ، وعاش حياته زاهدًا متنسّكًا ، فلما كان عهد عثمان بن عفان ، وكثرت الأموال في أيدي المسلمين ، وتوسعوا في المطعم والملبس والمسكن ، مما لم يكن مألوفًا في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر ، لم يوافق هذا التطور الذي طرأ على الأمة نزعة الزهد عند أبي ذر ، فرفع شعارًا مؤداه : أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك من المال فوق حاجته ، وما زاد على ذلك يجب إنفاقه وتقسيمه على الفقراء ، ولما كانت هذه الطريقة التي دعا إليها أبو ذر لا توافق جميع الناس ، ولا يأمر بها الشرع الحكيم فقد وقع بينه وبين بعض عمال عثمان - مثل معاوية والي الشام ، وبينه وبين عثمان نفسه - بشأنها كلام وملاحاة ، انتهت باعتزال أبي ذر في الربذة ، فاتخذ دعاة الفتنة من هذه الحادثة ذريعة أخرى لتحقيق أهدافهم ، ادعوا أن عثمان نفى أبا ذر إلى الربذة ، وأن موقف أبي ذر هو الذي يمثل الإسلام الصحيح ، وموقف بقية المسلمين ، وفيهم الخليفة وعماله ، هو الذي ينافي تعاليم الإسلام .

والحق أن أبا ذر كان صحابيًا فاضلًا ، وكان رأسًا في الزهد والصدق - كما يقول الذهبي [1] - وقد قال عنه النبي ﷺ : « **ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر** » [2] .

ولكن اجتهاد أبي ذر وحدته في قضية الأموال هذه كان مخالفًا لاجتهاد أغلب الصحابة - رضوان الله عليهم - فلم يوافقه عليه أحد منهم ، وإن كان قد التف حول دعوته بعض العوام والفقراء ظنًا منهم أن في دعوته منفعة لهم .

ولندع الإمام ابن تيمية يحدثنا عن قصة أبي ذر ، فيقول : « كان (أبو ذر) رجلًا صالحًا ، وكان مذهبه أن الزهد واجب ، وأن ما أمسكه الإنسان فاضلًا عن حاجته فهو كنز يكوى به في النار ، واحتج على ذلك بما لا حجة فيه من الكتاب والسنة ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] ، وجعل الكنز ما يفضل عن الحاجة ، واحتج بما سمعه من النبي ﷺ : « **يا أبا ذرٍّ ما أحب أن**

= وانظر كذلك ترجمة أبي ذر وفضائله في صحيح مسلم بشرح النووي (٢٧/١٦) وما بعدها ، طبقات ابن سعد (٢١٩/٤ - ٢٣٧) ، تاريخ خليفة بن خياط (١٦٦) ، وابن الأثير - أسد الغابة (٣٥٧/١) ، المعارف لابن قتيبة (٢٥٣ ، ٢٥٢) ، والطبري - تاريخ (٢٨٣/٤) وما بعدها ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (٤٦/١ - ٧٨) .

(١) سير أعلام النبلاء (٤٧/١) .

(٢) ابن تيمية - منهاج السنة (١٩٨/٣) .

لي مثل أُحد ذهبًا ، يمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار ، إلا دينارًا أرصده لدين » . ولما توفي عبد الرحمن بن عوف وخلف مالًا ، جعل ذلك أبو ذر من الكنز الذي يعاقب عليه ، وعثمان يناظره في ذلك ... وكان قد وقع بينه وبين معاوية بالشام لهذا السبب ، وقد وافق أبا ذر على ذلك طائفة من النساك ... وأما الخلفاء الراشدون ، وجماهير الصحابة والتابعين ، فعلى خلاف هذا القول ؛ فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود صدقة ، وليس فيما دون خمس أواقٍ صدقة** » ، فنفى الوجوب فيما دون المائتين ، ولم يشترط كون صاحبها محتاجًا إليها أم لا ، وقال جمهور الصحابة : الكنز هو المال الذي لم تؤد حقوقه . وقد قسم اللّه المواريث في القرآن ، ولا يكون الميراث إلا لمن خلف مالًا ، وقد كان غير واحد من الصحابة له مال على عهد رسول اللّه ﷺ من الأنصار ، بل من المهاجرين ، وقد كان غير واحد من الأنبياء له مال . وكان أبو ذر يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجبه اللّه عليهم ، ويذمهم على ما لم يذمهم اللّه عليه ، مع أنه مجتهد في ذلك ، مثاب على طاعته رضي الله عنه كسائر المجتهدين . وقول النبي ﷺ ليس فيه إيجاب ، إنما قال : « **ما أحب أن يمضي عليه ثالثة وعندي منه شيء** » فهذا يدل على استحباب إخراج ذلك قبل الثالثة لا على وجوبه [1] .

هذا هو رأي الإسلام وحكمه في المال ، كما وضحه ابن تيمية ، ومنه يتبين أن دعوة أبي ذر - وإن كانت وافقت هوى بعض الزهاد - إلا أنها لا تصلح مجتمعًا ، ولا يقوم عليها بنيان أمة ، وقد حاول عثمان - كما حاول غيره - أن يوضح لأبي ذر هذا الأمر ، ولكنه لم يقتنع رحمه الله وربما كانت حدته وسرعة غضبه وزهده المتواصل وإعراضه عن الدنيا من العوامل التي وقفت دون اقتناعه ، ولهذا نصحه الخليفة ، فقال له : « لو اعتزلت ، ومعناه أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطًا وللعزلة مثلها ، ومن كان على طريقة أبي ذر فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلم لكل واحد مما ليس بحرام في الشريعة » [2] . ولو دعا أبو ذر لمذهبه دعوة هادئة لينة ، ورغب الأغنياء في البذل والإنفاق في سبيل اللّه ؛ لكان ذلك أجدى وأنفع له وللمسلمين ، ولكنه سلك طريق العنف واستخدم أسلوب التقريع ، وكانت لهجته قاسية .

---

(١) منهاج السنة (١٩٨/٣ ، ١٩٩) .

(٢) أبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم (ص ٧٤) .

يقول أبو بكر بن العربي : « وكان أبو ذر يطلق من الكلام ما لم يكن يقوله في زمان عمر ، فأعلم معاوية بذلك عثمان ، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة ، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم ، وإنما هي مخصوصة ببعضهم ، فكتب إليه عثمان أن يقدم المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان : أريد الربذة ، فقال له : افعل ، ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته » [١] .

فاعتزال أبي ذر في الربذة لم يكن نفيًا له من عثمان ؛ بل إن عثمان أعطاه مالًا وخدمًا وأجرى عليه رزقًا ثابتًا من بيت المال ، وكما يقول الإمام ابن تيمية : « لم يكن لعثمان مع أبي ذر غرض من الأغراض ، وأما كون أبي ذر من أصدق الناس ؛ فذلك لا يوجب كونه أفضل من غيره ، بل كان أبو ذر مؤمنًا ضعيفًا ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم** » وقد ثبت في الصحيح أنه قال : « **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير** » فأهل الشورى مؤمنون أقوياء ، وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء ، فالمؤمنون الصالحون لخلافة النبوة كعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف أفضل من أبي ذر وأمثاله » [٢] .

هذا هو رأي علماء أهل السنة ومجتهديهم في قضية أبي ذر .

أبو ذر وعبد الله بن سبأ :

قلنا في بداية حديثنا عن أبي ذر ودعوته : إن السبئية قد استغلوا دعوته في تحقيق هدفهم ، وفي تأليب الناس على الخليفة وعماله . وكان أبو ذر ودعوته فرصة نادرة لابن السوداء استغلها أحسن استغلال ، كما استغل مكانة عمار بن ياسر ، فأبو ذر له مكانته بين المسلمين ، وله تأثيره على كثير منهم ، فعمد إليه ابن السوداء ليؤلبه على عثمان وعماله ، يقول الطبري : « لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال له : يا أبا ذر ، ألا تعجب إلى معاوية ؛ يقول : المال مال الله ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين ، فأتاه أبو ذر ، فقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله . قال : فإني لا أقول :

---

(١) المصدر السابق (ص٧٦) وانظر الطبري - تاريخ (٢٨٣/٤) وما بعدها .

(٢) منهاج السنة (١٩٩/٣) - وانظر الطبري (٢٨٣/٤) وما بعدها .

إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين » (١) .

أرأيت التأليب والإثارة ؟ وقد حاول ابن السوداء أن يفعل ما فعله مع أبي ذر مع صحابيين آخرين ، هما أبو الدرداء وعبادة بن الصامت ﷺ ؛ حتى تتسع دائرة الشر والفساد ، إذا تكلم هذان الصحابيان الجليلان بمثل ما يتكلم به أبو ذر ، ولكنه لم يفلح معهما فقد كشفا أمره وعرفا حقيقة نواياه السيئة . يقول الطبري : « وأتى ابن السوداء أبا الدرداء ، فقال له : من أنت ؟ أظنك يهوديًا ! فأتى عبادة بن الصامت ، فتعلق به ، فأتى به معاوية ، فقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر » (٢) . فصنيع هذين الصحابيين ، وعدم استجابتهما لابن السوداء يدل على عدم رضاهما عن دعوة أبي ذر ، مما يدل على أن بعض المسلمين قد فطن لحركة ابن السوداء وخطورة تدبيره ومسعاه .

لقد كان ابن السوداء يمثل تيارًا خفيًا خطيرًا يعمل بتخطيط محكم ، وتدبير خبيث لتدمير الدولة الإسلامية ، ولقد صادف هذا التدبير الماكر أرضًا خصبة بين العرب الذين أسلموا متأخرين ، وكانوا لا يزالون متأثرين بعصبياتهم وبداوتهم ، يأكلهم الحقد على شيوخ الصحابة الذين أصابوا - بسبقهم إلى الإسلام وجهادهم - مغانم شرعية ، ومناصب في الدولة ؛ فأراد هؤلاء الأعراب أن يكون لهم مثلها بلا سبق ولا جهاد ، كما كان منهم الموتورون بسبب ما أقيم على بعض أقربائهم من حدود شرعية (٣) . وفضلًا عن ذلك فإن أصابع الاتهام تشير إلى اشتراك بعض الشعوبيين من البلاد المفتوحة الذين كان إسلامهم مثل إسلام ابن سبأ ، وقد كثر هؤلاء في الأمصار وبخاصة في البصرة والكوفة ، وإذا كانت أسماء هؤلاء الشعوبيين لا تزال خافية علينا ؛ فما ذاك إلا لأن الحركات الهدامة تحرص دائمًا على التخفي والسرية ، وربما تكشف الأيام عن بعض هؤلاء ومدى مشاركتهم في تلك المؤامرة الكبرى .

هذه هي العوامل الحقيقية الكامنة وراء إشعال تلك الفتنة ، وهؤلاء هم رؤوسها الذين سعروا نارها ونفذوا مخططها ، ولكن يبقى بعد ذلك السؤال الحائر عن سبب سكوت ولاة الأمصار عن تلك الجماعات المخربة ، وتركهم ابن سبأ يتجول في البلاد يؤلب الناس على الخليفة وعماله ، ويثير حفيظة من يدَّعون الإسلام ، ويحرِّضهم

(١) الطبري - تاريخ (٢٨٣/٤) .

(٢) المصدر السابق (٢٨٣/٤) .

(٣) انظر الطبري (٣٤١/٤) ، وابن خلدون - المقدمة (٦١٩/٢) ، والعواصم من القواصم هامش (٥٨) .

على قتل الخليفة حتى تم له ما أراد .

إن الإجراءات التي اتخذت ضد هؤلاء لم تكن كفيلة بقطع دابر الفتنة واستئصال جذورها ، بل إنها تركت جذوة النار تتحسس طريقها تحت الرماد ، وعيون الشر تتحين فرصتها لتمارس نشاطها في التدبير والتخريب ، فما هي تلك الإجراءات ؟ وإلى أي مدى كان تأثيرها على هؤلاء المفسدين ؟ وعلى من تقع المسؤولية التاريخية إزاء تلك المؤامرة ضد الدولة الإسلامية ؟

إجراءات عثمان ضد مثيري الفتنة :

من خلال ما تقدم عن مثيري الفتنة ، كما وصفهم الطبري وابن خلدون [(١)] ، يتضح أنه كان يجب أن يعاملوا بمنتهى الحزم وأن ينزل بهم أشد أنواع العقاب ، وبخاصة بعد أن جرب الخليفة معهم أسلوب الرحمة ، واستجاب لكل طلباتهم ورغباتهم ؛ فلم يجد ذلك معهم نفعًا ، بل مضوا في تدبيرهم وإفسادهم ، فلو قتل هؤلاء الأشرار جميعًا لكان خيرًا للإسلام والمسلمين ، ولكان في ذلك حفاظًا على وحدة الأمة وتماسكها بدفع الضرر عنها ، ولكن الخليفة ﷺ مضى في خطة اللين والعفو التسامح مع قوم لم يكونوا أهلًا لذلك ، وكانت إجراءاته معهم غير كافية لوضع حد لفتنتهم .

فبعد أن وعظهم وزجرهم صلحاء الناس والعلماء وأهل الحكمة والعافية من أعيان أمصارهم في الكوفة والبصرة والفسطاط ، ولم ينفع معهم ذلك - كان كل ما صنعه معهم عثمان ﷺ أن سيَّرهم إلى معاوية في الشام ، ليؤدبهم ويأخذهم بالحزم والشدة ، ولكن معاوية ضاق بهم [(٢)] ، فأرسلهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حمص . وقد اشتد عبد الرحمن بن خالد معهم ، وخاطبهم بلهجة قاسية ، وكان جديرًا بتأديبهم لو تركوا له .

فقد قال لهم فيما قال : « يا آلة الشيطان ، لا مرحبًا بكم ولا أهلًا ، قد رجع الشيطان محسورًا وأنتم بعد نشاط ، خسر عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم ، يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم ؟ لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم

(١) انظر المصادر السابقة نفس الصفحات .

(٢) انظر حوار معاوية معهم في الطبري - تاريخ (٤/٣١٩-٣٢١) ، ومنه تتضح عصبيتهم ويظهر حقدهم على قريش .

تقولون لمعاوية ؛ أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقئ الردة . والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل - يقصد صعصعة بن صوحان - أن أحدًا ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة الهوى » [١] . ثم حصرهم وأذلهم فلما رأوا بأسه وشدته عليهم ، قرروا أن يفلتوا من يده فأظهروا التوبة ، وقالوا له : « نتوب إلى الله ، أقلنا أقالك الله ! فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم ، وسرح الأشتر إلى عثمان » [٢] . وعند عثمان أظهر الأشتر توبته وتوبة أصحابه ، وكان ذلك خداعًا ونفاقًا ، فلم تكن توبة صادقة ، ولكن الخليفة ، قَبِلَ منهم ورقَّ لهم ، وعفا عنهم « وخيَّرهم حيث يسيرون ، فاختار كل واحد ما أراد من البلاد ، كوفة وبصرة ومصر ، فأخرجهم ، فما استقروا حيث ساروا حتى ثاروا وألَّبوا حتى انضاف إليهم جمع » [٣] .

مسيرهم إلى المدينة ومقتل عثمان :

ما كاد هؤلاء الذين تظاهروا بالتوبة على يد عبد الرحمن بن خالد ، ثم على يد الخليفة - يستقرون في أمصارهم حتى أخذوا يجمعون أتباعهم ومن انخدعوا بأكاذيبهم ويسيرون إلى المدينة لقتل الخليفة الذي وسعهم ببرِّه وعطفه وإحسانه ، والحق أن الكثرة الغالبة ممن ساروا إلى المدينة ، سواء من مصر أو من العراق ، كانوا مخدوعين ومضللين ، ولم تكن فكرة خلع الخليفة أو قتله إلا في عقول القلة الحاقدة المتآمرة - وهم من ذكرنا أسماءهم فيما سبق - وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ .

خرج إلى المدينة أهل مصر بزعامة الغافقي بن حرب العكي ، وأهل الكوفة بزعامة عمرو ابن الأصم ، وأهل البصرة بزعامة حرقوص بن زهير السعدي [٤] ، خرجوا متظاهرين بالحج دون أن يعلم غالبية من كان معهم بحقيقة نواياهم الخبيثة ، يقول الطبري : « ولم يجرؤوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج » [٥] .

سار أهل كل مصر إلى المدينة ، فعسكر أهل البصرة بذي خشب ، ونزل أهل الكوفة الأعوص ، وأهل مصر ذا المروة ، واتصلوا وتراسلوا للتشاور ، فاتفقوا على إرسال وفد إلى المدينة ، ليستطلعوا آراء الناس هناك ، ويستكشفوا وجهاتهم .

---

(١) الطبري - تاريخ (٣٢٢/٤) . (٢) المصدر السابق (٣٢٢/٤) .
(٣) أبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم (ص١١٢) .
(٤) الطبري - تاريخ (٣٤٨/٤ ، ٣٤٩) . (٥) المصدر السابق (٣٣٩/٤) .

والواقع أن أهل المدينة جميعًا كانوا ضدهم ما عدا ثلاثة أشخاص ، يقول الطبري : « وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة يساعدهم إلا في ثلاثة نفر ؛ فإنهم كانوا يراسلونهم : محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، وعمار بن ياسر » (١) .

كان وفد الثوار الذي أزمعوا إرساله إلى المدينة مكونًا من زياد بن النضر وعبد اللَّه ابن الأصم ، فلما سارا إلى المدينة قالا لبقية الثوار : « لا تعجلوا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا ، فواللَّه إن كان أهل المدينة خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا علموا علمنا أشد وإن أمرنا هذا لباطل ، وإن لم يستحلوا قتالنا ، ووجدنا الذي بلغنا باطلًا لنرجعن إليكم بالخبر . قالوا : اذهبا » . وهذا الكلام الذي جاء على لسان وفد الثوار يبرئ أهل المدينة من المشاركة في الفتنة وحتى من العلم بأمرها ، فقد أخفى الثوار أمرهم وخطتهم عليهم . فدخل الرجلان ، فلقيا أزواج النبي ﷺ وعليًا وطلحة والزبير ، وقالا : إنما نأتم هذا البيت ، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ، ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول ، فكلهم أبى ونحى ، وقال : بيض ما يفرخن ، فرجعا إليهم ، فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا عليًا - وكان هواهم معه - ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة - وكان هواهم معه - ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير - وكان هواهم معه - » (٢) .

فسلم المصريون على عليّ ، وعرضوا له بالخلافة ، فصاح بهم ونهرهم قائلًا لهم : « لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ فارجعوا لاصحبكم اللَّه » (٣) .

وقال طلحة لأهل البصرة ، والزبير لأهل الكوفة مثل ما قال عليّ لأهل مصر (٤) .

هذا هو موقف كبار الصحابة في المدينة من الثوار ، وهو موقف الإنكار عليهم ولعنهم وطردهم ، وعدم الاستجابة لهم . فلما رأوا هذا الموقف الصارم ، وعرفوا أن المدينة مكشوفة من الناحية العسكرية ، وليس بها قوة كافية لصدهم ، وعزموا على اقتحامها بالقوة ، « فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها » (٥) .

وكان عثمان ﷺ قد أرسل كتابًا إلى أهل الأمصار يطلب المدد منهم ، ويبين لهم

---

(١) المصدر السابق (٣٥٣/٤) .
(٢) الطبري - تاريخ (٣٤٩/٤ ، ٣٥٠) .
(٣) المصدر السابق (٣٥٠/٤) .
(٤ ، ٥) المصدر السابق (٣٥٠/٤) .

حقيقة الموقف وأنه لم يرتكب جرمًا ، ولم يخالف سنة الرسول ﷺ والخليفتين بعده وأنه ولي الخلافة بإجماع أهل شورى ، وقال لهم في كتابه : « ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ من الناس ومنهم علي ، على غير طلب مني ولا محبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون ، تابعًا غير مستتبع ، متبعًا غير مبتدعٍ ، مقتديًا غير متكلف ؛ فلما انتهت الأمور ، وانتكث الشر بأهله ؛ جدت ضغائن وأهواء ، على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب ، فطلبوا - أي الثوار - أمرًا وأعلنوا غيره بغير صحة ولا عذر ، فعابوا على أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع ، فازدادوا على اللَّه ﷻ جرأة ، حتى أغاروا علينا في جوار رسول اللَّه ﷺ وحرمه وأرض الهجرة . وثابت إليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب ، أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق .

فأتى الكتاب أهل الأمصار ، فخرجوا على الصعبة والذلول ، فبعث معاوية حبيب ابن مسلمة الفهري ، وبعث عبد اللَّه بن سعد معاوية بن حديج السكوني وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو » [1] .

أحدث كتاب الخليفة تأثيرًا كبيرًا وهز مشاعر الناس في الأمصار ، وبخاصة صحابة رسول اللَّه الذين راحوا يحرِّضون الناس على الخروج لنصرة الخليفة ، ويقولون لهم : « انهضوا إلى خليفتكم وعصمة أمركم » ، ولكن هذه الاستغاثة جاءت متأخرة عن موعدها ، وربما يكون الثوار قد علموا بتحرك النجدات من الأمصار ، فقرروا الفراغ من أمرهم قبل وصولها ، فقد أحاطوا بالمدينة ، وحدثت بينهم وبين بعض الصحابة ملاحات ومدافعات . واستطاع الصحابة وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب ﷺ تسكين الناس .

وتمكن عثمان من أن يخطب في الثائرين ، فبين لهم أنه لم يرتكب خطأ ، وأن ما بلغهم عنه كان باطلًا . ودارت بينه وبينهم مناظرة ، وكانوا كلما احتجوا عليه بآية من القرآن الكريم ، بيَّن لهم فيما نزلت ، وأنها ليست مما يحتج به فيما يدَّعون . يقول خليفة بن خياط : « فجعلوا يأخذونه بالآية فيقول : امضه نزلت في كذا فما يزيدون فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطًا ، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا الطاعة

---

(١) المصدر السابق (٣٥١/٤ ، ٣٥٢) .

ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم ، ثم رجعوا راضين » [١] . ولكن الذين رجعوا راضين هم عامة الناس ، الذين لم تكن قلوبهم تنطوي على حقد على الخليفة ، وإنما جاؤوا مضلَّلين بتأثير الدعاية والشائعات التي كان يطلقها الزعماء المخططون ، فلما التقوا بالخليفة وسمعوا كلامه رقُّوا له وعادوا راضين مقتنعين بكلامه .

أما الزعماء فلم يكن يرضيهم شيء إلا خلع الخليفة أو قتله ، ولكنهم اضطروا أن يسايروا عامة الناس ، وأن يتظاهروا بالرضا والاقتناع ، حتى لا تنكشف خطتهم أمام الكثرة من أتباعهم ، الذين كانوا يعتمدون عليها في ثورتهم . لقد ظلوا سنين يعدون لمؤامرتهم ، وها هي الفرصة توشك أن تفلت من أيديهم ، ولهذا راحوا يعملون تفكيرهم الشيطاني حتى اهتدوا إلى اختراع فكرة الكتاب المزعوم ، الذي ادَّعوا أنهم وجدوه مع غلام لعثمان ! ويتضمن هذا الكتاب : أمرًا من عثمان إلى عبد اللَّه بن سعد عامله على مصر ، بأن يقتل بعض المصريين ويضرب البعض الآخر ، عندما يعودون إلى مصر [٢] . فرجعوا بهذا الكتاب إلى المدينة ، وأتوا علي بن أبي طالب ، فقالوا له : « ألم تر إلى عدو اللَّه أنه كتب فينا بكذا وكذا ؟! وإن اللَّه قد أحل دمه ، قم معنا إليه ، قال : واللَّه لا أقوم معكم ، فقالوا له : فلم كتبت إلينا ؟ فقال : واللَّه ما كتبت إليكم كتابًا قط [٣] ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قال بعضهم لبعض : ألهذا تقاتلون ؟ ألهذا تغضبون ؟ » [٤] .

ثم انطلقوا إلى عثمان ، فقالوا له : لم كتبت فينا بكذا وكذا ؟ فقال : « إنما هما اثنان : أن تقيموا على رجلين من المسلمين ، أو يميني باللَّه الذي لا إله إلا هو ، ما كتبت ولا أمليت ولا علمت ... وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل ، وقد ينقش الخاتم على الخاتم » [٥] . فلما حلف الخليفة قالوا له : « مكنا من مروان فإنه كاتبك ، فحلف مروان ، فقال لهم عثمان : ليس في الحكم أكثر من هذا » [٦] . ولكنهم كانوا

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٦٩) وانظر الطبري - تاريخ (٣٥٥/٤) .

(٢) انظر نص هذا الكتاب المزعوم في تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٦٩) ، والطبري - تاريخ (٣٥٥/٤) .

(٣) يفهم من كلامهم أنه كانت تصلهم كتب من عليٍّ ، فإنكار عليٍّ لها يدل على أنها كانت كتبًا مزورة ، والذين كانوا يزورونها هم زعماء الفتنة وهم أيضًا الذين زوروا الكتاب الذي وجدوه مع الغلام وهم كذلك الذين استأجروا حامله إمعانًا في حبك الموضوع .

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٦٩) ، وتاريخ الطبري (٣٥٥/٤) .

(٥) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٦٩) ، وتاريخ الطبري (٣٥٦/٤) .

(٦) ابن خلدون - المقدمة (٦٢٠/٢) .

عازمين على ارتكاب جريمتهم ، ولهذا لم يقنعوا بقسم الخليفة وكاتبه وقرروا فرض الحصار على بيت الخليفة ، وتوالت الأحداث .

إن كل الدلائل تشير إلى أن هذا الكتاب كان مزورًا ، وأن الذي زوره هم زعماء الفتنة وذلك لما يأتي :

أولًا : أن عبد اللّٰه بن سعد الذي زعموا أن الكتاب موجه إليه ليقتلهم ويعذبهم ، كان قد خرج من مصر ، متوجهًا إلى عثمان في المدينة بناء على طلبه ، وعلم بعودتهم وهو في أيلة [١] . فكيف يكتب إليه عثمان وقد استدعاه من مصر ، التي غلب عليها حينئذٍ محمد بن أبي حذيفة وهو من زعمائهم .

ثانيًا : أن الذين وجدوا الكتاب المزعوم هم المصريون ، ولكن الثوار عادوا جميعًا في وقت واحد : أهل البصرة وأهل الكوفة ، فعودتهم جميعًا في وقت واحد - مع اختلاف طرقهم ، وتباعد ما بينهم - يدل على أن الأمر مدبر من قبل . كما قال لهم على نفسه : « كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم على مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا واللّٰه أمر أبرم بالمدينة » [٢] ... فقال العراقيون بلسان رؤسائهم : « فضعوه حيث شئتم لا حاجة لنا إلى هذا الرجل ليعتزلنا » وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة ، وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين عثمان ، وسفك دمه الذي عصمه اللّٰه بشريعة رسوله ﷺ .

ثالثًا : أن قصة عثورهم على الكتاب مع الغلام الذي كان يحمله قصة غريبة ، تؤكد أن الكتاب كان مزورًا في المدينة ، زوره الأشتر النخعي وحكيم بن جبلة ؛ لأنهما تخلفا ولم يعودا مع الثوار [٣] . فالغلام الذي وجدوا معه الكتاب أخذ يتعرض لهم ثم يفارقهم ، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم ويتبينهم . فقالوا له : ما لك ؟ إن لك لأمرًا ! ما شأنك ؟ فقال : أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر ، ففتشوه فإذا هم بالكتاب عليه خاتم عثمان [٤] فكأن هذا الغلام كان يقول لهم : أمسكوا بي فإني أحمل كتابًا فيه قتلكم ، فلو كان هذا الغلام مرسلًا من قبل عثمان لكان خليقًا بألا يتعرض لهم على هذا النحو المريب ، أو لسلك طريقًا غير طريقهم . ولكن الذين

---

(١) العواصم من القواصم ، هامش (١٢٦/٣) لمحب الدين الخطيب .

(٢) الطبري - تاريخ (٣٥١/٤) .

(٣) العواصم من القواصم . هامش (١٢٧/١) لمحب الدين الخطيب .

(٤) الطبري - تاريخ (٣٥٥/٤) .

استأجروا هذا الغلام وكلفوه بحمل هذا الكتاب المزور ، هم الذين أمروه أن يظهر للناس حتى يفتشوه بعد أن يرتابوا في أمره . كل هذا يدل على تزوير الكتاب على لسان الخليفة .

رابعًا : افتضاح أمر الثوار أمام علي ﷺ عندما قالوا له : لم كتبت إلينا ؟ فأقسم أنه لم يكتب إليهم كتابًا قط ، وليس عليٌّ وحده الذي زوروا على لسانه كتبًا ليضللوا عامة الناس ؛ فقد زوروا على لسان طلحة والزبير وعائشة كتبًا وادعوا أنها مرسلة منهم تحضُّهم على الخروج على عثمان ، والصحابة كلهم أبرياء من هذه الكتب وقد أنكروا علمهم بها . فقد روي عن مسروق أنه قال لعائشة بعد مقتل عثمان : « هذا عملك كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه ، فقالت عائشة : والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ، ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست مجلسي هذا » قال الأعمش : فكانوا يرون أنه كتب على لسانها [١] .

فزعماء المؤامرة إذًا ذوو سوابق في التزوير على ألسنة الصحابة ؛ مما يقطع بأن هذا الكتاب كان مزورًا وأنه كان آخر ورقة في أيديهم للتذرع بها لارتكاب جريمتهم ، ويعلق الإمام ابن تيمية على قصة هذا الكتاب المزعوم فيقول : « وكل ذي علم بحال عثمان وإنصاف له يعلم أنه لم يكن ممن يأمر بقتل محمد بن أبي بكر ولا أمثاله ، ولا عُرف عنه قط أنه قتل أحدًا من هذا الضرب ، وقد سعوا في قتله ، ودخل عليه محمد فيمن دخل ، وهو لا يأمر بقتالهم دفعًا عن نفسه ، فكيف يأمر بقتل معصوم الدم ؟ وإن ثبت أن عثمان أمر بقتل محمد بن أبي بكر لم يطعن في عثمان ، بل إن عثمان إن كان أمر بقتل محمد بن أبي بكر ، أولى بالطاعة ممن طلب قتل مروان - وقد كان الثائرون طلبوا من عثمان أن يسلمهم مروان ليقتلوه - لأن عثمان إمام هدى وخليفة راشد ، يجب عليه سياسة رعيته ، وقتل من لا يدفع شره إلا بقتله ، وأما الذين طلبوا قتل مروان فقوم خوارج ، مفسدون في الأرض ليس لهم قتل أحد ، ولا إقامة حدٍّ ... وليس مروان أولى بالفتنة والشر من محمد بن أبي بكر ولا هو أشهر بالعلم منه ، بل أخرج أهل الصحاح عدة أحاديث عن مروان ، وله أقوال مع أهل الفتيا واختلف في صحبته ، ومحمد بن أبي بكر ليس بهذه المنزلة عند الناس ، ومروان من أقران ابن الزبير » [٢] .

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٧٦) - وابن كثير - البداية والنهاية (١٩٥/٨) .

(٢) منهاج السنة (١٨٨/٣ ، ١٨٩) - وانظر العواصم من القواصم (ص ١١٠ ، ١١١) .

تشبث الثائرون بهذا الكتاب المزور ، ولم يستجيبوا لنصح الصحابة بالرجوع إلى بلادهم وحصروا الخليفة في بيته ، فأرسل الصحابة أبناءهم لحراسة البيت والدفاع عن الخليفة . وأقدم الثوار على خطوة لم تفعلها الفرس والروم - على حد قول علي ﷺ - فقد منعوا الماء عن عثمان - الذي كان اشترى بئر رومة من ماله الخاص ووهبها للمسلمين - فأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأزواج النبي ﷺ يطلب منهم ماء ، فكان أول المغيثين له علي وأم حبيبة ، فذهب عليٌّ في الغلس وقال لهم : « إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ؟ قالوا : لا واللّه ولا نعمة عين ، لا نتركه يأكل ويشرب » (١) . لم يستطع عليٌّ أن يوصل الماء لعثمان ، ولا استطاعت أم حبيبة ، بل أساؤوا الأدب وتجاوزوا كل حدٍّ معها فكذبوها وسبوها ، وكلموها بكلامٍ قبيحٍ وقطعوا حبل بغلتها ! (٢) .

هكذا وصل بهم الحقد والكيد إلى حد التجرد من الحياء مع زوجة الرسول ﷺ. ولما وصل الأمر إلى هذا الحد ، وأحكموا حصارهم حول البيت ، وتأزم الموقف ، حتى كادت الحرب تنشب بين الثوار وبين حراس الدار من أبناء الصحابة وبني أمية ، عندئذٍ أقسم عثمان على حراس الدار أن يعودوا إلى منازلهم (٣) ، وكره - يرحمه اللّه - أن تراق من أجله محجمة دم ، وهكذا لم تزايله رحمته وبره بالمسلمين حتى في هذه اللحظات العصيبة . فقرر أن يلقى مصيره وحده ، وقد ظن أن ذلك سيجنب المسلمين إراقة الدماء وهو لا يعلم أن تضحيته بنفسه سوف تكون بداية لإراقة دماء غزيرة ، وفاتحة لمأساة دموية بين المسلمين . وقد كان حقن الدماء الحقيقي يمكن أن يكون في قتل هؤلاء الخوارج جميعًا ، الذين فتقوا في الإسلام هذا الفتق ، وارتكبوا هذه الجريمة البشعة . فقد اقتحموا على الخليفة داره اقتحامًا ، وبعضهم تسلق من دور مجاورة ، وقتلوه وهو يقرأ في كتاب اللّه ، وروَّعوا الأمة الإسلامية في إمامها دون ذنب جناه هذا الصحابي الجليل المشهود له بالجنة من النبي ﷺ . كان قتل عثمان ﷺ في شهر ذي الحجة سنة (٣٥هـ) في منتصفه أو في أيام التشريق ، أو لأيام بقين منه ، على خلاف في تحديد اليوم من الشهر المذكور (٤) .

(١ ، ٢) انظر الطبري - تاريخ (٣٨٦/٤) .

(٣) المصدر السابق (٣٨٤/٤) .

(٤) انظر الروايات المختلفة عن تحديد اليوم الذي قتل فيه عثمان ﷺ في تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٧٦) .

هكذا راح ثالث الخلفاء الراشدين ضحية المؤامرة الحاقدة ، ولكي ترى مدى بشاعة تلك الجريمة النكراء فإننا نسوق هنا قائمة الافتراءات التي افتراها الخوارج كما لخصها القاضي أبو بكر بن العربي حيث يقول : « قالوا - متعدين متعلقين برواية كذابين - : جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير ، منها : ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه ، ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه وابتدع في جمع القرآن ، وحمى الحمى ، وأجلى أبا ذر إلى الربذة ، وأخرج من الشام أبا الدرداء ، ورد الحكم ، بعد أن نفاه رسول الله ﷺ وأبطل سنة القصر في الصلوات في السفر ، وولّى معاوية وعبد الله ابن عامر والوليد بن عقبة [١] وأعطى مروان خمس إفريقية [٢] .

وكان عمر يضرب بالدرة وضرب هو بالعصا ، وعلا على درجة رسول الله ﷺ - أي على منبره - وقد انحط عنها أبو بكر وعمر ، ولم يحضر بدرًا ، وانهزم يوم أحد وغاب عن بيعة الرضوان ، ولم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان ، وكتب مع عبده على جمله كتابًا [٣] إلى ابن أبي سرح في قتل من ذكر فيه [٤] .

إن هذه الافتراءات تبين بجلاء ذلك الحقد الدفين الذي انطوت عليه قلوب هؤلاء الخوارج من الموتورين والأعراب الأجلاف حتى ظنوا أنهم أعلم بالدين والكتاب والسنة من عثمان ﷺ وهو من السابقين الأولين الذين عاصروا الدعوة من بدايتها ، ولكي يكون الحكم على تلك الأكاذيب أكثر وضوحًا فإننا نسوق هنا تفنيد ابن العربي لهذه الافتراءات ، فهو يقول : « وهذا كله باطل سندًا ومتنًا ، أما قولهم : جاء عثمان بمناكير فباطل ، وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور ، وضربه لعمار إفك ، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبدًا ، وأما جمع القرآن فتلك حسنته العظمى

---

(١) سبق الحديث عن هؤلاء الولاة جميعًا .

(٢) لم يعط عثمان مروان خمس إفريقية ، بل كان وعد عبد الله بن سعد عندما وجهه لغزو إفريقية أن يعطيه خمس الخمس من الغنيمة تشجيعًا له على الغزو - انظر الطبري - تاريخ (٢٥٣/٤) وقد أخذ عثمان من ابن سعد هذا النفل عندما لم يوافق عليه الناس ، يقول الطبري : وقد شكوا عبد الله فيما أخذ ، فقال لهم - عثمان - : أنا نفلته . فإن رضيتم فقد جاز وإن سخطتم فهو رد . قالوا : فإنا نسخطه ، قال : فهو رد ، وكتب إلى عبد الله برد ذلك واستصلاحهم . تاريخ (٢٥٤/٤) وعثمان لم يكن مبتدعًا في ذلك بل كان مقتديًا بعمر ﷺ حيث نفل قبيلة بجيلة ربع الخمس زيادة على نصيبهم في الغنائم عندما وجههم إلى العراق . الطبري - تاريخ (٤٦٢/٣) .

(٣) بينا فيما سبق قصة هذا الكتاب .

(٤) العواصم من القواصم (ص ٦١ ، ٦٢) .

وخصلته الكبرى ... وأما الحمى فكان قديمًا منذ عهد الرسول ﷺ وصاحبيه ، وأما نفيه أبا ذر فلم يفعل ، ووقع بين أبي الدرداء ومعاوية كلام ، وكان أبو الدرداء زاهدًا فاضلًا قاضيًا لهم ، فلما اشتد في الحق وأخرج طريقة عمر في قوم لم يحتملوها عزلوه فخرج إلى المدينة ، وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين ، ولا تؤثر في منزلة أحد من المسلمين بحال ، وأبو الدرداء وأبو ذر بريئان من عاب ، وعثمان بريء أعظم براءة وأكثر نزاهة ، وأما رده الحكم فلم يصح ... وأما ترك القصر فاجتهاد ، وأما معاوية فعمر ولّاه وجمع له الشامات كلها ... وأما عبد اللّه بن عامر فولاه كما قال ؛ لأنه كريم العمات والخالات - أي رجل شريف صالح كفء - وأما الوليد بن عقبة ، فإن الناس على فساد النيات أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات فذكر الافترائيون أنه إنما ولاه للمعنى الذي تكلم به ، قال عثمان : ما وليته لأنه أخي ؛ إنما وليته لأنه ابن أم حكيم ، البيضاء عمة رسول اللّه ﷺ وتوأمة أبيه (١) ، والولاية اجتهاد ، وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص ، وقدم أقل منه درجة ، وأما قول القائلين في مروان والوليد فشديد عليهم ، وحكمهم عليهم بالفسق ، فسق منهم ؛ مروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ... وأما إعطاؤه خمس إفريقية لواحد فلم يصح ، على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس ، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده ، وأن إعطاءه لواحد جائز ... وأما قولهم : إنه ضرب بالعصا فما سمعته ممن أطاع أو عصى ، وإنما هو باطل يحكى .. وأما علوه على درجة رسول اللّه ﷺ فما سمعته ممن فيه تقية ، وإنما هي إشاعة منكر ليروى ويذكر ، فيتغير قلب من يتغير . قال علماؤنا : ولو صح ذلك فما في هذا ما يحل دمه ، ولا يخلو أن يكون ذلك حقًّا فلم تنكره الصحابة عليه ؛ إذ رأت جوازه ابتداء ، أو لسبب اقتضى ذلك ، وإن كان لم يكن فقد انقطع الكلام . وأما انهزامه يوم حنين ، وفراره يوم أحد ، ومغيبه عن بدر وبيعة الرضوان ، فقد بين عبد اللّه بن عمر وجه الحكم في شأن البيعة وبدر وأحد (٢) ، وأما يوم حنين

---

(١) ومع هذه القرابة القريبة من النبي ﷺ فكان الوليد أهلًا للولاية بشهادة ثقاة المؤرخين كما ذكرنا فيما سبق .

(٢) بين عبد اللّه بن عمر وجه الحق في هذه الأمور الثلاثة عندما سأله عنها رجل من أهل مصر ، فقال له ابن عمر : « تعال أبين لك ؛ أما فراره يوم أحد فأشهد أن اللّه عفا عنه وغفر له . وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول اللّه ﷺ - رقية رضي الله عنها - وكانت مريضة فقال له رسول اللّه ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدر وسهمه . وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه =

فلم يبق إلا نفر مع رسول الله ﷺ ولكن لم يجر في الأمر تفسير من بقي ممن مضى في الصحيح ، وإنما هي أقوال ، ... وهو أمر قد اشترك فيه الصحابة ، قد عفا الله عنه ورسوله ، فلا يحل ذكر ما أسقطه الله ورسوله ... وأما امتناعه عن قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب بالهرمزان فإن ذلك باطل ، فإن كان لم يفعل فالصحابة متوافرون ، والأمر في أوله وقد قيل : إن الهرمزان سعى في قتل عمر ، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه ، ... ولعل عثمان كان لا يرى على عبيد الله حقًّا ؛ لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله [١] ، ... وأما تعلقهم بأن الكتاب وجد مع راكب ، أو مع غلامه ولم يقل أحد قط : إنه كان غلامه [٢] إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، يأمره بقتل حامليه ، فقد قال لهم عثمان : إما أن تقيموا شاهدين على ذلك ، وإلا فيميني أني ما كتبت ولا أمرت ، وقد يكتب على لسان الرجل ، ويضرب على خطه ، وينقش على خاتمه ، فقالوا : لتسلم لنا مروان . فقال : لا أفعل ، ولو سلمه لكان ظالمًا ، وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان وسواه ، فما ثبت كان هو منفذه وآخذه والممكن لمن يأخذه بالحق ، ومع سابقته وفضيلته ومكانته لم يثبت عليه ما يوجب خلعه فضلًا عن قتله » [٣] .

وبعد أن فند ابن العربي هذه المزاعم الباطلة التي ادعاها خصوم عثمان ، بيَّن العلة الكامنة وراء فتنتهم فقال : « وأمثل ما روي في قصته أنه - بالقضاء السابق - تألَّب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها ؛ ممن طلب أمرًا فلم يصل إليه ، وحسد حسادة أظهر داءها ، وحمله على ذلك قلة دين وضعف يقين ، وإيثار العاجلة على الآجلة ، وإذا نظرت إليهم دلَّك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم وبطلان أمرهم [٤] . حقًّا إنها أحقاد أعمت بصائر من أثاروا الفتنة على عثمان ، فجعلتهم يقلبون الحق ويصيرونه باطلًا فهناك أمور أخذوها عليه واعتبروها من مثالبه ، وهي في الحقيقة من مفاخره ، خذ مثلًا قصة تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلماذا غاب عثمان عنها ؟ لقد تغيب عثمان

= مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان » انظر ابن العربي - العواصم من القواصم (ص ١٠٤) - والقصة في صحيح البخاري - كتاب فضائل الصحابة (ك ٦٢ب ٧) - (٢٠٣/٤ - ٢٠٤) .

(١) سبق أن ذكرنا أن القرائن تدل على اشتراك الهرمزان وجفينة مع أبي لؤلؤة في قتل عمر ﷺ .

(٢) وإنما قالوا : إنه غلام الصدقة ، أي أحد رعاة إبل الصدقة ، وإبل الصدقة ألوف كثيرة لها مئات من الرعاة - انظر محب الدين الخطيب هامش (١٠٩/١) من العواصم .

(٣) انظر ابن العربي - العواصم من القواصم (ص ٦٣) وما بعدها .

(٤) المصدر السابق (ص ١١١) .

عن بيعة الرضوان ؛ لأن الرسول ﷺ كان أرسله سفيرًا إلى قريش ، للتفاوض في صلح الحديبية ، وهي مهمة لم يجد الرسول ﷺ أحدًا من أصحابه أقدر عليها من عثمان ، فقد اعتذر عنها عمر بن الخطاب ، وخاف على نفسه من قريش لشدته عليها ، وقال للنبي ﷺ : « أدلُّك على رجل أعز بها - مكة - مني ؛ عثمان ابن عفان » [1] ، والبيعة كلها كانت من أجل عثمان ، لما أشيع أن أهل مكة قتلوه فقال : النبي ﷺ : « **إن كانوا فعلوها لن نبرح حتى نناجز القوم** » وبايعه أصحابه على القتال بيعة رضي اللَّه عنهم بسببها ، وحسب عثمان شرفًا أن أطهر يد في الوجود وهي يد الرسول ﷺ - نابت عن يده في البيعة ؛ فقد رفع الرسول ﷺ يده اليمنى وضرب بها على اليسرى ، وقال : « **هذه بيعة عثمان** » [2] . فهل نال هذا الشرف أحد من الصحابة غير عثمان ؟

يا سبحان اللَّه ! ويا عجبًا للعقول عندما يسكنها الشيطان ؛ فتحول الحق إلى باطل . وبعد فعثمان ﷺ - كما يقول ابن تيمية - : « أفضل من كل من تكلم فيه ، هو أفضل من ابن مسعود وعمار وأبي ذر ومن غيرهم من وجوه كثيرة ، كما ثبت بالدلائل الكثيرة ، فليس جعل كلام المفضول قادحًا في الفاضل بأولى من العكس [3] .

لقد كان القصد من دراسة الفتنة في عهد عثمان بيان أهم جوانبها وملابساتها ودوافعها ودلالاتها ، حتى يمكن معرفة الصلة بين تلك المؤامرة ومجريات الحوادث في تاريخ الدولة الأموية ، فلقد ألقت حركة الخوارج في عهد عثمان بظلالها الكثيفة على ما لحقها من أحداث في الدولة الأموية . بل في تاريخ الأمة الإسلامية حتى يوم الناس هذا .

فالذين أثاروا الفتنة أمثال عبد اللَّه بن سبأ ، لم ينتهوا بانتهاء أمر عثمان وعهده ، بل ظلوا يظهرون في صور وأشكال شتى ، فحركات الخوارج والشيعة والموالي في العصر الأموي ، ترجع أصولها إلى تلك الأحداث . فالذين خرجوا على عثمان وقتلوه ، هم أصحاب الاتجاه في الخروج على عليٍّ - كرم اللَّه وجهه - بعد التحكيم ، وتكفيره ثم قتله ، وهم وخلفاؤهم الذين ناصبوا الدولة الأموية العداء من

(١) انظر ابن هشام (٣/٣٦٣) .
(٢) المصدر السابق (٣/٣٦٥) - وانظر العواصم من القواصم (ص ١٠٥ ، ١٠٦) .
(٣) منهاج السنة (٣/١٩٢) .

أول يوم ، وشهروا في وجهها السلاح ، وكرهوا أن يعود الوئام والوحدة إلى الأمة الإسلامية ، وعاثوا في الأرض فسادًا .

إن دراسة تلك الفتنة الكبرى بكل جوانبها وأبعادها وشخصياتها تحتاج إلى دراسة متأنية تقوم على أساس البحث عن الحقيقة المجردة عن العواطف والزيف والمزاعم الباطلة ، وتعتمد على الروايات التاريخية الموثقة ، وعلى المصادر التي تخلص أصحابها من الميول والأهواء ، وبعدوا بها عن عقدة الولاء لهذا العهد أو ذاك ، أي أنها تعتمد في المقام الأول على كتب الحديث وكتب الرجال ، والمؤرخين المشهود لهم بالنزاهة والتجرد مثل الطبري وابن خياط ، نريد دراسة تحمل طابع الجدية والبحث عن الحقيقة بكل أبعادها ، وليست مثل تلك الدراسة التي نراها في كتب مثل كتاب « الفتنة الكبرى » الذي استقى صاحبه معلوماته من مصادر مشبوهة لم يمكنه التصريح بها ، فأنت تراه يقول : يقول الرواة ، ويزعم الرواة ، ويجمع الرواة ، ويختلف الرواة ... إلخ ، دون أن يعرفنا من هم هؤلاء الرواة .

إذا توفرت مثل هذه الدراسة ، فسوف تتغير مفاهيم كثيرة في تاريخنا الإسلامي ، كما أنها سوف تلقي الضوء على جوانب كثيرة لا تزال غامضة في مسار حوادثه

خلافة علي بن أبي طالب (٣٥ - ٤٠ هـ) :

روِّعت المدينة لمقتل عثمان ﷺ ، فلم يكن أحد من الصحابة يتصور أن تصل الجرأة بهؤلاء الأشرار إلى حد قتل الخليفة وسيطرة الخارجين على مدينة الرسول ﷺ .

فقد ظل الغافقي بن حرب ، زعيم ثوار مصر ، وممن تولوا كبر هذا الإثم ، يصلي بالناس خمسة أيام ، وساد الهرج والاضطراب عاصمة الإسلام ودار هجرة الرسول ﷺ ومنزل الوحي ، ولم يكن في استطاعة الثوار أن يقيموا خليفة منهم ، فهم يعلمون أن هذا أمرًا يخص المهاجرين وحدهم ، فأخذوا يعرضون على كبار الصحابة - علي وطلحة والزبير وابن عمر وسعد - ولكنهم كانوا يعرضون عنهم [١] ، تقديرًا منهم لضخامة المسؤولية . ولكن في هذا الجو العصيب الذي اضطربت فيه سفينة الأمة ، وماجت بها الأنواء وعصفت بها الرياح ، كان لا بد من قائد شجاع يتقدم ، ليحمل الراية وينقذ الأمة من هذه الفوضى وهذا التردي ، فلو وصل مقتل عثمان إلى الولايات قبل أن يعرف الناس لهم إمامًا ، فسيكون لذلك أسوأ النتائج ، وتحت إلحاح الصحابة وتقديرًا

---

(١) الطبري (٤٣٢/٤) .

للمسؤولية ، تقدم علي ﷺ ، وقبل التضحية ، ومن أولى منه بحمل هذا العبء الثقيل ؟ [١] روى الطبري ، مرفوعًا إلى أبي بشير العابدي ، قال : « كنت بالمدينة حين قتل عثمان ﷺ ، واجتمع المهاجرون والأنصار ، فيهم طلحة والزبير فأتوا عليًّا ، فقالوا : يا أبا الحسن ، هلم نبايعك ، فقال : لا حاجة لي في أمركم ، أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به ، فاختاروا واللّٰه . فقالوا : ما نختار غيرك ، قال : فاختلفوا إليه بعدما قتل عثمان ﷺ مرارًا ، ثم أتوه في آخر ذلك ، فقالوا له : إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة ، وقد طال الأمر ، فقال لهم : إنكم قد اختلفتم إليَّ وأتيتم ، وإني قائل لكم قولًا إن قبلتموه قبلت أمركم ، وإلا فلا حاجة لي فيه قالوا : ما قلت من شيء قبلناه إن شاء اللّٰه . فجاء فصعد إلى المنبر ، فاجتمع إليه الناس ، فقال : إني قد كنت كارهًا لأمركم ، فأبيتم إلا أن أكون عليكم ، ألا وإنه ليس لي أمر دونكم ، إلا أن مفاتيح مالكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهمًا دونكم ، رضيتم ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد عليهم ، ثم بايعهم على ذلك . قال أبو بشير : وأنا يومئذٍ عند منبر رسول اللّٰه ﷺ قائم أسمع ما يقوله » [٢] .

علي وعمال عثمان :

تمت بيعة علي ﷺ بأغلبية الصحابة من المهاجرين والأنصار ، في أواخر ذي الحجة سنة (٣٥هـ) فاستقبل بخلافته عام ٣٦ . وكان أول شيء فكر فيه هو تغيير عمال عثمان ، وأداه اجتهاده إلى أن هذه الفتنة كلها كانت بسبب هؤلاء العمال ، كما أن الثوار الذين أصبحوا قوة مؤثرة في توجيه الحوادث لن يقنعوا إلا بهذا ، ولن تستقيم الأمور بينهم وبين هؤلاء الولاة إذا بقوا في مناصبهم ، فصلاح الأحوال إذن - حسب اجتهاده - وتهدئة الأمور لم يكن ممكنًا إلا بعزلهم ؛ لذلك لم يقبل نصيحة من أشار عليه بإبقائهم بعض الوقت حتى تهدأ الأحوال ثم يرى رأيه . بل بدأ على الفور في تعيين ولاة جدد ، فعين عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد اللّٰه بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر ،

(١) يقول أبو بكر بن العربي : « ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتقًى ودينًا ، فانعقدت له البيعة ، ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلي لجرى على من بها - المدينة - من الأوباش ما لا يرقع خرقه ، ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى ذلك فرضًا عليه فانقاد إليه » العواصم من القواصم (ص ١٤٢) .

(٢) تاريخ الطبري (٤/٤٢٧ ، ٤٢٨) - ولعل هذه الرواية من شاهد عيان تقنع من يدَّعون أن طلحة والزبير بايعا مكرهين ، فقد كانا من الذين ألحوا على علي في قبول الخلافة .

وسهل بن حنيف على الشام [١] . وقد استطاع ثلاثة من هؤلاء الوصول إلى ولاياتهم ومباشرة أعمالهم دون مشاكل ؛ فعثمان بن حنيف وصل البصرة ، وقد تركها واليها السابق عبد اللَّه بن عامر ، وعبيد اللَّه بن عباس وصل إلى اليمن ، وتركها واليها يعلى ابن أمية [٢] ، ووصل قيس بن سعد إلى مصر – وكان عبد اللَّه بن سعد واليها السابق قد غادرها قبل مقتل عثمان فلم يعد إليها – فغلب عليها محمد ابن أبي حذيفة وهو من مثيري الفتنة على عثمان .

أما والي الكوفة الجديد ، عمارة بن شهاب فلم يتمكن منها ؛ لأن أهلها تمسكوا بأبي موسى الأشعري فقبل الخليفة منهم ذلك وأقر أبا موسى ، فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم [٣] .

كذلك لم يستطع والي الشام الجديد سهل بن حنيف ، الوصول إلى ولايته فقد رده أهل الشام ومنعوه من دخولها [٤] ، وكان ذلك متوقعًا ؛ لأن معاوية لم يكن ليسلم بعزله بسهولة . وقد كتب علي إلى معاوية كتابًا يدعوه فيه إلى البيعة والدخول في الجماعة ، ولكنه لم يتلقَّ منه ردًّا [٥] . وبعد عدة شهور أرسل معاوية إلى علي كتابًا ، في صدره جملة واحدة : « من معاوية إلى علي » وأمر حامل الكتاب أن يظهره للناس ، عندما يصل إلى المدينة ، فلما قرأ الناس هذه الجملة عرفوا أن معاوية معترض [٦] . و قد بنى معاوية اعتراضه على بيعة علي ﷺ على المطالبة بدم عثمان ، فقد سأل علي حامل كتاب معاوية : ما وراءك ؟ قال : « ورائي أني تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود ، قال : ممن ؟ قال : من خيط نفسك ، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق . فقال : مني يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتورًا كترة عثمان ؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان » [٧] .

وضح أن معاوية لن يستجيب لعلي وقد عزله . وكان ذلك متوقعًا – كما ذكرنا آنفًا – وقد كان ابن عباس وغيره أشاروا على علي بإبقاء معاوية ؛ لأنهم يعلمون أنه

---

(١) انظر الطبري – تاريخ (٤٤٢/٤) .
(٢) انظر الطبري تاريخ (٤٤٣/٤) .
(٣) الطبري (٤٤٣/٤) ، وابن الأثير (٢٠٢/٣) .
(٤) الطبري (٤٤٢/٤) ، وابن الأثير (٢٠١/٣) .
(٥) الطبري (٤٤٣/٤) ، وابن الأثير (٢٠٢/٣) .
(٦) الطبري (٤٤٣/٤) ، وابن الأثير (٢٠٣/٣) .
(٧) الطبري (٤٤٤/٤) ، وابن الأثير (٢٠٣/٣) .

لن يقبل العزل .

ولكن عليًّا أبى عليهم ، واستعمل حقه كخليفة مسؤول يعزل من يشاء ويولي من يشاء طبقًا لاجتهاده ، ولما يراه محققًا لمصلحة الأمة ، وكنا نتمنى أن يستجيب معاوية ، وأن يقبل قرار الإمام ، وأن يتأسى في ذلك بسعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، عندما عزلهما عمر بن الخطاب ، فقبلا وآثرا صالح الأمة على نفسيهما ، ولكن معاوية لم يفعل .

أو أن يسمع علي نصيحة عبد اللّه بن عباس بإبقاء معاوية على الشام فقد كان موضع رضا أهلها ، فهم متمسكون به لحزمه وضبطه لولايته وسهره على أمنها ، ولهذا لم تنبعث منهم شكوى ضده ، ولم يشترك أحد منهم في الفتنة ، وقد أبقى الإمام علي أبا موسى الأشعري واليًا على الكوفة ، بناء على رغبة أهلها ، فلماذا لم يبق معاوية على الشام ، وقد كان أهلها أشد استمساكًا به من أهل الكوفة بأبي موسى ؟

الحق أنه كان من الخير للأمة لو أبقى علي معاوية على الشام ، ولو فعل ذلك فقد كان يمكن أن تتفادى الأمة كثيرًا من الحوادث والعقبات التي شغلت بها وأعاقتها عن مواصلة مسيرتها زمنًا ، ولكنها إرادة اللّه وقضاؤه .

تبودلت الرسل والمراسلات بين علي ومعاوية ، ولكنها لم تؤدِّ إلى نتيجة ، فقد تمسك عليٌّ برأيه في عزل معاوية ، كما بقي معاوية على مطالبته بالقصاص من قتلة عثمان ، أو تسليمهم إليه باعتباره ولي دم عثمان ، قبل النظر في البيعة .

وبدأت الأمور تسوء من جديد ، وأخذ الأمل الذي راود المسلمين عندما بايعوا عليًّا في المدينة ، أن يكون في مقتل عثمان كفاية ، وأن تستقبل الأمة عهدها الجديد بالخروج من الفتنة ، أخذ هذا الأمل يتبدد ، وأدرك الناس أن الأمة مقبلة على أمر عظيم ، بدأت علاماته تلوح في الأفق ، فقد راح الخليفة في المدينة يعد العدة للمسير بجيشه إلى الشام لرد معاوية إلى الطاعة بالقوة [1] ، ولكنه قبل أن يسير إلى الشام وافته أخبار بأمرٍ آخر لم يكن في حسبانه .

موقعة الجمل :

كانت عائشة رضي الله عنها عندما قُتل عثمان في مكة ، وبلغها خبر مقتله وهي عائدة إلى المدينة فرجعت إلى مكة ، وهناك جاءها طلحة والزبير ، حيث كانا قد استأذنا

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٤٤٥/٤) .

عليًّا لأداء العمرة ، كما تجمع عندها بنو أمية ، وأخذوا يتداولون الأمر فيما بينهم ، فأداهم اجتهادهم إلى المطالبة بالثأر لعثمان ، وقد حدثتهم عائشة ، قائلة : « إن هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأنكروه ، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم ، لعل اللَّه ﷻ يدرك لعثمان وللمسلمين ثأرهم »(١) .

لقد كان حدثًا عظيمًا حقًّا ، وأمرًا منكرًا ، وعدوانًا على الأمة كلها ، ولكن اجتهاد أم المؤمنين ومن سار في ركابها لم يكن موفقًا - وإن كان المراد به الإصلاح ووضع الأمور في نصابها - لأن الطريقة التي اتخذت لذلك كانت بعيدة عن الصواب ، فليس من الحكمة أن يعالج مثل ذلك الأمر بتكوين جيش غير جيش الخليفة المبايع من الأمة ، والذي أصبح منوطًا به إقامة الحدود .

كما أن الطريق الصحيح لوضع الأمور في نصابها لم يكن إلى البصرة ، وإنما كان إلى المدينة ، حيث أمير المؤمنين ، وهو أشد ما يكون في هذا الظرف إلى من يشد أزره ويساعده على جمع كلمة الأمة وبخاصة من ذوي المكانة العالية بين الناس من أمثال عائشة والزبير وطلحة ، ولو أنهم فعلوا ذلك لما فكر أحد في الذهاب إلى البصرة دونهم ، ولما وقع ما يسمى بيوم الجمل الذي لا يزال المسلمون يذكرونه بالحسرة والألم .

أسباب خروج عائشة وطلحة والزبير على الخليفة :

ذهب الناس مذاهب شتى في خروج عائشة وطلحة والزبير على عليّ رضي اللَّه عنهم جميعًا ، وجنح الخيال ببعض الباحثين إلى القول بأن عائشة كانت لا تزال واجدة على موقف علي منها في حادثة الإفك(٢) ؛ فكرهت إمارته ، وأرادت أن تفسد عليه أمره ، وهذا القول أبعد ما يكون عن الحق والحقيقة ، فعائشة أتقى وأبر من أن يكون هذا خلقها ، وسوف نرى فيما دار بينها وبين علي بعد معركة الجمل أنها لم تكن تفكر في شيء من هذا مطلقًا .

كما ذهب البعض إلى أن طلحة والزبير خرجا على عليٍّ ؛ لأنه رفض أن يوليهما على بعض الولايات(٣) ، وادعى البعض أنهما بايعا مكرهين ، وكلا الزعمين غير مسلَّم به .

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٤/٤٤٤) .

(٢،٣) انظر : د . طه حسين ، الفتنة الكبرى (٢/٢٠ - ٢٥) .

أما أولهما : فإن طلحة والزبير قد رفضا الخلافة ذاتها ، فكيف يغضبان من أجل الولاية ؟ كما أنهما لم يتوليا شيئًا من الأعمال في عهود أبي بكر وعمر وعثمان ؛ وذلك حرصًا من الخلفاء على بقاء كبار الصحابة إلى جوارهم في المدينة للتشاور معهم في أمور الأمة ، والاستفادة بآرائهم وحكمتهم ، فطلحة والزبير أكبر من أن يغضبا على فوات ولاية .

وأما ثانيهما : فقد سبق أن عرفنا أن طلحة والزبير كانا مع الصحابة الذين ألحوا على علي في قبول البيعة ، وأنهما بايعاه طائعين ، ثم لماذا يكرههما الخليفة على بيعته ، وقد تخلف عنها غيرهما من كبار الصحابة ولم يكرههم على ذلك ، مثل سعد بن أبي وقاص ، وعبد اللَّه بن عمر ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وأبي سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ونفر غيرهم ؟ [١] .

فلماذا يلجأ الخليفة إلى إكراه طلحة والزبير ، وليس غيرهما بأقل منهما شأنًا وتأثيرًا ؟ أغلب الظن أن الروايات التي تبرز أمر إكراههما على البيعة إنما ترمي إلى الربط بين الإكراه وبين الخروج إلى البصرة حتى تشكك في نواياهم الحقيقية في الخروج ، والتي لم تكن إلا اجتهادًا لأخذ الثأر من قتلة عثمان .

وإذن فخروج عائشة وطلحة والزبير لم يكن لسبب من تلك الأسباب ، وإنما كان ذلك - في اعتقادي - اجتهادًا منهم للمطالبة بدم عثمان ، وإن كان اجتهادًا قد جانبه الصواب . وقد كلم طلحة والزبير عليًا في أمر القصاص من قتلة عثمان بعد بيعته مباشرة ، وقبل أن يغادرا المدينة ، فقال لهما ، يا إخوتاه ، إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا : لا . قال : فلا واللَّه لا أرى رأيًا ترونه إن شاء اللَّه » [٢] ، ثم وعدهم بعد أن تهدأ الأمور أن ينظر وإياهم في الأمر ، فوافقوه على ذلك ، ولكنهم حينما تذاكروا مقتل عثمان مع عائشة وبني أمية في مكة هالهم الأمر وأحسوا بتقصيرهم عن نصرته ، وشعروا بالذنب الذي أوقعتهم فيه دعايات الثوار ووشايتهم على عمال عثمان حتى ظنوا ذلك صحيحًا لدرجة أنهم كانوا يتعاطفون معهم أحيانًا ويشاركونهم في توجيه النقد للخليفة أحيانًا أخرى ،

---

(١) انظر فيمن تخلف عن بيعة علي من الصحابة : الطبري - تاريخ (٤/٤٢٨ - ٤٣٠) .
(٢) الطبري - تاريخ (٤/٤٣٧) .

ولكنهم لم يكتشفوا كذب الثوار وتجنيهم على عثمان وعماله إلا بعد فوات الأوان . وقد جاء ذلك صريحًا على لسان عائشة رضي الله عنها حيث قالت قبل معركة الجمل : « كان الناس يتجنون على عثمان رضي الله عنه ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة ، فيستشيروننا فيما يخبرونا عنهم ، ويرون حسنًا من كلامنا في صلاح بينهم [1] ، فننظرْ في ذلك فنجده برًّا تقيًّا وفيًّا ، ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون ، فلما قووا على المكاثرة كاثروه ، فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة ولا عذر ، ألا إن مما لا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه ، وإقامة كتاب الله عز وجل » [2] .

وكانت عائشة كثيرًا ما تردد قولها : « غضبت لكم من سوط عثمان ، أفلا أغضب له من سيوفكم ؟! » ولهذا فقد دفعهم هذا الشعور بالتقصير والإحساس بالذنب إلى ما أداهم إليه اجتهادهم ، وهو النهوض للقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه ، وهو وإن كان اجتهادًا قد جانبه الصواب ، إلا أن ذلك لا يقدح في شخصياتهم فالصحابة ليسوا معصومين من الخطأ ، وهم لم يكونوا يتعمدونه أو ينوون به شرًّا .

مسير عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة :

أجمعت عائشة وطلحة والزبير على المسير إلى البصرة ، وكان معهم حوالي ألف رجل ، جهزهم يعلى بن أمية وعبد الله بن عامر ، ثم لحق بهم حوالي ثلاثة آلاف [3] ، وكلما اقتربوا من البصرة ازدادت أعدادهم نظرًا لوجود عائشة معهم ، حتى بلغ عددهم نحوًا من ثلاثين ألفًا . فلما علم والي البصرة عثمان بن حنيف بوصولهم ، أرسل عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي ، وقال لهما : « انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها ، فخرجا فانتهيا إليها وإلى الناس وهم بالحفير ، فاستأذنا فأذنت لهما ، فسلما وقالا : إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرتك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ فقالت : والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطي لبنيه الخبر ، إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل ، غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثوا فيه

(١) هذا الكلام الحسن الذي كان يسمعه الثوار من عائشة وغيرها من الصحابة ربما شجعهم وجرأهم على تزوير كتب على لسان الصحابة – كما مر بك – لإذاعتها بين الناس لإقناعهم أن الصحابة يوافقونهم في آرائهم .

(٢) الطبري – تاريخ (٤/٤٦٤) وابن الأثير – الكامل في التاريخ (٣/٢١٣) .

(٣) ابن الأثير – الكامل في التاريخ (٣/٢٠٨) .

الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة اللّٰه ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر .. فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم » [١] . ثم خرجا من عندها ، فأتيا طلحة والزبير ، وسألاهما عن سبب مسيرهما إلى البصرة ، فقالا لهما : « الطلب بدم عثمان » [٢] رجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف فأخبراه الخبر ، فقال : « إنا للّٰه وإنا إليه راجعون ! دارت رحى الإسلام ورب الكعبة » [٣] وعزم على منعهم من دخول البصرة . ودارت بينهم معركة الزابوقة ، وكان الذي أشعل المعركة رجال عثمان بن حنيف ، وبصفة خاصة حكيم ابن جبلة العبدي ، أحد زعماء الفتنة ، أما عائشة وطلحة والزبير فلم يكونوا راغبين في القتال ، بل كانوا يناشدون رجال ابن حنيف الكف عن القتال فيأبون [٤] ، ولكن لما عضتهم الحرب وكثرت القتلى تنادوا إلى الصلح : « ثم اصطلحوا وكتبوا بينهم كتابًا ، أن يكفوا عن القتال ، ولعثمان دار الإمارة والمسجد وبيت المال ، وأن ينزل طلحة والزبير حيث شاءا ، ولا يعرض بعضهم لبعض حتى يقدم علي » [٥] .

مسيرة علي إلى البصرة :

قرر الإمام علي ﷺ تأجيل مسيره إلى الشام ، وأن يتوجه إلى البصرة ، لمواجهة هذا الموقف الجديد ، الذي لم يكن في حسبانه ، فسار حتى وصل إلى ذي قار ، فوافاه هناك حوالي اثني عشر ألفًا من أنصاره من الكوفة ، ومع أن القتال كان قد نشب من جديد بين والي البصرة عثمان بن حنيف وبين طلحة والزبير ، وأنهم أخرجوه من دار الإمارة ، ونتفوا لحيته وأهانوه وحبسوه ، ثم أطلقوا سراحه بناء على أمر من عائشة ، فوافى عليًّا فأخبره الخبر ، رغم هذا كله إلا أن عليًّا – كبرهان على عدم رغبته في القتال – أرسل إليهم رجلًا من خيرة الصحابة وهو القعقاع بن عمرو ، ليعرف خبرهم وماذا يريدون ، فقال له : « الق هذين الرجلين ... فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة » [٦] فخرج القعقاع إلى البصرة ، وبدأ بعائشة ، قال لها : « أي أمه ، ما أشخصك وأقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ،

(١ ، ٢) الطبري (٤/٤٦٢) ، وابن الأثير (٣/٢١١) .
(٣) الطبري (٤/٤٦٣) ، وابن الأثير (٣/٢١٢) .
(٤) الطبري (٤/٤٦٦) ، وابن الأثير (٣/٢١٤) .
(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٨٣) .
(٦) ابن الأثير – الكامل في التاريخ (٣/٢٣٢) .

الإصلاح بين الناس . قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال لهما : إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها ؟ فقالت : الإصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ؟ فواللَّه لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح ، قالا : قتلة عثمان ، فإن هذا إن ترك كان تركًا للقرآن ، قال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة [1] . وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص ابن زهير ، فمنعه ستة آلاف ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم ، فالذي حذرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم ربيعة ومضر من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . قالت عائشة : فما تقول أنت ؟

قال : أقول : إن هذا الأمر دواؤه التسكين ، فإذا أسكن اختلجوا فإن بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه ؛ كانت علامة شر ، وذهاب هذا المال ، فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء ، فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم ... قالوا : قد أصبت وأحسنت ، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر . فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك ، وأشرف القوم على الصلح » [2] .

نستخلص من هذا الحوار حقيقتين :

أولاهما : أن عليًا ﷺ كان على صواب عندما قال لهم من البداية : إنه من الحكمة تأجيل القصاص من القتلة حتى تهدأ الأحوال ، فهاهم بعدما قتلوا من قتلوا ازدادت الأمور سوءًا ، وتعمقت الأحقاد والثارات .

الحقيقية الثانية : أن عائشة ومن معها خرجوا يبغون الإصلاح حسب ما أداهم إليه اجتهادهم ، وأن طلحة والزبير لم يكن غضبهما لفوات إمارة منعها عنهما الخليفة

---

(١) كان معظم الذين اشتركوا في الفتنة وقتل عثمان ، قد قتلوا في المعارك التي دارت في البصرة قبل قدوم علي ، ما عدا حرقوص بن زهير السعدي ، فقد منعه قومه فلم يستطع أحد الوصول إليه .

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٣٣/٣ ، ٢٣٤) والطبري - تاريخ (٤٨٩/٤) .

كما يدعي بعض الباحثين [١] .

وخلاصة القول : أن الجميع كانوا يريدون الإصلاح - كل حسب اجتهاده - ولكن عناصر الشر التي كانت لا تزال على عهدها ، أفسدت هذا المسعى الخير الذي قام به القعقاع بن عمرو .

السبئية يفسدون أمر الصلح ويبدؤون المعركة :

سُرَّ علي غاية السرور بالنتيجة التي توصل إليها القعقاع مع طلحة والزبير وعائشة وسُرَّ بها أهل الصلاح من الفريقين ، وباتوا يغمرهم الفرح ، ولكن السبئية الذين كانوا في جيش علي ما أن وصلتهم أخبار الصلح المرتقب حتى راحوا يعملون على إفساد الأمر ، ومنع وقوع الصلح بين الفريقين .

ونقول للحقيقة : إن عليًا لم يكن له حيلة في وجودهم في جيشه ، فلم يكن قادرًا على إبعادهم ؛ لأنهم كانوا قوة كبيرة والذي يلومه على وجودهم في جيشه لا يقدر الظروف الواقعية حق تقديرها [٢] . على أية حال تحرك السبئية ونشط عبد الله ابن سبأ بين أتباعه ، يحرضهم على القتال ، وقال الأشتر النخعي لما علم بأنباء الصلح : « قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا ، وأما علي فلم نعرف رأيه إلى اليوم ، ورأي الناس فينا واحدًا ؛ فإن يصطلحوا مع عليٍّ فعلى دمائنا ، فهلموا بنا نثب على عليٍّ فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون » [٣] ولكن هذا الرأي الخطير ، الذي أبداه الأشتر ، لم يعجب ابن السوداء وكأنه لم يقنع بقتل علي وحده ، بل يريدها حربًا شاملة تذهب بالمسلمين جميعًا ، فرفض فكرة الأشتر وقال له : « بئس الرأي رأيت » [٤] وبدأ يحض أتباعه على القتال قبل أن يصبح الناس ، فكان له ما أراد ، فقد داهمت فرقة من جيش علي - دون علمه - جيش طلحة والزبير وعائشة في جنح الظلام ، والتحم القتال ولم يستطع أحد إيقافه ، وقتل من الفريقين نحو عشرين ألفًا ، من بينهم طلحة والزبير ، وكثر القتل حول الجمل ، ولولا أمر علي بعقره ، لكانت العاقبة أفظع مما حدث [٥] .

---

(١) د . طه حسين - الفتنة الكبرى (٢/ ٢٠) . (٢) انظر الذهبي - دول الإسلام (١/ ٢٨) .
(٣) الطبري - تاريخ (٤/ ٤٩٣) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/ ٢٣٥) .
(٤) انظر الطبري (٤/ ٤٩٤) - وابن الأثير (٣/ ٢٣٥) .
(٥) انظر الذهبي - دول الإسلام (٢/ ٢٨) ، تاريخ خليفة بن خياط (ص١٨٢) وما بعدها ، والطبري تاريخ (٤/ ٥٠٦) وما بعدها وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/ ٢٥٤) وما بعدها .

ومن هنا فإن إلقاء تبعة هذه المعركة على هذا الفريق أو ذاك من الصحابة ضرب من الظن الذي لا ينفك غالبًا عن الإثم ، ولهذا فنحن مع ابن خلدون حين يقول : « وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين . . وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى اللَّه بها الأمة » [١] .

حقًّا لقد كانت فتنة ، التبس الأمر فيها على الجميع حتى قال الزبير قبل المعركة : « إن هذه للفتنة التي كنا نحدث عنها . فقال له مولاه : أتسميها فتنة وتقاتل بها ؟ قال : ويحك ! إنا نبصر ولا نبصر ، ما كان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمي فيه ، غير هذا الأمر ، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر ؟! » [٢] . وإذا كان لا بد من تحديد المسؤول عن تلك المأساة الدموية ، فهم أولئك السبئية الذين سعوا في الفتنة من البداية وعاجلوا الناس بإشعال الحرب قبل أن ينتهي الأمر بهم إلى الصلح .

وإذا كان من واجب المؤرخ أن يبحث عن الأسباب والدوافع في مسار حوادث التاريخ ، فإنه لا يفوته أن ينبه إلى استخلاص العبر منها ، ولا شك أن خير الأمة الإسلامية وأمنها كان يكمن في وحدتها واتفاق كلمتها ، واعتصامها بحبل اللَّه المتين أمام تلك الفتنة الشعواء .

يقول الإمام ابن تيمية : « إن الفتن إنما يعرف ما فيها من الشر إذا أدبرت فأما إذا أقبلت فإنها تزين ويظن أن فيها خيرًا ، فإذا ذاق الناس ما فيها من الشر والمرارة والبلاء صار ذلك مبينًا لهم مضرتها وواعظًا لهم أن يعودوا في مثلها ... ومن استقرأ أحوال الفتنة التي تجري بين المسلمين تبين له أنه ما دخل فيها أحد ، فحمد عاقبة دخوله فيها ؛ لما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه » [٣] . وقد ندم الجميع بالفعل على ما كان فقد قالت عائشة بعد المعركة : « واللَّه لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » ووردت نفس العبارة على لسان علي ، فكان قولهما وحدًا كما يقول الطبري [٤] .

حقًّا لقد كان الدرس قاسيًا بالنسبة لها حتى إنها نأت عن الاشتراك في أي عمل سياسي بعد ذلك ، وتفرغت للعلم والفتيا والعبادة ، حتى آخر حياتها . انتهت المعركة وأخذ الإمام علي يتجول بين عشرين ألفًا من القتلى والألم يعتصر قلبه ، فقد كان كثير منهم من خيرة رجالات الأمة وشبابها ، ثم أمر بدفنهم ، وذهب إلى عائشة التي

(١) المقدمة (٦١٩/٢) .
(٢) ابن الأثير – الكامل في التاريخ (٣٢٠/٣) .
(٣) منهاج السنة (٢٠٩/٢ ، ٢١٠) .
(٤) تاريخ (٥٣٧/٤) .

كانت قد حملت بهودجها بعد عقر جملها وأدخلت أحد بيوت البصرة - لزيارتها ومواساتها ، وتبادلا كلمات العتاب التي تدل على حسن رأي كل منهما في الآخر ؛ فقد قالت عائشة في حضرة علي : « يا بني لا يعتب بعضنا على بعض ، والله إنه ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها ، وإنه على معتبتي لمن الأخيار ، وقال علي : صدقت ، والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك ، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة (١) . ولعل هذا القول يقطع ألسنة السوء التي تدعي أنها خرجت عليه لحنقها منذ حادثة الإفك . جهز علي أم المؤمنين بما يليق بها من مركب وزاد ومتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ، وسير أخاها محمد بن أبي بكر معها وودعها إلى المدينة (٢) .

معركة صفين :

انتهت مأساة الجمل بهذه الخسارة الجسيمة ، وكان يجب أن يستفيد المسلمون من عبرتها ويتدبروا أمرهم في ضوء نتائجها ، ولكن الفتنة أبت إلا أن تجرهم لخوض معركة أخرى أشد ضراوة وأكثر ضحايا وهي معركة صفين .

فبعد معركة الجمل دخل علي الكوفة ، واستأنف مفاوضاته مع معاوية فأرسل له وفدًا وكتابًا مع جرير بن عبد الله البجلي . يذكره فيه بأن المهاجرين والأنصار قد بايعوه ، وعليه أن يدخل في الطاعة والجماعة ، ولكن مصير هذه السفارة كان كسابقاتها ، وعاد جرير ليبلغ عليًا بإجماع معاوية وأهل الشام على المطالبة بدم عثمان ، وعلى القتال إذا لزم الأمر (٣) .

وقد قوي أمر معاوية بالتفاف أهل الشام حوله ، وطاعتهم له ، فمنذ أن وصلهم قميص عثمان مع النعمان بن بشير الأنصاري ، وضع معاوية القميص على المنبر وأصابع نائلة - زوجة عثمان - معلقة فيه ، وكتب إلى الأجناد ، فثاب إليه الناس ، وأخذوا يبكون « وآلى الرجال من أهل الشام على أنفسهم ألا يأتوا النساء ، ولا يمسهم الغسل إلا من احتلام ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان » (٤) .

لقد بات الصدام بين الفريقين وشيكًا ، فقد تحرك علي بجيشه من الكوفة إلى الشام ، وعلم معاوية بمسيره ، فاستشار رجاله ، ومنهم عمرو بن العاص فأشاروا عليه

(١ ، ٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٥٨/٣) .
(٣) انظر الطبري (٥٦١/٤ ، ٥٦٢) . (٤) انظر المصدر السابق (٥٦٢/٤) .

بأن يخرج هو أيضًا بنفسه على رأس جيشه ، فسار ثم عسكر الجيشان قرب صفين ، وكان جيش علي حوالي مائة وعشرين ألفًا ، وجيش معاوية حوالي تسعين ألفًا ، وقبل نشوب المعركة عاود علي إرسال الوفود والكتب إلى معاوية واقترح أحد رجال علي عليه بأن يلوح لمعاوية بإمارة ، فقد قال له شبث بن ربعي : « يا أمير المؤمنين ألا نطمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة يكون لها أثرة عندك إن هو بايعك ؟ فقال علي : ائتوه فالقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه » (١) . وتلك إجابة لا تنم على موافقة علي على اقتراح ابن ربعي ، وقد كانت الحكمة تقتضي أن يوافق الإمام فالظروف الراهنة تحتم ذلك ، وبخاصة أن مأساة الجمل ونتائجها لا تزال ماثلة أمام أعين المسلمين ، ولكن تلك الفرصة ضاعت كغيرها من الفرص الأخرى ، وأصر علي على موقفه من معاوية ، كما أصر معاوية أيضًا على موقفه ، ومما جعل الموقف يزداد توترًا واشتعالًا أن بعض الرجال الذين كان يرسلهم علي إلى معاوية كانت تنقصهم الحكمة ، وسعة الصدر ولين الجانب . فقد كانوا يغلظون لمعاوية في القول ويكلمونه بلهجة فيها استعلاء عليه وازدراء به ، ويتهمونه صراحةً في وجهه بأنه أحب قتل عثمان ، ليتخذ منه ذريعة إلى الوصول إلى الخلافة وأنه لو أراد نصرته لكان قادرًا على ذلك (٢) . وقد رد معاوية على شبث بن ربعي عندما واجهه بهذا الكلام قائلًا : « لقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي ، فليس بيني وبينكم إلا السيف وغضب » (٣) ورد عليه شبث بكلام أشد من هذا ، ولا شك أن الموقف كان يتطلب من هذا الرسول أن يكون على درجة عالية من الحنكة السياسية وسعة الأفق ، وأن يركز على البحث على المصالحة والانضواء تحت راية الجماعة ، فليس بغليظ الكلام وجافي القول تستمال القلوب . وهكذا فشلت الدبلوماسية المتهورة ، فبدأت المناوشات بين الجيشين وكان الجميع يخشى الصدام المباشر والحرب الشاملة ، يقول الطبري : « فأخذ علي يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة ، ويخرج إليه من أصحاب معاوية جماعة ، فيقتتلون في خيلهما ورجالهما ، ثم ينصرفان ، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام ؛ لما يتخوفون أن يكون في ذلك الاستئصال والهلاك » (٤) . استمرت هذه المناوشات في ذي الحجة سنة (٣٦هـ) ، ثم تهادنوا في المحرم سنة (٣٧هـ) . طمعًا في الصلح كما يقول الطبري (٥) :

---

(١) المصدر السابق (٥٧٣/٤) . (٢ - ٤) المصدر السابق (٥٧٤/٤) .

(٥) تاريخ (٦/٥) وانظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٨٩/٣) .

« ومشت الوفود من جديد ولكن دون جدوى » .

ولما انتهى المحرم ، ولم تنجح المفاوضات في عقد صلح ، بدأ الاستعداد للقتال من الفريقين ، وبدأت المعركة الرئيسية في يوم الأربعاء ، لسبع خلون من صفر سنة (٣٧هـ) . وكان لواء علي مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وكان علي نفسه في القلب ومعه مضر البصرة والكوفة ، وفي الميمنة أهل اليمن وعليهم الأشعث ابن قيس ، وفي الميسرة ربيعة وعليهم ابن عباس .

أما لواء معاوية فكان مع المخارق بن الصباح الكلاعي ، وفي القلب معاوية نفسه في الشهباء أصحاب البيض والدروع ، وفي ميمنته أهل اليمن ، وفي الميسرة مضر وعليهم ذو الكلاع ، ودارت الحرب ثلاثة أيام متوالية : الأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، ولما اشتد القتال وكثرت القتلى من الفريقين ، تنادى الناس : مَنْ لثغور العراق إن فني أهل العراق ؟ ومَنْ لثغور الشام إن فني أهل الشام ؟ ثم رفعوا المصاحف ليلة السبت ، ودعوا إلى الصلح ، وافترقوا على سبعين ألف قتيل : خمسة وأربعون ألفًا من أهل الشام ، وخمسة وعشرون ألفًا من أهل العراق [١] . إنها كارثة مفزعة وخسارة فادحة ؛ ففي أقل من عام خسرت الأمة من أبنائها حوالي مائة ألف قتيل - في الجمل وصفين - فأي ابتلاء أصاب الأمة الإسلامية ؟! ولو أن كبار الرجال فيها أصغوا إلى صوت العقل والحكمة لتوجهت تلك الآلاف إلى الفتوحات ، ولتغير وجه التاريخ ، ولضاعت فرصة الذين لا يزالون يتربصون بالأمة الإسلامية الدوائر إلى الأبد .

التحكيم :

هال الناس استعار الحرب وكثرة القتلى ، فماذا يمكن أن يحدث لو طالت بها الأيام أكثر من ذلك ؟ من هنا جاءت فكرة رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى كتاب الله ﷻ ؛ إبقاءً على البقية الباقية من المسلمين ، ومهما قيل عن هذه الفكرة وصاحبها عمرو بن العاص - حيث صورت على أنها خدعة لإنقاذ جيش معاوية من الهزيمة [٢] - إلا أنها وبكل المقاييس كانت أفضل من استمرار القتال ، وما أظن الرواية التي تذهب إلى أن عليًا كان كارهًا لها وأنه قال لأصحابه : « وما رفعوها - المصاحف - لكم إلا دهنًا وخديعة ومكيدة » [٣] . ما أظنها إلا محاولة للتأكيد على

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٩٣ ، ١٩٤) ، والطبري - تاريخ (١٥/٥) وما بعدها وأبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم (ص١٧٣) .

(٢) انظر المسعودي - مروج الذهب (٤٠٠/٢) . (٣) الطبري - تاريخ (٤٩/٥) .

أن الفكرة كانت خدعة ، وإنه ليخامرني الشك في صحتها لسببين :

الأول : أن راويها هو أبو مخنف ، وهو مؤرخ شيعي معروف ، فهو محل شك .

الثاني : أن أبا مخنف يذكر الوليد بن عقبة وعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح فيها ويعتبرهما ممن حضر صفين [١] . وهذا غير صحيح ؛ فالثابت أن الوليد بن عقبة وعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح ، اعتزلا بعد مقتل عثمان ، ولم يحضرا صفين ولا الجمل ، فالوليد بن عقبة كما يقول الذهبي : « اعتزل بالجزيرة بعد قتل أخيه عثمان ولم يحارب مع أحد من الفريقين » [٢] .

ويقول عن عبد اللَّه بن سعد : وروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال : أقام عبد اللَّه بن سعد بعسقلان بعد قتل عثمان وكره أن يكون مع معاوية [٣] . فذكر الوليد ابن عقبة وعبد اللَّه بن سعد فيمن حضر صفين في رواية أبي مخنف يقطع بعدم صحتها . ثم إنه من المستبعد أن يرفض علي التحكيم والصلح ويكره حقن الدماء ، وهو الذي أرسل العديد من الوفود إلى معاوية قبل المعركة وأثناءها سعيًا إلى المصالحة ؛ لذلك نرجح أن فكرة التحكيم كانت دعوة صادقة لحقن الدماء والمصالحة ، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرفع المسلمون فيها المصاحف لوقف القتال ، ولم تكن الفكرة اختراعًا من عمرو بن العاص لم يسبق إليه ، فقد أمرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا برفع المصاحف يوم الجمل فقد ذكر أبو بكر بن العربي ، وابن عساكر - واللفظ له - أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت لكعب بن سور : خل يا كعب بالبعير وتقدم بكتاب اللَّه فادعهم إليه ، ودفعت إليه مصحفًا ، وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجري الصلح ، فاستقبلهم كعب بالمصحف وعلي من خلفهم يزعهم ويأبون إلا إقدامًا ، فلما دعاهم كعب رشقوه رشقًا واحدًا فقتلوه [٤] .

فإذا كان السبئية قد استطاعوا قتل كعب بن سور ومنعوا وقف الحرب يوم الجمل فإن سبئية المؤرخين لما فاتهم قتل عمرو بن العاص ومن رفعوا المصاحف يوم صفين جاؤوا ليقتلوا الفكرة بتصويرها خدعة ، وإذا كانت هذه الفكرة كذلك في نظرهم وأن عليًا كان كارهًا لها فما زاد الأمر على أنهم صوروا عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه كان رجلًا توَّاقًا

---

(١) المصدر السابق (٥/٤٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٤١٤) ، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية (٨/٢١٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٥) ، وابن الأثير - أسد الغابة (٣/٢٦٠) .

(٤) العواصم من القواصم (ص ١٥٨) ، وهامش رقم (٣) بالصفحة نفسها .

إلى الحرب متعطشًا للدماء ، يسره أن يرى مصارع المسلمين بعينيه [١] ففكرة التحكيم في الواقع كانت فكرة ممتازة في حد ذاتها ولو أنها حققت هدفها المنشود لكانت من أجلّ الأعمال ، ولكنها وإن أدت إلى حقن الدماء ومنعت استئصال شأفة كثير من المسلمين إلا أن نتيجتها النهائية جاءت على غير المتوقع .

وأيًّا ما كان الأمر فقد قبلت الفكرة ، وأوقفت الحرب ، وطولب علي ومعاوية أن يعين كل منهما مندوبًا عنه في التحكيم ، فعين معاوية عمرو بن العاص ، وأما علي فأراد أن يعين ابن عمه عبد الله بن عباس ، أو الأشتر النخعي ، ولكن بعض رجاله رفضوا ذلك ، وقالوا له : « وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟ » [٢] أي أنه هو الذي سعى في الفتنة من بداية الأمر ، واختاروا أبا موسى الأشعري ، وكان اختيارهم له لأنه كان قد حذرهم منذ البداية من الفتنة ، فهو في نظرهم رجل سلام ، وقالوا لعلي : « لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه » [٣] فوافقهم علي على ذلك ، بل قال لأبي موسى : « احكم ولو على حز عنقي » [٤] .

كتاب التحكيم :

اتفق الفريقان على التحكيم ، وكتبوا كتابًا على أن يحكم الحكمان طبقًا لكتاب الله ﷻ من فاتحته إلى خاتمته ، لا يتجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه إلى هوى ولا أدهان ، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق فإن جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته فلا حكم لهما [٥] .

ونلاحظ على كتاب التحكيم أنه جاء غامضًا مبهمًا ، فلم ينص فيه على نوع القضية التي سيحكم فيها الحكمان طبقًا لكتاب الله ؛ فالحرب نشبت لأن عليًّا طالب معاوية بالطاعة والبيعة والدخول في الجماعة فرفض فقرر حمله على ذلك بالقوة ، ومعاوية اشترط القصاص من قتلة عثمان ، أو تسليمهم له أولًا ، ثم ينظر في أمر البيعة

---

(١) قال ابن خياط في تاريخه (ص ١٩٤) عن قصة رفع المصاحف « فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ، ثم رفعت المصاحف ودعوا إلى الصلح » ولم يشر إلى أنها كانت خدعة .

(٢) الطبري - تاريخ (٥/٥١) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣١٩) .

(٣) الطبري ، تاريخ (٥/٥١) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣١٨) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٣٩٥) .

(٥) انظر نص كتاب التحكيم في : تاريخ اليعقوبي (٢/١٨٩ ، ١٩٠) ، والطبري - تاريخ (٥/٥٣ ، ٥٤) وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣١٩ ، ٣٢٠) .

بعد ذلك ؛ ومن هنا فقد كان المتوقع أن يدور البحث حول هذا الخلاف ، وهل من حق معاوية المطالبة بتسليمه قتلة عثمان أولًا ؟ وهل القصاص من القتلة يقدم على بيعته لعلي أو العكس ؟ .

وهذا الإبهام الذي جاء في الكتاب جعل الحكمين يتناقشان في الخلافة ذاتها ، وفي خلع الخليفة الشرعي الذي تمت مبايعته بموافقة جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ولم يكن تخلف معاوية بشخصه عن البيعة هو الذي يشغل عليًا أو يقدح في بيعته ، فقد تخلف عنها من هم أفضل من معاوية : سعد بن أبي وقاص وعبد اللَّه ابن عمر ، ومحمد بن مسلمة وغيرهم ، ولم يقاتلهم علي على ذلك ، ولم يكن تخلفهم يقدح في بيعته ؛ لأن الإجماع ليس ضروريًا ، ويكفي أنه بايعه جمهور كبير من الصحابة فأصبحت بيعته شرعية وطاعته واجبة على كل مسلم .

فقتال علي لمعاوية لم يكن لمجرد تخلفه عن البيعة ؛ وإنما لعصيانه أوامره بعزله من ولاية الشام واعتصامه بها ، فاعتبره علي خارجًا عليه وقتاله واجب لرده إلى الطاعة ، ثم إن معاوية لم يكن ينازع عليًا في الخلافة ، وكان مطلبه محصورًا في قتلة عثمان ، فإما أن يقتص منهم علي ، أو يسلمهم له ، ولو حدث شيء من ذلك لما بقيت له حجة ؛ لذلك كنا نتوقع أن يدور البحث حول هذه النقطة المحددة ، لكن الحكمين - ولعل ذلك اجتهادًا منهما - تركا هذا الموضوع المحدد وراحا يتباحثان في أمر الخلافة ، وكأنه لم يكن هناك خليفة شرعي مبايع من أغلبية الصحابة ، وراح كل واحد منهما يقترح من جانبه أسماء يرشحها للخلافة ، فعرض عمرو بن العاص اسم ابنه عبد اللَّه أو معاوية فرفض أبو موسى ، ثم عرض أبو موسى اسم عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب فرفض عمرو ، ولما لم يتفقا على شيء قررا عزل علي ومعاوية معًا ، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء للخلافة كما تقول رواية أبي مخنف [1] .

إعلان نتيجة التحكيم :

كتب كتاب التحكيم في الثالث عشر من صفر سنة (٣٧هـ) وحددت مدة ستة شهور يجتمع بعدها الحكمان لإعلان ما توصلا إليه . وقد اجتمعا في شهر رمضان سنة (٣٧هـ) حسب الموعد بدومة الجندل ، ومع كل منهما أربعمائة من أنصار صاحبه ، والناس في ترقب وقلق ؛ لأن الكل يدرك خطورة النتيجة التي ستعلن ،

(١) انظر الطبري : تاريخ (٥/٧٠ ، ٧١) .

وقد ذكرت قبل قليل أن الحكمين تركا صلب الخلاف ، وتباحثا في أمر الخلافة واتفقا على خلع علي ومعاوية معًا . وقف أبو موسى الأشعري ليعلن النتيجة ، فقال : « أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألمَّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ؛ فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلًا ، ثم تنحى ، وأقبل عمرو ابن العاص فقام مقامه ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، وقال : إن هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية ؛ فإنه ولي عثمان ابن عفان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه »[1] .

هذه رواية أبي مخنف ، ويورد المسعودي رواية أخرى ، يذكر فيها أن أبا موسى وعمرو اتفقا على عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب ، حيث قال أبو موسى : « أيها الناس ، إننا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح وحقن الدماء وجمع الألفة ، خلعنا عليًّا ومعاوية ، وقد خلعت عليًّا كما خلعت عمامتي هذه .. واستخلفنا رجلًا قد صحب رسول اللَّه ﷺ بنفسه ، وصحب أبوه النبي ﷺ فبرز في سابقته ، وهو عبد اللَّه بن عمر ، وأطراه ورغب الناس فيه ثم نزل »[2] .

كيفما كان الأمر فقد أعلن أبو موسى خلع علي ، ووافقه عمرو ، ثم أعلن تثبيت معاوية طبقًا لرواية أبي مخنف . وهنا يبرز سؤال مهم وهو : في أي شيء كان تثبيت عمرو لمعاوية ؟ إن كان في الخلافة فهذا باطل من وجهين :

الأول : أن معاوية لم يكن خليفة حتى يثبت فيها .

الثاني : أن عمرًا إن كان يقصد تثبيته في الخلافة فإنه يكون بذلك قد خالف ما اتفق عليه مع أبي موسى ، فيكون حكمه باطلًا ؛ لأن كتاب التحكيم يقضي بضرورة اتفاقهما . فانفراد أحدهما بحكم يعتبر مخالفًا لنص الكتاب ، ولذلك يرى بعض الباحثين أن عمرًا لم يكن يقصد تثبيت معاوية في الخلافة ، وإنما في إدارة ما تحت يده من البلاد ، حتى تتفق الأمة على إمام جديد ، يقول الأستاذ محب الدين

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٥/٧٠ ، ٧١) ، واليعقوبي - تاريخ (٢/١٩٠) ، والمسعودي - مروج الذهب ، (٢/٤٠٩) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣٣٢) .

(٢) مروج الذهب (٢/٤٠٩) ، وانظر أيضًا : تاريخ اليعقوبي (٢/١٩٠) .

الخطيب : « فلما وقع التحكيم على إمامة المسلمين ، واتفق الحكمان على ترك النظر فيها لكبار الصحابة وأعيانهم ، تناول التحكيم شيئًا واحدًا وهو الإمامة ، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقي كما كان ، على متصرف في البلاد التي تحت حكمه ، ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه ، فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة »[1] .

وهذا لعمري هو الصواب الذي تطمئن إليه نفس الباحث ؛ لأنه يتفق مع أخلاق الصحابة ودينهم ، ولا يقدح في واحد منهم وإذا كان أبو موسى وعمرو ، قد تركا أمر قتلة عثمان وهو أساس الخلاف بين علي ومعاوية وتباحثا في أمر الخلافة ؛ فلعل ذلك كان اجتهادًا منهما ، وأنهما رأيا أنه أفضل طريقة لإصلاح ذات البين ، وجمع كلمة الأمة لأننا لا نستطيع أن نتهم أيًّا منهما بالغش والمداهنة في أمور الدين خصوصًا وأن الروايات التي تذكر أن عمرًا ثبت معاوية في الخلافة جاءت عن أبي مخنف وهو مؤرخ شيعي ، وموقف الشيعة من أبي موسى وعمرو لا يتسم بالإنصاف في شيء .

موقف علي من نتيجة التحكيم :

اجتهد الحكمان فيما كلفا به حتى توصلا إلى تلك النتيجة السابقة ، ونحن هنا لا نملك إزاء ذلك إلا أن نقول : إن كان اجتهادهما صوابًا فلهما أجران ، وإن كان خطأ فلهما أجر واحد ، لكن عليًّا ﷺ لم يقبل هذه النتيجة ، واعتبرهما قد تجاوزا في حكمهما كتاب اللّٰه ﷻ ، واعتبر نفسه في حل من هذه النتيجة ، فعادت الأمور كما كانت عليه قبل التحكيم ، أي إلى حالة الحرب بينه وبين معاوية ، وبدأ يدعو أنصاره من جديد للسير إلى حرب معاوية لرده إلى الطاعة ، ولكن أصحابه كانوا قد ملُّوا القتال فتقاعسوا عنه ، وقعدوا عن نصرته ، كما أنه بدأ ينشغل بحرب الخوارج الذين شقوا عصا الطاعة عليه .

علي والخوارج :

كان الخوارج هم الداء العياء الذي كان يعاني منه الإمام علي ﷺ فقد ظلوا لا يتفقون معه على أمر ، كما سيطر الفضول لمعرفة كل الأسرار والتدخل في كل صغيرة وكبيرة على أهل العراق بوجه عام .

---

(١) انظر العواصم من القواصم ، هامش (ص ١٧٥) .

كأن كل واحد منهم كان يعتبر نفسه إمامًا ، أو شريكًا للإمام في المسؤولية ، فعندما اجتمع الناس لسماع إعلان نتيجة التحكيم ، كان عبد اللّه بن عباس على رأس جماعة علي ، يصلي بهم ويلي أمرهم ، وكان عمرو بن العاص على رأس جماعة معاوية ، فكان معاوية إذا كتب لعمرو ، جاء الرسول وذهب ، لا يدري بما جاء به ، ولا بما رجع به ، ولا يسأله أهل الشام عن شيء . وكان إذا جاء رسول علي إلى ابن عباس ، سأله أهل العراق : بماذا كتب إليك أمير المؤمنين ؟ فإذا كتمهم ظنوا به الظنون ، وقالوا : ما تراه إلا كتب إليك بكذا وكذا ، فضاق ابن عباس بهم وبإلحاحهم ، وقال لهم : « أما تعقلون ؟ أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به ، ويرجع لا يعلم بما رجع به ، ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ ، وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون ؟ » (١) . هذه هي العلة والطبع الغالب على أهل العراق ، وقد زادتهم حادثة التحكيم فرقة واختلافًا ، حتى قبل إعلان النتيجة فقد عادوا من صفين يتدافعون ، ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط وهم في الطريق إلى الكوفة ، وانقسموا إلى فريقين ، فريق عاب التحكيم ورفضه ، وهم الذين سموا بالخوارج ، وجعلوا يقولون للفريق الثاني الذي قبل التحكيم : يا أعداء اللّه ، ادهنتم في دين اللّه وحكمتم ، ويقول لهم الآخرون : فارقتم إمامنا ، وفرقتم جماعتنا » (٢) .

وعندما دخل علي الكوفة ، تخلف عنه الخوارج وكانوا حوالي اثني عشر ألفًا وانحازوا إلى حروراء ، وأعلنوا العصيان لأمير المؤمنين ، بل أقاموا لهم حكومة خاصة بهم وجعلوا شبث بن ربعي التميمي أمير القتال (٣) ، وعبد اللّه بن الكواء اليشكري أمير الصلاة (٤) . فلما علم علي بأمرهم ، أرسل إليهم عبد اللّه بن عباس ليعرف خبرهم ، ثم ذهب إليهم بنفسه ، وسألهم عن سبب خروجهم عليه ، فقالوا له : حكومتك يوم صفين ، فذكرهم بأنهم كانوا حاضرين وأنهم وافقوا على التحكيم ، فقالوا له : كنا كما ذكرت ، وفعلنا ما وصفت وكان ذلك منّا كفرًا ، وقد تبنا إلى اللّه ﷿ منه ، فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون (٥) . هكذا حكموا على أنفسهم بالكفر ، ثم تابوا عنه ، ويطالبون أمير المؤمنين أن يفعل كما فعلوا ، وما كان لابن أبي طالب أن يفعلها – حاشا للّه – وهكذا ابتلي علي ﷺ في أصحابه فتحول

---

(١) الطبري – تاريخ (٥/٦٧) . (٢) الطبري (٥/٦٣) .

(٣) شبث بن ربعي كان من ثقاة علي ، وكان أحد سفرائه إلى معاوية ، وكان لجفائه وسوء حديثه مع معاوية أثر سيئ في تعقيد الأمور كما سبقت الإشارة .

(٤) الطبري – تاريخ (٥/٦٣) . (٥) المصدر السابق (٥/٦٧) .

فريق منهم - وهم الخوارج - ليصبحوا ألد أعدائه وليتهم كانوا مقسطين في عداوتهم له أو حصروا خلافهم بينهم وبين إمامهم وجادلوه بالتي هي أحسن ، كما أمر اللَّه المسلمين أن يجادلوا غير المسلمين بل ذهب بهم التطرف إلى أبعد الحدود فناصبوا الأمة كلها العداء ، واعتبروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم كافرًا ، يحل دمه وعرضه وماله ، ولهذا راحوا ينشرون الرعب والفزع في قلوب الناس ويعيثون في الأرض فسادًا ، ولا أدل على ذلك من صنيعهم بعبد اللَّه بن خباب ابن الأرت ، فقد قتلوه ذبحًا ، وقتلوا امرأته وهي حامل ؛ لا لذنب إلا لأنه ترحم على عثمان وعلي رضي الله عنهما [١] كما قتلوا كذلك ثلاث نسوة من طيئ ، وامرأة أخرى اسمها أم سنان الصيداوية ، لقد ذهب التطرف والغلو في الدين بهؤلاء الذين زعموا أنهم ما خرجوا إلا غضبًا لدين اللَّه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى حد سفك دماء المسلمين دون ذنب ، بل إن دماء المسلمين أصبحت عندهم أقل شأنًا من دماء الخنازير ، فقد قتل واحد منهم خنزيرًا لنصراني ، بعد قتلهم عبد اللَّه بن خباب وامرأته ، فقال له الآخرون : هذا فساد في الأرض وأرضوا صاحب الخنزير[٢] ، فانظر إلى العقول عندما تنحرف ! .

معركة النهروان :

بلغت هذه الأعمال الوحشية عليًا رضي الله عنه ، وهو في الكوفة يستعد للمسير لحرب معاوية من جديد ، فأزعجته ، فأرسل إليهم الحارث بن مرة العبدي ليتأكد من صحة هذه الأخبار ، ولكنهم قتلوه [٣] ، فجزع الناس وفزعتهم هذه الأعمال وخشوا أنهم إن ساروا إلى الشام ، فلن يأمنوا على أهلهم وأموالهم من هؤلاء المفسدين ، فقالوا لعلي : « يا أمير المؤمنين ، علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا ؟ سر بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام » [٤] .

اقتنع علي بوجهة نظرهم تقديرًا منه لخطورة هذا الوضع على الأمن في البلاد فلم يجد بدًّا من المسير إليهم بقواته ، ولما كان رضي الله عنه راغبًا عن قتالهم ، حريصًا على إصلاحهم ؛ فقد أرسل إليهم أولًا أن يدفعوا إليه قتلة عبد اللَّه بن خباب وامرأته ونسوة طيئ ليقتص منهم ، فكان ردهم مؤكدًا لفساد نياتهم وأحوالهم ، فقد قالوا :

---

(١) المصدر السابق (٥/٨١ ، ٨٢) . (٢) المصدر السابق (٥/٨٢) .
(٣ ، ٤) الطبري - تاريخ (٥/٨٢) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣٤٢) .

« كلنا قتلتهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم » [١] نفس الكلام الذي كان يردده قتلة عثمان من السبئية ، ورغم هذا أراد علي أن يعطيهم فرصة أخرى لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، فأمر أبا أيوب الأنصاري أن ينصب راية - قبل قتالهم - وأن يناديهم : « من تقدم إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن دخل الكوفة فهو آمن ، ومن انصرف إلى المدائن فهو آمن » فاستجاب بعضهم وبقي منهم ألفان مصرين على موقفهم ، فدارت بينهم وبين الإمام معركة النهروان ، فقتل معظمهم ، ولم يبق إلا عدد قليل [٢] قيل : أقل من عشرة أشخاص وهي لا شك ضربة قاصمة جعلتهم يستكينون فيما تبقى من عهد علي ﷺ ولكن البقية الباقية لجأت إلى التدبير الخفي والتخطيط لقتل الإمام حتى نجحوا في مؤامراتهم . ولم ينته بهم الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم أصبحوا رغم قلة عددهم خطرًا دائمًا ومصدرًا للقلاقل طوال العصر الأموي - كما سنفصل ذلك فيما بعد .

لقد كان من المتوقع أن تكون معركة النهروان - التي كسرت شوكة الخوارج وأضعفت كيانهم - دافعًا قويًّا إلى مواصلة المسيرة والاتجاه نحو الشام ، ولكن الأمر كان على عكس ذلك فأنصار علي الذين طلبوا منه أن ينتهي من أمر الخوارج قبل المسير إلى الشام ، ووعدوه أنهم سيسيرون معه بعد القضاء على خطرهم ، قعدوا عن النهوض معه ، وقالوا له : « يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا ، وكلّت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا فارجع بنا إلى مصرنا ، فلنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا .. فإنه أوفى لنا على عدونا » [٣] . فأدرك علي ﷺ أن عزائمهم هي التي كلت ووهنت ، وليس سيوفهم . فقد بدؤوا يتسللون من معسكره ، عائدين إلى بيوتهم دون علمه ، حتى أصبح المعسكر خاليًا . « فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير » [٤] .

هكذا صار شأنهم : عصيان ، وخلود إلى الراحة ، فضلًا عن الشغب والخلافات المستمرة بينهم حتى ضاق بهم الإمام ذرعًا وآلمه تقاعسهم ، وأدرك أنه لا يمكن أن تنتصر بهؤلاء الجند قضية مهما كانت عادلة ، فلم يستطع أن يكتم هذا الضيق ،

(١) الطبري - تاريخ (٥/٨٣) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣٤٣) .
(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٩٧) ، والطبري (٥/٨٥ - ٨٧) ، وابن الأثير (٣/٣٤٥ ، ٣٤٦) .
(٣) الطبري - تاريخ (٥/٨٩) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣٤٩) .
(٤) الطبري - تاريخ (٥/٩٠) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣٤٩) .

فقال لهم : « ما أنتم إلا أسود الشرى في الدعة ، وثعالب رواغة حين تدعو إلى البأس ، ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي - أي الدهر كله - ما أنتم بركب يصال بكم ، ولا ذي عز يعتصم إليه ، لعمر اللّه لبئس حشاش الحرب أنتم إنكم تكادون ولا تكيدون ، وينتقض أطرافكم ولا تتحاشون ، ولا ينام عنكم ، وأنتم في غفلة ساهون ، إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل ، وبات لذل من وادع »[١] . في كلام كثير يعبر عن مدى شعور الإمام بالألم والمرارة من جبنهم وخذلانهم .

الموقف يميل لمصلحة معاوية :

لا شك أن نتيجة التحكيم كانت في مصلحة معاوية أكثر منها في مصلحة علي . حتى مع افتراض أن الحكمين قد اجتهدا فأداهما اجتهادهما إلى عزل علي عن الخلافة ، ورد الأمر إلى الأمة تختار لها من تشاء ، وإبقاء علي يحكم ما تحت يده ومعاوية يحكم ما تحت يده ؛ لأنه من غير الممكن أن تبقى هذه البلاد بدون حكومة . هذه النتيجة كانت في مصلحة معاوية ؛ فقد ساوته بعلي ، وبقي يحكم الشام حكمًا مستقلًا بدون مسؤولية أمام أحد ، لكنه لم يقنع بالشام ، فأخذ يتطلع لتوسيع دولته وكانت أول ولاية مد إليها بصره هي مصر ، ولقد شجع معاوية على ذلك موقف أهل العراق من علي ، وتقاعسهم عن نصرته ، فلا شك أن معاوية كان يراقب موقف علي في العراق عن كثب ، وكان على علم بما يدور في معسكره . فبينما كان علي يعاني من خذلان جنده ويكابد خلافاتهم وعصيانهم ، كان معاوية يتمتع بموقف ممتاز ؛ فجنود متحدة قلوبهم على محبته ، متفانين في طاعته وتنفيذ أوامره ، ولا شك أن هذا ثمرة وجوده بينهم وحكمته في سياسته لهم منذ خلافة أبي بكر الصديق ﷺ . وقد كان علي يعلم حقيقة الفرق بين جنده من أهل العراق ، وجند معاوية من أهل الشام ، فكان يقول : « كنت في أخبث جند وأعصاه ، وكان معاوية في أطيب جند وأطوعه » . بل روي عنه أنه قال لهم : « وددت لو أبدلني اللّه بكل عشرة منكم واحدًا من أهل الشام » . وقد جعلت طاعة أهل الشام لمعاوية بعض المؤرخين ذوي الميول الشيعية يتحاملون عليهم ، ويصفونهم بالبلاهة والجهل[٢] ، ولم يكن ذلك صحيحًا بطبيعة

---

(١) الطبري - تاريخ (٥/٩٠) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٣٥٠) .

(٢) أكثر المسعودي في كتابه « مروج الذهب » (٣/٤١) وما بعدها - من اتهام أهل الشام بالجهل ، وأنهم لا يفرقون بين الناقة والجمل وأن معاوية صلى بهم الجمعة في يوم الأربعاء ، عند مسيرهم إلى صفين فلم يعترضوا .. إلخ . ولا شك أن هذه كلها افتراءات .

الحال ؛ بل كانوا منقادين لقائد عرف كيف يقودهم ويحسن سياستهم ، ويشملهم بإحسانه فاجتذب قلوبهم حتى آثروه على الأهل والقرابات [١] .

ومن هنا فقد أصبح الوضع بعد التحكيم مغريًا لمعاوية لتوسيع دولته ، ومد نفوذه ، فتطلع أول ما تطلع إلى مصر لأهميتها الاستراتيجية والبشرية والاقتصادية .

الصراع حول مصر واستيلاء معاوية عليها :

ذكرنا فيما سبق أن عليًا ولَّى على مصر قيس بن سعد بن عبادة ، وأن قيسًا وصل إلى مصر ولم يتصد له أحد ؛ لأن والي مصر من قبل عثمان ، وهو عبد اللّٰه بن سعد ابن أبي سرح كان قد غادرها قبل مقتل عثمان . وكان قيس يعد من دهاة العرب ومن أقدر رجال عصره في الحرب والسياسة والإدارة ، وله تجربة كبيرة ؛ فقد كان يعمل كرجل الشرطة للرسول ﷺ [٢] ، وكان من أخلص رجال علي وأوفاهم له .

جاء قيس إلى مصر فوجدها ثلاث طوائف : أولاها - وهي أكبرها - قد بايعوا لعلي ، ودخلوا في الجماعة . وطائفة صغيرة من السبئية ، قالوا : « نحن مع علي ما لم يقد إخواننا » - يقصدون قتلة عثمان . والطائفة الثالثة - وكان عددها حوالي عشرة آلاف - اعتزلت في قرية خربتا ، وقالت : « إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم ، وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك ، أو نصيب حاجاتنا » [٣] . لقد كان هذا الموقف يحتاج إلى حكمة وكياسة وحنكة سياسية في معالجته ، خصوصًا في هذا الجو الذي كان لا زال معبأ ببقايا الفتنة . وكان قيس في الحقيقة هو الرجل المناسب لهذا الموقف ، فكتب إلى علي يشرح له الموقف ، وأخبره بموقف المعتزلين في خربتا ، وامتناعهم عن البيعة ، وأنه رأى أن يهادنهم الآن ، ولا يكرههم على البيعة طالما أنهم لن يثيروا له متاعب ، وأنه اتفق معهم على ذلك ، وأنه جبى الخراج ولم ينازعه أحد من الناس [٤] . ولكن عليًا لم يقر قيسًا على سياسته هذه ، وطلب منه تحت إلحاح محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن جعفر بن أبي طالب أن يأخذ منهم البيعة ، وإن أبوا

---

(١) انظر المسعودي نفسه - مروج الذهب (٣/٤٥) والذي يناقض نفسه بعد بضع صفحات فقط ، فطاعة أهل الشام لمعاوية لم تكن نتيجة جهل كما يدعي المسعودي ، بل كانت نتيجة طبيعتهم البعيدة عن الشقاق والخلاف ولسياسة معاوية وإحسانه إليهم - كما اعترف المسعودي نفسه .

(٢) انظر نظام الحكومة النبوية للشيخ عبد الحي الكتاني (١/٢٠) .

(٣) الطبري - تاريخ (٤/٤٤٢) .

(٤) الطبري - تاريخ (٤/٥٥٠) ، وانظر الكندي : الولاة والقضاة (ص ٢٠) .

قاتلهم ، ولكن قيسًا لم ير ضرورة لإكراههم على البيعة ولا لقتالهم عليها . فكتب إلى علي : « إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم ، وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكابدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ، ولو أني غزوتهم كانوا لي قرنًا ، وهم أسود العرب ، ومنهم بسر بن أبي أرطأة ، ومسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج ، فذرني فأنا أعلم بما أداري منهم »[١] ، ولكن عليًّا لم يذر قيسًا ورأيه فكتب إليه ثانية في قتالهم ، ولكن قيسًا رفض قتالهم ، وكتب لعلي : « إن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري ، فبعث الأشتر »[٢] .

وهكذا قدر لقضية أهل خربتا أن تفسد العلاقة بين علي وواحد من أخلص الرجال وأوفاهم وأقدرهم ، وأن تحرمه من خبرة هذا الرجل الذي قاوم كل إغراءات معاوية بالانضمام إليه ، وظل على وفائه لإمامه ، فوجود قيس في مصر كان أثقل شيء على معاوية ، كما يقول الكندي والطبري[٣] ؛ لهذا حاول استمالته بشتى الطرق ، ولما لم ينجح في ذلك ، لجأ إلى الحيلة ، وسعى إلى الإيقاع بين علي وقيس ، يقول الكندي والطبري : إن معاوية كان يحدث رجالًا من ذوي الرأي في قريش ، فيقول : « ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلي من مكايدة كدت بها قيس بن سعد ، حين امتنع مني قيس قلت لأهل الشام : لا تسبوا قيسًا ولا تدعوا إلى غزوه فإن قيسًا لنا شيعة تأتينا كتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم النازلين بخربتا يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب يأتيه ؟ »[٤] . فلما بلغ ذلك عليًّا اتهم قيسًا[٥] ، وعزله عن ولاية مصر ، وكانت تلك غلطة فادحة دفع علي ثمنها ضياع مصر من يده ، ثم ولّى بدله الأشتر النخعي في رجب سنة (٣٧هـ) ، وهو نفس الشهر الذي عزل فيه قيس ولكن الأشتر لم يصل إلى مصر ، فقد مات بالقلزم ، قيل : من شربة عسل[٦] فولّى علي محمد بن أبي بكر في رمضان سنة (٣٧هـ) ، ولكنه لم يكن كفئًا للعمل الذي أوكل إليه ؛ فقد أغفل نصيحة قيس له -

---

(١) الطبري (٤/٥٥٢ ، ٥٥٣) ، وانظر الكندي - الولاة والقضاة (ص ٢١) .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ، (ص ٢١) ، من المعروف أن الأشتر لم يصل مصر بل مات في الطريق .

(٣) الولاة والقضاة (ص ٢٢) والطبري - تاريخ (٤/٥٥٠) .

(٤) الكندي - الولاة والقضاة (ص ٢١) .

(٥) الطبري - تاريخ (٤/٥٥٢) ، والنظر مراسلات معاوية وقيس (ص ٥٥٠ ، ٥٥١) .

(٦) انظر الكندي - الولاة والقضاة (ص ٢٤) .

حين لقيه ووصاه - ألا يهيج أهل خربتا ولا يقاتلهم فعمل بخلاف ما أوصاه به [١] ؛ فاضطربت عليه الأمور ، وحانت الفرصة لمعاوية فاهتبلها ، وأرسل عمرو بن العاص في جيش من أهل الشام إلى مصر ، فاستطاع الاستيلاء عليها بسهولة ، وقتل محمد ابن أبي بكر سنة (٣٨هـ) [٢] . وهكذا ضاعت مصر من علي ، وكانت تلك خسارة فادحة له بقدر ما كانت مكسبًا كبيرًا لمعاوية .

اتساع نطاق دولة معاوية :

تأمنت حدود الشام من الجنوب والغرب باستيلاء معاوية على مصر له ركيزة استراتيجية كبيرة ؛ ولهذا بدأ في توسيع نطاق دولته ، فأخذت جيوشه تشن الغارات على أطراف دولة علي في العراق والحجاز ، فأرسل النعمان بن بشير الأنصاري في ألفين إلى عين التمر ، ثم وجه سفيان بن عوف في ستة آلاف للإغارة على هيت والأنبار والمدائن ، ثم أرسل عبد اللَّه بن مسعدة الفزاري في ألف وستمائة إلى تيماء [٣] . وبهذا أمسك معاوية بزمام المبادرة وفرض على علي أن يقف موقف الدفاع ، والعجيب أن جند علي من أهل العراق لم يتقاعسوا عن المسير معه لحرب معاوية في الشام فقط ، بل جبنوا وتثاقلوا حتى عن الدفاع عن بلادهم . فعندما هاجم النعمان بن بشير عين التمر ، لم يذعنوا لأمر علي بالنهوض للدفاع عنها ، فقال لهم : « يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر - المنسر القطعة من الجيش تكون أمامه - من مناسر أهل الشام أظلكم ، انجحر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه ، انجحار الضب في جحره ، والضبع في وجارها ، المغرور من غررتموه ، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب ، لا أحرار عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء ، إنا للَّه وإنا إليه راجعون ! ما إذا منيت به منكم ، عمي لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون ، إنا للَّه وإنا إليه راجعون » [٤] .

هكذا وصل حال الإمام علي مع أهل العراق ، بينما كان أهل الشام يواصلون زحفهم وتقدمهم واقتطاع أجزاء من دولته ، فقد استولوا على الحجاز ، ثم أرسل معاوية بسر بن أبي أرطأة إلى اليمن في ثلاثة آلاف ، فلما مر على المدينة ، هرب منها واليها من قبل علي أبو أيوب الأنصاري ، ولحق بعلي في الكوفة ، فدخلها بسر وبايعه الناس لمعاوية ، ثم سار إلى مكة ففعل أهلها كما فعل أهل المدينة ، ثم استأنف سيره

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٧) . (٢) المصدر السابق (ص ٢٨ ، ٢٩) .
(٣) انظر تفريق معاوية لجيوشه في أطراف دولة علي : الطبري - تاريخ (١٣٣/٥ ، ١٣٤) .
(٤) المصدر السابق (١٣٥/٥) .

إلى اليمن وكان عليها من قبل علي عبيد اللَّه بن عباس ، فلما بلغه مسير بسر ، فر هاربًا تاركًا أولاده ولحق بعلي في الكوفة [١] . وكأن عدوى أهل الكوفة سرت في ولاة علي ، فلم يثبت أحد منهم في مكانه ، وكانوا في كثير من الأحيان يتركون ولاياتهم لقمة سائغة لجيش معاوية .

اتفاق علي ومعاوية :

إزاء هذا الوضع المتردي في جبهة علي ﷺ ، وجبن رجاله وتقاعس جنده ، ويأسه من نصرتهم ، مال إلى مصالحة معاوية لما عرض عليه ذلك فقد ذكر الطبري في حوادث سنة (٤٠هـ) قال : « وفي هذه السنة جرت بين علي ومعاوية المهادنة ، بعد مكاتبات بينهما يطول بذكرها الكتاب ، على وضع الحرب بينهما ، ويكون لعلي العراق ولمعاوية الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو ... وتراضيا على ذلك فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها ، وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده » [٢] .

وهكذا جرت تصاريف القدر مع علي ﷺ ، وأجبرته الظروف - التي تكون أحيانًا أقوى من الرجال - على أن يصالح معاوية ويتفق معه ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية يحكمها حكمًا مستقلًّا ، بعد أن كان قد رفض إبقاءه واليًا على الشام وحدها من قبله ، يأتمر بأمره ، وينتهي بنهيه ، وأصبحنا فعلًا وواقعًا أمام دولتين إسلاميتين ، على رأس كل منهما أمير .

مقتل علي ﷺ :

تضافرت عوامل كثيرة حالت دون استقرار الإمام علي ﷺ في الخلافة واستتباب الأمن والنظام فيها ، من أهمها : أنه كان أمام خصم قوي داهية وهو معاوية ﷺ كما كان أنصاره من أهم متاعبه وآلامه بسبب تقاعسهم وعصيانهم وعدم ثباتهم على رأي موحد يجمع كلمتهم ، وفضلًا عن ذلك فقد كان وجود الخوارج في صفوفه ثم انشقاقهم هو الداء العياء الذي ظل يعاوده متخفيًا بعد أن كان ظاهرًا . حتى آل الأمر في النهاية أن يلقى ربه شهيدًا في مؤامرة دبرها الخوارج له ولمعاوية وعمرو بن العاص ، فشاءت المقادير أن ينجو معاوية وعمرو ، وأن تكون الشهادة من

---

(١) المصدر السابق (١٣٩/٥) وما بعدها .

(٢) المصدر السابق (١٤٠/٥) .

نصيبه وحده ، فقد اتفق عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والبرك بن عبد اللَّه ، وعمرو بن بكر التميميان - وهم من الخوارج - على قتل هؤلاء الصحابة الثلاثة ، وسموهم أئمة الضلالة ، وما كان الضلال إلا في قلوبهم - لعنهم اللَّه - اتفق هؤلاء الأشرار وهم في مكة في موسم الحج على تنفيذ جريمتهم البشعة ، وحددوا لها ليلة السابع عشر من رمضان سنة (٤٠هـ) . وتعهد كل منهم بقتل واحد من الثلاثة : عبد الرحمن بن ملجم بقتل أمير المؤمنين علي ﷺ ، والبرك بن عبد اللَّه بقتل معاوية ، وعمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص ، وسار كل منهم إلى وجهته ، فذهب البرك ابن عبد اللَّه إلى دمشق ، وانتظر معاوية عند خروجه لصلاة الصبح ، فلما خرج ضربه بالسيف فوقع في إليته ، ولم تكن الضربة قاتلة ، فعولج منها معاوية وشفي ، وأخذ البرك وقتل . وذهب عمرو بن بكر إلى مصر ، وانتظر عمرو بن العاص حتى يخرج للصلاة ولكنه لم يخرج في ذلك اليوم ؛ لأنه كان مريضًا فناب عنه صاحب شرطته خارجة بن حذافة ولما كان الرجل لا يعرف عمرًا من خارجة فقد ضربه بالسيف فقتله ، فأمسك به الناس وأخذوه إلى عمرو ، فلما سلموا عليه بالإمارة ، بهت الرجال ، وقال : فمن قتلت أنا إذًا ؟ قالوا : قتلت خارجة بن حذافة ، فقال موجهًا كلامه إلى عمرو : واللَّه يا فاسق ما ظننته غيرك . فقال عمرو : أردتني وأراد اللَّه خارجة [1] .

أما ابن ملجم فقد ذهب إلى الكوفة لينفذ جريمته في أمير المؤمنين ، وهناك التقى بامرأة من تيم الرباب ، يقال لها : فطام ابنة الشجنة ، وكانت فائقة الجمال ، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان ، فكانت تحقد على أمير المؤمنين ، فلما رآها ابن ملجم فتن بها وهام بجمالها ، ونسي حاجته التي جاء من أجلها ، ثم خطبها فاشترطت عليه عدة شروط ، منها قتل علي ، فقال لها : واللَّه ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل علي [2] . فاتفقت أهدافهما ، وشجعته هذه اللعينة ، وأمدته برجل من قومها اسمه وردان ليساعده في جريمته كما استعان هو بمجرم آخر من أشجع يدعى شبيب بن بجرة . فكمنوا ثلاثتهم مقابل السدة التي كان يخرج منها الإمام ، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب ، وهرب وردان ، فضربه ابن ملجم بالسيف في قرنه ضربة قاتلة وكان السيف مسممًا ، فقال علي : لا يفوتنكم الرجل ، فأمسكوه وجاؤوا به إلى الإمام ، فقال له : « أي عدو اللَّه ، ألم أحسن

---

(١) انظر الطبري (١٤٩/٥) ، وابن الطقطقا - الفخري (ص ١٠١ ، ١٠٢) .
(٢) الطبري (١٤٤/٥) ، وابن الطقطقا - الفخري (ص ١٠١) .

إليك ؟ » قال : بلى ، قال : « فما حملك على هذا ؟ » قال : شحذته أربعين صباحًا ، وسألت اللَّه أن يقتل به شر خلقه ، فقال علي : « لا أراك إلا مقتولًا به ولا أراك من شر خلقه » [١] .

كانت الضربة قاتلة ، ولم يكن هناك أمل في نجاة الإمام وشفائه ، وإن العجب ليبلغ بنا مداه حينما يدَّعي هذا المجرم الأثيم الذي باء بلعنة اللَّه وغضبه أنه قتل عليًّا ليتقرب بذلك إلى اللَّه !! .

ومع ذلك فلم تكن تلك الطعنة النجلاء ، ولا معاناة الموت منها ، ولا ادعاء هذا المجرم الآثم بالأشياء التي تغير من عدالة الإمام شيئًا ، فقد أمر بحبس ابن ملجم ، وقال لبنيه : « النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي ، يا بني عبد المطلب لا تتجمعوا من كل صوب تقولون : قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي » [٢] . ثم نهاهم عن التمثيل بالرجل ، وقال لهم : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور** » [٣] .

ولما حضرت الإمام الوفاة ، وصى أبناءه وصية جامعة لمبادئ الإسلام وقواعد الأخلاق الفاضلة والمثل العليا ، ثم أسلم الروح لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة (٤٠هـ) رحمه الله [٤] .

خلافة الحسن بن علي (٤٠ - ٤١هـ) :

عندما طعن أمير المؤمنين ، وحمل إلى بيته ، وتيقن الناس أن الضربة قاتلة ، وألا أمل في حياته ، دخل عليه جندب بن عبد اللَّه ، فسأله : « يا أمير المؤمنين إن فقدناك - ولا نفقدك - فنبايع للحسن ؟ فقال : ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر » [٥] . وهذا من أقوى البراهين على بطلان مزاعم الشيعة بأن النبي ﷺ أوصى بالخلافة لعلي وعلي لبنيه من بعده . فلو كانت هذه الوصية المزعومة حقًّا ، لما كان هناك داع لهذا السؤال

(١) الطبري (١٤٥/٥) ، وابن الطقطقا - الفخري (ص ١٠٠) .

(٢) ابن الطقطقا - الفخري (ص ١٠٠) . (٣) الطبري - تاريخ (١٤٨/٥) .

(٤) المصدر السابق (١٤٧/٥ ، ١٤٨) .

(٥) المصدر السابق (ص ١٤٦ ، ١٤٧) ، ويروي الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٥٠ ، ٢٥١) عن الشعبي ، عن أبي وائل قال : قيل لعلي بن أبي طالب : ألا تستخلف علينا ؟ فقال : ما استخلف رسول اللَّه ﷺ فأستخلف ، ولكن إن يرد اللَّه بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم ، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم ، إسناده جيد .

أصلًا ، كما أن عليًا نفسه قبلها مكرهًا بعد مقتل عثمان تحت إلحاح الصحابة ، ولو كانت حقًا له لما انتظر من يعرضها عليه بل لكان قبولها واجبًا عليه .

على كل حال ترك علي أمر الخلافة للمسلمين ، وقال لهم : « أنتم أبصر » فلما قبض رَحِمَهُ اللهُ بايع أنصاره ابنه الحسن ، وكان أول من بايعه فيما يروي الطبري : قيس ابن سعد بن عبادة ، فقد قال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب اللَّه عَجَّلَ وسنة نبيه وقتال المحلين ، فقال له الحسن ﷺ : على كتاب اللَّه وسنة نبيه ، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط ، فبايعه وسكت وبايعه الناس » [1] . وقد فهم الناس من تحفظ الحسن ﷺ على قول قيس : وقتال المحلين ، أنه راغب عن قتال معاوية ، والحسن كان زاهدًا في القتال من البداية ، فعندما عزم أبوه على الخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل للقاء طلحة والزبير وعائشة ، كان من رأيه ألا يخرج أبوه خوف القتال وسفك الدماء [2] ، وقد زادت الأحداث والأهوال التي وقعت من الجمل إلى صفين إلى قتال الخوارج في النهروان ، زادت هذه الأحداث الحسن زهدًا في القتال ، كما أنه رأى أن الأحداث غلبت والده ﷺ وهو من هو شجاعة وفضلًا ، ورأى رجحان كفة معاوية ، ورأى خذلان أهل العراق لأبيه ، وضيقه بهم ، واقتنع أن هؤلاء الناس لا يمكن الاعتماد عليهم ، كل ذلك جعل الحسن يؤمن بعدم جدوى حرب معاوية ، وأن صلاح حال الأمة وجمع كلمتها وتوحيد صفوفها ، ليس في مزيد من القتال وسفك الدماء ، وإنما في المصالحة والألفة ، فمال إلى ذلك ، وكان هذا عين الصواب والحكمة والواقعية .

وقد أظهر الحسن حنكة كبيرة دلت على سعة أفقه وبصيرته ، عندما لم يشأ أن يواجه أهل العراق من البداية بميله إلى مصالحة معاوية وتسليمه الأمر ؛ لأنه يعرف خفتهم وتهورهم ، فأراد أن يقيم من مسلكهم الدليل على صدق نظرته فيهم ، وعلى سلامة ما اتجه إليه . فوافقهم على المسير لحرب معاوية ، وعبأ جيشه ، وبعث قيس ابن سعد في مقدمته على رأس اثني عشر ألفًا ، وسار هو خلفه ، فلما وصلت تلك الأخبار إلى معاوية ، تحرك هو أيضًا بجيشه ونزل مسكن ، وبينما الحسن في المدائن ، إذ نادى مناد من أهل العراق : إن قيسًا قد قتل ؛ فسرت الفوضى في الجيش ، وعادت إلى أهل العراق طبيعتهم في عدم الثبات ، فاعتدوا على سرادق الحسن

(١) الطبري - تاريخ (١٥٨/٥) .

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٢٢/٣ ، ٢٢٣) .

ونهبوا متاعه حتى أنهم نازعوه بساطًا كان تحته ، وطعنوه وجرحوه ، وهنا حدثت حادثة لها دلالة كبيرة فقد كان والي المدائن من قبل علي ، سعد بن مسعود الثقفي ، فأتاه ابن أخيه المختار بن أبي عبيد بن مسعود ، وكان شابًّا ، فقال له : « هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن ، وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له عمه : عليك لعنة اللَّه ، أثب على ابن بنت رسول اللَّه ﷺ فأوثقه ؟ بئس الرجل أنت ! » [١] . فلما رأى الحسن صنيع أصحابه أيقن أنه لا فائدة منهم ، ولا نصر يرجى على أيديهم ، وهذه كانت قناعته من البداية ، فراسل معاوية في طلب الصلح ، فسر معاوية بذلك وأرسل له عبد اللَّه بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة ، فقدما على الحسن بالمدائن ، فأعطاه ما أراد ، وصالحه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف درهم [٢] في أشياء اشترطها ، ثم قام الحسن في أهل العراق ، فقال : « يا أهل العراق ، إنه سخى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي » [٣] . ويروي الطبري رواية أخرى ، وهي أن معاوية من فرط سروره بميل الحسن إلى الصلح ، أرسل له صحيفة بيضاء ، عليها خاتمه في أسفلها ، ليكتب فيها ما شاء من الشروط [٤] .

لقد كان ما صنعه الحسن هو الصواب والسداد ، وغير هذا لم يكن يعني إلا مزيدًا من إراقة دماء المسلمين ، ولكنه ﷺ ، مع انعقاد بيعته وأهليته للخلافة ، فقد آثر سلامة المسلمين وقد جاء فعله مصداقًا لقول جده - عليه الصلاة والسلام - فيه ، وهو على المنبر ينظر إليه : « **ابني هذا سيد ولعل اللَّه يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** » [٥] . وهذا الحديث - عند العلماء - من دلائل النبوة ، فقد صدق الحسن نبوءة جده - عليه الصلاة والسلام - وحققها .

وهذا يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان عملًا محمودًا يحبه اللَّه ورسوله ، وأن

(١) انظر الطبري - تاريخ (١٥٩/٥) هذا هو المختار بن أبي عبيد الذي سيخرج فيما بعد مدعيًا أنه من شيعة آل البيت وسيطالب بدم الحسين ، ولم يكن ذلك منه إلا نفاقًا وستارًا يخفي خلفه مطامعه في السلطان .

(٢) قد يظن بعض من لا يعرفون حقائق الأمور أن الحسن أخذ هذه الأموال لنفسه وهذا فهم خاطئ ، فإنه أخذها ليفرقها بين جنوده ، وكانوا أكثر من أربعين ألفًا ثم ليواسي بها أسر من قتلوا مع أبيه في الجمل وصفين ، وكان عددهم كبيرًا .

(٣) الطبري - تاريخ (١٥٩/٥) .

(٤) المصدر السابق (١٦٢/٥) .

(٥) رواه البخاري (٢١٦/٤) عن الحسن البصري ، الذي سمعه من أبي بكرة وأبو بكرة سمعه من النبي ﷺ ، وانظر : منهاج السنة لابن تيمية (٢٤٢/٢) ، والعواصم من القواصم لابن العربي (ص ٢٠٠) .

ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ومناقبه التي أثنى بها عليه النبي ﷺ، ولو كان القتال واجبًا أو مستحبًا لم يثن النبي ﷺ بترك واجب أو مستحب [١] . وبهذا العمل الشجاع أنهى الحسن رضي الله عنه فترة مؤلمة وحزينة من تاريخ المسلمين ، وأعاد للأمة وحدتها وسكينتها ، فجزاه اللَّه أحسن الجزاء . ولقد كان مستريح الضمير ، مطمئن القلب ، قرير العين بما فعل ، ولم يعبأ بسفه العراقيين وانتقاداتهم ، حينما وصفوه بأوصاف هو منها بريء ، حيث قالوا له : « يا مسوِّد وجوه المؤمنين » [٢] . « ويا مذل العرب » [٣] . فلم يزد على أن قال لهم : كرهت أن أقتلكم على الملك .

عام الجماعة وقيام الدولة الأموية :

مرت الأمة الإسلامية - كما رأينا - منذ أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بمحنة قاسية ، واجتاحتها عواصف هوج ، ولولا صلابتها ومتانة البنيان الذي أقام عليه الرسول ﷺ الدين والأمة والدولة ، لذهبت ريحها ولكنها بفضل اللَّه صمدت للأحداث ، وخرجت منها - رغم فداحة الخسائر - سليمة ، لتستأنف مسيرتها في أداء رسالتها العالمية الخالدة ، التي حملها اللَّه إياها لهداية البشرية . كما هدى اللَّه هذه الأمة بخاتم النبيين ﷺ فقد حقن دماءها بسبطه الحسن ، كما جاء في خطبته بعد بيعته لمعاوية [٤] ، فقد ارتفع فوق كل الآلام والجراح ، وقدر مصلحة الأمة فأحسن التقدير بعد أن تمت مفاوضات الصلح واتفق على الشروط . جاء معاوية إلى الكوفة ، واستقبله الحسن والحسين رضي الله عنهما وبايعاه وبايعه الناس ، وكان ذلك في الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة (٤١ هـ) [٥] ، واستبشر المسلمون خيرًا بهذا الحدث الكبير ، وتنفسوا الصعداء ، وحمدوا اللَّه على انتهاء عهد الفتن والحروب وسموا عامه عام الجماعة .

وبهذا قامت الدولة الأموية رسميًا ، وأصبح معاوية رضي الله عنه خليفة للأمة كلها ، ولقب بأمير المؤمنين ، وكان قبل ذلك يلقب بالأمير فقط [٦] .

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة (٢/٢٤٢) .
(٢) أبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم (ص ١٩٧) .
(٣) الطبري - تاريخ (٥/١٦٥) . (٤) المصدر السابق (٥/١٦٣) .
(٥) المصدر السابق (ص ١٦٣) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٠٣) ، ويروى أن ذلك كان في ربيع الثاني أو جمادى الأولى . واللَّه أعلم .
(٦) الطبري - تاريخ (٥/١٦١) .

حكمت الدولة الأموية إحدى وتسعين سنة هجرية من سنة (٤١هـ حتى سنة ١٣٢هـ) وتولى الخلافة خلال هذه المدة أربع عشرة خليفة . أولهم معاوية بن أبي سفيان ، وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وفي الفصل التالي نعرف بهؤلاء الخلفاء وأهم أعمالهم وأحداث عهودهم ، وبالله التوفيق .

* * *

العالم الإسلامي في العصر الأموي



الخلفاء الأمويون



الفَصْلُ الثَّانِي

الخلفاء الأمويون

توالى على حكم الدولة الأموية أربع عشرة خليفة ، وهم :

	هجرية	ميلادية
١ - معاوية بن أبي سفيان	٤١ - ٦٠	٦٦١ - ٦٨٠
٢ - يزيد بن معاوية	٦٠ - ٦٤	٦٨٠ - ٦٨٣
٣ - معاوية بن يزيد	٦٤	٦٨٣ - ٦٨٤
٤ - مروان بن الحكم	٦٤ - ٦٥	٦٨٤ - ٦٨٥
٥ - عبد الملك بن مروان	٦٥ - ٨٦	٦٨٥ - ٧٠٥
٦ - الوليد بن عبد الملك	٨٦ - ٩٦	٧٠٥ - ٧١٥
٧ - سليمان بن عبد الملك	٩٦ - ٩٩	٧١٥ - ٧١٧
٨ - عمر بن عبد العزيز	٩٩ - ١٠١	٧١٧ - ٧٢٠
٩ - يزيد بن عبد الملك	١٠١ - ١٠٥	٧٢٠ - ٧٢٤
١٠ - هشام بن عبد الملك	١٠٥ - ١٢٥	٧٢٤ - ٧٤٣
١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥ - ١٢٦	٧٤٣ - ٧٤٤
١٢ - يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦	٧٤٤
١٣ - إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٧	٧٤٤ - ٧٤٥
١٤ - مروان بن محمد بن مروان	١٢٧ - ١٣٢	٧٤٥ - ٧٥٠

١ - معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠هـ)

يستهل ابن كثير ترجمة معاوية بقوله : وهو معاوية بن أبي سفيان ، صخر بن حرب ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي ، أبو عبد الرحمن خال المؤمنين [1] ، وكاتب وحي رب العامين ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة

---

(١) يقصد ابن كثير بقوله : « خال المؤمنين » أن معاوية أخو أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين رضي الله عنها .

ابن عبد شمس بن عبد مناف [(١)] .

والمشهور أن معاوية أسلم مع أبيه وأخيه يزيد ، وسائر قريش عام فتح مكة ، ولكن يروى عنه أنه قال : « أسلمت يوم القضية - أي يوم عمرة القضاء سنة (٧هـ) - ولكن كتمت إسلامي من أبي ، ثم علم بذلك ، فقال لي : هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه ، فقلت له : لم آل نفسي جهدًا .. ولقد دخل عليَّ رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به ، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي ، فجئته فرحب بي وكتبت بين يديه » [(٢)] .

وشهد معاوية ﷺ مع رسول الله ﷺ حنينًا وأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الذهب [(٣)] ، وكان أبوه من سادات قريش ، وتفرد بالسؤدد بعد يوم بدر ، ثم لما أسلم حسن إسلامه ، وكانت له مواقف شريفة وآثار محمودة ، في يوم اليرموك وما قبله وما بعده [(٤)] . كان معاوية ﷺ من جملة كتاب الوحي للرسول ﷺ ، « وقد ثبت في صحيح مسلم عن طريق عكرمة بن عمار ، عن أبي زميل سماك بن الوليد ، عن ابن عباس ، قال : قال أبو سفيان : يا رسول الله ثلاث أعطينهن ، قال : « **نعم** » ، قال : تؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : « **نعم** » ، قال : ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك ، قال : « **نعم** » ، وذكر الثالثة وهو أنه أراد أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته الأخرى عزة بنت أبي سفيان ، فقال الرسول ﷺ : « **إن ذلك لا يحل لي** » لعدم جواز الجمع بين الأختين ؛ لأن الرسول ﷺ كان متزوجًا أختها أم حبيبة ، يقول ابن كثير : والمقصود منه أن معاوية كان من جملة الكتّاب بين يدي رسول الله ﷺ الذين يكتبون الوحي » [(٥)] .

وروى هشام بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت : لما كان يوم أم حبيبة من النبي ﷺ دق الباب داق ، فقال النبي ﷺ : « **انظروا من هذا** » قالوا : معاوية ، قال : « **ائذنوا له** » ، فدخل وعلى أذنه قلم يخط به ، فقال : « **ما هذا القلم**

---

(١) البداية والنهاية (١١٧/٨) و ما بعدها ، وانظر ابن سعد - الطبقات الكبرى (٣٢/٣) ، (٤٠٦/٧) ، ونسب قريش (ص ١٣٤) والمعارف (ص ٣٤٩) ، والطبري (٣٢٩/٥ - ٣٣٥) ، ومروج الذهب (٣٩/٣) وما بعدها ، وأسد الغابة (٢٠٩/٥ - ٢١٢) ، والإصابة (٢٣١/٩ - ٢٣٤) .
(٢ ، ٣) ابن كثير - المصدر السابق (١١٧/٨) وابن الأثير - أسد الغابة (٢٠٩/٥) .
(٤) ابن كثير - البداية والنهاية (١١٧/٨) .
(٥) المصدر السابق (١١٩/٨) .

على أذنك يا معاوية ؟ » قال : قلم أعددته للّه ولرسوله ، فقال : « **جزاك اللّه عن نبيك خيرًا ، واللّه ما استكتبتك إلا بوحي من اللّه ، وما أفعل صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من اللّه** » [١] . والأخبار متواترة على أن معاوية ﷺ كان من كتاب الوحي لرسول اللّه ﷺ ولكن الذين أعمى الحقد – على بني أمية بعامة ومعاوية ﷺ بخاصة – بصائرهم وأبصارهم لما لم يستطيعوا أن ينكروا أنه كان من كتاب الرسول ﷺ قالوا : إنه كان يكتب له ، ولكنه لم يكن يكتب الوحي [٢] ، وظنوا أن ذلك يحط من شأن معاوية ، فحتى لو سلمنا بأنه كان يكتب للنبي غير الوحي ، أليس مجرد العمل – أي عمل – بين يدي رسول اللّه ﷺ يعتبر شرفًا ، ودليلًا على أمانته وثقة الرسول ﷺ فيه ؟ إن الصحابة رضوان اللّه عليهم كانوا يعدون أي عمل للرسول ﷺ شرفًا كبيرًا ، حتى حمل نعليه ؛ فكيف بمن يكتب له ؟ .

فإذا كانت المصادر الموثوق بها تعده من كتاب الوحي فلا عبرة بكلام الشانئين الحاقدين ، ولمعاوية أحاديث في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين [٣] . وقد اشترك في معركة اليمامة في عهد أبي بكر ، ولما سير أبو بكر الجيوش إلى الشام ، سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبي سفيان ، وقد أبلى بلاء حسنًا في فتوح الشام وبصفة خاصة في فتح المدن الساحلية مثل : عكا ، وصور ، وقيسارية . وكان له في ذلك ذكر حسن وأثر جميل [٤] . فلما مات أخوه يزيد في طاعون عمواس سنة (١٨هـ) أقره عمر على عمله عندما بلغه موت يزيد ، وقال لأبي سفيان : أحسن اللّه عزاءك في يزيد رحمه الله ! فقال له أبو سفيان : من وليت مكانه ؟ قال : أخاه معاوية ، قال : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين [٥] ، ثم كتب لابنه يوصيه ، فقال له : « يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم ، وقدمهم عند اللّه ورسوله ، وقصَّر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا

---

(١) المصدر السابق (١٢٠/٨) .

(٢) انظر منهاج السنة لابن تيمية (٢١٤/٢) حيث يرد على صاحب كتاب « منهاج الكرامة في معرفة الإمامة » الذي يدعي أن معاوية لم يكتب للنبي ﷺ ولا كلمة واحدة من الوحي . وهذا كلام بلا حجة ولا دليل كما يقول ابن تيمية .

(٣) انظر ابن حجر – فتح الباري (١٠٥/٨) ، والإصابة (٢٣٣/٩) ، وابن الأثير – أسد الغابة (٢١٢/٥) .

(٤) انظر البلاذري – فتوح البلدان (ص ١٦٦) ، وما بعدها .

(٥) انظر ابن الأثير – أسد الغابة (٢٠٩/٥) ، وابن كثير – المصدر السابق (١١٨/٨) .

أتباعًا ، وقد ولَّوك جسيمًا من أمورهم ، فلا تخالفهم » .. فلم يزل معاوية نائبًا على الشام في الدولة العمرية والعثمانية وافتتح في سنة سبع وعشرين جزيرة قبرص ، وسكنها المسلمون قريبًا من ستين سنة في أيامه ومن بعده ، ولم تزل الفتوحات والجهاد قائمًا على ساقه في أيامه في بلاد الروم [١] .

ولقد أحسن معاوية وأجاد في ولايته وكان موضع رضا عمر بن الخطاب ﷺ - وناهيك بمن يرضى عنه عمر - وقد ذكر غير واحد من المؤرخين الثقات أن عمر جمع الشام كلها لمعاوية « لما رآه قائمًا بعمله سادًّا ثغوره ناهضًا بمسؤولياته » [٢] .

ويروى أنه : « لما قدم عمر بن الخطاب الشام ، تلقاه معاوية في موكب عظيم ، فلما دنا من عمر قال له : أنت صاحب الموكب ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : هذا حالك مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال : هو ما بلغك من ذلك . قال : ولم تفعل هذا ؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافيًا إلى بلاد الحجاز . قال : يا أمير المؤمنين أنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم به ؛ فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت . فقال عمر : يا معاوية ، ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس ! لئن كان ما قلت حقًّا إنه لرأي رأيت ، ولئن كان باطلًا إنه لخديعة أديت . قال : فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت . قال : لا آمرك ولا أنهاك . فقال رجل (هو عبد الرحمن ابن عوف) : يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ! فقال عمر : لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه » [٣] . وهذه أكبر شهادة لمعاوية .

ودخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء ، فنظر إليها الصحابة « فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة ، فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين ، اللَّه اللَّه فيَّ ، فرجع عمر إلى مجلسه ، فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين ، وما في قومك مثله ؟ فقال : واللَّه ما رأيت إلا خيرًا وما بلغني إلا خير ، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم ، ولكن رأيته - وأشار بيده -

---

(١) ابن كثير - المصدر السابق (١١٨/٨ ، ١١٩) .

(٢) تاريخ خليفة (ص ١٥٥) ، والعواصم من القواصم (ص ٨٠) ، والإصابة (٢٣٢/٩) ، والبداية والنهاية (١٢٤/٨) ، وسير أعلام النبلاء (١٣٢/٣) .

(٣) ابن كثير - المصدر السابق (١٢٤/٨ ، ١٢٥) ، والإصابة (٢٣٤/٩) ، وسير أعلام النبلاء (١٣٣/٣) ، والطبري (٣٣١/٥) .

فأحببت أن أضع منه ما شمخ [١] . وحسب معاوية شرفًا وفخرًا أن عمر عزل صحابيًّا جليلًا ، وهو عمير بن سعد ، عن حمص ، وضمها إلى معاوية ، فقال الناس : عزل عمر عميرًا وولى معاوية ! فقال عمر : لا تذكروا معاوية إلا بخير فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **اللَّهم اهد به** » .

بقي معاوية واليًا على الشام طوال عهدَيْ عمر وعثمان ﵄ واليًا كفئًا ، ضابطًا لعمله ، حارسًا لحدوده ، محبوبًا من رعيته ، وقد قام في عهد عثمان بأعمال جليلة ، من أهمها : إنشاء الأسطول الإسلامي ، الذي حمى به شواطئ المسلمين ، وغزا جزر البحر المتوسط ، كما سنفصل فيما بعد .

معاوية الخليفة ، صفاته ومكانته :

بعد استشهاد الإمام علي - كرم اللَّه وجهه - سنة (٤٠هـ) تم الصلح بين معاوية والحسن بن علي سنة (٤١هـ) . تنازل بمقتضاه الحسن عن الخلافة وبويع معاوية ، ودخل الكوفة وبايعه الحسن والحسين سنة (٤١هـ) . واستبشر المسلمون بهذه المصالحة التي وضعت حدًّا لسفك الدماء والفتن ، وسموا هذا العام عام الجماعة [٢] . وهذه إشارة واضحة لرضا الناس عن خلافة معاوية واستقبالها استقبالًا حسنًا ؛ فقد تولى الخلافة ، ووراءه تجربة طويلة في الحكم والإدارة وسياسة الناس ، فولايته على الشام قبل الخلافة لمدة تزيد عن العشرين عامًا - أكسبته خبرة كبيرة هيأت له النجاح في خلافته ، والحقيقة أن معاوية كان يتمتع بصفات عالية ترشحه لأن يكون رجل الدولة الأول وتجعله خليقًا بهذا المنصب الخطير .

يقول ابن الطقطقا : « وأما معاوية ﷺ فكان عاقلًا في دنياه لبيبًا عالمًا حليمًا ، ملكًا قويًّا جيدًا السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلًا حكيمًا فصيحًا بليغًا ، يحلم في موضع الحلم ، ويشتد في موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان كريمًا باذلًا للمال محبًّا للرياسة شغوفًا بها ، كان يفضل على أشراف رعيته كثيرًا ، فلا يزال أشراف قريش - مثل : عبد اللَّه بن عباس ، وعبد اللَّه بن الزبير ، وعبد اللَّه بن جعفر الطيار ، وعبد اللَّه بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وإبان ابن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبي طالب ﷺ - يفدون عليه بدمشق ، فيكرم

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية (١٢٢/٨) .

(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٠٣) ، وابن حجر - الإصابة (٢٣٢/٩) ، وابن الأثير - أسد الغابة (٢١١/٥) .

مثواهم ، ويحسن قراهم ، ويقضي حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعدهم إلا بالجوائز السنية ، والصلات الجمة ... » إلى أن يقول : « واعلم أن معاوية كان مربي دول ، وسائس أمم ، وراعي ممالك ، ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد » (١) .

وأما اليعقوبي والمسعودي ، فقالا : « وكان لمعاوية حلم ودهاء ومكر ورأي ، وحزم في أمر دنياه ، وجود بالمال » (٢) . وثناء هؤلاء الثلاثة المؤرخين على معاوية ، وحسن سياسته وإدارته لشؤون الدولة - أمر له مغزاه وأهميته ؛ لما عرف عنهم جميعًا من ميول شيعية ملموسة . وأما إعجاب ابن خلدون به فيتمثل في قوله : « وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة ، التي لم يكن أحد من قومه أوفر فيها منه يدًا ، من أهل الترشيح من ولد فاطمة وبني هاشم وآل الزبير وأمثالهم » (٣) .

ويروي ابن الأثير في أسد الغابة عن عبد الله بن عمر ﵄ أنه قال : « ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية . فقيل له : أبو بكر وعمر عثمان وعلي ؟ فقال : كانوا والله خيرًا من معاوية وأفضل ، ومعاوية أسود » (٤) .

ويروي الطبري مرفوعًا إلى عبد الله بن عباس ، قوله : « ما رأيت أحدًا أخلق للملك من معاوية إن كان ليرد الناس منه على أرجاء واد رحب » (٥) . ويقول ابن تيمية : « فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرًا من معاوية ، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيرًا منهم في زمن معاوية ، إذا نسبت أيام إلى أيامه من بعده ، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل ، وقد روى أبو بكر بن الأثرم ورواه ابن بطة من طريقه ، حدثنا محمد بن عمرو بن جبلة حدثنا محمد بن مروان ، عن يونس ، عن قتادة ، قال : لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم : هذا المهدي . وكذلك رواه ابن بطة بإسناده الثابت من وجهين ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، قال :

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية (ص ١٠٤ - ١٠٦) .

(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/٢٣٨) ، والتنبيه والإشراف ، نقلًا عن د . حامد غنيم أبو سعيد مقالة بعنوان « الأسرة الأموية بين القيم الإسلامية والاعتبارات السياسية » مجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض . العدد الرابع (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ، (ص ٢٦٨) .

(٣) العبر (٣/٧) .

(٤) (٥/٢١٠) وراجع ابن كثير - البداية والنهاية (٨/١٣٥) فقد أورد قولًا مماثلًا عن عبد الله بن عمرو ابن العاص . والمقصود بكلمة أسود أسخى وأحلم وأعطى للمال .

(٥) تاريخ (٥/٣٣٧) ، والبداية والنهاية (٨/١٣٥) ، والإصابة (٩/٢٣٣) .

لو أدركتم معاوية لقلتم : هذا المهدي [١] ، وذكر عمر بن عبد العزيز عند الأعمش ، فقال : فكيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا : في حلمه ؟ قال : لا واللّه في عدله » [٢] .
وإليك شهادة الذهبي له ، حيث يقول : « وحسبك بمن يؤمره عمر ، ثم عثمان على إقليم - هو ثغر - فيضبطه ، ويقوم به أتم قيام ويرضي الناس بسخائه وحلمه .. فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله ، وفرط حلمه ، وسعة نفسه ، وقوة دهائه ورأيه » [٣] .

وهكذا يكاد ينعقد إجماع علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية ﷺ وجدارته بالخلافة ، وحسن سياسته وعدله ، مما مكن له في قلوب الناس ، وجعلهم يجمعون على محبته [٤] . يقول ابن تيمية : « وكانت سيرة معاوية في رعيته من خيار سير الولاة ، وكان رعيته يحبونه ، وقد ثبت في الصحيحين ، عن النبي ﷺ أنه قال : « **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم** » [٥] .

وقد ورد كثير من الأخبار بدعاء النبي ﷺ لمعاوية بالهداية والمغفرة ، يقول الذهبي : « روى جماعة عن معاوية بن صالح ، عن يونس بن سيف ، عن الحارث بن زياد ، عن العرباض ، سمع النبي ﷺ وهو يدعو إلى السحور في شهر رمضان : « **هلم إلى الغداء المبارك** » ، ثم سمعته يقول : « **اللّهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب** » [٦] .
قال الحافظ ابن عساكر : « وأصح ما روي في فضل معاوية حديث أبي جمرة عن ابن عباس » . وأنه كان كاتب النبي ﷺ منذ أسلم أخرجه مسلم في صحيحه ، وبعده حديث العرباض - الذي سبق ذكره - وبعده حديث ابن أبي عميرة : « **اللّهم اجعله هاديًا مهديًا** » [٧] ، وقد ثبت في الصحيح أنه كان فقيهًا يعتد الصحابة بفقهه واجتهاده ؛ فقد جاء في البخاري عن ابن أبي مليكة قال : « أوتر معاوية بعد العشاء

(١) منهاج السنة (١٨٥/٣) .
(٢) المصدر السابق (١٨٥/٣) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٣٢/٣ ، ١٣٣) .
(٤) المصدر السابق (١٣٣/٣) ، وابن الطقطقا - الفخري (ص ١٠٤ - ١٠٦) ، وابن تيمية : منهاج السنة (١٨٩/٣) .
(٥) المصدر السابق (١٨٩/٣) .
(٦) سير أعلام النبلاء (١٢٤/٣) ، وراجع ابن كثير - البداية والنهاية (١٢١/٨) .
(٧) نقلا عن ابن كثير - البداية والنهاية (١٢٢/٨) .

بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس فأخبره ، فقال : دعه فإنه قد صحب رسول اللَّه ﷺ » [١] . وفي رواية أخرى قيل لابن عباس : « هل لك في أمير المؤمنين معاوية ؟ فإنه ما أوتر إلا بواحدة ! قال : إنه فقيه » [٢] . وأثر آخر صحيح يدل على فقهه واجتهاده : روى البخاري - بإسناده - عن معاوية ﷺ قال : « إنكم لتصلون صلاة لقد صحبنا النبي ﷺ فما رأيناه يصليها ، ولقد نهى عنها ، يعني الركعتين بعد العصر » [٣] .

بعد هذه الطائفة من الأحاديث والأخبار ، وأقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة عن معاوية وفضله وصحبته وفقهه واجتهاده - ينبغي أن نعرف نهجه في الحكم بعد أن أصبح خليفة .

منهج معاوية وأسلوبه في حكم الأمة الإسلامية :

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة (٤١ هـ) فأخذ يعمل بكل ما أوتي من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربوع العالم الإسلامي ، فانتهج سياسة داخلية تقوم على عدة قواعد :

أولًا : الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم ، وبخاصة بنو هاشم الذين كان بعضهم يعتقد أنه أفضل منه وأولى بالخلافة ، فراح بدهائه يستل حفيظتهم ، وبرقَّته يلم شاردهم ، وبحلمه وعزيمته يقوِّم معوجهم ، حتى اجتمعت عليه القلوب ودنت منه النفوس .

خطب مرة في أهل الحجاز بعد توليه الخلافة فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله ، فقال : « وأين مثل هؤلاء ؟ ومن يقدر على أعمالهم ؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم ، رحمة اللَّه ورضوانه عليهم ، غير أني سلكت بها طريقًا لي فيه منفعة ، ولكم فيه مثل ذلك ، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ؛ ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة ، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم ، واللَّه لا أحمل السيف على من لا سيف معه ، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه .. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدِّر النعمة ، وتورث الاستئصال ، أستغفر اللَّه لي ولكم » [٤] .

---

(١) ابن حجر - فتح الباري (١٠٤/٨) ، طبعة الحلبي سنة (١٩٥٩م) .
(٢) المصدر السابق (١٠٥/٨) .
(٣) المصدر السابق (١٠٥/٨) .
(٤) البداية والنهاية (١٣٢/٨) .

وبمثل هذه السيرة ، كما يقول ابن الطقطقا : « صار خليفة العالم وخضع له أبناء المهاجرين والأنصار ، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة » (١) . نجح معاوية نجاحًا كبيرًا في سياسته وجعل كل خصومه أصدقاءه وأولياءه ، وأخذت ألسنتهم تلهج بالثناء عليه . وقد مر بك ما قاله فضلاء الصحابة فيه ، ولم يكن ذلك قاصرًا على أيام خلافته فقط ، بل لقد كانوا يشيدون بذكره بعد وفاته ، حدث هشام بن عروة بن الزبير قال : « صلَّى يومًا عبد اللَّه بن الزبير ، فوجم بعد الصلاة ساعة ، فقال الناس : لقد حدث نفسه ، ثم التفت إلينا ، فقال : لا يبعدن ابن هند ! إن كانت فيه لمخارج لا نجدها في أحد بعده أبدًا ، واللَّه إن كنا لنفرقه - أي نخوفه - وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا وإن كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه ، فيتخادع لنا ، واللَّه لوددت أنَّا متعنا به ما دام في هذا حجر - وأشار إلى أبي قبيس » (٢) . وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر في عهد عبد الملك بن مروان ، وتذكر قول معاوية له : إن الشح والحرص لن يدعاك حتى يدخلاك مدخلًا ضيقًا ، فوددت أني حينئذ عندك أستنقذك .

فلا عجب إذن أن نرى الصحابة الذين امتنعوا عن بيعة علي ﷺ ، مثل : سعد بن أبي وقاص ، وعبد اللَّه بن عمر ، وعبد اللَّه بن الزبير ، وغيرهم - قد بايعوا معاوية ورضوا خلافته ؛ يقول الذهبي : « وخلف معاوية خلق كثير يحبونه ويتغالون فيه ويفضلونه ؛ إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء ، وإما قد ولدوا في الشام على حبه ، وتربى أولادهم على ذلك . وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة وعدد كثير من التابعين والفضلاء » (٣) .

ولم يثر في وجهه طوال خلافته أحد من الصحابة ولا من أبنائهم ، ولم يحدث أن اتخذ ضدهم أي إجراء ، بل إن الإجراء الوحيد الذي شهده عهده ، هو ما كان من أمر حجر بن عدي ، أحد كبار الشيعة في الكوفة ، فقد دأب حجر على نقد سياسة زياد بن أبي سفيان في الكوفة ، والتشهير به ، وجمع حوله عددًا كبيرًا من الناس ، وضاق زياد ذرعًا بحجر ، فكتب في شأنه إلى معاوية وحرضه على قتله ، فطلب منه معاوية أن يسيِّره إليه ، فسيَّره إليه فيما يقرب من خمسة عشر رجلًا ممن كانوا على رأيه ، فلما حضروا إلى معاوية ، رجع بعضهم عن رأيه ومقالته وتبرأ مما

(١) الفخري (ص ١٠٥) .
(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار (١١/١ ، ١٢) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٢٨/٣) .

كان يقول حجر ، وثبت الباقون وفيهم حجر ، فأمر معاوية بقتلهم [١] .

والواقع كانت هذه غلطة من معاوية ، وكان ينبغي أن يتسع حلمه لصحابي من صحابة الرسول ﷺ ، وقد ندم معاوية ندمًا كبيرًا على قتل حجر ، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته ، حتى يروى أنه قال عند موته : يومي من حجر طويل . وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها لما بلغها تسيير حجر إلى معاوية أرسلت إليه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام لتشفع فيه وفي أصحابه ولكن عبد الرحمن وصل بعد قتلهم ، فقال لمعاوية : « أين غاب عنك حلم أبي سفيان ؟ قال : غاب عني حين غاب عني . مثلك من حلماء قومي ، وحملني ابن سمية فاحتملت » [٢] . ولما التقى معاوية بعائشة رضي الله عنها بعد ذلك عاتبته على قتل حجر ، فقال لها : « يا أم المؤمنين دعيني وحجرًا حتى نلتقي عند اللّه » [٣] . وفيما عدا هذا فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته ، والتي لخصها هو نفسه في جمل يسيرة حين قال : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ؛ كانوا إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها » .

ثانيًا : القاعدة الثانية التي بنى عليها معاوية سياسته الداخلية هي توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي ؛ ومن أجل ذلك اصطنع عددًا من أعقل وأكفأ رجال عصره وأقدرهم ، وأقواهم حزمًا ، وأخبرهم بالإدارة وسياسة الناس ؛ ليساعدوه في إدارة الدولة وتوطيد الاستقرار فيها ، وكان هؤلاء الرجال إما من أبناء بيته ، مثل أخيه عتبة ابن أبي سفيان ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص أو من أشد الناس إخلاصًا له وتنفيذًا لسياسته ، مثل : عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومسلمة بن مخلد ، كما كان من أهم الرجال الذين اصطنعهم معاوية زياد بن أبي سفيان بعد أن استلحق نسبه بأبيه سنة (٤٤هـ) . وكان قبل ذلك يدعى بزياد ابن سمية ، أو ابن عبيد ، أو ابن أبيه [٤] .

---

(١) انظر الطبري : تاريخ (٢٥٣/٥) وما يليها . (٢) المصدر السابق (٢٧٨/٥ ، ٢٧٩) .

(٣) أبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم (ص ٢١٣) .

(٤) انظر قصة استلحاق زياد في الطبري - تاريخ (٢١٤/٥ ، ٢١٥) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٤١/٣) وما بعدها ، وأبو بكر بن العربي - العواصم من القواصم (ص ٢٣٥) وما بعدها ؛ حيث ناقش قضية استلحاق زياد وأثبت صحة عمل معاوية وقال - (ص ٢٤٢) : « وقد صرح مالك في الموطأ بنسبه فقال : في دولة بني العباس زياد بن أبي سفيان ولم يقل : زياد بن أبيه » .

ثالثًا : القاعدة الثالثة التي قامت عليها سياسة معاوية ، والتي ضمنت له توطيد أركان دولته أنه كان يباشر أمور دولته بنفسه ، ويعرف كل كبيرة وصغيرة عنها ، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره ، إلا أنه لم يكن يكتفي بذلك ، بل كرَّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين ، ولقد قدَّم لنا المسعودي [1] تقريرًا فريدًا عن يوم كامل من أيام معاوية ، وكيف كان يقضي وقته في تصفح أمور الدولة ، ولأهمية دلالة هذا التقرير نوجزه فيما يلي : « كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات ؛ كان إذا صلَّى الفجر جلس للقاصِّ حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلي أربع ركعات ، ثم يخرج إلى مجلسه ، فيأذن لخاصة الخاصة ، فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي .. ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج ، فيقول : يا غلام أخرج الكرسي .. فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له ؛ فيقول : ظُلمتُ ! فيقول : أعزوه ، ويقول : عُدي عليَّ ! فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صُنع بي ! فيقول : انظروا في أمره ، حتى إذا لم يبق أحد ، دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني أحد عن رد السلام .. فإذا استووا جلوسًا قال : يا هؤلاء إنما سميتم أشرافًا ؛ لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان ، فيقول : افرضوا لولده ، ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ، اخدموهم ... حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم .. فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلي ، ثم يدخل فيصلي أربع ركعات ، ثم يجلس ، فيأذن لخاصة الخاصة .. ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ويجلس إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ، ثم يدخل إلى منزله .. حتى إذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ، ويؤذن للناس على منازلهم .. وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ، ثم يصلي بعدها أربع ركعات .. ثم يدخل منزله .. حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلي ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة ، والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرًا من ليلتهم ، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم

---

(١) مروج الذهب (٣٩/٣ - ٤١) .

وحروبها ومكايدها .. وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة .. ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر ، فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلي الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم ، وقد كان همَّ بأخلاقه جماعة بعده ، مثل عبد الملك بن مروان وغيره ، فلم يدركوا حلمه ، ولا إتقانه للسياسة ، ولا التأتي للأمور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم » .

بهذه السياسة الواضحة ، التي ترتكز على تلك القواعد الثابتة استقرت أحوال الدولة الإسلامية ، وسادها النظام والأمن بصفة عامة ، ولم يعكر هذا الاستقرار سوى الخوارج الذين لم تُجْدِ معهم هذه السياسة ، وكان موقفهم من معاوية خاصة والأمويين عامة أكثر تطرفًا وأشد بغضًا مما كان الحال عليه مع علي ﷺ ، مما اضطر معاوية أن يخرج عن منهجه السياسي معهم ومعاملتهم بما يستحقونه من حزم وشدة ، كما سنرى ذلك مفصلًا في موضعه إن شاء اللَّه .

سياسة معاوية الخارجية :

سار معاوية في سياسته الخارجية على نهج ما سار عليه في سياسته الداخلية ، فقد وضع لها أيضًا أسسها المدروسة وقواعدها الثابتة الواضحة ، في دولة ترامت أطرافها فشملت - بالإضافة إلى شبه الجزيرة العربية - : العراق ، وجميع أقاليم الدولة الساسانية ، والشام ، ومصر ، وهي البلاد التي فتحت في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، وقد تم فتح هذه البلاد بسرعة ، ثم فترت الفتوحات في أواخر عهد عثمان ، وكل عهد علي ؛ بسبب الفتنة والحروب الأهلية ، وربما كان المتوقع أن يستأنف معاوية - بعد استتباب الخلافة - نشاط الفتح ، ولكن عهده لم يشهد فتوحات على نطاق واسع - كما كان الحال في عهد الراشدين - ولم يكن هذا تقصيرًا منه ، بل كان حصافة وحسن تقدير للأمور ، وفهمًا دقيقًا للواقع ؛ فالمسلمون منذ عهد أبي بكر دخلوا في صراع مع أكبر وأقوى دولتين في العالم وقتذاك ، وهما الفرس والروم ؛ فأما الدولة الفارسية فقد أزالوها من الوجود ، وقضوا على الأسرة الساسانية الحاكمة ، حيث قتل يزدجرد الثالث آخر ملوكها سنة (٣١هـ) في عهد عثمان . وأما الدولة البيزنطية - الروم - فقد اقتطعوا منها أهم وأغنى ولاياتها في

الشرق : الشام ومصر ، ولكن بقيت ممتلكاتها في آسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا لم يفتحها المسلمون بعد .

ومعنى هذا : أن خطر الهجوم العسكري من الفرس قد زال ، ولكن الأمر كان يتطلب تثبيت الفتوحات والتصدي لحركات التمرد التي قد تنبعث هنا أو هناك ؛ نتيجة الشعور القومي عند بعض حكام المقاطعات الفارسية . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد كان على معاوية أن يعمل على نشر الإسلام بين الشعب الفارسي ، حتى يدركوا تعاليمه الروحية والمادية ، وتنفيذًا لهذه السياسة فقد عمد معاوية إلى إسكان عشرات الألوف من الأسر العربية في هذه المناطق وبصفة خاصة خراسان ؛ حتى يكون اختلاط العرب بالفرس سبيلًا إلى انتشار الإسلام واللغة والثقافة العربية ، خصوصًا وأن هؤلاء العرب كانوا من بقايا الصحابة ومن التابعين ، ومع هذا لم يغفل معاوية حراسة الحدود ، فكانت الغزوات تنطلق إلى ثغر السند ، وتلامس بلاد ما وراء النهر ؛ تمهيدًا لمراحل من الفتح ستأتي [١] .

وقد تكفل بسياسة معاوية هذه في بلاد فارس ولاة العراق ، وعلى رأسهم عبد اللَّه بن عامر ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبي سفيان وابنه عبيد اللَّه ، وهكذا قدر معاوية أن تثبيت الفتوحات ونشر الإسلام حتى يطمئن الناس في كنفه أفضل وأجدى من الفتح والتوسع في الخارج في هذا الظرف ، وقد نجحت هذه السياسة وآتت ثمارها في هذا الجناح الشرقي من الدولة الإسلامية . أما الجناح الغربي - الشام ومصر - المواجه للدولة البيزنطية فهو الذي حظي باهتمام معاوية إلى حد كبير ؛ وذلك لسببين :

الأول : قرب الدولة البيزنطية من هذا الجناح ، ومن مركز الخلافة وعاصمتها دمشق .

والثاني : أن خطر هذه الدولة كان لا يزال قائمًا ، وتهديدها لحدود المسلمين لا يزال مستمرًا ، كما أن معاوية بحكم طول عمله وإقامته في الشام - قبل أن يلي الخلافة - اكتسب خبرة كبيرة في التعامل مع البيزنطيين ، وكان على وعي تام بأهدافهم ومرامي سياستهم ، فركز معظم جهده للتصدي لهم ، وإيقافهم عند حدهم ، وبخاصة في ميدان البحر . وكان للأسطول الإسلامي الذي جاهد معاوية

---

(١) سيأتي المزيد من التفاصيل عن الغزوات في عهد معاوية في هذه الجهات في الفصل الخاص بالفتوحات في العصر الأموي .

في إنشائه منذ ولايته على الشام فضل كبير جعله يشن على البيزنطيين « سلسلة رائعة من الهجمات البحرية ، حتى لا يكاد يخلو عام من الأعوام عند الطبري من الحديث عن غزوات البحر »[١] ، فاستولى على العديد من الجزر في شرقي البحر المتوسط ، مثل : قبرس ورودس وكريت وأرواد . ولم تسلم منه القسطنطينية نفسها - عاصمة الدولة البيزنطية - فقد حاصرها أكثر من مرة[٢] . وواصل ضغطه على البيزنطيين ، حتى جعلهم يقفون موقف الدفاع ويكفُّون عن الهجوم .

وتمشيًا مع سياسة معاوية وانسجامًا مع خطتها في الضغط على الدولة البيزنطية فقد توالت حملاته على شمال إفريقيا انطلاقًا من مصر ، ففتحت إفريقية - أو المغرب الأدنى (إقليم تونس الحالي) - وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة (٥٠هـ) لتكون قاعدة للانطلاق إلى الشمال الإفريقي كله .

وخلاصة القول : فإن معاوية ﷺ ظل ما يقرب من عشرين سنة يجاهد في توطيد أركان الدولة ، ونشر الأمن والأمان والاستقرار في ربوعها ، وحراسة وتثبيت حدودها ، بل وتوسيع هذه الحدود كلما كان ذلك ممكنًا ، وكبح جماح أعدائها ، وإبقاء هيبتها في قلوبهم ، وهكذا خلف وراءه دولة قوية السلطان مرهوبة الجانب ، يخشى بأسها الأعداء .

معاوية وولاية العهد لابنه يزيد :

تعتبر مسألة عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد من بعده ، وأخذه البيعة له من أكثر المسائل التي وجه إليه النقد من أجلها ، على اعتبار أنه خرج بهذا عن النهج الذي اتبعه المسلمون في اختيار خليفتهم منذ خلافة أبي بكر ، حتى خلافة الحسن بن علي ، فقد كان هذا الاختيار يتم عن طريق الشورى والبيعة الحرة من غالبية الصحابة على الأقل ، ولم يفكر أحد من الخلفاء الراشدين في توريث الخلافة لأحد من أبنائه أو أي من أقاربه ، حتى أن عمر بن الخطاب استبعد ابن عمه سعيد بن يزيد بن عمرو بن نفيل من أهل الشورى الستة الذين رشحهم للخلافة مع أنه كان من المبشرين بالجنة ؛ وذلك دفعًا لشبهة القرابة ، فضلًا عن أنه رفض رفضًا باتًّا فكرة تولية ابنه عبد الله عندما أشار

(١) انظر د . شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ١٩٠) وسيرد الحديث مفصلًا عن هذه الغزوات في الفصل التالي .

(٢) سيأتي الحديث أيضًا بتوسع عن نضال معاوية وجهاده البحري ضد البيزنطيين في فصل الفتوحات .

عليه بعض الناس بذلك [١] ، كما أن علي بن أبي طالب رفض أن يعهد لابنه الحسن ، وقال لأصحابه : لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر [٢] . فمعاوية إذن قد خرج على هذه القاعدة ، وابتدع فكرة التوريث ، وتشير الرواية المشهورة إلى : أن الذي أشار على معاوية بتلك الفكرة هو المغيرة بن شعبة [٣] ، حينما شعر أن معاوية ينوي عزله عن الكوفة فأراد التقرب إليه بهذه الفكرة .

ومهما يكن من أمر هذه القصة ، فالذي نرجحه أن معاوية قد عزم على تولية ابنه يزيد العهد ليكون خليفة بعده ؛ لأنه رأى أن ذلك ضرورة لوحدة الأمة ومنع الاختلاف ، وكان ينتظر الوقت المناسب لذلك ، حتى ولو لم يشر عليه المغيرة أو غيره بذلك ، وإذا كان للمغيرة من أثر فهو تشجيعه للفكرة ، والترويج لها - مع غيره من كبار الشخصيات - وإقناع الناس بها ؛ لأن هذا لم يكن أمرًا سهلًا ، خصوصًا مع وجود من يرون أنهم أفضل من يزيد من أبناء الصحابة ، مثل : الحسين بن علي ، وعبد اللّٰه بن عباس ، وعبد اللّٰه بن عمر ، وعبد اللّٰه بن الزبير . وقد بذل معاوية جهدًا مضنيًا لإقناع الناس عن طريق الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى حتى نجحت جهوده في نهاية المطاف وأخذ البيعة لابنه ولم يعارضه في ذلك إلا ثلاثة أشخاص ، وهم : الحسين بن علي ، وعبد اللّٰه بن الزبير ، وعبد اللّٰه بن عمر ، ثم بايع عبد اللّٰه ابن عمر فيما بعد - كما سنذكر - فانحصرت المعارضة في الحسين وعبد اللّٰه ابن الزبير .

ويروي خليفة بن خياط [٤] عن وهب بن جرير بن حازم أن معاوية حاول إقناع هؤلاء بالبيعة ليزيد ، فلما لم يستجيبوا هددهم بالقتل وأخذ البيعة منهم قسرًا ، وهذه الرواية يعارضها ما يرويه البخاري عن عكرمة بن خالد أن ابن عمر دخل على حفصة أخته حين كان معاوية يخطب في أمر البيعة ليزيد ، فقال لها : قد كان من الأمر ما ترين فلم يجعل لي من الأمر شيء ، فقالت : الحق فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة ، فلم تدعه حتى ذهب [٥] . ثم يروي البخاري أيضًا أن عبد اللّٰه بن عمر قال عند ثورة أهل المدينة على يزيد : « إنَّا قد بايعنا هذا الرجل على

---

(١) راجع الطبري - تاريخ (٢٢٨/٤ ، ٢٢٩) . (٢) المصدر السابق (١٤٦/٥ ، ١٤٧) .
(٣) المصدر السابق (٣٠١/٥ ، ٣٠٢) . (٤) تاريخ خليفة (ص ٢١٢ - ٢١٧) .
(٥) أبو بكر بن العربي : العواصم من القواصم (ص ٢٢٣ ، ٢٢٤) . وانظر صحيح البخاري (٤٨/٥) (ك ٦٤ ب ٢٩) .

بيع اللّه ورسوله » (١) .

فهذه الأخبار الصحيحة التي يرويها البخاري ، والتي تؤكد بيعة ابن عمر ليزيد تعارض رواية وهب بن جرير ، وحتى لو سلمنا بصحة روايته فهي لا تفيد أن معاوية كان جادًّا في تهديده لهم بالقتل ، وإنما كان ذلك حزمًا منه لحملهم على البيعة حتى لا يشقوا عصا الطاعة ، وتدخل الأمة في دوامة الفتنة من جديد . والدليل على ذلك : أن الرواية نفسها تذكر أنه لما أعلن معاوية بيعة الحسين وابن الزبير وابن عمر من على المنبر ، قال أهل الشام : لا واللّه لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الأشهاد ، وإلا ضربنا أعناقهم ، فقال معاوية : مه ! سبحان اللّه ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم ثم نزل (٢) ، ثم تذكر الرواية أيضًا ، أن عبد اللّه ابن صفوان دخل على معاوية ، فقال له : « أنت الذي تزعم أنك تقتل ابن عمر إن لم يبايع لابنك ؟ فقال : أنا أقتل ابن عمر ؟! إني واللّه لا أقتله » (٣) . كل هذا يؤكد أن معاوية وإن كان قد استخدم معهم طريق الترهيب إلا أنه لم يكن يضمر قتلهم ؛ لأن العنف لم يكن من طبعه ، وهؤلاء هم سادة الناس ، ومعاوية يعرف ذلك ، وكل ما كان يخشاه هو الاختلاف كما عبر عن ذلك في نفس الرواية (٤) .

وكيفما كان الأمر فقد أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد ، ولم يبق معارضًا لهذه البيعة من يعتد به سوى الحسين بن علي وعبد اللّه بن الزبير ، فلم نسمع بأحد غيرهما عارض يزيد بعد موت معاوية ، إلا ما كان من ثورة أهل المدينة ، وهؤلاء قد بايعوا جميعًا (٥) ، فثورتهم نقض من جانبهم للبيعة .

ولكن ما الدافع الذي جعل معاوية يقدم على أخذ البيعة لابنه ، ويعمل بكل جهده على تحقيقها ؟ ألمجرد أن يزيد ابنه ؟! وهل فكرة ولاية العهد بعيدة عن الإسلام ؟

الواقع أن فكرة ولاية العهد لم تكن بعيدة عن الإسلام من الناحية النظرية ، فهذا أمر قد عرف من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده ، كما يقول ابن خلدون : « إذ وقع بعهد أبي بكر ﷺ لعمر ، بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر ﷺ » (٦) .

---

(١) انظر صحيح البخاري (٢٣٠/٤) طبعة الحلبي .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢١٤) .

(٣) المصدر السابق (ص ٢١٥) .

(٤) المصدر السابق (ص ٢١٦) .

(٥) المصدر السابق (ص٢١٧) .

(٦) المقدمة (٦١١/٢) .

ولكن هذا يمكن أن يرد عليه بأن أبا بكر عهد إلى عمر ؛ لأنه رآه أصلح الناس لتولي الخلافة ، ولم تكن تربطه به صلة قرابة قريبة ، فاختياره له كان اختيارًا مجردًا لله وللدين وللأمة . ثم إن عمر لم يصبح خليفة بمجرد اختيار أبي بكر ، بل بعد أن شاور المسلمين فيه ، فاقتنعوا ورضوا وبايعوه ، ولو أن معاوية عهد لأحد غير ابنه ، واختار لها واحدًا ممن هم أفضل منه لما اعترض عليه أحد ، فالاعتراضات جاءت لا من حيث العهد في حد ذاته ، وإنما من كونه لابنه ، ولكن هل كان دافع معاوية إلى ذلك هو مجرد حبه لابنه فقط ؟ لا يستطيع أحد أن يجرد معاوية من حبه لابنه ، ولكن يبدو أن الأمر كان أكبر من ذلك بكثير ، فمعاوية بعد التجارب التي رآها من اختلاف المسلمين حول الخلافة وجد أن المصلحة تقتضي العهد لأحد بعده بالخلافة لاستقرار الأمور ومنع الخلاف ، ورأى أنه لو عهد لأحد من غير بني أمية لحدث ما كان يخشاه من الخلاف ؛ لأنهم لن يقبلوا أن تخرج الخلافة منهم ؛ وعلى هذا بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية حيث قال : « والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس ، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بني أمية ؛ إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم ، وهم عصابة قريش ، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم ، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع ، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك ، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه ، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق ، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك ، وعدالتهم مانعة منه ... ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير ، وندور المخالف معروف » [1] .

هذه حجة ابن خلدون في تبرير عمل معاوية ، وهي حجة قوية ؛ لأنها واقعية ، وتؤيدها الوقائع والحوادث اللاحقة ، فعلى سبيل المثال عندما توفي يزيد بن معاوية ، وكان عهد لابنه معاوية وكان ضعيفًا عن حمل أعباء الخلافة ، فأعلن ذلك ، وكان صريحًا مع نفسه - يرحمه الله - فلما طلبوا منه أن يعهد لأحد ، رفض ورد الأمر

---

(١) ابن خلدون - المقدمة (٦١٣/٢) ، وانظر العواصم من القواصم لابن العربي (ص ٢٢٣) . والدكتور ضياء الدين الريس - النظريات السياسية الإسلامية (ص ١٩٣) ... ولا ندري لماذا أغفل ابن خلدون ذكر الحسين وقد كان مخالفًا للعهد ليزيد كابن الزبير ؟ .

للأمة [١] ؛ فماذا حدث ؟

كان عبد اللّه بن الزبير قد أخذ البيعة لنفسه في مكة ، ثم بايعته الحجاز ومصر والعراق وحتى بعض أقاليم الشام ، ورغم ذلك فلم يتم له الأمر ؛ لأن بني أمية وأنصارهم تغلبوا عليه في نهاية الأمر ، فلم يكن الأمر مجرد قوة بني أمية ، ومعهم الأموال والرجال ، ولكن كان معهم كتلة كبيرة تؤيدهم ، وتشد أزرهم ، وبصفة خاصة في الشام ، فقبائل اليمن في الشام ، وفي مقدمتهم قبيلة كلب - وهم أخوال يزيد بن معاوية - كانوا قلبًا وقالبًا مع بني أمية ، وهم الذين كانوا يرجحون كفتهم في كل صراع ينشب حول الخلافة .

ثم هناك واقعة أخرى ربما تكون أقوى دلالة في تأييد رأي ابن خلدون وهي قصة عمر بن عبد العزيز وولاية يزيد بن عبد الملك العهد من بعده ، فلا شك أن عمر بن عبد العزيز كان على يقين بعدم صلاحية يزيد للخلافة ، حتى أن الخوارج في حوارهم معه لم يستطيعوا أن يفحموه إلا في هذا الأمر ، حين أرسلوا إليه اثنين منهم ليناظراه ، فقالا له : « أخبرنا عن يزيد ، لم تقره خليفة بعدك ؟ قال : صيره غيري ، قالا : أفرأيت لو وليت مالًا لغيرك ، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك ؟ فقال لهما : أنظراني ثلاثة » [٢] . ولكنه لم يستطع أن ينزع يزيد من ولاية العهد ويضع بدله واحدًا ممن كان يفكر فيهم مثل سالم بن عبد اللّه ابن عمر بن الخطاب أو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ؛ وذلك لمعارضة بني أمية له [٣] . فخشي إن هو عهد لواحد منهما أن تحدث فتنة ؛ فأبقى يزيد وليًا للعهد بعده - مع علمه بعدم صلاحيته - تقديرًا للواقع . ولا يتهم أحد عمر بن عبد العزيز بالتحيز لابن عمه وإيثاره على مصلحة المسلمين . بل أكثر من هذا فإن سليمان ابن عبد الملك عندما عهد لعمر بن العبد العزيز لما رأى فيه الصلاح والتقوى وتحرِّ للعدل ، متخطيًا بذلك إخوته - لم يجرؤ على ذلك إلا بعد أن ضمن العهد توليته أخيه يزيد بعد عمر ، مع أن عمر ابن عمه ، فأنت ترى هنا أن بني عبد الملك لم يسمحوا أن تخرج الخلافة منهم إلى ابن عمهم ، إلا بعد أن علموا بأنها ستعود إليهم بعده في شخص أخيهم يزيد [٤] .

---

(١) الطبري - تاريخ (٥/٥٣٠ ، ٥٣١) .
(٢) الطبري - تاريخ (٥/٥٥٦) .
(٣) ابن تيمية - منهاج السنة (١/١٤٦) ، والدكتور ضياء الدين الريس - النظريات السياسية (ص ١٩٣) .
(٤) انظر الطبري - تاريخ (٦/٥٥٠) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥/٣٩) .

كل هذا يدل على أن عمل معاوية كان ضرورة فرضها الواقع ، ولم يكن لمجرد الميل والعاطفة نحو ابنه كما يذهب بعض الناس - ولو أن الذين عارضوا يزيد وخرجوا عليه قالوا كما قال ابن عمر ، وفعلوا كما فعل ودعوا إلى وحدة الكلمة ، ومنع الخلاف والفرقة ؛ لما دخلت الأمة في فتنة جديدة ، ولما سمعنا عن يوم كربلاء ولا يوم الحرة ولا حصار الكعبة [١] .

٢ - يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ)

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين ، أبو خالد الأموي ، وأمه ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبي ، ولد سنة خمس - أو ست أو سبع وعشرين - للهجرة [٢] ، ويعد من الطبقة الأولى من التابعين ، ويقول ابن كثير : « وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة وهي العليا ، وله أحاديث ، روى عن أبيه معاوية ، أن رسول الله ﷺ قال : « **من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين** » وحديث آخر في الوضوء وروى عنه ابنه خالد ، وعبد الملك بن مروان » [٣] .

فولادة يزيد إذن كانت أثناء ولاية أبيه على الشام في خلافة عثمان ، فنشأ في عز الإمارة ومجدها ، وقد عني معاوية بتربيته تربية عربية إسلامية فقد أرسله في طفولته إلى البادية عند أخواله من بني كلب ؛ ليشب في أحضان الفطرة ، وخشونة البادية ورجولتها وفتوتها ، وليتعلم العربية النقية ، ولقد أثمرت هذه التربية في يزيد ؛ فكان شاعرًا فصيحًا ، وأديبًا لبيبًا يحسن التصرف في المواقف ، حاضر البديهة ، أبيَّ النفس ، عالي الهمة .

---

(١) ومع ذلك كله فقد يقول قائل : ألا ترى معي أنه لو بحث معاوية ﷺ عن رجل من ذوي الكفاءة - من قريش - واستفتى ذوي الرأي والنهي بشأنه ، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح ، وطلب من أهل الحل والعقد في الأمة مبايعته بولاية العهد ، فهل كان يعترض أحد ؟ طبعًا لا ؛ ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعي ، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه ومبايعته مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة !! ألا ترى معي أن ذلك كان ممكنًا ، وأنه كان محققًا للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين ، وتجنيب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد ؟ وقد يكون هذا القول وجيهًا ولكن معاوية على كل حال اجتهد ، فإن كان مصيبًا فله أجران ، وإن كان مخطئًا فله أجر واحد .

(٢) نسب قريش للمصعب الزبيري (ص ١٢٧) ، والطبري - تاريخ (٥/٤٩٩) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤/١٢٥) وما بعدها ، ومنهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٢٣٧) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (٤/٣٥ - ٤٠) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٨/٢٢٦) وما بعدها .

(٣) ابن كثير - المصدر السابق (٨/٢٢٦) .

قدم زياد يومًا على معاوية بأموال كثيرة ، فصعد المنبر ، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق ، من تمهيد الملك لمعاوية ، فقام يزيد ، فقال : إن تفعل ذلك يا زياد ، فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش ، ومن القلم إلى المنابر ومن زياد بن عبيد الله إلى حرب بن أمية ، فقال معاوية - لابنه - : اجلس فداك أبي وأمي [(١)] .

وقد حرص معاوية على تعليم ابنه مكارم الأخلاق ، وفن التعامل مع الناس ، ومجاملاتهم في المناسبات ، حتى يتحبب إليهم ، وتتوثق الصلات بينه وبينهم ، وفد عبد الله بن عباس على معاوية بعد وفاة الحسن بن علي ، فدعا معاوية يزيد ليعزيه في الحسن ، فلما دخل على ابن عباس رحب به وأكرمه وجلس عنده بين يديه ، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه ، فأبى وقال : إنما أجلس مجلس المعزي ، لا المهني ، ثم ذكر الحسن ، فقال : رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها ، وعظم الله أجرك وأحسن جزاءك ، وعوضك من مصابك ما هو خير لك ثوابًا وخير عقبى . فلما نهض من عنده ، قال ابن عباس : إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس [(٢)] . كما كان معاوية يحرص على تعليمه التواضع والعدل والإنصاف ؛ فقد رآه يضرب غلامًا له ، فقال له : « اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه ، سوأة لك !! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك ؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن ، وأن أحسن من عفا لمن قدر » [(٣)] .

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية ، حرص على أن يعهد إلى يزيد ببعض الأعمال الكبيرة ؛ لتدريبه على العمل وإكسابه الجدية ، وتعريف المسلمين به ، وتهيئته للمنصب الخطير الذي كان يعده له ، وهو منصب الخلافة ؛ فقد أسند إليه قيادة الجيش الذي أرسله لغزو القسطنطينية سنة (٤٩هـ) ، وكان تحت إمرته في هذا الجيش « ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري » [(٤)] ، وهذا الجيش هو الذي وعده الرسول ﷺ بالمغفرة ، في حديث أم حرام بنت ملحان الأنصارية ، حيث قال : « **أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم** » [(٥)] . ويقول ابن كثير : إن هذا الحديث من أعظم دلائل النبوة [(٦)] ؛ لأنه تحقق ما أخبر به النبي ﷺ . كما كان

(١) المصدر السابق (٢٢٦/٨) .
(٢) المصدر السابق (٢٢٨/٨) .
(٣) المصدر السابق (٢٢٧/٨) .
(٤) الطبري - تاريخ (٢٣٢/٥) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٥٨/٣) .
(٥) ابن كثير - البداية والنهاية (٢٢٩/٨) ، وابن تيمية - منهاج السنة (٢٤٥/٢) .
(٦) البداية والنهاية (٢٢٩/٨) .

معاوية يؤمِّره على الحج [١] ، وهذه منزلة كبيرة .

وعندما عزم معاوية على العهد ليزيد بالخلافة ، أخذ يحمله على حياة الجد والحزم والإقلاع عن حياة الترف والنعومة ؛ ليؤهل نفسه للمنصب الذي ينتظره ، فعندما تثاقل عن المسير مع الجيش الذي غزا القسطنطينية - المشار إليه آنفًا - أقسم عليه أبوه ليلحقن بالجيش في أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس [٢] . ومن الواضح أن يزيد قد استجاب ، وارتفع إلى مستوى المسؤولية الذي أراده له أبوه ، والدليل على ذلك اشتراك الصحابة معه في الغزو وعملهم تحت إمرته ، ولو لم يروه أهلًا لذلك لما فعلوا .

يزيد الخليفة :

توفي معاوية ﷺ في منتصف شهر رجب سنة (٦٠هـ) فآلت الخلافة إلى يزيد ، في نفس اليوم الذي مات فيه أبوه ، وكان آنذاك غائبًا عن دمشق فأخذ له البيعة الضحاك بن قيس ، فلما حضر ، وأقبلت وفود البلدان وأمراء الأجناد ، وأشراف العرب لتعزيته في أبيه ، وتهنئته بالخلافة - صعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال : إن معاوية كان حبلًا من حبال اللَّه ، مدَّه اللَّه ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من كان قبله ، وخيرًا ممن بعده ، إن يغفر اللَّه له فهو أهله ، وإن يعذبه فبذنبه ، وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل بطلب علم ، فعلى رسلكم فإن اللَّه لو أراد شيئًا كان ، اذكروا اللَّه واستغفروه . ثم نزل ، ودخل منزله ، ثم أذن للناس [٣] .

وقد أجمعت الأمة على بيعة يزيد ، أو بمعنى آخر جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ، ولم يشذ على ذلك إلا الحسين بن علي وعبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهما [٤] ، وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن - كما سنرى - أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد جمعًا للكلمة وحفظًا لوحدة الأمة وخوف الفتنة ، مثل : عبد اللَّه بن عباس ، وعبد اللَّه بن عمر ، بل إن عبد اللَّه بن عمر لم يكتف ببيعة يزيد ، وإنما كان يحذر الناس من الخروج عليه ، فقد روى البخاري أنه عندما خلع أهل المدينة طاعة يزيد ، جمع ابن عمر

---

(١) الطبري - تاريخ (٥/٢٤٠) .

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٤٥٩) .

(٣) المسعودي - مروج الذهب (٣/٧٥) ، وقول يزيد عن أبيه : وكان دون من كان قبله فيه إشارة إلى اعترافه بأن عليًّا كان أفضل من أبيه ، ولعل هذا يرد على من يزعم أن الأمويين كانوا يلعنون عليًّا على المنابر .

(٤) انظر ابن خلدون - المقدمة (٢/٦١٣) .

حشمه وولده ، وقال لهم : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة** » ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ، ثم ينصب له القتال ، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه [١] .

ولم يكتف ابن عمر بمنع ولده وحشمه من الاشتراك في الخروج على يزيد وخلع طاعته ، بل سعى في إخماد الثورة ومنع أهل المدينة من خلع طاعة يزيد ، فقد روى مسلم في صحيحه قال : جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان زمن يزيد بن معاوية ، فقال : اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة ، فقال : إني لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول الله ﷺ يقوله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية** » [٢] .

كما كان لمحمد بن علي بن أبي طالب - ابن الحنفية - موقف مماثل لموقف عبد الله بن عمر ، فقد أثنى على يزيد وشهد له بالعدالة والاستقامة وحسن السيرة [٣] ، وسنعود لذكر ثورة المدينة تفصيلًا - إن شاء الله - ولو قدر لوجهة نظر عبد الله بن عمر ، ومحمد ابن الحنفية ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهم من عقلاء الأمة ، أن تسود في أوساط المسلمين ، لتفادت الأمة وقوع تلك الفتنة الجديدة والتي أدت إلى هذه الحوادث الدامية ، مثل مقتل الحسين ، وموقعة الحرة ، وحصار الكعبة ، تلك الحوادث التي ألقت بظلالها على عهد يزيد ، فأنست الناس ما فيه من حسنات وإيجابيات ، حتى أنهم لم يذكروا من هذا العهد إلا أنه في أول سنة من خلافة يزيد قتل الحسين ، وفي الثانية غزيت المدينة ، وفي الثالثة حوصرت الكعبة . وسوف نرى مدى مسؤولية يزيد عن هذه الأحداث .

ومع أننا لا نقلل من أهمية هذه الأحداث وآثارها . إلا أننا نستطيع أن نقول : إن يزيد حافظ على هيبة الدولة ، وسهر على حراستها ، بل إن حملات الفتح لم تتوقف في عهده ، ففي نفس السنة التي حدثت فيها ثورة المدينة وموقعة الحرة سنة (٦٣هـ) ، كانت حملة عقبة بن نافع في شمال إفريقيا ، والتي وصل فيها إلى شاطئ المحيط

---

(١) الصحيح (٤/٢٣٠) طبعة الحلبي . (٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٢٤٠) .

(٣) انظر عن شهادة ابن الحنفية ليزيد وثنائه عليه : العواصم من القواصم لابن العربي ، هامش (ص ٢٢٧) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٣٣) .

الأطلسي ، ثم واصل غزو بلاد ما وراء النهر ، فعبرت جيوشه تحت قيادة سلم بن زياد نهر جيحون فصالحه أهل خوارزم وسمرقند وخجنده [١] ، كما ظلت حدود الدولة مع البيزنطيين محروسة ومهابة ، وفي الداخل لم يعكر صفو الدولة الإسلامية في عهد يزيد سوى أحداث الحجاز - التي أشرنا إليها آنفًا - وما عدا ذلك فإننا نجد الأمن والاستقرار سائدًا في جميع الأقطار .

ويرجع الفضل في ذلك إلى تلك السياسة الرشيدة التي خطها معاوية لابنه في كيفية حكم الدولة وإدارتها ومعاملة الناس [٢] ، حيث قال له قبيل وفاته : « يا يزيد ، اتق اللَّه ؛ فقد وطأت لك هذا الأمر ، ووليت من ذلك ما وليت ، فإن يكن خيرًا فأنا أسعد به ، وإن كان غير ذلك شقيت به ، فارفق بالناس ، وأغمض عما بلغك من قول تؤذى به وتنتقص به ، وطأ عليه يهنك عيشك ، وتصلح لك رعيتك ، وإياك والمناقشة وحمل الغضب ، فإنك تهلك نفسك ورعيتك ، وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم ، ولِنْ لهم بحيث لا يروا منك ضعفًا ولا خورًا ، وأوطئهم فراشك وقربهم إليك وأدنهم منك ، ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم ، فيهينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك ، فإذا أردت أمرًا فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى ، فشاورهم ولا تخالفهم وإياك والاستبداد برأيك فإن الرأي ليس في صدر واحد ، وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف ، واخزن ذلك عن نسائك وخدمك ، وشمر إزارك ، وتعاهد جندك ، وأصلح نفسك تصلح لك الناس ، ولا تدع لهم فيك مقالًا ، فإن الناس سراع إلى الشر ، واحضر الصلاة ؛ فإنك إذا فعلت ما أوصيتك به عرف الناس لك حقك ، وعظمت في أعين الناس ، واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك ، واحفظ لأهل الشام شرفهم فإنهم أهل طاعتك ، واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعدهم فيه منك بالمعروف ، فإن ذلك يبسط آمالهم ، وإن وفد عليك وافد من الكور كلها فأحسن إليهم وأكرمهم ؛ فإنهم لمن ورائهم ، ولا تسمعنَّ قول قاذف ولا ماحل ، فإني رأيتهم وزراء سوء » [٣] .

---

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١٠) .

(٢) للإنصاف والحقيقة نقول : إن يزيد لم يحد عن هذه السياسة التي رسمها له أبوه إلا في مسألة الحسين بن علي ، فلو أن يزيد عالج هذه المشلكة بالحلم والحكمة والرفق وعفا عن الحسين لجنَّب نفسه ودولته والمسلمين شرًّا كبيرًا .

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية (٢٢٩/٨ ، ٢٣٠) .

وقد حاول يزيد ترسم هذه السياسة التي تضمنتها هذه الوصية التي تعتبر من أهم الوثائق في فن الحكم والسياسة والإدارة والتعامل مع الناس ، فقد دأب على إكرام أشراف الحجاز ، وبصفة خاصة بنو هاشم ، مثل : عبد اللَّه بن جعفر ، وعبد اللَّه ابن عباس ، ومحمد بن علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين وغيرهم ، فلما وفد عليه عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب [١] وكانت جائزته على عهد معاوية ستمائة ألف « فأعطاه يزيد ألف ألف ، فقال له : بأبي أنت وأمي ، فأعطاه ألف ألف أخرى ، فقال له ابن جعفر : واللَّه لا أجمع أبوي لأحد بعدك . ولما خرج ابن جعفر من عنده رأى على باب يزيد بخاتي مبركات ، قد قدم عليها هدية من خراسان ، فرجع عبد اللَّه ابن جعفر إلى يزيد فسأله منها ثلاث بخاتي ليركب إلى الحج والعمرة ، وإذا وفد إلى الشام على يزيد . فقال يزيد للحاجب : ما هذه البخاتي التي على الباب ؟ - ولم يكن شعر بها - فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه أربعمائة بختية جاءتنا من خراسان ، تحمل أنواع الألطاف ، وكان عليها أنواع من الأموال كلها ، فقال : « اصرفها إلى أبي جعفر بما عليها . فكان عبد اللَّه بن جعفر يقول : أتلومونني على حسن الرأي في هذا ؟ يعني يزيد » [٢] .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

ولم تكن سماحة يزيد قاصرة على بني هاشم ، بل كانت تعم أهل الحجاز جميعًا حتى إنها شملت أولئك الذين ثاروا عليه وخلعوا طاعته من أهل المدينة فقد جاءه وفد من شيوخ المدينة ، وفيهم عبد اللَّه بن حنظلة ومعه ثمانية بنين له فأعطاه مائة ألف « وأعطى بنيه كل رجل منهم عشرة آلاف درهم ، سوى كسوتهم وحملانهم ، فلما قدم عبد اللَّه بن حنظلة المدينة أتاه الناس ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : أتيتكم من عند رجل واللَّه لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم ، قالوا : فإنه بلغنا أنه أجازك وأكرمك وأعطاك ، قال : قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا لأتقوى به عليه » [٣] ، ثم قاد الثورة ضد يزيد وخلع طاعته .

---

(١) كان معاوية قد وصى يزيد بعبد اللَّه بن جعفر وصية خاصة ، حيث قال له : « إن لي خليلًا من أهل المدينة فأكرمه ، قال : ومن هو ؟ قال : عبد اللَّه بن جعفر » : انظر البداية والنهاية (٢٣٠/٨) ، وكان معاوية ويزيد من بعده يغدقان على ابن جعفر ؛ لأنه كان جوادًا وكان يفيض مما يعطيانه على أهل المدينة جميعًا .

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية (٢٣٠/٨) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (٣٩/٤) ، ومحمد كرد علي - الإسلام والحضارة العربية (١٦١/٢ ، ١٦٢) .

(٣) تاريخ ابن خياط (ص ٢٣٧) .

وللعلماء في يزيد رأي حسن - رغم مآخذهم عليه - فابن كثير يلقبه بأمير المؤمنين ، وقال عنه : « وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك ، وكان ذا جمال ، حسن المعاشرة » (١) . ويقول خليفة بن خياط : « قرئ على ابن بكير وأنا أسمع عن الليث - ابن سعد - قال : توفي أمير المؤمنين يزيد في سنة أربع وستين ليلة البدر في شهر ربيع الأول » (٢) .

واعتبر أبو بكر بن العربي هذه شهادة ثقة من الليث بن سعد ليزيد ، فقال : « فسماه الليث : أمير المؤمنين ، بعد ذهاب ملكهم وانقراض دولتهم ، ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلا : توفي يزيد » (٣) .

ولو درس تاريخ يزيد دراسة رائدها البحث عن الحقيقة مجردة عن الهوى والميول والعواطف ؛ لتغيرت نظرة كثير من الناس إليه ، ولأخذ مكانه الصحيح بين الخلفاء في التاريخ الإسلامي ، فليس هناك إنسان معصوم من الخطأ ، ولا يعقل أن يحكم يزيد دولة مترامية الأطراف ولها وفيها الكثير من المشاكل ولا يكون له أخطاء وسيئات ، فهو كما يقول ابن تيمية : « كأمثاله من خلفاء بني أمية وبني العباس ، وهؤلاء الخلفاء لم يكن فيهم من هو كافر ، بل كلهم كانوا مسلمين ، ولكن لهم حسنات وسيئات كأكثر المسلمين ، وفيهم من هو خير وأحسن سيرة من غيره » (٤) .

لعل من أحكم ما قيل في شأن يزيد وخلافته لتسكين الفتنة وعدم تفريق الكلمة ، ونصيحة الأمة بالتآخي - ما ثبت عن حميد بن عبد الرحمن أنه قال : دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حين استخلف يزيد بن معاوية ، فقال : تقولون : إن يزيد بن معاوية ليس بخير أمة محمد ، لا أفقهها فقهًا ، ولا أعظمها فيها شرفًا ، وأنا أقول ذلك ، ولكن والله لأن تجتمع أمة محمد أحب إليّ من أن تفترق ، أرأيتم بابًا دخل فيه أمة محمد ووسعهم ، أكان يعجز عن رجل واحد لو كان دخل فيه ؟ قلنا : لا . قال : أرأيتم لو أن أمة محمد قال كل رجل منهم : لا أريق دم أخي ولا آخذ ماله ، أكان يسعهم ؟ قلنا : نعم . قال : فذلك ما أقول لكم . ثم قال :

---

(١) البداية والنهاية (٨/٢٣٠) .
(٢) تاريخ خليفة (ص ٢٥٣) .
(٣) العواصم من القواصم (ص ٢٢٨) .
(٤) انظر : سؤال في يزيد بن معاوية (ص ١٣) .

قال رسول الله ﷺ : « **لا يأتيك من الحياء إلا خير** » [١] .

هذا قول ومنطق الصحابة الحريصين على وحدة الأمة وسلامتها ، ولو قدر لهذا المنطق أن يسود لتغير وجه التاريخ الإسلامي ؛ لأنه ما من شك في أن أحداث عهد يزيد - والتي كان موقفه فيها رد فعل - كان لها نتائج خطيرة ، أثرت ولا زالت تؤثر في مجريات هذا التاريخ .

وفاة يزيد :

توفي يزيد بن معاوية بحوارين - قرية من قرى حمص - بالشام لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة (٦٤هـ) ، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، وقيل : تسع وثلاثين [٢] ، وقد خلف اثني عشر ولدًا ذكرًا وأربع بنات [٣] ، وكان يزيد قد عهد لابنه معاوية ، وقد بويع معاوية بالخلافة بعد موت أبيه [٤] ، ولكنه لم يباشر مهام الخلافة وتنازل عنها ، ولم يعهد إلى أحد واعتكف في بيته إلى أن توفي ، وظل الأمر مضطربًا على بني أمية ، حتى اجتمعت كلمتهم في مؤتمر الجابية ، في مستهل ذي القعدة سنة (٦٤هـ) على بيعة مروان بن الحكم .

٣ - معاوية بن يزيد (٦٤ هـ)

هو معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة [٥] ، وكان يلقب بأبي عبد الرحمن وأبي يزيد ، وكان شابًّا ورعًا تقيًّا ، عهد إليه أبوه بالخلافة ، فبويع له بها يوم وفاته وهو الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة (٦٤هـ) [٦] ، ومع أنه أصبح الخليفة الثالث في سلسلة خلفاء بني أمية من

---

(١) العواصم من القواصم (ص ٢٢٦) .

(٢) انظر الطبري (٤٩٩/٥) .

(٣) ابن قتيبة - المعارف (ص ٣٥١) ، ويصل ابن كثير بعدد أولاد يزيد الذكور إلى خمسة عشر ولدًا . انظر البداية والنهاية (٢٣٦/٨ ، ٢٣٧) .

(٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٥٥) ، والطبري - تاريخ (٥٠١/٥) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٢٣٧/٨) .

(٥) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣٩/٤) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٥٥) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ٣٥٢) ، والبداية والنهاية (٢٣٧/٨) .

(٦) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٥٥) ، والطبري (٥٠١/٥) .

الناحية النظرية ، إلا أنه لم يباشر عمله كخليفة ؛ حيث كان ضعيفًا عن النهوض بتبعات المنصب ، وكان صادقًا مع نفسه ومع الناس ، فأعلن ذلك صراحة ، يروي ابن كثير أنه بعد أن صلَّى على أبيه وتم دفنه ، وأقبل عليه الناس وبايعوه بالخلافة ، نادى في الناس : الصلاة جامعة ، وخطب فيهم ، وكان مما قال : « أيها الناس ، إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه ، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي ، كما تركها الصديق لعمر ، وإن شئتم تركتها شورى في ستة كما تركها عمر بن الخطاب ، وليس فيكم من هو صالح لذلك ، وقد تركت أمركم ، فولوا عليكم من يصلح لكم ، ثم نزل ودخل منزله ، فلم يخرج حتى مات ، رحمه اللَّه تعالى » [١] . أراد معاوية ابن يزيد أن يقول لهم : إنه لم يجد مثل عمر ، ولا مثل أهل الشورى ، فترك لهم أمرهم يولون من يشاؤون وقد جاء ذلك صريحًا في رواية أخرى للخطبة عند ابن الأثير ، قال فيها : « أما بعد ؛ فإني ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم ، ثم دخل منزله وتغيب حتى مات » [٢] .

واعتبر هذا الموقف منه دليلًا على عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة ، فقد رفض أن يعهد لأحد من أهل بيته حينما قالوا له : اعهد إلى أحد من أهل بيتك ، فقال : « واللَّه ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلد وزرها ، وتتعجلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ؟ اللَّهم إني بريء منها متخلٍّ عنها » [٣] .

وقد أعقب ذلك فترة من الفتن والصراع بين الأمويين وابن الزبير ، انتهت لصالح الأمويين الذين استطاعوا تدارك الموقف وبايعوا لمروان بن الحكم بالخلافة في مؤتمر الجابية في ذي القعدة سنة (٦٤هـ) ، وخلال الفترة التي عاشها معاوية بن يزيد بعد أن بويع بالخلافة وحتى وفاته ، والتي يختلف المؤرخون في تحديدها ما بين أربعين يومًا وأربعة شهور ، كما اختلفوا في تقدير سنه ما بين ثمانية عشر عامًا وواحد وعشرين عامًا - في خلال هذه الفترة ظل الضحاك بن قيس الفهري يصلي بالناس في دمشق ويصرف الأمور ، حتى انتهى الأمر إلى بيعة مروان بن الحكم [٤] .

---

(١) البداية والنهاية (٢٣٨/٨) . (٢) الكامل في التاريخ (١٣٠/٤) .

(٣) المسعودي - مروج الذهب (٨٢/٣) .

(٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٥٥) ، والمسعودي - مروج الذهب (٣ / ٨٢) ، والطبري - تاريخ (٥ / ٥٠١) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٢٣٧/٨) .

٤ - مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥هـ)

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي أبو عبد الملك ، ويقال : أبو الحكم وأبو القاسم ، وهو صحابي عند طائفة كثيرة من المؤرخين ؛ لأنه ولد بعد عبد الله بن الزبير بأربعة أشهر ، والمعروف أن ابن الزبير ولد في السنة الأولى من الهجرة ، وعلى هذا يكون مروان قد بلغ العاشرة تقريبًا عند وفاة النبي ﷺ ؛ ولذلك عده البعض من الصحابة وإن كان ابن سعد في الطبقات يعده في الطبقة الأولى من التابعين ، والأصلح أنه من الصحابة [١] . وقد روى عن النبي ﷺ حديثًا في صلح الحديبية والحديث في صحيح البخاري عن مروان والمسور بن مخرمة [٢] ، كما روى مروان الحديث عن طائفة من كبار الصحابة ، منهم : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وبسيرة بنت صفوان الأزدية ، وكانت خالته وحماته ، وروى عنه طائفة من التابعين ، منهم : ابنه عبد الملك ، وسهل بن سعد ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلي ابن الحسين - زين العابدين - ومجاهد وغيرهم [٣] .

وقد كان مروان من سادات قريش وفضلائها ، روى ابن كثير عن الشافعي أنه قال : كان علي يوم الجمل حين انهزم الناس يكثر السؤال عن مروان ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إنه يعطفني عليه رحم ماسة ، وهو سيد من شباب قريش » [٤] . ويقول عنه أبو بكر بن العربي : « ومروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين ، وفقهاء المسلمين ... وأما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه ، واعتبار خلافته والتلفت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايته » [٥] . ويعتبره ابن تيمية من أقران

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٧٦/٣) ، وطبقات ابن سعد (٣٥/٥) ، ونسب قريش للمصعب الزبيري (ص ١٥٩) ، والطبري - تاريخ (٥٣٥/٥) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ٣٥٣) ، ومروج الذهب للمسعودي (٩٨/٣) ، وأسد الغابة لابن الأثير (١٤٤/٥) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٧/٨) .

(٢) انظر الصحيح (٤٣/٣) ، طبعة الحلبي .

(٣) البداية والنهاية (٢٥٧/٨) ، رواية عروة عن مروان في البخاري (٦٢/٣) ورواية زين العابدين عنه في منهاج السنة لابن تيمية (١٢٣/٢) .

(٤) البداية والنهاية (٢٥٧/٨) ، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٤٧٧/٣) .

(٥) العواصم من القواصم (٨٩ ، ٩٠) .

عبد اللَّه بن الزبير (١) . ويقول عنه الذهبي : « وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء » (٢) ، وروي عن قبيصة بن جابر ، قال : قلت لمعاوية : من ترى للأمر بعدك ؟ فسمى رجالًا ، ثم قال : وأما القارئ الفقيه ، الشديد في حدود اللَّه مروان - كذا - » (٣) ، ويروي ابن كثير عن الشافعي ، قال : « أنبأنا حاتم بن إسماعيل ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، أن الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يصليان خلف مروان - أثناء ولايته على المدينة لمعاوية - ولا يعيدانها ، ويعتدان بها » (٤) . وكان مروان ذا شهامة ومروءة ؛ يروي أنه كان دائنًا لعلي بن الحسين بستة آلاف دينار ، فلما حضرته الوفاة أوصى ابنه عبد الملك ألا يسترجع منه شيئًا ، ولكن عليًّا امتنع عن قبولها فألح عليه عبد الملك فقبلها (٥) .

كان مروان كاتب ابن عمه الخليفة عثمان بن عفان ، وصاحب سره ، وكان الناقمون على عثمان يحملونه مسؤولية ما زعموا أنه أخطاء وقعت من عثمان ، كما اتهموه بأنه هو الذي كتب الكتاب الذي زعم الثوار المصريون أنهم وجدوه مع غلام عثمان ، فأنكر مروان علمه بالكتاب ، كما أنكر ذلك عثمان نفسه (٦) ، ولما حاصر الثوار عثمان قاتل مروان يوم الدار ، ثم انضم إلى عائشة وطلحة والزبير ، وحارب معهم يوم الجمل ، وجرح فيها ، وقد مر بك أن عليًّا رضي الله عنه أكثر السؤال عنه ، ثم التقى به فأمنه فبايعه ، وعاد إلى المدينة (٧) ، ولم يحضر صفين مع معاوية .. ومع ذلك فقد ولَّاه معاوية بعد أن أصبح خليفة المدينة أكثر من مرة ، حيث جعلها دولة بينه وبين سعيد بن العاص ، بل يروي المسعودي (٨) أن معاوية كان قد جعل مروان ولي عهد بعد ابنه يزيد ، لما رآه غاضبًا على تولية يزيد ، حيث قال له : « أقم الأمور يا ابن أبي سفيان واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك من قومك نظراء ، فقال له معاوية : أنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته في كل شديدة ، وعضده ، والثاني بعد ولي عهده » ، ولكنه عزله عنها ، فإن صحت رواية المسعودي هذه فإنها تدل على

---

(١) منهاج السنة (١٨٩/٣) . (٢) سير أعلام النبلاء (٤٧٧/٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٧٧/٣) وابن كثير - البداية والنهاية (٨ / ٢٥٧) .

(٤) البداية والنهاية (٨ / ٢٥٨) ولعل هذا الخبر يعتبر دليلا آخر على الذين يدعون أن الأمويين كانوا يسبون عليًّا على المنابر ؛ إذ كيف يصلي الحسن والحسين خلف مروان إذا كان يسب أباهما ؟

(٥) ابن كثير - البداية والنهاية (٢٥٨/٨) .

(٦) تقدم الحديث مفصلًا عن هذا الموضوع عند حديثنا عن الفتنة في عهد عثمان .

(٧) الذهبي - سير أعلاء النبلاء (٤٧٩/٣) . (٨) مروج الذهب (٣٨/٣) .

مكانة مروان وقوة شخصيته ؛ بحيث كان معاوية يداريه ويسترضيه . والأخبار التي ترويها المصادر عن مروان أثناء ولايته المدينة تدل على أنه كان يتحرى العدل ، ويستشير صلحاء الناس في الأمر ؛ يروي ابن كثير أنه لما كان مروان واليًا على المدينة ، « كان إذا وقعت معضلة جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها ، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها ، فنسب إليه فقيل : صاع مروان » [١] .

وروي عن الإمام أحمد أنه قال : « كان عند مروان قضاء ، وكان يتتبع قضايا عمر بن الخطاب » [٢] . وقد كان يحج بالناس في إمارته على المدينة .

مروان والخلافة :

رفض معاوية بن يزيد أن يعهد بالخلافة لأحد من بني أمية ، بعد عجزه عن القيام بأعبائها وترك الأمر شورى بين المسلمين يولون من يحبون ، فاضطرب أمر بني أمية اضطرابًا شديدًا وكادت تذهب دولتهم ، وانتهز عبد اللّٰه بن الزبير تلك الفرصة فأعلن تنصيب نفسه خليفة في مكة ، وبدأت البيعة تأتيه من سائر الأقاليم ، من العراق ومصر ، بل من الشام ذاتها ، التي انقسم أهلها إلى فريقين : فريق مال إلى ابن الزبير وهم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس ، والفريق الآخر ظل على الولاء لبني أمية ، وهم اليمنيون في الشام بزعامة حسان بن مالك الكلبي وغيره من زعمائهم .

وكان مروان وبنوه في المدينة عند وفاة يزيد بن معاوية فأخرجهم منها عبد اللّٰه بن الزبير ، فرحلوا إلى الشام ، فلما وصلوها وجدوا الأمر مضطربًا والانقسامات على أشدها ؛ مما جعل مروان يفكر في العودة إلى الحجاز ، ومبايعة عبد اللّٰه بن الزبير [٣] .

تعديل الموقف لصالح بني أمية :

وبينما مروان يدير هذه الفكرة في رأسه وصل إلى الشام عدد من رجال بني أمية البارزين أمثال الحصين بن نمير السكوني ، الذي كان يحاصر ابن الزبير في مكة ، وعبيد اللّٰه بن زياد الذي كان في البصرة عند وفاة يزيد فاضطرب عليه الموقف ، ولما عجز عن السيطرة عليه هرب متخفيًا إلى الشام ، وكان وصول هذين وأمثالهما إلى الشام نقطة تحول في تاريخ الدولة الأموية ، فلو تأخر وصولهم ، وذهب مروان لمبايعة

(١) البداية والنهاية (٢٥٨/٨) .
(٢) المصدر السابق (٢٥٨/٨) ، وسير أعلام النبلاء (٤٧٧/٣) .
(٣) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٤٥/٤) .

ابن الزبير ؛ لكان في ذلك نهاية الدولة الأموية ، ولكن هؤلاء الرجال عملوا على إنقاذ الموقف ، واستحثوا عزيمة الأمويين واستثاروا حميتهم وبخاصة مروان الذي قال له عبيد الله بن زياد حينما علم بعزمه على مبايعة ابن الزبير : « قد استحييت لك من ذلك ، أنت كبير قريش وسيدها ، تمضي إلى أبي خبيب - يقصد ابن الزبير - فتبايعه ؟! فقال له مروان : ما فات شيء بعد » [(١)] .. تطلعت آمال مروان إلى الخلافة لكن الأمر لم يكن سهلًا ، فأمامه صعوبات كثيرة ؛ فقد كان القيسيون بالشام قد بايعوا لعبد الله بن الزبير ، كما أن اليمنيين - أنصار بني أمية - كانوا منقسمين إلى فريقين : فريق يميل إلى بيعة خالد بن يزيد بن معاوية ، ويتزعمه حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ، ومالك بن هبيرة السكوني . والفريق الآخر يميل إلى بيعة مروان ، ويتزعمه روح بن زنباع الجذامي ، والحصين بن نمير السكوني ، ومعهم عبيد الله بن زياد . لقد كان توحيد موقف أنصار الأمويين على رجل واحد هو نصف الطريق إلى النجاح ، وبعد مناقشات ومداولات ، بل ومساومات ، تغلب الفريق الثاني الذي يؤيد مروان ، وكانت حجتهم في ذلك أن خالد بن يزيد لا يزال صغيرًا ، وليس ندًّا لابن الزبير ، فقد قالوا لمعارضيهم : « لا والله لا تأتينا العرب بشيخ - يقصدون ابن الزبير - ونأتيهم بصبي » [(٢)] ، فاتفقوا على حل يرضى عنه الجميع وهو أن تكون البيعة بالخلافة لمروان ، ثم من بعده لخالد بن يزيد ، ومن بعده لعمرو بن سعيد الأشدق ، واتفقوا على عقد مؤتمر في الجابية لإنهاء المشكلة .

ومن هنا بدأت الأمور تسير لمصلحة بني أمية ، حتى أن الضحاك بن قيس زعيم الفريق الذي مال إلى ابن الزبير ، بل بايعه ، مال إلى بني أمية من جديد ؛ فقد كان من أقرب رجال معاوية وابنه يزيد وكان الحاكم الفعلي لدمشق منذ وفاة يزيد وحتى بيعة مروان ، وأرسل إليهم يعتذر عن خروجه عن طاعتهم ، وأعلن أنه سيحضر مؤتمر الجابية ، ولكنه لم يستطع المضي في خطته ؛ فقد مورست عليه ضغوط للبقاء على بيعته لابن الزبير ، من رجاله ، وبصفة خاصة ثور بن معن السلمي [(٣)] . فلم يذهب إلى الجابية ، بل ذهب إلى مرج راهط ، حيث دارت المعركة الحاسمة بينه وبين مروان .

لم يؤثر موقف الضحاك بن قيس ، وتذبذبه على بني أمية ؛ فقد أحكموا أمرهم ومضوا في خطتهم ، وعقدوا مؤتمرهم التاريخي في الجابية ، وبايعوا لمروان بالخلافة

(١ ، ٢) المصدر السابق (١٤٥/٤) .

(٣) المصدر السابق (١٤٧/٤) .

في الثالث من ذي القعدة سنة (٦٤هـ) [١] .

مروان الخليفة :

تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة من البيت السفياني إلى البيت المرواني ، وانعقدت البيعة لمروان ، وأخذ مكانه في التاريخ ، رابع الخلفاء الأمويين ، بل مؤسسًا لدولة مروانية ، ورثها أبناؤه وأحفاده من بعده .

حل مؤتمر الجابية مشكلة الخلافة - بين بني أمية - وكانت هذه خطوة موفقة وحاسمة ، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلًا ، فلا زالت تعترضه صعوبات كبيرة ، فالضحاك بن قيس - زعيم الجناح القيسي المناصر لابن الزبير - قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص ، وزفر بن الحارث الكلابي ، أمير قنسرين ، وكان واضحًا أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسؤولية وحمل أعباء الخلافة ، والدفاع عنها وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك عنها ، وكان هذا أول فتح على بني أمية على حد تعبير ابن الأثير [٢] ، ولم يضيع مروان وقتًا ، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن في الشام ، كلب وغسان والسكاسك والسكون ، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيد اللّه بن زياد ، واتجه إلى مرج راهط ، فدارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان ، حيث هزم القيسيون ، أنصار ابن الزبير وقتل زعيمهم الضحاك بن قيس ، وعدد كبير من أشراف قيس في الشام واستمرت المعركة حوالي عشرين يومًا ، وكانت في نهاية سنة (٦٤هـ) ، وقيل : في المحرم سنة (٦٥هـ) [٣] .

مروان يستولي على مصر :

مكن انتصار مروان في معركة مرج راهط لدولته في الشام ، فبسط نفوذه عليها ، وكانت خطوته التالية المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير ، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان ، فلمصر أهميتها الكبيرة واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير ، ولم يكن استيلاؤه عليها صعبًا ، فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية ، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة ، وإنما كانت بيعة ضرورة . يقول

---

(١) المصدر السابق (١٤٩/٤) . (٢) الكامل في التاريخ (١٥٠/٤) .

(٣) الطبري (٥٣٤/٥ ، ٥٣٥) ، وابن الأثير - المصدر السابق (١٤٩/٤ ، ١٥٠) .

الكندي [١] : « لما قدم عبد الرحمن ابن جحدم - واليًا على مصر من قبل ابن الزبير ومعه الخوارج الذين لا يجمعهم وابن الزبير إلا العداء لبني أمية - بايعه الناس على غل ، ثم دعا شيعة بني أمية مروان سرًا » وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر فقد سار إليها بجيشه ، ومعه عمرو بن سعيد ، وخالد بن يزيد بن معاوية ، وحسان بن مالك ، ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز [٢] .

ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم ، ثم جاء إلى مروان طالبًا العفو عنه على أن يخرج إلى مكة ، فعفا عنه . وكان نجاح مروان في استرداد مصر في جمادى الآخرة سنة (٦٥هـ) [٣] ، وأقام في مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها .

ولما أزمع العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز واليًا عليها ، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية ، وخبرة واسعة ، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه في مصر ، فقال لأبيه : يا أمير المؤمنين ، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي ؟ فقال له : « يا بني ، عُمَّهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقًا تصفُ لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عينًا لك على غيره وينقاد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشرًا مؤنسًا ، وجعلت موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا ، وما عليك يا بني أن تكون أميرًا بأقصى الأرض ، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك ؟! » [٤] .

عاد مروان إلى الشام ليواجه خطر ابن الزبير ، ولكن الأجل لم يمهله فقد مات في الثالث من رمضان سنة (٦٥هـ) [٥] تاركًا هذه المهمة لابنه عبد الملك ، فقد كان مروان بالاتفاق مع زعماء الشام - وبصفة خاصة حسان بن مالك ، الذي كان أكبر المؤيدين لخالد بن يزيد - قد أقنعهم بعدم قدرة خالد بن يزيد على التصدي لابن الزبير ، ومن ثم نجح في إقناعهم بالموافقة على البيعة لابنه عبد الملك ، ثم عبد العزيز ، واعتبر ما تم في الجابية من العهد لخالد بن يزيد بعد مروان ، ومن بعده

---

(١) الولاة والقضاة (ص ٤١ ، ٤٢) . (٢) الكندي - المصدر السابق (ص ٤٢) .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٦/٨) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٥٤/٤) ، والكندي - الولاة والقضاة (ص ٤١) وما بعدها .

(٤) الكندي - المصدر السابق (ص ٤٧) .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٦٢) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٩١/٤) .

عمرو بن سعيد ، اعتبر هذا أمر ضرورة ، وقد زالت الضرورة الآن .

وحسب مروان أنه في أقل من عام أعاد تأسيس الدولة الأموية ، واسترد الشام ومصر ، وترك لابنه عبد الملك مهمة توحيد الدولة الإسلامية من جديد ، وقد خلف مروان عشرة من الذكور وثلاثًا من الإناث [١] .

٥ - عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ)

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، أبو الوليد أمير المؤمنين ، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، ولد في المدينة سنة (٢٦هـ) في خلافة عثمان بن عفان [٢] ، ونشأ بها نشأة علمية ، وتتلمذ على كبار الصحابة من أهل المدينة ، وروى عنهم الحديث مثل : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة ، كما روى عن أم المؤمنين أم سلمة ، وبريرة مولاة عائشة . كما روى عن أبيه وعن معاوية بن أبي سفيان ، وكان يكثر من مجالسة العلماء والصالحين .

وروى عنه جماعة من التابعين ، منهم : خالد بن معدان ، وعروة بن الزبير ، والزهري ، وعمرو بن الحارث ، ورجاء بن حيوة ، وجرير بن عثمان [٣] ، وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، روى الأعمش عن أبي الزناد ، قال : « كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان » [٤] ، وفي رواية أخرى لنافع أنه قال : « لقد رأيت المدينة وما فيها أشد تشميرًا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان » [٥] .

وكان يلقب بحمامة المسجد لملازمته له ، والأخبار متواترة على فقه عبد الملك وغزارة علمه ورجاحة عقله ؛ قال الذهبي : « ذكرته لغزارة علمه » [٦] . وقال

(١) المعارف لابن قتيبة (ص ٣٥٤) .

(٢) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد (٢٢٣/٥) ، المعارف لابن قتيبة (ص ٣٥٥) ، تاريخ اليعقوبي (٢٦٩/٢) ، مروج الذهب للمسعودي (٩٩/٣) ، البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٠/٨) ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢١٢/١) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٦/٤) وما بعدها ، ابن الأثير - الكامل (٥١٩/٤) .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٦٢/٩) .

(٤) المصدر السابق (٦٢/٩) .

(٥) المصدر السابق (٦٢/٩) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٢٤٦/٤) .

الشعبي : « ما جالست أحدًا إلا رأيت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان » [١] وروي عن عبد اللَّه بن عمر قوله : « ولد الناس أبناء وولد مروان أبًا » [٢] . وقد احتج الإمام مالك بقضاء عبد الملك بن مروان في أمر المكاتب [٣] ، ويقول ابن خلدون : « وعبد الملك صاحب ابن الزبير ، أعظم الناس عدالة ، وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفقهه ، وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير ، وهما معه بالحجاز » [٤] .

قضى عبد الملك معظم حياته قبل أن يلي الخلافة في المدينة ، ينهل من علم علمائها وفقهائها ، ويتأدب بآدابهم ، ولم يكن يغادرها إلا للحج أو الغزو ، فقد اشترك في غزو إفريقية في عهد معاوية ؛ روى خليفة بن خياط : « أن معاوية كتب إلى مروان - وهو نائبه على المدينة - أن ابعث ابنك عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب ، مع معاوية بن حديج ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئًا كثيرًا » [٥] وكثيرًا ما كان يشترك في غزو بلاد الروم [٦] .

وعندما خلع أهل المدينة طاعة يزيد بن معاوية ، أخرجوا بني أمية وطردوهم منها ، فأعادهم إليها مسلم بن عقبة ، وشهدوا معه معركة الحرة سنة (٦٣هـ) ولكن عبد اللَّه بن الزبير أخرجهم منها ثانية بعد وفاة يزيد ، فخرج عبد الملك معهم إلى الشام وشارك في الأحداث التي أدت إلى بيعة أبيه في مؤتمر الجابية في مستهل ذي القعدة سنة (٦٤هـ) . ولما توجه أبوه إلى مصر - بعد معركة مرج راهط - تركه نائبًا عنه في دمشق ، ولما عاد مروان من مصر وتوفي في رمضان سنة (٦٥هـ) بويع عبد الملك بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه .

عبد الملك وتوحيد الدولة الإسلامية :

تجمع المصادر التي ترجمت لعبد الملك وأرَّخت له على أنه كان من عقلاء الرجال ودهاتهم ، ومن أكثرهم حزمًا وشجاعة وإقدامًا [٧] . وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية في إدارة الدولة وسياستها ، وكان غير هياب يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة ،

---

(١) المصدر السابق (٢٤٨/٤) ، ابن كثير - البداية والنهاية (٦٢/٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٤٨/٤) والبداية والنهاية (٦٢/٩) .

(٣) الموطأ : طبعة الشعب (ص ٤٩٣) .

(٤) المقدمة (٦٢٣/٢) .

(٥) تاريخ خليفة (ص٢١٠ ، ٢١١) .

(٦) ابن كثير - البداية والنهاية (٦٢/٩) .

(٧) انظر الذهبي - سير أعلام النبلاء (٢٤٩/٤) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٦١/٩) وما بعدها .

ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلًا ، ولا يتردد عن قيادة المعارك بنفسه ، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الإسلامية وأن يصفي خصومه ، الواحد بعد الآخر ، بالصبر والجلد والمثابرة ، فعندما تولى عبد الملك الخلافة كانت الأمة الإسلامية مقسمة على النحو التالي : عبد الملك وتتكون دولته بشكل رئيسي من الشام ومصر ، ودولة عبد اللَّه بن الزبير وتتكون من الحجاز والعراق ، ويحكمها من مكة ، كما قامت للخوارج الأزارقة دولة في الأهواز ، وللخوارج النجدات دولة في اليمامة امتدت حدودها إلى اليمن وحضرموت ، ووصل نفوذها إلى الطائف ، وفضلًا عن ذلك فإن الشيعة كادت تقوم لهم دولة بالعراق تحت زعامة المختار بن أبي عبيد الثقفي .

ولا أدل على هذا الانقسام في العالم الإسلامي من أنه في سنة (٦٨هـ) ارتفعت في موسم الحج أربعة ألوية : لواء عبد الملك ، ولواء لمحمد بن علي بن أبي طالب - ابن الحنفية - ولواء لنجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة ، ثم لواء عبد اللَّه ابن الزبير [(١)] .

وكان هذا وضعًا شاذًّا ، وأخذ عبد الملك على عاتقه تصحيحه ووضع الأمور في نصابها ؛ لأنه كان يعتبر نفسه أولى وأحق من هؤلاء جميعًا بالخلافة ، وخلافته هي الخلافة الشرعية وهؤلاء جميعًا خوارج عليها ، وقد برهن عبد الملك عن فهم عميق لطبيعة هذه الصراعات ، ومن ثم أتقن التعامل معها ، وتمكن في النهاية من القضاء عليها جميعًا ، وقد وضع لنفسه خطة ذكية وهي ترك هذه القوى يأكل بعضها بعضًا ، ومن يبقى منها في النهاية على مسرح الأحداث ، يكون قد ضعف ، ويسهل القضاء عليه ؛ ذلك أنه أدرك أن هذه القوى جميعًا لا يجمعها هدف واحد مشترك ، سوى العداء له ولدولته ، ولكن بينها جميعًا تناقضات في الأفكار والمبادئ والأهداف ، فالخوارج لهم أهدافهم الخاصة وكذلك الشيعة وهؤلاء وأولئك يخالفون ابن الزبير في أفكاره ومبادئه وأهدافه ، ولذلك عندما رأى عبد الملك تصاعد قوة ونفوذ المختار بن أبي عبيد في العراق خصوصًا بعد هزيمته لجيش عبد الملك وقتل قائده عبيد اللَّه ابن زياد في معركة الخازر سنة (٦٧هـ) [(٢)] - لم يتحرك عبد الملك لضرب المختار والثأر لهزيمة جنده ، وإنما ترك هذه المهمة لآل الزبير ؛ لأنه كان على

(١) انظر الطبري - تاريخ (١٣٨/٦) ، وابن الأثير - الكامل (٢٩٦/٤) .
(٢) الطبري - المصدر السابق (٨٦/٦) ، وابن الأثير المصدر السابق (ص ٢٦١) .

يقين أن نفوذ المختار في العراق سيصطدم بنفوذهم ، ومن ثم فلن يتركوه ، وقد صدق ما توقعه عبد الملك ، فقد تحرك مصعب بن الزبير من البصرة إلى الكوفة وقضى على المختار [١] ، وبهذا تخلص عبد الملك من أحد خصميه الخطيرين ، دون أن يبذل في ذلك جهدًا ، ولكن بعد القضاء على المختار ، رأى أن الموقف قد حان للتخلص من آل الزبير ، والقضاء على دولتهم ، ولم يترك هذه المهمة لأحد غيره ، بل قاد جيشه بنفسه ، وسار إلى العراق ، وتمكن من هزيمة مصعب بن الزبير وقتله سنة (٧٢هـ) [٢] ، ثم أرسل قائده الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة للقضاء على عبد الله بن الزبير ، فنجح في ذلك سنة (٧٣هـ) وبهذا قضى عبد الملك على أكبر وأخطر خصومه . أما الخوارج فقد رماهم برجل من أبرز الرجال في عصره وهو المهلب بن أبي صفرة ، وكان المهلب صاحب خبرة طويلة في حرب الخوارج فتمكن من هزيمتهم وكسر شوكتهم وإبعاد خطرهم إلى حين [٣] .

وهكذا ثابر عبد الملك وصبر وجاهد لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية تحت قيادته ونجح في ذلك نجاحًا فائقًا ، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها ، فحينما خرج عليه عمرو بن سعيد الأشدق لم يتوان في القضاء عليه دون شفقة ، ليكون عبرة لكل من يحاول الخروج على دولته ومهما قيل في نقد عبد الملك في صنيعه بعمرو بن سعيد إلا أنه ينبغي النظر إلى الفترة وما سادها من فتن وثورات ، وقلاقل في معظم الأقاليم ، فلو لم يكن عبد الملك على هذا القدر من الحزم والعزم ، لما استطاع أن يعيد للدولة وحدتها ، فالسياسة عقل لا قلب وعواطف ، فينبغي أن تقدر الضرورة بقدرها ، فقتل رجل واحد أهون وأخف ضررًا من فتنة يروح ضحيتها خلق كثير ، كما حدث في كل الفتن والثورات التي مرت بها الأمة . ومن هنا استحق عبد الملك عن جدارة لقب موحد الدولة الإسلامية أو المؤسس الثاني للدولة الأموية ، بعد معاوية مؤسسها الأول ، ولم يعكر صفو عبد الملك بعد أن حقق وحدة الدولة حوالي سنة (٧٣هـ) إلا ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، وكانت ثورة عارمة ، ولكن عبد الملك استطاع القضاء عليها بفضل مهارة قائده الحجاج ابن يوسف الثقفي ، ورباطة جأشه ؛ فقد تمكن الحجاج بعد معارك شرسة من

(١ ، ٢) الطبري - المصدر السابق (١٥١/٦) ، وما بعدها وابن الأثير - المصدر السابق (٣٢٣/٤) .
(٣) سيأتي الكلام مفصلًا عن الخوارج فيما بعد .

القضاء على هذه الثورة سنة (٨٣هـ) [١] .

عبد الملك وإدارة الدولة :

ولم يظهر عبد الملك شجاعة ومقدرة ومهارة في القضاء على خصومه السياسيين فحسب ؛ بل أظهر براعة في إدارة الدولة وتنظيمها ، وكان شبيهًا في ذلك بمعاوية في كثير من الوجوه [٢] ، فكما اعتمد معاوية في سياسته على ركائز ثابتة ، كذلك كان عبد الملك ؛ فقد استعان بنخبة من أمهر رجال عصره في الإدارة والسياسة مثل الحجاج الذي اعتمد عليه في إدارة العراق والقسم الشرقي من الدولة ، وأطلق يده فيه فنهض الحجاج بمهمته ، وكان عند حسن ظن عبد الملك به وثقته فيه ؛ فأخلص كل الإخلاص للخليفة وبذل أقصى جهده في تثبيت أركان دولته ، كما اعتمد على رجال بيته من إخوته مثل : عبد العزيز ومحمد وبشر وغيرهم ، كذلك اقتدى عبد الملك بمعاوية في مباشرة أعمال دولته بنفسه ، وتصفح أمورها ، فكان دائم المراقبة لعماله ، ولم يكن يتوانى عن محاسبتهم ، مهما كانت أقدارهم ، فحتى الحجاج نفسه رغم مكانته ، لم يسلم من مساءلة عبد الملك له إذا قصر أو أخطأ ؛ لأنه رغم حزمه ، بل قسوته أحيانًا في معاملة خصومه السياسيين - إلا أنه لم يكن ليرضى عن الظلم أو الإساءة إلى الصالحين ؛ فقد شكا إليه أنس بن مالك من الحجاج فكتب إليه كتابًا شديد اللهجة يؤنبه على ذلك . قال الأعمش : « أخبرني محمد بن الزبير ، أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ، ويقول في كتابه : لو أن رجلًا خدم عيسى ابن مريم أو رآه ، أو صحبه ، تعرفه النصارى ، أو تعرف مكانه ، لهاجرت إليه ملوكهم ولنزل من قلوبهم المنزلة العظيمة ، ولعرفوا له ذلك ، ولو أن رجلًا خدم موسى أو رآه ، تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا ، وإني خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، ورأيته ، وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضرَّ بي وفعل وفعل ، قال : أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي ، وبلغ به الغضب ما شاء الله ، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ ، فجاء إلى الحجاج فقرأه ، فتغير ، ثم قال لحامل

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٣٥٧/٦) وما بعدها ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٧٨/٤) وما بعدها ، وسنعود أيضًا لتفصيل ثورة ابن الأشعث فيما بعد .

(٢) انظر محمد كرد علي - الإسلام والحضارة العربية (١٦٤/٢) .

الكتاب : انطلق بنا إليه نترضاه »[١] . كما كان عبد الملك يقظًا وحريصًا على نزاهة عماله ، واستقامة أخلاقهم وبُعدهم عن الشبهات وقد استغل جهاز البريد في معرفة أخبار العمال والولاة أولًا بأول ، والكشف عن أي انحراف ، ومحاسبة صاحبه ، روى المسعودي[٢] : أن عبد الملك قد بلغه أن عاملًا من عماله قَبِل هدية فاستدعاه إليه ، ثم سأله : أقبلت هدية منذ وليت ؟ قال : يا أمير المؤمنين « بلادك عامرة ، وخراجك موفور ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟ قال : نعم ، قال : إن كنت قبلت ولم تعوض إنك للئيم ، ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك ، أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه إنك لخائن جائر وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع ، وأمر بصرفه عن عمله » .

ولم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه ، أو ينافقه ، أو يضيع وقته فيما لا يفيد . روى ابن كثير[٣] : أن رجلًا طلب من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف ، فلما أراد الرجل أن يتكلم بادره عبد الملك قائلًا : احذر في كلامك ثلاثًا : إياك أن تخدعني ؛ فأنا أعلم بنفسي منك ، أو تكذبني ؛ فإنه لا رأي لكذوب ، أو تسعى إلي بأحد من الرعية ؛ فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي .

« وكان من جهود عبد الملك في إرساء دعائم الوحدة والاستقرار في الدولة الإسلامية : إصداره عملة عربية إسلامية لأول مرة وتوحيد أوزانها ؛ ضمانًا للعدالة »[٤] . وكانت هذه خطوة حضارية كبيرة ؛ فقد حررت اقتصاد الدولة الإسلامية من الاعتماد على العملات الأجنبية وبصفة خاصة الدينار البيزنطي .

ومن الأعمال الباهرة لعبد الملك تعريب دواوين الدولة ، وبصفة خاصة ديوان الخراج الذي يعتبر من أهم دواوين الدولة ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، والذي كان العمل فيه حكرًا على غير العرب ، وكان هذا وضعًا شاذًا ، فجاءت خطوة عبد الملك لتصحح الوضع ، وتفتح المجال أمام العرب المسلمين للعمل في هذا الديوان والتدريب على شؤون المال والاقتصاد ، وكانت تلك الخطوة ذات أثر حضاري كبير في التاريخ الإسلامي[٥] .

---

(١) ابن كثير – البداية والنهاية (٩/٦٥) . (٢) مروج الذهب (٣/١٢٥) .
(٣) البداية والنهاية (٩/٦٥) . (٤) انظر البلاذرى – فتوح البلدان (ص ٥٧٢) وما بعدها .
(٥) سنتناول تعريب العملة والدواوين بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بالإدارة في العصر الأموي .

وخلاصة القول : فقد كرس عبد الملك بن مروان كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتها ، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان .

سياسة عبد الملك الخارجية :

كما سار عبد الملك على نهج معاوية في إدارة الدولة ومعالجة مشاكلها في الداخل [١] ، فقد اتبع المنهج نفسه في السياسة الخارجية ؛ فقد كان العدو الرئيسي للدولة الإسلامية في عهد عبد الملك هو نفسه الذي كان في عهد معاوية ، وهو الدولة البيزنطية فقد رأى عبد الملك - كما رأى معاوية من قبله - مهادنة هذه الدولة حتى يفرغ من مشاكله الداخلية ؛ ولذلك وقع مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة ، قبل أن يدفع له بمقتضاها مالًا ليضمن عدم إغارته على حدود الدولة الإسلامية منتهزًا فرصة انشغاله في الداخل . يقول البلاذري : « وصالح - عبد الملك - طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه ، واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق ، فإنه صالحهم على أن يؤدي إليهم مالًا » [٢] ، ولكن الإمبراطور البيزنطي ظن - لقصر نظره وافتقاره إلى الوعي السياسي الذي كان ينبغي أن يتحلى به إمبراطور بيزنطة [٣] - أنه بإمكانه أن يخدع عبد الملك دون أن ينقض المعاهدة نقضًا مباشرًا ، فاستخدم جماعة المردة المقيمين في جبل اللكام في الإغارة على الحدود الإسلامية ، ولكن عبد الملك فوت عليه غرضه ، بل أظهر تفوقه عليه في مضمار السياسة ، وقرر أن يتخلص نهائيًا من خطر هؤلاء المردة ، الذين كانوا أشبه بعصابات تستخدمها الدولة البيزنطية كأداة لتنفيذ وتحقيق أهدافها في أراضي الدولة الإسلامية ، فدخل في مفاوضات مع الإمبراطور وظفر منه بتعهد بإبعاد هؤلاء عن مناطق التخوم الإسلامية ، وفعلًا نقل الإمبراطور اثني عشر ألفًا منهم إلى رومانيا ، ونقل بعضهم إلى تراقيا وتشتتت البقية الباقية منهم في آسيا الصغرى [٤] . وكانت هذه الخطوة مكسبًا

(١) لا نقصد أن عبد الملك كان مقلدًا لمعاوية في كل شيء ، بل نقصد ترسمه للخطوط العامة لسياسته ، وهذا لا يقلل من شأن عبد الملك ، بل بالعكس فالحاكم الحصيف الذكي هو الذي يستفيد من تجارب سابقه ، ومع هذا فقد كانت لعبد الملك شخصيته المستقلة الواضحة .

(٢) فتوح البلدان (ص ١٨٩ ، ١٩٠) .

(٣) انظر د . إبراهيم أحمد العدوى - الأمويون والبيزنطيون (ص ٢٠٥) .

(٤) المرجع السابق (ص ٢٠٦) ، وانظر البلاذرى - فتوح البلدان (ص ١٨٩) .

مهمًا للدولة الإسلامية ، بقدر ما كانت خسارة للدولة البيزنطية .

ولما تخلص عبد الملك من المشاكل الداخلية واصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحدود وانتظمت غزوات الصوائف والشواتي ، واضطر البيزنطيين أن يقفوا موقف الدفاع من جديد ، واستمرت هذه السياسة حتى وصلت قمتها في عهد ولديه الوليد وسليمان – كما سيأتي – وتمشيًا مع هذه السياسة ، فقد أولى عبد الملك جبهة شمال إفريقيا عناية كبيرة ؛ لأنه أدرك أن البيزنطيين قد استغلوا هذه الجبهة البعيدة عن مركز الدولة الإسلامية ، وانشغاله في الداخل ؛ فأوقعوا بالمسلمين عدة هزائم ، فقد هزموا جيش زهير بن قيس البلوي وقتلوه فأرسل عبد الملك حسان بن النعمان الذي استطاع القضاء على النفوذ البيزنطي في شمال إفريقيا قضاء تامًّا [١] .

أما في الجبهة الشرقية – في الجنوب نحو إقليم السند وفي الشمال حيث إقليم ما وراء النهر – فما أن فرغ عبد الملك من المشاكل الداخلية ، حتى بدأت الغزوات تنطلق إلى هذه الجبهات ؛ تمهيدًا للانطلاقة الكبرى من الفتوحات التي ستبدأ في عهد ابنه وخليفته الوليد مما سنفصله عند حديثنا عن الفتوحات في العصر الأموي .

والخلاصة : أن عبد الملك كما كان بارعًا في إدارة الدولة في الداخل ، فقد كان بارعًا كذلك في معالجة المشاكل في الخارج ، فصان حدود الدولة ، وأبعد عنها خطر أعدائها ، وتركها لأبنائه ، موطدة الأركان ، سليمة البنيان ليكملوا مسيرته .

خلف عبد الملك بن مروان خمسة عشر ولدًا ذكرًا وابنتين [٢] ، وقد كان حريصًا على تربية أولاده تربية إسلامية خالصة ؛ فعهد بتربيتهم إلى عدد من العلماء الصالحين ، كان من أبرزهم : إسماعيل بن عبيد اللَّه بن أبي المهاجر . فلما عهد إليه عبد الملك بهذه المهمة قال له : « علِّمهم الصدق ، كما تعلِّمهم القرآن ، وجنِّبهم السفلة ، فإنهم أسوأ الناس رغبة في الخير وأقلهم أدبًا ، وجنِّبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة ... وعلِّمهم الشعر يمجدوا وينجدوا .. وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك سرًّا لا يعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليهم » [٣] .

ولما حضرته الوفاة وصى أبناءه في شخص أكبرهم وخليفته من بعده – الوليد –

---

(١) انظر ابن عبد الحكم – فتوح مصر (ص ١٣٥) ، وما بعدها وابن عذاري – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٣٣/١) وما بعدها ، وسيأتي الحديث عن هذا مفصلاً في فصل الفتوحات بإذن اللَّه .

(٢) المعارف لابن قتيبة (ص ٣٥٨) .

(٣) ابن كثير – البداية والنهاية (٦٦/٩) .

وصية تدل على الحزم والعزم وقوة البأس من رجل يدنو من الموت .

فقد بكى الوليد عندما رأى والده يحتضر ، فنظر إليه ، وقال : « ما هذا ؟ أتحن حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا مت فشمِّر واتزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشًا ... يا وليد اتق اللَّه فيما استخلفك فيه ، واحفظ وصيتي .. وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه ، فإنه هو الذي مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتت الخوارج ، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أم واحدة وكونوا في الحرب أحرارًا ، وللمعروف منارًا ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ، ويميل القلوب بالمحبة ، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل » [(١)] .

توفي عبد الملك في النصف من شوال عام (٨٦هـ) وصلَّى عليه ابنه الوليد ، ثم بويع بالخلافة في اليوم نفسه [(٢)] ، وكان ولي العهد بعد عبد الملك هو أخاه عبد العزيز ابن مروان ؛ لأن أباهما أخذ لهما البيعة معًا من أهل الشام في بداية سنة (٦٥هـ) ، وكان عبد الملك قد راود أخاه على التنازل عن الخلافة لابنه الوليد ، فأبى عبد العزيز ذلك ، وكاد يحدث بينهما من جراء ذلك شقاق ، إلا أن المشكلة حلت بموت عبد العزيز بن مروان قبل أخيه عبد الملك فبايع عبد الملك لوليده الوليد ثم سليمان .

٦ - الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ)

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه ولادة بنت العباس بن جزء ابن الحارث بن زهير العبسي ، ولد حوالي سنة (٥٠هـ) [(٣)] . وهو أكبر أولاد عبد الملك ، وقد مر بك أن عبد الملك كان حريصًا على تربية أولاده تربية إسلامية ، كما كان يحثهم على الرجولة ومكارم الأخلاق ، وقد أولى ابنه الوليد عناية خاصة ، وكان يحثه على تعلم العربية وإتقانها ، وكان يقول له : « لا يلي العرب إلا من يحسن لغتهم » وقد شب الوليد على الصلاح والتقوى ، وحب القرآن الكريم

---

(١) المصدر السابق (٦٧/٩) .

(٢) انظر : تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٩٢ ، ٢٩٩) .

(٣) انظر ترجمته في المعارف لابن قتيبة (ص ٣٥٩) ، وتاريخ اليعقوبي (٢٨٣/٢) ، والطبري - تاريخ (٤٩٦/٦) وما بعدها ، ومروج الذهب للمسعودي (١٦٦/٣) وما بعدها ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٧/٤ ، ٣٤٨) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٦١/٩) وما بعدها .

والإكثار من تلاوته ، وحث الناس على حفظه ، وإجازتهم على ذلك ، حدث إبراهيم بن أبي عبلة قال : « قال لي الوليد بن عبد الملك يومًا : في كم تختم القرآن ؟ قلت : في كذا وكذا ، فقال : أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث - وقيل : في كل سبع - قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة ، قال إبراهيم : رحم اللّه الوليد ، وأين مثله ؟ بنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قطع الفضة فأقسمها على قراء بيت المقدس » [1] ، وروى الطبري أن رجلًا من بني مخزوم سأل الوليد قضاء دين عليه . فقال : « نعم إن كنت مستحقًّا لذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، وكيف لا أكون مستحقًّا لذلك مع قرابتي ؟ قال : أقرأت القرآن ؟ قال : لا ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فنزع عمامته بقضيب كان في يده وقرعه قرعات بالقضيب ، وقال لرجل : ضم إليك هذا ، فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن ، فقام إليه عثمان بن يزيد بن خالد ... فقال : يا أمير المؤمنين إن عليَّ دينًا ، فقال : أقرأت القرآن ، قال : نعم ، فاستقرأه عشر آيات من الأنفال ، وعشر آيات من براءة ، فقرأ ، فقال : نعم نقضي عنكم ، ونصل أرحامكم على هذا » [2] .

ويقول الطبري : « كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجد : مسجد دمشق ومسجد المدينة ، ووضع المنابر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال : لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادمًا وكل ضرير قائدًا ، وفتح في ولايته فتوح عظام » [3] .

حقًّا لقد كان عهد الوليد غرة في جبين الدولة الأموية ، ولكن إنصافًا للحقيقة نقول : إن الوليد مدين لأبيه عبد الملك ، أو إن شئت فقل : إن عهد الوليد كان ثمرة طيبة لتلك الجهود الكبيرة التي بذلها عبد الملك على مدى عشرين سنة كاملة من عمره في توحيد الدولة والقضاء على أعدائها في الداخل والخارج ، وفي تنظيمها وضبطها ، حتى سلمها للوليد وهي أعظم ما تكون قوة واستقرارًا وازدهارًا . فاستثمر الوليد جهود أبيه أفضل استثمار وقام بإصلاحات اجتماعية وعمرانية واقتصادية رائعة في الداخل ، ولشهرته بحبه للبناء والتعمير كان الناس يلتقون في عهده فيسأل بعضهم

---

(١) ابن كثير - البداية والنهاية (٩/١٦٢) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٣٤٨) .

(٢) تاريخ الطبري (٦/٤٩٦) .

(٣) تاريخ الطبري (٦/٤٩٦) ، وانظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥/٩) - وابن كثير : البداية والنهاية (٩/١٦٤) .

بعضًا عن البناء والمصانع [١] .

فقد احتفل الوليد بإعادة بناء مسجد الرسول ﷺ وتوسعته من جميع النواحي وإدخال حجرات أزواج النبي فيه ، ولم يبخل في سبيل ذلك بمال ، ليكون المسجد في أعظم وأبهى صورة ، وعهد بهذه المهمة إلى ابن عمه وواليه على المدينة عمر بن عبد العزيز فأوكل عمر مهمة الإشراف على بناء المسجد إلى صالح بن كيسان ، وبعث إليه الوليد بالأموال والرخام والفسيفساء ، وثمانين صانعًا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر [٢] .

أما مسجد دمشق فقد جعله الوليد آية من آيات العمارة الإسلامية وبالغ في تزيينه وأبهته ليكون مظهرًا من مظاهر عظمة الإسلام ، وأنفق عليه أموالًا طائلة ، حتى إن الناس انتقدوه على كثرة النفقات على بناء المسجد ، فقال لهم : يا أهل الشام لكم أربعة أشياء تفخرون بها ، فأردت أن أجعل لكم خامسًا ، وقد استغرق بناء مسجد دمشق كل عهد الوليد ، بل بقيت فيه بقية أعمال أتمها أخوه سليمان من بعده [٣] .

وكما كان الوليد مهتمًا ببناء المساجد ، فقد اعتنى بتعبيد الطرق وبخاصة تلك التي تؤدي إلى الحجاز لتيسير السفر على الحجاج إلى بيت اللّٰه الحرام . فكتب إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وعمل الفوارة في المدينة ، وأمر لها بقوام يقومون عليها وأن يسقى منها أهل المسجد [٤] .

وهكذا اتسم عهد الوليد بالإصلاح والتعمير في الداخل ، أما في الخارج فقد شهد عهده أعظم حركة فتوحات في الدولة الأموية ، بل في التاريخ الإسلامي كله - بعد فتوحات الخلفاء الراشدين ، وقد برز في عهده عدد من القواد العظام الذين اتصفوا بالجسارة والإقدام والتضحية في سبيل اللّٰه فاضطلعوا بعبء هذه الفتوحات في الشرق والغرب ، ففي المشرق وقف الحجاج في العراق ناشرًا جناحيه إلى الجنوب الشرقي ، إلى إقليم السند ، فأرسل محمد بن القاسم الثقفي ففتح هذا الإقليم ، وإلى الشمال الشرقي فيما وراء النهر ، فأرسل قتيبة بن مسلم الذي فتح هذا الإقليم الشاسع وأدخله تحت راية الإسلام .

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٤٩٧/٦) .

(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٦) ، والطبري - تاريخ (٤٣٦/٦) .

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية (١٦٠/٩) .

(٤) الطبري - تاريخ (٤٣٧/٦) .

أما في المغرب فقد تألق قائدان عظيمان هما موسى بن نصير وطارق بن زياد ، اللذان فتحا الأندلس ، كما اضطلع أخوه مسلمة بن عبد الملك وأبناؤه بمنازلة الدولة البيزنطية والضغط عليها ، والاستيلاء على الكثير من حصونها وقلاعها في مناطق الحدود [١] .

والخلاصة : أن عهد الوليد كان عهد الرخاء الواسع والازدهار العظيم ، نعم الناس فيه بالهدوء والاستقرار والبناء والعمران في الداخل ، ووصلت فيه حدود الدولة من مشارف بلاد الصين حتى الأندلس ، وأصبحت بحق أقوى دولة في العالم المعروف وقتذاك .

توفي الوليد بن عبد الملك في منتصف جمادى الآخرة سنة (٩٦هـ) ، فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ، وقد خلف الوليد تسعة عشر ولدًا ذكرًا [٢] .

٧ - سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الخليفة أبو أيوب ، وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسية [٣] فهو شقيق الوليد ، وقد ولد سليمان بالمدينة ، إلا أنه نشأ بالشام ، وقد أحب البادية ، وأغرم بالإقامة فيها ، فابتنى بها قصرًا كان ينزل فيه ، وكان من أفضل أولاد عبد الملك ، بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أخوه الوليد : منتصف جمادى الآخرة سنة (٩٦هـ) ، وقد مر بنا أن عبد الملك كان شديد العناية بتربية أولاده تربية عربية إسلامية ، وكان رغم مشاغله يشرف بين الحين والحين بنفسه على تربيتهم وتعليمهم ؛ فقد روى أبو بكر الصولي أن عبد الملك جمع بنيه : الوليد وسليمان ومسلمة ، فاستقرأهم القرآن ، فأجادوا القراءة [٤] . وقد أثمرت فيه التربية الإسلامية فكان كما يقول الذهبي : « من أمثل الخلفاء نشر علم الجهاد .. وكان دينًا فصيحًا مفوهًا عادلًا محبًّا للغزو » [٥] . ويروي ابن كثير أن أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة أنه قال : « الحمد لله ، ما شاء

---

(١) سيأتي الحديث مفصلًا عن الفتوحات في عهد الوليد .

(٢) الطبري (٦/٤٩٥ ، ٤٩٦) ، وانظر المعارف لابن قتيبة (ص ٣٥٩) .

(٣) انظر ترجمته في تاريخ اليعقوبي (٢/٢٩٣) ، والطبري - تاريخ (٦/٥٠٥) ، ومروج الذهب (٣/١٨٤) ، والفخري لابن الطقطقا (ص ١٢٨) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥/١١١) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/١٧٧) وما بعدها .

(٤) ابن كثير - البداية والنهاية (٩/١٧٧) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/١١١ ، ١٢٥) .

صنع ، وما شاء رفع وما شاء وضع ، ومن شاء أعطى ، ومن شاء منع ، إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، وزينة تقلب ، تضحك باكيًا ، وتبكي ضاحكًا ، وتخيف آمنًا ، وتؤمن خائفًا ، تفقر مثريها وتثري فقيرها ميالة بأهلها ، يا عباد اللَّه اتخذوا كتاب اللَّه إمامًا ، وارضوا به حكمًا ، واجعلوه لكم قائدًا ؛ فإنه ناسخ لما قبله ، ولن ينسخه كتاب بعده ، اعلموا عباد اللَّه أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، وضغائنه ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس إدبار الليل إذا عسعس » [١] . هذه الخطبة تدل على ورع وتقوى وخوف من اللَّه ، ولم تكن خطبة من خطب سليمان تخلو من حث الناس على الاهتمام بالقرآن ، ولم يكن هذا رياء منه ، فسيرته العملية تشهد بأنه كان ورعًا تقيًّا محبًّا للعدل ، شديد الإحساس بالمسؤولية وكان من شدة ورعه ينهى الناس عن الغناء [٢] .

كان سليمان من أكبر أعوان أخيه الوليد ، يقول ابن كثير : وكان سيلمان لأخيه الوليد كالوزير والمشير ، وهو المستحث على عمارة مسجد دمشق [٣] . ولي فلسطين وكان عليها حين وفاة أخيه الوليد ، فقد جاءته وفاته وهو بالرملة ، فأخذ له البيعة في دمشق ابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي أصبح من أكبر أعوانه ومستشاريه فكان لا يصدر عن أمر إلا برأيه ، فقد قال له عقب توليته مباشرة : يا أبا حفص ، إنا قد ولينا ما ترى ، وليس لنا علم بتدبيره فما رأيت من مصلحة العامة ، فمر به فليكتب ، وكان من ذلك عزل نواب الحجاج .. مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز [٤] .

ولا شك أن حرص سليمان على الاستعانة بصلحاء الرجال ، من أمثال عمر ابن عبد العزيز ورجاء بن حيوة يعتبر برهانًا على صلاحه وتقواه وتحريه للعدل ، فلا أحد ينكر أثر البطانة والأعوان على الحاكم ، وانعكاس ذلك على سلوكه وقراراته ؛ ولذلك لم يكن عمر بن عبد العزيز يكف عن تذكير سليمان بمسؤوليته عن الأمة ، فقد حج معه سنة سبع وتسعين « فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر : ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا اللَّه ، ولا يسع رزقهم غيره ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء رعيتك اليوم وهم غدًا خصماؤك عند اللَّه ، فبكى سليمان بكاءً شديدًا ، ثم قال : باللَّه أستعين » [٥] .

---

(١) البداية والنهاية (١٧٩/٩) ، وانظر المسعودي - مروج الذهب (١٨٤/٣) .
(٢) الذهبي - سير أعلام النبلاء (١١٢/٥) . (٣) البداية والنهاية (١٧٨/٩) .
(٤) البداية والنهاية (١٧٨/٩) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (١٢٥/٥) .
(٥) ابن كثير - البداية والنهاية (١٧٩/٩) .

وقد ظهر تأثير هؤلاء الرجال الصالحين على سليمان ، حيث كان يستشيرهم في أهم الأمور وبخاصة في تولية الولاة على الأقاليم ؛ لأنه كان يحب أن يكونوا من أصلح الناس وأعدلهم ، وهؤلاء لا يشيرون عليه بغير ذلك . فلما أراد أن يعين واليًا على إفريقية « قال لرجاء بن حيوة : أريد رجلًا له فضل في نفسه أوليه إفريقية ، فقال له : نعم ، فمكث أيامًا ، ثم قال : قد وجدت رجلًا له فضل ، قال : من هو ؟ قال : محمد بن يزيد مولى قريش ، فقال : أدخله عليَّ ، فأدخله عليه ، فقال سليمان : يا محمد بن يزيد ، اتق اللّٰه وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله ، قال : فودعه وانصرف ، وهو يقول : ما لي عذر عند اللّٰه إن لم أعدل » (١) .

ومن هنا ، وبتأثير عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة وأمثالهما جاءت فكرة تغيير عمال الحجاج وأسلوبه في الإدارة والحكم ، وهذه نقطة أساء بعض الناس فهمها ، وصوروها على أنها سياسة عاطفية ، لا تقيم وزنًا لمصلحة الأمة (٢) ، فاتهم سيلمان بأنه عزل ولاة الحجاج ونكل بهم ؛ انتقامًا منهم ومن الحجاج لا لشيء إلا لأن الحجاج كان قد أيد أخاه الخليفة الوليد عندما أراد أن يعزله من ولاية العهد وأن يولي ابنه عبد العزيز . وهذه نظرة سطحية للأمور وبعيدة عن الواقع تمامًا ، فالأمر لم يكن أمر عواطف أو انتقام شخصي ، وإنما هي سياسة عامة للدولة رسمها سليمان بالتعاون والتشاور مع كبار مستشاريه . فأي حاكم في مكان سليمان كان لا بد له أن يغيِّر في الأسلوب والمناخ الذي أشاعه الحجاج وعماله من قسوة وإرهاب بين الرعية أحيانًا ، وإذا كان للحجاج مبرراته في انتهاج أسلوبه القاسي ، فقد تغيرت الظروف التي ألجأته إلى القسوة ، وعم الهدوء والسلام والاستقرار أرجاء الدولة الإسلامية منذ أواخر عهد عبد الملك ؛ فكان من الحكمة أن يتغير أسلوب الحجاج وأن يستجيب الخليفة لتلك الرغبة العامة لدى غالبية الناس ولعل هذا هو السر في رضاء الناس عن سليمان وثنائهم عليه .

يقول الطبري : كان الناس قد استبشروا بخلافة سليمان ، وكانوا يقولون : « سليمان مفتاح الخير ، ذهب عنهم الحجاج ، فولي سليمان ؛ فأطلق الأسارى وخلى

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب (٤٧/١) .

(٢) انظر د . محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية العائدة للعصر الأموي (ص ٦٣) .

أهل السجون ، وأحسن إلى الناس ، واستخلف عمر بن عبد العزيز » [١] . هذا هو وجه الصواب في المسألة - حسبما نرى - وعندما ندقق النظر في مسألة الولاة الذين قيل : إن سليمان بن عبد الملك نكل بهم ، وقتل بعضهم وهم : موسى بن نصير ، وقتيبة بن مسلم ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وسنرى أن سليمان بريء تمامًا من هذه التهمة ؛ فأما موسى بن نصير ، فعندما وصل إلى دمشق فقد تكون حدثت مساءلة له من الخليفة عن بعض المخالفات ، وهذا شيء طبيعي ، ولكنه مع ذلك ضمه إلى كبار مستشاريه .

يقول ابن كثير [٢] بعد حديثه عن الجيش الذي أرسله سليمان لحصار القسطنطينية والجهود التي بذلت في إعداده : « وذلك كله بمشورة موسى بن نصير حين قدم عليه من المغرب » ؛ فهذا يدل على حرص الخليفة على الاستفادة من خبرة قائد عسكري بارز ، وفاتح من كبار الفاتحين ، فكيف يكون قد نكل به وعذبه ؟ وهل يتفق هذا مع ذاك ؟ ثم إن المصادر مجمعة على أن سليمان بن عبد الملك حين حج سنة (٩٧هـ) اصطحب معه موسى بن نصير ، وقد مات موسى بالمدينة [٣] ، فهل كان سيصحبه معه إلى الحج لو كان غاضبًا عليه ؟

ثم إن الروايات التي تذكر تعذيب سليمان لموسى ونقمته عليه ترجع ذلك إلى سبب يتعلق بالأموال والهدايا التي اصطحبها موسى بن نصير معه من المغرب والأندلس [٤] . وأن سليمان كان قد كتب إلى موسى ليتمهل في مسيرته ، حتى لا يصل دمشق إلا بعد موت أخيه الوليد - الذي كان مريضًا - وحينئذ يكون هو قد أصبح خليفة ، وتكون تلك الغنائم من نصيبه . وهذه روايات مدسوسة ، ومن الواضح أنها وضعت لتنال من الخلفاء الأمويين ، وتصورهم على أنهم نهمون حريصون على المال ، يحاولون جمعه بأي طريقة ، حتى ولو ضحوا في ذلك بدينهم وخلقهم ، وإلا فكيف يعرف سليمان أن أخاه سيموت ؟ فلم يكن الوليد طاعنًا في السن حتى يكون موته متوقعًا ، وهب أن الوليد قد شفي من مرضه ، وعلم بما صنع أخوه ، فكيف يكون شكل العلاقات بينهما ؟ ثم هل من الممكن أن يكون سليمان الورع التقي متهافتًا على المال إلى حد أن يتمنى من أجله موت أخيه ؟

---

(١) تاريخ الطبري (٥٤٦/٦) . (٢) البداية والنهاية (١٧٩/٩) .
(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٠٠/٤) ، وابن كثير - البداية والنهاية (١٧٤/٩) .
(٤) انظر : ابن عذاري - البيان المغرب (٤٦/١) ، وابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٤١) .

لا يمكن أن يكون سليمان كذلك ؛ فلدينا من الروايات ما يؤكد عفته عن أموال المسلمين ، وتوخيه العدل في جمعها ، فابن عبد الحكم يروي في قصة موسى مع سليمان ما يؤكد هذا حيث يقول : « فبينما سليمان يقلب تلك الهدايا ، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى بن نصير ، يقال له : عيسى بن عبد اللّه الطويل ، من أهل المدينة ، وكان على الغنائم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن اللّه قد أغناك بالحلال عن الحرام ، وإني صاحب هذه المقاسم ، وإن موسى لم يخرج خمسًا من جميع ما أتاك به . فغضب سليمان ، وقام عن سريره ، فدخل منزله ثم خرج إلى الناس ، فقال : نعم قد أغناني اللّه بالحلال عن الحرام وأمر بإدخال ذلك بيت المال » [1] .

ثم يتبع ابن الحكم ذلك بفقرة غاية في الأهمية حيث يقول : « وكان سليمان قد أمر موسى برفع حوائجه وحوائج من معه » [2] ، وهذه العبارة لا تقال لرجل موضع الغضب والنقمة من الخليفة بل لدينا ما هو أكثر دلالة في تأكيد عفة سليمان بن عبد الملك ، وجميع خلفاء بني أمية عن أموال المسلمين ؛ حيث يقول صاحب أخبار مجموعة : « إن الخلفاء - الأمويين - كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق ، يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد باللّه الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وإنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه .. فما وفدوا بخراج إفريقية في زمن سليمان - بن عبد الملك - أمروا بأن يحلفوا فحلف الثمانية ، ونكل إسماعيل بن عبيد اللّه ، مولى بني مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني ، فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز ، من فعلهما ، ثم ضمهما إلى نفسه ، فاختبر منهما صلاحًا وفضلًا ، فلما ولي عمر ولى إسماعيل إفريقية ، وولى السمح بن مالك الأندلس » [3] . فهل يكفي ذلك في الدلالة على عفة سليمان وورعه عن أموال المسلمين وأن ما روي من غضبه على موسى بسبب الأموال والهدايا لم يكن إلا محض اختلاف .

---

(١) فتوح مصر (ص ١٤١) . (٢) المصدر السابق (ص ١٤١) .

(٣) انظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها لمؤلف مجهول (ص ٢٢ ، ٢٣) ولمزيد من التفصيل عن علاقة سليمان بن عبد الملك بالقائد الكبير موسى بن نصير وبراءة سليمان مما نسب إليه في شأن موسى . انظر البحث القيم الذي كتبه الدكتور محمد شتا زيتون بعنوان « تحليل تاريخي لما يذكره المؤرخين عن موسى بن نصير في فتح الأندلس » في مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض ، العدد الثاني (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) ، (ص ٣٥٩ - ٣٦٨) .

أما قتيبة بن مسلم ، فقد راح ضحية تسرعه يرحمه اللّه [١] . ولم يكن لسليمان في قتله ذنب ، وأما محمد بن القاسم ، فقد راح ضحية أحقاد شخصية بين والي العراق صالح بن عبد الرحمن وبين آل الحجاج [٢] ، ولم يثبت أن سليمان أمر بقتل محمد بن القاسم ، وإذا كان هناك من مسؤولية على سليمان فقد تكون محصورة في السكوت على قتل محمد بن القاسم ، وعدم معاقبة قاتليه ، وقد يكون له مبرراته في ذلك ، ولو كان الأمر يحتاج إلى قصاص لما سكت عنه عمر بن عبد العزيز .

وخلاصة القول : أن سليمان بن عبد الملك عند الناس كان مفتاحًا للخير ، وعند العلماء كان من أمثل وأفضل الخلفاء وأعدلهم ، يقول ابن كثير : كان سليمان بن عبد الملك « يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية ، وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق ، لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى ، المسماة بالقسطنطينية - ألا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت ، فمات هناك .. فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل اللّه ، فهو إن شاء اللّه ممن يجري له ثوابه إلى يوم القيامة رَحِمَهُ اللَّهُ » [٣] .

وقد توج سليمان أعماله بعمل جليل ، ولو لم يكن له غيره لكفاه ، وهو تولية عمر ابن عبد العزيز الخلافة من بعده [٤] ، وهذا من أقوى البراهين على صلاح سليمان وتقواه ، وحرصه على مصلحة المسلمين ، فقد ارتفع فوق عواطفه نحو بنيه وإخوته ، وآثر ابن عمه عمر لصلاحه وتقواه وعدله ، وعقد عقدًا ليس للشيطان فيه نصيب على حد تعبيره هو . فرحم اللّه سليمان رحمة واسعة على هذه المكرمة الجليلة .

لكن بعض المؤرخين رغم كل تلك الأعمال الجليلة التي قام بها سليمان ، راحوا يملؤون صفحات من كتبهم بحكايات مدسوسة - لا يصدقها العقل - عن نهم سليمان وشرهه في الأكل ، ومن ذلك : ما يرويه المسعودي أن سليمان « خرج من الحمام ذات يوم ، وقد اشتد جوعه ، فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه ، فأمر أن يقدم إليه ما لحق

---

(١) لم يأمر سليمان بقتل قتيبة ، بل أرسل له كتاب توليته على خراسان ، ولكنه هو الذي تسرع وأعلن الثورة وخلع طاعة الخليفة ، مما أدى إلى خروج الجند عليه وقتله ، انظر الطبري - تاريخ (٥٠٦/٦ ، ٥٢٢) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٢/٥ - ٢٠) .

(٢) انظر قصة مقتل محمد بن القاسم في البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٣٨) .

(٣) البداية والنهاية (١٨٣/٩) .

(٤) انظر عهد سليمان لعمر بن عبد العزيز وما بذله من جهد في ذلك في الطبري - تاريخ (٥٥٠/٦) وما بعدها ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٨١/٩) وما بعدها .

من الشواء ، فقدم إليه عشرون خروفًا - هكذا - فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ، ثم قرب بعد ذلك الطعام ، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئًا » (١) .

وقد فطن ابن كثير إلى أن ما نسب إلى سليمان من ذلك غير معقول ، فقال : « وذكروا أن سليمان كان نهمًا في الأكل ، وقد نقلوا عنه في ذلك أشياء غريبة ، فمن ذلك : أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية ، وأربع وثمانين كلوة بشحمها ، وثمانين جردقة ، ثم أكل مع الناس على العادة في السماط العام » (٢) . ولا أدري كيف تتسع معدة الإنسان إلى كل هذه الكميات من الطعام ؟ فالمعدة لا تقبل زيادة على حجمها ، ثم إن ابن كثير يذكر بعد ذلك ما يتنافى مع هذا ، حيث يقول : « وكان سليمان طويلًا جميلًا أبيض نحيفًا حسن الوجه » (٣) . والذي يأكل هذه الكميات لا يمكن أن يكون نحيفًا جميلًا ، ولكن الذين اخترعوا هذه الحكايات ليتخذوا منها نوادر لتسلية خلفاء بني العباس (٤) نسوا ذلك ، فتورطوا في الكذب ، « وقد قيل : إذا كنت كذوبًا فكن ذكورًا » (٥) . ذكرت هذا ليعرف الناس أن بعض المؤرخين الذين يبغضون بني أمية لم يكونوا يدعون فرصة للنيل منهم والتشهير بهم إلا انتهزوها حتى لو دفعهم ذلك إلى الكذب ؛ إرضاء لخلفاء بني العباس ، ونيل جوائزهم .

توفي سليمان بن عبد الملك ، في مرج دابق - مرابطًا في سبيل اللّٰه لعشر خلون - وقيل : لعشر بقين - من شهر صفر (٩٩هـ) . وبويع في اليوم نفسه لابن عمه عمر ابن عبد العزيز (٦) . وقد خلف سليمان أربعة عشر ولدًا ذكرًا (٧) .

٨ - عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، وأمه أم عاصم

(١) مروج الذهب (٣/١٨٥) . (٢) البداية والنهاية (٩/١٨٠) .
(٣) المصدر السابق (٩/١٨٣) .
(٤) انظر ما يرويه المسعودي في ذلك من حكايات الأصمعي وغيره للرشيد عن نهم سليمان في الأكل ، مروج الذهب (٣/١٨٥) .
(٥) انظر تعليق ناشر كتاب البداية والنهاية لابن كثير على هذه الأخبار السخيفة (٩ / ١٨٠) .
(٦) انظر ابن كثير - البداية والنهاية (٩ / ١٨٥) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٣١٦ ، ٣١٧) ، والمسعودي - مروج الذهب (٣ / ١٩٢ ، ١٩٣) .
(٧) المعارف لابن قتيبة (ص ٣٦١) .

بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وقد ولد بالمدينة المنورة ، واختلف في تاريخ مولده بين أعوام (٥٩ ، ٦١ ، ٦٢هـ) [١] ، ويصفه الذهبي بصفات عظيمة تدل على مدى إعجابه به فيقول : « الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد ، العابد ، السيد ، أمير المؤمنين حقًّا ، أبـو حفص الأموي ، ثم المدني ، ثم المصري ، الخليفة الزاهد الراشد ، أشج بني أمية » [٢] . وكان أمير المؤمنين عمر درة في جبين الخلافة الأموية ، بل الخلافة الإسلامية ، وهو ممن يفخر بهم الإسلام والمسلمين ، بل ممن تفخر بهم البشرية في كل العصور ، ذلك النجم الساطع الذي رفع أعلام الحق خفاقة عالية بين الناس وجدد في نفوسهم الأمل في العدل والرحمة والبر والحياة الإنسانية الفاضلة .

نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة ، بناء على رغبة أبيه الذي تولى إمارة مصر بعد مولد ابنه بقليل وظل واليًا عليها حتى مات بها (٦٥ – ٨٥هـ) .

إلا أنه أبقى ابنه عمر في المدينة [٣] ؛ لينشأ بين أخواله ، من أبناء وأحفاد الفاروق عمر بن الخطاب ، ولينهل من علم شيوخها ، ويتأدب بآدابهم ، فقد كانت المدينة يومئذ موئل العلم والفقه والحديث والتقى والورع والصلاح ، ولا شك أن عمر تأثر كثيرًا بهذه التربية وهذه البيئة الصالحة ، وروى الحديث عن كثير من الصحابة والتابعين ؛ فروى عن أنس بن مالك ، وعبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب ، والسائب بن يزيد ، وسهل بن سعد ، ويوسف بن عبد اللَّه بن سلام ، وسعيد بن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم ابن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب ، وعبد اللَّه بن عبيد اللَّه بن عتبة بن مسعود [٤] .

وكان عمر فقيهًا مجتهدًا ، وتابعيًا جليلًا ، وهو حجة عند العلماء ؛ فقد قال

---

(١) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد (٣٣٠/٥) وما بعدها ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٢١ ، ٣٢٢) ، وتاريخ الطبري (٥٦٥/٦) وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي (٣٠١/٢) وما بعدها ، ومروج الذهب للمسعودي (١٩٢/٣) وما بعدها ، والفخري لابن الطقطا (ص ١٢٩) ، وابن الأثير – الكامل في التاريخ (٣٨/٥) وما بعدها ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٩٢/٩) وما بعدها ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١٤/٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١١٤/٥) ، ولقد أثار عمر بن عبد العزيز بعدله وزهده إعجاب الناس قديمًا وحديثًا ، فكتبوا عنه الكثير ، من ذلك في القديم « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن عبد الحكم ، و « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ، و « سيرة عمر بن عبد العزيز » للآجري ، وفي العصر الحديث كتب الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل كتاب « عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد » ، والدكتور عماد الدين خليل كتابه « ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز » .

(٣) انظر الذهبي – سير أعلام النبلاء (١١٦/٥) .

(٤) المصدر السابق (١١٤/٥) ، وابن كثير – البداية والنهاية (١٩٢/٩) .

الإمام أحمد بن حنبل : « لا أرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز »[١] .

وقد روى عنه كثير من التابعين ، منهم : أبو بكر بن حزم ، ورجاء بن حيوة ، وابن المنكدر ، والزهري ، وعنبسة بن سعيد ، وأيوب السختياني ، وابنه عبد العزيز وأخوه زبان ، وكثيرون غيرهم . ولفقه عمر واجتهاده وصلاحه ؛ كان شيوخه يأخذون عنه الحديث ، فقد حدث عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن وهو من شيوخه ، فهو كما قيل عنه : « معلم العلماء » وروي عن ميمون بن مهران أنه قال : « أتينا عمر بن عبد العزيز ، ونحن نرى أنه يحتاج إلينا ، فما كنا معه إلا تلامذة »[٢] ظل عمر في المدينة حتى وفاة أبيه سنة (٨٥هـ) ، فأخذه عمه عبد الملك بن مروان إلى دمشق وخلطه بأولاده ، وزوَّجه ابنته فاطمة[٣] ، ثم عينه واليًا على إمارة صغيرة في الشام ، وهي إمارة خناصرة من أعمال حلب ، ولعل عبد الملك قصد من ذلك أن يعطيه فرصة ليتدرب على الإدارة وفن الحكم ، وظل واليًا عليها حتى توفي عمه عبد الملك سنة (٨٦هـ) .

عمر بن عبد العزيز والي المدينة :

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد أبيه سنة (٨٦هـ) ظل على الإحسان إلى ابن عمه ، وعامله كما كان يعامله أبوه ، ثم عينه واليًا على المدينة سنة (٨٧هـ)[٤] ، وكان تعيين عمر واليًا على المدينة دليلًا على رغبة الوليد في إقامة العدل بينهم والإحسان إليهم ، حيث كان هشام بن إسماعيل المخزومي - والي المدينة قبل عمر - قد أساء السيرة في أهلها ، فأراد الوليد أن يعوضهم برجل يعتبرونه واحدًا منهم ، ولا شك أن أهل المدينة سعدوا بولاية عمر الذي ظهرت رغبته في العدل منذ اللحظات الأولى ، فقد جمع عشرة من خيرة رجالها ، وهم أساتذته وأصدقاؤه ، واتخذهم أعوانًا ومستشارين ، يقول الذهبي : « لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة واليًا ، فصلَّى الظهر دعا بعشرة : عروة ، وعبيد اللَّه ، وسليمان بن يسار ، والقاسم ، وسالمًا ، وخارجة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، وأبا بكر بن سليمان ابن أبي حثمة ، وعبد اللَّه بن عامر بن ربيعة ؛ فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال : إني

---

(١) ابن كثير - المصدر السابق (١٩٢/٩) . (٢) الذهبي - سير أعلام النبلاء (١٢٠/٥) .
(٣) ابن كثير - البداية والنهاية (١٩٣/٩) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (١١٧/٥) .
(٤) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٠١) .

دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانًا على الحق ، ما أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم ، أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدًا يتعدى ، أو بلغكم عن عامل ظلامة ، فَأُحرِّجُ اللَّه على من بلغه ذلك إلا أبلغني ، فجزوه خيرًا وافترقوا » [١] .

وقد ظل عمر واليًا على المدينة حوالي ست سنوات كان فيها موضع الرضا من أهلها ، وقد أقام الحج أثناء ولايته عدة مرات ، كما جدد بناء مسجد الرسول ﷺ بناء على أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وكان عمر يعتبر فترة ولايته على المدينة من أسعد أيام حياته ، ولم يعكر صفو أيامه فيها إلا حادثة خبيب بن عبد اللَّه بن الزبير ، فقد كتب الوليد إلى عمر بضرب خبيب ، فضربه عمر بناء على أمر الخليفة ، فمات من أثر الضرب ، فهزت هذه الحادثة نفس عمر ، وظل طول حياته يذكرها نادمًا وخائفًا ، وكان إذا سمع من أحد ثناء عليه يقول : فمن لي بخبيب ؟ [٢] .

وفي سنة (٩٣هـ) عزل الوليد عمر عن المدينة بناء على طلب من الحجاج بن يوسفي الثقفي - والي العراق - الذي شكا إلى الوليد من أن العصاة والخارجين على النظام من أهل العراق ، يلجؤون إلى عمر ، ويجدون عنده المأوى والحماية [٣] .

وقيل : لأنه رفض موافقة الوليد على عزل أخيه سليمان من ولاية العهد ، وتولية ابنه عبد العزيز ، وقال للوليد : إن لسليمان في أعناقنا بيعة . وكان لعزله عن المدينة أثره على نفسيته فقد تألم لذلك ، وكان يخشى أن يكون ممن نفتهم المدينة [٤] ، وعاد عمر إلى الشام ولم يل عملًا رسميًا بقية خلافة الوليد ، فلما مات الوليد وتولى سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ) أصبح عمر من أقرب الناس إليه ، ومن كبار أعوانه وناصحيه ، ومستشاريه ، وظل يلازمه طوال خلافته .

عمر بن عبد العزيز والخلافة :

عرفنا أن سليمان بن عبد الملك توج أعماله الصالحة بتولية عمر بن عبد العزيز الخلافة ؛ لما توسمه فيه من الصلاح والتقوى والميل إلى العدل ، والحق أن عمر لم يكن راغبًا في الخلافة [٥] ، فقد كان يعرف أنها حمل ثقيل ومسؤولية جسيمة ،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١٨/٥) ، وابن كثير - البداية والنهاية (١٩٤/٩) .
(٢) الذهبي - سير أعلام النبلاء (١٢٠/٥) ، الطبري - تاريخ (٤٨٢/٦) .
(٣) الطبري - المصدر السابق (٤٨١/٦ ، ٤٨٢) .
(٤) الطبري - تاريخ (٤٨٢/٦) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (١٢١/٥) .
(٥) انظر الطبري - تاريخ (٥٥١/٦) .

وكان يخاف من التقصير في مسؤولياتها . دخل عليه سالم السدي وكان من خاصته بعد أن بويع بالخلافة ، فقال له عمر : أسرَّك ما وليت أم ساءك ؟ فقال : سرَّني للناس وساءني لك ، قال : إني أخاف أن أكون قد أوبقت نفسي ، قال : ما أحسن حالك إن كنت تخاف ، إني أخاف عليك ألا تخاف ، قال : عظني ، قال : أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة [١] .

لقد كانت الخلافة نقطة تحول هائلة في حياة عمر بن عبد العزيز من ناحية ، وذات أثر كبير في تاريخ الدولة الأموية ، بل في التاريخ الإسلامي كله من ناحية ثانية ، أما أثرها في حياة عمر نفسه ، فقد فصلت بين عهدين ، أو مرحلتين : مرحلة كان عمر فيها - رغم صلاحه وتقواه - يتقلب في النعم ، ويحيا حياة مترفة ناعمة يلبس لين الثياب ، ويأكل طيب الطعام ، ويتبختر في مشيته حتى عرفت مشيته بالعمرية ، لتميزها ، وكان إذا مر في شارع تفوح منه رائحة المسك ، كما كان كثير العناية بتمشيط شعره ، وحسن مظهره [٢] .

أما المرحلة التي قضاها عمر - من حياته - في الخلافة فقد تميزت بالزهد الصادق والبعد عن زخرف الحياة وزينتها وصرفه إحساسه العميق بالمسؤولية عن الاستمتاع بمباهج الحياة التي كان ينهل منها قبل أن يصبح خليفة ، حتى قسا على نفسه في ذلك اعتقادًا منه أنه ربما يكون قد أسرف في الحياة الناعمة قبل الخلافة فكأنه أراد أن يكفِّر عن ذلك بالقسوة على نفسه ؛ ولذلك رفض استعمال مراكب الخلافة بعد بيعته ؛ لما فيها من الأبهة والفخامة ، وقال : دابتي أرفق لي .. ثم رفض أن ينزل في دار الخلافة ، وقال : في فسطاطي كفاية « ... وباع مراكب الخلافة وكانت من الخيول الجياد المثمنة . وجعل أثمانها في بيت المال » [٣] . وتروي المصادر الكثير من القصص عن زهد عمر ؛ لدرجة أن أخبار زهده ربما تكون قد غطَّت على جوانب أكثر أهمية للمسلمين في شخصية عمر بن عبد العزيز الخليفة من الزهد نفسه ؛ لأن الزهد ربما يكون فضيلة تخصه هو وحده ، أما ما يخص المسلمين والتاريخ فمنهجه في الحكم ، وأسلوبه في الإدارة ، مما سنعرف منه طرفًا بعد قليل .

أما أثر خلافة عمر بن عبد العزيز في التاريخ الإسلامي ، فيتلخص في أنه قد قدَّم

(١) المسعودي - مروج الذهب (١٩٤/٣) .
(٢) انظر المسعودي - مروج الذهب (١٩٦/٣) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (١١٦/٥) .
(٣) الذهبي - سير أعلام النبلاء (١٢٥/٥) ، وابن كثير - البداية والنهاية (١٩٨/٩) .

الدليل الساطع على أنه إذا صحت عزيمة الحاكم المسلم ، واستشعر المسؤولية عن الأمة أمام اللَّه تعالى - أصبح في إمكانه أن يقوِّم الأحوال المعوجة ، وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل ، ومما لا شك فيه أن بعض الخلفاء الأمويين وكثيرًا من الأمراء قد كانوا يحبون حياة الترف ، فاقتنوا القصور وزيَّنوها وجمَّلوها ، وقد لا يكون ذلك حرامًا ، فقد رأى عمر بن الخطاب معاوية على هيئة من الأبهة ، والفخامة ، ولم ينهه عن ذلك ، ولو كان حرامًا لما سكت عنه عمر بن الخطاب ، ولكن عمر بن عبد العزيز ربما قصد أن يقف وقفة أمام هذا التيار من الترف ؛ لما كان يخشاه من استمراره على حيوية الأمة وفتوتها ، فليس أخطر على الأمم من الاستغراق في حياة النعيم ، الذي يصرف الرجال عن العمل الجاد ، وبخاصة إذا كان هؤلاء الرجال ممن تقع عليهم مسؤولية الدولة وإدارة دفة الأمور فيها ، وليس سرًّا أن الذي كان يخشاه عمر قد حدث فيما بعد ، وأن اهتمام المتأخرين من خلفاء بني أمية بالحياة الناعمة أكثر من اهتمامهم بأمور الدولة ، وترك ذلك للولاة والعمال كان من أهم أسباب زوال دولتهم [(١)] .

سياسة عمر بن عبد العزيز الداخلية :

تعتبر سياسة عمر الداخلية من أهم الجوانب في خلافته ، ومع ذلك فلم يحظ هذا الجانب حتى الآن بدراسة جادة تبين المنهج الذي سار عليه فيه ، وتستقصي أطرافه ، وتجمع شتاته حتى تتكامل صورته منهجًا وموضوعًا ؛ ولعل السبب في ذلك هو انبهار الناس وانشغالهم بما كان يتحلى به ذلك الخليفة من سمات بارزة - وهي العدل والزهد والتقوى .

ونحن هنا لا نتناول هذا الجانب من كل نواحيه ، ولكننا نسلط الأضواء على بعض زواياه حتى يلتفت إليه الباحثون ورواد الدراسات التاريخية .

لقد كان عمر ﷺ إداريًّا ممتازًا ، ولا غرابة في ذلك فقد عركته تجربة الإدارة منذ أن كان واليًا على خناصرة والمدينة .. ثم تكاملت عناصر التجربة بعد أن أصبح من أقرب الناس إلى سليمان بن عبد الملك مدة خلافته .. يرقب الحوادث عن قرب ويتمرس على شؤون الدولة وتسيير دفة الحكم فيها ، وما أن تولى مقاليد الخلافة حتى راح يبذل كل جهده ، ويفني ما تبقى من عمره في إصلاح أمور الدولة ، واستقرار الأمن والرخاء في ربوعها ، وتحقيق العدالة والكفاية في كل أرجائها ، وقد اتخذ لذلك منهجًا كان

---

(١) انظر المسعودي - مروج الذهب (٣/٢٤١) ، وعبد الحي الكتاني - التراتيب الإدارية (١/١٤ ، ١٥) .

من أبرز معالمه : الحرص على مال المسلمين ، والمحافظة على الوقت والجهد ، وسرعة التصرف في الأمور ، والبعد عن البيروقراطية ، وحسن اختيار القضاة والولاة والموظفين وإزالة آثار كل عمل لا يساير روح الإسلام ، وتحقيق التوازن بين الناس ، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى لإقناعهم وردهم إلى حظيرة الجماعة ، كما كان الطابع لهذا المنهج هو العدل والإنصاف والرحمة والإحسان .

كان عمر بن عبد العزيز يعرف قيمة المال والوقت ، وهي الأشياء التي يبددها المسلمون الآن فيما لا يفيد ، ويعانون من ذلك ما لا يخفى على أحد من التأخر والتخلف ، ولكن عمر الفقيه كان يعرف أن صيانة المال واحترام الوقت من أهم ما يحرص عليه الإسلام ؛ لترقى الأمة الإسلامية ، وتتزن على الطريق السوي خطاها ، فانظر ماذا قال عمر حين جاءه كتاب من أبي بكر بن حزم والي المدينة يطلب ورقًا يكتب فيه أمور الولاية ، فكان رد الخليفة عليه : « أدق قلمك وقارب بين أسطرك ، فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به » [١] . فانظر إلى أي مدى بلغ حرصه على المال والوقت والجهد ، فيأمر واليه أن يجعل قلمه دقيقًا ؛ لئلا يشغل مساحة أكبر من الورق ، وأن يقارب بين السطور ويوجز في الكلام توفيرًا للوقت والمال ، وقد يبدو هذا المثل بسيطًا لبعض الناس ، ولكنه عظيم الدلالة على فهم الحاكم المسلم لقيمة المال والوقت ، وهما من مقومات الحياة .

ومن حرص عمر على الوقت أنه كان لا يعرف تأخير عمل اليوم إلى الغد ، فيومه كله عمل ، ولما لاحظ عليه بعض أهله مظاهر الإرهاق من كثرة العمل ، تقدم إليه قائلًا : « يا أمير المؤمنين لو ركبت - في نزهة - فتروحت ! أجابهم : فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم ؟ قال : تجزيه من الغد ، أجاب عمر : فدحني عمل يوم واحد ، فكيف إذا اجتمع عليَّ عمل يومين ؟! » [٢] . كما كان يعمل على سرعة تصريف الأمور ، وكان يضيق بالعامل الذي لا يحسن التصرف ، أو ما نسميه اليوم بالبيروقراطي ، الذي يجب أن يراجع رؤساءه في كل كبيرة وصغيرة ، فقد كتب إلى عامله على المدينة : « أن قسم في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار ، فكتب إليه : إن عليًا قد ولد له في عدة قبائل من قريش ، ففي أي ولده ؟ فكتب إليه : لو كتبت إليك في شاة

---

(١) الذهبي - سير أعلام النبلاء (٥/١٣٢) ، وقد ذكر الطبري (٦/٥٧١) مثلًا آخر يؤكد هذا الأسلوب الذي كان طابع إدارة عمر بن عبد العزيز .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٤٩) .

تذبحها لكتبت إلي : أسوداء أم بيضاء ؟ إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة - رضوان اللّٰه عليهم - عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم » (١) .

وكان عمر غير راض عن الأسلوب الذي يدير به بعض عمال بني أمية أمور الدولة ، وكان يرى أنهم تجاوزوا الحد في القسوة والجبروت ، وقد مرَّ بنا أنه نجح في التأثير على سليمان بن عبد الملك - الذي أنس فيه ميلًا إلى العدل والإنصاف والرحمة - فاستطاع أن يقصي بقايا تلاميذ الحجاج وأبناء مدرسته في الإدارة . ولكن مع ذلك بقي في إدارة الدولة رجال لا يتفق أسلوبهم الإداري مع نهج عمر ، مثل يزيد بن المهلب وآله الذين كان عمر يقول عنهم : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ، ولكن هؤلاء كانوا رجال سليمان فأبقى عليهم فلما آلت الخلافة إلى عمر ، قرر أن يقصي كل عامل لا يرتاح إليه ؛ فعزل يزيد بن المهلب (٢) وأمثاله ، وانتقى أفضل وأصلح الرجال وولاهم الأعمال . « ويبدو جليًّا من استعراض أسماء الولاة والقضاة وسائر الموظفين الذين اختارهم عمر بن عبد العزيز ، حرصه على الاعتماد على أكثر العناصر كفاءة وعلمًا وإيمانًا وقبولًا لدى جماهير المسلمين » (٣) .

ولم يكن عمر يكتفي بحسن الاختيار بعد الابتلاء ، بل كان يتابع ويسائل ، ويرسم لعماله المنهج الذي ينبغي عليهم أن يطبِّقوه ليقيموا العدل بين الناس ، كتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب : « سلام عليك ، أما بعد ؛ فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام اللّٰه ، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء ، وإن قوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك فإنه لا قليل من الإثم ، ولا تحمل خرابًا على عامر ، ولا عامرًا على خراب ، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض . فاتبع في ذلك أمري ، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني اللّٰه ، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب ، حتى تراجعني فيه ، وانظر من أراد أن يحج من الذرية فعجل له مائة يحج بها . والسلام » (٤) .

---

(١) انظر المسعودي - مروج الذهب (١٩٤/٣) . (٢) انظر الطبري - تاريخ (٥٥٦/٦ - ٥٥٨) .
(٣) انظر د . عماد الدين خليل - ملامح الانقلاب الإسلامي (ص ١٥٦) ، وعن أسماء عمال عمر وقضائه انظر خليفة بن خياط (ص ٣٢٢ - ٣٢٥) .
(٤) الطبري - تاريخ (٥٦٩/٦) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٦١/٥) .

هكذا عمل عمر على إزالة كل أثر من الآثار التي تراكمت من قبل ، ولم يكن راضيًا عنها ، أو كان يرى أنها تنافي روح الإسلام ، ولما كان هو نفسه أمير من أمراء بني أمية ، فقد آلت إليه أموال وهدايا ، كان يرى أنه لم يكن يستحقها ، فبدأ بنفسه وردها إلى بيت المال ، ثم ثنى بأقربائه واستقصى أموالهم ؛ فما رأى أنه أخذ بدون وجه حق أخذه ورده إلى بيت المال ولم يقبل في ذلك مناقشة أو شفاعة من أحد ، فقد رفض شفاعة عمته فاطمة عندما وسطوها عنده لتشفع لهم [١] .

ومن الآثار السيئة التي وجدها عمر وحرص على إزالتها بكل عزم وتصميم ظاهرة أخذ الجزية من الذين أسلموا حديثًا ، فقد كان بعض عمال بني أمية لما أعوزهم المال بسبب الحروب والثورات ، فقد أبقوا الجزية على من كانوا يدخلون في الإسلام من أبناء البلاد المفتوحة ، زعموا أن إسلام هؤلاء لم يكن صادقًا ، وأن إعفائهم من الجزية قد أضر ببيت المال ، وابتدعوا بدعة اختبار من أسلموا بالختان ، ولكن عمر أنَّبهم على ذلك ، فقد كتب إلى الجراح بن عبد اللَّه الحكمي والي خراسان : انظر من صلَّى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية . فسارع الناس إلى الإسلام ، فقيل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورًا من الجزية ، فامتحنهم بالختان ، فكتب الجراح بذلك إلى عمر ، فكتب عمر إليه : إن اللَّه بعث محمدًا ﷺ داعيًا ولم يبعثه خاتنًا [٢] . وعزل الجراح عن خراسان وولى عبد الرحمن بن نعيم القشيري ، ثم ولى على الخراج عقبة بن زرعة الطائي وكتب إليه : « إن للسلطان أركانًا لا يثبت إلا بها ، فالوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب المال ركن ، والركن الرابع أنا ، وليس ثغر من ثغور المسلمين أهم إلي ، ولا أعظم عندي من ثغر خراسان فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم ، فإن يك كفافًا لأعطياتهم فسبيل ذلك ، وإلا فاكتب إلي حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم » [٣] .

فالمال مهم ، ولكن العدل أهم عند الخليفة عمر ؛ لأن المال وجبايته عنده وسيلة وليست غاية . وقد يكون من الصعب استقصاء إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية والإدارية ولكن يكفي أن نقول على وجه الإجمال : إن سياسته المالية قضت على الفقر ، وحققت التوازن بين الناس ، حتى لم يعد هناك فقير يحتاج إلى الصدقة ،

(١) ابن كثير – البداية والنهاية (٩/٢٠٠) ، وابن الأثير – الكامل في التاريخ (٥/٦٤) .
(٢) الطبري – تاريخ (٦/٥٥٩) ، وابن الأثير – الكامل في التاريخ (٥/٥١) .
(٣) الطبري – تاريخ (٦/٥٦٨) .

يروي الذهبي عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عمر بن أسيد ، قال : « والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بماله كله ، قد أغنى عمر الناس » [١] .

ولما كان عمر يعتبر نفسه مسؤولًا عن الأمة كلها ، فليس هناك أحد أولى به من أحد ، وفي ضوء هذا التصور نظر إلى الخوارج ، الذين ناصبوا الدولة الأموية العداء منذ قيامها ، ولم يكن صراعهم معها ينقطع ، وأدرك عمر أن هؤلاء الناس قد يكونون طلاب آخرة ، ولكنهم قد أخطؤوا الطريق إليها فجاهدوا في غير ميدانها ، وبدَّدوا طاقاتهم وطاقات الدولة في حروب داخلية ، لا طائل من ورائها ، بل كانت لها آثارها السيئة عليهم وعلى الدولة ، فرأى من واجبه أن يبصرهم بخطأ موقفهم فدعاهم إلى محاورته ، فاستجابوا ، وأرسل له زعيمهم شوذب الخارجي باثنين من أتباعه ؛ ليحاوراه ، وبدأ عمر الحوار ، فقال لهم : « إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة ، وأخطأتم طريقها ، وإني سائلكم عن أمور ، فبالله لتصدقنني عنها » وبدأ يسألهم وهم يجيبون ، وظهرت حجته عليهم في جميع القضايا التي أثاروها إلا مسألة واحدة ، وجد عمر نفسه عاجزًا عن تبريرها ، وهي ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك ، فطلب منهم أن ينظروه ليفكر في الأمر ، ورضي الرجلان بذلك ، وقال له أحدهما : « ما سمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذًا من حجتك . أما أنا فأشهد أنك على الحق وأني بريء ممن برئ منك » ، وأقام عند عمر ورفض العودة إلى الخوارج . أما الآخر فسأله عمر : « فأنت ما تقول ؟ قال : ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك عليهم فأنظر ما حجتهم » [٢] . ولكن بقيت هذه المسألة معلقة دون حل ؛ لأن عمر لم يكن قادرًا على تنحية يزيد من ولاية العهد ؛ خوفًا من الفتنة في بني أمية ، كما أن الأيام لم تمهله حتى نرى ما كان سوف يصنع ، فقد مات ﷺ بعد ذلك بقليل ، لكن ما يهمنا الآن هو الأسلوب الجديد الذي واجه به عمر الخوارج والذي كان من أثره فيهم أنهم لم يثوروا عليه ، وهذا يبين أن هؤلاء القوم كانوا مضللين يحتاجون إلى علاج ، ولعلهم بعد ما لحق بهم من ضربات كانوا على استعداد للاندماج في الأمة لو وجدوا بعد عمر من يواصل أسلوبه معهم . ولكن أنَّى للخلافة مثل عمر ؟! .

(١) سير أعلام النبلاء (١٣١/٥) .

(٢) المسعودي – مروج الذهب (٢٠١/٣ ، ٢٠٢) ، والطبري – تاريخ (٥٥٦/٦) .

سياسته الخارجية :

كما كان لعمر بن عبد العزيز وقفته في السياسة الداخلية ، ليعيد ما اعوجَّ من الأمور إلى نصابه ، ويحاول إصلاح ما رآه انحرافًا عن الجادة ، سواء في الناحية الإدارية أو المالية أو غيرها ، كذلك كانت له وقفة مماثلة في السياسة الخارجية فقد رأى أن مساحة الدولة قد اتسعت ، وأن أطرافها قد ترامت وتباعدت ، ولعل الكثير من المشاكل والأخطاء التي وقع فيها بعض الولاة قد نشأت عن هذا الاتساع الكبير في مساحة الدولة ، فكل إقليم كان يضيف إلى مشاكل الدولة عبئًا جديدًا ، فرأى أنه من الحكمة إيقاف الفتوحات ، أو الحد منها على الأقل ؛ لأن التوقف عند حدود ما فتح من بلاد وأقاليم ، والعمل على حل مشاكلها ، وعرض الإسلام عليها بأسلوب حكيم دقيق ، وقدوة حسنة - سوف يكون أجدى من المضي في الفتوحات ، بل ربما لا تكون هناك حاجة بعد ذلك إلى فتح جديد ؛ لأن الناس سيقبلون على الإسلام من تلقاء أنفسهم ؛ لأنهم سيجدون فيه كل ما يرضيهم ، روحيًا وماديًا ، وما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وقد تحقق ما تصوره في ذلك وزادت حركة الإقبال على الإسلام في البلاد المفتوحة في عهده زيادة كبيرة ، وأخذ عمر في إرسال الدعاة من خيرة العلماء ليدعوا الناس إلى الإسلام (١) بدلًا من إرسال الجيوش للفتح . كما بدأ يرسل الكتب إلى الملوك والأمراء المعاصرين يدعوهم إلى الإسلام ؛ فأرسل إلى أمراء ما وراء النهر ، وإلى ملوك السند ، يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن يملكهم على بلادهم ، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فلما وصلتهم رسائله ، وكانت قد بلغتهم سيرته وعدله ؛ فقبلوا وأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية (٢) .

كما أرسل إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يدعوه إلى الإسلام (٣) بعد أن خشي على المسلمين فأمر بإعادة الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية دون جدوى منذ عهد سليمان بن الملك .

وخلاصة القول : أن عمر بن عبد العزيز في خلال سنتين وبضعة شهور قام بعدة

---

(١) انظر بعثة العلماء الذين أرسلهم عمر إلى إفريقية في ابن عذاري - البيان المغرب (٤٨/١) . وسنعود إلى هذا الموضوع بالتفصيل أكثر في الفصل الخاص بانتشار الإسلام في العصر الأموي .

(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٤٠) .

(٣) انظر الذهبي - سير أعلام النبلاء (١٤٢/٥) .

إصلاحات هائلة في الداخل ، وصحح مسار الدولة الإسلامية وكان موضع الرضا والاحترام حتى من أشد الفرق عداء للأمويين ؛ كالخوارج والشيعة ، أما عند علماء الأمة من أهل السنة فهو من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين (١) .

ولقد تمتع الخليفة عمر بسمعة طيبة ، تجاوزت حدود الدولة الإسلامية فتروي المصادر أنه حينما وصل الوفد الذين أرسلهم عمر إلى إمبراطور الروم لدعوته إلى الإسلام ، جاءت الأخبار إلى الإمبراطور من عيونه بوفاة عمر ، فأرسل يستدعي رئيس الوفد ، فلما مثل بين يديه سأله الإمبراطور : « أتدري لم بعثت إليك ؟ قال : قلت : لا ، قال : إن صاحب مسلحتي كتب إليَّ أن الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز مات ، قال : فبكيت واشتد بكائي وارتفع صوتي ، فقال لي : ما يبكيك ؟ ألنفسك تبكي أم له أم لأهل دينك ؟ قلت : لكل أبكي ، قال : فابك لنفسك ، ولأهل دينك ، فأما عمر فلا تبكي عليه ، فإن اللَّه لم يكن ليجمع عليه خوف الدنيا وخوف الآخرة ، ثم قال : ما عجبت لهذا الراهب الذي تعبد في صومعته وترك الدنيا ، ولكن عجبت لمن أتته الدنيا منقادة ، حتى صارت في يده ، ثم تخلَّى عنها » ، ثم يضيف الإمبراطور : « ولقد بلغني من بره وفضله وصدقه ، ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى ، لظننت أنه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنًا وظاهرًا ، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدًا ، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه (٢) .

هذه شهادة إمبراطور الروم لخليفة المسلمين ، رحمك اللَّه يا أبا حفص وجزاك عن الإسلام خيرًا ؛ فلقد كنت عند حسن الظن بك حينما قلت لمن قال لك هذا الدعاء : بل جزى اللَّه الإسلام عني خيرًا .

وفاة عمر :

لم تطل حياة هذا الخليفة المبارك ، فلقد اختطفته يد المنون ولما يتجاوز الأربعين من عمره ، ويبدو أن انهماكه في أمور المسلمين ومتابعة السهر والعمل في شؤون الدولة ، وعدم اهتمامه بأمر طعامه وشرابه ، قد أثر على صحته فلم يعد جسمه يقوى على المقاومة والاحتمال فلقي ربه راضية عنه قلوب رعيته ، متأثرة لفقده نفوس جيران دولته ، فلقي ربه مرضيًّا عنه من الأمة .

أما ما يرويه بعض المؤرخين من أن بعض بني أمية دسَّ له السم فهذا أمر لم يقم

(١) انظر الذهبي - سير أعلام النبلاء (٥/١٢٠) .
(٢) انظر الذهبي - سير أعلام النبلاء (٥/١٢٤ - ١٤٣) ، والمسعودي - مروج الذهب (٣/١٩٠) .

عليه دليل ، ويبدو أن هذا لم يكن سوى شائعة من تلك الشائعات التي روَّج لها أعداء بني أمية ، فقد اتهموا معاوية ﷺ بأنه دسَّ السم للحسن بن علي ، وللأشتر النخعي ، ولعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وأن سليمان بن عبد الملك صنع هذا أيضًا مع أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية .

على أية حال لقيت هذه الروح الطاهرة ربها لخمس ليال بقين من رجب سنة (١٠١هـ) ، وكانت وفاة عمر بدير سمعان من أعمال حمص وخلفه في الخلافة ابن عمه يزيد بن عبد الملك ، وقد ترك عمر أربعة عشر ولدًا ذكرًا [١] .

٩ - يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ)

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، أبو خالد القرشي الأموي أمير المؤمنين ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة [٢] ، وكان مولده في دمشق ، سنة إحدى أو اثنتين وسبعين ، وكان قبل استخلافه يكثر من مجالسة العلماء ، دخل يومًا على مجلس مكحول الدمشقي ، فهمَّ الحاضرون أن يوسعوا له ، فقال مكحول : « دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ويتعلم التواضع » [٣] . ويبدو أنه كان ليزيد ميل إلى العدل والاستقامة ، فقد حاول أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز ، ولكن قرناء السوء لم يتركوه ، إلا وقد انحرف عن سياسة عمر ، يقول ابن كثير : « فلما ولي - الخلافة - عزم على أن يتأسى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، فما تركه قرناء السوء ، وحسنوا له الظلم ، قال حرملة ، عن ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما ولي يزيد بن عبد الملك قال : سيروا بسيرة عمر فمكث كذلك أربعين ليلة فأتي بأربعين شيخًا فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب » [٤] . إن صح هذا الخبر ،

---

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (ص ٣٦٣) .

(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/١٥٠ - ١٥٢) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٣١) ، وتاريخ اليعقوبي (٢/٣١٠) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ٣٦٤) ، والطبري - تاريخ (٦/٥٧٤) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥/٦٧) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٩/٢٣١) .

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية (٩/٢٣٢) .

(٤) البداية والنهاية (ص ٢٣٢) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (٥/١٥٠ ، ١٥١) ويعلق الأستاذ شعيب الأرنؤوط في هامش (ص ١٥١) من هذا الجزء من السير على هذا الخبر فيقول : « إن صح هذا الخبر ولا أخاله يصح ، فإن هؤلاء قد شهدوا زورًا وبهتانًا ، ونقضوا الأحاديث الصحيحة المصرِّحة أن كل إنسان =

فإن هؤلاء الشيوخ لم يكونوا شيوخًا في العلم والإصلاح ، وإنما كانوا شيوخًا في الضلال والإفساد ، ولا أظن أن الجهل قد بلغ بيزيد - وهو الذي كان يكثر من مجالسة العلماء على حد تعبير ابن كثير - درجة تجعله يصدق هذا الذي شهدوا به ، ولا يدرك أن الخلفاء وغيرهم أمام اللَّه سواء ، بل محاسبة الخلفاء أشد ؛ لأن مسؤوليتهم أكبر .

وإذا صرفنا النظر عن هذه القصة ، فإن ما تحدثنا به المصادر تجعلنا على يقين أنه لم يتوفر ليزيد بطانة صالحة ، كما كان رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك ، وكما كان رجاء ومزاحم وميمون بن مهران والسدي مع عمر بن عبد العزيز ؛ فلا أحد ينكر تأثير البطانة والجلساء على الحكام . والحاكم بشر تتنازعه نوازع شتى ، فإذا وجد من يذكره ويعظم له المسؤولية ويخوفه مساءلة اللَّه له يوم القيامة عن أمور المسلمين ؛ فغالب أن تتيقظ فيه مشاعر الاستجابة ، ويؤكد هذا قصة عمر ابن هبيرة والي العراق من قبل يزيد نفسه مع الشعبي وابن سيرين والحسن البصري فقد دعاهم ، وقال لهم : « إن يزيد بن عبد الملك خليفة اللَّه استخلفه على عباده ، وأخذ ميثاقهم بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولاني ما ترون ، يكتب إلي بالأمر من أمره فأنفذه ، وأقلده ما تقلده من ذلك ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولًا فيه تقية ، فقال عمر : ما تقول يا حسن ، فقال الحسن : يا ابن هبيرة ، خف اللَّه في يزيد ، ولا تخف يزيد في اللَّه ، إن اللَّه يمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من اللَّه ، وأوشك أن يبعث عليك ملكًا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة إني أحذرك أن تعصى اللَّه ، فإنما جعل اللَّه هذا السلطان ناصرًا لدين اللَّه وعباده ، فلا تتركن دين اللَّه وعباده بسلطان اللَّه ؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . يقول المسعودي - راوي الخبر - : وحكي في هذا الخبر أن ابن هبيرة أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي : سفسفنا فسفسف لنا »[1] .

حقًّا إن مسؤولية العلماء جسيمة ، وإذا صلحوا أصلحوا الأمراء ، وإذا صلح الأمراء صلح أمر الناس ، فلو وجد في كل زمان ومكان أمثال الحسن البصري يواجهون

= خليفة كان أو أميرًا أو من عامة الناس سيسأل يوم القيامة عن كل تصرفاته وأعماله ويجازى بما يستحق من نعيم أو عذاب » .

(١) مروج الذهب (٢١٢/٣) .

الحاكم بالنصيحة الصادقة ، ويصدعون أمامه بكلمة الحق ؛ لما وجد حاكم يجرؤ على أن يوقع ظلمًا بأحد ؛ لأن وجود مثل هؤلاء العلماء الصالحين يشجع الناس على المطالبة بحقوقهم ويجعلهم لا يخضعون للظلم ، وشواهد التاريخ كثيرة على ذلك .

والحكام لا يملكون في مثل هذه الحالة إلا الانصياع لإرادة الناس ، وإليك مثلًا آخر يبرهن على صحة ما نقول ، وهو من عهد يزيد بن عبد الملك أيضًا : فقد عين يزيد ابن أبي مسلم على إفريقية ، وكان كما يقول ابن عذاري : « ظلومًا غشوشًا » [1] ، فلم يطق الناس هناك صبرًا على ظلمه فقتلوه ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك : إنا لم نخلع يدًا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه اللّٰه والمسلمون فقتلناه ، وأعدنا عاملك . فكتب إليهم يزيد : إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم ، وأقر محمد بن يزيد على عمله » [2] . ومحمد بن يزيد هذا هو الذي كان ولاه سليمان ابن عبد الملك بعد مشورة رجاء بن حيوة - كما مر في ترجمة سليمان - كل هذا يؤكد أن يزيد بن عبد الملك قد جانبه التوفيق في اختيار بطانة صالحة تقوي فيه نزعة الخير وتوجهه إلى السير على هدي من سيرة سلفه العظيم عمر بن عبد العزيز .

لقد كان يزيد بن عبد الملك ذا فطرة سليمة ، وما كان به من بأس كما يقول ابن كثير [3] ، وكانت له أخبار حسان كما يقول المسعودي [4] ، ولكن سوء حظه أوقعه في أحضان بطانة السوء التي تغلبت على أهل الصلاح فجرته إلى ميدانها ، وإن شئت فقل : إن يزيد لم تكن عنده المناعة القوية التي تقف به ضد المغريات ؛ فلم يستطع الصمود ، وأسلم نفسه للهو والعبث ، وعكف على الملذات ، وتروى عنه في ذلك أخبار عجيبة لا تتناسب مع مقام الخلافة وهيبتها وبخاصة من رجل جاء بعد عمر بن عبد العزيز . ولا بد أن يقارن الناس بين ما كان بالأمس القريب من عدالة عمر واستقامته ، وبين ما هو كائن من تهافت يزيد على الملذات ووقوعه أسيرًا في أيدي المغنيين والجواري [5] ، حتى إن قصته مع جاريتيه حبابة وسلامة طغت على تاريخه كله ، وتذهب الروايات إلى أنه مات حزنًا وكمدًا على جاريته حبابة بعد

---

(١) البيان المغرب (٤٨/١) .

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٠١/٥) .

(٣) البداية والنهاية (٢٣٢/٩) .

(٤) مروج الذهب (٢١٥/٣) .

(٥) حاول مسلمة بن عبد الملك نصيحة أخيه يزيد وتذكيره بسيرة عمر بن عبد العزيز وعدله عله يرعوي ويقتدي بعمر ، لكنه كلما عزم على ذلك يعود بسرعة إلى حياة العبث والمجون . انظر المسعودي - مروج الذهب (٢٠٧/٣) .

موتها ، ولم يعش بعدها إلا أسبوعًا واحدًا [١] .

ورغم سيرة يزيد هذه ، إلا أن الدولة كانت لا تزال قوية ، والأسرة الأموية عامرة بالرجال من أمثال مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان ابن محمد وغيرهم ، فقد عوض هؤلاء الرجال بفروسيتهم وبطولتهم نقص الخليفة وتصدوا بجسارة للأخطار التي هددت الدولة ، وأمدوا في عمرها ربع قرن أو يزيد ، فقد تصدى مسلمة بن عبد الملك لأكبر وأخطر ثورة هددت الدولة الأموية بعد ثورة ابن الأشعث ، وهي ثورة يزيد بن المهلب ، التي عجز ولاة العراق - عدي بن أرطأة في البصرة ، وعبد الحميد بن عبد الرحمن في الكوفة - عن القضاء عليها ، فاستفحل أمرها وكاد ابن المهلب يبسط سلطانه على العراق كله ؛ فلم يجد يزيد بن عبد الملك بدًّا من إرسال أخيه مسلمة للقضاء على هذه الثورة قضاءً تامًّا [٢] . كما استطاع مسلمة وهو في العراق القضاء على ثورة الخوارج بقيادة شوذب - واسمه بسطام اليشكري - التي اندلعت بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، واستطاع شوذب أن يهزم عدة جيوش عراقية [٣] ، ولكن مسلمة أرسل عليه جيشًا عدته عشرة آلاف رجل بقيادة سعيد بن عمر الحرشي ، فاستطاع القضاء عليه [٤] . وهكذا بفضل هؤلاء الرجال تصدت الدولة لأعدائها في الداخل ، وحمت حدودها في الخارج .

وقد توفي يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من شعبان سنة (١٠٥هـ) ، وكانت وفاته بالبلقاء من أرض دمشق [٥] ، وقد خلف ثمانية أولاد ذكورًا [٦] ، وتولى الخلافة بعده أخوه هشام بن عبد الملك بعهد منه .

١٠ - هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ)

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس

---

(١) المصدر السابق (٢٠٩/٣ ، ٢١٠) ، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية (٢٣٣/٩) . وسنعود للحديث عن ثورة ابن المهلب في الفصل الخاص بالثورات .

(٢) انظر الطبري - تاريخ (٥٩٠/٦) وما بعدها .

(٣) الطبري - المصدر السابق (٥٧٦/٦) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٦٩/٥) .

(٤) الطبري - المصدر السابق (٥٧٧/٦) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٧٠/٥) .

(٥) الطبري - المصدر السابق (٢١/٧ ، ٢٢) .

(٦) ابن قتيبة - المعارف (ص ٣٦٤) .

أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي ، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي [١] . يقول ابن الأثير : إن مولده كان سنة اثنتين وسبعين للهجرة [٢] ، ويقول الطبري وابن كثير : إنه كان عندما ولي الخلافة (١٠٥هـ) في الرابعة والثلاثين وأشهرًا [٣] . لم تحدثنا المصادر التي بين أيدينا عن شيء ذي بال عن حياة هشام بن عبد الملك قبل أن يلي الخلافة ، ولا نعرف إذا ما كانت له مشاركة في أعمال الدولة أو رسم سياستها في عهود من سبقه من إخوته وابن عمه عمر بن عبد العزيز أو لا ، إلا أننا لا نجده متطلعًا للخلافة عند موت أخيه سليمان بن عبد الملك وكان من أشد المعترضين على عهد سليمان لعمر بن عبد العزيز ، ولم تسكن نفسه ويرضى إلا بعد أن علم أن العهد تضمن البيعة لأخيه يزيد بن عبد الملك بعد عمر ، ومعنى هذا : أن الخلافة ستؤول مرة أخرى إلى أولاد عبد الملك وسيكون هو التالي بعد يزيد .

وتجمع المصادر التي بين أيدينا على أن هشامًا كان في خلافته ذا رأي ، حازمًا ذكيًا عاقلًا ، بل محشوًّا عقلًا - على حد تعبير الطبري - مدبرًا ، له بصر بالأمور جليلها وحقيرها [٤] . حكم هشام ما يقرب من عشرين سنة (١٠٥ - ١٢٥هـ) أدار أمور الدولة فيها بحزم ومقدرة ، وحفظ لها توازنها وكان حكيمًا في تعامله مع الكتلتين العربيتين الرئيسيتين في الدولة وهما اليمن وقيس - اللتين اشتد التنافس بينهما - بل احتربا أكثر من مرة .

فكانت سياسة هشام قائمة على الموازنة بينهما ، وعدم الانحياز إلى أي منهما على حساب الأخرى ؛ لأنه يعلم خطورة هذا الانحياز . والواقع أن قضية العصبية العربية كانت من أخطر القضايا في العصر الأموي ، وقد اتهم الأمويون بأنهم هم الذين أوجدوا هذه العصبية ، وكانوا يضربون بعض القبائل بالبعض الآخر إذا كان في ذلك مصلحتهم ، وهذا اتهام ظالم ، فالأمويون لم يخلقوا العصبية العربية ، بل كانت موجودة قبلهم ، وبقيت بعدهم ، وهي سمة من سمات العرب ، ومن عيوبهم الباقية

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٥٦) ، تاريخ اليعقوبي (٣١٦/٢) وما بعدها ، والمعارف (ص ٣٦٥) ، والطبري (٧/ ٢٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٨) ، ومروج الذهب (٢١٦/٣) وما بعدها ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٥١/٥ - ٣٥٣) ، والبداية والنهاية (٣٥١/٩) .

(٢) الكامل في التاريخ (١٢٣/٥) .

(٣) الطبري (٢٠٢/٧) ، والبداية والنهاية (٣٥١/٩) .

(٤) انظر الطبري (٢٠٢/٧) ، والبداية والنهاية (٣٥١/٩) .

على الزمن ، ورغم محاربة الإسلام لها واختفائها في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر ﭭ ، إلا أنها بدأت تطل برأسها من جديد منذ أواخر خلافة عثمان بن عفان ﷺ بل كانت من أهم أسباب الفتنة في عهده ، ثم أصبحت من أبرز ظواهر التاريخ الإسلامي ، حيث حملها العرب معهم شرقًا إلى خراسان وما وراء النهر ، وغربًا إلى المغرب والأندلس ، وكانت من أسباب مصائبهم هنا وهناك ، فليس صحيحًا أن الأمويين كانوا وراء إحياء العصبية العربية ، فهي من دقائق التاريخ الإسلامي ؛ وإنما الصحيح أن التعامل مع هذه العصبية كان يحتاج إلى مهارة عقلية فائقة . وبعض الخلفاء الأمويين كان يتمتع بهذه المهارة ، فكان يسيطر على الموقف ويقيم التوازن بين القبائل ويعمل على إرضاء الجميع ، مثل معاوية ﷺ وعبد الملك بن مروان وابنه هشام في الشطر الأكبر من خلافته .

والبعض الآخر لم تكن لديه هذه المهارة فكان الزمام يفلت من يده فتضطرب الأمور ، مثل الخلفاء الذين جاؤوا بعد هشام . أما هشام نفسه فكان مدركًا تمامًا لخطر الانحياز لإحدى الكتلتين الكبيرتين من العرب - اليمن وقيس - ولذلك أشرك زعماء الفريقين في إدارة دولته ، وكان إذا رأى عاملًا من عماله قد انحاز لقبيلته ومال الميزان لصالحها على حساب الأخرى ، لا يتردد في عزله ؛ صيانة لمصالح الدولة ، فقد أمر عامله على العراق خالد بن عبد اللّٰه القسري ، بأن يعزل أخاه أسد ابن عبد اللّٰه عن خراسان - وهما يمنيان - عندما تعصب لليمن على مضر ، وأساء إلى زعيم قيسي كبير ، وهو نصر بن سيار ومن معه من زعماء مضر ، وضربهم بالسياط ، وأهانهم وخاطبهم بلهجة قاسية [(١)] ، ثم عزل هشام خالدًا نفسه عن ولاية العراق ، بعد أن تولاها خمسة عشر عامًا (١٠٥ - ١٢٠ هـ) لما رآه استبد بالأمور دونه ، وأساء إلى زعماء قريش ، وعين بدله قيسيًّا هو يوسف بن عمر الثقفي [(٢)] . وإذا نظرنا إلى قوائم الولاة في عهد هشام - كما أوردها خليفة بن خياط [(٣)] - نجدها تضم أسماء من معظم القبائل الكبيرة من اليمن وقيس ، ولكن على الرغم من ذلك فإن تيار العصبية كان جارفًا ، فقد انفجر في أواخر عهد هشام في معظم الولايات وسادت بسببه القلاقل والفتن حتى نهاية الدولة الأموية ، وكان هشام يقظًا ساهرًا على مصالح الأمة ، متفقدًا لأعمال الولاة حتى قيل عنه : « لم يكن أحد من

(١) الطبري (٤٧/٧ - ٤٩) .
(٢) المصدر السابق (١٤٣/٧ - ١٤٧) .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٥٨ - ٣٦١) .

بني مروان أشد نظرًا في أصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام » [١] .

أما تدبير هشام للأموال وحفظها فمن الأمور التي يجمع عليها المؤرخون ، وهي فضيلة من فضائله وكان يحرص على جمع المال من وجوهه المشروعة ، وإنفاقه في وجوهه المشروعة أيضًا ، دون تبذير أو تقتير ، يروي الذهبي عن أبي عمير بن النحاس عن أبيه قائلًا : « كان لا يدخل بيت المال لهشام شيء حتى يشهد أربعون قسامة : لقد أخذ من حقه ، ولقد أعطى الناس حقوقهم [٢] ، وبلغ من حسن تدبير هشام لأموال المسلمين وسلامة دواوينه أن شهد له أعدى أعدائه عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن عباس ، الذي قال : جمعت دواوين بني مروان فلم أر أصلح للعامة ولا للسلطان من ديوان هشام » [٣] . وكان هشام يقسو على نفسه وعلى أولاده ، ويصون الأموال للمسلمين .

روى الطبري أن عقال بن شبة قال : « دخلت على هشام ، وعليه قباء فنك [٤] أخضر فوجهني إلى خراسان ، وجعل يوصيني وأنا أنظر إلى القباء ، ففطن فقال : مالك ؟ قلت : رأيت عليك قبل أن تلي الخلافة قباء فنك أخضر ، فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك ، أم غيره ؟ فقال : هو واللّه الذي لا إله إلا هو ، هو ذاك ما لي قباء غيره ، وأما ما ترون من جمعي هذا المال وصونه فإنه لكم » [٥] .

ويروي الطبري أيضًا : أن هشامًا تفقد بعض ولده فوجده لم يحضر الجمعة ، فقال له : « ما منعك من الصلاة ؟ قال : نفقت دابتي ، قال : أفعجزت عن المشي فتركت الجمعة ، فمنعه الدابة سنة . قال : وكتب سليمان بن هشام إلى أبيه : أن بغلتي قد عجزت عني ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بدابة فعل ، فكتب إليه : قد فهم أمير المؤمنين كتابك ، وما ذكرت من ضعف دابتك ، وقد ظن أمير المؤمنين أن ذلك من قلة تعهدك لعلفها ، وأن علفها يضيع ، فتعهد دابتك في القيام عليها بنفسك ، ويرى أمير المؤمنين رأيه في حملانك » [٦] . وكان سليمان هذا من الغزاة المجاهدين .

---

(١) البداية والنهاية (٣٥٣/٩) . (٢) سير أعلام النبلاء (٣٥٢/٥) .

(٣) البداية والنهاية (٣٥٣/٩) ، والطبري (٢٠٣/٧) .

(٤) الفنك : دابة فروتها أطيب أنواع الفراء .

(٥) الطبري (٢٠١/٧) ، والبداية والنهاية (٣٥٢/٩ ، ٣٥٣) .

(٦) الطبري (٢٠٤/٧) .

هكذا كانت تربية هشام لبنيه وسلوكه معهم وهو أقرب الناس إليه حتى يعلمهم التقوى والرجولة والبعد عن الترف ، وكان هشام يقول : « ثلاثة لا يضعن الشريف : تعاهد الصنيعة ، وإصلاح المعيشة ، وطلب الحق وإن قل » [١] . وبلغ من حرص هشام على أموال المسلمين ، أنه لم يكن يعطي أحدًا من بني مروان عطاء إلا إذا كان يغزو ، فمنهم من كان يغزو ومنهم من يخرج بدلًا [٢] .

ومن أجل هذا الحرص ، وهذا الاهتمام بأموال المسلمين ، اتهم هشام بالبخل ، وهكذا بنو أمية مظلومون دائمًا ، فهم أحد رجلين : إمَّا مُتَّهم بالبخل إذا كان يحرص على أموال المسلمين ولا يصرفها في غير حقها ، وإما مُتَّهم بالإسراف إذا كان يجود بالأموال ويبذلها للأشراف من الناس . وإذا كانت النصوص كلها تؤكد حرص هشام على صيانة أموال المسلمين للمسلمين لا له ولا لأولاده فإن لدينا نصوصًا أخرى تنفي عنه صفة البخل ، وهذه النصوص ترويها مصادر معروفة بعدائها للأمويين عامة ، يروي المسعودي أنه ذكر لأبي جعفر المنصور تدبير هشام في حرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان ينزل برصافة هشام يسأله عن تلك الحرب ، فقدم الرجل ، فقال له : «أنت صاحب هشام ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا ؟ قال : فعل ﷺ فيها كذا وكذا ، وفعل رَحِمَهُ اللَّهُ كذا وكذا . فأغاظ ذلك المنصور ، فقال له : قم عليك غضب اللّه ، تطأ بساطي وتترحم على عدوي ؟ فقام الشيخ وهو يقول : إن لعدوك قلادة في عنقي ، ومنَّة في رقبتي . لا ينزعها إلا غاسلي ، فأمر المنصور برده ، وقال : كيف قلت ؟ قال : إنه كفاني الطلب وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على باب عربي ولا عجمي منذ رأيته ، أفلا يجب لي أن أذكره بخير ، وأتبعه بثنائي ؟ فقال : بلى ، للّه أمٌّ نهضت عنك ! أشهد أنك نهيض حرة وغراس كريم . ثم استمع منه ، وأمر له بجائزة ، فقال : يا أمير المؤمنين ما آخذها لحاجة ، وما هو إلا أن أتبجَّح بحبائك ، وأتشرف بصلتك ، فأخذ الصلة ، فقال له المنصور : مت إذا شئت ، للّه أنت ! لو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجدًا . وقال لجلسائه بعد خروجه عنه : في مثل هذا تحسن الصنيعة ، ويوضع المعروف ، ويجاد بالمصون ، وأنى في عسكرنا مثله ؟ » [٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٣٥٢/٩) .   (٢) الطبري (٢٠٢/٧) .
(٣) مروج الذهب (٢٩٨/٣ ، ٢٩٩) .

فهذه الواقعة تدل على أن هشامًا لم يكن بخيلًا ، وإنما كان يعرف قيمة المال ولا يضعه إلا في موضعه .

ومن الصفات الحميدة التي كان يتمتع بها هشام بغضه لإراقة الدماء ، ولقد ندم ندمًا شديدًا على مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الذي كرر معه أهل العراق خيانتهم مع جده الحسين ﷺ ؛ فدعوه ليبايعوه بالإمامة ، ثم تخلوا عنه في أحرج اللحظات ، وتركوه يلقى مصيره على يد والي العراق يوسف بن عمر الثقفي ، ولكن هشامًا تألم لمقتله ، يقول ابن كثير : « وكان هشام من أكره الناس للدماء ، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر شديد ، وقال : وددت أني افتديتهما بجميع ما أملك » [١] .

وكان من أظهر صفات هشام بن عبد الملك الحلم ، يقول الأصمعي : « أسمع رجل هشامًا كلامًا ، فقال له : أتقول لي مثل هذا وأنا خليفتك ؟ » [٢] . كما كان متواضعًا عفيف اللسان ، فإذا غضب وبدت منه كلمة سيئة في حق إنسان ، اعتذر منها على الفور ولا تأخذه العزة بالإثم فيها ؛ فقد شتم مرة رجلًا ، فقال له الرجل : « أتشتمني وأنت خليفة اللَّه في الأرض ؟ فاستحيا ، وقال : اقتص مني بدلها - أو قال : مثلها - فقال الرجل : إذًا أكون سفيهًا مثلك ، قال : فخذ عوضًا ، قال : لا أفعل ، قال : فاتركها للَّه ، قال : هي للَّه ثم لك ، فقال هشام عند ذلك : واللَّه لا أعود لمثلها » [٣] .

وكان هشام يحب العدل والإنصاف بين رعيته على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، روى الطبري عن مروان بن شجاع ، مولى مروان بن الحكم ، قال : « كنت مع محمد ابن هشام بن عبد الملك ، فأرسل لي يومًا ، فدخلت عليه وقد غضب وهو يتلهف ، فقلت : ما لك ؟ فقال : رجل نصراني شج غلامي وجعل يشتمه ، فقلت له : على رسلك . قال : فما أصنع ؟ قلت : ترفعه إلى القاضي ، قال : وما غير هذا ؟ قلت : لا ، قال خصي له : أنا أكفيك ، فذهب فضربه ، وبلغ هشامًا ، فطلب الخصي ، فعاذ بمحمد ، فقال محمد بن هشام : لم آمرك ، وقال الخصي : بلى واللَّه لقد أمرتني فضرب هشام الخصي وشتم ابنه » [٤] .

---

(١) البداية والنهاية (٣٥٢/٩) وسير أعلام النبلاء (٣٥٢/٥) . من المعروف أن يحيى بن زيد هرب من العراق بعد مقتل أبيه ، وقيل : قتل في عهد الوليد بن يزيد . انظر الطبري - تاريخ (٢٣٠/٧) .
(٢) البداية والنهاية (٣٥١/٩) ، والطبري (٢٠٤/٧) .
(٣) البداية والنهاية (٣٥١/٩) .
(٤) تاريخ (٢٠٢/٧) .

بمثل هذا الحزم والعزم والتدبير والحلم والعفة والتواضع والعدل والإنصاف وكره العنف وسفك الدماء - ساس هشام الرعية ، وحكم الدولة الإسلامية عشرين سنة ، ولم يكن هشام رجل دولة من طراز رفيع في إدارة شؤون الدولة الداخلية فحسب ؛ بل أعطى عناية كبيرة للسياسة الخارجية ، ولصيانة حدود الدولة ، وتأديب أعدائها . يقول فلهاوزن : « ولا شك أن المؤرخ يخطئ في تصور هشام ، إذا ظن أنه كان خليفة لا همَّ له إلا أمور الإدارة والشؤون الداخلية ، على أن هشامًا لم يكن جنديًّا ، ولكنه لم يكن يرهب الحروب ، بل هو وجَّهها بهمة وبكل الوسائل ، وجهز جيوشًا كبيرة ، ولم يدخر في ذلك الأموال ولا حياة الرجال ، وكانت يداه دائمًا مشغولتين بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعدًا » [١] .

فقد كانت جيوشه تقف بالمرصاد للروم ، واستمر في إقامة الحصون على الحدود ، وكان قواده لا يكفون عن الغزو والجهاد [٢] . وكان هشام يسند قيادة الجيوش في معظم الأحيان إلى رجل من أسرته ؛ مثل أخيه مسلمة بن عبد الملك ، وأبنائه : معاوية وسليمان ، وأبناء عمه مثل مروان بن محمد بن مروان ، وأبناء إخوته مثل العباس بن الوليد بن عبد الملك .

هذا هو هشام بن عبد الملك الذي كان من أقوى خلفاء بني أمية وأرجلهم على حد تعبير اليعقوبي [٣] . وإذا كان هناك من مأخذ على هشام فهو تغافله عن دعاة بني العباس الذين نشطوا في عهده في الدعوة لآل البيت وانبثوا في خراسان [٤] ، وجدوا في تشويه سمعة الدولة الأموية ، وفي الاستعداد لتقويضها ، ولعل كراهية هشام للعنف وسفك الدماء كانت سببًا في تغاضيه عنهم حتى استفحل أمرهم ، وقد ظهرت آثار ذلك قبيل وفاته واستفحلت بعده ، بحيث لم يستطع خلفاؤه وقف مد الدعوة العباسية التي نجحت في نهاية الأمر في القضاء التام على أسرته . ولذلك يقول ابن كثير : « لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية ، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله ، واضطرب أمرهم جدًّا ، وإن كانت تأخرت أيامهم بعده ، نحوًا من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وهيج ، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم

---

(١) تاريخ الدولة العربية (ص ٣٢٧) (الترجمة العربية) .

(٢) سنتحدث عن الغزو والجهاد في عهد هشام في الفصل الخاص بالفتوحات في العصر الأموي .

(٣) تاريخ اليعقوبي (٣٢٨/٢) .

(٤) الفخري (ص ١٣٣) .

بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقًا وسلبوهم الخلافة » [١] .

توفي هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء لست ليال خلون من ربيع الآخر سنة (١٢٥هـ) فكانت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحدًا وعشرين يومًا [٢] ، وخلف عشرة من الأولاد الذكور [٣] .

١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦هـ)

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وأمه أم الحجاج بنت محمد ابن يوسف الثقفي ، ولد بدمشق سنة تسعين ، وقيل : اثنتين وتسعين للهجرة .

وكان أبوه يزيد بن عبد الملك حين عهد بالخلافة من بعده لأخيه هشام بن عبد الملك ، جعل ابنه هذا ولي عهد له ، فلما مات هشام بالرصافة في ربيع الآخر سنة (١٢٥هـ) صلَّى عليه الوليد بن يزيد ، ثم بويع بالخلافة بعد عمه في نفس اليوم [٤] .

وقد استهل الوليد بن يزيد عهده بزيادة أعطيات الجند ، ويسَّر له ذلك كثرة الأموال التي تركها عمه هشام - الذي اشتهر بتدبير الأموال - في بيت المال ، فاستغل ذلك في عمل الخير ، يقول ابن كثير : « ثم إن الوليد - بن يزيد - سار في الناس سيرة حسنة بادئ الرأي ، وأمر بإعطاء الزمنى والمجذومين والعميان لكل إنسان خادمًا ، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين ، وزاد في أعطيات الناس ، ولا سيما أهل الشام والوفود ، وكان كريمًا ممدحًا شاعرًا مجيدًا ، لا يسأل شيئًا قط فيقول : لا » [٥] . ولكن رغم هذه الأخبار الطيبة التي يرويها ابن كثير عن الوليد بن يزيد في بداية عهده ، إلا أن كتب المؤرخين مليئة بالأخبار التي تتهمه بالفسق والفجور والعكوف على شرب الخمر والغناء حتى اتهم بأنه همَّ بشرب الخمر

---

(١) البداية والنهاية (٣٥٤/٩) .

(٢) الطبري (٢٠٠/٧) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٥٦ ، ٣٥٧) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ٣٦٥) .

(٣) تاريخ اليعقوبي (٣٢٨/٢) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ٣٦٥) .

(٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٦٣) ، وتاريخ اليعقوبي (٣٣١/٢) ، والطبري - تاريخ (٨/٧) وما بعدها ، والمسعودي - مروج الذهب (٢٢٤/٣) وما بعدها ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٨٩/٥) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (٣٧٠/٥) .

(٥) البداية والنهاية (٤/١٠) .

فوق الكعبة ، عندما أمَّره عمه هشام على الحج سنة (١١٩هـ) . كما اتهم بأنه أهان المصحف الشريف ومزقه ؛ لأنه قد فتحه ليقرأ فيه ، فكانت أول آية طالعته هي قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥، ١٦] فنصب المصحف وجعله غرضًا للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب خرقني الوليد (١)

إلى غير ذلك من الشناعات التي ألصقها به المؤرخون .

الثورة على الوليد وقتله :

قتل الوليد بن يزيد في قصره بقرية تسمى البخراء ، على بعد أميال من تدمر ، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة (١٢٦هـ) (٢) ، على إثر ثورة أطاحت به ، ولم تكن الثورة هذه المرة من الخوارج ، أو الشيعة أو غيرهم من أعداء بني أمية ، بل من أبناء عمه الذين ينطبق عليهم في هذه الحالة قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ وتزعم الثورة على الوليد ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ظاهره وأعانه على ذلك بعض إخوته ، وبعض أبناء أعمامه هشام وسليمان والحجاج ، كما كان للعصبية القبلية دور بارز في هذه الثورة ؛ حيث وقف اليمنيون خلف يزيد ابن الوليد وحرَّضوه على الثورة على الوليد لتعصبه لقبائل مضر ، وقد استغل يزيد ابن الوليد وأنصاره التهم والشائعات التي أطلقت حول الوليد ، وأذاعوها في الناس ؛ ليوغروا صدورهم عليه ، وليبرروا الثورة عليه وقتله (٣) . وربما كانوا هم وراء هذه الشائعات ؛ لأن المدقق في الروايات التي تذكرها بعض المصادر عن الوليد وحياته قبل الخلافة وأثناءها - يدرك أن مقتله لم يكن بسبب ما نسب إليه من فسق وفجور ، ولكن كان لأسباب أخرى ؛ لأن حملة التشهير بالوليد قد بدأت أثناء خلافة عمه هشام ، وحينما كان هو وليًّا للعهد ، فقد أراد منه عمه هشام أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه مسلمة فرفض (٤) ؛ ووقعت بينهما وحشة بسبب ذلك وتبادلا الاتهامات ،

(١) انظر المسعودي - مروج الذهب (٢٢٨/٣ ، ٢٢٩) .
(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٦٣) .
(٣) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٩١/٥) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٩/١٠) .
(٤) ابن كثير - المصدر السابق (٢/١٠) .

فقد يكون هذا وراء حملة التشهير بالوليد ؛ إذ لو كان الوليد فاسقًا ماجنًا عاكفًا على الخمر والغناء ، لوجد عمه هشام مبررًا قويًّا لعزله من ولاية العهد صيانة لمنصف الخلافة عن الابتذال ، وكان عليه أن يختار غيره من أبناء بيته ، وفيهم كثيرون يصلحون لهذا المنصب ، مثل ابن عمه مروان بن محمد بن مروان ، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك وليس بالضرورة أن يكون البديل أحد أبنائه ، ليثبت بذلك حسن نيته ، وإذ لم يفعل ذلك - وكان الوليد على ما وصفته به بعض المصادر - لتحمل هشام كل الوزر في توليته الخلافة من بعده .

ولكن بعض المصادر تروي ما يدل على أن الوليد لم يكن على هذه الصورة الماجنة ؛ فابن الأثير يروي أن الوليد كان ينهى الناس عن الغناء ؛ لأنه يزيد في الشهوة ويهدم المروءة [1] . ويقول بعد ذلك : « وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه ، وقالوا : إنه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح . قال المدائني : دخل ابن للغمر ابن يزيد أخي الوليد على الرشيد ، فقال له : ممن أنت ؟ قال : من قريش ، قال : من أيها ؟ فأمسك ، فقال : قل وأنت آمن ولو أنك مروان ، فقال : أنا ابن الغمر بن يزيد . فقال : رحم اللّٰه عمك الوليد ولعن يزيد الناقص ؛ فإنه قتل خليفة مجمعًا عليه ! ارفع حوائجك ، فرفعها فقضاها » [2] . « وقال شبيب بن شيبة : كنا جلوسًا عند المهدي - الخليفة العباسي - فذكروا الوليد ، فقال المهدي : كان زنديقًا ، فقام أبو علاثة الفقيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن اللّٰه ﷻ أعدل من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقًا ، لقد أخبرني من كان يشهده ... بمروءة في طهارته وصلاته .. فقال المهدي : بارك اللّٰه عليك يا أبا علاثة » [3] .

وروى الطبري وتابعه ابن الأثير وابن كثير أنه لما أحاط أتباع يزيد بن الوليد بالوليد ابن يزيد في قصره وحصروه قبل أن يقتلوه ، قالوا : « فدنا الوليد من الباب ، فقال : أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ؟ فقال له يزيد بن عنبسة السكسكي : كلمني ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا يزيد بن عنبسة ، قال : يا أخا السكاسك ، ألم أزد في أعطياتكم ؟ ألم أرفع المؤن عنكم ؟ ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم زمناكم ؟ فقال : إنا ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم اللّٰه وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر اللّٰه ، قال : حسبك يا أخا

(١) الكامل في التاريخ (٢٨٩/٥) . (٢) المصدر السابق (٢٩٠/٥ ، ٢٩١) .
(٣) المصدر السابق (٢٩١/٥) .

السكاسك ؛ فلعمري لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل لي لسعة عما ذكرت . ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفًا ، وقال : يوم كيوم عثمان ، ونشر المصحف يقرأ ، ثم قتلوه ، وكان آخر كلامه قبل أن يقتل : « أما واللَّه لئن قتلتموني لا يرتق فتقكم ، ولا يلم شعثكم ، ولا تجتمع كلمتكم » (١) .

إن الذي يرى فيما أحل اللَّه له سعة عن اقتراف المحرمات ، ويفزع إلى المصحف عندما أحيط به ، وأيقن أنهم قاتلوه - لا يمكن أن يكون ماجنًا ، يقترف ما رموه به ، ويهين المصحف ويمزقه كما تذهب بعض الروايات ، وربما كان عند الوليد ميل إلى اللهو والعبث ، ولكن لم يصل به الحد إلى أن يهم بشرب الخمر فوق الكعبة ، وهل ضاقت عليه الدنيا ؛ فلم يجد مكانًا يشرب فيه الخمر إلا فوق الكعبة ؟ إن هذا لو حدث من حاكم مسلم في عصرنا هذا لرماه الناس بالحجارة ، فكيف بالوليد وهو خليفة المسلمين في عصر قريب إلى حد ما من عصر النبوة والخلافة الراشدة ، ومليء بالعلماء والصالحين من التابعين ؟ .

الأسباب الحقيقية للثورة على الوليد :

أما وقد استبعدنا أن يكون قد حدث من الوليد من الفسق والفجور ما يستوجب الثورة عليه وقتله ، فلا بد أن نبحث عن الأسباب الحقيقية لذلك .

إن الذي نطمئن إليه أن سياسة الوليد غير الحكيمة مع أبناء أعمامه ، ومع بعض الولاة ذوي العصبية في الدولة - كانت السبب الحقيقي في الثورة عليه وقتله ، فقد انتقم من أبناء أعمامه وبصفة خاصة أبناء هشام ؛ ولعل لذلك علاقة بقصة ولاية العهد وعلاقته بعمه هشام ، كما أنه انتقم من خالد بن عبد اللَّه القسري ؛ حيث أسلمه إلى يوسف بن عمر الثقفي فظل يعذبه حتى مات ، فأوغر بذلك صدور اليمنية عليه ، فكان غضبهم عليه عارمًا ، وهم قوة كبيرة ليس في الشام فحسب ، بل في خراسان أيضًا التي كانت الدعوة العباسية فيها في مرحلة الاستعداد والتهيؤ للانقضاض على البيت الأموي كله ، لقد انضم اليمنيون في الشام إلى يزيد بن الوليد ضد ابن عمه الخليفة وقاموا بتنفيذ محاصرة الخليفة وقتله ، ويؤيد ذلك ما يقوله ابن كثير : « وكان من أعظم ما جنى على نفسه ، حتى أورثه ذلك هلاكه - إفساده على نفسه بني عميه هشام والوليد ابني عبد الملك ، مع إفساده اليمنية ، وهي أعظم جند خراسان ؛ وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد اللَّه القسري وسلمه إلى غريمه يوسف

(١) تاريخ الطبري (٧/٢٤٦) ، والكامل في التاريخ (٥/٢٨٧ ، ٢٨٨) ، والبداية والنهاية (١٠/١٠ ، ١١) .

ابن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذلك فلم يزل يعاقبه حتى هلك - انقلبوا عليه وتنكروا له وساءهم قتله ... ثم روى ابن جرير بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب بن عمه سليمان بن هشام مائة سوط ، وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بها ... وحبس الأفقم يزيد بن هشام وبايع لولديه الحكم وعثمان ، وكانا دون البلوغ ، فشق ذلك على الناس أيضًا ، ونصحوه فلم ينتصح ، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل » (١) .

وإذا كانت تلك هي الأسباب الحقيقية للثورة على الخليفة وقتله ، فإن ما رمي به من التهم والشناعات ما كان إلا لخلق رأي عام يتقبل تلك الجريمة ، فإن قتل الخليفة لم يكن بالأمر الهين الذي يسهل تقبله بين الناس ، ومن هنا لجأ مدبروا الثورة إلى القول بأن خليفتهم متهتك عاكف على شرب الخمر ، ومقارفة المحرمات حتى يهون على الناس دمه ، ويرتضوا الخروج عليه .

أثر مقتل الوليد بن يزيد على الدولة الأموية :

لا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن مقتل الخليفة الوليد بن يزيد كان بداية النهاية للدولة الأموية ، ولقد أدرك بعض أبناء البيت الأموي خطورة ذلك الأمر وما تنطوي عليه الثورة على الخليفة من كوارث قد تودي بهم جميعًا ، وكان من هؤلاء العباس ابن الوليد ، أخو زعيم الثورة ؛ فقد حاول العباس ثني أخيه عما هو مقدم عليه ونبهه إلى خطره ولكنه لم يقبل ، فقال له : « والله لولا أني أخاف عليك لقيدتك وأرسلتك إليه » (٢) ، أي : إلى الخليفة ، وقد عبر العباس بن الوليد عن إدراكه العميق لحجم الكارثة التي ستلم بالبيت الأموي كله من جراء تلك الفتنة ، فقال : « يا بني مروان إني أظن الله قد أذن في هلاككم وتمثل قائلًا :

إني أعيذكم بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع (٣)

وهو بأرمينية والٍ عليها - إن يزيد بن الوليد يؤلب الناس على الخليفة ويدعو إلى خلعه حتى هاله ذلك الأمر وأفزعه ، فكتب إلى ابن عمه سعيد بن عبد الملك بن مروان ،

(١) البداية والنهاية (١٠/٨ ، ٩) ، وانظر الطبري (٢٣١/٧ ، ٢٣٢) .
(٢) ابن كثير - البداية والنهاية (٩/١٠) .
(٣) الطبري - تاريخ (٢٣٩/٧) ، وابن كثير - المصدر السابق (٩/١٠) .

يستحثه أن يكف الناس عن نقض بيعتهم وبيِّن له عواقب ما هم مقدمون عليه ، وكان مما قال له : « إن اللَّه جعل لكل أهل بيت أركانًا يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف ، وأنت بحمد ربك ركن من أركان أهل بيتك ، وقد بلغني أن قومًا من سفهاء أهل بيتك قد استنُّوا أمرًا ، إن تمت لهم رويتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا بابًا لن يغلقه اللَّه عنهم حتى تسفك دماء كثيرة منهم ، وأنا مشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجًا ، ولو جمعتني وإياهم لرممت فساد أمرهم بيدي ولساني ، ولخفت اللَّه في ترك ذلك ، لعلمي ما في عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا ، وإنه لن ينتقل سلطان قوم قط إلا بتشتيت كلمتهم وإن كلمتهم إذا تشتتت طمع فيهم عدوهم ، وأنت أقرب إليهم مني ، فاحتل لعلم ذلك وإظهار المتابعة لهم ، فإذا صرت إلى علم ذلك ، فتهددهم بإظهار أسرارهم ، وخذهم بلسانك وخوفهم العواقب ؛ لعل اللَّه أن يرد ما قد غرب عنهم من دينهم وعقولهم ، فإن فيما سعوا فيه تغير النعم وذهاب الدولة » [(١)] .

ولكن سعيد بن عبد الملك فشل ، كما فشل العباس بن الوليد في إيقاف الثورة فقتل الوليد بن يزيد وبدأت الدولة تسير نحو نهايتها ، فقد كانت النتيجة المباشرة لمقتل الخليفة انقسام البيت الأموي على نفسه ، فأخذ بعضهم يقاتل بعضًا ، كما انحاز بعضهم إلى أعداء دولتهم ، وأدى هذا الانقسام والتناحر داخل الأمويين إلى فقدانهم تأييد أهم كتلة عربية كان لها دور كبير في تأسيس دولتهم ، وظلت ركنًا من أركانها ، وهم عرب اليمن في الشام وخراسان ، ولم ينصرف اليمنيون عن تأييد بني أمية فحسب ؛ بل إنهم تحولوا عنهم كلية إلى الدعوة العباسية التي كان دعاتها يتوثبون آنذاك للقضاء على دولة بني أمية ، وقد كان تحول اليمنيين إلى الدعوة العباسية من أهم عوامل نجاحها .

١٢ - يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦هـ)

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه شاه آفريد بنت فيروز ابن يزدجرد ، آخر ملوك الفرس [(٢)] ، وكان يجمع في أصوله بين الدم العربي والفارسي والرومي والتركي ؛ فجده لأبيه عبد الملك بن مروان ، وهو عربي ، وجده

(١) انظر الطبري - تاريخ (٢٣٨/٧) .

(٢) انظر ترجمته في تاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٦٨) ، وتاريخ اليعقوبي (٣٣٥/٢) ، ومروج الذهب للمسعودي (٢٣٣/٣) ، وتاريخ الطبري (٢٩٨/٧) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣١٠/٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣٧٤/٥) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٦/١٠) .

لأمه فيروز بن يزدجرد ، وهو فارسي وجدة جده لأمه ابنة قيصر ، وأم جدته لأمه ابنة خاقان الترك ، فكان يفخر بذلك ويقول :

أنا ابن كسرى وأبي مروان   وقيصر جدي وجدي خاقان

قاد يزيد بن الوليد ، الثورة على ابن عمه الوليد بن يزيد ، وأخذ البيعة لنفسه في قرية المزة ، قبل مقتل الوليد ثم سار إلى دمشق وغلب عليها ، وأرسل إلى الخليفة الوليد ابن عمه الآخر عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك في جيش من اليمنيين فقتلوه بالبخراء على حدود تدمر - كما ذكرنا آنفًا - وبعد مقتل الوليد بويع في دمشق مرة أخرى ، وأصبح الخليفة الثاني عشر في سلسلة خلفاء بني أمية ، وقد لقب بيزيد الناقص ؛ لأنه أنقص من أعطيات الجند التي قد زادها الوليد بن يزيد .

وكان يزيد بن الوليد يظهر الصلاح والتقوى ، ويتشبه بعمر بن عبد العزيز ، وقد خطب الناس بعد مقتل ابن عمه خطبة يبرر فيها مقتل الخليفة ويشرح لهم منهجه في الحكم ، فقال : « أيها الناس ، إني واللَّه ما خرجت أشرًا ولا بطرًا ، ولا حرصًا على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطراء نفسي ، إني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي ؛ ولكني خرجت غضبًا للَّه ورسوله ودينه ، داعيًا إلى اللَّه وكتابه وسنة نبيه ﷺ لما هدمت معالم الهدى وأطفئ نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد ، المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، مع أنه واللَّه ما كان يصدق بالكتاب ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في الحسب ، وكفيي في النسب ، فلما رأيت ذلك استخرت اللَّه في أمره ، وسألته ألا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي وسعيت فيه حتى أراح اللَّه منه العباد والبلاد ، وبحول اللَّه وقوته لا بحولي وقوتي . أيها الناس ، إن لكم عليَّ ألا أضع حجرًا على حجر ، ولا لبنة على لبنة ولا أكري نهرًا ، ولا أكثر مالًا ولا أعطيه زوجة ولا ولدًا ، ولا أنقل مالًا من بلدة إلى بلدة ، حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يعينهم ، فإن فَضَلَ فضلٌ نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه ، ولا أجمركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم ، وإن لكم أعطياتكم عندي في كل سنة ، وأرزاقكم في كل شهر ، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإن وفيت لكم بما قلت ، فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة ، وإن

أنا لم أف فلكم أن تخلعوني ، إلا أن تستتيبوني ، فإن تبت قبلتم مني ، فإن علمتم أحدًا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته . أيها الناس ، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا وفاء له بنقض عهد ، إنما الطاعة طاعة اللَّه ، فأطيعوه بطاعة اللَّه ما أطاع ، فإذا عصى اللَّه ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ويقتل ، أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه لي ولكم » (١) .

بهذه الخطبة الطويلة التي خصص جزءًا منها للنيل من ابن عمه وتجريحه والطعن عليه واتهامه بالكفر - ليبرر قتله - والباقي لشرح سياسته وكأنه أبو بكر الصديق أو عمر بن الخطاب حيث أراد أن يظهر بمظهر الزاهد في الحكم ، وأنه ما خرج إلا غضبًا للَّه ولرسوله ولدينه ، بهذه الخطبة استهل يزيد بن الوليد عهده القصير ، ونسي أو غفل أن الناس والوقت والوضع العام في الدولة قد تغيَّر عما كان الحال في عهدي أبي بكر وعمر ، أو حتى في عهد جده عبد الملك بن مروان (٢) .

والحقيقة أنه بفعلته تلك جرَّ على دولة بني أمية كوارث كانوا في غنى عنها وشغلهم بصراع مرير فيما بينهم أضعف كيانهم وأنهك قواهم ، في وقت نشط فيه الدعاة العباسيون وضاعفوا جهودهم للقضاء على الدولة كلها ، ومن ناحية ثانية لم يستطع أن يفي بوعوده للناس ، واضطر أن يحابي اليمنيين الذين ساعدوه في الوصول إلى الخلافة ، وأن يغدق عليهم الأموال فأدى ذلك إلى نضوب في بيت المال ، مما اضطره إلى إنقاص أعطيات الجند ، فسموه الناقص ، وهي تسمية لها دلالتها ، كما أن القبائل المضرية نفرت منه لموالاته لليمنيين ؛ فهبت في وجهه ثورات المضرية في حمص وفلسطين وغيرها ، فقضى مدة خلافته القصيرة في قمعها .

اضطراب أمر بني أمية وانقسامهم على أنفسهم :

ما أن اعتلى يزيد بن الوليد منصب الخلافة وأخذ البيعة لنفسه ، حتى هبت في وجهه المعارضة العنيفة من أبناء أعمامه ، وثارت عليه الأقاليم الشامية ، وكان أول إقليم هبت منه الثورة هو « حمص » ؛ فقد أخذ أهله يبكون على مقتل الوليد ، ورفضوا البيعة ليزيد ، وكاتبوا أهل الأجناد ودعوهم للطلب بدم الوليد ، وانضم إليهم

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٢٦٨/٧ ، ٢٦٩) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٩١/٥ ، ٢٩٢) .
(٢) د . محمد ماهر حمادة - الوثائق السياسية العائدة للعصر الأموي (ص ٧٢) .

يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وأبو محمد السفياني ، وبايعوا أبا محمد بالخلافة ، وقرروا السير إلى دمشق ، ولكن يزيد علم بخبرهم ، فعاجلهم بجيشين : على رأس أحدهما ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، وعلى الآخر سليمان بن هشام بن عبد الملك ؛ فاستطاعا هزيمة أهل حمص ، وأخذا يزيد بن خالد وأبا محمد السفياني أسيرين إلى دمشق فحبسهما يزيد [١] .

ثورة أهل فلسطين :

ثم ثار أهل فلسطين ورفضوا البيعة ليزيد بن الوليد ، وبايعوا ليزيد بن سليمان بن عبد الملك ثم علم بأمرهم أهل الأردن ، فثاروا هم أيضًا ، وخلعوا طاعته ، وولوا عليهم محمد بن عبد الملك ، واجتمعوا على قتاله ، فلما علم بأمرهم أرسل إليهم ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، في جيش عدته حوالي أربعة وثمانين ألفًا من أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني ودخلوا في طاعته ، وقد تمكن سليمان بن هشام من هزيمة أهل الأردن ، فبايعوا ليزيد ودخلوا في طاعته ، فولى ضبعان بن روح على فلسطين ، وأخاه إبراهيم بن الوليد على الأردن [٢] .

وهكذا بدا ليزيد بن الوليد أنه كبح جماح الثائرين على دولته في مناطق الشام ، بعد أن أطاح بابن عمه ، وظن أن الأمور استقرت له .

إلا أنه لم يستمتع بذلك طويلًا ؛ فلم تدم خلافته سوى ستة شهور (جمادى الآخرة - ذو الحجة سنة ١٢٦هـ) حيث توفي في ذي الحجة ، ليترك الشام - وهي الحصن الحصين للدولة الأموية - تشتعل نارًا ، كما ترك أبناء أسرته منقسمين على أنفسهم ، منشغلين بصراعاتهم عن الأخطار المحدقة بهم ، وبصفة خاصة الخطر العباسي ، مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن حركته كلها كانت من العوامل التي مهدت لزوال الدولة الأموية .

١٣ - إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٧هـ)

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه أمة بربرية [٣] ،

---

(١) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٩٠/٥ - ٢٩٤) .

(٢) المصدر السابق (٢٩٤/٥ ، ٢٩٥) .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٧٦/٥ ، ٣٧٧) ، والطبري - تاريخ (٢٩٩/٧) ، وابن الأثير - =

بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بعهد منه في نهاية ذي الحجة سنة (١٢٦هـ) . ولكنه لم يتم له أمر ، فكان الناس كما يقول الطبري [١] : جمعة يسلمون عليه بالخلافة ، وجمعة بالإمارة ، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة . وكان أول من رفض بيعته أهل حمص ، فأرسل إليهم ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك ليأخذ له البيعة منهم بالقوة فحاصرهم وبينما هو على حصارهم وهم يرفضون البيعة ، قدم مروان بن محمد ، فلما علم عبد العزيز بن الحجاج بمقدمه ترك حمص ، فدخلها مروان وبايعه أهلها ، وساروا معه قاصدين دمشق ، فلقيهم جيش إبراهيم بن الوليد على رأسه سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفًا ، فالتقى بهم مروان في ثمانين ألفًا ، ودارت بينهما معركة في مكان يسمى عين الجر - بين دمشق وبعلبك - فهزم سليمان وقتل من جنده حوالي سبعة عشر ألفًا وأسر مثلهم ، فعاد منهزمًا إلى دمشق والتقى بإبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج واتفقوا على قتل ولدي الوليد بن يزيد - الحكم وعثمان - قبل وصول مروان ، وقالوا : « إن بقي ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويعيد الأمر إليهما لن يستبقيا أحدًا من قتلة أبيهما ، والرأي قتلهما » [٢] . فقتلوهما ، ثم هرب إبراهيم بن الوليد وأنصاره ، ودخل مروان دمشق ، وأخرج يزيد بن خالد وأبا محمد السفياني من السجن ، وجاؤوا إليه بابني الوليد بن يزيد مقتولين ، فشهد أبو محمد السفياني لمروان بأنهما جعلا له الخلافة بعدهما وبايعه الناس وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة (١٢٧هـ) [٣] ، فكانت مدة خلافة إبراهيم بن الوليد ما يقرب من أربعة أشهر - وتسلم مروان بن محمد الخلافة ليصارع أحداثًا أقوى منه ، ويواجه دنيا مدبرة ، ودولة ممزقة ، قدِّر له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها .

١٤ - مروان بن محمد بن مروان (١٢٧ - ١٣٢هـ)

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وأمه أمة كردية ، كانت لإبراهيم بن الأشتر النخعي ، فأخذها محمد بن مروان ، فاستولدها مروان ، وذلك في حوالي

= الكامل في التاريخ (٣١١/٥) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٢١/١٠) .

(١) تاريخ الطبري (٢٩٩/٧) .

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣٢٢/٥) .

(٣) انظر الطبري (٢٩٩/٧) ، وابن الأثير (٣٢٣/٥) .

سنة (٧٠هـ) [١] ، ويعتبر مروان بن محمد من فرسان بني أمية وشجعانهم ، ويعدل في فروسيته ابن عمه مسلمة بن عبد الملك ، فكما تصدَّى مسلمة للروم ، وحمى حدود المسلمين منهم ، واستولى على كثير من حصونهم ومعاقلهم ثم حاصر عاصمتهم نفسها في عهد أخيه سليمان ، كذلك تصدَّى مروان بن محمد للترك والخزر واللان ؛ حيث كان هشام بن عبد الملك قد ولاه أرمينية وأذربيجان سنة (١١٤هـ) [٢] ، وهي الولاية التي شهدت بطولات أبيه محمد بن مروان ، والذي ولاه إياها أخوه عبد الملك بن مروان ، وكانت هذه الولاية كما يقول فلهاوزن : تتطلب جنديًّا ، وقد كان مروان كفئًا لهذا المنصب وكان عند حسن الظن به ؛ « فقد استطاع أن يدافع عن ثغر القوقاز أمام هجمات الترك دفاعًا لا يلين ، وأن يقوم بغزوات موفقة في أرض الترك » [٣] ، وقد ظل مروان واليًا على أرمينية وأذربيجان حتى مقتل الوليد بن يزيد سنة (١٢٦هـ) ، فغضب لمقتله ، وخرج من أرمينية قاصدًا دمشق ، مظهرًا المطالبة بدمه ، فلما وصل الجزيرة ، وكان ابنه عبد الملك قد أحكم سيطرته عليها ، جاءه كتاب من الخليفة الجديد - يزيد بن الوليد - يترضاه ويقره على ولايته في أرمينية وأذربيجان ، ويضيف إليه إقليم الجزيرة والموصل ، فرضي وبايع ليزيد [٤] ، ولكن يزيد لم يلبث أن توفي سريعًا ، في نهاية سنة (١٢٦هـ) وكان قد عهد قبل وفاته لأخيه إبراهيم بن الوليد ، فبايعه بعض الناس بالخلافة ، ولكن لم يستقر له الأمر ، فأخذ مروان يزحف على دمشق ، وقد هزم وهو في طريقه إليها جيش إبراهيم بن الوليد الذي كان قد أرسله لإخماد ثورة أهل حمص وفر قائد الجيش سليمان بن هشام إلى دمشق ، فاستولى هو وإبراهيم بن الوليد على ما في بيت المال وفرَّا هاربين ، تاركين دمشق مفتوحة الأبواب ؛ فدخلها مروان ، فوجد ابني الوليد ابن يزيد - الحكم وعثمان - قد قتلا ، ولما كانا في نظره هما أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، وأنه ما خرج إلا للمطالبة بدم أبيهما وبحقهما فيها ، وبعد موتهما لم يعد هناك من يستحقها غيره ، خصوصًا بعد أن شهد له أبو محمد

---

(١) انظر في ترجمة مروان وأخباره ، تاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٧٢) وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي (٣٣٨/٢) وما بعدها ، وتاريخ الطبري (٣١١/٧ ، ٣١٢) ، (ص ٤٣٧ - ٤٤٣) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣٢٣/٥ ، ٤٢٤) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٤٦/١٠ - ٤٨) .

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية (٤٧/١٠) .

(٣) فلهاوزن - تاريخ الدولة العربية (ص ٣٥٧) (الترجمة العربية) .

(٤) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣١٠/٥) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٢١/١٠) .

السفياني بأن ابني الوليد عهدا له بها . وتقدم وبايعه وتبعه الناس فبايعوا مروان [١] ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة (١٢٧هـ) ، وبهذا أصبح الخليفة الرابع عشر وآخر خلفاء بني أمية .

ورغم ما كان يتمتع به مروان بن محمد من صفات مثل الشجاعة والإقدام وسداد الرأي وغيرها من الصفات التي تؤهله لمنصب الخلافة ؛ إلا أن الأقدار شاءت أن تكتب على يديه نهاية الدولة الأموية ، وأن يكون هو الفصل الأخير في تاريخها ، وقد لا يكون هو المسؤول الأول عن ذلك ، فإن العوامل التي أدت إلى زوال الدولة كانت تتفاعل منذ زمن بعيد ، وقدر له وحده أن يصارع أحداثًا كانت كلها تعمل ضده ، وأول خطر واجهه مروان هو انقسام الأمويين على أنفسهم ، والذي كان من أسوأ نتائجه انقسام كتلتي العرب الرئيسيتين في الشام وهما اليمنيون والقيسيون ، فقد انقلب اليمنيون ضد مروان وانحاز القيسيون إليه ، وتظهر خطورة هذا الانقسام في أنه حدث في مقر الخلافة الأموية وبين أكثر أنصار الأمويين قوة ؛ ولهذا كان اضطراب الأمر في الشام ، إيذانًا باضطراب أمر الدولة كلها . وقد حاول مروان منذ بيعته في دمشق أن يهدئ خواطر الناس ، وأن يبعث الثقة في النفوس ، فلما بايعه الناس ، عرض عليهم أن يختاروا بأنفسهم من يرضون من الولاة لولايات الشام الرئيسية ، يقول الطبري : « فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم ، فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو الجيراني ، وأهل حمص عبد اللّٰه بن شجرة الكندي ، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان ، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي » [٢] . كانت تلك سياسة حكيمة من مروان فهو لم يفرق بين عرب اليمن وبين قيس ، فهؤلاء الولاة فيهم يمنيون وقيسيون ، وقد أظهر مروان بذلك مرونة كبيرة ، حتى أنه قبل اختيارهم لثابت بن نعيم الجذامي ، مع أنه كان قد سبق له الغدر بمروان في أرمينية [٣] . وتزعم حركة عصيان قام بها جند الشام هناك ضد مروان [٤] . ولكن مروان عفا عنه وعيّنه واليًا على فلسطين ؛ تسكينًا للفتنة ، وحسمًا للفرقة والخلاف .

وبعد أن رتب أوضاع الشام غادر دمشق إلى حران - بالجزيرة - التي اتخذها مقرًّا لحكمه ، وتمشيًا مع خطته في إصلاح الأحوال ، وكبح جماح الفتنة فإنه حينما

---

(١) الطبري : تاريخ (٣١١/٧ ، ٣١٢) ، وابن الأثير (٣٢٣/٥) .

(٢) تاريخ (٣١٢/٧) .

(٣) المصدر السابق - تاريخ (٣١٢/٧) .

(٤) انظر فلهاوزن - تاريخ الدولة العربية (ص ٣٦٣) .

جاءه إبراهيم بن الوليد ، الخليفة المخلوع ، وسليمان بن هشام اللذان كانا قد هربا من دمشق قبل وصوله إليها ، وطلبا منه الأمان أمّنهما وعفا عنهما وبايعاه [١] . وهكذا بدأت الأمور وكأنها آخذة في الاستقرار ولكن ذلك الهدوء لم يكن إلا بمثابة السكون الذي يسبق العاصفة ، فلم تلبث الأنباء أن وافت دار الخليفة بنشوب الاضطراب في الشام مرة ثانية وبسريان حمى الثورة من جديد .

ثورة أهل حمص على مروان سنة (١٢٧هـ) :

ظلت حمص منذ بداية الصراع بين أبناء البيت الأموي تقف إلى جانب الوليد بن يزيد ومروان بن محمد ، حتى أن أهلها - ومعظمهم من قيس - بكوا الوليد بعد مقتله [٢] ، ورفضوا بيعة يزيد بن الوليد وأخيه إبراهيم ، كما قاوموا جيش إبراهيم الذي أرسله إليهم بقيادة عبد العزيز بن الحجاج ، ولكن حينما وصل إليهم مروان رحبوا به ، وبايعوه وساروا معه إلى دمشق ، ولكن ما أن خرج من دمشق إلى حران حتى ثار عليه اليمنيون من أهل حمص ، بزعامة ثابت بن نعيم الجذامي ، الذي كان مروان قد تسامح معه وتناسى غدره وعيَّنه واليًا على فلسطين ، ولكنه لم يحفظ الجميل ، ولم يرع الود والعهد ، فكان هو الذي حرَّك الثورة على مروان في الشام كلها .

يقول الطبري : « لما انصرف مروان إلى منزله من حران ، بعد فراغه من أهل الشام لم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى خالفه أهل الشام ، وانتقضوا عليه ، وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم ، وراسلهم وكاتبهم ، وأرسل أهل حمص إلى من بتدمر من كلب ، فشخص إليهم الأصبغ بن ذؤالة الكلبي ...ونحو ألف من فرسانهم ، فدخلوا مدينة حمص ليلة الفطر من سنة سبع وعشرين ومائة » [٣] ، فلما علم مروان بخبرهم سار إليهم بنفسه [٤] ، وهزمهم وبدَّد شملهم ، وهدم أسوار مدينتهم .

ثورة أهل الغوطة سنة (١٢٧هـ) :

بينما كان مروان مشغولًا بقمع ثورة حمص ، نشبت ثورة أخرى في الغوطة ، فقد ثار أهلها وولوا عليهم زعيمًا يمنيًا ، هو يزيد بن خالد القسري ، وساروا إلى دمشق فحاصروها ، ولكن مروان أرسل إليهم وهو في حمص قائدين من قواده ، هما أبو الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث ، وعمرو بن الوضاح ، في عشرة آلاف « فلما

---

(١) الطبري - المصدر السابق (٣١٢/٧) . (٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٩٢/٥) .
(٣) تاريخ (٣١٣/٧) . (٤) المصدر السابق (٣١٣/٧) .

دنوا من المدينة حملوا عليهم ، وخرج عليهم من بالمدينة ، فانهزموا ، واستباح أهل مروان عسكرهم ، وأحرقوا المزة وقرى من اليمانية ، وأخذ يزيد بن خالد فقتل ، وبعث زامل بن عمرو - والي دمشق - برأسه إلى مروان بحمص » [١] .

ثورة فلسطين سنة (١٢٧هـ) :

عرفنا أن ثابت بن نعيم الجذامي - والي فلسطين - كان وراء حركات الشام ضد الخليفة مروان ، وها هو الآن يعلن الثورة عليه ويخلع طاعته ، ولكن مروان عاجله ، وكتب إلى أبي الورد الذي قمع ثورة الغوطة ، وفك حصار دمشق : أن يسير إلى ثابت ، فلما صار أبو الورد قريبًا منه خرج أهل طبرية على ثابت فهزموه ، واستباحوا عسكره ... وتبعه أبو الورد فالتقوا واقتتلوا ، فهزمه أبو الورد ثانية ، وتفرَّق أصحابه ، وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان ، وتغيب ثابت وولده رفاعة ، ولكن الوالي الجديد الذي عيَّنه مروان على فلسطين ، وهو الرماحس بن عبد العزيز الكناني ، استطاع أن يقبض على ثابت بن نعيم وأن يرسله إلى مروان ، فأمر بقتله هو وأولاده الثلاثة [٢] .

عقد مروان البيعة لولديه :

وسط هذه الثورات المتلاحقة وجد مروان فسحة من الوقت ليأخذ البيعة في « دير أيوب » لابنيه عبيد اللَّه وعبد اللَّه ، وانتهز هذه المناسبة لتكون فرصة للمصالحة بين أبناء بيته ، فزوَّج ابنيه من ابنتي هشام بن عبد الملك ، وجمع لذلك كما يقول ابن الأثير [٣] : « بني أمية » . وكان هذا الزواج كما يقول فلهاوزن : « بمثابة حفلة رسمية للدولة ، وكان مروان يعتقد أنه قد استطاع أن يصلح ما بينه وبين أسرة بني أمية ، وأن يضمها إلى جانبه » [٤] . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فسرعان ما قلب له أمراء بني أمية ظهر المجن وواجهوه بالعصيان والتمرد .

ثورة سليمان بن هشام سنة (١٢٧هـ) :

توقع مروان أن مصاهرته لأبناء هشام بن عبد الملك كافية لرأب الصدع بين أبناء البيت الأموي كله ، وأن الأمر في الشام قد استقام له ، ولهذا أخذ في إعداد جيش

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥/٣٢٩) ، والطبري - تاريخ (٧/٣١٣) .
(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥/٣٣٠) ، والطبري - تاريخ (٧/٣١٤) .
(٣) الكامل في التاريخ (٥/٣٣٠) . (٤) تاريخ الدولة العربية (ص ٣٦٦) .

قوامه عشرون ألفًا تحت قيادة يزيد بن عمر بن هبيرة لمواجهة ثورة الخوارج في العراق الذين خرجوا عليه بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني منتهزين فرصة انشغاله بثورات الشام ، كما ضرب على أهل الشام بعثًا للحاق بيزيد ومعاونته في حرب الخوارج ، وكان سليمان بن هشام - شقيق زوجتي ولدي مروان - قد استأذنه في الإقامة بالرصافة أيامًا للراحة فأذن له (١) . وبينما يقوم مروان بالإشراف بنفسه على تجهيز جيش ابن هبيرة في قرقيسياء فاجأته ثورة عارمة قادها صهره سليمان ، حيث انفلت عشرة آلاف من أهل الشام الذين استنفرهم مروان لقتال الخوارج وذهبوا إلى سليمان بالرصافة ، ودعوه إلى خلع مروان ، فأجابهم إلى ذلك دون أن يعبأ ببيعته وعهوده التي قطعها على نفسه للخليفة ، ولا مراعاة لصلة الرحم والمصاهرة الجديدة ، بل ودون أن يضع في تقديره الظروف التي تمر بها الدولة الأموية كلها .

استفحلت ثورة سليمان ؛ فقد اجتمع حوله سبعون ألفًا عسكر بهم في قرية تسمى خساف من أعمال قنسرين . فاجأت هذه الأخبار مروان على غير توقع ، فقرر أن يسير إلى سليمان بنفسه فقصده في خساف ، حيث دارت بينهما معركة كبيرة ، هزم فيها سليمان ، وقتل حوالي ثلاثين ألفًا من أتباعه (٢) ، وهرب هو بمن بقي من جيشه إلى حمص ، ولكن مروان لاحقه إليها ، ففرَّ منها هاربًا ، قبل وصول مروان تاركًا فيها أخاه سعيد بن هشام ، ثم وصلها مروان وضرب عليها الحصار لمدة عشرة أشهر ، ثم استسلمت له (٣) .

اضطراب الأمر على مروان :

في هذا الجو العصيب ، الذي انقسم فيه الأمويون على أنفسهم ، وأخذوا يحاربون بعضهم البعض ، وبينما مروان يحاول رأب الصدع ، وإعادة الأمور إلى نصابها في الشام ؛ إذ بالثورات والقلاقل تنفجر في كل مكان تقريبًا ، فقد شجع انقسام الأمويين على أنفسهم ، واحتدام الصراع بينهم - أحد أفراد البيت الهاشمي ، وهو عبد اللَّه بن معاوية بن عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب ، على القيام بثورة عارمة في العراق (١٢٧- ١٢٩هـ) ، كما شجع الخوارج على أن يهبوا هبتهم الأخيرة في العهد الأموي حيث قام الضحاك بن قيس الشيباني بثورة خطيرة في العراق (١٢٧ -

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣٣١/٥) .
(٢) انظر ابن الأثير - المصدر السابق (٣٣٢/٥) . (٣) المصدر السابق (٣٣٣/٥) .

١٣٠هـ) ، وأبو حمزة الخارجي بثورة أخرى في الجزيرة العربية (١٢٨ - ١٣٠هـ) .

وأدهى من ذلك كله أن الخلل والاضطراب سرى في أجزاء الدولة من خراسان إلى الأندلس . وبينما مروان يواجه هذا الموقف الصعب ، وينتقل من ميدان إلى ميدان ، فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل المنهمر [1] ، فاكتسحت قواته في خراسان والعراق ، ثم كانت هزيمته الساحقة في موقعة الزاب في جمادى الآخرة سنة (١٣٢هـ) ، وفراره إلى مصر ومقتله هناك في ذي الحجة من نفس العام .

ولما كانت هذه الأحداث تقترن بسقوط الدولة الأموية فقد أرجأنا الحديث عنها إلى موضعها المناسب في هذا الكتاب ، وهو آخر الفصل الخاص بالثورات التي اندلعت في وجهها .

* * *

(١) بدأ أبو مسلم الخراساني قائد الثورة العباسية أعماله العسكرية في خراسان في بداية سنة (١٣٠هـ) ، حيث استولى على مرو عاصمة خراسان ، ثم واصلت قواته الزحف على العراق ، أي في قمة انشغال مروان وانهماكه في قمع ثورات الخوارج .

العالم الإسلامي في العصر الأموي



الفتوحات في العصر الأموي

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الفتوحات في العصر الأموي

تمهيد :

الفتوحات قبل العصر الأموي :

المتتبع لتاريخ حركة الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية ، منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ (١١ - ١٣هـ) يدرك أن هذه الفتوحات جاءت استطرادًا وتحت ضغط الظروف ، أو بمعنى آخر يدرك أن المسلمين اضطروا لهذه الفتوحات اضطرارًا ؛ فلم يكن هناك برنامج - معد سلفًا - للفتح أو للصدام المسلح مع الآخرين ؛ لأن نشر الإسلام ، الذي هو غاية المسلمين الأولى لم يكن يتطلب بالضرورة أعمالًا حربية ؛ فالدين إيمان يقر في القلوب ، والقلوب لا يستطيع أحد أن يفرض عليها شيئًا بالقوة ، وكل ما كان يطلبه المسلمون أن يفسح الناس لهم طريق الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، بدون عوائق أو موانع ؛ ولذلك كانت سياسة الرسول ﷺ قائمة على تأمين شبه الجزيرة العربية من أي عدوان خارجي ، ثم دعوة الناس خارج الجزيرة إلى الإسلام بالحسنى .. ولكن الدول صاحبة القوة والسلطان والمهيمنة على حدود شبه الجزيرة العربية - الفرس والروم - لم يعطوا الإسلام هذه الفرصة ، بل كادت له وقاومته فكان لا بد من الصدام .

والقصة مع الفرس والروم ، تبدأ منذ عهد الرسول ﷺ الذي خاطب الفرس في شخص ملكهم كسرى إبرويز الثاني ، وخاطب الروم في شخص إمبراطورهم هرقل ، داعيًا إياهم إلى الإسلام ، وكان ذلك في مطلع العام السابع الهجري ، ضمن سلسلة الرسائل التي بعثها إلى الملوك والأمراء المعاصرين ، سواء خارج شبه الجزيرة العربية أو داخلها [١] . وهذه الرسائل كانت سلمية ، فلم تتضمن أية إشارة إلى القوة أو استخدام السيف لإجبار الناس على اعتناق الإسلام ، بل هي دعوة بالحسنى إلى الإيمان بالله ورسوله ؛ مما يقطع الطريق على كل من يدعي أن الإسلام دين يدعو

---

(١) انظر رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء والمعاصرين في المصادر الآتية : تاريخ اليعقوبي (٧٧/٢) ، وابن حجر - فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٣٢/١) وما بعدها ، (١٢٧/٨) ، وصحيح مسلم بشرح النووي (١٠٧/١٢ ، ١٠٨) ، د . محمد حميد الله - مجموعة الوثائق السياسية (ص٨١) وما بعدها .

المسلمين إلى إشهار السيف لإجبار غير المسلمين على اعتناقه ، لكن رد فعل كل من كسرى فارس وإمبراطور الروم لم يكن إيجابيًا على تلك الرسائل ، وسنحاول تلخيص الموقف مع كل من الفرس والروم ، ابتداء من وصول هذه الرسائل إليهم ، حتى نعرف قصة الفتوحات من بدايتها ، وكيف تطورت في عهد الخلفاء الراشدين ، والعصر الأموي فيما بعد .

المسلمون والفرس :

تجمع المصادر على أن كسرى أبرويز الثاني عندما وصلته رسالة النبي ﷺ غضب غضبًا شديدًا ، بل خرج عن حدود اللياقة والأدب ، ومزّق الرسالة ، وطلب من باذان عامله على اليمن أن يرسل له الرسول ﷺ مكبلًا بالحديد ليحاكمه على جرأته ومخاطبته ملك الملوك ودعوته إياه إلى الإسلام ، ولما صلت هذه الأخبار إلى النبي ﷺ لم يزد على أن دعا عليه فقال : « **مزق الله ملكه** » [(١)] . ولا شك في أن هذا موقف عدائي للغاية من جانب الفرس ، وسوف يتطور ويتجلى أكثر من ذلك في موقفهم من حروب الردة في عهد الصديق ، وتحريضهم القبائل العربية في البحرين على التمرد على سلطان الخلافة ، مما أدى إلى الاشتباك الحربي بين المجاهدين المسلمين ، الذين كانوا يلاحقون المرتدين على ساحل الخليج شمالًا ، بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، ومنذئذ بدأ الصدام بين المسلمين والفرس ، ذلك الصدام الذي لم يتوقف إلا باجتياح جحافل المسلمين الدولة الساسانية برمتها وإدخالها في حوزة الإسلام ، فبعد المصادمات الأولى بين المثنى والفرس ، وصنائعهم من العرب على تخوم الجزيرة العربية والعراق - أدرك أن الجبهة اتسعت أمامه ، وأن الفرس ألقوا بثقلهم في المعارك فأرسل إلى أبي بكر طالبًا المدد ، وأدرك الخليفة ببصيرته خطورة الموقف فرمى تلك الجبهة بأمهر قواده العسكريين : خالد بن الوليد ، الذي استطاع في أقل من عام أن يطوي جنوب العراق كله ، وأن يستقر في الحيرة ؛ عاصمة الإقليم ، ومقر إمارة العرب المناذرة [(٢)] .

في هذه الأثناء كانت جيوش المسلمين قد تحركت إلى الشام - كما سنبين بعد قليل - لمصارعة الروم الذين دأبوا على العدوان ، وتحرج موقف هذه الجيوش ،

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٢/٦٥٤) .

(٢) انظر فتوحات خالد بن الوليد في العراق في عهد أبي بكر في البلاذري - فتوح البلدان (ص٢٩٥) وما بعدها ، والطبري - تاريخ (٣/٣٤٣) وما بعدها .

وأرسل قادتها إلى أبي بكر يشرحون له حقيقة موقفهم واحتياجهم إلى مدد ؛ فاضطر أن يرسل إلى خالد بن الوليد ليسير على عجل من العراق إلى الشام كي يعين الجيوش في موقفها الحرج وينسي الروم وساوس الشيطان - على حد تعبير أبي بكر - فلبى القائد البطل أوامر الصديق واخترق الصحراء من العراق إلى الشام بطريقة لا زالت محل إعجاب العسكريين ولكنه خالد بن الوليد عبقري الحرب ، وسيف اللَّه .

وندع خالدًا وجهاده في الشام الآن لنتابع قصة المسلمين مع الفرس ؛ فبعد رحيل خالد من العراق حشد الفرس جيوشهم لإجلاء المسلمين عن هذه المناطق ، وأدرك المثنى دقة موقفه ، وأن البلاد بدأت تنتقض عليه فقدر موقفه ، وقرر الانسحاب إلى تخوم الجزيرة العربية ، حتى يتجنب الصدام مع الفرس في معركة غير متكافئة ، وأرسل إلى أبي بكر يطلب المدد ، ولما أبطأ عليه الرد ، قرر الذهاب إلى المدينة ليشرح الموقف للخليفة نفسه ، واستخلف على جنده بشير بن الخصاصية ، ولما وصل إلى المدينة وجد الخليفة على فراش المرض ، ولم يلبث أن توفي في جمادى الآخرة سنة (١٣هـ) ، ولكنه كان قد علم بقدوم المثنى وحرج موقف المسلمين بالعراق ، فلم يشغله مرض الموت عن أمرهم ؛ فكان من آخر كلامه لخليفته عمر بن الخطاب : « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا .. فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتني متوفى رسول اللَّه ﷺ وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله ، وباللَّه لو أنِّي أني عن أمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا .. وإن فتح اللَّه على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق ؛ فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وأهل الضراوة منهم والجرأة عليهم »[١] . أي رجل هذا الذي لا يشغله الموت عن إغاثة المسلمين ؟! ولكن بمثل هذه العزائم تتم الأعمال الجليلة ، وتقوم الدول ، وتزدهر الحضارات الإنسانية الراقية .

عمل عمر بوصية أبي بكر ، فكان أول أعماله ندب الناس مع المثنى ، وكان أول من لبى النداء أبو عبيد بن مسعود الثقفي[٢] ؛ فعقد له عمر لواء القيادة ، وسار أبو عبيد إلى العراق ، وحقق مع المثنى بعض الانتصارات في النمارق وكسكر وغيرها[٣] ، لكن

(١) الطبري - تاريخ (٤٤٤/٣) . (٢) المصدر السابق (٤٤٤/٣) .
(٣) المصدر السابق (٤٤٩/٣ ، ٤٥٠) .

الفرس استطاعوا أن يخدعوه ، حين دعوه لعبور النهر ، فعبر رغم نصيحة المسلمين له بعدم العبور ، فترتب على هذا أن هزم الفرس المسلمين هزيمة كبيرة في معركة الجسر سنة (١٣هـ) [١] ، واستشهد أبو عبيد رضي الله عنه ومعظم الجيش ، واستطاع المثنى ببسالة نادرة أن ينقذ من بقي من المسلمين ، وأن يعبر بهم النهر .

كانت هزيمة المسلمين في الجسر أول هزيمة تحل بهم على أيدي الفرس في العراق ، غير أن القائد البطل المثنى بن حارثة قرر أن يحرم الفرس من استثمار هذا النصر ، وأن ينسي المسلمين الهزيمة فاستمد العرب المقيمين في المناطق المجاورة ، فتوافوا إليه بجمع عظيم [٢] ؛ فخاض ضد الفرس معركة البويب [٣] سنة (١٣هـ) ، وانتصر عليهم فيها انتصارًا عظيمًا ، بدَّد ظلال هزيمة الجسر ، ورفع روح المسلمين المعنوية .

ولكن المثنى لم يكن بالقائد الذي تغيب عن باله خطورة الموقف ، وأنه يقارع دولة كبرى ، فلم يغره نصره بالبويب ، وأيقن أن الموقف يحتاج إلى حشد كبير من المسلمين ؛ فكتب إلى عمر بن الخطاب - الذي كان شديد الاهتمام بأمر هذه الجبهة - بحقيقة الموقف ، فأيقن عمر أن الأمر يحتاج إلى عمل كبير ، يحسم به الموقف بين المسلمين والفرس ، وقد أداه هذا إلى أن يعزم على الخروج إلى العراق بنفسه [٤] ، لولا أن أشار عليه كبار الصحابة بالبقاء في المدينة ، فهذا أنفع للمسلمين في العراق وغير العراق ، فاستشارهم في قائد يصلح لهذه المهمة الخطيرة ، فأشاروا عليه بالأسد في عرينه : سعد بن أبي وقاص ؛ فأسند إليه عمر قيادة المسلمين ، وتوجه سعد إلى العراق .

معركة القادسية (١٤هـ) :

سار سعد على رأس جيشه إلى العراق ليحسم الموقف مع الفرس ، وعلم الفرس بقدومه ، وبدأ كل من الفريقين يستعد للقاء الفاصل ، والجميع يعلم خطورة الموقف ، فالمسلمون يعلمون أن كل انتصاراتهم التي تحققت حتى الآن معلقة بمصير المعركة القادمة ، والفرس من جانبهم قد شدت الجبهة انتباههم وتجسم لهم الخطر القادم على دولتهم ، فأعطى يزدجرد الثالث - الذي أصبح آخر ملوك الساسانيين - كل اهتمامه

---

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٣٠٨ ، ٣٠٩) .
(٢) الطبري - تاريخ (٣/٤٦٠) . (٣) البلاذري - المصدر السابق (ص٣١١) .
(٤) البلاذري - المصدر السابق (ص٣١٣) .

لمواجهة المسلمين ، وآية ذلك أنه أسند قيادة المعركة إلى أعظم قواده قاطبة : رستم ؛ لأن مصير الإمبراطورية معلق بنتيجة هذا اللقاء مع المسلمين .

وقبل أن يلتقي المسلمون والفرس في القادسية ، دارت المفاوضات ، وعرض المسلمون عليهم : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال [١] ، ولكن الفرس أبوا إلا القتال ؛ فبدأت المعركة التي أخذت اسمها من المكان الذي دارت فيه - القادسية [٢] - واستمرت ثلاثة أيام ، ومع أن القائد البطل سعد بن أبي وقاص كان مريضًا ، وكان يدير المعركة وهو على فراشه ، فقد انتصر المسلمون انتصارًا ساحقًا ، وهزم الفرس هزيمة منكرة ، وقتل قائدهم الشهير رستم ، وبدِّد شملهم [٣] .

وتعتبر معركة القادسية من المعارك الفاصلة في التاريخ ؛ لأنها قررت مصير العراق العربي نهائيًا ، وبعدها أصبح الطريق مفتوحًا أمام المسلمين إلى المدائن - عاصمة الفرس - فدخلها سعد بن أبي وقاص بعد القادسية بعدة شهور [٤] ، وفر منها يزدجرد الثالث إلى حلوان ، ولكنه بعد دخول سعد المدائن حشد جيشًا في جلولاء ، فوجه إليه سعد جيشًا بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، فأوقع بالفرس هزيمة ماحقة [٥] .

معركة نهاوند سنة (٢١هـ) [٦] :

ذكرنا في صدر هذا الحديث أن الفتوحات الإسلامية جاءت استطرادًا وكل خطوة كانت تؤدي إلى ما بعدها ، ولم يكن في إمكان المسلمين التراجع بعد أن بدأت المعارك ، والدليل على أن المسلمين لم يكونوا راغبين في القتال أن عمر بن الخطاب رفض أن يأذن لسعد بن أبي وقاص في متابعة الفرس والانسياح في بلادهم ، بعد استقراره في المدائن ، واكتفى بأن يؤمِّن المسلمون مواقعهم حول المدائن ، وقال لسعد : « لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدًّا ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » [٧] ؛

---

(١) انظر البلاذري - المصدر السابق (ص٣١٥) .

(٢) تقع على بُعد خمسة عشر فرسخًا ، جنوب الكوفة ، انظر ياقوت - معجم البلدان (٢٩١/٤) .

(٣) انظر تفاصيل القادسية في البلاذري (ص٣١٥) وما بعدها ، والطبري - تاريخ (٤٨٠/٣) وما بعدها .

(٤) البلاذري - المصدر السابق (ص٣٢٢) .

(٥) المصدر السابق (ص٣٢٤) ، والطبري - تاريخ (٢٤/٤) وما بعدها .

(٦) انظر الخريطة رقم (١) في ملحق الخرائط .

(٧) الطبري - تاريخ (٢٨/٤) .

ذلك لأن عمر بعد أن دارت المعارك على جبهتي الفرس والروم تكونت في ذهنه فكرة محددة ؛ وهي أن يمضي بالفتوحات إلى نهاية حدود العراق والشام ، وهذه الفكرة جديدة ، لم تتحدد إلا بعد أن بدأت المعارك ؛ لأن سياسة الرسول ﷺ - كما أشرنا آنفًا - كانت قائمة على تأمين حدود شبه الجزيرة العربية ضد أي عدوان يأتي من جانب الفرس أو الروم ، والدليل على ذلك ما فعله عندما جاءته الأخبار سنة (٩هـ) بأن الروم يجهزون لعدوان على شبه الجزيرة [١] ؛ إذ خرج إلى تبوك لمواجهتهم ، لكنه لما وجدهم قد فروا أمامه هاربين لم يلاحقهم ، واعتبر فرارهم من الميدان هزيمة لهم ، ولو كان لديه نية للغزو خارج شبه الجزيرة العربية ، للحق بالروم داخل الشام ، ولما كان أسهل عليه من أن يهزم جيشًا منسحبًا من الميدان ، ولكنه لم يفعل ذلك واكتفى ببسط سلطانه على مناطق التخوم ، وإزالة سلطان الروم من هناك ، ثم عاد إلى المدينة يرجو أن يهدي اللَّه قيصر وكسرى وأمراء الشام ومصر والعراق إلى الإسلام دون قتال ، وكانت هذه سياسة أبي بكر ؛ « فلما دخل المثنى ابن حارثة الشيباني العراق وأمده الصديق بخالد بن الوليد فانتصر على الفرس ، ثم لما بدأ الفتح في الشام لم يدر بخاطر أبي بكر ولا بخاطر عمر أن يتخطيا حدود الشام والعراق إلى ما وراءهما ، فقد كان بالعراق والشام من قبائل العرب التي نزحت من شبه الجزيرة ، وأقامت مملكة الحيرة ومملكة غسان من ينتمون إلى المسلمين بأوثق الصلة ، فمن حق المسلمين أن يطمعوا في مؤازرتهم وانضمامهم إليهم ، فأما ما وراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم فلم يكن للخليفتين الأولين مطمع في غزوه أو فتحه » [٢] .

تطور الموقف :

نحن هنا لا نؤرخ للفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين ، ولكننا نمهد للفتوحات التي تمت في العصر الأموي ، وما يهمنا هنا هو رصد حركة الفتوحات - بإيجاز شديد - منذ بدايتها لنعرف التطور الذي طرأ عليها ، من سياسة تأمين حدود شبه الجزيرة العربية في عهد الرسول ﷺ إلى أن طرأت فكرة فتح العراق والشام بعد أن بدأت المعارك على الجبهتين مع الفرس والروم . غير أن هذه الفكرة نفسها تطورت بحكم الظروف - التي أحيانًا ما تكون أقوى من الرجال - فعمر بن الخطاب كان

(١) انظر سبب غزوة تبوك في الطبري - المصدر السابق (٣/ ١٠٠) وما بعدها .
(٢) د . محمد حسين هيكل - الفاروق عمر (٢/ ٥) .

يود أن يقف بالفتوحات عند حدود العراق وآية ذلك رفضه أن ينساح المسلمون في أرض الفرس بعد استقرارهم في المدائن - كما أشرنا آنفًا - ويبدو أن عمر كان يتوقع أن الفرس بعد هذه الهزائم المتلاحقة التي منوا بها ، سوف يكفون عن المسلمين ، ويدعونهم وشأنهم خصوصًا وأن المناطق التي فتحها المسلمون حتى الآن لا تدخل في صميم الوطن الفارسي ، بل هي مناطق في جملتها عربية وسكانها من العرب ؛ لذلك قرر عمر عدم ملاحقتهم ، كي يتفرغ القادة المسلمون لتنظيم المناطق التي فتحوها طبقًا لمنهج الإسلام ، ولإشعار السكان بفوائد الإسلام لهم باعتباره دينًا ونظام حياة ، يحمل للناس العدل والمساواة والحرية ، وأنه جاء ليخلصهم من الظلم والاستغلال والاستعباد ، لكن هذه السياسة التي عزم عمر على اتباعها ، لم يدركها الفرس ، بل خيِّل إليهم أن إمساك المسلمين عنهم ، وعدم تعقبهم هو خوف منهم ، فأطمعهم ذلك فيهم وأغراهم بمناوشتهم وكان أهل الأهواز - بقيادة الهرمزان القائد الذي هرب من القادسية - أسبق من غيرهم إلى المناوشة ؛ فكانوا لذلك أول من اصطدم بالمسلمين ، فدارت الدائرة عليهم ، وكانت هزيمتهم طليعة ما تلاها من هزائم الفرس واندحارهم [١] .

وصلت أخبار انتقاض أهل الأهواز وغيرهم إلى عمر ؛ فتحيَّر في الأمر ، وظن أن ذلك ربما يرجع إلى خلل في السياسة التي رسمها أبو بكر ، وسار عليها هو في البلاد المفتوحة ، تلك السياسة التي تقوم على الإحسان إلى السكان ، والعمل على إصلاح أحوالهم ، والوفاء لهم بكل العهود والمواثيق فهل حاد المسلمون عن هذه السياسة ؟

دعا عمر وفدًا من أولي الرأي والبصر من المسلمين ، ليعرف منهم علة هذه الانتقاضات وسألهم قائلًا : « لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة ، فلهذا ينتقضون بكم؟ قالوا : ما نعلم إلا وفاء ، قال : فكيف هذا ؟ فلم يشفه أحد منهم ، إلا أن الأحنف بن قيس قال له : يا أمير المؤمنين ، إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد ، وإن ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أنَّا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح في بلادهم ونزيل ملكهم ؛ فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس » [٢] . كان

(١) المرجع السابق (٦/٢) .

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٤٩/٢ ، ٥٥٠) ، والطبري - تاريخ (٨٩/٤) .

هذا الذي قاله الأحنف هو علة الانتقاض ، والسبب الحقيقي في المقاومة ، ولذلك اقتنع عمر بوجهة نظر الأحنف ، وقال له : « صدقتني واللّه وشرحت لي الأمر عن حقه » [١] .

ومما زاد عمر اقتناعًا بما قاله الأحنف أنه جاءته الأنباء بعد عودة الوفد مباشرة باجتماع الفرس في نهاوند ؛ لأن جميع أمراء المقاطعات الفارسية ، كانوا قد كاتبوا يزدجرد بعد فراره من حلوان يحثونه على المقاومة [٢] ، بل وعلى الهجوم على جزيرة العرب نفسها ، يروي الطبري عن حمزة بن المغيرة بن شعبة ، عن أبي حطمة الثقفي - وكان قد أدرك ذلك - أنه قال : إن أمراء فارس لما كاتبوا يزدجرد الثالث قالوا : « إن محمدًا الذي جاء العرب بالدين لم يغرض غرضنا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده ، فلم يغرض غرض فارس ، إلا في غارة تعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد ، ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض ، حتى تناولكم ، وانتقص السواد والأهواز وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، فقد أخرب بيت مملكتكم ، واقتحم بلاد ملككم ، وليس بمنته حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده ، وتقلعوا هذين المصرين - البصرة والكوفة - ثم تشغلوه في بلاده وقراره ، وتعاهدوا وتعاقدوا ، وكتبوا بينهم على ذلك كتابًا ، وتمالؤوا عليه » [٣] .

تجمعت هذه الأخبار عند عمر فلم يعد لديه شك في أن صدامًا وشيكًا سيقع مع الفرس ، فكان لا بد من الاستعداد ، والعدول عن السياسة التي كان قد عزم على اتباعها ، فأعد جيشًا لمنازلة الفرس ، وأسند قيادته إلى النعمان بن مقرن ، والتقى الجيشان في نهاوند [٤] ، ومع أن أعداد الفرس كانت تفوق أعداد المسلمين بكثير ، إلا أن المسلمين انتصروا انتصارًا باهرًا ، عبر عنه المؤرخون في إيجاز شديد بأنه فتح الفتوح ، وأن المعركة كانت فاصلة ، فقد قررت مصير الإمبراطورية الفارسية نهائيًا ، ولم تقم بعدها للفرس قائمة ، ولم تجتمع لهم كلمة ، يقول الطبري : « وافتتحت

(١) المصدران السابقان على الترتيب ونفس الأجزاء والصفحات .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان (ص٣٧١) ، وابن الأثير (٣/٥) .

(٣) تاريخ الطبري (٤/١٢٢) .

(٤) انظر معركة نهاوند ، البلاذري - فتوح البلدان (ص ٣٧١) وما بعدها ، والطبري - تاريخ (٤/١١٤) وما بعدها ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٥) وما بعدها .

نهاوند فلم يكن للأعاجم بعد ذلك جماعاة » [١] .

الانسياح في بلاد الفرس :

لم يكتف عمر هذه المرة بالانتصار الباهر الذي حققه المسلمون في نهاوند ، وإنما عقد العزم على القضاء تمامًا على التهديد الفارسي للدعوة والدولة الإسلامية ، فأصدر أمره إلى المجاهدين المسلمين بالانسياح في المقاطعات الفارسية ، لتحقيق هذا الهدف ، وتحرير الشعب الفارسي من الوثنية والظلم والاستعباد ، يقول الطبري : « وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند ، فكان ذلك سبب إذن عمر لهم في الانسياح » [٢] ، فالفرس بكثرة انتقاضهم وتمردهم ، هم الذين حملوا عمر على تغيير سياسته والتصميم على إزالة دولتهم من الوجود . والحق أن هزيمة الفرس في نهاوند كانت أشد وقعًا في نفوسهم من جميع الهزائم التي لحقت بهم من قبل ، سواء في القادسية ، أو في جلولاء ؛ ولذلك كانت عبارات المؤرخين دقيقة في تصويرها ، فهي بالنسبة للمسلمين فتح الفتوح ، وبالنسبة للفرس كانت القاصمة ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ولم تجتمع لهم كلمة .

وآية ذلك : أن ملكهم يزدجرد الثالث أخذ يهيم على وجهه في البلاد بعدها ، ولم يستقر له قرار ، واضطر أن يعبر نهر جيحون ملتمسًا النصرة عند خاقان الترك وملك الصين ، ولكن ذلك لم يجده نفعًا ؛ فبلاده أصبحت مفتوحة أمام المسلمين ، وكان لا بد من استكمال فتحها ، وإزالة ما تبقى من سلطان آل ساسان ، والقضاء على المجوسية وفتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية في هذه البلاد ، التي سيصبح لها في تاريخ الإسلام شأن عظيم ، وصلت عمر بن الخطاب في المدينة بشائر النصر العظيم في نهاوند ، فأعد عددًا من القادة المسلمين ، وأمرهم بالانسياح والتوغل في أعماق الإمبراطورية فبعث بلواء إلى نعيم بن مقرن وأمره بقصد همذان ، فإذا فتحها سار إلى ما وراء ذلك إلى خراسان [٣] ، وبعث عتبة بن فرقد وبكير بن عبد الله إلى أذربيجان ، يدخلها أحدهما من حلوان والآخر من الموصل ، وبعث عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى أصبهان [٤] ، وسراقة بن عمرو إلى باب الأبواب على بحر الخزر - بحر قزوين - وفي مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة ، ثم بعث الأحنف بن قيس إلى خراسان ، وعثمان بن أبي العاص الثقفي إلى اصطخر [٥] ، وسارية بن زنيم

---

(١) تاريخ الطبري (١١٦/٤) . (٢) تاريخ الطبري (٨٩/٤) .

(٣) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٨/٣) . (٤) المصدر السابق (١٨/٣) .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٥٢) .

إلى فساوداربجرد ، وعاصم بن عمرو التميمي إلى سجستان ، وسهيل بن عدي الخزرجي إلى كرمان ، والحكم بن عمرو التغلبي إلى مكران [١] .

وهكذا غطت جيوش الإسلام المقاطعات الفارسية بأكملها ، واللافت للنظر هنا أن أمراء تلك المقاطعات الذين كانوا قد كاتبوا يزدجرد الثالث يحثونه على المقاومة بعد فتح المدائن - قد تغير موقفهم بعد هزيمة نهاوند ، وتخلوا عن ملكهم ، وعن فكرة الدفاع عن الإمبراطورية ، وبدأ كل منهم يفكر في نفسه ومستقبله ؛ ولذلك أسرع معظمهم إلى لقاء القادة المسلمين طالبين الصلح نزولًا على شروطهم ، ولم تحدث مقاومة تذكر ، ولم نجد معارك كالقادسية أو جلولاء أو نهاوند ، ويبدو أن هؤلاء الأمراء كانوا على يقين من عدم جدوى المقاومة ، فسلموا بالأمر الواقع .

ومع أن هذه كانت سياسة عملية ، وفيها مصلحتهم ، خصوصًا بعد أن لمسوا ورأوا رأي العين أن الحكم الإسلامي أكثر إنصافًا ومعدلة ، وأقل إرهاقًا من حكم الأكاسرة [٢] مع كل هذا إلا أنهم لم يستكينوا بشكل نهائي للحكم الإسلامي ؛ بل تكرر انتقاضهم ونقضهم للمعاهدات ، ولم يكن انتقاضهم راجعًا إلى ظلم وقع عليهم من المسلمين ، ولكنه الشعور القومي الذي كان لديهم في ذلك الوقت قويًا وغلابًا ، وربما كان عند الكثير منهم فوق المنافع والمصالح .

ولم يغب هذا عن فكر عمر بن الخطاب ، ولم يفته « أن أمة عريقة في الحضارة والمجد كأمة الفرس ، لن تذعن من بادئ الأمر لسلطان الأجانب عنها ، فأقام المسالح في شتى أرجائها ، واحتاط بذلك لكل انتقاض يمكن أن تقوم به طائفة من أبنائها ، وقد كان عمر في هذا الأمر - كما كان في كثير غيره - حصيفًا بعيد النظر ؛ فالشعور بالكرامة أقوى أثرًا في النفوس من كل شعور ، ولن يستطيع كبحه إلا قوة تضطر الثائر لمهانة نزلت به أن يختار بين كرامته وحياته ، وتجعل الشعور بالكرامة وغريزة الحياة يقفان وجهًا لوجه ، وقد كان لهذه الوقفة أثر بعيد في حياة الشعب الفارسي أدت به إلى أن يدين بالإسلام » [٣] .

المسلمون والروم :

كان أول اتصال رسمي يتم بين المسلمين والروم هو تلك الرسالة التي أرسلها

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن انسياح المسلمين في بلاد فارس بعد نهاوند . انظر الطبري - تاريخ (١٤٦/٤) وما بعدها ، وابن الأثير - الكامل في تاريخ (٢٢/٣) وما بعدها .

(٢) د . هيكل - الفاروق عمر (٥٥/٢) . (٣) المرجع السابق (٥٦/٢) .

النبي ﷺ إلى هرقل في مطلع العام السابع الهجري - وكما أشرنا آنفًا - فقد كانت دعوة سلمية من الرسول ﷺ إلى هرقل ليدخل في الإسلام هو وقومه حيث جاءت خالية من أية إشارة لاستخدام القوة أو التهديد بها ، وسواء رد هرقل على هذه الرسالة كما يذكر اليعقوبي (١) أو لم يرد ، فإن تطور الأحداث فيما بعد أثبت أن الروم قد ناصبوا المسلمين العداء وأعلنوا الحرب عليهم ، ومن الأدلة على ذلك : تدخلهم في غزوة مؤتة سنة (٨هـ) فسرية مؤتة أرسلها الرسول ﷺ لتأديب العرب القاطنين على تخوم الجزيرة العربية والشام ، الذين اعتدوا على الحارث بن عمير الأزدي ، مبعوث النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وقتلوه (٢) ، فكان لا بد من تأديبهم على هذه الجريمة الخطيرة ، فلما وصلت الحملة إلى مؤتة وجدت الروم قد ألقوا بكل ثقلهم في المعركة ولما بدأ القتال وضح التفاوت في العدد وأن كفة الروم وحلفائهم راجحة ، واستشهد قواد المسلمين الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وتسلم القيادة خالد بن الوليد ، واستطاع إنقاذ الجيش الإسلامي بصعوبة والعودة به إلى المدينة .

وخرج المسلمون من هذه المعركة بنتيجة رئيسية وهي أن الروم أعلنوا الحرب على الإسلام ؛ لذلك اهتم الرسول ﷺ أو قل : زاد اهتمامه بالحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية ، وأخذ يرصد حركات الروم هناك ، فلما جاءت الأنباء سنة (٩هـ) بأنهم يعدون العدة للعدوان على المسلمين أعد جيشًا تحرك به إلى تبوك ، يقول ابن سعد : « بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء ، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج ، وأعلمهم المكان الذي يريد ؛ ليتأهبوا لذلك ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وذلك في حر شديد (٣) ، ووصل رسول الله ﷺ إلى تبوك على رأس أكبر جيش قاده في حياته - ثلاثين ألفًا - فوجد الروم قد انسحبوا من الميدان ، فاكتفى بذلك - كما أشرنا آنفًا - ولم يلاحقهم إلى داخل الشام وهذا أكبر دليل على أن الإسلام لا يعادي أحدًا أو يبدؤه

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٧٧/٢) .

(٢) انظر ابن سعد - الطبقات الكبرى (١٢٨/٢) .

(٣) المصدر السابق (١٦٥/٢) ، وانظر عن غزوة تبوك وأسبابها : الطبري (١٤٢/٣) وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي (٦٧/٢) .

بقتال ، واكتفى النبي ﷺ بفرار الروم من ساحة القتال وبسط سلطان الإسلام على المقاطعات الواقعة على أطراف الحجاز والشام ، مثل : أيلة ، وأذرح ، والجرباء ، ومقنا ، ودومة الجندل [١] ، وأعطى الرسول ﷺ أمراء هذه المقاطعات معاهدات أمان على أنفسهم وأموالهم وأديانهم [٢] ، ولم يكره أحدًا منهم على الدخول في الإسلام ، وهذا دليل عملي ساطع على أن الإسلام لا يفرض على الناس بالقوة كما يدعي أعداؤه ؛ إذ لو كان في نية الرسول ﷺ فرض الإسلام على أحد بالقوة لما كان أسهل منه بالنسبة لهذه المجموعات الصغيرة والضعيفة والتي استسلمت دون قتال ، بعد أن هرب جيش هرقل من أمام الرسول ﷺ .

وكان ما صنعه الرسول ﷺ وهو في تبوك أكبر ضربة لهيبة الروم ونفوذهم ؛ حيث دانت تلك المقاطعات - التي كانت خاضعة لهم - للمسلمين ، وظل الرسول ﷺ على حذره تجاه الروم ، فكان آخر سراياه بعث أسامة بن زيد إلى الشام ، حيث أمره « أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين » [٣] ، وإذا كان هذا البعث لم يمض لوجهته حينئذ لمرض الرسول ﷺ ، فقد كان أول أعمال أبي بكر - بعد توليه الخلافة - إنفاذ بعث أسامة ؛ لأنه فهم هدف الرسول منه وهو أن يلفت نظرهم إلى أن أكبر الأخطار التي تتهددهم ستأتي من جانب الروم ، فأنفذ أبو بكر بعث أسامة الذي نجح في تأدية مهمته نجاحًا عظيمًا .

إلى هنا نستطيع أن نقول : إن سياسة المسلمين تجاه الروم كانت واضحة ، وتقوم على تأمين حدودهم معهم ، ضد أي عدوان منهم ، أو ممن يدور في فلكهم من القبائل العربية ، ولم يكن للمسلمين خطة للاشتباك مع الروم ، إذا تركهم الروم وشأنهم .

وآية ذلك أن أبا بكر الصديق عندما أرسل جيوشه لقتال المرتدين في شبه الجزيرة العربية عقد لواء لخالد بن سعيد بن العاص ، وأمره أن يعسكر بجيشه في تيماء وهي من مناطق التخوم ، وأمره ألا يقاتل إلا من يقاتله ، وألا يبرح تيماء [٤] .

ولعل أبا بكر قصد من ذلك أن يكون خالد وجنده احتياطيًا للقوات المحاربة في

---

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٧١) .

(٢) انظر نص معاهدة الرسول ﷺ ليُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة في سيرة ابن هشام (١٨١/٤) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص٩٢) ، وتاريخ اليعقوبي (٦٨/٢) .

(٣) الطبري - تاريخ (٣٨٤/٣) .

(٤) انظر الطبري - تاريخ (٣٨٨/٣) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٠٢/٢) .

جهات أخرى لينجدها عند الضرورة ، ثم ليراقب تحركات الروم ؛ لئلا يدهموا المسلمين على غرَّة في ذلك الوقت العصيب الذي ارتد فيه معظم العرب ، وتدور فيه المعارك معهم في جهات عديدة ، لكن الروم عظم عليهم مقام خالد بن سعيد ، فاستنفروا له العرب من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان [١] ، واستدرجوه إلى داخل الشام ، حتى إذا كان على مقربة من مرج الصفر - إلى الشرق من بحيرة طبرية - أوقعوا به هزيمة ساحقة وبددوا معظم جيشه واستشهد ابنه سعيد بن خالد ، وعاد هو منسحبًا بمن بقي معه من الجيش [٢] سنة (١٢هـ) .

الروم يتعجلون الصدام مع المسلمين :

وصلت أخبار هزيمة خالد بن سعيد إلى أبي بكر ، وهو مشغول بمتابعة قمع الردة في شرق وجنوب الجزيرة العربية ، فلم تشغله هذه الأحداث الجسام عن أمر الروم ، وأدرك أنهم مصممون على محاربة المسلمين ، ولعل انشغال أبي بكر بأمر الردة أغراهم وجعلهم يتعجلون الصدام ، ولكن الصديق لم يكن بالرجل الذي يغفل عن هذا الخطر ، فهو السباق دائمًا إلى اتخاذ زمام المبادرة واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، فقرر أن يتصدَّى للروم قبل أن يهاجموه . ولقد عبر الطبري في كلمة وجيزة ولكنها بليغة عن موقف أبي بكر عندما وصلته أنباء هزيمة خالد ابن سعيد حيث قال : « عند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره » [٣] .

جمع أبو بكر كبار الصحابة على عجل واستشارهم في أمر الروم ، وبعد دراسة الموقف من جميع جوانبه ، وتبادل الآراء ، قرَّ رأيهم على المواجهة بكل حسم وقوة ، طالما أن الروم قد تعجلوا الصدام . وعقد أبو بكر لأربعة من كبار القادة المسلمين ، لكل واحد لواء على جيش ووجههم إلى الشام ، أبو عبيدة بن الجراح إلى حمص ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، وشرحبيل ابن حسنة إلى الأردن [٤] .

وانطلقت جيوش أبي بكر إلى الشام بكل العزم والتصميم على تلقين الروم درسًا لن ينسوه أبدًا ، وأوصى الخليفة قواده بوصايا هي آيات من آداب الحرب الإسلامية .

---

(١) الطبري - تاريخ (٣٨٨/٣) ، وابن الأثير - الكامل في تاريخ (٤٠٢/٢) .
(٢) الطبري - تاريخ (٣٨٩/٣) ، والدكتور هيكل - الصديق أبو بكر (ص٢٤٥) .
(٣) تاريخ الطبري (٣٨٩/٣) . (٤) الطبري - تاريخ (٣٨٧/٣) .

وليس من شأننا هنا تفصيل أمر المعارك ، التي دارت بين هذه الجيوش وبين الروم ، سواء في عهد أبي بكر أو عهد عمر وبقية الراشدين ، وإنما الذي نريد أن نقوله هنا هو أن الاشتباكات التي دارت بين المسلمين والروم على جبهة الشام ومصر ، مثل تلك التي دارت بين المسلمين والفرس في العراق وفارس ، كل منها لم يكن بتخطيط سابق من المسلمين ، وإنما كان بتداعي الظروف ؛ إذ اضطر المسلمون لخوضها لدفع العدوان ، وإفساح الطريق لنشر دعوتهم في حرية وأمان . وكما انتهت المعارك بين المسلمين والفرس بالقضاء على الدولة الساسانية ، وضم جميع أراضيها للدولة الإسلامية . وفرار يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس ، ومقتله في نهاية الأمر في خلافة عثمان بن عفان سنة (٣١هـ) . فكذلك استطاع المسلمون دحر الروم والاستيلاء على أهم وأغنى أقاليمهم في الشرق : الشام ومصر ، واضطر هرقل أن يودع المنطقة الوداع الأخير ، وكلماته تقطر أسى وحسرة ، حيث قال : « عليك السلام يا سورية سلامًا لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا » [١] .

محاولات الروم العودة إلى الشام ومصر :

إذا كان هرقل قد ودع سورية الوداع الأخير ، وأدرك ألا أمل في العودة إلى هذه البلاد مرة أخرى ؛ فإن خلفاء هرقل قد راودهم الأمل في إمكانية عودة الشام ومصر إلى حظيرة الدولة البيزنطية ، وبصفة خاصة حفيده قنسطانز الثاني (٦٤١ - ٦٦٨م) الذي اعتلى عرش الإمبراطورية بعد موت أبيه قسطنطين الثالث ، في نفس العام الذي مات فيه جده هرقل ، وكان قنسطانز الثاني عند اعتلائه عرش الإمبراطورية شابًا ممتلئًا حيوية وطموحًا وقد راودته الآمال في استرداد الشام ومصر من المسلمين ، ولعله كان مدفوعًا في ذلك بتجربة جده هرقل مع الفرس [٢] ، فأعد حملة بحرية وأسند قيادتها

---

(١) المصدر السابق (٦٠٣/٣) .

(٢) فقبل اعتلاء هرقل عرش الإمبراطورية سنة (٦١٠م) كان الفرس قد اكتسحوا أقاليمها في الشرق ، وحتى بعد توليه مضى الفرس في هجومهم ووصلت جيوشهم إلى الإسكندرية سنة (٦١٦م) . ولكن اعتلاء هرقل العرش بعث فيها روحًا جديدة ، واستطاع أن يقود سفينتها بحذق ومهارة ، وقرر تأجيل الاشتباك مع الفرس إلى أن يعيد بناء الجيش ، فلما أحس بقدرته على مهاجمتهم بدأ ذلك سنة (٦٢٢م) ، واستطاع أن يهزمهم وأن يحول انتصاراتهم إلى هزائم ، بل غزاهم في عقر دارهم ، واضطرهم إلى توقيع معاهدة صلح معهم كانت في صالحه ، فاسترد ممتلكاته من أيديهم ، ثم أعاد الصليب المقدس ، الذي كانوا أخذوه من فلسطين ، ولكنه لم يهنأ بهذه الانتصارات ، فقد استولى المسلمون في أقل من عشر سنوات على كل ما كان قد استرده من الفرس ، فأراد حفيده أن يكرر المحاولة مع المسلمين ولكنه باء بالفشل .

لقائده مانويل [1] لمهاجمة الإسكندرية سنة (٢٥هـ) . ومع أن الحملة نجحت في النزول إلى الإسكندرية ، بل والتوغل منها جنوبًا نحو الفسطاط ، إلا أن عمرو ابن العاص - القائد البطل فاتح مصر - استطاع أن يطرد الروم منها مرة أخرى إلى الأبد . والجدير بالذكر هنا أن المصريين لم يتجاوبوا مع الروم في محاولتهم العودة إلى مصر ، فلم ينضموا إلى جيشهم الذي نزل الإسكندرية [2] . وهذا أكبر دليل على أن المصريين وجدوا الحكم الإسلامي أفضل لهم من حكم الروم .

إنشاء الأسطول الإسلامي وموقعة ذات الصواري :

جاءت حملة الروم البحرية على الإسكندرية سنة (٢٥هـ) لتؤكد وجهة نظر معاوية بن أبي سفيان - والي الشام وقتذاك - في ضرورة أن يكون للمسلمين قوة بحرية تدافع عن شواطئهم في الشام ومصر ضد هجمات الأسطول البيزنطي . وقد آمن معاوية بهذه الفكرة منذ اشتراكه في فتوحات الشام وبصفة خاصة المدن الساحلية ، مثل : صور ، وعكا ، وقيسارية ، التي كان الأسطول البيزنطي يمدها من البحر بالمؤن والعتاد والرجال ، ويجعلها تصمد في مقاومة المسلمين ، ولكن على رغم كل هذه الصعوبات فقد أتم فتحها ، غير أن ما عاناه في ذلك عمق لديه الإحساس بأهمية القوة البحرية للمسلمين ؛ فعرض الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب ، إلا أن عمر رفض أن يأذن له في إنشاء أسطول ومنعه من الغزو في البحر [3] ؛ لأن سياسة عمر في تلك المرحلة كانت تتسم بالحذر والخوف على المسلمين من المغامرات التي تحفها المخاطر .

وربما كان عمر مدفوعًا في سياسته تلك بتجارب غير ناجحة في مجال الغزو البحري ، كادت أن تسبب للمسلمين بعض الكوارث ، من ذلك : محاولة العلاء بن الحضرمي غزو فارس من البحرين ، حيث أخذ الفرس الطريق عليه ، وأحاطوا به ، وكاد يهلك هو وجيشه ، لولا أن تدارك عمر الموقف وكتب إلى عتبة بن غزوان بالبصرة بإنقاذه [4] ، ومن تلك التجارب التي خوفت عمر من ركوب المسلمين البحر : أنه كان قد بعث حملة بحرية تأديبية إلى الحبشة ، بقيادة علقمة بن مجزز المدلجي ؛ لأن الحبشة كانت قد اعتدت على أطراف المسلمين ، كما يقول الطبري : « ولكن المسلمين أصيبوا فجعل عمر على نفسه ألا يحمل في البحر أحدًا أبدًا » [5] .

---

(١) انظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١١٩) ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٢٦٠) .
(٢) ابن عبد الحكم - المصدر السابق (ص ١١٩) . (٣) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص١٨١) .
(٤) انظر الطبري - تاريخ (٧٩/٤ - ٨٣) . (٥) المصدر السابق (١١٢/٤) .

ومما زاد عمر اقتناعًا بوجهة نظره في الاحتياط من ركوب البحر رأي عمرو بن العاص عندما استشاره فيما يعرضه معاوية من بناء أسطول بحري ، فقد جاء رأي عمرو معززًا لوجهة نظر الخليفة (١) ، لكل ذلك لم تنجح مساعي معاوية لدى عمر ، حتي بعد أن جسم له خطر الأسطول البيزنطي على شواطئ المسلمين ، حين قال له : يا أمير المؤمنين ، « إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم » (٢) ، ومع تأثر عمر بكلام معاوية هذا ، إلا أنه كتب إليه بعد أن جاءه رد عمرو بن العاص قائلًا : « لا والذي بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا » (٣) .

وإزاء هذا الإصرار من الخليفة على الرفض ، لم يكن لمعاوية بد من أن يؤجل مشروعه إلى أن تحين له الفرصة المناسبة ، واكتفى في هذه المرحلة بتأمين سلامة شواطئ الشام وتعزيزها بالمقاتلين (٤) . لتكون قادرة على صد هجمات الأسطول البيزنطي .

فلما توفي عمر ﷺ في آخر عام (٢٣هـ) وتولى الخلافة عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥هـ) أحيا معاوية مشروعه وعزز موقفه هجوم الروم على الإسكندرية ، فطلب من عثمان أن يأذن له بالغزو في البحر ، وفي غزو جزيرة قبرس بالذات ؛ لقربها من شواطئ المسلمين ، وتهديدها الدائم لها ، وهي القرية التي كان أشار إليها وقصدها في حديثه إلى عمر ، ولكن عثمان لم يكن أقل حرصًا من عمر على سلامة المسلمين ، فلم يأذن لمعاوية في ركوب البحر من أول الأمر ، وإنما رد عليه قائلًا : « قد شهدت ما رد عليك عمر رضي الله عنه حين استأمرته في غزو البحر » (٥) . ومعنى ذلك : أن عثمان أراد أن يخبر معاوية أن رأيه في ذلك مثل رأي عمر ، ولكن معاوية لم ييأس وواصل إلحاحه عليه ، تحت هذا الإلحاح المستمر كتب إليه عثمان : « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونًا لك وإلا فلا » (٦) .

ففرح بإذن عثمان له وبدأ في إنشاء الأسطول ، فلما قوي بدأ في غزو جزر الروم ، فركب البحر كما يقول البلاذري : « من عكا ومعه مراكب كثيرة وحمل امرأته فاختة بنت قريظة ... وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان

---

(١) انظر كتاب عمر إلى عمرو بن العاص برأيه في البحر ورد عمرو عليه في الطبري - المصدر السابق (٤/٢٥٨) .
(٢) الطبري - تاريخ (٤/٢٥٨) .
(٣) المصدر السابق (٤/٢٥٩) .
(٤) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص١٩٥) .
(٥) المصدر السابق (ص١٨١) .
(٦) المصدر نفسه (ص١٨١) .

الأنصارية »[١] ، وكانت أول جزيرة يغزوها معاوية من جزر البحر المتوسط في حملته هذه هي جزيرة قبرس ، فنزلها سنة (٢٨هـ) أو (٢٩هـ) كما يقول البلاذري : فبعث إليهم أركونها يطلب الصلح ، وقد أذعن أهلها فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار ، يؤدونها كل عام ، واشترط عليهم شروطًا أخرى ، منها : أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم ، وأن يكونوا على الحياد فلا يقاتلون المسلمين ولا يقاتلون معهم[٢] ، ولا يعينون الروم عليهم .

حقق معاوية هدفه الذي سعى إليه طويلًا ، وجاءت تجربته الأولى ناجحة ومشجعة فها هو ذا الأسطول الإسلامي أصبح حقيقة واقعة ، وقوة استطاعت أن تفرض شروطها على واحدة من أهم قواعد الأسطول البيزنطي في البحر المتوسط ، وهي جزيرة قبرس .

الغزوة الثانية لقبرس وضمها للممتلكات الإسلامية :

كانت قبرس - كما رأينا - محور مكاتبات معاوية - أثناء ولايته على الشام - مع الخليفتين عمر وعثمان ، وكان واضحًا من اهتمام معاوية بهذه الجزيرة القريبة من سواحل المسلمين ، أنه يريد أن يضعها تحت مراقبته ، لأهميتها الاستراتيجية ، وأن يحرم البيزنطيين من الاعتماد على هذا المعقل القريب من أرض الإسلام[٣] ؛ ولذلك اكتفى في غزوته الأولى بفرض شروطه - التي أشرنا إليها آنفًا - والتي كان من أهمها ألا يعاون أهل قبرس البيزنطيين على غزو المسلمين ، ولكن القبارسة لم يفوا بهذا الشرط ، فقد نقضوه ، وأمدوا الروم وأعانوهم على العدوان على المسلمين ، فقرر معاوية أن يلقنهم درسًا قاسيًا ، فهو قد أثبت حسن نواياه نحوهم ، ولكنهم نكثوا ، فصمم على الاستيلاء على الجزيرة ، وضمها للمتلكات الإسلامية وحشد المقاتلين المسلمين فيها ، يقول البلاذري : « فلما كانت سنة اثنتين وثلاثين أعانوا - أي : أهل قبرس - الروم على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة ثلاثة وثلاثين في خمسمائة مركب ، ففتح قبرس عنوة ، فقتل وسبى ، ثم أقرهم على صلحهم ، وبعث إليها باثني عشر ألفًا كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى فيها مدينة »[٤] .

(١، ٢) المصدر السابق (ص١٨١) .

(٣) د. إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ٨٨) .

(٤) فتوح البلدان (ص١٨٢) .

موقعة ذات الصواري :

رغم فشل محاولة الإمبراطور قنسطانز الثاني في استرداد مصر ، فقد قام بمحاولة أخرى لمهاجمة سواحل الشام ، وأعد لذلك أسطولًا ضخمًا قاده بنفسه ، ولكن لسوء حظه كان الأسطول الإسلامي الذي جاهد معاوية في إنشائه قد أصبح قوة بحرية هائلة ، فما أن علم المسلمون بتحرك الأسطول البيزنطي إلى سواحل الشام وعلى رأسه الإمبراطور نفسه ، حتى بادروا بحشد أسطولهم ، الذي تعاونت مصر مع الشام في إعداده ، وأسندت قيادته إلى عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح والي مصر ، وتحرك الأسطول الإسلامي إلى ساحل ليكيا عند فوينكس (phoenix) وبالقرب من هذا المكان دارت المعركة البحرية الشهيرة ، التي تسمى في المصادر بمعركة ذات الصواري (٣٤هـ) ، والتي انتهت بفوز ساحق للأسطول الإسلامي ، وهزيمة منكرة للأسطول البيزنطي ، ولم ينج الإمبراطور نفسه من الموت إلا بأعجوبة [(١)] .

وكانت النتيجة التي أسفرت عنها هذه المعركة بالغة الأهمية في قصة العلاقات بين المسلمين والروم ، بل تعتبر من وجهة نظر بعض الباحثين من المعارك الحاسمة التي غيَّرت مجرى تاريخ البحر المتوسط ، وقضت على وصفه ببحر الروم ، وجعلته حريًّا بأن يدعى بحر المسلمين . « وتجلت أولى النتائج المهمة التي ترتبت على هذه المعركة الفاصلة في تخلي الإمبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد التي استولوا عليها في شرق البحر المتوسط ، واستعادة ما كان لهم من سالف النفوذ والسلطان هناك ، وأدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة ضرب من الأحلام التي فات أوانها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائيًّا على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، فجنحوا إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم إلى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم ، وحمايتها من التردي نهائيًّا في أيدي المسلمين » [(٢)] .

(١) انظر تفاصيل هذه المعركة في ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص١٢٩) ، والطبري - تاريخ (٤/ ٢٨٨) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (١١٧/٣) . وبينما تذكر معظم المصادر أن المعركة دارت بالقرب من سواحل آسيا الصغرى ، ترى الدكتورة سعاد ماهر في كتابها البحرية في مصر الإسلامية (ص٨٤) أنها وقعت بالقرب من ثغر فونيكه غربي الإسكندرية ، ولكن الأرجح أنها وقعت قرب ساحل آسيا الصغرى . انظر د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ١٠٢ ، ١٠٣) .

(٢) انظر د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص١٠٥ - ١٠٧) ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور - أوربا العصور الوسطى (١٣٣/١) ، والدكتورة سعاد ماهر - البحرية في مصر الإسلامية (ص٨٤) .

وبعد ؛ فإن التمهيد عن الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين ، بين يدي الحديث عن الفتوحات في العصر الأموي قد طال بعض الشيء ولكنني قصدت من ذلك أن أبيِّن كيف بدأت الفتوحات الإسلامية في عهد الراشدين من ناحية ، وأين انتهت من ناحية ثانية ؛ حتى نعرف من أين بدأ الأمويون . فالدولة الإسلامية في عهد الراشدين أصبحت تضم - إضافة إلى شبه الجزيرة العربية - : العراق وكل أراضي الدولة الفارسية ، والشام ومصر ، فماذا أضاف الأمويون إلى هذه الدولة ؟ هذا ما سنبينه فيما يلي .

الفتوحات البحرية في العصر الأموي

لا شك في أن أعظم إنجازات الأمويين الباقية على الزمن تلك الفتوحات التي تمت في عهدهم ، والتي شملت مناطق عديدة في قارات العالم القديم - آسيا وأوربا وإفريقيا - ففي آسيا فتح الأمويون أقاليم ما وراء النهر - وهى المناطق الواقعة بين نهري جيحون وسيحون وإقليم السند بالإضافة إلى تثبيت الفتح في المناطق التي كانت قد فتحت في عهد الخلفاء الراشدين ، وبصفة خاصة في فارس فقد كانت خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان كثيرة الانتقاض والارتداد ، فأبلى الأمويون بلاءً حسنًا في تثبيت دعائم الإسلام في هذه البلاد حتى أصبحت من أهم ركائز العالم الإسلامي .

وفي إفريقيا فتح الأمويون شمال القارة بأكمله من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي ، وفي أوربا فتحوا جزيرة أيبريا - الأندلس - وأجزاء من جنوب فرنسا ، كما استولوا على العديد من الجزر في شرق وجنوب وغرب البحر المتوسط ، ثم واصلوا ضغوطهم على القسطنطينية - عاصمة الدولة البيزنطية - وحاصروها أكثر من مرة وحاولوا الاستيلاء عليها ، وإن كانت محاولاتهم لم تنجح في إسقاطها ، إلا أنهم نجحوا في جعل الدولة البيزنطية تعيش في حالة دفاع عن النفس وهذا مكسب سياسي وعسكري ونفسي كبير بالنسبة للمسلمين ، ولم تكن هذه الفتوحات مجرد فتوحات عسكرية لاستغلال الشعوب على نسق الاستعمار الأوربي في العصر الحديث ؛ وإنما كان هذا فتحًا دينيًّا ولغويًّا وثقافيًّا ، وكما تجلت عبقرية الأمويين في الغزو والفتح ، فقد كانت عبقريتهم في الإدارة والتنظيم والتقريب بين الشعوب التي دخلت في حوزة الإسلام أعظم ؛ فبفضل السياسة المرنة ، والأفق

الواسع الذي كان يتمتع به الخلفاء الأمويون انصهرت شعوب البلاد المفتوحة - من إيرانيين وأتراك وأرمن وأكراد وبربر - في بوتقة الإسلام ؛ لتشكل عالمًا إسلاميًّا واحدًا ، وبفضل مثابرتهم وجهادهم مهدوا الأرض في هذه البلاد لانتشار الإسلام . ومهما كابر المكابرون ، فإن أي منصف لا بد أن يعترف بأن العصر الأموي كان عصرًا باهرًا في جميع المجالات ، وأن بذور الحضارة الإسلامية التي غرست منذ بداية ظهور الإسلام أخذت تنمو وتترعرع في هذا العصر ، وواصلت نموها وازدهارها حتى وصلت إلى أوج عظمتها في العصر العباسي ، وسنعود لمزيد من التفاصيل عن انتشار الإسلام والسياسة الإدارية في العصر الأموي في الفصول التالية من الكتاب ، أما الآن فإننا نفصل ما أوجزناه في السطور السابقة عن الفتوحات في العصر الأموي .

قامت الدولة الأموية رسميًّا سنة (٤١هـ) ، عندما تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، وأصبح معاوية خليفة للمسلمين دون منازع .

وعندما قامت الدولة الأموية في هذا التاريخ ، كانت الفتوحات قد توقفت ، أو بمعنى أدق كادت أن تتوقف منذ نهاية خلافة عثمان بن عفان ؛ بسبب انشغال المسلمين بالفتن والحروب الأهلية التي ابتلوا بها ، والتي لم تتوقف إلا بتنازل الحسن لمعاوية - كما أشرنا آنفًا - فهذه الحروب الداخلية شغلت المسلمين عن مواصلة الفتوحات في الخارج ، بل مكن القول : إنه لولا الهيبة الهائلة التي أحدثتها الاندفاعة الكبرى في عهدي أبي بكر وعمر في قلوب أعداء الإسلام - وبصفة خاصة الدولة البيزنطية - أقول : لولا هذه الهيبة التي رسخت في قلوبهم لأغرتهم الفتن والحروب الداخلية في الأمة الإسلامية على العدوان . ولكن بفضل الله تعالى لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام على مهاجمة حدود الدولة الإسلامية ، واقتصر أثر الأزمة الداخلية على جمود حركة الفتوحات نسبيًّا ، ولكن هذا الجمود المؤقت انتهى بانتهاء عهد الفتنة الأولى ، وسوف تنشط حركة الفتوحات نشاطًا ملحوظًا - وإن كان محدودًا - منذ مطلع خلافة معاوية وبصفة خاصة على جبهات الحدود مع الدولة البيزنطية ، سواء في آسيا الصغرى أو في شمال إفريقيا .

والملاحظة الرئيسية على عهد معاوية الذي استمر ما يقرب من عشرين عامًا (٤١- ٦٠هـ) : أنه لم يشهد فتوحات مثيرة ، ولم تتم فيه إضافة مساحات كبيرة إلى رقعة الدولة الإسلامية ، التي ورثها عن الخلفاء الراشدين .

ولم يكن ذلك راجعًا إلى قصور من معاوية في حركة الفتوحات ، وإنما كانت سياسة مدروسة ومحسوبة بعناية بالغة ، فمعاوية عندما تولى الخلافة كان على علم وخبرة كبيرة بشؤون الأمة الإسلامية ، وكان يعلم أن مجموعة مرموقة من الأمة لم تكن راضية تمام الرضا عن خلافته ، وإنما قبلت ذلك أمرًا واقعًا لا فكاك لها منه ، فرأى معاوية أن العمل على إقناعهم بشرعية خلافته وجدارته بها أمر ضروري لاستقرار الأمور في الدولة ، فأعطى هذا جزءًا من وقته وجهده ؛ لأن الاستقرار الداخلي أمر في غاية الأهمية لأية دولة خصوصًا عندما تكون في مرحلة التأسيس ، مثلما كانت الدولة الأموية .

ثم هناك ناحية مهمة أخرى شغلت معاوية عن القيام بفتوحات كبيرة ، وهي أن كثيرًا من الأقاليم التي فتحت في عهد الخلفاء الراشدين - وبصفة خاصة في بلاد فارس - قد غلبت على أمرها بالقوة ، ولا زالت عوامل الثورة والتمرد على الحكم العربي الإسلامي فيها كامنة ، ولا زال شعورها القومي قويًا ، فهي دائمة التربص للانقضاض والثورة ؛ فرأى معاوية أن تثبيت الحكم الإسلامي في هذه الأقاليم ، وإشعار الناس بأن هذا الحكم أفضل لهم مما كانوا فيه ، وتهيئتهم لقبول الإسلام دينًا - رأى أن ذلك أجدى بالنسبة لمسيرة الإسلام من إضافة مناطق جديدة . وهذه في الواقع نظرة ثاقبة وسياسة حكيمة ؛ فتعريف الناس بالإسلام ، وشرح مبادئه ، وترسيخ هذه المبادئ في قلوبهم عن طريق السلوك الحسن والوفاء بالعهود ، لا بد أن يؤتي ثماره في النهاية .

ولقد أثمرت هذه السياسة التي انتهجها معاوية ثمارها في عهده وبعده ، وكان أول وأهم هذه الثمار إقبال الفرس على الإسلام في وقت مبكر [1] ، ولقد أدرك معاوية أن عوامل الثورة والتمرد في الأقاليم الفارسية ، والتي يحركها الشعور القومي والارتباط بالماضي لن تلبث أن تخف بفعل الزمن وبتأثير الإسلام ، الذي يرتفع بالناس - عندما يعرفونه حق المعرفة - فوق العصبيات والقوميات ؛ لذلك لم تشغل حركات التمرد في الأقاليم الفارسية معاوية كثيرًا ، ولم تشكل بالنسبة له خطرًا كبيرًا ، بعد أن تهاوت الدولة الفارسية منذ سقطت عاصمتها المدائن سنة (١٦هـ) في أيدي المسلمين ، ثم زال خطرها تمامًا منذ سنة (٣١هـ) . أما الخطر الأكبر من

---

(١) انظر د . حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٣٦) وما بعدها .

وجهة نظر معاوية فكان من جهة بيزنطة ؛ فالدولة البيزنطية وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها في الشرق - الشام ومصر - إلا أن جسم الدولة لا زال سليمًا لم يمس ، فعاصمتها باقية ، وممتلكاتها في آسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا لا زالت شاسعة وإمكانياتها كبيرة ، وقدرتها على المقاومة هائلة ، وهي لم تكف بعد عن مناوأة المسلمين ، وباختصار فهي العدو الرئيسي والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين . ولم يكن هناك أقدر من معاوية على فهم وتقدير هذا الخطر ، وعلى مواجهته أيضًا ، فمعاوية موجود في الشام منذ مطلع الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق ، وأصبح واليًا عليه ولمدة عشرين سنة تقريبًا ، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسي مع الدولة البيزنطية ، فطول إقامة معاوية في الشام - الذي أصبح الآن قاعدة الدولة الإسلامية ومركز عاصمتها - أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم .

لكل ذلك فليس غريبًا أن نرى معاوية يولي حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه ، ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم ، وقد كان من أهدافه الرئيسية الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية .

معاوية والقسطنطينية :

حقق معاوية هدفه وأصبح للمسلمين قوة بحرية فعالة وقادرة على مواجهة البيزنطيين ، فلما أصبح خليفة لم تتغير سياسته البحرية تجاههم ، وإذا كان طرأ على هذه السياسة جديد ، فهو أنه أصبح حرًّا في اتخاذ القرار الذي يراه مناسبًا لتحقيق سياسته ، وقد طور معاوية هذه السياسة منذ أصبح خليفة سنة (٤١هـ) ، ووضع أمامه هدفًا واضحًا وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيدًا للاستيلاء عليها ، ولعل معاوية كان يرمي إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها بالاستيلاء على عاصمتها ؛ فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هي مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال ، وفيها العقول المفكرة ، فإذا سقطت في يده فإن هذا سيؤدي إلى شلل كامل في الدولة كلها ، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس ، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم في أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل ، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم ، فإذا استطاع إسقاط عاصمة

البيزنطيين فسيكون ذلك نذيرًا بإسقاط الدولة ، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيسي ؛ لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه .

أهمية القسطنطينية :

ليس من المبالغة القول : إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون ، وهي مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية ، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها ، حال دون ذلك وبالتالي حال دون سقوط الدولة .

والدليل على هذا : أنه عندما استطاع السلطان العثماني محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها في سنة (٨٥٧هـ) والتاسع والعشرين من مايو سنة (١٤٥٣م) . كان ذلك إيذانًا بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود [١] .

فما العوامل التي مكَّنت هذه المدينة من الصمود ، وجعلتها بمثابة الدرع الواقي للدولة ، بل الحصن الشرقي الذي طالما حمى أوربا من الأخطار الآسيوية في العصور الوسطى [٢] ، يأتي على رأس هذه العوامل الموقع الجغرافي للمدينة ، وما هيأه لها من موانع طبيعية ساعدتها على الصمود في وجه الغزاة ؛ فمدينة القسطنطينية التي أسسها قسطنطين الكبير ، واحتفى بإتمام بنائها في الحادي عشر من مايو سنة (٣٣٠م) [٣] قامت على أطلال مدينة يونانية قديمة أسسها الإغريق ، في القرن السابع قبل الميلاد تسمى بيزنطة ، وأطلق قسطنطين على المدينة عند إنشائها اسم روما الجديدة ، ولكن رعاياه أبوا إلا أن يسموها باسمه اعترافًا بفضله فاشتهرت بالقسطنطينية [٤] .

والمكان الذي اختاره الإغريق ليقيموا عليه مدينة بيزنطة - ومن ثم اختاره قسطنطين ليقيم عليه القسطنطينية - يعتبر مكانًا مثاليًا من جميع الوجوه ، حيث بنيت المدينة على بقعة من الأرض هي أقرب مكان تلتقي فيه قارتا آسيا وأوربا ، ويسهل منه العبور بين القارتين ، وهذا جعل الانتقال والتجارة والاتصال الحضاري بين القارتين أمرًا ميسورًا ، كما أدى إلى ازدهار المدينة ذاتها ، وجعلها من أكبر مراكز

(١) انظر د . سعيد عاشور - أوربا العصور الوسطى (٦٤٤/١) .

(٢) المرجع السابق (٦٤٥/١) .

(٣) انظر نورمان بينز - الإمبراطورية البيزنطية (ص ٨) .

(٤) انظر د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ١٥٣) ، ولمزيد التفاصيل عن القسطنطينية انظر معجم البلدان لياقوت (٣٤٧/٤) .

الحضارة في العصور الوسطى ولم تكتسب مدينة بيزنطة ومن ثم وريثتها القسطنطينية شهرتها وعظمتها من مجرد بنائها على أقرب نقطة بين القارتين . فقد كانت لها أخت بنيت معها على الشاطئ الآسيوي قبالة البسفور وهي مدينة خلقدونية ، ومع ذلك لم تصل إلى ما وصلت إليه بيزنطة والقسطنطينية بعدها من شهرة وعظمة ؛ وذلك لأنه « إذا كانت بيزنطة تشترك مع خلقدونية في أن كلًّا منهما تطل على البسفور إلا أن الأولى بزت الثانية بسبب تمتع الشاطئ الأوربي بمميزات يفتقر إليها الشاطئ الآسيوي ، فقبل اتصال مياه البسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطئ الأوربي خليج عظيم طوله سبعة أميال في انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله يعرف في التاريخ بالقرن الذهبي ، وأصبح محصورًا بين القرن الذهبي وبحر مرمرة رأس أرضية تلالية على شكل مثلث متساوي الضلعين تقريبًا ، رأسه تقابل الشاطئ الآسيوي ، فكانت أي مدينة تقام على هذا الرأس تنعم بميناء طبيعي يهيئ لأساطيلها مرفأ آمنًا هادئًا ، فضلًا عن الحصانة من ناحية البحر ؛ لأن الماء يحيط بها تقريبًا من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية وقبضت بيزنطة على ناصية هذه المميزات المهمة وحدها » (١) ، ولن نطيل الكلام عن الأسباب التي جعلت قسطنطين الكبير يختار هذا المكان بالذات ليقيم عليه عاصمة جديدة للإمبراطورية قدر لها أن تلعب دورًا بارزًا في تاريخ العصور الوسطى ، فسواء كانت هذه الأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية ؛ فمن المؤكد أن الرجل كان ثاقب النظرة ، حيث بنى مدينة أصبحت حصنًا للغرب طيلة قرون ، ومركز الثقل السياسي والعسكري ، والاقتصادي ، والديني ، والثقافي ، والأدبي للإمبراطورية (٢) .

وازدادت أهمية القسطنطينية بعد أن سقطت روما تحت ضربات القبائل البربرية سنة (٤٧٦م) ، ولعل الاسم الذي شاء قسطنطين الكبير أن يعطيه لمدينته في البداية ، وهو روما الجديدة ، يشعر بأنه كان يتوقع أن هذه المدينة ستخلف روما القديمة التي رأى الأخطار تحدق بها من الشمال .

وكيفما كان الأمر فقد هيأ المكان الممتاز الذي قامت عليه القسطنطينية والأسوار والأبراج والتحصينات التي أقامها الأباطرة البيزنطيون حولها عبر العصور ، هيأ كل

---

(١) انظر د . إبراهيم العدوي – المرجع السابق (ص ١٤٨ – ١٥٠) .

(٢) انظر نورمان بينز – الإمبراطورية البيزنطية (ص ٧ ، ٨) .

ذلك للمدينة أن تكون واحدة من أمنع وأهم مدن العالم ، وأن تطيل في عمر الإمبراطورية البيزنطية لصمودها أمام زحف الأمويين عليها .

معاوية يخطط للاستيلاء على القسطنطينية :

أشرنا فيما سبق إلى أن معاوية اكتسب من طول إقامته في الشام ومجاورته للبيزنطيين خبرة واسعة بسياستهم وأهدافهم ، ورأى محاولاتهم للعودة إلى مصر سنة (٢٥هـ) . وإلى الشام (سنة ٣٤هـ) مما أدى إلى نشوب معركة ذات الصواري - التي أشرنا إليها آنفًا - بين المسلمين والبيزنطيين والتي كان له فيها دور بارز .

ومع أن الشواهد دلَّت على أن البيزنطيين بعد هزيمتهم في ذات الصواري قد غيَّروا سياستهم واعترفوا بالأمر الواقع ، وهو بروز المسلمين كقوة بحرية كبرى على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، وآية ذلك أن الإمبراطور قنسطانز الثاني عندما عاد منهزمًا من ذات الصواري لم يعد إلى القسطنطينية ، وإنما ذهب إلى جزيرة صقلية ، وهذا أمر له مغزاه الكبير ، فهو عندما أدرك ألا أمل في عودة ممتلكاته في الشرق آثر أن يحافظ على ما تبقى في الغرب [١] .

ولكن رغم كل شيء فإن معاوية لم يركن إلى هذا ، فهو يعلم أن الإمبراطور ما لجأ إلى هذه السياسة إلا لعجزه عن التصدي ، ولو آنس من نفسه قوة لما تردد في معاودة الهجوم ؛ لذلك قرر معاوية أن يكون زمام المبادرة دائمًا في يده لمواصلة الضغط على الدولة البيزنطية ، وإرغامها على اتخاذ موقف الدفاع لإرهاقها ماديًّا ومعنويًّا ، فواصل استعداداته لإسقاط عاصمتها في يده ؛ لأنها هي التي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام [٢] ، وقد سار لتحقيق هذا الهدف في عدة اتجاهات :

أولًا : الاهتمام بدور صناعة السفن في مصر والشام ، واختيار أمهر الصنَّاع للعمل فيها ، والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم في العمل .

وقد أدى التعاون بين مصر والشام في هذا المجال سواء من حيث المواد الخام اللازمة لصناعة السفن ، أو الأيدي العاملة المدربة إلى بروز الأسطول الإسلامي قوة ضاربة في البحر المتوسط في وقت قياسي ؛ بحيث لم يقف ندًّا للأسطول البيزنطي

---

(١) انظر د . أحمد مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٥) .

(٢) انظر د . سعاد ماهر - البحرية في مصر الإسلامية (ص٨٥) .

فقط ، وإنما انتزع منه السيادة على هذا البحر ؛ ففي الشام كانت تتوافر أخشاب الصنوبر القوي والبلوط والعرعر التي تصلح لبناء السفن ، وفي مصر كانت توجد أخشاب الصنط التي تصلح لعمل الصواري ، وضلوع جوانب السفن ، وخشب الجميز واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاديف [١] . كذلك استغل معاوية معدن الحديد الذي كان متوافرًا في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس ، كما كان يتوافر في مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن ، ونبات الدقس الذي كانت تصنع منه الحبال ، وباختصار فقد أدى التعاون المصري الشامي إلى ازدهار البحرية الإسلامية التي ازدادت أهميتها بعد أن أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة سنة (٥٤هـ) ، وذلك على إثر غارة شنها البيزنطيون على البرلس سنة (٥٣هـ) [٢] .

ثانيًا : تقوية الثغور البحرية في مصر والشام ، وشحنها بالسفن والجند المدربين على ركوب البحر ، مثل : صور وعكا والإسكندرية ؛ لتكون قادرة على صد أي هجوم بحري بيزنطي ، ولتكون قواعد راسخة للأسطول الإسلامي في غزواته البحرية .

ثالثًا : الاستيلاء على الجزر الواقعة في شرقي البحر المتوسط ، وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرس - كما سبق ذكره - ثم استولى على جزيرة أخرى مهمة وهي جزيرة رودس . يقول البلاذري : « وكان معاوية يُغزي برًّا وبحرًا ، فبعث جنادة بن أبي أمية الأذردي إلى رودس ... ففتحها عنوة .. وأمره معاوية فأنزلها قومًا من المسلمين وكان ذلك سنة اثنتين وخمسين ... ورودس من أخصب الجزائر ، وهي نحو من ستين ميلًا ، فيها الزيتون ، والكروم ، والثمار والمياه العذبة » [٣] . وبعد الاستيلاء على رودس بسنتين استولى جنادة على جزيرة أخرى أكثر أهمية لقربها من القسطنطينية وهي جزيرة أرواد وأسكنها المسلمين أيضًا [٤] ، ثم غزا جنادة جزيرة أقريطش - كريت [٥] - . وهكذا استمر معاوية في الاستيلاء على جزر شرقي البحر

---

(١) انظر د . السيد عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية (ص٣١٢) .
(٢) الكندي - كتاب الولاة والقضاة (ص ٣٨) .
(٣) فتوح البلدان (ص ٢٧٨) .
(٤) المصدر السابق (ص ٢٧٩) ، وانظر كذلك ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٩٧/٣) .
(٥) فتوح البلدان (ص ٢٧٩) .

المتوسط ؛ تمهيدًا للوصول إلى القسطنطينية ، بل إن غزوات معاوية البحرية امتدت لتنال الجزر الواقعة في جنوب البحر المتوسط ، حيث يذكر البلاذري أن معاوية أغزى معاوية بن حديج جزيرة صقلية ، ويقول : « وكان أول من غزاها ولم تزل تغزى بعد ذلك » [١] .

رابعًا : كان من الضروري لكي تؤتي هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية ، التي تشكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ضد غارات البيزنطيين من ناحية ، ولتكون سندًا للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية ؛ ذلك لأن المسلمين في فتوحاتهم الأولى في عهد الخلفاء الراشدين وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية ، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية ، وكان البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وأنطاكية ؛ لئلا يستفيد منها المسلمون ، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الإسكندرونة وطرسوس [٢] ؛ فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها ، « فاهتم أولًا بمدينة أنطاكية التي كانت معرضة دائمًا للإغارات البيزنطية المفاجئة ، واتبع في تعميرها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية بالشام ، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكية ، بأن منحهم إقطاعات من الأرض ، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم وأخذ معاوية يوالي تدريجيًّا تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس أثناء إغارته على أراضي البيزنطيين ، حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى ، ولإحكام سيطرته على المعاقل المهمة الواقعة في مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية ، استولى على سميساط وملطية ، كما جدَّد حصونًا أخرى ، مثل : مرعش والحدث ، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطي المهم وأعاد تحصينه » [٣] .

ولكي تكون الحركة مستمرة ، وتكون مناطق الحدود ميدانًا عمليًّا لتدريب الجند

---

(١) المصدر نفسه (ص ٢٧٨) .

(٢) انظر البلاذري – فتوح البلدان (ص١٩٤) ، والدكتور إبراهيم العدوي – الأمويون والبيزنطيون (ص١٠٨) .

(٣) الدكتور العدوي – المرجع السابق (ص١١٠ – ١١٢) .

المسلمين ، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة دأب معاوية على الغزو المستمر ، وأصبح هذا النشاط العسكري يعرف بغزوات الصوائف والشواتي [١] ، فلا تكاد تمر سنة ، إلا ونجد ذكرًا عند الطبري وغيره لغزو في البر أو في البحر كأن يقول : وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم [٢] . وكانت هذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرب تحصيناتهم وتغنم وتعود ، وكان تكرار هذه الغزوات يشكل ضغطًا دائمًا على الدولة البيزنطية ويرهق أعصابها وينهك قواها .

وقد برز في هذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم في ميدانها ، وأتقنوا فن الحرب ، مثل عبد اللَّه بن كرز البجلي ، ويزيد بن شجرة الرهاوي ، ومالك بن هبيرة السكوني ، وجنادة بن أبي أمية الأزدي ، وسفيان ابن عوف ، وفضالة بن عبيد [٣] ، ومالك بن عبد اللَّه الخثعمي ، الذي أطلقوا عليه مالك الصوائف لعلو كعبه في الميدان الحربي في آسيا الصغرى [٤] . وهؤلاء القادة أبلوا بلاء حسنًا في الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة اللَّه .

الحصار الأول للقسطنطينية :

وعندما استكمل معاوية استعداداته الحربية برًّا وبحرًا ، ودرَّب رجاله وحصن حدوده بدأ في عجم عود عاصمة البيزنطيين ، فأرسل حملة استطلاعية لاستكشاف قوة دفاعات المدينة ، وعهد بقيادة هذه الحملة إلى فضالة بن عبيد الأنصاري الذي استطاع أن يكتسح دفاعات البيزنطيين في طريقه حتى وصل مدينة خلقدونية ، التي كانت تعتبر ضاحية من ضواحي القسطنطينية على الشاطئ الآسيوي المقابل لها ، وقد أقام فضالة بخلقدونية شتاء عام (٦٦٨ - ٦٦٩م) ؛ لأن العمليات الحربية كانت تتوقف خلال هذا الفصل من السنة ، وظل ينظم قواته ويدربها ؛ انتظارًا

---

(١) المقصود بالصوائف : الغزوات التي كانت تحدث في فصلي الربيع والصيف . فغزوات الربيع كانت تستمر شهرًا كاملًا ، من منتصف مايو حتى منتصف يونيو ، وغزوات الصيف كانت تستمر ستين يومًا ، من منتصف يوليو حتى منتصف سبتمبر ، أما الشواتي فكانت تحدث فيما بين أواخر فبراير ومنتصف مارس . انظر د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ١١٦) .

(٢) انظر على سبيل المثال - تاريخ الطبري (٥/٢٢٧ - ٢٣٤) .

(٣) انظر الطبري - المصدر السابق (٥/٢٣٢) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٤٥٨) .

(٤) انظر د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص١١٤) .

للإمدادات التي كان يعدها معاوية في عاصمته دمشق [١] . وكانت هذه الإمدادات هي التي قامت بالغزوة الكبرى ، أو الحصار الأول لعاصمة البيزنطيين ، والتي أسند معاوية قيادتها إلى سفيان بن عوف وجعل ابنه يزيد أميرًا شرفيًا عليها وقد حدثت هذه الغزوة سنة (٤٩هـ) حسب رواية الطبري [٢] ، أما ابن الأثير فيذكرها في أحداث سنة (٤٩هـ) ، ولكنه يقول : « وقيل : سنة خمسين سيَّر معاوية جيشًا كثيفًا إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف ، وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم فتثاقل واعتل ... فأقسم عليه ليلحقن بسفيان في أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس ، فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه ، وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري ، وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابي ، فأوغلوا في بلاد الروم حتى وصلوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام ، واشتدت الحرب بينهم ؛ فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل ... ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم ، فجره الروم برماحهم حتى قتلوه رحمه الله ... ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام ، وقد توفي أبو أيوب عند القسطنطينية ، فدفن بالقرب من سورها ، فأهلها يستسقون به » [٣] .

عادت هذه الحملة الأولى دون أن تنال من القسطنطينية لمناعتها ، وأغلب الظن أن معاوية نفسه كان يعلم صعوبة الاستيلاء على هذه المدينة الحصينة التي يزيد من صعوبة الوصول إليها - فوق مناعتها الطبيعية - قسوة المناخ حولها ، فهو شديد البرودة بالنسبة للعرب ، ثم شدة التيارات المائية القادمة من الشمال من البحر الأسود والتي كانت تعوق حركة سير السفن وتردها على أعقابها .

---

(١) انظر د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص١٦٣) .

(٢) تاريخ الطبري (٥/٢٣٢) .

(٣) الكامل في التاريخ (٣/٤٥٨ ، ٤٥٩) . وقد ظلت ذكرى استشهاد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري حية في قلوب المسلمين قرونًا عديدة ، وقد كشف موقع قبره على مقربة من أسوار القسطنطينية قبل فتح العثمانيين لها بأيام ، وقد أدى كشفه إلى تفجير الشعور الديني لدى الجيش العثماني الفاتح ، وبعد الفتح شيد السلطان العثماني محمد الفاتح مسجدًا بالقرب من ضريح الشهيد أبي أيوب الأنصاري ، وكان من تقاليد سلاطين آل عثمان أن يذهبوا إلى المسجد في موكب رسمي حافل ، حيث يتسلم السلطان سيف السلطان عثمان الأول الجد الكبير للسلاطين العثمانيين من شيخ الطريقة المولوية . انظر د. عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/٦٤) .

فالمسلمون يعرفون كل ذلك ، ولكنهم لم يتهيبوا ، ولم تمنعهم الصعوبات من المحاولة ، بل أقدموا واقتحموا وأثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم رغم مناعتها ، وقوة تحصيناتها ، فهي ليست بعيدة المنال ، وأنهم على استعداد للصبر والمصابرة ولبذل الأرواح في سبيل إنهاك أعداء الإسلام ، ومع أن الحملة لم تنجح عسكريًّا إلا أنها تعتبر ناجحة من الوجهة السياسية ، حيث جعلت شغل الأباطرة الشاغل هو الدفاع عن عاصمتهم ، وتجلى ذلك في سياسة الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥م) الذي خلف أباه قنسطانز الثاني ، والذي لم يكن أقل عداء من أبيه للإسلام والمسلمين ، والذي هاله تعرض عاصمته لهجمات المسلمين ، فوجه كل عنايته إلى تقوية وسائل الدفاع عنها ، وأحدث من أجل ذلك تغييرات جوهرية في النظم الحربية والإدارية في الإمبراطورية ، وبصفة خاصة في إقليم آسيا الصغرى ، الذي أصبح بعد ضياع الشام ومصر أهم مورد للدولة في الشرق تستمد منه الجند القادرين على القتال ، والأموال اللازمة للنهوض بمرافق البلاد للدفاع عن العاصمة ، فركز قسطنطين على هذا الإقليم باعتباره الآن يشكل خط الدفاع الأول عن العاصمة ضد هجمات المسلمين [١] .

الحصار الثاني القسطنطينية :

لم يثن فشل الحملة السابقة في الاستيلاء على القسطنطينية معاوية عن المضي قدمًا في محاولاته الاستيلاء عليها ، وقد استولى بعد عودة الجيش على عدة جزر ، منها رودس وأرواد اللتين سبقت الإشارة إليهما [٢] .

وقد كان لجزيرة أرواد والتي تسميها المصادر الأوربية كزيكوس [٣] أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية ، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامي في حصاره الثاني للمدينة أو حرب السنين السبع (٥٤ - ٦٠هـ) قاعدة لعملياته الحربية ؛ وذلك أن معاوية أعد أسطولًا ضخمًا ، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية ، وظل مرابطًا أمام أسوارها من سنة (٥٤ حتى سنة ٦٠هـ) [٤] ؛ فكانت الأساطيل تنقل الجنود من

(١) انظر د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ١٦٦) .
(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٢٧٨ ، ٢٧٩) ، والطبري - تاريخ (٢٨٨/٥ ، ٣٩٣) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٩٧/٢) .
(٣) انظر نورمان بينز - الإمبراطورية البيزنطية (ص ٧٥) .
(٤) انظر الطبري من سنة (٥٤ - ٦٠هـ) ، (٢٩٣/٥ - ٣٢٢) حيث يذكر في كل سنة اسم القائد =

هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هبدمون (Hebdomon) التي تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة وبين رأس كيكلوبيوس الواقعة بالقرب من باب الذهب ، واستمر الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر إبريل إلى سبتمبر ، تخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين ، من الصباح إلى المساء ، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام [1] ، استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات ، حيث كانت العمليات الحربية تقتصر على فترتي الربيع والصيف ؛ لصعوبة القتال في فصل الشتاء ، ورغم جلد المسلمين وتحملهم مشقة الحصار إلا أن المدينة صمدت أمامهم لا بفضل مناعتها الطبيعية فحسب ؛ بل إن الإمبراطور قسطنطين الرابع كان قد تنبه منذ الحصار الأول للخطر المحدق بالمدينة - كما أشرنا آنفًا - فقضى الفترة فيما بين الحصارين في إصلاح أسوارها ، وتقوية دفاعاتها ، فضلًا عن حشدها بالمؤن والعتاد لتقاوم الحصار إذا ما فكر المسلمون في معاودة المحاولة ، هذا أمر كان الإمبراطور يتوقعه في كل لحظة ، وفوق هذا فقد ساعد المدينة على الصمود ذلك السلاح الرهيب الذي اخترعه الإغريق في ذلك الوقت ، والذي تسميه المصادر : النار الإغريقية ، وهو عبارة عن مركب كيميائي مكون من النفط والكبريت والقار ، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيها النار ، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالًا إذا لامس الماء ، ومخترع هذا المركب الكيميائي الفتَّاك ، الذي فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم ، هو مهندس سوري الأصل اسمه كالينكوس ، كان في أول الأمر في خدمة المسلمين ، ثم هرب إلى القسطنطينية ، ووضع خبرته في خدمة البيزنطيين [2] .

وكيفما كان الأمر ؛ فقد تظاهرت عدة عوامل : مناعة المدينة الطبيعية ، وقوة تحصيناتها ، والنار الإغريقية ، ورداءة الطقس وقسوته ، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود - لتحول دون استيلاء المسلمين على المدينة ، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق . وفي النهاية دعت الظروف الداخلية في كل من

= الذي شتى أو صاف في أرض الروم محاصرًا للمدينة .

(١) انظر د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ١٧٥ ، ١٧٦) ، د . السيد عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية (ص ٣٢٢) .

(٢) د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ١٧٦) .

الدولتين إلى إنهاء الحصار ؛ فدخلوا في مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما ، عاد بمقتضاه الجيش الإسلامي والأسطول إلى الشام .. ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف ، ولما كانت سنه قد كبرت ، وأحس بدنو أجله رأى أن من مصلحة المسلمين أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسبًا لأية مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته ؛ فيكون وجود هذا الجيش عنده ضروريًّا لضبط الأمور داخليًّا ، وقد صدقت توقعاته بهذا الشأن .

كذلك كانت الدولة البيزنطية توّاقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها ، فقد أرهقها وأنهك قواها ، ولذلك يقال : « إنها أرسلت إلى دمشق رجلًا يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين ، وأكثرهم ذكاء وفطنة وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية وما أكسبه تقدير معاوية واحترامه ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة ، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة برًّا وبحرًا أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تئنُّ من جراحها المثخنة » [(١)] .

الحصار الثالث والأخير للقسطنطينية في العصر الأموي :

بعد عودة الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية في آخر حياة معاوية سنة (٦٠هـ) لم يلبث معاوية أن توفي ، فدخلت الدولة الأموية في دوامة من الفتن وواجهت العديد من الثورات . وقد استمر هذا الوضع إلى أواخر خلافة عبد الملك ابن مروان الذي إليه يرجع الفضل في إعادة الوحدة إلى الأمة الإسلامية ، حيث ترك لابنه وخليفته الوليد (٨٦ - ٩٦هـ) دولة قوية مهابة ، فشهد عهده حركة فتوحات كبرى على عدة جبهات وكان الاستيلاء على القسطنطينية من الأهداف الرئيسية للوليد ، وفي الحقيقة هو هدف رئيسي للسياسة الأموية عامة ، بحيث يمكن القول :

---

(١) انظر د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص١٧٥) لم أعثر في المصادر الإسلامية القديمة على نص هذه المعاهدة التي تشير إليها المراجع الحديثة ، سوى أن البلاذري في معرض حديثه عن صلح عبد الملك بن مروان مع الإمبراطور البيزنطي ، أثناء انشغاله بحرب ابن الزبير قال : « واقتدى في صلحه بمعاوية .. فإنه صالحهم » ، فتوح البلدان (ص١٩٠) فلعله يقصد ذلك الصلح ولكنه لم يفصله .

إن عبد الملك بن مروان نفسه قد وجه نظر ابنه إليها ومهد له الطريق حين زحف على إقليم قلليقيا بآسيا الصغرى ، واصطدم عند مدينة سيواس بالقوات البيزنطية التي كان على رأسها الإمبراطور جستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥م) ، والتي كانت تضم عددًا كبيرًا من العناصر السلافية ، وقد انتصرت قوات عبد الملك على قوات جستنيان الثاني .

ومن الجدير بالذكر أن الجند السلاف الذين كانوا في جيش الإمبراطور تخلوا عنه ، ودخل معظمهم في جيش المسلمين وحاربوا معهم ، وهذا يدل على براعة عبد الملك في استمالة القلوب ، وقد استفاد المسلمون كثيرًا من انضمام السلاف إليهم ؛ فقد كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التي تصل بين أقاليمها ومدنها المختلفة ، فقاموا بوظيفة الأدلاء للجيوش الإسلامية ، يهدونها إلى أسهل الطرق للاستيلاء على المعاقل المهمة بهذه البلاد ؛ ولذا تابعت الجيوش الأموية إغارتها وانتصاراتها على مدن آسيا الصغرى [١] .

وقد تابع الوليد بن عبد الملك جهد أبيه وخطواته في الضغط على الإمبراطورية البيزنطية ، فواصل الاستيلاء على أهم المعاقل والحصون المهمة على الطرق التي ستسلكها الجيوش الإسلامية البرية في زحفها القادم على القسطنطينية من ذلك أنه أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك وابنه العباس بن الوليد ، فاستوليا على حصن مهم هو حصن طوانة ، الذي يعتبر مفتاح الطريق بين الشام ومضيق البسفور ، ورغم استماتة البيزنطيين في الدفاع عنه ، إلا أن القوات الإسلامية قد استولت عليه [٢] .

ولم تكد تمر سنة من سنوات خلافة الوليد (٨٦ - ٩٦هـ) ، دون أن يستولي جيشه على معقل أو حصن أو مدينة من مدن الحدود مع البيزنطيين [٣] ؛ فقد كان الاستيلاء على حصن طوانة - المشار إليه - في سنتي (٨٧ ، ٨٨هـ) ، وفي أحداث سنة (٨٩هـ) يقول الطبري : « قصد مسلمة عمورية ، فوافق بها للروم جمعًا كثيرًا فهزمهم الله ، وافتتح هرقلة وقمودية ، وغزا العباس - ابن الوليد - الصائفة من ناحية البدندون » [٤] . وفي سنة (٩٠هـ) : « غزا مسلمة أرض الروم ..

---

(١) انظر الدكتور إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ٢١٠ ، ٢١١) .

(٢) انظر الطبري - تاريخ (٤/٤٢٩ - ٤٣٤) ، والدكتور العدوي - المرجع السابق (ص٢١٢) .

(٣) انظر الطبري - المصدر السابق (٦/٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩) .

(٤) تاريخ الطبري (٦/٤٣٩) .

من ناحية سورية ففتح الحصون الخمسة التي بسورية ، وغزا فيها العباس بن الوليد .. حتى بلغ الأرزن » [١] . وفي أحداث سنة (٩١هـ) يقول الطبري : « ففيها غزا الصائفة عبد العزيز بن الوليد وكان على الجيش مسلمة بن عبد الملك » [٢] . وفي أحداث سنة (٩٢هـ) يقول : « فمن ذلك غزوة مسلمة بن عبد الملك وعمر ابن الوليد أرض الروم ، ففتح على مسلمة حصون ثلاثة ، وجلا أهل سوسنة إلى جوف أرض الروم » [٣] . وفي أحداث سنة (٩٣هـ) يقول : « من ذلك غزوة العباس بن الوليد أرض الروم ففتح اللّه على يديه سمسطية ، وفيها كانت أيضًا غزوة مروان بن الوليد الروم ، فبلغ خنجرة ، وفيها كانت غزوة مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ، فافتتح ماسة وحصن الحديد وغزالة وبرجمة من ناحية ملطية » [٤] .

وهكذا لا تمر سنة إلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم ، ومن الجدير بالذكر أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموي ، أولاد الخليفة الوليد نفسه ، وأخوه مسلمة الذي لم يكد يتخلف سنة واحدة عن غزو أرض الروم ، وهذا أمر له مغزاه ؛ فقد كان مسلمة هو الذي قاد الجيش الذي حاصر القسطنطينية الحصار الأخير في عهد سليمان - كما سنذكر قريبًا - ومعنى هذا : أن اشتراكه المستمر في غزو بلاد الروم كان مقصودًا ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك المؤدية إلى عاصمة البيزنطيين ، التي كانت الهدف الرئيسي من هذه الغزوات .

البيزنطيون يرصدون تحركات المسلمين العسكرية :

من الطبيعي أن تكون عيون البيزنطيين دائمًا مفتوحة على حدودهم مع المسلمين ، فجبهة الحدود دائمًا ملتهبة والغزو الإسلامي لا يكاد يتوقف ، ولكي يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكري المستمر ، أرسل الإمبراطور البيزنطي أنسطاس (٧١٣ - ٧١٦م) سفارة إلى دمشق لتستطلع الأخبار عن كثب ، وتعرض على الخليفة الوليد مشروع عقد هدنة بين الدولتين ، ولما

(١) المصدر السابق (٦/٤٤٢) .
(٢) المصدر السابق (٦/٤٥٤) .
(٣) المصدر السابق (٦/٤٦٨) .
(٤) المصدر السابق (٦/٤٦٩) ، وللمزيد من التفاصيل عن أخبار هذه الغزوات راجع الطبري عن عهد الوليد .

وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق ، شاهدت عظمة المسلمين في عاصمتهم ونشاط الخليفة في إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية وعاد السفير إلى الإمبراطور يؤكد صدق عزيمة المسلمين على الجهاد وينصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن العاصمة فأخذ أنسطاس برأي سفيره ، وأعلن في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته ، ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة ، واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ، لا سيما الجهات المطلة منها على المياه ، حيث كان التداعي قد دب فيها ، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية ، من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع [١] .

وبينما يمضي الخليفة الوليد في استعداداته للزحف على عاصمة البيزنطيين إذ وافته منيته سنة (٩٦هـ) ، فخلفه أخوه سليمان (٩٦ - ٩٩هـ) ليواصل جهوده في هذا الميدان .

سليمان بن عبد الملك والقسطنطينية :

لم يكن الخليفة سليمان ، أقل رغبة من أخيه الوليد في الاستيلاء على القسطنطينية ، بل لقد كرس كل جهوده في الإعداد للزحف عليها منذ ولي الخلافة [٢] ، فواصل إرسال الحملات لغزو أراضي الروم على الطريق إليها [٣] ، وآية اهتمامه بالاستيلاء عليها أنه اتخذ من دابق في شمال الشام مركز قيادة أقام فيه ليكون على مقربة من مسرح العمليات الحربية وليشد وجوده هناك من أزر الجند ويرفع من روحهم المعنوية « وأعطى اللّٰه عهدًا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى أرض الروم القسطنطينية » [٤] .

كان من الطبيعي أن يتولى قيادة الجيش الزاحف على عاصمة البيزنطيين الرجل الذي تمرس على القتال مع الروم ، وعرف أرضهم وأساليبهم ، وهو مسلمة بن

---

(١) الدكتور إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ٢١٥) .
(٢) انظر الطبري - تاريخ (٥٢٣/٦) .
(٣) المصدر السابق (٥٢٣/٦) .
(٤) المصدر السابق (٥٣١/٦) .

عبد الملك ، ثم تولى قيادة الأسطول أمير البحر سليمان ، وأخذ مسلمة كافة الاحتياطات التي تكفل نجاح الحملة من حيث العتاد العسكري والطعام للجند والدواب ، والأخشاب اللازمة لإقامة بيوت تقي الجند برودة الشتاء القارس . يقول الطبري في أحداث سنة (٩٨هـ) : « فمن ذلك ما كان من توجيه سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه ، فشتى بها وصاف ، فذكر محمد بن عمر أن ثور بن يزيد حدثه عن سليمان ابن موسى ، قال : لما دنا مسلمة من القسطنطينية أمر كل فارس أن يحمل على عجز فرسه مُدَّين من طعام حتى يأتي به القسطنطينية ، فأمر بالطعام فألقي في ناحية مثل الجبال ، ثم قال للمسلمين : لا تأكلوا منه شيئًا ، أغيروا في أرضهم وازدرعوا ، وعمل بيوتًا من خشب فشتى فيها ، وزرع الناس ، فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهرًا لأهلها ومعه وجوه أهل الشام : خالد بن معدان ، وعبد اللّٰه بن أبي زكريا الخزاعي ومجاهد ابن جبر » (١) .

واضح من كلام الطبري أن مسلمة نجح في عبور مضيق البسفور ونقل قواته إلى الشاطئ الأوربي ، فقوله : فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهرًا لأهلها ، يدل على إحكام الحصار حول المدينة برًّا وبحرًا ، ذلك الحصار الذي بدأ في أغسطس سنة (٩٨هـ - ٧١٧م) ، وكان الأسطول الذي دخل مياه البسفور في أول سبتمبر من نفس العام مكونًا من (١٨٠٠) سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . « وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية ، فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان أمير البحر إلى سد المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة على الأمداد والمؤن ، ثم أسوار المدينة البحرية كذلك ، فاحتل الأسطول الإسلامي مدخل البسفور الجنوبي لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجة كذلك ، ثم انتهز أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطرًا من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالي لمنع وصول أي مدد يأتي للمدينة من البحر الأسود ، لا سيما وأن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التي تزود القسطنطينية بالغلال » (٢) .

---

(١) تاريخ الطبري (٥٣٠/٦) ، وانظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٧/٥ ، ٢٨) .
(٢) انظر الدكتور العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص٢٢٠) .

فشل الحملة وأسبابه :

على الرغم من الاستعدادات الهائلة ، والجهود المتواصلة المضنية التي بذلها الخلفاء الأمويون طوال سنوات عديدة ، بحيث لم يتركوا شيئًا للصدفة ، بل كان التخطيط والدراسة الجادة لكل التفاصيل وإعداد الجيش بكامل العدة والعتاد ، كل ذلك كان واضحًا وملموسًا من حديث المؤرخين عن الحملة [1] ، وعلى الرغم من ضخامة الجيش - حوالي ثمانين ألفًا - والأسطول - أكثر من ألف وثمانمائة سفينة - وإحكام الحصار على المدينة ، إلا أن الحملة لم تنجح في الاستيلاء عليها ، فما الأسباب ؟

ليون الإيسوري ودوره في إفشال الحملة :

يأتي على رأس الأسباب التي أدت إلى فشل الحملة وعدم تحقيق هدفها قصة ليون الإيسوري ، الذي أصبح إمبراطورًا لبيزنطة باسم ليون الثالث الإيسوري (٧١٧م - ٧٤١م) والذي أسس أسرة أصبحت تعرف في التاريخ البيزنطي باسم الأسرة الإيسورية والتي حكمت الإمبراطورية مدة خمسة وثمانين عامًا (٧١٧ - ٨٠٢م) . فما قصة ليون هذا ؟ يقول الطبري : « وقدم مسلمة فهابه الروم ، فشخص ليون من أرمينية ، فقال لمسلمة : ابعث إليَّ رجلًا يكلمني ، فبعث إليه ابن هبيرة » [2] .

أما ابن الأثير فيقول : « وفي هذه السنة - (٩٨هـ) - سار سليمان بن عبد الملك إلى دابق وجهز جيشًا مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير إلى القسطنطينية ، ومات ملك الروم فأتاه ليون من أذربيجان ، فأخبره فضمن له فتح الروم ، فوجه مسلمة معه فسار إلى القسطنطينية » [3] . أما جيبون فيقول : إن ليون جاء من جبال إيسوريا [4] ، وهذا الإقليم يقع في الطرف الشرقي لآسيا الصغرى [5] ، وقد نسب إليه فعرف بليون الإيسوري ، وعند زحف الجيش الإسلامي على القسطنطينية كان ليون حاكمًا لإقليم أناتوليا - الأناضول - وهو الإقليم الذي توغلت فيه القوات الإسلامية أثناء سيرها حتى وصلت إلى عاصمته مدينة عمورية ، وألقت عليها الحصار ، وهنا بدأ ليون

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٥٣٠/٦) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٧/٥ ، ٢٨) .
(٢) تاريخ الطبري (٥٣٠/٦) .
(٣) الكامل في التاريخ (٢٧/٥) .
(٤) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (٥٥٢/٢) .
(٥) د . سعيد عبد الفتاح عاشور - أوربا العصور الوسطى (١١٤/١) .

الاتصال بمسلمة متظاهرًا بعرض خدماته وتسهيل الطريق لوصول المسلمين إلى القسطنطينية ، وليس له إلا مطلب واحد ، وهو رفع الحصار عن عاصمة إقليمه ومنع الجيش من إتلاف أو تخريب أي شيء في الإقليم . هذا ما تظاهر به ليون ، ولكن الحوادث أثبتت بعد ذلك أنه كان يبيت في نفسه أمرًا خطيرًا ، وهو استغلال المسلمين في الوصول إلى عرش بيزنطة ، ثم ردهم عن القسطنطينية عندما يتمكن من ذلك .

ومن العجيب أن مسلمة صدق ليون في كل ما قال : فرفع الحصار عن الإقليم ، وكسب ليون من ذلك ولاء أهل عمورية الذين حفظوا له تجنيبهم ويلات الحصار ، فنادوا به إمبراطورًا على بيزنطة [١] ، وأحكم الرجل خطته فتظاهر بالانضمام إلى جيش المسلمين لإرشادهم إلى ما يجب عمله للاستيلاء على القسطنطينية ، وصاحب الجيش حتى دخل المدينة ، وما أن وصلها حتى بدأ في تنفيذ خطته ، منتهزًا فرصة ضعف الإمبراطور تاوداسيوس الثالث (٧١٦ - ٧١٧م) ، واستغل أخبار الحملة الإسلامية ليجذب إليه الأنظار « فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل ، وأن جيش المسلمين قوي العدة والعتاد ، وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التي توشك أن تحل بالعاصمة ، وساعد ليون على نجاح دعوته العناصر الآسيوية المقيمة بالقسطنطينية ؛ إذ انضمت إليه ونادت به إمبراطورًا ، وفي ٢٥ مارس سنة (٧١٧م) عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة قرر عزل تاوداسيوس عن العرش وتنصيب ليون إمبراطورًا » [٢] .

حقق ليون هدفه ووصل إلى عرش بيزنطة ، وكان أول شيء فعله هو التصدي للمسلمين وردهم عن العاصمة ، وكان قد مكر بالمسلمين ليضعف مركزهم ويضعهم في موقف حرج ، حيث أشار عليهم بحرق ما معهم من طعام ، وقال لمسلمة : « إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك ، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم فأمر به فأحرق فقوي أمر الروم ، وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون » [٣] . هذه الخدعة الكبرى ، ولا ندري كيف انطلت على مسلمة ؟ وهو القائد المحنك المجرب ، وتخلّى عن الحذر والحيطة اللذين لا بد

---

(١) انظر د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ٢١٨) .
(٢) المرجع السابق (ص ٢١٩) .
(٣) الطبري - تاريخ (٥٣١/٦) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٢٧/٥ ، ٢٨) .

منهما في مثل هذه الأحوال ، واستحق أن يقول عنه الطبري : « وخدعه خديعة لو كان امرأة لعيب بها ، فلقي الجند ما لم يلق جيش ، حتى أن الرجل ليخاف أن يخرج من المعسكر وحده ، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب » [١] . وهكذا تسببت هذه الغلطة القاتلة من مسلمة في كارثة للمسلمين ، وذهبت بجهودهم المضنية التي بذلوها طوال أعوام عديدة أدراج الرياح .

وإلى جانب هذه الخديعة الكبرى التي وقع فيها مسلمة ، فقد تظاهرت عدة عوامل أخرى زادت من سوء موقف المسلمين ، وأدت إلى فشل الحملة ، منها التقلبات الجوية الفجائية في المنطقة ؛ حيث غيرت الرياح - التي كانت ساعدت المسلمين في إغلاق المدخل الشمالي للبسفور - اتجاهها فجأة ، وانحدرت إلى الجنوب بقوة فأدت إلى تدمير عدد كبير من سفن الأسطول الإسلامي ، ومنها استخدام البيزنطيين للنار الإغريقية في إحراق ما تبقى من سفن المسلمين ، بالإضافة إلى دخول فصل الشتاء ، وهو قارس البرد « ويعتبر من العوامل الطبيعية المهمة التي تعتمد عليها القسطنطينية في الدفاع عن نفسها ، وإطالة مدة مقاومتها » [٢] .

رفع الحصار وعودة الجيش :

تظاهرت كل العوامل السابقة على المسلمين لتجعل مهمتهم بالغة الصعوبة إن لم تكن مستحيلة ، ومع أنهم تلقوا إمدادات بحرية من مصر وشمال إفريقيا وإمدادات برية من الشام ، إلا أن ذلك لم يُجدِ نفعًا ، وأثناء الحصار توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة (٩٩هـ) ، وتولى الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) فأدرك الصعوبات التي تواجه المسلمين الذين استمر حصارهم للمدينة عامًا كاملًا (٩٨ - ٩٩هـ ، ٧١٧ - ٧١٨م) فرأى من موقع مسؤوليته عن سلامة المسلمين أن ينهي هذه العملية فكتب إلى مسلمة بن عبد الملك وأمره بالرجوع بالجيش فرجع [٣] .

ولكن على الرغم من فشل الحملة فإن ذلك لا يقلل من جهود الأمويين في إعلاء شأن الإسلام ، والتصدي بكل حزم وعزم لأعدائه ، غير مبالين بالصعوبات مهما

(١) تاريخ الطبري (٥٣١/٦) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٢٨/٥) .
(٢) انظر د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ٢٢١) .
(٣) انظر الطبري - تاريخ (٥٥٣/٦) .

كانت شاقة فقد صبروا وصابروا ولم يقصروا ، ويكفي أنهم أذلوا دولة كبرى عتيدة ، وجعلوا قصارى جهدها أن تدافع عن عاصمتها ، وجعلوا الاستيلاء على هذه العاصمة أملًا ظل حيًّا في نفوس المسلمين أكثر من سبعة قرون ونصف ، حتى تحقق في النهاية عل يد شعب مسلم آخر قادم من أقصى الشرق ، وهم الأتراك العثمانيون ، حيث فتح السلطان العثماني محمد الفاتح المدينة واستولى عليها سنة (٨٧٥هـ - ١٤٥٣م) [١] وأنهى الدولة البيزنطية من الوجود .

الفتوحات البرية في العصر الأموي

ما سبق كان حديثنا عن جهاد المسلمين في العصر الأموي في ميدان الفتوحات البحرية ، وهنا نتحدث عن جهادهم في مجال الفتوحات البرية التي شملت ثلاث جبهات : جبهة شمال إفريقيا والأندلس ، وجبهة ما وراء النهر على الحدود الشمالية الشرقية للدولة الإسلامية ، ثم جبهة السند على الحدود الجنوبية الشرقية .

الفتوحات في شمال إفريقيا :

عندما جاء عمر بن الخطاب إلى فلسطين ليتسلم مفاتيح بيت المقدس من البطريرك صفرونيوس ، عرض عليه عمرو بن العاص فتح مصر ، لأهميتها البشرية والاقتصادية والعسكرية [٢] ، وفوق هذا كله وقبله فإن المسلمين ، وقد استمتعوا بهداية الإسلام - وجب عليهم تبليغه للناس ، وإتاحة الفرصة لهم كي يتعرفوا على هذا الدين ، ويستمتعوا بهدايته مثلهم ، ولقد كان عمرو بن العاص قائدًا عسكريًّا بارعًا ؛ إذ فكر في فتح مصر ، التي كانت مستعمرة بيزنطية ، وكان فيها جيش بيزنطي كبير ، كما أن القائد الرومي الأرطبون قد انسحب إليها بجنوده من فلسطين ، فخشي عمرو أن ينقض هذا القائد على فلسطين مرة أخرى عندما تواتيه الفرصة ويهدد الوجود الإسلامي فيها ؛ فلجأ إلى الهجوم قبل أن يهاجم .

سار عمرو إلى مصر في نهاية سنة (١٨هـ) ، وأتم فتحها في حوالي ثلاث سنوات (١٨ - ٢١هـ) [٣] ، ثم اتجه بعد ذلك بقواته إلى الغرب لتأمين حدود مصر

(١) انظر د . عبد العزيز الشناوي - المرجع السابق (٦٣/١) .
(٢) انظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ٤٧) .
(٣) انظر ابن عبد الحكم - المصدر السابق (ص ٤٧) وما بعدها ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٢٤٩) وما بعدها .

الغربية ، ففتح برقة ، وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار ، وقد قبل أهل برقة السيادة الإسلامية ، وكانوا يبعثون بالجزية التي فرضت عليهم من تلقاء أنفسهم إذا جاء وقتها ، ولم يكن يدخلها جابي خراج - على حد تعبير ابن عبد الحكم [(١)] - ومن برقة سار عمرو بن العاص غربا فافتتح طرابلس ، ومن هناك كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بفتح طرابلس ، ويستأذنه في المضي قدمًا لفتح إفريقية ، فقال له : « إن اللّٰه قد فتح علينا طرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها اللّٰه على يديه فعل » [(٢)] . ولكن عمر رفض أن يأذن له بمواصلة الفتح [(٣)] ، ولا نستغرب هذا من عمر بن الخطاب فحذره وحيطته فيما يتعلق بالفتوحات معروفان ، فعمر لم يكن تواقًا للفتح في حد ذاته ، وقد رأينا موقفه من فتح فارس ، ولعله لم يكن مستريحًا للسرعة التي دارت بها الفتوحات وكان يخشى أن تتسع أمام المسلمين وتصل إلى حد غير مأمون . ومن ناحية ثانية فإن عمر كان على يقين من أن الإسلام سينتشر ويغزو القلوب دون حاجة إلى حرب وقتال ؛ لأنه دين الفطرة الإنسانية السليمة التي فطر اللّٰه الناس عليها ، وكل ما كان على المسلمين أن يفعلوه أن يزيلوا من أمامه العقبات ، وأن يدعوا الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة .

أمام إصرار الخليفة عمر على رفض الاستمرار في الفتح ، لم يكن لعمرو بن العاص بد من العودة إلى الفسطاط ، ولكنه أرسل عدة حملات إلى ودان وفزان وزويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين [(٤)] . وترك عمرو بن عقبة بن نافع « على هذه البلاد الصحراوية ببرقة يدعو للإسلام ، ونجح عقبة في كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواتة ونفوسة ونفزاوة وهراوة وزواغة فدخلوا في الإسلام » [(٥)] . ولم يغفل عمرو أمر حدود مصر الغربية فكان كما يقول ابن عبد الحكم : « يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون » [(٦)] ، استمر عمرو بن العاص على

---

(١) المصدر السابق (ص ١١٦) ، والبلاذري - المصدر السابق (ص ٢٦٤) .
(٢) ابن عبد الحكم - المصدر السابق (ص ١١٧) ، البلاذري - المصدر السابق (ص ٢٢٦) .
(٣) ابن عبد الحكم - المصدر السابق (ص ١١٧) .
(٤) انظر ابن عبد الحكم - المصدر السابق (ص١١٦) ، وانظر د . حسين مؤنس - فتح العرب للمغرب (ص٦٩) ، ود. السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير (١٥٣/٢) .
(٥) د . السيد عبد العزيز سالم - المرجع السابق (١٥٢/٢) .
(٦) فتوح مصر وأخبارها (ص ١١٧) .

سياسته هذه إلى أن توفي عمر بن الخطاب سنة (٢٣هـ) ، وفي خلافة عثمان (٢٤- ٣٥هـ) انفرد عبد اللّٰه بن سعد بولاية مصر ، بعد استعفاء عمرو ، - كما سبق وأن ذكرنا - فواصل سياسة عمرو في توجيه الحملات إلى إفريقية ، وكان كما يقول ابن عبد الحكم : « يبعث المسلمين في جرائد الخيل ، كما كانوا يفعلون أيام عمرو ، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون » [(١)] ، ولكن يبدو أن عبد اللّٰه بن سعد رأى أن هذه الحملات الخاطفة غير كافية ، وأنه كان مرتابًا في أمر السكان في هذه المناطق الذين كان الروم يحركونهم لإزعاج المسلمين ، خصوصًا وأن هذه الفترة هي فترة الصحوة البيزنطية على عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني - الذي سبق الحديث عن محاولاته في غزو مصر والشام - لذلك كتب عبد اللّٰه بن سعد إلى عثمان يخبره بقرب أهل إفريقيا من حرز المسلمين ، ويستأذنه في غزوها ، فشاور عثمان الصحابة في ذلك ، فوافقوا على غزوها . يقول ابن عبد الحكم : « فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك ، فلما اجتمع الناس أمَّر عليهم عثمان الحارث ابن الحكم إلى أن يقدموا على عبد اللّٰه بن سعد مصر ، فيكون هو الأمير فخرج عبد اللّٰه بن سعد إليها ، وكان مستقر سلطان إفريقية [(٢)] يومئذ بمدينة يقال لها : قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له : جرجير - جريجوريوس - وكان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجة ، فلقيه جرجير فقاتله ، فقتله اللّٰه ، وكان الذي ولي قتله - فيما يزعمون - عبد اللّٰه بن الزبير ، وهرب جيش جرجير ، فبعث عبد اللّٰه السرايا وفرقها ، فأصابوا غنائم كثيرة ، فلما رأى ذلك أهل إفريقية طلبوا إلى عبد اللّٰه بن سعد أن يأخذ منهم مالًا على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ، ورجع إلى مصر ، ولم يولِّ عليهم أحدًا ولم يتخذ بها قيروانًا » [(٣)] وقد كانت الغنائم من الكثرة ، بحيث بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار [(٤)] .

كانت هذه الحملات التي قادها عمرو بن العاص ، ومن بعده عبد اللّٰه بن سعد على حدود مصر الغربية مفيدة للغاية بالنسبة للمسلمين ، فقد مكّنتهم من معرفة هذه

---

(١) فتوح مصر (ص ١٢٤) ، وابن عذاري - البيان المغرب (١/ ٩) .

(٢) المقصود بإفريقية هنا إقليم تونس الحالي . انظر في تحديدها واشتقاق اسمها ، ياقوت - معجم البلدان (١/ ٢٢٨ - ٢٣١) .

(٣) فتوح مصر (ص ١٢٤ ، ١٢٥) ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٢٦٨) .

(٤) ابن عبد الحكم - المصدر السابق (ص ١٢٥) ، وابن عذاري - البيان المغرب (١٢/١) .

البلاد القريبة من حرز المسلمين - على حد تعبير عبد اللَّه بن سعد - ودراسة جغرافيتها وطرقها ومسالكها ، ومدى قوتها ، وما تمثله من خطر على المسلمين في مصر ، وهذه سياسة ثابتة يلاحظها الدارس لتاريخ الفتوحات الإسلامية في جميع الجبهات ، حيث كان المسلمون يهتمون بدراسة المناطق المحيطة بهم ، والتردد عليها وطرقها مرارًا ؛ حتى يألفوها وتزول رهبتها من نفوسهم ، حتى إذا ما دعا الأمر إلى فتحها يكونون على دراية كاملة بها . واستمرت هذه السياسة في إفريقية إلى نهاية عهد عثمان . يقول ابن عبد الحكم : « ثم خرج إلى المغرب بعد عبد اللَّه بن سعد معاوية بن حديج التجيبي ، سنة أربع وثلاثين .. فافتتح قصورًا وغنم غنائم عظيمة ، واتخذ قيروانًا عند القرن ، فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر وكان معه في غزاته هذه جماعة من المهاجرين والأنصار ، ثم يقول : وهذه غزوة لا يعرفها كثير من الناس »[1] .

معاوية بن أبي سفيان وفتح إفريقية :

بعد غزوة معاوية بن حديج - المشار إليها آنفًا - في أواخر عهد عثمان بن عفان سنة (٣٤هـ) ، توقفت الغزوات في شمال إفريقيا ، بسبب الفتنة ألتي أدت إلى استشهاد عثمان ﵁ ، والتي استمرت طوال عهده علي بن أبي طالب (٣٥ - ٤٠هـ) حتى استشهد هو أيضًا ﵁ على يد عبد الرحمن بن ملجم ، فلما استتب الأمر لمعاوية (٤١ - ٦٠هـ) كانت جبهة شمال إفريقيا من أولى الجبهات التي وجه إليها اهتمامه ؛ لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية ، ومن ناحية ثانية فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية - العدو اللدود للمسلمين - والتي صمم معاوية على تضييق الخناق عيها ، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أنفاسها ، ففي الوقت الذي واصل فيه ضغطه عليها من الشرق ، وزحفه على جزرها في البحر المتوسط ، تمهيدًا للوصول إلى عاصمتها القسطنطينية - كما سبق ذكره - نراه قد قرر أن يطوقها من الجنوب ، من شواطئ شمال إفريقيا التي كانت تعتبرها من أملاكها .

ففي أول سنة من حكمه سنة (٤١هـ) أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقية ، ثم أرسله ثانية سنة (٤٥هـ) على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل ، فمضى حتى دخل إفريقية ، « وكان معه عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب .. وعبد اللَّه

---

(١) فتوح مصر (ص ١٣١ ، ١٣٢) .

ابن الزبير .. وعبد الملك بن مروان ، ويحيى بن الحكم بن العاص ، وغيرهم من أشراف قريش ، فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقًا يقال له : نجفور - نقفور - في ثلاثين ألف مقاتل ، فنزل الساحل ، فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة ، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة [١] اثنا عشر ميلًا ، فلما بلغ ذلك نجفورًا أقلع في البحر منهزمًا من غير قتال .. ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن ، ثم وجه ابن حديج عبد الملك ابن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء [٢] فحاصرها ، وقتل من أهلها عددًا كثيرًا حتى فتحها عنوة ، وأغزى معاوية بن حديج جيشًا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب ، فسبوا وغنموا وأقاموا شهرًا ، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة » [٣] .

عقبة بن نافع وفتح إفريقية :

أسفرت غزوة معاوية بن حديج - السالفة الذكر - عن فتح سوسة وجلولاء ، كما أنه غزا بنزرت وغنم منها مغانم كثيرة ، ورجع قافلًا إلى قمونية ، وبنى بناحية القرن مساكن وسماها قيروانًا [٤] .

بعد هذا النشاط الذي بدأ في جبهة شمال إفريقية نرى تصعيدًا لحركة الفتح فيها وزيادة اهتمام من معاوية بن أبي سفيان بأمرها ، وقد تمثل ذلك في إسناد قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى قائد من القادة الكبار ، الذين خلد التاريخ الإسلامي أسماءهم في ميدان الفتوحات وهو عقبة بن نافع الفهري [٥] الذي شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص ، واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة ، وكان عمرو ابن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط ، فظل فيها يدعو الناس إلى

---

(١) سوسة : مدينة صغيرة بنواحي إفريقية ، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلًا ويحيط بها البحر من ثلاث جهات ، من الشمال والجنوب والشرق . انظر ياقوت - معجم البلدان (٣/٢٨٢) .

(٢) هناك مدينتان تحملان هذا الاسم : إحداهما بفارس ، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ، وهي على طريق خراسان ، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة (١٦هـ) ، وهذه التي بإفريقية وبينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلًا . انظر ياقوت - معجم البلدان (٢/١٥٦) .

(٣) انظر ابن عذاري - البيان المغرب (١/١٦ ، ١٧) .

(٤) انظر المالكي - رياض النفوس (١/١٩) .

(٥) انظر ترجمة عقبة وأخباره في ابن الأثير - أسد الغابة (٤/٥٩) والكامل في التاريخ (٤/١٠٥) وابن عذاري - البيان المغرب (١/١٩) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٢) ، وابن حجر - الإصابة (٢/٤٩٢) .

الإسلام . وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله ؛ ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها - منذ فتحها أيام عمرو ابن العاص [١] - أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية ، ويكف أهلها عن الارتداد ؛ فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم ، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم ، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية ، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه كما يقول ابن الأثير [٢] ، فسار حتى نزل بمغمداش من سرت [٣] ، فبلغه أن أهل ودان [٤] قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عقبة قسمًا من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي ، وزهير بن قيس البلوي ، وسار هو بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان [٥] ، فلما دنا منهم دعاهم إلى الإسلام فأجابوا [٦] ، ثم واصل فتوحاته : ففتح قصور كوار [٧] ، وخاور [٨] ، وغدامس [٩] وغيرها . ثم بدأ عقبة في تنفيذ الفكرة التي عزم عليها ، وهي بناء مدينة تكون قاعدة ثابتة للمسلمين ، فقال لجنوده : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٤٦٥) .

(٢) المصدر السابق (٣/٤٦٥) .

(٣) يقول ياقوت في معجم البلدان (٣/٢٠٦) : « سرت » بضم أوله وسكون ثانيه وآخره تاء مثناة من فوق : مدينة على ساحل البحر الرومي بين برقة وطرابلس الغرب .

(٤) ودان بالفتح اسم لثلاثة مواضع منها : ودان اسم لقرية بالحجاز بين مكة والمدينة من نواحي الفرع ، وودان جبل طويل بين فيد والجبلين ، والثالثة ودان التي نتحدث عنها : وهي مدينة جنوبي إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية . انظر ياقوت - معجم البلدان (٥/٣٦٥ ، ٣٦٦) .

(٥) فزان ، بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون : ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب .. ومدينتها زويلة السودان ، ياقوت - معجم البلدان (٤/٢٦٠) .

(٦) ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٢) .

(٧) كوار - بضم الكاف وتشديد الواو المفتوحة وآخره راء - : إقليم من بلاد السودان جنوبي فزان . ياقوت - معجم البلدان (٤/٤٨٦) .

(٨) خاور - بفتح الخاء والواو وآخرها راء - : مدينة جنوبي فزان ، وهي مدينة كورة كوار . ياقوت - معجم البلدان (٢/٣٤١) .

(٩) غدامس - بفتح أوله وقد يضم - : هي مدينة بالمغرب في جنوبيه ضاربة في بلاد السودان ، ياقوت - معجم البلدان (٤/١٨٧) .

الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًّا للإسلام إلى آخر الدهر ، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين ، وقالوا : نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط ، فقال عقبة : إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به ، وإذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون » [١] ، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله ، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم ، وكان واديًا كثير الشجر ، تأوي إليه الوحوش والسباع والهوام .. وأمر الناس بالتنقية والخطط ، وركز رمحه ، وقال : هذا قيروانكم [٢] . وأمر ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع ، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة خمس وخمسين ، وسكنها الناس [٣] وفي أثناء بناء المدينة الذي استغرق خمس سنوات (٥٠ - ٥٥هـ) كان عقبة يغزو ويرسل السرايا ويدعو الناس إلى الإسلام ، فدخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين ، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها [٤] .

كانت مرحلة عقبة بن نافع هذه على جانب كبير من الأهمية في توجيه الفتوحات وتثبيتها في إفريقية ، وكان تأسيس القيروان دليلًا على الإصرار على مواصلة الفتح ولم تقم القيروان بدور كبير في فتح شمال إفريقيا كله والأندلس فحسب ، وإنما قامت بدور عظيم في نشر الإسلام في المغرب ، وأصبحت مركزًا من أهم مراكز الحضارة الإسلامية .

عزل عقبة بن نافع :

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته ، وينظم مدينته الجديدة ، إذ بوالي مصر مسلمة ابن مخلد يعزله ، ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر سنة (٥٥هـ) [٥] ، ولم يكن عزل

---

(١) ابن عذاري - البيان المغرب (١/١٩) .

(٢) يقول ياقوت عن القيروان : إنها مدينة عظيمة بإفريقية .. مصرت في الإسلام أيام معاوية ﷺ ، معجم البلدان (٤/٤٢٠) ، وانظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٢ ، ١٣٣) .

(٣) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٤٦٦) .

(٤) المصدر السابق (٣/٤٦٦) ، وانظر ابن عذاري - البيان المغرب (١/٢٠ ، ٢١) .

(٥) ابن عذاري - البيان المغرب (١/٢١) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣/٤٦٦) .

عقبة لتقصير أو عدم كفاية ؛ وإنما لأن مسلمة بن مخلد أراد أن يكافئ مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية ، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له : « لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلًا ، فقال : .. إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه » [١] .

ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتبًا ، وقال له : « فتحت البلاد ، وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لي ، ثم أرسلت عبد الأنصار ، فأساء عزلي » . فاعتذر إليه معاوية ، وقال له : « عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه ، وقيامه بدمه وبذله مهجته » [٢] .

واضح أن معاوية كان على علم بعزل عقبة ، فاعتذر له هذا الاعتذار الرقيق ووعده برده إلى ولايته ، ولكن الأمر تراخى كما يقول ابن عذاري حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد ، فرد عقبة واليًا على إفريقية [٣] .

أعتقد أن ما يذكره ابن عبد الحكم وابن عذاري عن حادثة عزل عقبة واضح ، وأنه يدور في نطاق العلاقات الشخصية بين القادة والولاة والخلافة .

ولكن بعض المؤرخين المحدثين يعلل الأمر بطريقة مختلفة ، فيقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم : « بتأسيس القيروان أخذت إفريقية تظهر كولاية هامة من ولايات الدولة العربية الإسلامية ، فتطلعت إليها أنظار الطامعين في ولايتها ، والظاهر أن اشتغال عقبة بتأسيس القيروان طوال خمسة أعوام ، وعزوفه عن الغزو أثناء ذلك [٤] حرم الخلافة من مورد هام لها ، وهو الغنائم الكثيرة التي كانت ترد من هذه البلاد ، وهنا أخذت السعايات ضد عقبة تلعب دورًا هامًّا في بلاط الخليفة بدمشق ، وكان مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر في مقدمة مَن سعى لعزل عقبة وضم ولاية إفريقية لمصر طمعًا في مواردها الوفيرة . وقد نجح في ذلك وأصبحت له منذ سنة (٥٥هـ) ولاية مصر والمغرب ... » . ثم يقول : « وذكر الأستاذ هنري تراس أن

---

(١) ابن عبد الحكم – فتوح مصر (ص ١٣٤) ، وابن عذاري – المصدر السابق (١/٢٢) .
(٢) ابن عبد الحكم – المصدر السابق (ص ١٣٤) ، وابن عذاري – المصدر السابق (١/٢٢) .
(٣) البيان المغرب (١/٢٢) .
(٤) لا أدري من أين وكيف استنتج الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن عقبة بن نافع أثناء انشغاله ببناء القيروان عازفًا عن الغزو . مع أن ابن الأثير يقول : « وكان عقبة – في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا – ودخل كثير من البربر في الإسلام » ، الكامل في التاريخ (٣/٤٦٦) .

معاوية عزل عقبة من ولاية إفريقية خوفًا من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة ، وليس من المستبعد أن يتجه تفكير معاوية إلى ذلك ؛ فقد كان يخشى أيضًا مطامع عمرو ابن العاص في مصر وإفريقية ؛ ولذلك جعل ولاية إفريقية تتبعه مباشرة بعد وفاة عمرو ، ولعله رأى في اهتمام عقبة بإفريقية ، وشعبيته في بلاد برقة وإفريقية ، وتأسيسه القيروان اتجاهًا منه نحو الاستقلال بحكم هذا الإقليم الغني بخيراته ، المتطرف عن أملاك الدولة الأموية ... فأسرع بضم ولاية إفريقية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري عامله على مصر ، ولعله أشار على مسلمة بعزل عقبة عن ولاية إفريقية » [١] .

الحق : لا يستطيع الإنسان أن يوافق على هذا الاستنتاج لعدة أمور ، منها : أن نزعة الاستقلال لم تكن تخطر على بال أحد من الولاة في ذلك الوقت . ثم إن عقبة ابن نافع بالذات لم يعرف عنه أنه طامع في الحكم أو لديه نزعة استقلال ، وإنما عرف عنه حبه للغزو والجهاد في سبيل اللّه ، وأنه خير وال وخير أمير [٢] . ثم لو كان معاوية يخشى من عقبة الاستقلال بإفريقية ، فلماذا اعتذر إليه متوددًا ، ثم وعده بإعادته إلى ولايته ؟ ولما لم يتم ذلك في عهده ، أعاده ابنه يزيد إلى ولايته ، ثم كيف يستقل عقبة بإفريقية ، وقد كان يعتمد في غزوها على الجند الذي يأتيه من مصر والشام حيث سار إليها بعشرة آلاف من قبل معاوية - كما أشرنا سابقًا - ؟ ثم إن عقبة دفعه شغب أهل البلاد وكثرة انتقاضهم إلى استعمال القسوة ووضع السيف فيهم كما يقول ابن الأثير ؛ لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوه ، وأظهر بعضهم الإسلام ، فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم [٣] ؛ لذلك لم يكن محبوبًا لديهم لشدته وقسوته عليهم [٤] ، ولم تكن له شعبية بينهم ، كما يذهب الدكتور سالم .

لكل ما تقدم لا نتفق مع الدكتور سالم في تعليله لعزل عقبة ، ونرى أن الأمر كما ذكرت المصادر القديمة - ابن عبد الحكم وابن عذاري على سبيل المثال - كان مجاملة من مسلمة بن مخلد لمولاه أبي المهاجر دينار ، ثم مجاملة من معاوية بن

---

(١) المغرب الكبير (٢٠٨/٢ ، ٢٠٩) ، وانظر كذلك د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (ص ١٥٠).

(٢) انظر ابن عذاري - البيان المغرب (٢١/١) .

(٣) الكامل في التاريخ (٤٦٥/٣) .

(٤) انظر د . أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤١) .

أبي سفيان لمسلمة لأياديه ومواقفه مع الأمويين ونصرته لهم .

بقيت نقطة في هذا الموضوع ، وهي الإساءة التي تعرَّض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله ؛ فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة ، فقد سجنه وأوقره حديدًا [١] ، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا ؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة [٢] ؛ فهذا اتهام لا يستند إلى دليل ، خصوصًا وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولى أبا المهاجر : « وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة أحسن العزل ، فخالفه أبو المهاجر ، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديدًا ، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه » [٣] . ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مرَّ بمصر وترضاه وأقسم له باللَّه لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر وقال له : ولقد أوصيته بك خاصة [٤] .

ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة ، مع أنه هو شخصيًا كان يجلُّ عقبة ، ويعرف مقامه ؟ وقد جزع عندما دعا عليه عقبة ، وقال : هذا رجل لا يرد له دعاء ! هذا هو السؤال الذي لا نملك عليه جوابًا شافيًا .. اللَّهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به الأستاذ محمد علي دبوز ، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطرارًا إلى القبض على عقبة وسجنه ؛ لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة ؛ لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر « ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم ، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين » [٥] . إن كان هذا الاستنتاج صحيحًا وهو على كل حال معقول ؛ فقد يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم ، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته ، بدلًا من الإساءة وتبادل الأحقاد ، وأن يكون السابق منهم

---

(١) انظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٣ ، ١٣٤) ، وابن عذاري - البيان المغرب (٢٢/١) .
(٢) فتح العرب للمغرب (ص ١٥١) .
(٣) فتوح مصر (ص ١٣٣ ، ١٣٤) .
(٤) المصدر السابق (ص ١٣٤) .
(٥) انظر محمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (٣٢/٢ ، ٣٣) .

حريصًا كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق ، حتى ينجح في مهمته ؛ لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل اللّه وإعلاء كلمته ونشر دينه .

فتوحات أبي المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢هـ) :

على الرغم من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه ، المجاهد الكبير عقبة بن نافع ، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول : إنه قام بدور عظيم في فتح المغرب ، وتمهيده لقبول الإسلام دينًا ونظام حياة ، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف ، وقد رأى - بثاقب نظره - أن سياسة القسوة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تتغير ، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب . فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم ؛ فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة ، وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحًا كبيرًا ، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال إفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم ، هم الروم [١] الذين أخذوا يتحببون إلى البربر ؛ ليجتذبوهم إلى جانبهم في حربهم ضد المسلمين ، فقرر أن يعزل البربر عن الروم ، أو قل : انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاؤوا إلى هذه البلاد ليستعمروهم ويستعبدوهم ويستغلوا بلادهم ، كما يحاول الروم أن يفهموهم ؛ وإنما جاؤوا لهدايتهم ولخيرهم وسعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم ، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون ، ولم تكن هذه مهمة سهلة أمام أبي المهاجر ؛ ذلك أنه عندما بدأ مهمته في المغرب كانت الدولة البيزنطية ، قد عمدت إلى تغيير سياستها حيال البربر في شمال إفريقيا ، فأخذت تتقرب إليهم وعملت على إنهاء خلافاتها معهم وبصفة خاصة الخلافات الدينية لتضمن ولاءهم ووقوفهم معها ضد المسلمين ، وكان صاحب هذه السياسة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥م) ، وقد نجح في سياسته ؛ فأزال ما عند البربر المسيحيين من عوامل الكراهية ضد الدولة البيزنطية ، فبدؤوا يعملون على شد أزرها ، ومناصرتها في حربها مع المسلمين وقام بذلك تحالف بين البربر المسيحيين والبيزنطيين بشمال إفريقيا وظهر تعاونهم جليًّا خلال الحملات الإسلامية التي تلت عزل عقبة ، واصطدم بتحالفهم الأول أبو المهاجر » [٢] .

---

(١) المرجع السابق (٣٣/٢) .

(٢) انظر د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ٢٣٩ ، ٢٤٠) ، وانظر د . السيد عبد العزيز =

وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية وجنوبه - لا زالوا قوة في الشمال ، ولا زالت عاصمتهم - قرطاجنة - عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين ، ثم إنهم لا زالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة ، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي ، ويكسر الحلف الذي عقدوه مع البربر ، فسار إلى قرطاجنة ونازلها (١) ، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية ، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها ، فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي ، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم ، فيدخل العاصمة باقتداره وقوته ، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك (٢) ، لتنزل فيها جنوده ، وتكون للمسلمين ولم يصالحهم بالأموال ليرجع عنهم ، كما فعل عبد الله بن سعد ؛ لأن غرض المسلمين هو الفتح والاستقرار وهذا يكون بامتلاك الأرض لا الأموال (٣) ، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك ، القريبة من قرطاجنة ، أن يراقب الروم وتحركاتهم ، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد (٤) .

وبذلك حقق نصرًا عسكريًّا وسياسيًّا كبيرًا على البيزنطيين فنزولهم له عن هذه الجزيرة المهمة التي أصبحت قاعدة للمسلمين بجوار قرطاجنة عاصمة إفريقية يعتبر دليلًا على ضعفهم ؛ إذ لو كانوا قادرين على رده عن قرطاجنة بدون دفع هذا الثمن لفعلوا ، وهكذا حقق أبو المهاجر هذا النصر ، وضرب التحالف البيزنطي البربري .

رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك ، ذلك الموقع الاستراتيجي المهم ، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين وتراقب تحركات الروم ، ثم اتجه بعد ذلك مسايرًا الساحل ناحية الغرب ، وقد خافه الروم والبربر جميعًا ؛ فلم يتعرض له أحد ، حتى وصل إلى مدينة ميلة (٥) ، على بُعد خمسين

= سالم - المغرب الكبير (٢/٢١٥) .
(١) انظر أبو المحاسن - النجوم الزاهرة (١/١٥٢) .
(٢) جزيرة شريك : تقع إلى شرق قرطاجنة ، وقد سميت بجزيرة شريك نسبة إلى شريك العبسي ، والدقرة ابن شريك الذي ولي مصر (٩٠ - ٩٦هـ) ؛ لأنه كان أحد العاملين عليها . انظر محمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٤) وهامشها ، وانظر : ياقوت - معجم البلدان (٣/٩٩) .
(٣ ، ٤) محمد علي دبوز - المرجع السابق (٢/٣٤) ، د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ٢٤١) .
(٥) أبو المحاسن - النجوم الزاهرة (١/١٥٢) .

ميلًا من بجاية في جنوبها الشرقي [١] ، فوجدها مستعدة للقتال وكان فيها طائفة من البربر والروم تحصنوا بها ؛ فنازلها أبو المهاجر واحتلها ، وغنم ما فيها واستقر بها ، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط ، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع ، فجعلها مقره ، وأقام بها نحوًا من سنتين وقد استثمر هذه المدة في الاتصال بالبربر ، وإفهامهم حقيقة الإسلام ، ودعوتهم إليه .

وقد نجح في سياسته نجاحًا كبيرًا فأقبل البربر على الإسلام ، وآية ذلك : أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب ، قسنطينة الآن ونواحيها إلى بجاية [٢] ؛ لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر ، وها هو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم ، فسكنت تلك النواحي ، سكون البحر بعد العاصفة ، على حد تعبير المؤرخ المغربي الأستاذ محمد علي دبوز [٣] . وبعد أن اطمأن أبو المهاجر إلى سكون هذه النواحي بدأ ينظر إلى المغرب الأوسط ، يرقب ما يجري فيه ، فترامت إليه الأخبار أن جمعًا للروم والبربر يستعد لحربه ، فقرر المسير إليهم .

وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة [٤] ، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس ، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم ، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد ، غيورًا على وطنه وكان البربر يجلونه ، ويحبونه وكان نصرانيًا متمسكًا بدينه ، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين فرآهم عدوًا لدينه ووطنه ، ورأى أن أبا المهاجر في ميلة فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى فذهب يدعو البربر لمكافحة العرب والاستعداد لحربهم ، وإجلائهم عن بلادهم ، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب ، واستعدوا للقراع ، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم [٥] .

---

(١) بجاية : مدينة على ساحل البحر ، بين إفريقية والمغرب ، ياقوت – معجم البلدان (٣٣٩/١) . وميلة – بكسر الميم وسكون الياء وفتح اللام وتاء مربوطة – مدينة صغيرة بأقصى إفريقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام ، ياقوت – معجم البلدان (٢٤٤/٥) .

(٢) محمد علي دبوز – تاريخ المغرب الكبير (٣٥/٢) .

(٣) المرجع السابق (٣٥/٢) .

(٤) انظر ابن خلدون – العبر (١٤٦/٦) ، وانظر كذلك محمد علي دبوز – المرجع السابق (٣٨/٢) .

(٥) محمد علي دبوز – المرجع السابق (٣٨/٢) .

معركة تلمسان [١] :

بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان ؛ انتظارًا للقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره ، فقد وصل أبو المهاجر ، وعسكر بجيشه حول تلمسان ، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية ، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيرًا ، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها ، وكثر القتلى من الجيشين ، ثم أنزل اللّٰه نصره على المسلمين ، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار ، وأسر كسيلة ، فحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك [٢] . هنا تجلت براعة أبي المهاجر في استثمار النصر على النحو الذي يحقق هدفه في استمالة البربر فلم يعمد إلى إذلال زعيمهم ، بل أحسن إليه وقربه وطمع في إسلامه ، وأدرك أنه لو أسلم كسيلة ، فسيكون إسلامه سببًا في إسلام قومه ؛ لأنه زعيم كبير ، وله في قلوب البربر مكانة ومحبة ، فحدَّثه عن الإسلام وعرَّفه حقيقته ، وأنه دين التوحيد الخالص للّٰه ، ودين المساواة والحرية والأخوة الإنسانية ، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئًا ، بل بالعكس سوف يكسب الكثير روحيًا وماديًا ... وكان كسيلة ذكيًا طموحًا مخلصًا لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح ، فعلم أن الإسلام هو دين السعادة والقوة والحياة وخير الدارين ، وأن العرب المسلمين هم الإخوة الأصفياء الذين يسعدون البربر ، ويأخذون بأيديهم إلى النجاح ، فآمن كسيلة بما دعا إليه أبو المهاجر ، فأصبح من المسلمين وأغرم بالعربية فصار يتعلمها ، وأعجب بجمال الإسلام في سيرة المسلمين فأحبهم ، وأصبح أبو المهاجر وصحبه هم خاصته وأولياءه ، وأحب أبو المهاجر كسيلة ، ورجا منه خيرًا كبيرًا للإسلام ؛ فشمر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين فدعا قومه البربر للدين الحنيف ، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم لأبي المهاجر والمسلمين ، فأحبوه لما أطلق رئيسهم كسيلة من الأسر ، وأحسن إليه وعظمه وبجله ، والبربر جنس كريم معتد بنفسه ، يملكه من يحترمه ويعرف له مقامه ، فأقبل البربر على الإسلام ، وأصبحوا أحباء العرب يزدادون تقاربًا على الأيام ليصبحوا شعبًا واحدًا يصل بينهم

---

(١) تلمسان - بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة ، وبعضهم يقول تنمسان بالنون ، بالمغرب وهما مدينتان .. بينهما رمية حجر ، إحداهما قديمة ، والأخرى حديثة ، اختطها الملثمون . فهي كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر - ياقوت (٤٤/٢) .

(٢) انظر محمد علي دبوز - المرجع السابق (٣٨/٢ ، ٣٩) ، وانظر د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ٢٤١) .

الإسلام ، وتلحم بينهم العربية ، فقرت عين أبي المهاجر بما رأى ، وازداد يقينًا بأن السيف وحده ليس وسيلة لامتلاك الشعوب [١] .

عاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريبًا من القيروان ، وأقام بقرية تسمى : دكرور ، يراقب الأمور ، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ، ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقي ، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام ؛ فقد توفي مولاه مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر سنة (٦٢هـ) ، وكان مسلمة سندًا قويًّا لأبي المهاجر ، فلما زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ) عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر .

حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ - ٦٣هـ) :

عرفنا جهود عقبة بن نافع في فتوح المغرب منذ بدايتها ، سواء عندما كان يعمل تحت إمرة غيره من الولاة مثل عمرو بن العاص ، وعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح ، أو عندما استقل بالعمل وحده حين أسند إليه الخليفة معاوية بن أبي سفيان قيادة الغزوات ، وأنه أسس في هذه المرحلة مدينة القيروان (٥٠ - ٥٥هـ) لتكون قاعدة للمسلمين يأمنون فيها ، ومنها ينطلقون في غزواتهم ، وعرفنا الظروف التي عزل فيها عقبة ، وأنه استاء من العزل ؛ فذهب إلى دمشق وقابل معاوية فاعتذر له ووعده بإعادته إلى إفريقية لكن هذا الوعد لم يتحقق إلا في خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ) ، وبصفة خاصة بعد وفاة والي مصر مسلمة بن مخلد سنة (٦٢هـ) ؛ ففي هذه السنة أعاد يزيد عقبة إلى إفريقية وعزل عنها أبا المهاجر [٢] .

وصل عقبة إلى إفريقية ، وكان أول ما صنعه هو الانتقام من أبي المهاجر والإساءة إليه ، فأوثقه في وثاق شديد [٣] . واضح أن عقبة لم يستطع أن يتخلص من شعوره العدائي ضد أبي المهاجر ، بعد هذه السنين الطويلة ، وكنا نود أن يرتفع عقبة فوق شهوة الانتقام ، وأن يعفو عن أبي المهاجر ، بل أن يصادقه ويستفيد من خبرته وجهوده ؛ حرصًا على مصلحة الإسلام ، وكان خليقًا بعقبة - وهو المجاهد الكبير - أن يفعل ذلك ، لكن يبدو من الصعب على النفوس البشرية أن تتخلص من نزعاتها ،

---

(١) انظر محمد علي دبوز - المرجع السابق (٣٨/٢ ، ٣٩) . وانظر أيضًا د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ٢٤١) .

(٢) ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٤) . (٣) المصدر السابق (ص ١٣٤) .

فمصادرنا تكاد تجمع على أن عقبة عامل أبا المهاجر معاملة قاسية [١] .

لم يضيع عقبة وقتًا بعد وصوله ، فبعد أن رتب أمر القيروان – مدينته التي أسسها وتعب فيها وارتبطت باسمه – واستخلف عليها زهير بن قيس البلوي ، ودعا قائلًا : يا رب املأها علمًا وفقهًا ، واملأها بالمطيعيين لك ، واجعلها عزًّا لدينك ، وذلًّا على من كفر بك [٢] . بعد هذا بدأ عقبة على الفور الاستعداد للغزو ، الذي كان شغوفًا به ، توَّاقًا إلى استئنافه ، وكان عدد جنوده الذين سيقودهم في حملته الكبرى خمسة آلاف حسب رواية ابن عبد الحكم [٣] ، وخمسة عشر ألفًا حسب تقدير الدباغ [٤] ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس تقدير الدباغ ؛ لأن خمسة آلاف جندي أقل من أن ينهضوا بعمل كبير كالذي قام به عقبة في حملته الكبرى [٥] .

ويبدو أنه لا تعارض بين التقديرين ؛ لأن العدد الذي أشار إليه ابن عبد الحكم قال عنهم : إنهم من المصريين ، فتكون الزيادة التي جاءت في تقدير الدباغ هي عدد الجند من البربر المسلمين الذين ضمهم عقبة إلى جيشه ومن بقية الجيش الذي كان بالمغرب ، والمصادر مجمعة على أن عقبة في هذه المرحلة الأخيرة من جهاده قد أطلق لنفسه ولفرسه العنان ، ولعل الفترة التي قضاها بعيدًا عن ميدان غزوه من سنة (٥٥هـ) حتى سنة (٦٢هـ) قد زادته شوقًا إلى الغزو ، فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان بسرعة لم تمكنه من تثبيت أقدامه في المكان الذي سيتركه خلفه .

وقد أوجز ابن عذاري غزوات عقبة في مسيرته تلك على النحو التالي : فقال : « وشرع عقبة في هذه الغزوات المذكورة بعد .. غازيًا للروم والبربر ، وهم إذ ذاك مجوس ونصارى وذلك بمدينتي باغاية وقرطاجنة ، وما والاهما ، فهزمهم وقتلهم وأخذ المسلمون من سبيهم وخيلهم شيئا كثيرًا » [٦] . ثم يمضي ابن عذاري في حديثه عن غزوات عقبة فيقول : « فمضى إلى مدينة المنستير [٧] ، وكانت في ذلك

---

(١) انظر ابن عبد الحكم – المصدر السابق (ص ١٣٤) ، وابن عذاري – البيان المغرب (١/ ٢٣) ، والمالكي – رياض النفوس (١/ ٢٢) ، ود . حسين مؤنس – فتح العرب للمغرب (ص ١٧٩) .

(٢) ابن عذاري – المصدر السابق (١/ ٢٣) . (٣) فتوح مصر (ص ١٣٥) .

(٤) د . حسين مؤنس – فتح العرب للمغرب (ص ١٨١) نقلًا عن معالم الإيمان (١/ ٤٣) .

(٥) فتح العرب للمغرب (ص ١٨١) .

(٦) البيان المغرب (١/ ٢٤) ، وانظر أيضًا المالكي – رياض النفوس (١/ ٢٣) .

(٧) المنستير – بضم أوله وفتح ثانيه وسكون السين المهملة ، وكسر التاء المثناة من فوقها وياء وراء – هو موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية بينه وبين كل واحدة منهما مرحلة . انظر ياقوت – معجم البلدان (٥/ ٢٠٩) .

الزمان من أعظم مدائن الروم ، فلجأ إليها من كان حولها منهم وخرجوا إليه في عدة وقوة ، فقاتلهم قتالًا شديدًا ، حتى ظن أنه الفناء ، إلى أن هزمهم اللَّه إلى باب حصنهم ، فأصاب المسلمون غنائم كثيرة ورحل عنهم .. وغزوته لهم أيضًا بالزاب ، وقتاله إياهم على وادي المسيلة ، فهزمهم وقتلهم ، وذهب عز الروم وملكهم من الزاب [١] إلى آخر الدهر » [٢] . ثم يمضي ابن عذاري في حديثه عن غزوات عقبة لتيهرت [٣] ، وطنجة حتى بلغ السوس الأقصى ، وكان يهزم كل من يتجمع له من الروم والبربر .

وهكذا استمر عقبة في غزواته هذه السريعة الخاطفة ، من القيروان حتى بلغ المحيط الأطلسي ، وأوطأ فرسه مياهه ، وقال قولته المشهورة : « اللَّهم اشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك » [٤] .

استشهاد عقبة :

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص كان يحس إحساس المؤمن الصادق أنه سيلقى ربه شهيدًا في هذه الجولة ؛ فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده ، وقال لهم : « إني قد بعت نفسي من اللَّه ﷻ ، وعزمت على من كفر به ، حتى أقتل فيه وألحق به ، ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أم لا ؛ لأن أملي الموت في سبيل اللَّه » . وأوصاهم بما أحب ، ثم قال : « عليكم سلام اللَّه .. اللَّهم تقبل نفسي في رضاك » [٥] . نعى عقبة نفسه إلى أولاده ، فتقبل اللَّه منه ، وحقق له أمله في الشهادة ، فقد أعد له الروم والبربر كمينًا عند تهوذة [٦] ، وأوقعوا به وقضوا عليه ، هو ومن معه من جنوده .

---

(١) يوجد أكثر من مكان يحمل اسم الزاب ، من ذلك الزاب الأسفل قرب مدينة واسط بالعراق ، والزاب الأعلى بالعراق أيضًا ، وهو المكان الذي دارت فيه معركة الزاب المشهورة بين مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وعبد اللَّه بن عباس وهو بين الموصل وأربل . أما المقصود هنا فهو زاب المغرب ، وهو كورة عظيمة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة ، ياقوت – معجم البلدان (١٠٤/٣) .

(٢) ابن عذاري – البيان المغرب (٢٤/١) .

(٣) تيهرت – المقصود بها تاهرت – وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد ، ياقوت – معجم البلدان (٧/٢) .

(٤) المالكي – رياض النفوس (٢٥/١) .

(٥) انظر ابن عذاري – البيان المغرب (٢٣/١ ، ٢٤) .

(٦) يقول ياقوت – معجم البلدان (٦٤/٢) : تهوذة – بالفتح ثم الضم وسكون الواو وذال معجمة – : اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم .

وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة ، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة في قومه ، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه فأسلم وتبعه كثير من قومه ، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة وبالغ في إذلاله [١] ، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه - رغم أنه كان في حكم المعتقل - فحاول إقناعه بالإحسان إليه واصطناعه لمكانته في قومه ، ولكن عقبة لم يسمع نصيحة أبي المهاجر ، فلما رأى أبو المهاجر إصرار عقبة على موقفه من كسيلة ، استاء من ذلك ، وقال له غاضبًا : « بئس ما صنعت ! كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب ، وأنت تأتي إلى رجل جبار في قومه في دار عزه ، قريب عهد بالشرك ، فتهينه ؟! فتهاون عقبة بكلامه ، فانتهز كسيلة فرصة فنكث » [٢] .

وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم ، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم ، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة ، وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم ، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة ، وقال له : « عاجله قبل أن يستفحل أمره » [٣] . ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضًا وليته احتاط للأمر ، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة ، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بمسافات طويلة ، متخليًا عما كان عليه أن يتحلى به من الحذر في هذا الموقف ، فسهل بذلك لكسيلة والروم مهمة الفتك به ؛ ذلك أن كسيلة كان قد بيَّت نية الغدر به منذ بدأ يسيء إليه ، ودارت الرسل بينه وبين الروم ، واتفقوا على تدبير الإيقاع به وبينما هو في تهوذة ، وإذا بكسيلة يحيط به في جيش كبير عدته خمسون ألفًا [٤] ، وعندما رأى عقبة ذلك ، وأدرك وأنه لن يستطيع الإفلات من هذه الكارثة ، قرر أن يواجه الموقف بنفسه ونصح أبا المهاجر بالفرار ، وقال له : « الحق بالمسلمين فقم بأمرهم ، فأنا أغتنم الشهادة » [٥] . ولكن أبا المهاجر أبت عليه شهامته وخلقه أن

(١) من مظاهر الإذلال الذي ألحقه عقبة بكسيلة أمره له بالاشتراك في ذبح وسلخ الشياه ، فلما قال له كسيلة : هؤلاء فتياني وعبيدي يكفوني المؤونة ، فلم يقبل منه عقبة ذلك ، فوقع ذلك من نفس كسيلة والبربر عامة موقعًا سيئًا . انظر ابن عذاري - البيان المغرب (٢٩/١) .

(٢) ابن عذاري - المصدر السابق (٢٩/١) .

(٣) المصدر السابق (٢٩/١) ، وانظر أبو المحاسن - النجوم الزاهرة (١٥٩/١) .

(٤) انظر ابن عذاري - المصدر السابق (٢٩/١) . (٥) المصدر نفسه (٢٩/١) .

يتركه وحده ، وقال له : « وأنا واللّه أغتنمها معك ، فكسر كل واحد منهما جفن سيفه ، وكسر المسلمون أغماد سيوفهم ، وأمرهم أن يترجلوا عن خيولهم ، فقاتلوا قتالًا شديدًا ، حتى بلغ منهم الجهد وكثرت فيهم الجراح ، وتكاثر عليهم العدو ، فقتل عقبة وأبو المهاجر ، ومن كان معهما من المسلمين ، ولم يفلت منهم أحد ، إلا بعض وجوههم أسروا ، ففداهم صاحب قفصة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس ، وكان عقبة قد خلفه أميرًا على القيروان » [(١)] . وهكذا تحقق أمل عقبة ونال الشهادة في سبيل اللّه ، ومهما كان من أمره ، وسواء أكان ما حدث له نتيجة لأخطائه التي أشرنا إليها ، ولإفراطه في الثقة بنفسه ، وعدم حذره ، أو لأي سبب آخر ، فقد أدى الرجل واجبه كاملًا ، واستقبل الشهادة في سبيل اللّه بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها ، وشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده ، زهير بن قيس البلوي ، وحسان بن النعمان الغساني ، وموسى بن نصير .

دفع المصير الذي آل إليه عقبة باستشهاده في تهوذة بعض المؤرخين المحدثين إلى الحكم عليه بأحكام قاسية ، وأنه لم تكن له خطة محددة ، ولا غاية واضحة من حملته الكبرى هذه [(٢)] . ولا ندري كيف يوصف عقبة بأنه لم تكن له خطة ولا غاية من حملته ، مع أن غاية الرجل واضحة غاية الوضوح وهي الجهاد في سبيل اللّه ، وتمهيد الطريق لنشر الإسلام ؟! ولكن يبدو أن النهاية التي انتهى إليها عقبة هي التي دفعت بعض المؤرخين إلى هذه الأحكام القاسية عليه ، فلو نجا عقبة من معركة تهوذة ، لكان الكلام غير الكلام ، والأحكام غير الأحكام ، فالأمور عادة بما تصير إليه .

أثر معركة تهوذة على المسلمين :

كانت معركة تهوذة كارثة على المسلمين ، ما في ذلك شك ، حيث استشهد القائد البطل الجريء ، عقبة بن نافع ، وصحبه ، وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين ، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع ، فمع أن العدد الذي استشهد مع عقبة كان قليلًا - قيل حوالي ثلاثمائة جندي - وأن معظم الجيش كان قد سار متقدمًا

---

(١) المصدر السابق (٢٩/١) ، وانظر كذلك في استشهاد عقبة ومأساة تهوذة ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٤) ، وأبو المحاسن - النجوم الزاهرة (١٥٩/١) ، د . حسين مؤنس - فتح العرب للمغرب (ص١٩٩) .

(٢) انظر على سبيل المثال رأي د . حسين مؤنس في هذا الموضوع : فتح العرب للمغرب (ص ٢٠٢) .

ونجا من المعركة ، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم ، حتى يحتفظ بوجوده في القيروان ، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك ، وقد حاول زهير بن قيس البلوي - خليفة عقبة على القيروان - أن ينفخ في الجنود روح المقاومة والتصدي لكسيلة عندما زحف على القيروان ، وهتف قائلًا : « يا معشر المسلمين ، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد منَّ اللَّه عليهم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم ، ويفتح اللَّه عليكم دون ذلك » [(١)] . ولكن صيحة زهير هذه لم تجد استجابة ، بل لقيت معارضة وتثبيطًا ، حيث تصدى له حنش الصنعاني ، وقال له : لا واللَّه ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية ! ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم ، ثم قال : يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض في أثره ، ولحق بقصره ببرقة ، وأقام بها مرابطًا إلى دولة عبد الملك بن مروان [(٢)] . وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية ، وقصد القيروان ، وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين ، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ، ودخل القيروان ، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان » [(٣)] .

ضاعت إذن كل الجهود التي بذلها المسلمون في فتح هذه البلاد منذ حملات عمرو بن العاص الأولى وحتى حملة عقبة الثانية ، ولكن الذي يخفف من الأسى أن المسلمين لم يستسلموا للهزيمة ، بل ربما يمكن القول : إن هذه الهزيمة حفزت المسلمين على مواصلة الفتح ، وشدَّت انتباه الدولة الأموية أكثر فأكثر إلى هذه الجبهة ، فالخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٦٨هـ) رغم انشغاله بمشاكل المشرق وهي كثيرة وهائلة - إلا أنه لم ينس شمال إفريقيا ؛ بل جهز لها جيشًا وأسند قيادته إلى الرجل الخبير بشؤونها ، وهو زهير بن قيس البلوي .

زهير بن قيس وجهاده :

زهير بن قيس البلوي [(٤)] من أشراف الصحابة ، ومن كبار الأبطال الفاتحين

---

(١) انظر ابن عذاري - المصدر السابق (٣١/١) .
(٢) المصدر السابق (٣١/١) ، وانظر أبو المحاسن - النجوم الزاهرة (١٥٩/١) .
(٣) أبو المحاسن - المصدر السابق (١٦٠/١)
(٤) انظر ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير (٢٦٧/٢) ، والإصابة لابن حجر (٢٥/٤) ، وابن عذاري - البيان المغرب (٣٢/١ ، ٣٣) .

المجاهدين شارك في فتوح المغرب مشاركة كبيرة ، ولازم عقبة بن نافع في غزواته ، وكان من أكبر أعوانه في كل ما قام به من أعمال في المغرب ، وقد رأيت أنه قد استخلفه على القيروان أثناء حملته الأخيرة على المغرب لثقته في أمانته وشجاعته ، فقد كان زهير يجاهد جهاد المخلصين الذين لا ينتظرون غنيمة ولا منصبًا ولا شهرة ؛ وإنما يبتغون الأجر من الله ﷻ . وقد رأيت أن هزيمة تهوذة لم تنل من عزيمته ؛ إذ حاول أن يلم شمل المسلمين ويتصدى لكسيلة ويمنعه من دخول القيروان ، ولكنه لم يجد استجابة من رجاله فاضطر أن يرجع إلى برقة ، على أمل أن تمده الخلافة بجند يرد بهم هيبة الإسلام ، ويكسر شوكة الكفر ، لكن الخلافة كانت مشغولة عنه بالأحداث الدامية التي تلت وفاة يزيد بن معاوية سنة (٦٤هـ) ، ولكن ذلك لم يدم طويلًا ؛ لأن الخليفة عبد الملك بن مروان بلغ من اهتمامه بأمر إفريقية وما حدث فيها أنه لم ينتظر حتى يفرغ من مشاكله الخطيرة في المشرق ، بل عناه أمرها وهو في غمرة الأحداث ، يقول ابن عذاري : « وفي سنة (٦٥هـ) من الهجرة ولي عبد الملك بن مروان ، فلما اشتد سلطانه ، واجتمع أكابر المسلمين عليه ، سألوه تخليص إفريقية ومن بها من المسلمين ، من يد كسيلة اللعين ، فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينًا وعقلًا فاستشار مع وزرائه ، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي ، وقالوا : هذا صاحب عقبة ، وأعلم الناس بسيرته وتدبيره ، وأولاهم بطلب دمه ، فوجه عبد الملك بن مروان إلى زهير وهو ببرقة ، يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ، ليستنقذ من بالقيروان ، فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، فأمده عبد الملك بن مروان بالخيل والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه ، فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى إفريقية »[1] .

كان تحرك زهير بن قيس من برقة متجهًا إلى الغرب في سنة (٦٩هـ) أي بعد مضي ست سنوات منذ استشهاد عقبة سنة (٦٣هـ) وسيطرة كسيلة على إفريقية ، ولكن ما إن علم بمسير زهير وجيشه إلى القيروان ، حتى انسحب منها إلى ممس – في غربها – وهذا دليل على الفزع الذي انتابه من مسير المسلمين إليه ، حيث لم تغنه الجموع الكثيرة التي معه من الروم والبربر ، وقد حاول كسيلة تغطية انسحابه من

(١) البيان المغرب (٣١/١) ، وانظر كذلك البلاذري – فتوح البلدان (ص ٢٧٠) ، وابن الأثير – الكامل في التاريخ (١٠٨/٤ ، ١٠٩) ، وأبو المحاسن – النجوم الزاهرة (١٦٠/١) .

القيروان أمام جنده وأفهمهم بأن هذا تكتيك عسكري ، فقال لهم : « إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة ، فإن بها قومًا من المسلمين ، لهم علينا عهود ، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن ننزل على موضع ممس ، وهي على الماء فإن عسكرنا خلق عظيم فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ؛ فيكون لنا المغرب إلى آخر الدهر ، وإن هزمونا كان الجبل منَّا قريبًا » (١) .

هزيمة كسيلة ومقتله في معركة ممس :

لم يغن كسيلة ما معه من جمع عظيم ، ولم يغنه كذلك حيطته وحذره فبعد رحيله عن القيروان تقدم إليها زهير ، فعسكر حولها أيامًا ليريح جيشه من عناء السفر ، وبعد أن جم واستراح استأنف مسيره إلى حيث يعسكر كسيلة في ممس ، وهناك دارت المعركة ، وكانت معركة قاسية . يقول ابن عذاري : « فالتقى الجمعان والتحم القتال بين الفريقين ، ونزل الضر وكثر القتل في الفريقين ، حتى يئس الناس من الحياة ، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل ومضى الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيرًا منهم وقتلوهم ، وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية بالغرب . ففي تلك الموقعة ذهب رجال الروم والبربر المشركين ، وقتل ملوكهم وأشرافهم ، ثم انصرف زهير إلى القيروان » (٢) .

وهكذا انتصر جند اللّه على أعدائه وانتقموا لاستشهاد عقبة وأصحابه ، وكان لموقعة ممس من الأثر السيئ في نفوس الروم والبربر ، ما كان لمعركة تهوذة في نفوس المسلمين ، فتًّا في الأعضاد وإثارة للرعب (٣) .

استشهاد زهير بن قيس :

طريق الجهاد مفروش دائمًا بأجساد الأبطال ، وأرضه مرويَّة بدمائهم الطاهرة الزكية ، فلم يتحقق هدف نبيل قط بدون تضحيات كبيرة ، فكما كتب على زهير ابن قيس أن يرافق البطل الشهيد عقبة بن نافع في جهاده ، وغزواته لإعلاء كلمة اللّه ؛ فقد كتب عليه أيضًا أن يرافقه في مصيره ، وأن ينال مثله شرف الشهادة في

---

(١) انظر ابن عذاري – البيان المغرب (٣٢/١) ، وانظر كذلك ابن الأثير – الكامل في التاريخ (١٠٨/٤ ، ١٠٩) .

(٢) البيان المغرب (٣٢/١) ، وانظر كذلك ابن الأثير – الكامل في التاريخ (١٠٩/٤) ، ومحمد علي دبوز – تاريخ المغرب الكبير (٦٣/٢) ، والدكتور حسين مؤنس – فتح العرب للمغرب (ص ٢٢٣) .

(٣) د . شكري فيصل – حركة الفتح الإسلامي (ص ١٧٢) .

سبيل اللَّه ، فهذا الرجل لم يكن يعمل للدنيا ، ولا لتحقيق مجد شخصي ؛ وإنما كان يعمل من أجل العقيدة والمثل العليا التي جاء بها الإسلام الحنيف لتحرير الشعوب من الوثنية والظلم والاستعباد ، فلو كان زهير بن قيس يعمل للدنيا والمجد لطاب له المقام بالقيروان ، بعد نصره العظيم ، على كسيلة وجيشه ، ولكن ترك ذلك كله ، وعاد ليواصل جهاده في سبيل اللَّه . يقول ابن عذاري : « ثم إن زهيرًا رأى بإفريقية ملكًا عظيمًا ، فأبى أن يقيم بها ، وقال : إني ما قدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن تميل بي إلى الدنيا فأهلك . وكان من رؤساء العابدين ، وكبراء الزاهدين ؛ فترك القيروان آمنة وانصرف عنها وأقام بها كثير من أصحابه » (١) .

كان الروم أثناء توجه زهير إلى حرب كسيلة ، قد أغاروا على برقة فقتلوا كثيرًا من المسلمين ونهبوا وسبوا ، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير إلى برقة من إفريقية ، فأخبر بخبرهم ، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعًا أن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم ، فأشرف على الروم وإذا هم في خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه النزول فنزلوا ، وكانوا أشراف العابدين ، ورؤساء العرب المجاهدين ، وأكثرهم من التابعين ، فنزل الروم إليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم الروم فقتل زهير ﷺ وأشراف من كان معه من العرب ، ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك بن مروان ، فأخبروه أن أميرهم وأشراف رجالهم قد استشهدوا ، فعظم ذلك عليه ؛ لفضل زهير ودينه ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة قبله . فاجتمع أشراف العرب ، وسألوا عبد الملك أن ينظر لإفريقية من يسد ثغرها ، ويصلح أمرها ، فقال لهم عبد الملك : ما أرى أحدًا كفئًا لإفريقية كحسان بن النعمان (٢) .

وهكذا مضى بطل آخر من أبطال المسلمين إلى جوار ربه شهيدًا ، بعد أن أدى واجبه على أكمل وأفضل ما يؤدي المجاهدون في سبيل اللَّه ، وكما كان استشهاد عقبة حافزًا للدولة على مزيد من الاهتمام بأمر إفريقية ، حيث أرسل عبد الملك زهيرًا لتأديب البربر والروم معًا ، كان كذلك استشهاد زهير حافزًا لعبد الملك على توجيه اهتمام أكبر نحو إفريقية ، فعبد الملك رجل لم يعرف اليأس إلى نفسه سبيلًا ؛ فصمم

(١) البيان المغرب (٣٢/١ ، ٣٣) ، وانظر كذلك ابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٠٩/٤) .
(٢) ابن عذاري - البيان المغرب (٣٣/١) ، وانظر كذلك ابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٠٩/٤ ، ١١٠) .

على القضاء على نفوذ الروم في الشمال الإفريقي كله قضاءً مبرمًا ، فهم رأس الحية وبيت الداء ، فإذا قضى عليهم فسينفتح الطريق أمام البربر ليتعرفوا أكثر فأكثر على حقيقة الإسلام ، وأهداف المسلمين ، وسيدخلون في دين اللَّه ، ويصبحون من المجاهدين في سبيله ، وقد تحقق ذلك كله في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد .

مرحلة حسان بن النعمان الغساني [1] :

أقلق استشهاد زهير بن قيس عبد الملك بن مروان وأحزنه ، ولكنه من ناحية ثانية شد انتباهه أكثر إلى جبهة إفريقية فأدرك أن الروم قد ألقوا بثقلهم هناك ؛ لعلهم يعوضون الهزائم التي حلَّت بهم في المشرق ، ويبدو أنهم قد عقدوا العزم على إجلاء المسلمين عن إفريقية ولكنهم كانوا واهمين ، فإذا كان على أحد أن يرحل عن إفريقية ، بل عن الشمال الإفريقي كله ، فهم الروم أنفسهم ، فصمم عبد الملك على طردهم نهائيًا من هناك ، كما طردهم أسلافه العظام من الشام ومصر .

ووقع اختياره على رجل كفء من كبار المجاهدين الفاتحين ؛ ليقود المسلمين لفتح الشمال الإفريقي ، ويلقن الروم درسًا لن ينسوه أبدًا ، ذلك الرجل هو حسان ابن النعمان الغساني . لم يكن في استطاعة عبد الملك أن يرسل جيشه إلى إفريقية على وجه السرعة ؛ لانشغاله بأمر ابن الزبير ، فلما انتهت حركته وقتل سنة (٧٣هـ) . كان أول ما اهتم به عبد الملك أمر إفريقية . يقول ابن الأثير : « فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه ، جهز جيشًا كثيرًا ، واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان بن النعمان الغساني ، وسيَّرهم إليها في هذه السنة - (٧٤هـ) - فلم يدخل إفريقية قط جيش مثله » [2] .

توجَّه حسان إلى إفريقية ، فوصل إلى طرابلس ، وتجمع إليه بها من كان خرج من إفريقية فقاد جيشه ، ففتح كثيرًا من البلاد وأصاب غنائم كثيرة [3] . ثم توجه بعد ذلك إلى قرطاجنة ، وهي عاصمة إفريقية البيزنطية ، والتي كان أبو المهاجر قد حاصرها ، ولم يقدر على فتحها ولكن حسان صمم على الاستيلاء عليها وتخريبها ، وكان بقرطاجنة من الروم والبربر خلق عظيم لا يحصى كثرة ، على حد تعبير ابن

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/١٤٠ ، ٢٩٤) ، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن (١/٢٠٠) .

(٢) الكامل في التاريخ (٤/ ٣٦٩) .

(٣) ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٥) .

الأثير وابن عذاري (١) . ولكن حسان هزم هذه الجموع الكثيرة ، وقتل منهم أعدادًا كبيرة ؛ « فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب ، فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف ، فسبى وقتلهم قتلًا ذريعًا ، وأرسل الجيوش فيما حولها ؛ فأسرعوا إليه خوفًا ، فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه » (٢) .

بعد الذي صنعه حسان بقرطاجنة بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطفورة (٣) وبنزرت (٤) « فسار إليهم وقاتلهم ، ولقي منهم شدة وقوة ، فصبر لهم المسلمون ، فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعًا من بلادهم إلا وطئه ، وخافه أهل إفريقية خوفًا شديدًا ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى باجة (٥) ، فتحصنوا بها ، وتحصن البربر بمدينة بونة (٦) ، فعاد حسان إلى القيروان ؛ لأن الجراح قد كثرت في أصحابه ، فأقام بها حتى صحُّوا » (٧) .

حسان بن النعمان والكاهنة :

بعد هذه الجولة الأولى التي قام بها حسان بن النعمان - والتي وصل فيها إلى قرطاجنة - دار ملك الروم بإفريقية ودمرها وخافه الروم فلجأوا إلى باجة ، وخافه البربر ، فلجأوا إلى بونة ، « ولم يذكر المؤرخون أنه وجد مقاومة ، أو تنمَّرت له إحدى تلك المدن - قابس ونفزاوة ، وقسطيلية وقفصة - فترك عماله في تلك النواحي ، فسار إلى القيروان » (٨) ؛ ليستريح ويريح جنده . وفي الفترة التي تلت استشهاد زهير بن قيس حوالي سنة (٧٠هـ) إلى مجيء حسان إلى إفريقية سنة

---

(١) الكامل في التاريخ (٣٦٩/٤) والبيان المغرب (٣٤/١) .

(٢) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٦٩/٤) ، وابن عذاري - المصدر السابق (٣٤/١ ، ٣٥) .

(٣) صطفورة - يقول ياقوت في معجم البلدان (٤٠٥/٣) : بلدة من نواحي إفريقية .

(٤) بنزرت - بفتح الزاي وسكون الراء - مدينة بإفريقية بينها وبين تونس يومان ، وهي من نواحي صطفورة ، مشرفة على البحر ، ياقوت - معجم البلدان (٤٩٩/١) .

(٥) باجة : يقول ياقوت في معجم البلدان (٣١٤/١) : هناك خمسة مواضع تسمى باجة ، منها باجة الأندلس ، وباجة هذه التي نتحدث عنها : بلد بإفريقية تعرف بباجة القمح ، سميت بذلك ؛ لكثرة حنطتها ، بينها وبين تنيس يومان .

(٦) بونة - بالضم ثم السكون - مدينة بإفريقية بين مرسى الخرز وجزيرة بني مزغاني وهي على البحر ، ياقوت - معجم البلدان (٥١٢/١) .

(٧) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٧٠/٤) ، وابن عذاري - المصدر السابق (٣٥/١) .

(٨) محمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (٧٠/٢) .

(٧٤هـ) - كانت زعامة المغرب قد آلت بعد مقتل كسيلة سنة (٦٩هـ) على يد زهير بن قيس إلى امرأة بربرية من قبيلة جراوة البترية ، اسمها الكاهنة ، وسميت الكاهنة ؛ لأنها كانت تدعي علم ما غاب عن الناس ، وتخبرهم بأشياء من الغيب [١] ، ولما استراح حسان وجم جنده ، قال للناس : « دلوني على من بقي من ملوك إفريقية » [٢] فدلوه عليها ، وقالوا له : إنها اعتصمت بجبال أوراس [٣] ، « وإن قتلتها لم يختلف البربر بعدها عليك » [٤] . استفحل أمر الكاهنة ، فأصبحت أبرز وأهم شخصية بربرية في المغرب . يقول ابن عذاري : « وجميع من بإفريقيا من الروم منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون » [٥] ، وهذا تعبير بليغ عما بلغته الكاهنة من سلطان . ولما كان حسان قد جاء للإجهاز على كل قوة تعوق المسلمين عن تحقيق أهدافهم ، كان لا بد أن يسير إلى هذه الكاهنة للقضاء عليها حتى يدين له البربر ، ولا يختلفون عليه . ولكن يبدو أن قوات الكاهنة كانت ضخمة ، ولعل حسان لم يقدر قوتها حق قدرها ؛ لأنها ألحقت به هزيمة فادحة ، في أول معركة نشبت بينهما ، وهي معركة وادي مسكيانة بالقرب من قصر نيني ، وقد سمى المسلمون وادي مسكيانة : وادي البلاء ، ويوم المعركة : يوم البلاء [٦] ؛ لشدة ما لقوا ولكثرة ما قتل وأسر منهم .

ومما يدل على جسامة الهزيمة التي حلت بحسان وجيشه أنه انسحب من إفريقية كلها وعاد إلى برقة [٧] ، « وكتب إلى عبد الملك يعلمه بالحال فأمره عبد الملك بالمقام إلى أن يأتيه أمره ، فأقام بعمل برقة خمس سنين » [٨] .

الجولة الثانية بين حسان والكاهنة وقضاؤه عليها :

كان من الطبيعي أن يشتد أمر الكاهنة ويقوى بعد هزيمة حسان في وادي مسكيانة وهو على رأس جيش كبير ، قدر بأربعين ألفًا [٩] ، فقد سيطرت على

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣٧٠/٤) . (٢) المصدر السابق (٣٧٠/٤) .

(٣) يقول ياقوت في معجم البلدان (٢٧٨/١) : أوراس بالسين المهملة جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر .

(٤) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٧٠/٤) . (٥) البيان المغرب (٣٥/١) .

(٦) محمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (٨٠/٢) .

(٧) ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٥) . (٨) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٧٠/٤) .

(٩) محمد علي دبوز - المرجع السابق (٧٩/٢) .

المغرب كله ، ولكن ربما يكون هذا النصر قد ولَّد لديها إحساسًا كبيرًا بالغزو ، فأساءت السيرة في أهلها - الذين كانوا يحبونها ويطيعونها - وظلمتهم وعسفت بهم [1] ؛ مما كان له أثر في وضع حد لنهايتها ، أما حسان فقد بقي في برقة مترقبًا وصول الأوامر والإمدادات من الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقد طال انتظاره حوالي خمس سنوات ، ويبدو أن عبد الملك آثر هذا الانتظار حتى يفرغ من مشاغل ومشاكل المشرق ، ويستطيع تدبير قوات كافية تقضي نهائيًا على هذه الزعيمة البربرية ، ومع فداحة الهزيمة التي حلت بحسان ، إلا أن عبد الملك لم يجزع لها ؛ لأن أحداث المغرب كانت قد علَّمت المسلمين أن طبيعة الحرب هناك لا تدعو لليأس ، بل تحتاج إلى الصبر فما أكثر دخول المسلمين هذه البلاد ، وما أكثر خروجهم منها ولكنهم كانوا في كل مــرة يزدادون جــرأة عليها ، وتمكنًا منها ، وسنرى أن الفترة الثانية من عمل حسان ستثبت ذلك وتمكُّن له من هذه البلاد [2] .

بقي حسان في برقة ينتظر مدد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ليسير إلى الكاهنة ؛ ليثأر لهزيمته منها ، فلما واتت عبد الملك الفرصة أرسل إليه الجنود والأموال [3] ، وكان حسان أثناء إقامته في برقة يعرف أخبار الكاهنة من أحد رجاله الذين وقعوا في أسرها ، وهو خالد بن يزيد ؛ فقد كتب إليه أن البربر تفرقوا عنها لإساءتها السيرة فيهم ، فقد خربت البلاد وأحرقت الزروع والأشجار وطلب منه الإسراع في المسير إليها [4] . وعندما توجه حسان إليها تأكد له صدق ما كتب به إليه خالد ، فقد استقبله الروم والبربر مستغيثين به منها ، وقدموا له الأموال والطاعة فسره ذلك [5] ، واستطاع أن يسترد قابس وقفصة وقسطيلية ونفزاوة في سهولة ، وكلما تقدم يزداد قوة ، وتزداد الكاهنة ضعفًا بتفرق أصحابها عنها إلى الأندلس وغيرها ، وأخيرًا دارت المعركة الفاصلة بينهما عند مكان يسمى بئر الكاهنة [6] ، فدارت الدائرة عليها وهزم جيشها هزيمة منكرة ولقيت هي حتفها في المعركة . وانتهى أمر هذه الكاهنة التي استبدت وظلمت ، وكان لسوء سيرتها في أهلها أثر

---

(١) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٧٠/٤ ، ٣٧١) .
(٢) د . شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ١٧٥) .
(٣) انظر ابن الأثير - المصدر السابق (٣٧١/٤) ، وابن عذاري - البيان المغرب (٣٧/١) .
(٤) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٧١/٤) . (٥) المصدر السابق (٣٧١/٤) .
(٦) ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٦) .

كبير في هزيمتها ، وبعد المعركة جاء البربر إلى حسان مستأمنين « فأمنهم وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفًا يجاهدون العدو ، فأجابوه إلى ذلك ، فجعل على هذا العسكر ابني الكاهنة ، ثم فشا الإسلام في البربر وعاد حسان إلى القيروان .. وأقام لا ينازعه أحد » (١) .

كان نصر حسان بن النعمان على الكاهنة هذه المرة حاسمًا في تاريخ المغرب كله ؛ حيث توالت الانتصارات ، وشهد المسلمون في إفريقيا بعد مقتل الكاهنة وجلاء الروم أولى فترات الاستقرار المتصلة ، فلم يغادروا هذه الأرض بعد تلك الموقعة ، وإنما انطلقوا منها لإخضاع ما تبقى من المغرب ، كما سيأتي بعد ، وسينفذون من هناك إلى الأندلس ، وسيكون لهم في هذا الجزء من العالم تاريخ حي (٢) .

حسان وتنظيم المغرب :

لم يقض حسان على مقاومة البربر العتيدة ، وعلى زعيمتهم الكاهنة فقط ، ولم يكن انتصاره عسكريًّا فحسب ؛ وإنما شرع في وضع سياسة للمغرب تنتهي بأهله إلى اعتناق الإسلام ، ليستمتعوا بهدايته وليكونوا قوة تجاهد في سبيله ، بعد أن كانوا يقاومونه ، وآية هذه السياسة أنه أمَّن البربر وجعلهم ينضمون إلى جيوش الإسلام وعهد إلى ولدي الكاهنة بالقيادة ؛ حيث جعل كل واحد منهما على ستة آلاف جندي من قومهم ، الذين أسلموا عن طواعية واختيار وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر . وانصرف حسان إلى القيروان بعد ما حسن إسلام البربر ، وخلصت له طاعتهم ، وكان ذلك في رمضان سنة (٨٢هـ) (٣) . كان عمل حسان إذن أكثر من نصر عسكري ؛ فقد عمل على تنظيم البلاد ، وتدوين الدواوين ، وإنشاء المدن ؛ فأسس مدينة تونس ، وأنشأ دارًا لصناعة السفن . وعلى الجملة فقد أخذ الرجل يتفرغ للإدارة والتنظيم والتعمير ، ولكنه لم يطل به الزمن ليكمل مهمته الحضارية فقد عزله والي مصر عبد العزيز بن مروان ، وتولَّى مكانه بطل آخر من أبطال المسلمين ليكمل مهمته وهو موسى بن نصير .

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٣٧٢/٤) ، وابن عذاري - البيان المغرب (٣٨/١) .
(٢) د . شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ١٧٦) .
(٣) ابن عذاري - البيان المغرب (٢٨/١) ، والمالكي - رياض النفوس (٣٦/١) .

مرحلة موسى بن نصير [١] :

لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه ، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتولية موسى بن نصير في سنة (٨٥هـ) ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان ، الذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى [٢] . ويفهم من كلام ابن عذاري أن عبد العزيز بن مروان قد عزل حسانًا وولى موسى بن نصير دون الرجوع إلى أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان ، حيث يقول : « وكان عبد الملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عن مصر في هذه السنة (٨٥هـ) على ما فعل من عزل حسان بن النعمان .. فنهاه قبيصة بن ذؤيب ، وقال : لعل الموت يأتيه فتستريح منه .. وكانت وفاة عبد العزيز في جمادى الأولى من السنة المؤرخة » [٣] وهي سنة (٨٥هـ) .

وكيفما كان الأمر فقد ولي موسى بن نصير المغرب بعد حسان بن النعمان وقدِّر له أن يقوم بدور مهم في تاريخ هذا الجزء من العالم الإسلامي ؛ حيث جنى ثمار جهود القادة الذين سبقوه ، فاستكمل فتح المغرب ، ثم ارتبط اسمه هو ومولاه طارق ابن زياد بفتح الأندلس ، وعندما قدم موسى بن نصير المغرب خطب في المسلمين خطبة حماسية [٤] ، بث بها فيهم روح الجد وحثهم على التضحية والفداء في سبيل اللّٰه ، ووضح عزمه الأكيد على استكمال فتح المغرب .

وقد بدأ عمله على الفور ؛ ففي أواخر سنة (٨٥هـ) وهي السنة التي تولى فيها - استهل أعماله بالاستيلاء على قلعة زغوان [٥] ، وهي منطقة جبلية بين القيروان وتونس ، ثم بعث ابنه عبد الرحمن إلى نواحي القيروان وبعث أحد قواده وهو عياش ابن أخيل إلى قبائل هوارة وزناتة وكتامة [٦] ، ثم غزا صنهاجة وسجومة في المغرب الأوسط ، ثم وجه ابنه مروان إلى السوس الأقصى ، وكان ملك السوس يومئذ يسمى مزدانة ، فالتقى به مروان بن موسى وهزمه وقتل جنوده قتل الفناء على حد

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٤/٤٨٦ - ٥٠٠) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/١٧١) ، والبيان المغرب لابن عذاري (١/٤٦) ، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن (١/٢٣٥) .

(٢) انظر الكندي : الولاة والقضاة (ص ٥٢ ، ٥٣) .

(٣) البيان المغرب (١/٤١) .

(٤) انظر الخطبة بكاملها في الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٢/٥١) .

(٥) ابن عذاري - البيان المغرب (١/٤٠) . (٦) المصدر السابق (١/٤١) .

تعبير صاحب الإمامة والسياسة [(١)] . وكانت تلك الغزوة استئصالاً لمقاومة أهل السوس ، ثم واصل غزواته وفتوحاته وتوَّج ذلك بالاستيلاء على مدينة طنجة ، وولى عليها مولاه طارق بن زياد ، وترك معه سبعة عشر رجلًا يعلِّمون البربر القرآن وشرائع الإسلام [(٢)] . وعلى وجه الإجمال فقد أخضع موسى بن نصير المغرب كله ، ولم تستعص عليه إلا مدينة سبتة الساحلية ؛ لمناعتها ولأن الإمدادات كانت تأتيها من البحر [(٣)] .

ولم تقتصر غزوات موسى بن نصير على المناطق البرية في المغرب ، وإنما قام بعدة غزوات بحرية على الجزر الواقعة في البحر المتوسط قبالة الشواطئ الإفريقية من ذلك غزوته لصقلية في أوائل سنة (٨٦هـ) ، والتي غنم فيها غنائم كبيرة ، ثم عقد لعياش بن أخيل لواء حملة بحرية غزا فيها جزيرة سرقوسة ، ثم غزا عبد اللّٰه بن مرة جزيرة سردانية [(٤)] . هذا النشاط البحري الذي قام به موسى بن نصير يدل على وعي كامل بالخطر الذي لا زال الروم يمثلونه بالنسبة للمسلمين ؛ فقد أراد بذلك أن يمنع إغارتهم وإغارات حلفائهم القوط على السواحل الإسلامية ، كما أنه من المحتمل جدًّا أن تكون هذه الغزوات البحرية التي قام بها موسى بن نصير لتمهيد الطريق لفتح الأندلس .

فتح الأندلس [(٥)]

يطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون - قديمًا - كلمة الأندلس على شبه جزيرة أيبريا [(٦)] ، والتي تضم في الوقت الحاضر دولتي أسبانيا والبرتغال ، ولكن كلمة الأندلس في المدلول الجغرافي الحديث تطلق على الولاية الجنوبية من أسبانيا الواقعة بين نهر الوادي الكبير والبحر ، وبين ولاية مرسية وأشبيلية [(٧)] . ويعلل ابن الأثير

---

(١) (٥٨/٢ ، ٥٩) .
(٢) ابن عذاري - المصدر السابق (٤٢/١) .
(٣) د . السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير (٢٥٧/٢) .
(٤) انظر فتوحات موسى بن نصير وغزواته البرية والبحرية في المغرب : ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص١٣٧) ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٢٧٢) ، والإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٥٤/٢) وما بعدها ، وابن عذاري - البيان المغرب (٤٢/٢) وما بعدها ، ومحمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (١٢٨/٢) وما بعدها .
(٥) انظر الخريطة رقم (٧) في ملحق الخرائط .
(٦) انظر معجم البلدان لياقوت (٢٦٢/١) وما بعدها تحت كلمة الأندلس .
(٧) انظر كتاب : بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي ، هامش (ص ٨) تحقيق د . محمد شامة .

تسمية الأندلس ، فيقول : « قالوا : أول من سكنها قوم يعرفون بالأندلش بشين معجمة ، فسمي البلد بهم ، ثم عرِّب بعد ذلك بسين مهملة ، والنصارى يسمون الأندلس : أشبانية باسم رجل صلب بها يقال له : أسبانش ، ويقال : باسم ملك كان بها في الزمان الأول اسمه أشبان بن طيطس ، وهذا هو اسمه عند بطليموس » (١) . وهناك تفاصيل كثيرة عن أصل التسمية ومدلولاتها لا نرى داعيًا للإطالة فيها ، فالذي يعنينا من أمر الأندلس أكثر من غيره أوضاعها السياسية والاجتماعية والدينية قبيل الفتح الإسلامي ، ثم الأسباب التي دعت المسلمين إلى فتحها .

أولًا : الناحية السياسية :

كانت الأندلس - أو شبه جزيرة أيبريا - منذ القرن الخامس الميلادي تحت حكم القوط الغربيين ، والقوط من القبائل البربرية التي هبطت من شمال أوربا (٢) ، وأخذت تعيث فسادًا في أراضي وممتلكات الإمبراطورية الرومانية ، وبعد حروب طويلة معها طرأت ظروف جديدة جعلتهم يطلبون الدخول في طاعة الإمبراطورية ، من تلك الظروف زحف الهون من الشرق وضغطهم على القوط وهزيمتهم (٣) ؛ فانقسموا قسمين : قوط شرقيون ، أذعنوا للهون ، وانضووا تحت جناحهم . وقوط غربيون لم يجدوا لهم ملاذًا سوى أن يطلبوا من الإمبراطور الروماني فالنز (٣٦٤ - ٣٧٨م) الدخول في طاعته فقبل منهم ولكنهم لم يكونوا قد تخلصوا من بداوتهم ، فكانوا كثيري الشغب والثورات على الدولة ، وفي عهد الإمبراطور هونوريوس (٣٩٥ - ٤٢٣م) قاموا بأكبر ثوراتهم ضد الإمبراطورية بقيادة زعيمهم ألاريك ، وخربوا تراقيا واليونان ، وفي سنة (٤١٠م) استولوا على روما ونهبوها (٤) . ولكن بعد وفاة زعيمهم ألاريك اضطروا لعقد الصلح من جديد مع الإمبراطورية واندمجوا في جيوشها ، واشتركوا في قمع الثورات التي هبت في وجهها في غاليا - جنوب فرنسا - وشمال أسبانيا ، ثم استقروا في وسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهري الجارون واللوار ، واتخذوا مدينة تولوز عاصمة لهم .

---

(١) الكامل في التاريخ (٤/٥٥٦ ، ٥٥٧) وانظر كذلك ابن خلدون - العبر (٢/٢٣٥) وانظر في وصف الأندلس وجغرافيتها وتاريخها من بدايته حتى الفتح الإسلامي : ابن عذاري - البيان المغرب (٢/١) وما بعدها .

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور - أوربا العصور الوسطى (١/٦٩) .

(٣) المرجع السابق (١/٧٠) .

(٤) المرجع السابق (١/٧٣) .

وهكذا قامت للقوط دولة ، ولكن في نطاق التبعية للدولة الرومانية ، واستمر القوط الغربيون على ولائهم لها ، فعاونوها في محاربة الوندال ، الذين كانوا قد استقروا في شبه جزيرة أيبريا ، وكان تيودريك الثاني زعيم القوط - وهو ابن ألاريك - قد اشترط على الدولة الرومانية أن يحتفظ لنفسه ولعقبة بما يفتحه من أسبانيا ، فاستطاع أن يطرد الوندال منها إلى شمال إفريقيا في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي ، ولم تأت نهاية ذلك القرن حتى كان القوط الغربيون قد ملكوا شبه الجزيرة الأيبيرية كلها ، واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لهم ، ووضعوا لدولتهم الجديدة نظمًا وقوانين خاصة بهم ، ولكنها متأثرة بروح النظم والحضارة الرمانية ، كما أنهم قد اعتنقوا المسيحية ، واستمر حكمهم لشبه جزيرة أيبريا حتى الفتح الإسلامي ، وقبيل دخول المسلمين الأندلس كانت الأوضاع السياسية فيها قد تدهورت وسادها الاضطراب بسبب الصراع على العرش بعد وفاة الملك غيطشة سنة (٧٠٨م) بين ابنه قارله وبين رذريق الذي نجح في اغتصاب الملك بمساعدة بعض النبلاء ورجال الدين ؛ الأمر الذي أدى إلى انقسام خطير بين صفوف الجيش والشعب : فريق يوالي الملك الجديد ، وفريق يوالي الملك المخلوع [(١)] . ودخلت البلاد في حالة من الفوضى السياسية ، وفقدان الوحدة والنظام ، وجاء المسلمون والبلاد على هذه الحال ، ومن المحتمل أن تكون هذه الأوضاع من الأسباب التي جعلت الملك المخلوع وأنصاره يدعون المسلمين لفتح بلادهم .

ثانيًا : الوضع الاجتماعي في الأندلس وقت الفتح الإسلامي :

ساد البلاد تحت حكم القوط وضع اجتماعي شاذ ؛ حيث قسم المجتمع إلى عدة طبقات :

١ - **طبقة النبلاء** : وهم الأمراء القوط وعلى رأسهم الملك ، وهؤلاء كانوا يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بامتلاك الإقطاعات والضياع الواسعة ، ومعظم حكام الأقاليم منهم [(٢)] .

٢ - **طبقة رجال الدين** : وهؤلاء استغلوا مركزهم الديني - لما للدين من سلطان على الناس في تلك الأزمنة - فاستمتعوا بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وأصبحوا على درجة كبيرة من الثراء وساعدهم على بلوغ هذه الدرجة أن القوط متدينون ،

---

(١) انظر د . أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٥٤) .

(٢) انظر المرجع السابق (ص ٥١) .

يغلب عليهم الميل إلى إرضاء رجال الدين ، وقد تمتع الأحبار والرهبان بمركز مرموق لدى الحكام ؛ مما جعل لهم تأثيرًا مكنهم من توجيه القوانين والنظم ، وصياغة الحياة العقلية والاجتماعية وفقًا لاتجاه الكنيسة وغاياتها ، وقد استغل رجال الدين هذا النفوذ في إحراز الضياع ، وتكديس الثروات ، واقتناء الزراع والأرقاء . وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجتمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين ، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار [١] .

٣ - **طبقة سواد الشعب** : وهذه الطبقة كانت مكونة من الزراع الذين كانوا شبه أرقاء ، يلحقون بالضياع ، للسيد عليهم حق الحياة والموت ، وكانت هذه الطبقة تزرع تحت شقاء الحياة وبؤسها ، ويفرض عليها وحدها القيام بالأعمال الشاقة ، ودفع الضرائب والمغارم ، وفوق هذا كله فقد سلبت كل الحقوق المدنية ، وحرمت حتى من الشعور بالعزة والكرامة [٢] .

٤ - **اليهود** : كان بالأندلس جالية كبيرة من اليهود ، وهذه لم تكن تنعم بالحياة الهادئة ؛ إذ كانت موضع البغض والكراهية ، والتحامل ، بل كان اليهود يعانون أبشع ألوان الجور والاضطهاد ، وكانت الكنيسة منذ قوي نفوذها تحاول تنصيرهم وتمارس في سبيل ذلك أشد أنواع العنف وأقسى طرق المطاردة [٣] .

مما تقدم نرى أن أسبانيا لم تشهد فسادًا سياسيًّا فحسب ؛ بل كانت أوضاعها الاجتماعية أشد فسادًا فلا عجب إذن أن نرى ترحيبًا بالمسلمين الفاتحين وبصفة خاصة من الطبقتين الأخيرتين ، وهما طبقة سواد الشعب وطائفة اليهود ؛ لأن الإسلام خلَّصهم من الظلم وحرَّرهم من الاستغلال والاستعباد . يقول توماس أرنولد - وهو أوربي مسيحي ، ولا يمكن أن يتهم بالدفاع عن الإسلام والتحامل على الكنيسة - : « واتخذ القسس من وراء هذه القوة التي وصلوا إليها سبيلًا لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كثيرة العدد في أسبانيا ، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من يمتنع عن الدخول في المسيحية ، وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة

---

(١) انظر بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي (ص ١١) من مقدمة المحقق ، وانظر : الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد (ص ١٥٤) وما بعدها ود . أحمد مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٥١) .

(٢) انظر بين الإسلام والمسيحية (ص ١٢) ، وتوماس أرنولد - المرجع السابق (ص ١٥٥) ، ود . أحمد مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٥٢) .

(٣) المراجع السابقة على الترتيب وأرقام الصفحات .

وعدُّوهم مخلِّصين لهم مما حل بهم من المظالم ؛ فساعدوهم على فتح أبواب المدن ، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت في أيديهم ، كذلك رحب بالمسلمين هؤلاء الذين حل بهم البؤس والشقاء في عهد المسيحيين الكاثوليك الذين كانت معرفتهم بأصول المسيحية سطحية ، إذا ما وزنت بذلك التسامح الديني ، وهذه المزايا الكثيرة التي حصلوا عليها بإلقاء زمامهم إلى المسلمين » (١) .

ثالثًا : الوضع الديني :

لن نطيل الكلام عن الناحية الدينية في الأندلس عند الفتح الإسلامي لها ، فكل الشعب تقريبًا - باستثناء اليهود - كان مسيحيًّا على المذهب الكاثوليكي ، الذي فرضه رجال الكنيسة فرضًا ، وحرموا انتشار أي مذهب آخر غيره في البلاد ؛ وبهذا أحكم رجال الدين الكاثوليك قبضتهم على الناس المتدينين البسطاء واستطاعوا بنفوذهم الطاغي استصدار قانون « يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أي شك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة وفي النظم الإنجيلية وتفاسير الآباء الروحيين ، والمراسم الكنسية والقرابين المقدسة » ، وقد كسب رجال الدين لطائفتهم نفوذًا راجحًا في شؤون الدولة ، وكان الأساقفة وكبار رجال الدين يحضرون المجالس الوطنية التي كانت تجتمع لإقرار الشؤون العامة في الدولة ، والمصادقة على انتخاب الملك ، وادعت لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم (٢) .

دوافع المسلمين لفتح الأندلس :

هذا هو الوضع في الأندلس - من جميع نواحيه السياسية والاجتماعية والدينية - في الوقت الذي كان العرب المسلمون قد أتموا فتح الشمال الإفريقي كله ، وأصبحت لهم السيادة على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط ، قبالة الأندلس ، عدا مدينة سبتة ، التي ربما كان عدم الاستيلاء عليها مقصودًا وباتفاق مع حاكمها القوطي يوليان ، الذي كان له دور لا ينكر في فتح الأندلس ، ومساعدة المسلمين على نجاح مشروعهم لفتحها ؛ فالمجتمع طبقي فيه تمايز كبير بين الطبقات وفيه ظلم ، ونظامه السياسي فاسد (٣) ، وغير متماسك ، وحياته الدينية أشد فسادًا وظلمًا ، والحياة كلها يسودها

---

(١) الدعوة إلى الإسلام (ص ١٥٤ ، ١٥٥) . (٢) المرجع السابق (ص ١٥٤) .

(٣) انظر جاك ريسلر - الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون (ص ٤١) . والدكتور أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٥٤) .

التذمر والشعور بالظلم وعدم الثقة أو الانسجام بين الحاكمين والمحكومين ، ومجتمع هذا شأنه لا يستطيع الصمود أمام أية قوة غازية ، ولكن ما شأن هذا كله بالإسلام والمسلمين ؟ أو بمعنى آخر : هل كانت هذه الأوضاع السيئة التي يعيشها الشعب في الأندلس هي التي دعت المسلمين لفتحها وتخليصه من الظلم والفوضى ؟

وفي الإجابة على ذلك نذكر أن المؤرخين الأوربيين متفقون على أن الوضع في الأندلس كان في غاية الفساد والظلم من جميع نواحيه وأن المنصفين منهم يرون أن الفتح الإسلامي لهذه البلاد كان خيرًا وبركة على السواد الأعظم من الشعب الذين رحبوا بالمسلمين الفاتحين (١) ، وأن أسبانيا تحت الحكم الإسلامي أصبحت هي البقعة الوحيدة المضيئة في أوربا في عصورها الوسطى المظلمة وبعض المؤرخين يذكر صراحة أن المسلمين عبروا المضيق تلبية لنداء وجّهه إليهم يوليان حاكم سبتة القوطي (٢) ، نيابة عن سكان الأندلس لتخليصهم من نيران الحكم القوطي (٣) ؛ لأنه من غير المعقول أن يتحمل يوليان وحده تبعة هذه الدعوة التي وجهها للمسلمين لفتح بلاده ، ومن غير المعقول كذلك أن نعوِّل كثيرًا على قصة ابنته واعتداء روذريق عليها ، وأن ذلك وحده كان سبب حقده عليه ؛ مما جعله يستعدي عليه المسلمين ، بل المعقول أن نرجح أن يوليان في موقعه في سبتة على الشاطئ الإفريقي قد أصبح ملاذًا لكل الحاقدين على حكم روذريق من الشعب الأسباني ، وبصفة خاصة أولاد الملك المخلوع غيطشة ، الذين اغتصب روذريق ملكهم ، وهذا كله تؤكده وقائع التاريخ ، فإن أبناء غيطشة قد ساروا مع روذريق متظاهرين بالتعاون معه لحرب المسلمين في أول وأهم معركة حدثت بينه وبينهم ، وهي معركة شذونة ؛ لكنهم ما إن نشبت المعركة حتى تخلوا عنه هم وكثيرون غيرهم بغضًا له (٤) .

وعلى هذا فإننا لا نجد بأسًا من القول بأن المسلمين عبروا المضيق إلى الأندلس وفتحوها لتخليص الشعب من الظلم والطغيان وتحريره من الاستغلال والإذلال ، وهذه مهمة نبيلة يجب أن يقدم الشكر للمسلمين على القيام بها ، ومن المستبعد أن يكون الدافع للمسلمين لفتح الأندلس هو الرغبة في التوسع لذاته ؛ لأن المسلمين كان لديهم

---

(١) انظر توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ١٥٥) ، وجاك ريسلر - الحضارة العربية (ص ٤١) .
(٢) ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٨) وابن الأثير - الكامل (٤/٥٦١) .
(٣) بين الإسلام والمسيحية (ص ٩) .
(٤) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤/٥٦١) .

ما يكفيهم من بلاد ، بل كانوا يعتقدون أنهم أصحاب رسالة إنسانية سامية توجب عليهم ألا يتخلوا عن أي شعب يطلب نصرتهم ، ويستغيث بهم ليحرروه من الظلم .

وهناك تفسيرات أخرى لبواعث الفتح يضيفها بعض المؤرخين إلى ما تقدم مثل القول بأن المسلمين أرادوا الانتقام من القوط ؛ لأنهم كانوا يساعدون الروم في صراعهم مع المسلمين في شمال إفريقيا ، وأن أسطولهم اشترك مع الأسطول البيزنطي في مهاجمة المسلمين [١] .

المفاوضات التي سبقت فتح الأندلس :

عبر طارق بن زياد المضيق إلى الأندلس على رأس جيشه المكون من سبعة آلاف جندي كان معظمهم من البربر في شهر رمضان سنة (٩٢هـ) . ولكن كم من الوقت استغرقت المفاوضات والاستعدادات لهذا الفتح العظيم ، منذ عرض يوليان الفكرة على طارق بن زياد الذي نقلها إلى قائده موسى بن نصير وموسى نقلها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ؟

تقول مصادرنا : إن يوليان عرض الفكرة ووجه الدعوة للمسلمين منذ سنة (٩٠هـ) [٢] وهو تاريخ يبدو معقولًا ؛ لأن يوليان - كما أشرنا آنفًا - عرض الفكرة على طارق بن زياد الذي كان يلي أمر منطقة طنجة [٣] وطارق أرسل إلى موسى بن نصير الذي كان بالقيروان [٤] ، وموسى لم يُرِدْ أن يبتَّ في أمر خطير كهذا ، وآثر الرجوع إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق ، فكتب إليه أولًا بمضمون مشروع الفتح ، فرد عليه يأمره أن يختبر البلاد بالسرايا الاستطلاعية الصغيرة ليعرف أحوالها ؛ لئلا يعرِّض المسلمين لأهوال البحر ، فرد عليه موسى بأن البحر ليس متسعًا في هذا المكان ولا خوف منه . يقول ابن الأثير : « فكتب موسى إلى الوليد بما فتح اللَّه عليه ، وما دعاه إليه يوليان ، فكتب إليه الوليد : خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فكتب إليه موسى : إنه ليس ببحر متسع ، وإنما هو خليج يبين ما وراءه ، فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا وإن كان الأمر على

---

(١) انظر أمير علي - مختصر تاريخ العرب (ص ١١١) ، وسيديو - تاريخ العرب العام (ص ١٥٨) .
(٢) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٦١/٤) .
(٣) انظر ابن عذاري - البيان المغرب (٤/٢) .
(٤) انظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٨) .

ما حكيت »[١] . فهذه المراسلات والمراجعات المتكررة بين موسى بن نصير والوليد ابن عبد الملك تستغرق وقتًا طويلًا لبعد المسافة بين دمشق مقر الخليفة والقيروان مقر الوالي ، وكل هذا يدل على الحيطة والحذر ، وأن المسلمين لم يكونوا يقدمون على خطوة قبل أن يدرسوها من جميع جوانبها ، ويستكملوا استعداداتهم ليضمنوا لأنفسهم النصر ؛ فإن فتح الأندلس مشروع كبير وخطير ، فهو ليس غزوة على منطقة أو مدينة في شمال إفريقيا ، فلو كان أمره يشبه شيئًا من هذا لكان سهلًا عليهم ؛ لأن هذه أرض متصلة وخطوط المواصلات بينها وبين عاصمة الخلافة ممتدة وآمنة ، وإذا اضطر المسلمون إلى التراجع عن منطقة أو مدينة انحازوا إلى غيرها ، فقواعدهم في الخلف كثيرة وقوية ، أما هذه الخطوة فلا بد لها من الاستعداد الكافي ، والوقت الذي أنفقوه في التفاوض والتشاور والاستعداد بشأنها ليس وقتًا ضائعًا ، فلأول مرة يقدم المسلمون على فتح قطر كبير في قارة أوربا ، بينهم وبينه بحر شديد الأهوال على حد تعبير الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وإذا كان موسى بن نصير حاول التقليل من شأن هذه الأهوال ، فإنه لا بد من تأمين جسر بحري - إن جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير - يربط بين العدوتين الإفريقية والأوربية على جانبي البحر ؛ لأن الجيش الإسلامي الذي سوف يعبره لا بد أن يكون على اتصال دائم بقواعده ومركز قيادته في شمال إفريقيا ، ولا بد أن يكون هذا الاتصال آمنًا دائمًا حتى إذا دعت الضرورة إلى استدعاء مدد يكون ذلك ممكنًا وفي الوقت المناسب .

مرحلة الاستطلاع واختبار النوايا :

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) حصيفًا عندما طلب من موسى بن نصير أن يختبر الأندلس بالسرايا قبل أن يقدم على فتحها ، وقد أفاد موسى بن نصير من موقف الخليفة الحذر هذا ؛ إذ جعله يحتاط أكثر فأكثر للأمر ، وآية ذلك أنه لم يركن إلى يوليان ركونًا تامًّا ، بل وضعه موضع الاختبار ليعرف مدى صدقه ونصيحته للمسلمين ، فيوليان وإن كان قد عرض الفكرة وأغرى المسلمين بالفتح ، بما شرح من فساد الأحوال في الأندلس ومن ضعف المقاومة هناك ، فإنه قبل كل شيء رجل قوطي مسيحي ، فلا بد من اختبار نواياه ؛ لئلا يقع المسلمون في شرك الخداع والمكر ؛ لذلك أرسل موسى بن نصير إلى يوليان وصارحه

---

(١) الكامل في التاريخ (٤/٤٦١) ، وانظر أيضًا ابن عذاري - المصدر السابق (٢/٥) .

بمخاوفه وشكوكه دون مواربة ، فقال له : « إننا لا نشك في قولك ولا نرتاب ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها ، وبيننا وبينها البحر ، وبينك وبين ملكك روذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين ، فجز إليه بنفسك ، وشُنَّ الغارات على بلاده ، واقطع ما بينك وبينه ؛ إذ ذاك تطيب النفس عليك ، ونحن من ورائك إن شاء اللّٰه . فانصرف يوليان وحشد جيوشه وجاز في مركبين إلى الأندلس ، وشن الغارات على الساحل الجنوبي ، فسبى وقتل وغنم ورجع ، وقد امتلأت أيديهم خيرًا ، وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو » [١] . أثبت يوليان بهذه الحملة صدقه وإخلاصه ، واطمأنت نفس موسى بن نصير بعض الشيء ، ولكن الأمر خطير ؛ فلا بد من زيادة التأكيد ، وليتثبت من صدق التقارير التي رفعها إليه يوليان ، فقد أرسل حملة إسلامية مستقلة على رأسها طريف بن مالك التي يقول عنها ابن الأثير : « فبعث موسى بن نصير رجلًا من مواليه يقال له : طريف في أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس ، فسار في أربعة سفائن فخرج في جزيرة بالأندلس فسميت جزيرة طريف ؛ لنزوله فيها ، ثم أغار على الجزيرة الخضراء ، فأصاب غنائم كثيرة ، ورجع سالمًا في رمضان سنة إحدى وتسعين فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو » [٢] .

حملة طارق بن زياد [٣] :

إلى هنا يمكن القول : إن الدراسات والمفاوضات والاستشارات قد أخذت حقها ، كما أن الحملات الاستطلاعية التي جاست أرض الأندلس قد نجحت وجاءت تقاريرها مشجعة ، ومن هنا اتخذ القائد الجسور موسى بن نصير قراره على الفور في تنفيذ خطة الفتح ، وعقد لواء القيادة لمولاه البطل طارق بن زياد على سبعة آلاف جندي ، فعبر بهم المضيق ، ونزل على الجبل الذي ارتبط باسمه حتى الآن وهو جبل طارق ، وقبل أن نتحدث عن المعركة التي خاضها طارق ضد الملك القوطي روذريق ، ينبغي أن نقول كلمة عن السفن التي أقلت المسلمين إلى الأندلس ؛ فهل كانت هذه السفن ملكًا ليوليان صاحب سبتة ، أو هو الذي دبرها للمسلمين كما يفهم من بعض المصادر الإسلامية ؟ [٤] نحن لا نستبعد أن يكون يوليان قد أسهم

---

(١) انظر د. أحمد مختار العبادي – دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٤ ، ١٥) نقلًا عن كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء لابن الكردبوس .
(٢) انظر ابن الأثير – الكامل في التاريخ (٥٦١/٤) .
(٣) انظر ترجمته في البيان المغرب لابن عذاري (٤٣/١) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٠٠/٤ – ٥٠٢) .
(٤) انظر ابن عذاري – المصدر السابق (٦/٢) .

ببعض السفن لنقل الجند المسلمين إلى الأندلس ، فهذا شيء طبيعي ، ويتفق مع موقفه الذي وضحناه من قبل ، ولكن الذي نستبعده أن يقوم عمل إسلامي كبير له خطورته على سفن مملوكة للغير ، مهما كان أمره ، ونتفق مع الدكتور مختار العبادي فيما ذهب إليه من أن الركون والاعتماد على سفن يوليان وحدها أمر لا يتفق مع الواقع التاريخي ، ولا مع سياسة الدولة الأموية ، فالواقع التاريخي يشهد بأن المسلمين كانت لهم في شمال إفريقية قوة بحرية كبيرة [١] ، وقد تصاعدت هذه القوة منذ أنشأ حسان بن النعمان الغساني (٧٤ - ٨٥هـ) دارًا لصناعة السفن الحربية في تونس [٢] ، وقد قام الأسطول الإسلامي بغزو العديد من الجزر في غرب البحر المتوسط مثل جزيرة صقلية وسردينية وسرقوسة ، - كما أشرنا آنفًا - وتم ذلك قبل أن يتصل المسلمون بيوليان أو يعرض عليهم مشروعه ، وهذا يدل على أن المسلمين كانوا يمتلكون القوة البحرية الكافية للقيام بمثل هذا العمل الكبير .

أما عن سياسة الدولة الأموية بصفة عامة ، والوليد بن عبد الملك بصفة خاصة فقد كانت تقوم على الحذر والتأني والدراسة الجادة قبل القيام بأي عمل كبير من هذا النوع ، وعدم المغامرة بالمسلمين في البحر ، إلا بعد أخذ كافة الضمانات والاحتياطات التي تكفل سلامتهم ، مثل إنشاء القواعد والأساطيل ، وقد رأينا كيف راجع الخليفة الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير أكثر من مرة بشأن مشروع فتح الأندلس ، وأكد عليه أن يحتاط للأمر وأن يختبر البلاد بالسرايا قبل الإقدام على الفتح ، والرأي الصواب كما يقول الدكتور مختار العبادي : « هو أن موسى بن نصير اعتمد في فتح أسبانيا على أساطيله الإسلامية التي كانت تحت قيادته ورهن إشارته على طول الساحل المغربي ؛ إذ لا يعقل أن تكون أربع سفن فقط كافية لنقل جيش كبير عدته على أقل تقدير سبعة آلاف محارب ، عدا الخيل والعتاد . كما أنه لا يعقل كذلك أن يعهد موسى إلى شخص أجنبي - مهما خلصت نيته - بمثل هذه العملية الحربية الكبيرة التي تتوقف عليها سلامة أرواح آلاف من المسلمين » [٣] .

وبمناسبة الحديث عن السفن فقد ذكرت بعض المصادر أن طارق بن زياد قد

(١) انظر د . سعاد ماهر - البحرية في مصر الإسلامية (ص ٨٧) والدكتور حسين مؤنس - فتح العرب للمغرب (ص ٢٦١) والدكتور إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ٢٥٨) .
(٢) انظر محمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (١١٥/٢) .
(٣) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٧ ، ١٨) .

أحرق السفن التي عبر عليها ، بعد نزوله على شاطئ الأندلس ليقطع على جنوده كل تفكير في التراجع والارتداد ، وخطب فيهم خطبته المشهورة التي قال فيها : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس ثم والله إلا الصدق والصبر » [١] .

والحقيقة أن الإنسان إذا كان لا يستطيع أن ينفي أو يثبت صحة هذه الواقعة إلا أنه يستبعدها من ناحية المنطق والواقع ، فمن غير المعقول أن يقدم قائد عسكري بارع وحصيف مثل طارق بن زياد على مثل هذا العمل ؛ لأن المسلمين كانوا في مسيس الحاجة إلى السفن الحربية ، لا من أجل هذا المشروع فحسب ، بل من أجل حماية شواطئهم على سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية التي ما فتئت تتعرض لهجمات الأسطول البيزنطي ، كما أن طارق بن زياد نفسه يعلم أنه لن يستغني عن طلب مدد يأتيه من شمال إفريقية ، وقد طلب فعلًا هذا المدد ؟ وقبل أن يشتبك مع القوط في المعركة الحاسمة لما رأى كثرتهم ، وقد أرسل له موسى بن نصير خمسة آلاف جندي بخيولهم وعتادهم [٢] فكيف كان سيأتيه هذا المدد ؟ وعلى أي شيء كانت ستعبر هذه القوات لو أنه أقدم على إحراق السفن ؟ ثم إن موسى بن نصير نفسه اضطر للعبور إلى الأندلس للمشاركة في الفتح والاطمئنان على سيره ، وذلك بعد عبور طارق بعام واحد [٣] ، وقد عبر موسى ومعه جيش كبير قدره المؤرخون بثمانية عشر ألفًا بخيولهم وعتادهم ، فلو كانت السفن قد أحرقت ، فعلى أي شيء عبر موسى بهذه القوات ؟ لذلك نرى أن قصة إحراق السفن غير جديرة بالتصديق [٤] .

معركة شذونة (سنة ٩٢هـ) :

عبر طارق بن زياد بجيشه الأول - والذي كان قوامه سبعة آلاف - المضيق واحتل الجبل الذي حمل اسمه حتى اليوم ، ويبدو أنه لم يستول على هذا الجبل بسهولة ؛ لأنه لا يعقل أن يكون القوط ظلوا غافلين طوال هذه المدة التي كانت فيها

---

(١) انظر الخطبة بكاملها في الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٦١/٢) وانظر عن موضوع إحراق السفن د. مختار العبادي - المرجع السابق والمصادر التي ذكرت ذلك وأشار هو إليها .
(٢) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٦٢/٤) .
(٣) انظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٩) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٥٦٤/٤) .
(٤) انظر د . محمد شتا زيتون - المسلمون في المغرب والأندلس (١٦٣/١) .

الحملات الإسلامية تطرق بلادهم عن حراسة هذا الجبل الذي يعتبر المدخل الجنوبي لبلادهم ، وإنما يمكن للمرء أن يتصور أن الجبل كان محروسًا وأن معركة كبيرة نشبت عنده بين طارق وبين حراسته القوطية [١] .

وإذا كانت المصادر الإسلامية قد ركزت اهتمامها على المعركة الرئيسية ، وهي معركة شذونة ، ولم تهتم كثيرًا بمعركة الجبل ؛ إلا أنها تحدثت عن قتال دار قبل معركة شذونة ، فالراجح أن هذا القتال دار عند الجبل ، يقول ابن عبد الحكم : « فلما جاز طارق تلقته جنود قرطبة واجترؤوا عليه للذي رأوا من قلة أصحابه ، فاقتتلوا فاشتد قتالهم ، ثم انهزموا فلم يزل يقتلهم حتى بلغوا مدينة قرطبة ، وبلغ ذلك روذريق فزحف إليهم من طليطلة ، فالتقوا بموضع يقال له : شذونة » [٢] ؛ لذلك نرى أن طارقًا لم يستول على الجبل بدون قتال ؛ لأنه لأهميته لم يكن خاليًا من القوات التي توضع لمقاومة غزو محتمل . وأهمية هذا الجبل لم تغفل عنها أية دولة حكمت الأندلس ، منذ الفينيقيين الذين كانوا أقاموا عليه أبراجًا للمراقبة [٣] .

وكيفما كان الأمر فقد لقي طارق مقاومة عنيفة سرعان ما تغلب عليها ، وطارد المقاومين فلاذوا بمدينة قرطبة ، وبقي هو يحصن نفسه في هذا الموقع المهم لكي يحمي ظهره عندما يتوجه إلى الشمال لخوض المعركة الفاصلة ، ولم تكن معركة جبل طارق هي المعركة الوحيدة التي خاضها ضد القوط قبل اللقاء الحاسم مع روذريق في شذونة ، فابن عذاري يحدثنا عن معارك كثيرة حدثت قبل شذونة ، فيقول : « لما بلغ روذريق خبر طارق ومن معه ، ومكانهم الذي هم فيه بعث إليهم الجيوش ، جيشًا بعد جيش ، وكان قد قود على أحدهم ابن أخت له يسمى بنج ، وكان أكبر رجاله فكانوا عند كل لقاء يهزمون ويقتلون ، وقتل بنج وهزم عسكره ، فقوي المسلمون وركب الرجالة الخيل ، وانتشروا بناحيتهم التي جازوا بها [٤] . ومعنى هذا أن المسلمين أحكموا سيطرتهم على المنطقة المحيطة بالجبل واتخذوها قاعدة لانطلاقهم .

---

(١) انظر د . مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب - والأندلس (ص ١٩) .

(٢) فتوح مصر (ص١٣٩) وانظر كذلك ابن عذاري - البيان المغرب (٩/٢) حيث يعتبر أن أول فتوحات طارق في الأندلس الاستيلاء على الجبل ، ومعنى ذلك أنه حدثت عنده معركة .

(٣) د . مختار العبادي - المرجع السابق (ص١٩) .

(٤) البيان المغرب (٨/٢) .

المعركة الفاصلة :

أين كان روذريق ملك القوط ، عندما كانت تجري هذه الأحداث الهائلة على أرضه ؟ وبأي شيء كان مشغولًا بحيث لم تنبهه الحملات الاستطلاعية الأولية - حملة يوليان وحملة طريف بن مالك - ولا نزول طارق على الجبل واستيلاؤه عليه وعلى ما حوله ، وهزيمته لكل قواته التي أرسلها ؟ تقول المصادر : إنه كان مشغولًا بقمع ثورة قام بها البشكنس في الشمال ، وأنه كان قد استخلف أثناء غيابه ملكًا أو حاكمًا من حكام مقاطعاته يقال له : تدمير « فلما بلغ تدمير مكان طارق ومن معه من المسلمين كتب إلى روذريق : إنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا ؟ فلما بلغ روذريق ذلك أقبل راجعًا إلى طارق في سبعين ألفًا » (١) . ويقول الدكتور العبادي نقلًا عن المؤرخ الأسباني سافدرا SAAVEDRA : « ومن المحتمل جدًّا ... أن تكون هذه الثورة مفتعلة وبإيعاز من أعداء الملك لشغل أنظاره عن عمليات نزول المسلمين في أسبانيا » (٢) . فإذا صح هذا - وهو على لسان مؤرخ أسباني - فإنه يؤكد أن غزو المسلمين للأندلس كان بناء على رغبة أهل البلاد وبطلب منهم ، وأنهم كانوا حريصين على نجاح المسلمين ؛ ولذلك عمدوا إلى شغل ملكهم حتى لا يتمكن من الدفاع عن بلاده .

وكيفما كان الأمر فقد جاء روذريق يزحف من الشمال على رأس جيش جرار عدته سبعون ألفًا - كما ذكر صاحب الإمامة والسياسة - أو مائة ألف - حسب رواية ابن الأثير (٣) - ، وكان طارق قد استقبل المدد الذي طلبه من موسى بن نصير ، وهو خمسة آلاف جندي ، فتكامل عدد جيشه اثني عشر ألفًا ، ومعهم يوليان يدلهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الأخبار (٤) ، والتقى الجيشان على وادي لكة (٥) من كورة شذونة ، حيث دارت المعركة الرئيسية والحاسمة في الوقت نفسه ، وكان ذلك لليلتين بقيتا من رمضان سنة (٩٢هـ) ، واستمرت ثمانية أيام (٦) ، وأسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين ، وهزم جيش روذريق هزيمة منكرة ، ولقي هو مصرعه في

---

(١) انظر الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٢/٦٠) .

(٢) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٠) . (٣) الكامل في التاريخ (٤/٥٦٢) .

(٤) المصدر السابق (٤/٥٦٢) . (٥) انظر الخريطة رقم (٦) في ملحق الخرائط .

(٦) انظر ابن عذاري - البيان المغرب (٢/٨) وانظر عن تفاصيل المعركة ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣٩) وابن الأثير - المصدر السابق (٤/٥٦٢ ، ٥٦٣) .

المعركة ، وقيل : غرق في النهر ، يقول ابن عذاري : « وقتل اللّه روذريق ومن معه ، وفتح للمسلمين الأندلس ، ولم يعرف لروذريق موضع ، ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا : إنه غرق وقالوا : إنه قتل ، واللّه أعلم »[١] .

ولا نبالغ إذا قلنا : إن معركة شذونة قد قررت مصير الأندلس كلها لمصلحة المسلمين ، وكانت شبيهة بمعركة اليرموك التي قررت مصير الشام ، ومعركة القادسية التي قررت مصير العراق ، ومعركة نهاوند التي قررت مصير الإمبراطورية الفارسية كلها . فبعد انتصار طارق الساحق في شذونة ؛ زحف على مدينة إستجة[٢] ، فاستولى عليها بعد قتال شديد ، وفر القوط - وقد سيطر الرعب على قلوبهم - إلى طليطلة[٣] ، وهنا أشار يوليان - كما يقول ابن الأثير - على طارق أن يسير هو إلى طليطلة للاستيلاء عليها وأن يفرق جيوشه إلى المدن الأخرى ، ففرق جيوشه من مدينة إستجة ، وبعث جيشًا إلى قرطبة[٤] ، وجيشًا إلى غرناطة[٥] ، وجيشًا إلى مالقة[٦] ، وجيشًا إلى تدمير[٧] ، وسار هو ومعظم الجيش إلى جيان[٨] يريد طليطلة ، فلما بلغ طليطلة وجدها خالية ، ولحق من كان بها بمدينة خلف الجبل يقال لها :ماية[٩] . هذا الانتشار السريع والاستيلاء على المدن والمقاطعات الأندلسية ،

(١) البيان المغرب (٨/٢) .

(٢) إستجة ، بالكسر ثم السكون وكسر التاء وجيم وهاء : اسم لكورة بالأندلس بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ - انظر ياقوت - معجم البلدان (١٧٤/١) .

(٣) طليطلة ، يقول ياقوت (٣٩/٤ ، ٤٠) : ضبطه الحميدي بضم الطائين وفتح اللامين ، وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية مدينة كبيرة ... بالأندلس ، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم وهي على شاطئ نهر تاجه .

(٤) قرطبة ، بضم أوله وسكون ثانيه وضم الطاء المهملة ، وفتح الباء ... مدينة عظيمة بالأندلس ، وسط بلادها .. وبها كانت ملوك بني أمية ، وبينها وبين البحر خمسة أيام - ياقوت - المصدر السابق (٣٢٤/٤) .

(٥) غرناطة ، بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون وبعد الألف طاء مهملة .. هي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس .. وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخًا - ياقوت (١٩٥/٤) .

(٦) مالقة ، بفتح اللام والقاف .. مدينة بالأندلس ، عامرة من أعمال رية ، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، المصدر السابق (٤٣/٥) .

(٧) تدمير ، بالضم ثم السكون وكسر الميم وياء ساكنة وراء ، كورة بالأندلس وهي شرقي قرطبة - المصدر السابق (١٩/٢) .

(٨) جيان ، بالفتح ثم التشديد وآخره نون ، مدينة لها كورة واسعة في الأندلس ... في شرقي قرطبة - المصدر السابق (١٩٥/٢) .

(٩) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٦٣/٤) .

ووصول طارق إلى طليطلة - عاصمة مملكة القوط - ووجودها خالية ودخولها بدون قتال ، كل هذا يصور مدى ما وصلت إليه الروح المعنوية عند القوط بعد معركة شذونة ، ويؤكد ما قلناه من أنها كانت معركة حاسمة .

بقي طارق فترة من الزمن في طليطلة ، وجاء إليه اليهود الذين حولها مرحبين مهنئين بالنصر ، فتركهم فيها وترك معهم حامية من جنوده وسار هو إلى وادي الحجارة فقطع الجبل من فج فيه ، فسمي بفج طارق إلى اليوم ، وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة ... ثم مضى إلى مدينة ماية فغنم منها ورجع إلى طليطلة في سنة ثلاث وتسعين (١) .

وهكذا في مدى عام واحد (٩٢ - ٩٣هـ) ، فتح طارق بن زياد باثني عشر ألفًا من الجنود المسلمين هذه المساحات الشاسعة ، وتساقطت المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى بين أيدي رجاله ، واستقر هو في طليطلة عاصمة القوط بعد انهيار دولتهم منتظرًا قدوم موسى بن نصير ليتدارسا سويًّا الموقف ، ويمضيا لفتح بقية شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولم يطل به الانتظار ؛ فقد جاء موسى ليطمئن على الأحوال بنفسه وليشترك في الفتح .

عبور موسى بن نصير إلى الأندلس :

عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في رمضان سنة (٩٣هـ) بناء على طلب طارق بن زياد حيث كتب إليه : « إن الأمم تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث » (٢) . وهذا يصور أنه على الرغم من الانتصارات التي أحرزها طارق ووصوله إلى العاصمة طليطلة فقد انبعثت ضده مقاومة استدعت أن يكتب إلى الأمير موسى ليحضر بنفسه ويطلع على جلية الموقف عن قرب ، والدليل على ذلك أن موسى عبر على رأس قوات كبيرة قدرت بثمانية عشر ألفًا ، وهي أكبر من العدد الذي عبر مع طارق مضافًا إليه المدد الذي طلبه ، نزل موسى بقواته في الجزيرة الخضراء ، وقرر أن يتخذ خط سير مغاير للطريق الذي سار فيه طارق وذلك بقصد أن يتمكن من فتح المدن والمناطق التي لم يفتحها طارق ؛ فاستولى موسى على

---

(١) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٦٤/٤) ، وابن عذاري - البيان المغرب (١٢/٢) .
(٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٧٤/٢) .

العديد من المدن في غربي البلاد ، مثل قرمونية [١] وإشبيلية [٢] وماردة [٣] ولبلة [٤] .

لقاء موسى وطارق ومواصلة الفتح :

التقى موسى بن نصير بعد هذا الزحف الموفق بمولاه طارق بن زياد عند العاصمة طليطلة ، وهنا تتحدث المصادر عن قصة الخلاف الذي قيل : إنه حدث بين القائدين الكبيرين ، وتبالغ هذه المصادر فترجع أمر هذا الخلاف إلى حسد دب في نفس موسى على مولاه طارق وعلى ما حققه من نجاح ، وتنسب إلى موسى أنه أهان طارقًا بأن وضع السوط على رأسه [٥] . ومثل هذه الروايات ينبغي أن تقابل بالشك فيها ؛ لأن مثل هؤلاء الرجال الكبار الذين قاموا بهذه الأعمال الجليلة وعرضوا أرواحهم لمثل هذه الأخطار ، يستبعد أن تصدر منهم ما تنسبه إليهم هذه الروايات ، ثم لماذا يحسد موسى طارقًا ويحقد عليه ؟ ألأنه نجح في مهمته هذا النجاح الهائل ؟ أَوَليس هذا ما كان يتمناه موسى ؟ أم أنه كان يريد له الفشل والإخفاق ؟ نحن لا نستبعد أن ينشأ خلاف وأن تتعارض وجهات النظر في بعض الأمور أو الخطط ، مثل تسرع طارق في خطة الغزو [٦] ، أو على أي أمر آخر ؛ فهذا كله وارد وممكن ، ومن الجائز أن يكون موسى قد غضب على طارق ، ولكنهما عند اللقاء ترضاه طارق واعتذر له فرضي عنه وقبل عذره [٧] . أما أن تكون مكافأة طارق على أعماله الجليلة هي الإساءة ، فهذا ما لا يقبله العقل ، ولا يتفق مع أخلاق المسلمين في ذلك الزمان بالذات ، فكلا القائدين موسى وطارق كان يهمه في المقام الأول مصلحة المسلمين وسلامة أرواحهم ، ومسير موسى نفسه في غرب الأندلس يدل على أن خطة الغزو

---

(١) قرمونية بالفتح ثم السكون وضم الميم وسكون الواو ونون مكسورة وياء خفيفة وهاء ، كورة بالأندلس غربي قرطبة وشرقي إشبيلية - ياقوت - معجم البلدان (٣٣٠/٤) .

(٢) إشبيلية ، بالكسر ثم السكون وكسر الباء وياء ساكنة ، ولام وياء خفيفة ، مدينة كبيرة عظيمة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخًا - ياقوت - المصدر السابق (١٩٥/١) .

(٣) ماردة ، كورة واسعة ... من أعمال قرطبة . ياقوت - المصدر السابق (٣٨/٥ ، ٣٩) .

(٤) لبلة ، بفتح أوله ثم السكون ولام مربوطة ، قصبة كورة بالأندلس .. بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام - ياقوت - المصدر السابق (١٠/٥) ، وانظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٦٤/٤) وابن عذاري - البيان المغرب (١٣/٢ - ١٥) ، ود. مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٧) .

(٥) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٦٤/٤) ، وابن عذاري - البيان المغرب (١٦/٢) .

(٦) انظر ابن عذاري - المصدر السابق (١٣/٢) .

(٧) انظر الطبري - تاريخ (٤٨١/٦) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٥٧٦/٤) .

كان متفقًا عليها بكل تفاصيلها ومدبرة تدبيرًا محكمًا ، وهي تشبه ما يطلق عليه في المصطلحات العسكرية الحديثة حركة الكماشة ، « طارق يسير من طريق ، وموسى يسير من طريق آخر مقابل له ، وتنتهي حركة الالتفاف أو التطويق هذه بالتقاء القائدين عند العاصمة القوطية نفسها » [١] ومما يدعم هذا ويؤكده الاتفاق التام بين القائدين الكبيرين على خطة إتمام الفتح بعد لقائهما ، حيث خرج طارق من طليطلة على رأس مقدمة الجيش ، ومن خلفه موسى في بقية الجيش متجهين إلى المناطق الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية [٢] حيث فتحا مدنًا مهمة مثل سرقسطة [٣] وبرشلونة [٤] ، ثم سار بعد ذلك طارق على رأس فيلقه إلى إقليم جلليقية الجبلي في الشمال الغربي ، وسار موسى بقواته إلى البرنية ، حيث غزا إقليم سبتمانية الذي كان تابعًا للقوط ، واستولى على قرقشونة [٥] ، وأربونة [٦] ، وحصن لودون على وادي ردونة - الرون [٧] .

تفكير موسى بن نصير في غزو القسطنطينية من الغرب :

تروي المصادر أن موسى بن نصير لما بلغ هذا المدى من النجاح في فتح الأندلس هو ومولاه طارق بن زياد لمعت في ذهنه فكرة المسير إلى القسطنطينية والاستيلاء عليها من الغرب [٨] ، وهذه فكرة لا تستبعد ؛ لأن نية الاستيلاء على القسطنطينية كانت قائمة عند المسلمين منذ عهد معاوية بن أبي سفيان - كما رأينا - خصوصًا وأنه في ذلك الوقت الذي كان موسى وطارق مشغولين فيه بفتح الأندلس (٩٢ - ٩٥هـ) كانت الاستعدادات قائمة في المشرق على قدم وساق للزحف على

---

(١) د . مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٨) .

(٢) انظر الخريطة رقم (٥) من ملحق الخرائط .

(٣) سرقسطة بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة بلدة مشهورة بالأندلس تصل أعمالها بأعمال تطيلة ، ياقوت - معجم البلدان (٢١٢/٣) .

(٤) مدينة من أعمال إقليم لبلة - ياقوت - المصدر السابق (٣٨٤/١) .

(٥) قرقشونة ، في شمال شرق الأندلس ، وبين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرين يومًا . انظر ياقوت - معجم البلدان (٣٢٨/٤) .

(٦) أربونة بفتح أوله ويضم ثم السكون وضم الباء الموحدة وسكون الواو ونون وهاء بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس .. بينها وبين قرطبة على ما ذكره ابن الفقيه ألف ميل ، ياقوت - المصدر السابق (٢٤٠/١) .

(٧) انظر الدكتور السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير (٢٨٠/٢) .

(٨) انظر ابن خلدون - العبر (١١٧/٤ ، ١١٨) .

القسطنطينية من الشرق ، فربما أراد موسى أن يلتقي بهذه القوات الزاحفة من الشرق عند أسوار القسطنطينية ، ولعل هذه الأخبار وصلت الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فخشي من موقع مسؤوليته وحرصه على سلامة المسلمين أن يعرضهم للأخطار ، خصوصًا وأنهم كانوا سيسيرون في طرق جبلية وعرة ، طقسها قاس ؛ فآثر سلامة المسلمين [1] وطلب من موسى أن يعود إلى دمشق ومعه طارق بن زياد .

أما ما يذكره بعض المؤرخين من أن الوليد استدعى موسى ومنعه من مواصلة الفتح خوفًا من أن يخلعه وينفصل بالمغرب والأندلس [2] - فهذا أمر بعيد جدًّا ؛ لأن فكرة الانفصال عن الخلافة في ذلك الوقت ، وتكوين دول إسلامية مستقلة لم تخطر على بال أحد [3] ، ولو كان موسى بن نصير ينوي ذلك فعلًا ، لما أذعن لأمر الخليفة بالعودة إلى دمشق .

الأندلس بعد عودة موسى بن نصير إلى دمشق :

كان على موسى بن نصير أن يعود إلى دمشق امتثالًا لأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك وقد صحب معه طارق بن زياد ، وعندما عاد القائدان الكبيران كانت الأندلس قد فتحت ، ما عدا الجزء الشمالي الغربي المسمى بإقليم اشتورش في منطقة

---

(١) وتروي بعض المصادر أن الجند قد أدركهم التعب وربما كان من الصعب عليهم تنفيذ مشروع كبير كهذا ، وقد برز هذا الشعور من حديث أحد القادة مع موسى بن نصير ، وهو حنش الصنعاني حيث قال له : أيها الأمير إني سمعتك تذكر عقبة بن نافع ، وتقول : لقد غرر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم ، أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟ إني سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملؤوا أيديهم وأحبوا الدعة ، قال : فضحك موسى . ثم قال : أرشدك اللَّه وكثر في المسلمين أمثالك ، ثم انصرف قافلًا إلى الأندلس . فقال موسى يومئذ : « أما واللَّه لو انقادوا إليَّ لقدتهم إلى رومية ، ثم يفتحها اللَّه على يدي إن شاء اللَّه » انظر الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٢/٨٠ ، ٨١) ولعل موسى يقصد أنه كان سيفتح روما وهو في طريقه إلى القسطنطينية .

(٢) انظر المصدر السابق (٢/٧٥) ، ومحمد عبد اللَّه عنان - دولة الإسلام في الأندلس (قسم ١ ص ٥٤) .

(٣) إن فكرة توحيد الخلافة الإسلامية ظلت سائدة عند المسلمين حتى بعد سقوط الدولة الأموية في الشرق سنة (١٣٢هـ) وقيام الدولة العباسية ، حتى ليذكر بعض المؤرخين أن جميع أمراء بني أمية في الأندلس منذ قيام إمارتهم على يد عبد الرحمن الداخل سنة (١٣٨هـ) ظلوا يدعون في خطبهم الدينية لخلفاء بني عباس ببغداد وظل ذلك حتى أعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة الأموية في الأندلس سنة (٣١٦هـ) ، انظر د. مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٥٦) نقلًا عن ابن الكردبوس - الاكتفاء (ص ٦٠ ، ٦١) ، وابن أبي دينار المؤنس في أخبار إفريقية وتونس (ص ٤١ - ٤٣) . وإن كان المشهور أن ذلك كان في إمارة عبد الرحمن الداخل ثم توقف منذ بداية عهده .

جلليقية ، وبعض المناطق في الشرق ، وقد تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق سنة (٩٥هـ) ، وحتى قيام الإمارة الأموية هناك سنة (١٣٨هـ) حوالي عشرين أميرًا .

كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥ - ٩٧هـ) [١] ، الذي ألقى أبوه بزمام الأندلس بين يديه ، وكان خير خلف لخير سلف ، فقد ضبط الأمور وسد الثغور وافتتح مدائن كثيرة ، وكان من خيرة الولاة [٢] . وأهم فتوحات عبد العزيز بن موسى إقليم تدمير في شرق الأندلس ، وقد فتحه صلحًا [٣] ، ولكن لسوء الحظ لم تطل مدة عبد العزيز بن موسى في حكم الأندلس ؛ فقد قتله بعض الجند غيلة لأشياء نقموها عليه ، وكان ذلك في مستهل رجب سنة (٩٧هـ) [٤] .

أعقب مقتل عبد العزيز بن موسى فترة من الاضطراب ، ومكث أهل الأندلس شهورًا لا يجمعهم وال ، حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي ، ابن اخت موسى بن نصير [٥] . وكان أيوب رجلًا صالحًا فاضلًا ولكن مدة ولايته لم تطل ، ويبدو أن الناس هناك هم الذين نصبوه ليدبر الأمور حتى تعين الخلافة واليًا من قبلها ، وقد عينت الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي كان أهم أعماله نقل مقر إمارة الأندلس من إشبيلية - حيث كان يحكم عبد العزيز بن موسى - إلى قرطبة [٦] ، كما كان له غزوات تجاوز بها حدود بلاد الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أربونة [٧] ، فسبى وغنم ، وقفل بالأسارى والغنائم [٨] ، وقد أدى انشغال الحر الثقفي بالغزو في الشمال الشرقي إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية - في المنطقة التي لم يتمكن المسلمون

---

(١) ابن عذاري - البيان المغرب (٢٣/٢ ، ٢٤) .

(٢) المصدر السابق (٢٤/٢) .

(٣) انظر د . مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٨) .

(٤) ابن عذاري - المصدر السابق (٢٤/٢) - لم يوضح ابن عذاري الأشياء التي نقمها الجند على عبد العزيز بن موسى فقتلوه من أجلها ، أما ما يذكر من أن الخليفة سليمان بن عبد الملك هو الذي أوعز إلى الجند بقتله ، فذلك بعيد جدًّا ؛ لأن سليمان - كما يقول صاحب أخبار مجموعة (ص ٢٢) - شق عليه ذلك ، وأمر بالقبض على قاتليه وإرسالهما إليه لمحاكمتهما ، فهذا دليل على أنه لم يأمر بقتله . وعلى هذا فقد يكون قتل عبد العزيز بسبب ما أشاعه عنه أعداءه من أنه تنصر بعد زواجه من أرملة روذريق - كما يذكر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر (ص ١٤٢) - أو لاستياء الجند منه . فاللَّه أعلم بحقيقة الحال .

(٥) ابن عذاري - البيان المغرب (٢٥/٢) .

(٦) المصدر السابق (٢٥/٢) .

(٧) انظر الخريطة رقم (٨) من ملحق الخرائط .

(٨) د . محمد شتا زيتون - المسلمون في المغرب والأندلس (١٩٣/١) .

من فتحها وهي المنطقة الشمالية الغربية - بزعامة بلاي [١] ، مما اضطره إلى العودة لقمع تلك المقاومة ، وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ) وعين مكانه السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ - ١٠٢هـ) .

كان السمح بن مالك من خيرة الرجال وصلحائهم [٢] ، وقد عمل على استقرار الأحوال الداخلية في الأندلس مع إخضاع المتمردين المسيحين في الشمال الغربي ، وقد نجح في ذلك وأجبر المتمردين على اللجوء إلى معاقلهم في الجبال ولما اطمأن إلى كل هذا بدأ غزوه لإقليم سبتمانية ، مخترقًا جبال البرنية وتمكن من استعادة أربونة وقرقشونة ، ومعظم المدن والحصون التابعة للإقليم [٣] ، ثم توجه ببقية جنوده إلى الغرب ، نحو مجرى الجارون باسطًا سيطرته على كل المدن والحصون في طريقه حتى وصل إلى طولوشة - تولوز - عاصمة إقليم أكوتين ، الذي استقل به الدوق أودو ، وقد ضرب السمح الحصار عليها ، ولكن قبل أن يتمكن من الاستيلاء عليها قصده الدوق أودو بجيش عظيم ، قيل : إنه كان يبلغ حوالي عشرة أضعاف الجيش الذي كان معه ، وفي ذي الحجة سنة (١٠٢هـ) يونيو سنة (٧٢١م) دارت معركة بين الجيشين بظاهر تولوز ، ورغم استبسال المسلمين ، فقد تغلب عليهم الفرنج لكثرة عددهم وهزموهم واستشهد السمح بن مالك رحمه الله [٤] ؛ وأدى استشهاده إلى اضطراب الجند واختلال نظامهم ، إلا أن عبد الرحمن الغافقي استطاع أن ينقذ الموقف ، وأن ينسحب بمن بقي من الجيش الإسلامي إلى أربونة [٥] ، التي صارت قاعدة للمسلمين في الشمال بمهارة تذكرنا بصنيع خالد بن الوليد في معركة مؤتة وظل عبد الرحمن يدير الأمور في الأندلس حتى وصلها الوالي الجديد عنبسة ابن سحيم الكلبي (١٠٣ - ١٠٧هـ) .

تابع عنبسة سياسة سلفه العظيم - السمح بن مالك - في العدل والإصلاح الداخلي في الأندلس والتصدي لكل من تسول له نفسه الخروج على النظام ، وبعد أن

---

(١) د . مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠ ، ٤١) .
(٢) انظر ابن عذاري - البيان المغرب (٢٦/٢) وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول (ص ٢٣) .
(٣) د . محمد شتا زيتون - المرجع السابق (١٩٨/١) .
(٤) ابن عذاري - المصدر السابق (٢٦/٢) و د. محمد زيتون - المرجع السابق (١٩٩/١) ، و د. مختار العبادي - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٨٧) .
(٥) د. مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٨٧) .

استتب الأمن وساد النظام في الداخل ، استأنف حركة الجهاد ضد الفرنج ، فخرج في جيش من خيرة المقاتلين ؛ أهل النية في الجهاد ، والحسبة في الثواب على حد تعبير ابن عذاري [١] ؛ فاخترق جبال البرنية ، واسترد المعاقل والمدن التي كان المسلمون قد فقدوها بعد معركة تولوز فاستولى على قرقشونة ونيمة وغيرها من الأماكن المهمة وتابع سيره فاستولى على إقليم بروفانس ، واتجه شمالًا مع نهر الرون ، فاستولى على ليون ، ثم وصل إلى أتون في أعالي النهر [٢] ، وغزا مدينة سانس ولكن أهالي البلاد تمكنوا من قطع خط الرجعة عليه ، وأحاطوا به فاستشهد ﷺ في شعبان سنة ١٠٧هـ [٣] . وبعد استشهاده فقد المسلمون مرة أخرى مواقعهم وعادوا إلى أربونة ، بقيادة عذره بن مالك الفهري ، ثم سادت الأندلس فترة من الاضطراب توقفت فيها حركة الفتح لأكثر من أربع سنوات . وفي هذه الفترة المضطربة توالى على ولاية الأندلس أربعة ولاة ، ثم جاء دور عبد الرحمن الغافقي (١١٢ - ١١٤هـ) .

كان يلي أمر الأندلس قبل ولاية عبد الرحمن : الهيثم بن عبيد الكناني الذي كان قد بدأ حركة الجهاد في سبيل الله في جنوب فرنسا ، وعند وفاته سنة ١١٢هـ أسندت الإمارة إلى عبد الرحمن الغافقي ، ذلك القائد الشجاع ، الذي كان قد أنقذ المسلمين بعد معركة تولوز سنة ١٠٢هـ بعد استشهاد السمح بن مالك - كما سبقت الإشارة - وعندما تولى عبد الرحمن أمر الأندلس كانت ذكرى استشهاد السمح بن مالك ورفاقه ماثلة في ذهنه فقرر أن ينتقم من الأعداء ، ولكن قبل ذلك كان عليه أن يعيد الأمن والنظام والاستقرار الداخلي ، ثم يتفرغ للجهاد ؛ فقام بجولة في ربوع الأندلس ، طاف فيها معظم مدنها ومقاطعاتها وتفقد أحوالها ، واستمع إلى شكاوى الناس ، وعمل على نشر العدل وإزالة المظالم ، ولم يكن يفرق في المعاملة بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، كما نظم الإدارة المالية ، وعاقب بشدة كل من أثار شغبًا أو أحدث فتنة ، وبذلك تمكن من توطيد الأمن في ربوع البلاد [٤] ، وفي الوقت نفسه كان يعد الجيش إعدادًا جيدًا لاستئناف الجهاد ضد الفرنجة ، ففي مطلع عام (١١٤هـ) تحرك بجيشه فاخترق جبال البرنية واتجه إلى مدينة أرال على نهر

---

(١) البيان المغرب (٢٧/٣) .

(٢) د . مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٧٨) ، د . محمد زيتون - المرجع السابق (٢٠٠/١) .

(٣) ابن عذاري - المصدر السابق (٢٧/٢) ، د . مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٨٧) ، د. محمد زيتون - المرجع السابق (٢٠١/١) .

(٤) د . محمد زيتون - المرجع السابق (٢٠٦/١) .

الرون ، حيث دارت بينه وبين الفرنجة معركة كبيرة انتصر فيها عليهم ، واستولى على المدينة ، ثم عبر نهر الجارون وانقض على أكوتين ، دوقية أودو الذي كان أوقع بالمسلمين في تولوز فاستطاع عبد الرحمن أن يمزق جيشه ، وأن يستولي على ولايته برمتها [١] ، وعندما عجز أودو عن الوقوف في وجه عبد الرحمن الغافقي ، الذي كان بسط سلطان الإسلام على نصف فرنسا الجنوبي في بضعة شهور [٢] - استنجد بالدولة الميروفنجية .

معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ :

اضطر أودو أمام زحف المسلمين على ولايته أن يهرب إلى الشمال وأن يلجأ إلى أمير القصر في دولة الفرنجة - شارل مارتل - طالبًا منه العون لاسترداد دوقيته من أيدي المسلمين ، وربما كان شار مارتل نفسه يتوقع ذلك ، بل ربما لو لم يستنجد به أودو لهبَّ هو من تلقاء نفسه لإعانته ؛ لأنه كان يخشى من أن يزحف المسلمون - بعد استيلائهم على دوقية أكوتين - على دولة الفرنجة ذاتها ، وقد يكون الهدف من تأخر شارل مارتل عن التصدي للمسلمين إلى هذا الوقت هو أن يثبت لأودو حاجته إليه ، وفي الوقت نفسه يكون المسلمون قد أدركهم التعب من كثرة غزواتهم وانتقالهم السريع من معركة إلى معركة ، بحيث يسهل عليه التغلب عليهم عندما يحين اللقاء الذي كان يعد له في سرية وكتمان شديدين ، بحيث عجزت عيون عبد الرحمن الغافقي عن معرفة أي شيء عنه [٣] . وقد حدث اللقاء الحاسم بين الغافقي وشارل مارتل في السهل الواقع بين تور وبواتيه ، وقد كان لقاء بين جيش مستريح كامل العدة والعتاد يحارب على أرضه ، وهو جيش شارل مارتل ، الذي حدد زمان ومكان المعركة ليضمن لنفسه النصر ، وجيش قطع مسافات طويلة ، وخاض معارك عديدة ، وفقد الكثير من الشهداء ، كما أنه كان مضطرًا لترك حاميات لحراسة المدن والمواقع التي كان يستولي عليها ، وهو جيش عبد الرحمن الغافقي ، ولكن على الرغم من كل هذه الصعوبات ، فقد قاتل المسلمون ببسالة و بطولة في المعركة ، التي بدأت في أواخر شعبان سنة ١١٤هـ ، بمناوشات استمرت أسبوعًا تقريبًا ، ثم اشتد القتال ، ولاح النصر للمسلمين ، لولا حدوث مفاجأة من

(١) د . مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٨٧) ، و د. محمد زيتون - المرجع السابق (٢٠/١) .

(٢) د . محمد زيتون - المرجع السابق (٢٠٧/١) .

(٣) د . محمد زيتون - المرجع السابق (٢٠٨/١) .

المفاجآت التي تحدث أحيانًا في الحروب فتغيِّر موازين القوى ، وتحوِّل النصر إلى هزيمة ، والهزيمة إلى نصر ؛ فقد تمكنت فرقة من جيش الفرنجة من الوصول إلى المكان الذي جمع فيه المسلمون غنائمهم - التي كانوا قد استولوا عليها في غزواتهم الكثيرة - وأشيع أن العدو سيستولي عليها ، وهنا ترك بعض الجنود مواقعهم الأمامية ، ليدافعوا عن الغنائم ؛ الأمر الذي أدى إلى حدوث خلل كبير في صفوفهم ، وقد حاول عبد الرحمن الغافقي جهده ليعيد النظام إلى قواته ، وتقدم الصفوف جاعلًا من نفسه سدًّا أمام الأعداء وليضرب المثل لجنده في الاستبسال ، لكن أصابه سهم من الأعداء ، فسقط شهيدًا في ميدان القتال [1] ، وقد أدى استشهاده إلى زيادة الاضطراب والخلل في صفوف المقاتلين ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يقاتلون حتى حل الظلام ، فحجز بينهم وبين الأعداء ، وعاد كل جيش إلى مواقعه ، وكان ذلك في أول شهر رمضان سنة ١١٤هـ .

عاد المسلمون إلى معسكرهم ، وقد فقدوا قائدهم البطل وأخذوا يتدارسون موقفهم ، فانقسموا إلى فريقين ، فريق رأى الاستمرار في القتال ، وفريق خشي عواقب ذلك ، وفضَّل الانسحاب ، فاستقر رأيهم على هذا ، فانسحبوا في جنح الظلام عائدين إلى سبتمانية ، مخلِّفين جرحاهم وأمتعتهم [2] . وهذه المعركة تذكرنا بمعركة أحد ، حيث أدى انشغال بعض المسلمين بالغنائم إلى ضياع النصر الذي كاد أن يتحقق لهم في بدايتها ، وتكون هذه عبرة أخرى من العبر الكثيرة التي يحفل بها تاريخنا الإسلامي ، وهي أن المسلمين إذا تخلَّوا عن أهدافهم النبيلة ومثلهم العليا وانشغلوا بأمر الدنيا حلت بهم الهزائم والنكبات .

أما عن الفرنجة وقائدهم شارل مارتل ، فما كانوا يتوقعون أن ينسحب المسلمون من الميدان ، خصوصًا وأن المعركة لم تنته بنصر حاسم ، وإنما كان الظلام هو الذي أوقف القتال ؛ ولذلك كان شارل مارتل يتوقع استئناف القتال في اليوم التالي ، ولكنه عندما بثَّ عيونه يترصَّدون المسلمين عند الفجر ؛ هالهم خلوُّ المكان وهدوؤه فظنوا أن في الأمر خدعة ، فأمر شارل مارتل فرقة من جيشه بالتقدم على حذر ، فتأكدوا من خلو المكان من المسلمين وكان فرح شارل مارتل عظيمًا ؛ حيث رأى في ذلك نصرًا نهائيًا لم يكن يتوقعه ، وآية ذلك أنه لم يحاول أن يتعقب المسلمين

(١) انظر ابن الأثير - الكامل في التاريخ (١٧٤/٥) وابن عذاري - البيان المغرب (٥١/١) .
(٢) جاك ريسلر - الحضارة العربية (ص ٤٣) .

أو يسير خلفهم ، وبهذا انتهت المعركة التي يسميها الأوربيون معركة توربواتيه ، ويسميها المسلمون معركة بلاط الشهداء [١] .

ويبالغ كثيرون من مؤرخي الغرب في نتيجة معركة بلاط الشهداء ويعتبرونها – بالإضافة إلى ارتداد المسلمين عن القسطنطينية سنة (٩٩هـ) – من المعارك الحاسمة التي حمت أوربا من خطر الإسلام ، ولكن المؤرخ المنصف لا يخفى عليه أن معركة بلاط الشهداء حرمت أوربا من نور الإسلام وعدالته ، فلو لم يوقف شارل مارتل تقدم المسلمين في أوربا الغربية عند توربواتيه ، لنعمت أوربا كلها بما نعمت به الأندلس تحت الحكم الإسلامي ، التي أصبحت هي البقعة الوحيدة المضيئة في أوربا في العصور الوسطى المظلمة ، وحققت تقدمًا رائعًا في شتى مجالات الحياة ، وهذه شهادة أحد المنصفين من الأوربيين أنفسهم لما حققه الإسلام للأندلس وهو جاك ريسلر الذي يقول : « كانت إدارة الأعمال العامة في الأندلس – وهكذا كانت تسمى أسبانيا الإسلامية – من أكثر الأعمال تطورًا بلا جدال في ذلك العصر ، وكانت قوانينها المبنية على العقل والمتقنة الوضع ، في ظل نظام شرطي منظم تنظيمًا كاملًا ، مطبقة بطريقة إنسانية على أيدي قضاة غاية في النزاهة ، وكانت الضرائب معقولة ، وميسرة التحصيل ، وأقل نسبيًّا من ضرائب البلاد الأوربية ، بفضل تطبيق اقتصاد موجه توجيهًا حسنًا ، وكان دخل إمارة قرطبة وحدها أعلى من دخول جميع العالم المسيحي اللاتيني ، وكان ثلث الدخل لدفع نفقات الجيش ، والثلث الثاني للنفقات العامة ، والثلث الأخير للاحتياطي .

وعلى الجملة أحدث النظام الإسلامي تقدمًا ثابتًا بموازنة النظم القوطية الغربية السابقة حتى قيل : إن بلاد الأندلس لم تعرف أبدًا هذا اللون من الهدوء والعدل والحكمة مثلما عرفته في ظل الفاتحين العرب . وتحت القوة الدافعة الإسلامية تفوقت الزراعة في أسبانيا بشكل واضح عن بقية الغرب .. وكانت الصناعة منتشرة كما كانت دروع قرطبة وسيوف طليطلة ذات شهرة عظيمة وكانت مرسية تتقن صناعة النحاس والحديد وكانت حكومة الخلفاء تشرف على خدمة بريدية منظمة ، وكانت ألف من المراكب القادمة من برشلونة وبلنسية وقرطاجنة والمرية ومالقة وقادس – الميناء النهري لإشبيلية – مهمتها تأمين حركة التجارة مع إفريقيا وآسيا وكان التعامل

---

(١) د . مختار العبادي – دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٨٨) .

يجري بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ... وكانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة في عبادتها ، وكان اليهود المطاردون حتى هذه البلاد لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات ، ووصلوا أحيانًا إلى مراكز سامية ، واختلط المسيحيون مع المسلمين ، واتجهت العادات نحو التشابه بعضها مع البعض ، وحدث أن مسيحيين ومسلمين احتفلوا بأعيادهم في المسجد وفي الكنيسة . ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد ؛ شوهد بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوجة على الرغم من تحريم الكنيسة ، بيد أنه عندما بهرت هذه الحضارة المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوربا المسيحية كلها ، أخذوا يزحفون - حبًّا في هذه الحرية - إلى قرطبة وطليطلة وإشبيلية ؛ لكي يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها » [١] .

هذه مقتطفات من كلام مؤرخ أوربي منصف - أي شاهد من أهلها - فمعركة بلاط الشهداء لم تحم أوربا من خطر الإسلام ولكنها حرمتها من نعمته ، وكانت على أية حال آخر المعارك الكبيرة التي خاضها المسلمون في عصر الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ) في هذه الجبهة ؛ لأن ما تلا ذلك - من عهد الولاة في الأندلس إلى سقوط الدولة الأموية في المشرق - كان عهد نزاع وتنافس بين الولاة وصراع بين العرب والعرب ، وبين العرب والبربر ، فانشغلوا عن الغزو والجهاد في سبيل اللَّه . كما أن الدولة الأموية ذاتها انشغلت بأحداث المشرق عن الأندلس التي لم يخلصها من الفوضى والانقسامات سوى وصول عبد الرحمن الداخل الذي أسس فيها إمارة أموية سنة (١٣٨هـ) ، بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق بست سنوات .

الفتوحات الأموية في المشرق

تثبيت الفتوحات في بلاد فارس :

امتدت الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي إلى بلاد ما وراء النهر - نهر جيحون أو آموداريا - في الشمال الشرقي ، وإقليم السند في الجنوب الشرقي ، ولم تتوجه الحملات الإسلامية لفتح هذه الأقاليم بشكل جدي وثابت - في العهد الأموي - إلا منذ بداية عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) . أما قبل

---

(١) الحضارة العربية (ص ١٥٢ - ١٥٤) .

ذلك فقد كان الأمويون مشغولين بتثبيت الفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين في بلاد فارس ، مع التمكين لنشر الإسلام فيها بتقديمه للناس وتعريفهم به بأسلوب الدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة . وبمتابعة الجهاد ضد الدولة البيزنطية - المتربصة - في الغرب من ناحية أخرى . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن معاوية بن أبي سفيان قد ركز جهده على محاربة هذه الدولة ، أما في فارس فقد عوَّل على تثبيت أقدام المسلمين هناك ، قبل الانتقال إلى ميدان جديد ، وبعد وفاة معاوية سنة (٦٠هـ) ، دخلت الدولة الأموية في دور جديد من أدوار الفتن الداخلية ، وهبَّت في وجهها الثورات والحركات المناهضة ، وقد طالت هذه الفترة فاستغرقت عهد يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ) ومروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥هـ) وعبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) الذى قضى معظم سني حكمه في القضاء على الثائرين ، إلى أن تمكن من إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية ، وترك لابنه الوليد (٨٦ - ٩٦هـ) دولة موحدة قوية سليمة البنيان ؛ فأفاد الوليد من جهود أبيه أفضل إفادة فشهد عهده أعظم حركة فتوحات إسلامية - بعد فتوحات الخلفاء الراشدين - فاستكمل فتح شمال إفريقيا ، ثم فتح الأندلس - كما رأينا - ثم سارت جيوشه مظفرة بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي لتفتح أقاليم ما وراء النهر - في آسيا الوسطى - ومحمد بن القاسم الثقفي لتفتح إقليم السند .

وهذه الفتوحات الكبرى لم تبدأ من فراغ ؛ بل مهدت لها جهود جبارة استمرت زمنًا طويلًا ، فالفترة التي انقضت منذ عهد عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣هـ) الذي تحققت فيه الفتوحات الكبرى - في مرحلتها الأولى - وحتى استئناف الفتوحات - فيما وراء النهر والسند - هذه الفترة التي تزيد على الستين عامًا ، لم تتوقف جهود المسلمين فيها عن تثبيت أقدامهم في بلاد فارس ، وفي مناوشة الأتراك فيما وراء النهر ؛ لدفع عدوانهم ورد غاراتهم ولمعرفة بلادهم وأحوالها وطرقها ، حتى يكونوا على بينة من أمرها ، إذا قدر لهم أن يفتحوها . فالفرس قد تحطمت مقاومتهم ولم تجتمع لهم كلمة ، بعد موقعة نهاوند (فتح الفتوح) في سنة (٢١هـ) . وانساحت جيوش المسلمين في جميع أنحاء فارس ، فأكملت فتحها صلحًا ، مقاطعة بعد أخرى . وانتهى أمر يزدجرد الثالث ومحاولاته الأخيرة للمقاومة في خراسان ؛ حيث قضي عليه في مرو سنة (٣١هـ) وبسط المسلمون سلطانهم على جميع المقاطعات الفارسية دون مقاومة تذكر ، بل بمعاهدات صلح قامت على الرحمة والتسامح من

جانب المسلمين [١] .

وهنا ينبغي أن نقف وقفة قصيرة نتأمل فيها سلوك المسلمين في تلك البلاد بعد فتحها ، ونسأل : هل انتهز المسلمون فرصة انهيار المقاومة وتدهور الروح المعنوية عند الفرس واستولوا على بلادهم وممتلكاتهم ؟ وهل أجبروهم على اعتناق الإسلام بالقوة ، وكان كل ذلك سهلًا عليهم ؟ لا ، لم يفعل المسلمون ذلك ؛ لأنهم لم يكونوا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا ، ولم يكن يحركهم الطمع في الاستيلاء على خيرات البلاد كما يدعي أعداء الإسلام ، وإنما هم أصحاب رسالة آمنوا بها واستمتعوا بنورها وهديها وفضائلها ، وإيمانهم بهذه الرسالة وبما تحمله من خير للبشرية جعلهم تواقين إلى أن يشاركهم فيها غيرهم من الناس ، لينعموا كما نعموا هم به ؛ لأن المسلم الحقيقي لا يعرف الأنانية ، ولا الاستئثار ، بل يسعده أن يفيض ما معه من خير على الآخرين ولكنهم لا يحاولون مطلقًا فرض دينهم على أحد بالقوة ، بل يعرضونه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسنرى فيما بعد عند الحديث عن انتشار الإسلام أن سلوك المسلمين في البلاد المفتوحة كان من أهم الأسباب لإقبال الشعوب على الإسلام .

ولكن هل استكان كل الفرس للفاتحين المسلمين ، واستجابوا للإسلام وآمنوا به منذ ذلك الوقت الذي فرض المسلمون فيه سيطرتهم السياسية ؟

الواقع أنه حدثت استجابة سريعة للإسلام ، وآمن به كثيرون من الفرس منذ البداية [٢] . وبصفة خاصة من الطبقات التي كانت تعاني من الظلم والاستغلال حيث وجدت العزة والكرامة والحرية في اعتناق الإسلام [٣] .

أما طبقة الحكام الذين استسلموا للمسلمين وقبلوا دفع الجزية وأعطوا بذلك عهودًا ومواثيق ، فقد كان موقفهم مختلفًا ، فمعظمهم لم يستجب للإسلام منذ البداية ، بل لم يتركوا فرصة للانتقاض ونكث العهود إلا واهتبلوها وكان على المسلمين أن يردوهم إلى الطاعة والنظام . ففي عهد عثمان بن عفان ﷺ (٢٤ - ٣٥هـ) يكاد يكون عمل ولاة الكوفة والبصرة جهودًا متواصلة لرد الولايات الفارسية الثائرة إلى

(١) سيأتي الحديث مفصلًا عن المعاهدات التي وقعها القادة المسلمون مع حكام المقاطعات الفارسية في عهد عمر بن الخطاب وأثرها في انتشار الإسلام في بلاد فارس .

(٢) انظر د. حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٣٥) وما بعدها .

(٣) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٣٧) .

الطاعة والنظام . يقول الطبري : « وفي هذه السنة - (٢٤هـ) - غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر . ثم إن الوليد صالح أهل أذربيجان على ثمانمائة ألف درهم ، وذلك هو الصلح الذي كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان سنة اثنتين وعشرين ، بعد نهاوند بسنة ، ثم إنهم حبسوها عند وفاة عمر ، فلما ولي عثمان وولَّى الوليد بن عقبة الكوفة سار حتى وطئهم بالجيش ، فلما رأوا ذلك انقادوا إليه ، وطلبوا إليه أن يتم لهم على ذلك الصلح ففعل ؛ قبض منهم المال ، وبث فيمن حولهم من أعداء المسلمين الغارات »[١] .

ويقول البلاذري : « حدثني علي بن محمد وغيره أن عبد اللَّه بن عامر ، توجه يريد خراسان سنة ثلاثين ، فنزل بعسكره شق الشيرجان من كرمان .. ووجه الربيع ابن زياد الحارثي إلى سجستان فأغار على أهله .. وصالح الدهقان على حقن دمه .. ثم ولَّى ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة سجستان فأتى زرنج فحصر مرزبانها في قصره في عيد لهم . فصالحه على ألفي ألف درهم ، وألفي وصيف ، وغلب ابن سمرة على ما بين زرنج وكش من ناحية الهند »[٢] .

وهكذا استمرت حركات التمرد والعصيان ونقض العهود من جانب حكام المقاطعات الفارسية ، طوال عهد الخلفاء الراشدين . حتى أن علي بن أبي طالب ﷺ رغم انشغاله بالمشاكل الخطيرة التي واجهته - لم يغفل أمر حركات التمرد الفارسية - ولم يتردد في إرسال الجيوش لقمعها وردهم إلى الطاعة والنظام ؛ فقد كتب إلى عبد اللَّه بن عباس ، وكان قد ولَّاه البصرة وأمره أن يوجِّه إلى سجستان من يضبط أمرها ؛ فوجه ربعي بن الكاس العنبري في أربعة آلاف ، فورد البلاد وضبطها[٣] . ثم طمع أهل فارس وكرمان في كسر الخراج وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا عمالهم « فشارو على الناس في رجل يوليه فارس ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأي ، عالم بالسياسة ، كاف لما ولي ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد . قال : هو لها ، فولاه فارس وكرمان ، ووجهه في أربعة آلاف ، فدوخ تلك البلاد حتى استقاموا »[٤] . هكذا كان حال المقاطعات الفارسية

(١) تاريخ الطبري (٢٤٦/٤ ، ٢٤٧) . (٢) فتوح البلدان (ص ٤٨٦) .
(٣) المصدر السابق (ص ٤٨٧) .
(٤) انظر الطبري - تاريخ (١٣٧/٥) ويروي الطبري عن شيخ من أهل اصطخر قال : سمعت أبي يقول : « أدركت زيادًا وهو أمير على فارس وهي تضرم نارًا ، فلم يزل بالمداراة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة » .

طوال عهد الخلفاء الراشدين فلما قامت الدولة الأموية ، سار معاوية على هذه السياسة وهي تثبيت أقدام المسلمين في تلك البلاد ، وكانت الكوفة والبصرة تضطلعان بتلك المهمة ، كل مدينة منهما فيما والاها ، يقول البلاذري : « ثم لما ولي معاوية بن أبي سفيان ، استعمل على البصرة عبد اللَّه بن عامر ، فولَّى عبد الرحمن بن سمرة سجستان ، فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطي ، ومعه من الأشراف عمر ابن عبيد اللَّه بن معمر التميمي ، وعبد اللَّه بن خازم السلمي ، وقطري بن الفجاءة ، والمهلب بن أبي صفرة ، فكان يغزو البلد قد كفر أهله ، فيفتحه عنوة ، أو يصالح أهله ، حتى بلغ كابل .. ثم سار إلى زابلستان ، فقاتلوه وقد كانوا نكثوا ، ففتحها وأصاب سبيا ، وأتى كابل ، وقد نكث أهلها ، ففتحها » [١] .

ولما عزل معاوية عبد اللَّه بن عامر عن البصرة ولَّى عليها زياد بن أبي سفيان سنة (٤٥هـ) فاستمر على سياسة التصدي لحركات التمرد والانقضاض في أقاليم فارس الجنوبية ، ثم بدأ يتطلع إلى فتح بلاد ما وراء النهر ، وقد ركز على خراسان ؛ لتكون منطلقًا ينطلق منه المسلمون في غزواتهم إلى تلك البلاد وقسمها على عدد من القواد وجعل لكل منهم حرية التصرف فيما يراه لصالح المسلمين . يقول الطبري : « جعل زياد خراسان أرباعًا ، واستعمل على مرو أمير بن أحمر اليشكري ، وعلى أبر شهر خليد بن عبد اللَّه الحنفي ، وعلى مرو الروذ والفارياب والطالقان قيس بن الهيثم ، وعلى هراة وبادغيس وقادس وبوشنج نافع بن خالد الطاحي » [٢] .

ولما جمع معاوية الكوفة مع البصرة لزياد ، بعد وفاة المغيرة بن شعبة سنة (٥١هـ) أصبح زياد سيد المشرق كله ؛ فخطا خطوات مهمة في سبيل توطيد الحكم الإسلامي في بلاد فارس بعامة ، وفي خرسان بخاصة ، التي قرر أن يجعلها قاعدة ثغرية لتقوم في عمليات فتح بلاد ما وراء النهر بالدور نفسه الذي كانت تقوم به العراق في فتح بلاد فارس ؛ فعمد إلى توطين العرب فيها بأعداد كبيرة ليؤدي استقرارهم وامتزاجهم بالسكان إلى التمكين للإسلام والمسلمين في هذه البلاد وجذب أهلها إلى الإسلام .

يقول الطبري : « ثم بعث زياد الربيع بن زياد الحارثي إلى خراسان في خمسين ألفًا : من البصرة خمسة وعشرون ألفًا ، ومن الكوفة خمسة وعشرون ألفًا ؛ على

---

(١) فتوح البلدان (ص ٤٨٨ ، ٤٨٩) . (٢) تاريخ الطبري (٥/٢٢٤) .

أهل البصرة الربيع ، وعلى أهل الكوفة عبد اللّٰه بن أبي عقيل ، وعلى الجماعة الربيع ابن زياد » [١] . وبعد وفاة زياد سنة (٥٣هـ) ولَّى معاوية ابنه عبيد اللّٰه بن زياد خراسان ، فلما قدمها وجد أن جهود أبيه ومن سبقه في توطيد الأمن والاستقرار في الإقليم قد آتت ثمارها وأنه أصبح قاعدة مكينة ، يمكن الانطلاق منها إلى ما وراء النهر ؛ فبدأ في طرق هذه البلاد لعجم عودها ، يقول الطبري : « وقدم عبيد اللّٰه خراسان ثم قطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل ، فكان هو أول من قطع إليهم جبال بخارى في جند ففتح رامثين ونصف بيكندوهما من بخارى ، فمن ثم أصاب البخارية ، وهم الأسرى الذين عاد بهم وعدتهم ألفان » [٢] .

فهل كان عبيد اللّٰه بن زياد أول من عبر النهر فعلًا ؟ طبقًا لما يرويه البلاذري لم يكن عبيد اللّٰه بن زياد أول من فعل ذلك ؛ بل سبقه الحكم بن عمرو الغفاري ، الذي عبر النهر في ولاية زياد وكان أول من صلى وراء النهر [٣] . ثم توالت الغزوات بعد غزوة عبيد اللّٰه بن زياد ، فكانت غزوة سعيد بن عثمان بن عفان ، الذي كان معاوية قد ولَّاه خراسان سنة (٥٦هـ) [٤] ، وقد قطع سعيد النهر وقصد بخارى « فلما بلغ خاتون عبوره النهر حملت إليه الصلح ، وأقبل أهل الصغد والترك وأهل كش ونسف إلى سعيد في مائة وعشرين ألفًا ، فالتقوا ببخارى وقد ندمت خاتون على أدائها الإتاوة ونكثت العهد ، فحضر عبد لبعض تلك الجموع فانصرف بمن معه فانكسر الباقون ، فلما رأت خاتون ذلك أعطته الرهن وأعادت الصلح ودخل سعيد مدينة بخارى ، ثم غزا سمرقند فأعانته خاتون بأهل بخارى فنزل على باب سمرقند وحلف ألا يبرح أو يفتحها ، ويرمي قهندزها ، فقاتل أهلها ثلاثة أيام وكان أشد قتالهم في اليوم الثالث ففقئت عينه وعين المهلب بن أبي صفرة .. ثم لزم العدو المدينة، وقد فشت فيهم الجراح فأتاه رجل فدلَّه على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم ، فسار إليهم وحصرهم فلما خاف أهل المدينة أن يفتح القصر عنوة ويقتل من فيه ، طلبوا الصلح ، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم ، وعلى أن يعطوه رهنًا من أبناء عظمائهم ، وعلى أن يدخل المدينة » [٥] .

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٢٦) ، وانظر كذلك البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٠٧) .
(٢) تاريخ الطبري (٥/٢٩٨) والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٠٧) .
(٣) فتوح البلدان (ص ٥٠٦) .
(٤) انظر الطبري - تايخ (٥/٣٠٤) ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٠٧) .
(٥) البلاذري المصدر السابق (ص ٥٠٧ ، ٥٠٨) .

ثم قطع النهر سلم بن زياد في عهد يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ) وصالح أهل (خوارزم) على أربعمائة ألف حملوها إليه ، وأخذ من أهل سمرقند ألف دية ، ثم وجَّه جيشًا إلى خجنده ، ثم رجع إلى مرو [١] .

هذه الحملات التي توالت على بلاد ما وراء النهر ، والتي كانت تعود محملة بالغنائم ، لا تشذ عن الأسلوب الذي اتبعه المسلمون في فتوحاتهم في البلاد التي كانت معرفتهم بها قليلة ؛ فقد اتبعوا ذلك في شمال إفريقيا وفي الأندلس عندما يرسلون الحملات الاستطلاعية لارتياد البلاد ومعرفة طرقها ، ومناخها وظروفها ، وهي مراحل تمهيدية تسبق الفتح المنظم إلى أن يحين وقته ، كما أن عبور النهر الذي بدأ منذ عهد معاوية يدل على أن سياسة المسلمين في تثبيت الفتوحات في بلاد فارس قد نجحت ، وأن خراسان بالذات التي كانت أكثر الأقاليم التي قاومت ، لم تستكن للمسلمين وتنضوي تحت حكمهم فحسب ، بل أصبحت منطلقهم إلى بلاد ما وراء النهر ، كما خطط لذلك زياد بن أبي سفيان .

وبعد هذه الحملات الأولى مضت بضع عشرة سنة قبل أن يتمكن المسلمون من استئناف غزواتهم في هذه البلاد ، وهذه السنوات الممتدة من نهاية خلافة يزيد ابن معاوية (٦٠ - ٦٤هـ) إلى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) شهدت العديد من الفتن والثورات الداخلية التي شغلت المسلمين وعاقت تقدمهم في فتح أقاليم ما وراء النهر . لكن حين تمكن عبد الملك بن مروان من القضاء على عبد اللّٰه بن الزبير سنة (٧٣هـ) بدأ يتنفس الصعداء ومنذ أن أصبح الحجاج واليًا على العراق سنة (٧٥هـ) بدأت الحركة تدب في الأطراف الشرقية للدولة ، واستؤنف الفتح فيما وراء النهر ، وأول من عبر النهر في هذه المرحلة هو أمية بن عبد اللّٰه بن خالد ، الذي ولاه عبد الملك على خراسان ، ولكن غزوته لم تكن ناجحة ؛ لأنه بمجرد عبوره النهر جاءته الأخبار بعصيان بكير بن وشاج - الذي كان يلي خراسان قبله وعزل به - وموسى بن عبد اللّٰه بن خازم مما اضطره أن يصالح أهل بخارى ويعود إلى خراسان [٢] .

وفي سنة ٧٨ هـ عزل عبد الملك أمية بن عبد اللّٰه عن خراسان ، وضمها إلى الحجاج مباشرة ، فاختار لها رجلًا من خيرة رجال عصره ومن القادة المبرزين وهو

(١) نفسه (ص ٥١٠) .
(٢) انظر البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٠٣) وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤/٤٤٤) .

المهلب بن أبي صفرة [١] صاحب البلاء الحسن في كسر شوكة الخوارج . المهلب ليس غريبًا على خراسان ، ولا على بلاد ما وراء النهر ، فقد صحب سعيد بن عثمان ابن عفان في غزوته وفقئت عينه هناك - كما أشرنا آنفًا - .

وقد بدأ المهلب غزوه لبلاد ما وراء النهر سنة (٨٠هـ) . يقول ابن الأثير : « وفي هذه السنة قطع المهلب نهر بلخ [٢] ، ونزل على كش ، وعلى مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف ، وهو في خمسة آلاف وكان أبو الأدهم يغني غناء الفين في البأس والتدبير والنصيحة ، فأتى المهلب وهو نازل على كش ابن عم ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد ، وكان اسم ملك الختل الشبل ، فنزل يزيد ونزل ابن عم الملك ناحية ، فبيته الشبل وأخذه فقتله ، وحاصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حملت إليه ، ورجع يزيد عنهم ، ووجه المهلب ابنه حبيبًا فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفًا ، فنزل جماعة من العدو قرية فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية ، فسميت المحترقة ، ورجع حبيب إلى أبيه ، وأقام المهلب بكش سنتين ، فقيل له : لو تقدمت إلى ما وراء ذلك فقال : ليت حظي من هذه الغزاة سلامة هذا الجند وعودهم سالمين » [٣] .

ولم يلبث المهلب أن توفي بعد عودته سنة (٨٢هـ) [٤] وخلفه على خراسان ابنه يزيد وأقره الحجاج ، وقد قام يزيد بن المهلب بغزو خوارزم [٥] ، ولكن الحجاج عزله وعين مكانه أخاه المفضل بن المهلب ، ثم لم يلبث أن عزل المفضل أيضًا وولّى قتيبة ابن مسلم ، الذي قدر له أن يفتح هذه البلاد ، ويجعلها جزءًا من العالم الإسلامي ، ولكن قبل أن نمضي مع قتيبة في فتوحاته ينبغي أن نعرف أحوال تلك البلاد آنئذ .

أحوال بلاد ما وراء النهر عندما فتحها المسلمون :

ما وراء النهر لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة

---

(١) ابن الأثير - المصدر السابق (٤٤٨/٤) .

(٢) المقصود نهر جيحون ، يقول ياقوت : « وهو يسمى نهر بلخ مجازًا ؛ لأنه يمر بأعمالها فأما مدينة بلخ فإن أقرب موضع منه إليها مسيرة اثني عشر فرسخًا - معجم البلدان (١٩٧/٢) .

(٣) الكامل في التاريخ (٤٥٣/٤ ، ٤٥٤) والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١٤) ، والطبري - تاريخ (٣٢٥/٦ ، ٣٢٦) .

(٤) الطبري - المصدر السابق (٣٥٥/٦) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٤٧٥/٤) .

(٥) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥١٤) .

المحصورة بين نهري جيحون في الجنوب ، وسيحون في الشمال ، وتقع في الشمال الشرقي من حدود الدولة الفارسية القديمة ، وسكان هذه المنطقة من العنصر التركي الذي انحدر إليها من الشرق ، منذ القرن السادس الميلادي ، وكونوا لهم عدة ممالك مستقلة فيها ، وأهم مصدر حديث يمدنا بمعلومات قيمة عن أصل هؤلاء السكان ، هو دراسة المؤرخ الروسي بارتولد ، والمتخصص في تاريخ الترك بصفة عامة ، والذي اعتمد بدوره على آثار أورخون التي يعتبرها أهم مصدر في الكشف عن ظهور الترك في آسيا الوسطى ، ويقول عنها : « ومن الآثار التي تهم صاحب الدراسات التركية ، وتهم المؤرخ أيضًا آثار أورخون ، وهي تخلد أقدم ذكر للسان التركي ، وقد اكتشفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي أقدم آثار تركية أنشأها الترك أنفسهم عن تاريخهم ، فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة في التاريخ بالترك ، وهم قوم قد ظهروا في القرن السادس ، واستولوا في زمن قصير على مساحات تمتد من حدود الصين إلى إيران وبيزنطة » [١] .

وطبقًا لنظرية الأستاذ بارتولد في دارسته يكون سكان ما وراء النهر من أصل تركي ، وليسوا خليطًا من الأتراك والإيرانيين ، كما يرى الدكتور شكري فيصل [٢] . والدولة الساسانية لم تستطع قط أن تفرض نفوذها السياسي عليهم ، وإن كان لها تأثير ثقافي وديني بحكم تفوقها الحضاري ، وسيطرتها على طرق التجارة البرية والبحرية [٣] ، وربما كان عجز الساسانيين عن فرض سلطانهم السياسي على الترك فيما وراء النهر - بل حتى أحيانًا عن حماية حدودهم منهم - راجعًا إلى انشغالهم بصراعهم الدائم مع البيزنطيين ، « وقد أفاد الترك من هذا الوضع ، فسلبوهم حوض نهر جرجان ، الذي يصب حاليًا في بحر الخزر - بحر قزوين - ولكن الأتراك باستيلائهم هذا ، وقعوا تحت تأثير المدنية الإيرانية ، ودخلوا في الديانة الزرادشتية ، ويدلنا هذا المثل على أن إيران الساسانية كانت تؤثر بفضل مدنيتها وأهميتها الاقتصادية على جيرانها دون أن تنتصر عليهم عسكريًا » [٤] .

قامت في هذه المنطقة عدة ممالك مستقلة عن بعضها البعض ، بل ومتحاربة

---

(١) بارتولد - تاريخ الترك في آسيا الوسطى (ص ٢ ، ٣) وانظر د. حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ١٣٥) وما بعدها .

(٢) حركة الفتح الإسلامي (ص ١٩٢) . (٣) بارتولد - المرجع السابق (ص ٤٠) .

(٤) المرجع السابق (ص ٤٠) .

باستمرار [١] :

مملكة طخارستان : وهي بلاد واسعة تقع على ضفتي نهر جيحون ، من أهم هذه الممالك ، وكانت بلخ عاصمتها ، وقد نسب إليها نهر جيحون ، فكان يطلق عليه نهر بلخ [٢] .

مملكة الختل : وهي كورة واسعة كثيرة المدن ، وقصبتها هلبك ، وهي أول مملكة وراء نهر جيحون [٣] .

مملكة صغانيان : وهي ولاية عظيمة متصلة الأعمال بترمذ وقصبتها تسمى صغانيان أيضًا [٤] .

مملكة الصغد : وقصبتها سمرقند ، ويقال : هما صغدان ، صغد سمرقند وصغد بخارى [٥] .

ثم مملكة خوارزم : وقصبتها الجرجانية [٦] .

وبالإضافة إلى هذه الممالك الواقعة بين النهرين ، فتح العرب عدة أقاليم أخرى ، خلف نهر سيحون ، عرفت بالممالك السيحونية ، ومنها مملكة فرغانة ، وعاصمتها تسمى فرغانة أيضًا [٧] ، ومملكة أشروسنة إلى الشرق من فرغانة [٨] ، ثم مملكة الشاش إلى الشمال من أشروسنة .

هذه هي البلاد التي أتم المسلمون فتحها في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي ، فكيف كانت أوضاعها السياسية والاجتماعية ؟

كانت أوضاع هذه المنطقة التي أصبحت متاخمة لحدود المسلمين في خراسان غير مستقرة سياسيًا - قبيل الفتح الإسلامي - وكانت المنازعات دائمة بين الولايات ، وقد شكل هذا الوضع خطرًا على المسلمين مما جعلهم يفكرون في وضع حد لحالة الفوضى في هذه البلاد ، وضمها للدولة الإسلامية وإخضاعها للنظام ، قبل أن يستفحل خطرها ، وسكان هذه الأقاليم وإن كانت الروابط بينهم غير قوية ،

---

(١) د . حسن أحمد محمود - المرجع السابق (ص ١٣٧) .

(٢) المسعودي - مروج الذهب (١٠١/١) ، وياقوت - معجم البلدان (١٩٧/٢) .

(٣) ياقوت - المصدر السابق (٣٤٦/٢) .

(٤) المصدر السابق (٤٠٨/٣ ، ٤٠٩) .

(٥) المصدر السابق (٤٠٩/٣) .

(٦) المصدر السابق (٣٩٥/٢) .

(٧) المصدر السابق (٢٥٣/٤) .

(٨) المصدر السابق (١٩٧/١) .

إلا أنهم محاربون أشداء وقد يحفزهم إحساسهم بالخطر من جانب المسلمين على توحيد صفوفهم لمحاربتهم ؛ خصوصًا وأنهم قد سبق لهم عبور النهر لنجدة يزدجرد الثالث في خراسان ضد المسلمين ، فكان من الحكمة أن يطرقهم المسلمون قبل أن يصلوا إلى هذه المرحلة . ونستعير تلخيص الأستاذ جب - في كتابه « غزوات العرب في آسيا الوسطي » - للوضع السياسي في هذه المناطق حيث يقول : « كانت الولايات في هذه المنطقة تعترف بالخان سيدًا لها ، وتدفع له الجزية ، وكانت إمارة صغديان - الصغد - مقسمة إلى ولايات صغيرة مستقلة ، تقوم بينها معاهدات مرنة ، وكان أقوى ما يصل بينها من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصين ، وأهم مراكزها سمرقند وبيكند وكش ، وكانت سمرقند أوفرها حظًا من النجاح في عالم التجارة ، ومنها كانت ترسل البعوث التجارية إلى بلاد الصين ، أما المشتغلون بالزراعة فكانوا كلهم من الجنس الآري ، وقد ارتبطت الولايات فيما عدا ذلك برباط ثان وهو سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسر الأخرى ، ولكنه لم يكن رباطًا وثيقًا ، وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء سادة محليون ، لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه ، وكل شيء في هذه الأوضاع الاجتماعية والتفكك السياسي في حياة هذه الولايات - كان في صالح الفتح العربي » [١] .

هذه هي بلاد ما وراء النهر ، التي بدأ المسلمون يطرقون أبوابها منذ أن وطدوا أقدامهم في خراسان ، وبصفة خاصة من بداية عهد معاوية بن أبي سفيان إلى أن تسلم الراية قتيبة بن مسلم .

فتوحات قتيبة بن مسلم فيما وراء النهر

ولي قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي خراسان من قبل الحجاج سنة (٨٥هـ) ، بعد عزل المفضل بن المهلب - كما سبقت الإشارة - وكان قتيبة من الأبطال الشجعان ، ذوي الحزم والدهاء والرأي والغناء ، ويعتبر بحق من أعظم القادة الفاتحين ، الذين عرفهم التاريخ الإسلامي بعامة ، وتاريخ الدولة الأموية بخاصة [٢] ،

(١) الدكتور شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ٢٠٩) نقلًا عن جب - غزوات العرب في آسيا الوسطى .

(٢) انظر ترجمة قتيبة وأخباره في - ابن قتيبة - المعارف (ص ٤٠٦) ، والطبري (٦/٣٩٥ ، ٥٠٦) وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥/١٢) ، والذهبي - سير أعلام النبلاء (٤/٤١٠) ، وابن كثير - البداية والنهاية (٩/١٦٧) .

ففي خلال عشر سنين فتح أقاليم شاسعة « وقد هدى الله على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله ﷻ » [(١)] .

حمل قتيبة راية الفتوحات في بلاد ما وراء النهر في وقت ملائم تمامًا ، وأفاد من جهود القادة الذين سبقوه ومهدوا له الطريق على مدى يزيد عن الأربعين عامًا . كما كان يستند إلى والي العراق القوي الحازم اليقظ الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي اختاره لهذه المهمة ، ووضع ثقته فيه ، ولم يقصر في إمداده بالرجال وتشجيعه وحثه على الإقدام . كما كان من حسن حظ قتيبة أن ولايته على خراسان واضطلاعه بقيادة الفتوحات فيما وراء النهر - في أواخر خلافة عبد الملك بن مروان - جاءت في وقت كانت الدولة الأموية قد تغلبت على جميع مناوئيها واستقرت أمورها ، واستردت عافيتها وقوتها ؛ فاجتمعت لقتيبة شجاعة القائد وإقدامه ، وعزم الوالي وتصميمه ، وقوة الدولة واستقرارها ؛ فكانت أعماله الرائعة فيما وراء النهر .

ولقد كان قتيبة يدرك أنه مقدم على تنفيذ عمل جليل وخطير ، وهو فتح بلاد ما وراء النهر ، ولا بد أنه ناقش تفاصيل هذا المشروع مع الحجاج قبل أن يتوجه إلى خراسان ، واستعرض معه كل الوسائل التي تؤدي إلى نجاحه ولقد برهن قتيبة على أنه لم يكن قائدًا عسكريًا فذًا فقط ، وإنما رجل إدارة وتنظيم . كما برهن على أنه كان يعرف كل شيء عن أحوال خراسان قبل أن يصل إليه . فقد كانت رياح الخلافات والعصبيات العربية قد هبت عليها ، من جراء التنافس على الولاية ، حيث ترك مقتل عبد الله بن خازم أثره هناك [(٢)] ، كما أن تنحية آل المهلب عن مراكز الصدارة في خراسان وهم أزد يمنيون لهم عصبية كبيرة - لا بد أن تكون لها عواقب ، فكان على قتيبة أن يقضي على هذه العوائق وأن يُنسي العرب خلافاتهم ، ويجعلهم يرتفعون فوق العصبيات ، ويذكرهم برسالتهم السامية ويعدُّهم للجهاد في سبيل الله ، فجمع أعيانهم لأول ما وصل خراسان ، وخطبهم قائلًا : « إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وقما - أي

(١) ابن كثير - المصدر السابق (١٦٧/٩) .

(٢) كان عبد الله بن خازم قد تغلب على خراسان أثناء حركة ابن الزبير فأمره عبد الملك عليها ، ولكنه أبى طاعته ، فكتب إلى بكير بن وشاج - وكان على شرطة ابن خازم - بولايتها ، فنشب بينهما صراع انتهى بمصرع ابن خازم ، فأدى ذلك إلى تفاقم الخلافات بين العرب في خراسان . انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١١ - ٥١٣) .

ذلًا - ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فتنجّزوا موعود ربكم ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياي والهوينى» [١].

بهذه الخطبة الموجزة ذكّر قتيبة العرب برسالتهم، ومسؤوليتهم تجاهها، وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقة في سبيل اللّه وأن يسيروا في طريق أسلافهم، طريق الجهاد لنصرة دينهم، والنتيجة مضمونة وهي العزة في الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة.

وقد نجح قتيبة في توحيد صفوف العرب تحت راية الجهاد، كما عمل على كسب ثقة الخراسانيين وودهم، فقربهم وعهد إليهم بالوظائف [٢]؛ وبذلك ضمن تعاونهم معه لتحقيق هدفه، وهذه بداية سليمة تدل على ذكاء وخبرة ومقدرة إدارية كبيرة.

وليس من اليسير هنا تتبع خطوات قتيبة خطوة خطوة، في فتوحاته التي استمرت حوالي عشر سنين (٨٦ - ٩٦هـ) والتي فتح فيها منطقة ما وراء النهر ثم عبر نهر سيحون، وفتح عدة أقاليم خلفه، حتى وصل كاشغر متاخمًا بذلك حدود الصين. ولذلك فإننا نكتفي بالوقوف عند المراحل الكبرى في هذه الفتوحات، وهي:

المرحلة الأولى من سنة (٨٦ - ٨٧هـ):

وهي المرحلة التي أخضع فيها إقليم طخارستان، ذلك الإقليم الكبير الذي يقع على ضفتي نهر جيحون، ويبدو أن هذا الإقليم لم تستقر أوضاعه للمسلمين طوال هذه السنين منذ فتحه الأول على يدي الأحنف بن قيس في خلافة عثمان بن عفان [٣]؛ مما اضطر قتيبة إلى فتحه من جديد قبل أن يمضي إلى فتوحاته فيما وراء النهر؛ لأن فتح

---

(١) الطبري - تاريخ (٦/٤٢٤).

(٢) انظر د. شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ٢١٥).

(٣) انظر الطبري - تاريخ (٤/٣١٣).

ما وراء النهر لم يكن ممكنًا بدون بسط سيطرة المسلمين على طخارستان [١] ، وبعد أن استتب الأمر لقتيبة في خراسان استخلف عليها إياس بن عبد الله بن عمر [٢] ، وسار إلى طخارستان « فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائها فساروا معه ، فلما قطع النهر تلقاه تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده .. وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ، ودعاه إلى بلاده ، فمضى مع تيش إلى الصغانيان فسلم إليه بلاده ، ثم جاء غشتاسبان ملك أخرون وشومان ، وهما من طخارستان ، فصالحه على فدية أداها إليه ، فقبلها قتيبة ورضي ، ثم انصرف إلى مرو واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم » [٣] .

يفهم من هذه الرواية أن طخارستان خضعت لقتيبة بدون قتال . ولكن الطبري نفسه يورد رواية أخرى يفهم منها أن قتيبة لقي حربًا ، حيث يقول : « وقد قيل : إن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر في هذه السنة - (٨٦هـ) - على بلخ ؛ لأن بعضها كان منتقضًا عليه .. فحارب أهلها .. ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة فيه » . وعلى كل حال لا يبدو الخلاف كبيرًا بين الروايتين ؛ لأن أهل بلخ لم يكونوا ملحين في حربهم لقتيبة ، بدليل أنهم صالحوا من غد اليوم الذي حاربوا فيه ، وقد خضعت طخارستان طوعًا أو صلحًا بعد قتال يسير ، ولكن متاعب قتيبة لم تنته مع أهلها ، وبصفة خاصة من جانب نيزك صاحب قلعة بادغيس ، الذي كان قتيبة قد صالحه على ألا يدخل قلعته [٤] ، ووفى له قتيبة ، بل صحبه معه غزوة بيكند سنة سبع وثمانين [٥] ؛ إلا أنه غدر ونقض الصلح فيما بعد وعمل على تكوين حلف من ملوك طخارستان ضد قتيبة [٦] ، ومع أن هؤلاء الملوك أجابوه وخلعوا طاعة قتيبة أثناء غيابه فيما وراء النهر ، إلا أنهم بمجرد عودته سارعوا للقائه والاعتذار له عما حدث ، أما نيزك فقد لقي مصيره الذي يستحقه ؛ فقد قبض عليه قتيبة ، وقتله مع سبعمائة من أنصاره وكان مقتله سنة (٩١هـ) [٧] . وبمقتله استقرت أمور طخارستان للمسلمين نهائيًا .

---

(١) د . شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ٢١٠) .
(٢) الطبري - المصدر السابق (٦/٤٢٤) .
(٣) المصدر السابق (٦/٤٢٥) ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١٦ ، ٥١٧) .
(٤) الطبري - تاريخ (٦/٤٢٧) . (٥) البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١٧) .
(٦) الطبري - المصدر السابق (٦/٤٤٥ ، ٤٤٦) .
(٧) المصدر السابق (٦/٤٥٨) ، والبلاذري - المصدر السابق (ص٥١٧) .

المرحلة الثانية : من (٨٧ - ٩٠هـ) [١] :

وهي المرحلة التي فتح فيها قتيبة إقليم بخارى ، وكانت أول مدينة غزاها في هذا الإقليم هي مدينة بيكند ، يقول الطبري : «إن قتيبة لما صالح نيزك ، أقام إلى وقت الغزو ، ثم غزا في تلك السنة (٨٧هـ) فقطع النهر وسار إلى بيكند ، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بعقوتهم استنصروا الصغد ، واستمدوا من حولهم ، فأتوهم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق ، فلم ينفذ لقتيبة رسول ، ولم يصل إليه رسول ، ولم يجر له خبر شهرين ، وأبطأ خبره على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وهم يقتتلون كل يوم ، فكانت بين الناس مشاولة [٢] . ثم تزاحفوا والتقوا وأخذت السيوف مأخذها وأنزل اللّه على المسلمين الصبر ، ثم منح اللّه المسلمين أكتافهم فانهزموا يريدون المدينة ، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلًا وأسرًا كيف شاؤوا ، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة ، وهم قليل ، فوضع قتيبة الفعلة في أصلها ليهدمها ، فسألوه الصلح فصالحهم ، واستعمل عليها رجلًا من بني قتيبة » [٣] . ولكنهم سرعان ما نقضوا الصلح ، وقتيبة منهم على خمسة فراسخ فرجع إليهم ، وقتل من كان في المدينة ، وغنم غنائم كثيرة . « ورجع قتيبة إلى مرو ، وقوي المسلمون ؛ فاشتروا السلاح والخيل .. وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة » [٤] .

استمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى في هذه المرحلة بصفة منتظمة كل سنة ، وكان غزوه يتم في فصل الصيف ، فإذا دخل الشتاء عاد إلى مرو .

ففي سنة (٨٨هـ) ترك أخاه بشارًا على مرو وعبر النهر ففتح نومشكث ورامثنة من أعمال بخارى صلحًا بناء على طلب أهلها [٥] .

ولكن هاله حلف من أهل فرغانة والصغد في مائتي ألف عليهم ابن أخت ملك الصين - كورمغايون - وواضح من هذا التجمع الكبير أن الأمم في هذه المناطق قد

---

(١) انظر الخريطة رقم (٢) من ملحق الخرائط . (٢) المشاولة : القتال بالرماح .

(٣) الطبري - تاريخ (٤٣٠/٦ ، ٤٣١) وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٢٨/٤) .

(٤) الطبري - المصدر السابق (٤٣٢/٦) وابن الأثير - المصدر السابق (٥٢٩/٤) .

(٥) انظر الطبري - تاريخ (٤٣٦/٦) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٣٣/٤) .

تداعت وتحالفت على المسلمين ، ولكن اللّه نصر قتيبة وجنده على هذا الحلف ، ثم عاد إلى مرو [١] .

وفي العام التالي (٨٩هـ) استأنف قتيبة فتوحاته وقصد بخارى هذه السنة بناء على أوامر الحجاج ، فلقيه في طريقه جمع من أهل كش ونسف فظفر بهم ، ومضى إلى بخارى ، فتصدى له ملكها - وردان خذاه - فلم يستطع الاستيلاء عليها ، فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج يخبره فطلب منه الحجاج أن يصوِّرها له فبعث إليه بصورتها ؛ فنصحه وأمده وعرفه الموضع الذي يأتيها منه ، وأمره بالمسير إليها ، فسار إليها سنة (٩٠هـ) . ومع أن وردان خذاه كان قد استجاش الصغد والترك ليساعدوه في التصدي لقتيبة ، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم بعد معارك شرسة ، واستولى على بخارى ، وكتب بالفتح إلى الحجاج [٢] ، وبهذا استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله في ثلاث سنوات .

المرحلة الثالثة من (٩٠ - ٩٣هـ) :

وهي المرحلة التي فرض فيها قتيبة السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون ، وتوَّج عمله فيها بالاستيلاء على مدينة سمرقند ، أعظم المدائن في بلاد الصغد ، وكان طرخون ملك الصغد قد أرسل إلى قتيبة بعد انتصاره في معركة بخارى سنة (٩٠هـ) يطلب الصلح ، فأجاب قتيبة وصالحه ، ورجع قتيبة [٣] . وفي سنة (٩١هـ) كان غدر نيزك - صاحب قلعة بادغس - وتأليبه ملوك طخارستان ، ورتبيل ملك سجستان على المسلمين ، وقد نكَّل به قتيبة وقتله جزاء غدره كما مر ذكره [٤] . وفي سنة (٩٢هـ) غزا قتيبة سجستان من الشمال وربما كانت تلك أول مرة يغزو فيها قتيبة سجستان ، وربما كان قد أراد تأديب رتبيل ملكها ؛ لانضمامه إلى نيزك في غدره ، ولكن رتبيل قدر العواقب وطلب الصلح فقبل قتيبة ، وصالحه ، وانصرف عائدًا إلى مرو ، وترك عبد ربه بن عبد اللّه بن عمير الليثي عاملًا على سجستان [٥] .

وفي سنة (٩٣هـ) فتح قتيبة خوارزم صلحًا ، وكان ملكها هو الذي دعاه وبعث

---

(١) المصدران السابقان على الترتيب (٤٣٦/٦ ، ٤٣٧) ، (٥٣٣/٤) .

(٢) انظر الطبري - تاريخ (٤٤٢/٦) وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٤٢/٤) .

(٣) المصدران السابقان على الترتيب (٤٤٥/٦) ، (٥٤٣/٤) .

(٤) الطبري - المصدر السابق (٤٥٨/٦) ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١٧) .

(٥) الطبري - المصدر السابق (٤٦٨/٦) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٥٦٩/٤) .

إليه بمفاتيح مدائن خوارزم ثلاثة مفاتيح من ذهب ، وصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع (١) .

فتح سمرقند :

توج قتيبة فتوحاته في هذه المرحلة بفتح سمرقند ، وهي أعظم مدائن ما وراء النهر ، والذي دعاه إلى ذلك أن طرخون ملكها كان قد نقض الصلح الذي أبرمه معه قتيبة سنة (٩٠هـ) ، وامتنع عن دفع ما كان صالح عليه ؛ فقرر قتيبة أن يضع حدًّا لهذا العبث ، فجمع جنده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح وبعزمه على فتح سمرقند بالقوة ، وجهز أخاه عبد الرحمن بن مسلم في عشرين ألف مقاتل وأمره بالمسير أمامه ، ثم تبعه هو في أهل خوارزم وأهل بخارى وضرب عليها الحصار وقال : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات : ١٧٧] » (٢) ، متيمنًا بقول رسول اللَّه ﷺ عندما حاصر خيبر . فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حوصرت ، خافوا طول الحصار فكتبوا إلى ملوك الشاش وفرغانة يستغيثونهم ويحرضونهم على المسلمين ، وقالوا لهم : « إن العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم » (٣) . استجاب هؤلاء الملوك لنداء أهل سمرقند ، واختاروا عددًا من أولادهم ومن أهل النجدة والبأس من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال ، وأمروهم أن يفجؤوا قتيبة في معسكره ، وهو مشغول بحصار سمرقند ، ولكن قتيبة كان يقظًا باثًّا عيونه ، ولم يغب عن باله حدوث مثل هذه المفاجآت ؛ فعلم بخبرهم ، وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، فبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد ، وغنم المسلمون أمتعتهم وأسلحتهم (٤) .

فلما رأى الصغد ما حل بهؤلاء انكسروا وضيق عليهم قتيبة الخناق ونصب المنجنيق على المدينة واستطاع إحداث ثلمة فيها ، وصاح صيحة الأسد : « حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ، أما واللَّه لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية .. فلما أصبح أمر الناس بالجد في القتال فقاتلوهم ، واشتد القتال ، وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا ، فأرسل الصغد إلى قتيبة ،

(١) انظر الطبري - المصدر السابق (٦/٤٦٩ ، ٤٧٠) وابن الأثير - المصدر السابق (٤/٥٧٠) .
(٢) المصدران السابقان على الترتيب (٦/٤٧٢ ، ٤٧٣) ، (٤/٥٧١) .
(٣) الطبري - المصدر السابق (٦/٤٧٣) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٤/٥٧٢) .
(٤) الطبري المصدر السابق - (٦/٤٧٤) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٤/٥٧٢) .

فقالوا له : انصرف عنا اليوم ، حتى نصالحك غدًا ، فقال : لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة ... فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام ، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس وأن يخلوا له المدينة فلا يكون لهم فيها مقاتل ؛ فيبني فيها مسجدًا ، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدَّى ويخرج (١) . دخل قتيبة سمرقند وحطم ما بها من الأصنام ، ولم يعبأ بما خوفوه منها ، حيث قال له أحدهم مدعيًا نصيحته : « لا تتعرض لهذه الأصنام ؛ فإن منها أصنامًا من أحرقها أهلكته ، فقال له : أنا أحرقها بيدي ، فأمر بإشعال النار ، وكبَّر ثم أحرقها ، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال » (٢) . وبعد أن أتم قتيبة هذا الفتح العظيم عاد إلى مرو ، لكي يستريح ، ثم يستعد لجولته الأخيرة التي سيفتح فيها المناطق السيحونية .

المرحلة الرابعة من (٩٤ - ٩٦هـ) :

وهي المرحلة التي فتح اللّٰه فيها على يديه أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر ، وقد بدأ هذه المرحلة سنة (٩٤هـ) ؛ حيث سار في موعد غزوه - في الصيف - ومعه عشرون ألفًا من أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم (٣) ، فوجه قسمًا منهم إلى الشاش ، وتوجه هو بالقسم الآخر إلى فرغانة ، حيث دار بينه وبين الترك قتال عنيف حول مدينة خجنده . ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة ؛ حيث توجه قتيبة إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجنده وهناك أتاه جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش . ويبدو أن قتيبة قد وجد مقاومة شرسة من الأتراك في هذه البلاد ؛ فقد كتب إلى الحجاج يطلب مددًا ، فأرسل إليه جيشًا من العراق (٤) ، ثم أمر محمد بن القاسم الثقفي أن يوجه إليه من السند مددًا أيضًا (٥) ، فإمداد قتيبة بهذه الجيوش من العراق ومن السند ، فوق ما معه من قوات كبيرة - يدل على قوة المقاومة التي لقيها في أقاليم سيحون ، وأنه أراد أن يكون متفوقًا عليهم ؛ حتى يحقق هدفه . وقد نجح

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٤٧٥/٦) ، والبلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١٨) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٧٠/٤) .
(٢) الطبري (٤٧٦/٦) ، وابن الأثير (٥٧٣/٤) .
(٣) الطبري (٤٨٣/٦) .
(٤) انظر الطبري (٤٩٢/٦) ، وابن الأثير (٥٨٣/٤) .
(٥) الطبري (٤٨٤/٦) .

بالفعل وفتح أقاليم الشاش وفرغانة سنة (٩٥ هـ) [١] . وبعد أن أتم هذا الفتح الكبير ، جاءته الأخبار المحزنة ؛ فقد مات الحجاج في شوال من تلك السنة ، فاغتم لموته ؛ لما كان يجد منه من التأييد والتشجيع والمساندة ، وقفل راجعًا إلى مرو ، وتمثل قول الحطيئة :

لعمري لنعم المرء من آل جعفر   بحوران أمسى أعلقته الحبائل
فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت   فما في حياة بعد موتك طائل [٢]

الخليفة الوليد يواسي قتيبة ويشد أزره :

عاد قتيبة إلى مرو وقد ترك حاميات من جنده في بخارى وكش ونسف ، وانتظر ما تأتي به الأيام بعد موت الحجاج .

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجاج وقتيبة ، وأن للحجاج دورًا كبيرًا في نجاح قتيبة في مهمته ، فقدر وقع نبأ موت الحجاج عليه ؛ لذلك واساه وأرسل إليه رسالة كلها تشجيع وثناء وتزكية ، قال له فيها : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك ، فأتمم مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيِّب عن أمير المؤمنين كتبك ، كأني أنظر إلى بلادك ، والثغر الذي أنت فيه » [٣] . وقد أحدثت هذه الرسالة أثرًا طيبًا في نفس قتيبة ، وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم ، فتوجه من مرو ؛ ليواصل فتوحاته ، فقصد مدينة كاشغر ، التي يقول عنها الطبري : « إنها أدنى مدائن الصين » [٤] ومع أن الوليد بن عبد الملك قد توفي في جمادى الآخرة سنة (٩٦هـ) ، ووصل نبأ وفاته إلى قتيبة وهو في فرغانة [٥] ، وقبل أن يصل إلى كاشغر ، إلا أنه واصل سيره حتى فتحها ، وهنا جاءه رسول من ملك الصين يطلب منه أن يوجه إليه وفدًا ليعرف خبرهم ، يقول الطبري : « وأوغل قتيبة حتى قرب من الصين .. فكتب إليه ملك الصين أن ابعث رجلًا من أشرف من معكم ، يخبرنا عنكم ونسائله عن دينكم [٦] ، فاختار قتيبة عشرة – وقيل : اثني عشر – من خيرة

(١ ، ٢) المصدر السابق (٤٩٢/٦) .
(٣) انظر الطبري (٤٩٢/٦ ، ٤٩٣) ، وابن الأثير (٥٨٣/٤) .
(٤) تاريخ الطبري (٥٠٠/٦) .   (٥) المصدر السابق (٥٠٠/٦) .
(٦) انظر القصة بتفاصيلها في الطبري (٥٠١/٦ – ٥٠٣) ، وابن الأثير (٥/٥) .

رجاله برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي ، فأرسلهم إلى ملك الصين ، ويقص الطبري خبر هذه السفارة في حديث طويل ، نكتفي منه بما انتهى إليه الحوار مع ملك الصين ، حيث قال لهم مهددًا : « فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له : ينصرف ، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، فرد عليه هبيرة في شجاعة المؤمن وعزته ، فقال له : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك ، وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصًا من خلف الدنيا قادرًا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالًا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه » .

أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه ، وأيقن أنه أمام قوم لا يجدي معهم التهديد ولا الوعيد فاعتدل في كلامه ، وقال لهبيرة : فما الذي يرضي صاحبكم ؟ قال : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوككم ، ويعطى الجزية . قال : فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها . قال : فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختم الغلمان وردهم ، ووطئ التراب »[١] .

وهكذا انتهت هذه المرحلة من فتوحات قتيبة التي طوى فيها أقاليم ما وراء نهر جيحون ، ثم عبر نهر سيحون ، وفتح فرغانة والشاش ، وأشروسنة ، وكاشغر ، وفرض سيادة الإسلام على ملك الصين ، وجعل كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وكان قتيبة قائدًا عسكريًّا فذًّا ، وبطلًا سياسيًّا بارعًا ، قهر الصعاب وتغلَّب على كل المشاكل التي واجهته ، ولم يثنه عن عزمه لا صعوبة الطرق ووعورتها ، ولا قسوة المناخ وشدته ، فقد كان عزمه حديدًا ، وكان هدفه نبيلًا ، وغايته شريفة ، والعون من اللَّه دائمًا مكفول لأصحاب هذه الغايات .

نهاية قتيبة :

للأسف انتهت حياة هذا البطل نهاية لا تليق به ، فقد مات الخليفة الوليد وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ) ، وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج

(١) انظر الطبري - تاريخ (٦/٥٠٣) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥/٧) .

ورجاله – ومنهم قتيبة – غير حسنة ، قيل : لأنهم كانوا وافقوا الوليد على خلع أخيه سليمان ، وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد [١] ؛ فخشى قتيبة أن يعزله سليمان ، فأرسل إليه رسائل يعزيه في الوليد ويهنئه بالخلافة ، ويختبر نواياه نحوه ، لكن سليمان لم يعزله بل أرسل له عهدًا بولاية خراسان [٢] مع رسول خاص من عنده ؛ تكريمًا له ، ولكن قتيبة تعجل وخلع طاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد ، فغضب الناس وكرهوا خلع سليمان ، وثار الجند على قتيبة فقتلوه [٣] ، وراح – يرحمه الله – ضحية تسرعه ، يقول ابن كثير بعد أن عدد مآثره وفتوحاته : « ولكن زلَّ زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية .. لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء » [٤] .

وكيفما كان الأمر فقد خسرت الأمة واحدًا من أعظم وأنبل أبنائها – وجل من لا يخطئ – وسيبقى اسم قتيبة مضيئًا في التاريخ الإسلامي ، فقد أضاف للعالم الإسلامي إضافة رائعة ، ووجَّه مدنًا كبخارى وسمرقند وترمذ وغيرها لتكون مراكز مشرقة للحضارة الإسلامية ومنابت لغرس الإسلام في آسيا الوسطى ، فجزاه الله خير الجزاء وجعل الجنة مثواه .

مرحلة ما بعد قتيبة :

لم تحدث فتوحات إسلامية فيما تبقى من عهد الدولة الأموية في هذه الجهات بعد فتوحات قتيبة ، وتوقفه عند كاشغر على حدود الصين ؛ ذلك لأن الظروف التي مرت بها الدولة الأموية منذ هذا التاريخ ، وحتى سقوطها سنة (١٣٢هـ) – لم تكن تسمح بذلك . فقد انشغلت بالثورات التي بدأت تهب في وجهها من جديد مثل ثورات الخوارج وثورة يزيد بن المهلب في عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥هـ) كما أن الخلافات نشبت من جديد بين العرب في خراسان ، وفي هذا الجو بدأت الدعوة السرية للرضا من آل محمد ، وهي الدعوة التي كان يوجهها العباسيون لمصلحتهم بكتمان ومقدرة رائعة ، والتي نجحت في النهاية في الإطاحة بالدولة

---

(١) الطبري – المصدر السابق (٥٠٧/٦) . (٢) المصدر السابق (٥٠٨/٦) .

(٣) انظر الطبري – تاريخ (٥٠٦/٦) وما بعدها ، والبلاذري – فتوح البلدان (ص ٥٢١) ، وابن الأثير – الكامل في التاريخ (١٢/٥) وما بعدها .

(٤) البداية والنهاية (١٦٨/٩) .

الأموية ، كما أن التناحر والتنافس والنزاع قد احتدم بين أبناء البيت الأموي أنفسهم ، وأصبحوا يقاتل بعضهم البعض ، مما أضعف هيبة الدولة في عيون الناس ، كما أن هذه البلاد نفسها ، التي فتحها قتيبة ، لم تكفَّ عن التمرد والثورة ونقض العهود ، فأصبح جهد الخلفاء والولاة منصبًا - بعد مرحلة قتيبة - على إخضاع الثائرين والمتمردين وردهم إلى الطاعة والنظام (١) . وقد نجحت الدولة الأموية في ذلك ، فهي وإن كانت لم تضف جديدًا إلى فتوحات قتيبة في هذا الجزء من العالم ، إلا أنها لم تتراجع ولم تخسر أرضًا واحتفظت بمواقعها ، ونهض الولاة في هذه المناطق بمسؤولياتهم ، وهيؤوها لقبول الإسلام ، وجعلها جزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامي .

فتوح السند

يقع إقليم السند في شمال غرب شبه القارة الهندية ، وشرق بلاد فارس الجنوبية مكونًا دلتا نهر السند (٢) .

وبعد أن استقام الأمر للمسلمين في جنوب فارس ، وقضى الحجاج بن يوسف على حركات رتبيل ملك سجستان وأخضعه للسيادة الإسلامية ، بدأ يعد العدة لفتح السند ، ويعتبر فتح السند شبيهًا بفتوحات أقاليم ما وراء النهر من عدة وجوه ، منها وحدة الزمان ؛ فقد بدأ المسلمون فتوحاتهم في هذا الإقليم سنة (٨٩هـ) أي بعد أن بدأ قتيبة بن مسلم فتوحه لما وراء النهر بعامين اثنين ، وفي ظل الوحدة التي ضمت العالم الإسلامي في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) ، ومنها وحدة القيادة العامة ، فكما كان الحجاج بن يوسف الثقفي - والي العراق والمشرق الإسلامي - هو الذي وجه قتيبة بن مسلم لفتح ما وراء النهر ، فكذلك كان هو نفسه الذي وجه صهره وابن عمه محمد بن القاسم الثقفي (٣) لفتح إقليم السند ، وكان القوة المحركة وراء القائدين العظيمين ، ومنها وحدة الإعداد والتجهيز ، فكما تم فتح بلاد ما وراء النهر بعد سلسلة طويلة من الغزوات الخاطفة ، بقصد التدرب على طبيعة البلاد

---

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٢٣ - ٥٢٧) تجد تفاصيل جهود الولاة الأمويين في تثبيت الفتوحات فيما وراء النهر - بعد مقتل قتيبة بن مسلم .

(٢) انظر ياقوت الحموي - معجم البلدان (٣/٢٦٧) .

(٣) محمد بن القاسم هو ابن ابن عم الحجاج ، وإنما يطلق عليه ابن عمه تجاوزًا .

واكتساب المزيد من الخبرة عن أحوالها استعدادًا للمعارك الحاسمة [١] ، فكذلك حدث الشيء نفسه في إقليم السند ، حيث طرق المسلمون هذا الإقليم منذ خلافة عمر بن الخطاب ، ولم تكد تنقطع عنه الغزوات حتى جاء محمد بن القاسم الثقفي وأتم فتحه ، وجعله جزءًا من الدولة الإسلامية . ويمدنا البلاذري بمعلومات مستفيضة عن غزوات المسلمين وحملاتهم على ثغر السند منذ عهد عمر ، حيث أرسل واليه على البحرين وعمان : عثمان بن أبي العاص الثقفي أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى خور الديبل فلقي العدو فظفر به [٢] ، وفي عهد عثمان بن عفان استمر اهتمام المسلمين بأمر ثغر السند ، فقد أمر عثمان واليه على البصرة - عبد اللّٰه بن عامر - أن يوجه إليه من يعلم له خبره ، فأرسل حكيم بن جبلة العبدي ، فلما عاد أرسله ابن عامر إلى عثمان ، فلما سأله عن أحوال البلاد ، قال : « يا أمير المؤمنين ، قد عرفتها وتنحرتها ، قال : فصفها لي ، قال : ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، إن قل فيها الجيش ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا ، فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ قال : بل خابر ، فلم يغزها أحد » [٣] .

وقد تكون أحداث الفتنة في النصف الأخير من خلافة عثمان قد شغلت المسلمين عن الاهتمام بأمر السند ، لكن علي بن أبي طالب استأنف توجيه الغزوات إلى ثغر السند . فقد أرسل سنة (٣٨هـ) الحارث بن مرة العبدي لغزو السند فظفر وأصاب مغنمًا وسبيًا . وقسم في يوم واحد ألف رأس ، ثم إنه قتل ومن معه بأرض القيقان إلا قليلًا [٤] . وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ازداد اهتمام المسلمين بأمر هذا الإقليم ، الذي أصبح متاخمًا لحدودهم ، فقام المهلب بن أبي صفرة بغزوة سنة (٤٤هـ) ، حيث وصل إلى بنة [٥] ولاهور ، وهما بين الملتان [٦] ، وكابل [٧] ، ثم وصل القيقان ، حيث استشهد الحارث بن مرة ورفاقه ، ولقي المهلب جمعًا من الترك فهزمهم وظفر

(١) انظر د . حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٢٠٩) .

(٢) فتوح البلدان (ص ٥٣٠) ، والديبل : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند وهي مدينة كراتشي الحالية في باكستان . راجع ياقوت - معجم البلدان (٤٩٥/٢) .

(٣) المصدر السابق (ص ٥٣٠) .

(٤) المصدر السابق (ص٥٣١) ، ومعجم البلدان لياقوت (٤٤٣/٤) ، والقيقان من بلاد السند مما يلي خراسان . انظر المصدرين السابقين .

(٥) بنة مدينة بكابل . انظر ياقوت - المصدر السابق (٥٠٠/١) .

(٦) الملتان أو مولتان بالواو هي مدينة من نواحي الهند قرب غزنة - معجم البلدان (١٨٩/٥) .

(٧) كابل : ولاية كبيرة بين الهند وغزنة - المصدر السابق (٤٢٦/٤) .

وغنم وعاد . وفي هذه الغزوة يقول الأزدي :

ألم تر أن الأزد ليلة بيتوا بينة كانوا خير جيش المهلب [١]

ثم غزا عبد الله بن سوار العبدي القيقان ، فأصاب مغنمًا ثم وفد على معاوية وأهدى إليه خيلًا قيقانية ، فاستجاشوا الترك فقتلوه [٢] .

وقد تصاعد اهتمام المسلمين بإقليم السند منذ أصبح زياد بن أبي سفيان واليًا على البصرة سنة (٤٥هـ) ، فقد أرسل زياد عدة حملات إلى الثغر ، منها حملة سنان ابن مسلمة بن المحبق الهزلي [٣] ، وحملة راشد بن عمرو الجديدي ، ولم يكتف زياد بتوجيه الحملات على السند من مكران في جنوب شرق فارس ، وإنما بدأ يغزوها من سجستان ، حيث أرسل ابنه عباد فقطع المفازة حتى أتى القندهار [٤] ، فقاتل أهلها وهزمهم وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين [٥] ، ثم ولَّى زياد المنذر ابن الجارود العبدي ثغر السند ، فغزا البوقان [٦] ، والقيقان وفتح قصدار [٧] وسبى بها ، وكان سنان قد فتحها إلا أن أهلها انتقضوا ، ومات هو هناك فقال الشاعر :

حل بقصدار فأضحى بها في القبر لم يقفل مع القافلين

لله قصدار وأعنابها أي فتى دنيا أجنت ودين [٨]

وتوالت حملات المسلمين على السند طوال عهد معاوية بن أبي سفيان ومنذ وفاة يزيد بن معاوية سنة (٦٤هـ) ، توقفت الحملات بسبب الصراع الداخلي بين المسلمين ولم تستأنف إلا بعد أن ولي الحجاج بن يوسف العراق سنة (٧٥هـ) ؛ لأن البلاذري - وهو صاحب أوفى الأخبار عن هذه الحملات - ينتقل من آخر حملة وجهها عبيد الله بن زياد إلى إقليم السند - ولم يحدد أكانت في عهد معاوية أو في عهد ابنه يزيد - إلى فترة الحجاج مباشرة حيث يقول بعد ذكر الحملة المذكورة : « ولما ولي الحجاج بن يوسف العراق ولَّى سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي مكران

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٣١) .

(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٠٨) ، والبلاذري (ص ٥٣١) .

(٣) تاريخ خليفة (ص ٢١٢) ، والبلاذري (ص ٥٣١) .

(٤) القندهار : مدينة في الإقليم الثالث ، وهي من بلاد السند - معجم البلدان (٤/ ٤٠٢ ، ٤٠٣) .

(٥) البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٣٢) .

(٦) البوقان بلد بأرض السند . ياقوت - معجم البلدان (٥١٠/١) .

(٧) قصدار : ناحية مشهورة قرب غزنة . المصدر السابق (٣٥٣/٤) .

(٨) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٣٦) ، البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٣٣) .

وذلك الثغر ، فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافيان ، فقتل ، وغلب العلافيان على الثغر ، فولَّى الحجاج مجاعة بن سعر التميمي ذلك الثغر ، فغزا مجاعة فغنم وفتح طوائف من قنداييل [١] ، ثم أتم فتحها محمد بن القاسم » [٢] . وبعد وفاة مجاعة - بمكران - استعمل الحجاج على الثغر محمد بن هارون بن ذراع النمري ، فأهدى إليه ملك جزيرة الياقوت [٣] نسوة ولدن في بلاده مسلمات ، وكان آباؤهن تجارًا فأراد التقرب بهن إلى الحجاج ، فعرض للسفينة التي كانت تحملهن قوم من مدينة الديبل فأخذوها بمن فيها ، فنادت امرأة منهن - وكانت من بني يربوع - : يا حجاج ! وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : يا لبيك ، فأرسل إلى داهر - ملك السند - يسأله تخلية النسوة ، فلم يستجب ، وقال : إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم [٤] . وعلى أثر ذلك أغزى الحجاج عبيد اللّه بن نبهان الديبل ، فقتل هناك ، ثم كتب إلى بديل بن طهفة البجلي - وهو بعمان - أن يسير إلى الديبل ، ولكنه قتل هناك أيضًا [٥] ، فبدأ الحجاج يعد العدة لفتح السند ، فكانت حملة محمد بن القاسم .

محمد بن القاسم وفتح السند (٨٩ - ٩٦هـ) [٦] :

من خلال هذا العرض الموجز لحملات المسلمين على إقليم السند التي بدأت منذ عهد عمر بن الخطاب ، واستقينا أخبارها بشكل رئيسي من البلاذري ، وأشار إلى بعضها باقتضاب خليفة بن خياط [٧] - نرى أن المسلمين قد خبروا هذه البلاد وعرفوا أخبارها وتجرؤوا عليها ، ومهدوا الطريق تمامًا لفتحها حتى أصبحت كالثمرة الناضجة ، تنتظر من يقتطفها وكان ذلك من نصيب الفاتح الشاب محمد بن القاسم الثقفي الذي ارتبط فتحها باسمه ، كما ارتبط فتح بلاد ما وراء النهر باسم قتيبة ابن مسلم .

فقد رأى الحجاج - بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية - أن مرحلة الحملات الخاطفة قد أدت دورها ، وأن أوان العمل الحاسم ، والفتح الكامل قد حان ، فاختار

---

(١) قنداييل ، هي مدينة بالسند ... ومن قصدار إلى قنداييل خمسة فراسخ . انظر ياقوت - معجم البلدان (٤٠٢/٤) .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٣٣) .

(٣) يقول البلاذري : سميت جزيرة الياقوت لحسن وجوه نسائها . المصدر السابق (ص ٥٣٤) ، وهي جزيرة في بحر الهند .

(٤ ، ٥) المصدر السابق (ص ٥٣٤) .

(٦) انظر الخريطة رقم (٢) من ملحق الخرائط .

(٧) انظر تاريخ خليفة (ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٢) .

لهذه المهمة ابن عمه محمد بن القاسم ، الذي لم يكن قد تجاوز العشرين عامًا ، إلا أنه أظهر من الشجاعة والبطولة والعبقرية ما يضعه في مصاف كبار الفاتحين والقادة العسكريين [١] ، وقد احتفل الحجاج بأمر حملة محمد بن القاسم احتفالًا كبيرًا ، وأعدها الإعداد الذي يكفل لها النجاح من حيث العدد والعدة وأدوات الحصار . ومع أن المصادر لا تمدنا بأخبار عن العدد الحقيقي للجيش ، إلا أنه يرجح أنه كان كبير الحجم ؛ ففوق ما كان مع محمد بن القاسم من قوات في فارس ، فقد أمده الحجاج بستة آلاف من جند الشام وخلقًا من غيرهم [٢] . وقد جهز الحجاج الجيش بكل احتياجاته ، حتى الخيوط والمسالي [٣] ، ولم ينس أمر الطعام ، حتى أمرهم أن يحملوا معهم الخل ؛ لأنه قليل بالسند ، فقد ذكر البلاذري أن الحجاج : « عمد إلى القطن المحلوج فنقع في الخل الخمر الحاذق ، ثم جفف في الظل ، فقال : إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق ، فانقعوا هذا القطن في الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا » [٤] ، وبعد أن تكامل جيشه انتقل إلى مكران التي كانت نقطة الانطلاق ، وقاعدة الفتح [٥] . وقد قسم محمد جيشه إلى قسمين : قسم بري وقسم بحري ، ثم تحرك من مكران قاصدًا الديبل ، ففتح في طريقه قنزبور وأرمائيل [٦] ، وفي أرمائيل وافته السفن التي كانت تحمل السلاح والرجال والأداة [٧] ، فسار إلى الديبل وحاصرها ونصب عليها المنجنيق ، وكان منها منجنيق تعرف بالعروس ، كبيرة الحجم ، يعمل فيها خمسمائة رجل [٨] ، وأثناء الحصار كتب إلى الحجاج عن صنم كبير في الديبل داخل منارة عظيمة وأن اسم هذا الصنم بد ، وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد [٩] ، فأمره الحجاج بتحطيمه فنفذ الأمر ، وأخذ يضرب

(١) انظر د. عبد المنعم حامد - التاريخ السياسي للدولة العربية (٢٣٥/٢) .
(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٣٤) وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٥٣٧/٤) .
(٣) المصدران السابقان على الترتيب (ص ٥٣٤) ، (٥٣٧/٤) .
(٤) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٣٤) .
(٥) انظر د. حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٢١١) .
(٦) أرمائيل : يكتبها ياقوت أرمئيل ، ويقول : مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند بينها وبين البحر نصف فرسخ - معجم البلدان (١٥٩/١) .
(٧) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٣٥) .
(٨) المصدر السابق (ص ٥٣٥) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٥٣٧/٤) .
(٩) انظر البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٣٥) وابن الأثير - المصدر السابق (٥٣٧/٤) .

الصنم بحجارة المنجنيق حتى كسره فتطيَّر الكفار بذلك [١]، فشدد محمد الحصار على المدينة ونصب السلالم وأصعد عليها الرجال، واقتحمها، ودار بينه وبين أهلها قتال استمر ثلاثة أيام، وفي النهاية هزمهم وفتح المدينة عنوة، وهرب منها عامل داهر، فأخذ محمد يختط للمسلمين بها وبنى لهم مسجدًا وأنزلها أربعة آلاف منهم [٢]، وجعلها قاعدة بحرية للمسلمين في المحيط الهندي، كما كانت قاعدة العمال ومقر الحكومة [٣].

كان استيلاء محمد بن القاسم على الديبل ذا أثر كبير على كلا الفريقين: العرب الفاتحين وأهل السند الذين هرعوا إليه طالبين الصلح، وكانت أول مدينة قصدها بعد الديبل هي البيرون، فتلقاه أهلها وصالحوه بل قدموا له المؤن والعلوفة للدواب، وأدخلوه المدينة، وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها، حتى عبر نهرًا دون نهر مهران [٤]، فأتاه سمنية سربيدس فصالحوه عن من خلفهم ووظف عليهم الخراج، وسار إلى سهبان ففتحها [٥]. ثم أرسل محمد بن مصعب بن عبد الرحمن الثقفي إلى سدوسان، فطلب أهلها الصلح والأمان، فصالحهم وأمنهم، ووظف عليهم الخراج، وانضم إليه أربعة آلاف من الزط، فأخذهم وسار بهم إلى محمد، وولى رجلًا على سدوسان [٦].

مع كل هذه الانتصارات الرائعة التي حققها محمد بن القاسم، والمدن التي دانت له، وانضمام الآلاف من السكان إليه - وبصفة خاصة الزط - إلا أنه كان يعلم أن المعركة الحاسمة لم تقع بعد مع داهر ملك السند الذي انسحب أمامه ليطيل خطوط مواصلاته، وليختار هو مكان وزمان المعركة الفاصلة، فقرر محمد أن يعاجله قبل أن يستكمل استعداداته، فعبر نهر مهران على جسر أقامه عليه، وبمجرد عبوره بدأ المعركة مع داهر، الذي أقبل على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاترة، فاقتتلوا قتالًا شديدًا - لم يسمع بمثله على حد تعبير البلاذري - وانجلت المعركة عن هزيمة داهر، الذي لقي مصرعه وكان الذي قتله رجل من كلاب فقال بعد قتله:

(١ ، ٢) المصدران السابقان على الترتيب (ص ٥٣٥) ، (٥٣٧/٤) .

(٣) انظر د. حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٢١٧) .

(٤) مهران : نهر عظيم بقدر دجلة تجري فيه السفن ويسقي بلادًا كثيرة ويصب في البحر عند الديبل ، انظر ياقوت - معجم البلدان (٢٣٢/٥) .

(٥) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٣٦) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٥٣٧/٤) .

(٦) المصدران السابقان على الترتيب (ص ٥٣٦) ، (٥٣٨/٤) .

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلًا متعفر الخدين غير موسد [١]

بعد انتصار محمد بن القاسم على داهر ومصرعه سار يستكمل فتح بقية أقاليم السند ؛ فاستولى على حصن راور بعد المعركة ، وكانت امرأة داهر به فخافت أن تقع أسيرة ؛ فأحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها [٢] . ثم تقدم محمد إلى برهمناباذ ، فاستولى عليها عنوة ، ثم سار إلى الرور وبغرور ، فتلقاه أهل ساوندري ، فسألوه الأمان والصلح فصالحهم وأمنهم ، وحذا حذوهم أهل بسمد ، ثم وصل إلى الرور وهي من كبرى مدائن السند ، فضرب عليها الحصار ، حتى طلب أهلها الصلح والأمان فقبل منهم ، ووضع عليهم الخراج وبنى بها مسجدًا [٣] ، ثم اجتاز نهر بياس إلى الملتان ، فحاصرها ويبدو أن هذا الحصار قد طال ؛ لأن المسلمين كما يذكر البلاذري : نفذت أقواتهم حتى أكلوا الحمر ، مما اضطر محمدًا أن يقطع عنهم الماء ، فلما اشتد عليهم العطش نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلتهم وسبى الذرية ، وسدنة البد وكانوا ستة آلاف ، وأصاب كثيرًا من الذهب ، حتى سميت الملتان فرج بيت الذهب [٤] . وبعد أن استولى محمد على الملتان جاءه نبأ موت الحجاج فاغتمَّ لذلك وعاد إلى الرور ، ثم وجه جيشًا إلى البيلمان ، فأعطوه الطاعة دون قتال ، ثم سالمه أهل سرست ثم أتى الكيرج ، فخرج إليه دوهر ، فقاتله فهزم جيشه وقتله ، وقال أحد رجاله :

نحن قتلنا داهر ودوهرا والخيل تردى منسر فمنسرا [٥]

وهكذا أصبح وادي السند بأسره في قبضة الفاتح البطل ، وجاءته القبائل تقرع الأجراس وتدق الطبول فرحة هاتفة مرحبة ؛ فقد حررهم الفتح الإسلامي من استبداد الهندوس ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وكان على رأس المرحبين بالفتح الإسلامي

(١) المصدران السابقان على الترتيب (ص ٥٣٦ ، ٥٣٧) ، (٥٣٨/٤) .
(٢) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٣٧) وابن الأثير - المصدر السابق (٥٣٨/٤) .
(٣) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٣٨) .
(٤) المصدر السابق (ص ٥٣٨) ، وابن الأثير - المصدر السابق (٥٣٩/٤) .
(٥) انظر البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٣٩) .

الميد والجات - الزط [١] - .

نهاية محمد بن القاسم فاتح السند :

بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظم أحواله بعد الفتح ويستعد لفتح إمارة قنوج ، وهي أعظم الإمارات في شمال الهند توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة (٩٦هـ) ، وتولى أخوه سليمان (٩٦ - ٩٩هـ) الذي بدأ يغير ولاة الحجاج ؛ فعين على العراق رجلًا من ألد أعداء الحجاج ، وهو صالح بن عبد الرحمن ، الذي كان الحجاج قد قتل أخًا له اسمه آدم بن عبد الرحمن ، كان يرى رأي الخوارج [٢] ، فقرر صالح بن عبد الرحمن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجاج ، وهو محمد بن القاسم ، فعزله عن السند ، وولى رجلًا من صنائعه ، وهو يزيد بن أبي كبشة ، وأمره بالقبض على محمد ، فقبض عليه وأرسله إليه ، فحبسه في واسط في رجال من آل أبي عقيل وأخذ يعذبه حتى مات ، وهكذا انتهت حياة بطل وفاتح كبير هذه النهاية الأليمة ، وحرمت الدولة من هذه العبقرية الشابة ؛ فإن محمدًا حقق هذه الأمجاد وهو في مقتبل العمر حتى قال فيه يزيد بن الحكم :

إن الشجاعة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددًا من مولد [٣]

وقد أدرك محمد مصيره بمجرد أن قبض عليه يزيد بن أبي كبشة ، فتمثل قائلًا :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

وقال قبل موته وهو بالسجن :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلًا مغلولا

فلرب فتية فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلا

وقد آثر محمد بن القاسم أن يلقى هذا المصير المؤلم على أن يشق عصا الطاعة على الدولة فقال :

لو كنت أجمعت القرار لوطئت ... إناث أعدت للوغى وذكور

وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عك علي أمير

---

(١) انظر د. حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٢١٨ ، ٢١٩) .

(٢) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٤٠) . (٣) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٣٠٤) .

ولا كنت للعبد المزوني تابعًا فيالك دهر بالكرام عثور[1]

وهذا البطل الذي سجنه المسلمون وعذبوه وقتلوه بكى عليه أهل السند وأقاموا له التماثيل [2] .

السند بعد محمد بن القاسم :

توقفت الفتوحات في هذه الجبهة عند الحدود التي وصل إليها محمد بن القاسم ، ولم يستطع ولاة بني أمية - فيما تبقى من عمر دولتهم - أن يضيفوا جديدًا ، ولكنهم استطاعوا المحافظة على ما تحقق من فتوحات ، وبذلوا قصارى جهدهم في تثبيت أقدام الإسلام في إقليم السند ، ووقفوا بالمرصاد لكل حركات التمرد والثورات التي قام بها الأمراء الهندوس بعد رحيل محمد بن القاسم ؛ فقد حاول هؤلاء الأمراء استرداد إمارتهم ، وبصفة خاصة ابن داهر المسمى حليشة أو جيشبة ، الذي حاول الرجوع إلى برهمناباذ ولكن حبيب بن المهلب - الذي ولاه سليمان بن عبد الملك السند - لم يمكنه من ذلك [3] .

ولما مات سليمان ، وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) نهج نهجًا جديدًا فيما يتعلق بالفتوحات ، ورأى أنها قد امتدت واتسعت وأن من الأفضل في المرحلة الراهنة أن تتجه الجهود إلى نشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، وإلى تعليم الناس أمور الدين ؛ فكانت دعوته إلى ملوك السند بالدخول في الإسلام والطاعة على أن يملِّكهم بلادهم ، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فاستجابوا له - وكانت سيرته وعدله قد بلغهم - فأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية ومنهم ابن داهر نفسه [4] ، ولكن بعد وفاة عمر بن عبد العزيز عاد الأمراء الهندوس إلى ثوراتهم ومحاولة استرداد سلطانهم على بلادهم ، ولكن الأمويين تصدوا لهذه المحاولات بحزم شديد ، خصوصًا بعد أن أصبح إقليم السند ملجأ للخارجين على الدولة ، فقد هرب إليه آل المهلب ، بعد فشل ثورتهم التي قادها يزيد بن المهلب ضد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك [5] سنة (١٠٢هـ) ، واستمرت السياسة الأموية في المحافظة على إقليم السند ، فكانوا يعهدون بولايتها إلى رجال أقوياء ؛ فقد أسند

(١) هذه الأبيات كلها موجودة في البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٣٩) .

(٢) انظر المصدر السابق نفس الصفحة . (٣) المصدر السابق (ص٥٤٠) .

(٤) المصدر نفسه (ص٥٤٠) .

(٥) انظر المصدر السابق (ص ٥٤٠) والطبري - تاريخ (٦٠٢/٦) .

هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) ولايتها إلى الجنيد بن عبد الرحمن الذي وطَّد سلطان الإسلام في الإقليم ؛ فقضى على الثورات وفرَّق عماله على مدنه ومقاطعاته [١] ، وظل الولاة بعده إلى آخر أيام الدولة الأموية محافظين على هذه السياسة تدعيمًا للوجود العربي الإسلامي ، فقد أنشؤوا المدن لتكون مراكز لتجميع العرب مثل مدينة المحفوظة [٢] التي أنشأها الحكم بن عوانة الكلبي في عهد هشام بن عبد الملك ، ومدينة المنصورة [٣] ، التي أنشأها عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي ، ابن الفاتح العظيم .

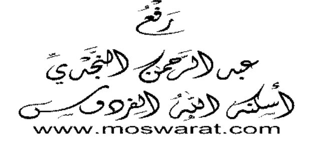
وخلاصة القول : أن الأمويين على الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تمر بها دولتهم في أواخر أيامها فإنهم حافظوا على السند مع ما حافظوا عليه من الممالك إلى انتهاء عصرهم ، وقيام الدولة العباسية .

* * *

(١) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٤١) ، وانظر د. حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٢٢٠) .

(٢) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٤٢) .

(٣) ينسب البلاذري (ص ٥٤٣) بناء المنصورة إلى عمرو بن محمد بن القاسم ، ولكن ياقوت يقول : سميت المنصورة نسبة إلى منصور بن جمهور عامل بني أمية فهو الذي بناها ، أو نسبة إلى عمرو بن حفص الذي بناها في عهد أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي . معجم البلدان (٥/٢١١) .







انتشار الإسلام في العصر الأموي

الفَصْلُ الرَّابعُ

انتشار الإسلام في العصر الأموي

يعتبر موضوع انتشار الإسلام بصفة عامة ، وفي العصر الأموي بصفة خاصة ، ميدانًا خصبًا لا يزال ينتظر جهودًا كبيرة صادقة ومخلصة من كل المهتمين بالدراسات والحضارة الإسلامية . وهو من الموضوعات التي تكتنفها بعض الصعوبات أمام الباحثين ؛ نظرًا لقلة المعلومات عنه في المصادر القديمة من ناحية ، وبعثرتها في أماكن متفرقة من ناحية أخرى ، وجمع هذه المعلومات وتنسيقها يحتاج إلى جهد كبير ، فالمصادر القديمة على كثرتها وتنوعها وضخامتها قد ركزت اهتمامها على أخبار الغزوات والفتوحات وما صاحبها من الانتصارات والهزائم ، وعلى تفاصيل الأحداث السياسية وأخبار الفرق والأحزاب والثورات ، ولم تفسح مكانًا مناسبًا لحركة انتشار الإسلام كموضوع مستقل ، يستطيع الباحث الوصول إليه مباشرة ، حتى الذين كتبوا عن الحضارة الإسلامية ، تركَّز جُلُّ جهدهم على نظم الحكم والجانب الثقافي والعمراني ، دون أن ينال موضوع انتشار الإسلام قدرًا من اهتمامهم . وعلى الرغم من نشاط الكتاب والمؤرخين المسلمين في العصر الحديث فإن موضوع انتشار الإسلام لم يحظ أيضًا بالقدر الذي يستحقه من اهتمامهم ؛ فلا تزال الكتب التي تناولته محدودة العدد والمساحة الزمانية والمكانية .

ومن العجيب أن يكون من أوائل من تصدوا لهذا الموضوع في العصر الحديث - إن لم يكن أسبقهم على الإطلاق - هو الباحث الإنجليزي توماس أرنولد ، في كتابه المترجم بعنوان : « الدعوة إلى الإسلام » ولعله أوفى كتاب في موضوعه حتى الآن ، من حيث تغطيته لمعظم أرجاء العالم الإسلامي من ظهور الإسلام حتى مطلع القرن العشرين [1] ، كما أن مؤلفه من أكثر الباحثين الغربيين - الذين تناولوا القضايا الإسلامية في بحوثهم - نزاهة وإنصافًا وبعدًا عن التعصب . أما على الجانب الإسلامي ؛ فإن عدد الكتب الجادة التي تناولت الموضوع لا زال قليلًا ، ومن هذه

(١) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الإنجليزية سنة (١٨٩٦م) ، ثم أعاد المؤلف نفسه طبعه ثانية سنة (١٩١٣) ، وبعد وفاته في يونيو سنة (١٩٣٠م) أعاد طبعه للمرة الثالثة باللغة الإنجليزية أيضًا الأستاذ نيكلسون سنة (١٩٣٥م) ، وقد ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين والأستاذ إسماعيل النحراوي ، وطبع لأول مرة في سنة (١٩٤٧م) بالقاهرة .

الكتب : كتاب الأستاذ الدكتور شكري فيصل « المجتمعات الإسلامية في القرن الهجري الأول » ، ومع أن هذا الكتاب لم يخصصه مؤلفه لموضوع انتشار الإسلام ، إلا أنه تناول الموضوع وألقى عليه الأضواء في أسلوب علمي رصين . ومنها : كتابا الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود « الإسلام في آسيا الوسطى ، بين الفتحين العربي والتركي » و « الإسلام والثقافة العربية في إفريقية » ، وكتاب الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن « انتشار الإسلام في القارة الإفريقية » ، وكتاب الأستاذ الدكتور حامد غنيم أبو سعيد « انتشار الإسلام حول بحر قزوين » .

وقد اعتمدت في هذا الفصل على هذه الكتب - سواء بشكل مباشر أو غير مباشر - بالإضافة إلى المعلومات المتناثرة في ثنايا المصادر الإسلامية القديمة تاريخية وغير تاريخية ، ومع كل هذا فلا زال الموضوع محتاجًا إلى جهد مركز لدراسة الأوضاع السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية في البلاد التي فتحها المسلمون في القرن الهجري الأول ، وكيف أقبلت على الإسلام واعتنقته وأصبحت أجزاء من العالم الإسلامي .

رأينا في الفصل السابق أن الفتوحات الإسلامية قد امتدت - في مرحلتها الثانية - في عهد بني أمية ، وبخاصة في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) من كاشغر على حدود الصين في الشرق إلى الأندلس وجنوب فرنسا في الغرب ، ومن بحر قزوين في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب ، وأن هذه الفتوحات قد أضافت إلى رقعة الدولة الإسلامية - التي ورثها الأمويون عن الخلفاء الراشدين - مساحات هائلة ، تضم شعوبًا وأجناسًا كثيرة ، وفيها العديد من الديانات والمذاهب واللغات والثقافات والعادات والتقاليد والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المختلفة . فهل كان فتح هذه البلاد - على أيدي المسلمين - فتحًا عسكريًّا فقط ، اكتفى منه المسلمون ببسط سلطانهم السياسي على تلك الشعوب وكان كل همهم الغلب والظفر والمغانم المادية ولا شيء أكثر من ذلك ؟

الواقع التاريخي يشهد أن هذا الفتح لم يكن عسكريًّا فحسب ، بل كان فتحًا دينيًّا ولغويًّا وثقافيًّا ، فانتشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية في البلاد المفتوحة بخطى حثيثة كما تغيرت معه أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية ؛ بحيث يمكن القول : إن هذا العالم الفسيح أصبح عالماً إسلاميًّا واحدًا فالسيادة الإسلامية على هذه الرقعة الواسعة لا تنازع ، والإسلام هو الدين الغالب في سماحة ، المسيطر

في رحمة ، الحاكم في عدل . لم تأخذه نشوة النصر على البطر أو الظلم ولم يحمله الظفر على إذلال المغلوبين ، بل على العكس راح يحدب عليهم ، ويعاملهم معاملة سمحة كريمة ، يحترم إنسانيتهم ، ويصون أرواحهم وأموالهم . لقد كانت مبادئ الإسلام في الحرية بصفة عامة ، وفي الحرية الدينية بصفة خاصة ، وحسن معاملة الشعوب المفتوحة ، ورعاية العهود والمواثيق ، والوفاء بها بصدق وإخلاص معها وإشراك أبناء هذه الشعوب في إدارة بلادهم - كان ذلك هو الذي هيأ للإسلام السبيل ومكن له في قلوب الناس ، بل إن هذه المبادئ لم تؤدِّ إلى انتشار الإسلام انتشارًا سلميًّا فحسب ، ولكن أدت إلى تناسق في السلوك الأخلاقي ، وفي العادات والتقاليد في هذه البلاد التي تكوَّن منها العالم الإسلامي .

يقول أحد الباحثين الأوربيين : « في عصر الأمويين في القرن السابع والثامن الميلاديين ، وعلى الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التي تشكِّل الإسلام - كان المسلمون يبينون سلفًا عن خصائص متشابهة ، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرق بين حضر وبدو ، أغنياء وفقراء كانوا يسلكون تقريبًا مسلكًا واحدًا ؛ ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة ، وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس ، وخلق الجو المعنوي للحياة ، حتى تغلغل شيئًا فشيئًا في الأفكار ؛ فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق . كما كان تأثير الدين عظيمًا بسبب انتشار اللغة ، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة وكذلك بسبب نظام اجتماعي معمم » [1] . ولكن ما العوامل التي مكنت للإسلام لكي ينتشر في البلاد المفتوحة ؟ وكيف انتشر ؟ وما السبيل التي سلكها المسلمون لنشره ؟

لقد كانت هناك عدة عوامل أدت إلى هذا : منها عالمية الإسلام وبساطته . ومنها الأساس الذي عامل عليه المسلمون أبناء الشعوب المفتوحة ، والذي تضمنته معاهدات الصلح . ومنها إشراك أبناء الشعوب المفتوحة في حكم بلادهم وإدارتها . وأخيرًا فساد الأديان وانحلالها في تلك البلاد . وسنفصل كل عامل من هذه العوامل على حدة .

أولًا : عالمية الإسلام :

الحقيقة الثابتة التي تؤيدها النصوص القاطعة : أن الإسلام دين عالمي ، ورسالته للجنس البشري كله ، لا لأمة دون أمة ، ولا لشعب دون شعب ، فمحمد رسول اللَّه

(١) جاك ريسلر - الحضارة العربية (ص٥٠) وانظر أيضًا أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص٩٢) .

إلى الناس كافة ؛ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ : ٢٨] ، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي توضح أن الرسالة الإسلامية للناس كافة ، وأنها خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض ، فليس بعد القرآن الكريم كتاب ، وليس بعد محمد رسول ؛ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ولقد صور النبي ﷺ موقع رسالته من رسالات السماء فقال : « **إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟** » قال : « **فأنا اللبنة** » [1] .

وعلى هذا فطبيعة الرسالة الإسلامية تختلف اختلافًا أساسيًا واضحًا عن سابقاتها من رسالات السماء ، فتلك الرسالات كانت محدودة الزمان والمكان والبيئة البشرية ؛ ومن هنا فلم يكن أمرًا مستغربًا أن يجتمع رسولان متعاصران ومتجاوران أو أكثر كما حدث بالنسبة لإبراهيم ولوط ، وبالنسبة لشعيب وموسى وهارون ؛ ولهذا أيضًا كانت معجزة كل رسول منهم تتناسب مع القوم الذين أرسل إليهم ، وتنتهي بانتهاء مهمة الرسول مع قومه ، وهذا لا يقلل من شأن هؤلاء الرسل عليهم السلام ؛ لأن هذا وضع اقتضاه تطور الجنس البشري . فكل رسالة جاءت في وقتها المناسب وكل رسول أدى دوره ، وكان لبنة صالحة في صرح عقيدة التوحيد إلى أن جاء الوقت الملائم لوضع اللبنة الأخيرة ، فكانت الرسالة العالمية الخاتمة لكل الرسالات والناسخة لكل الأديان ، لا تشركها رسالة أخرى معها أو بعدها ، كما كانت معجزة رسولها محمد ﷺ معجزة خالدة باقية تناسب كل عصر وتسير مع كل تطور بشري ؛ ذلك هو القرآن الذي نزل مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه . وكلف رسولها محمد ﷺ أن يبلغها للناس كافة .

وهنا يرد سؤال ، وهو : هل معنى عالمية الإسلام أنه يجب أن يكون كل الناس مسلمين ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو السبيل لحملهم على ذلك ؟

وللإجابة على الشق الأول من السؤال نقول : ليس معنى عالمية الإسلام أنه يتحتم

---

(١) انظر ابن حجر العسقلاني - فتح الباري (٦/١٥٨) .

أن يكون كل الناس مسلمين ؛ بل إن القرآن الكريم يلفت نظر الرسول ﷺ إلى أن حمل الناس جميعًا على دين واحد قد يكون أمرًا صعبًا ، إن لم يكن مستحيلًا ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ، ويقول : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] ويقول ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] .

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن ها هنا تناقضًا ؛ لأننا في الوقت الذي نقول فيه بعالمية الإسلام ، نعترف بأن حمل الناس كافة على اعتناق دين واحد أمر غير ممكن ، وغير واقعي ، ولم يحدث قط في تاريخ البشرية ! والواقع أنه لا تناقض في الأمر ؛ لأن معنى عالمية الإسلام أنه دين مفتوح لكل البشر من جميع الأجناس دون قيود أو حدود وليس دينًا خاصًّا بقوم أو قبيلة أو طائفة من الناس - كما يدعي اليهود أن ديانتهم خاصة بهم ، اختصهم اللّه بها وحدهم دون البشر - بل هو دين الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها ، والذي يلائم جميع الناس في كل زمان ومكان ؛ لبساطته وسهولته ويسر عبادته وسلامة مبادئه . فكل إنسان يريد أن يكون مسلمًا ليس عليه أكثر من أن يشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه . وبعدها يكون مسلمًا له كافة حقوق المسلمين وعليه واجباتهم .

أما الإجابة على الشق الثاني من السؤال ، وهو معرفة السبيل لحمل الناس ، أو بالأحرى لدعوة الناس للدخول في الإسلام فنأخذها من المنهج الذي حدده اللّه ﷻ للنبي ﷺ حين قال له : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] فلا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي ، وقد ذكرنا في صدر الفصل السابق أن النبي ﷺ قد وضح هذا المنهج في دعوته الملوك والأباطرة خارج شبه الجزيرة العربية إلى الدخول في الإسلام ، في رسائله التي أشرنا إليها ، والتي لم تتضمن أية إشارة إلى إجبار الناس على اعتناق الإسلام بالقوة ، بل كانت دعوة سلمية إلى دين اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة . كما أن سلوك النبي ﷺ العملي أكد هذا المنهج وزاده وضوحًا ؛ ففي غزوة تبوك عندما سار النبي ﷺ لحرب الروم ، بعد أن بلغته الأخبار بتحفزهم لمهاجمته في الجزيرة العربية فلما وجدهم قد انسحبوا من الميدان إلى داخل الشام ، لم يلاحقهم ولم يتعقبهم واكتفى بانسحابهم . ولما جاءه أمراء المقاطعات الواقعة بين الجزيرة العربية

والشام - ومنهم يوحنة بن رؤبة صاحب أيلة - مذعنين مستسلمين ، لم يفرض الإسلام عليهم بالقوة ولو كان ذلك منهجًا له ، ما كان أسهله عليه بالنسبة لهذه المجموعات الصغيرة الضعيفة والتي لم تكن قادرة على مقاومته ، بعد أن انسحبت أكبر وأقوى قوة في المنطقة من أمامه وهي جيش الروم ، بل عاملهم معاملة حسنة ، وقبل منهم أن يظلوا على عقائدهم ، واكتفى منهم بالخضوع لسلطان الإسلام ، ودفع الجزية ، وأعطاهم معاهدات ضمن لهم فيها حرية عقائدهم وأموالهم وأنفسهم[1] .

فسبيل الدعوة إلى الإسلام إذن ، هي الحكمة والموعظة الحسنة ، ولم تكن الحرب يومًا هي الطريق لنشر الإسلام ، وأما الحروب التي نشبت - منذ بداية عهد الخلفاء الراشدين - بين المسلمين وجيرانهم الفرس والروم فقد اضطر المسلمون إليها اضطرارًا - كما بينا في الفصل السابق - إما للدفاع عن أنفسهم ، وإما للدفاع عن حرية نشر عقيدتهم ، لا لنشرها . والفرق كبير جدًّا بين الأمرين ، ولا يخفى على من يريد البحث عن الحقيقة .

ثانيًا :

أما العامل الثاني الذي كان له أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام ، فهو المعاملة السمحة الكريمة التي عاملهم المسلمون بها ، والتي تضمنتها معاهدات الصلح ، التي نظمت العلاقة بين المسلمين الفاتحين وبين أبناء البلاد المفتوحة والتي التزم بها المسلمون التزامًا كاملًا ، وطبقوها بكل أمانة وإخلاص .

ولما كانت هذه المعاهدات قد تمت في عهد الخلفاء الراشدين - وبصفة خاصة في عهد عمر بن الخطاب - نذكر بعض نماذج منها ؛ لأنه على أساسها قام التعامل بين المسلمين وغيرهم طوال العصر الأموي ، بل وما بعده ، فقد كان المسلمون عندما يواجهون قوة من القوى التي اضطروا لمواجهتها ، منذ عهد أبي بكر الصديق ، خارج الجزيرة العربية - يعرضون على الناس قبل القتال : إما الإسلام ، وإما دفع الجزية ، وإما المنابذة . فإذا أسلموا طواعية فهم أخوان في الدين لهم حقوق المسلمين وعليهم واجباتهم ، وإذا رفضوا الدخول في الإسلام ورضوا بدفع الجزية ، قبلت منهم ، وتركوا وشأنهم ، وأعطوا أمانًا على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، وإذا رفضوا الإسلام

---

(١) انظر نص معاهدة الرسول ﷺ ليوحنة بن رؤبة في سيرة ابن هشام (٤/١٨٠ ، ١٨١) والبلاذري - فتوح البلدان (ص٧١) .

ودفع الجزية ؛ فمعنى ذلك أنهم مصرُّون على الحرب والمقاومة ، وإذا انتصر المسلمون في الحرب ، فهل كانوا يستخدمون ما يسمى بحق الغالب في فرض شروطه على المغلوب ؟ وهل كانوا يكرهون الناس على اعتناق الإسلام بعد أن يهزموهم في ساحات القتال ؟ إن ذلك لم يحدث قط في أى معركة من معارك المسلمين ، بل إن الناس بعد هزيمتهم : إما مسلم برغبته ورضاه ، وإما ذمي يعطى عهدًا . وقد توسع المسلمون في معنى الذمي فجعلوه يشمل أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين وجميع أهل الشرك من المجوس وعبدة الأوثان وعبدة النيران والحجارة والصابئة (١) ، فكل هؤلاء يعاهدون ، وتؤخذ منهم الجزية ؛ لأن الرسول ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر (٢) ، وأخذها عمر بن الخطاب من مجوس فارس (٣) . وإذا قبل هؤلاء جميعًا دفع الجزية ، فمن حقهم البقاء على عقائدهم . **وإليك نماذج لبعض المعاهدات التي نظمت العلاقات والالتزامات بين المسلمين وغير المسلمين ، ونبدأ بـ :**

عهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء الذي جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله ، عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطي أهل المدائن وعلى أن يخرجوا منها الروم واللصوت (٤) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلي بيعهم وصلبهم ؛ فإنهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض .. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء فسار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، شهد

---

(١) انظر أبو يوسف - كتاب الخراج (ص ٢٦٥) .
(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٩٧) ، وابن سلام - كتاب الأموال (ص ٣٥) .
(٣) البلاذري - المصدر السابق (ص ٩٨) . (٤) اللصوت - جمع لصت ، وهو اللص .

على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة » [(١)] .

معاهدة خالد بن الوليد لأهل الحيرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا وعمرًا ، ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضي بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به . عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم ، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسيسيهم ، إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيسًا عن الدنيا ، تاركًا لها أو سائحًا تاركًا للدنيا ، وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل وبقول فالذمة منهم بريئة ، وكتب في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة ودفع الكتاب إليهم » [(٢)] .

معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم ، وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ، ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النواب – أهل النوبة – وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح ... ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ... على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمة المؤمنين شهد الزبير بن العوام ، وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر » [(٣)] .

معاهدة سويد بن مقرن لأهل قومس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم ، على أن يؤدوا الجزية عن يد ، عن كل حالم بقدر طاقته ، وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا ، وعلى أن يدلوا ، وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يومًا وليلة من أوسط طعامهم ، وإن بدلوا واستخفوا فالذمة

(١) الطبري – تاريخ (٦٠٩/٣) . (٢) المصدر السابق (٣٦٤/٣) .
(٣) المصدر السابق (١٠٩/٤) .

منهم بريئة » [١] .

معاهدة عتبة بن فرقد لأهل أذربيجان :

« بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين - أهل أذربيجان ، سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها ، وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، ليس على صبي ولا على امرأة ولا زمن ليس في يديه شيء من الدنيا ، ولا متعبد متخل ليس في يديه شيء من الدنيا ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يومًا وليلة ، ودلالته ومن حشر [٢] منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه ، وكتب جندب وشهد بكير بن عبد اللَّه الليثي ، وسماك بن خرشة الأنصاري » [٣] .

معاهدة حبيب بن مسلمة لأهل تفليس :

« بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس ... بالأمان على أنفسكم وأموالكم وصوامعكم وبيعكم وصلواتكم ، على الإقرار بصغار الجزية على أهل كل بيت دينار واف ، ولنا نصحكم ونصركم على عدو اللَّه وعدونا وقرى المجتاز ليلة من حلال طعام أهل الكتاب وحلال شرابهم ، وهداية الطريق في غير ما يضر فيه بأحد منكم ، فإن أسلمتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، فإخواننا في الدين ومواليناً ، ومن تولى عن اللَّه ورسوله وكتبه وحزبه فقد آذناكم بحرب على سواء ، إن اللَّه لا يحب الخائنين ، شهد عبد الرحمن بن خالد ، والحجاج وعياض وكتب رباح ، وأشهد اللَّه وملائكته والذين آمنوا وكفى باللَّه شهيدًا » [٤] .

معاهدة سراقة بن عمرو لأهل أرمينية :

« بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى سراقة بن عمرو ، عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان ، وأعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ، ألا يضاروا ولا ينتقضوا ، وعلى أهل أرمينية والأبواب

---

(١) المصدر السابق (٤/١٥٢) .

(٢) المقصود بمن حشر منهم الذي يستعين به المسلمون في عمل سواء في الجيش أو غيره فإنه يعفى من الجزية .

(٣) المصدر السابق (٤/١٥٥) . (٤) المصدر السابق (٤/١٦٢ ، ١٦٣) .

الطراء منهم والتناء [١] ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة ، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحًا ، على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر عوض من جزائهم ، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يومًا كاملًا ، فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به ، شهد عبد الرحمن بن ربيعة ، وسلمان بن ربيعة ، وبكير بن عبد الله ، وكتب مرضي بن مقرن وشهد » [٢] .

نكتفي بهذا القدر من المعاهدات التي أعطاها المسلمون لأهل البلاد المفتوحة ؛ لأننا لم نقصد الاستقصاء ولكن التدليل على الأساس الذي كان يحكم العلاقات بين المسلمين وأهل تلك البلاد ، وهذه المعاهدات - التي أعطيت لأهل الشام ومصر والعراق والمقاطعات الفارسية - تتشابه تشابهًا كبيرًا بل تكاد تتطابق في نصوصها ومضمونها ؛ لأنها تعبر عن سياسة ثابتة للمسلمين وربما كان التفاوت الملموس بينها فيما يتعلق بمقدار الجزية التي كان يفرضها المسلمون فأحيانًا تكون مقدارًا معينًا على أهل البلد كلهم كما هو الحال بالنسبة لأهل الحيرة ، وأحيانًا على مقدار معين على أهل كل بيت ، وأحيانًا على مقدار معين على كل شخص قادر على الكسب ، وفيما عدا هذا التفاوت في مقادير الجزية التي كان يفرضها المسلمون ، والذي روعي فيه التيسير على المعاهدين وعدم إرهاقهم - لا نجد اختلافًا كبيرًا بين هذه المعاهدات ، التي تنص صراحة على تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، وعلى حمايتهم .

ولقد أشاعت هذه المعاهدات العادلة جوًّا من الطمأنينة والأمان عند السكان ، وأزالت عن نفوسهم الخوف الذي يشعر به المغلوب في مثل هذه الظروف ، فعادتهم بالجيوش الغازية - وقد جرب الفرس والروم ذلك في حروبهم الطويلة والمستمرة فيما بينهم - أنها تدمر وتنهب وتعيث في الأرض فسادًا . أما في فتوح الإسلام ، فالأمر مختلف تمامًا ؛ فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها ، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها ، ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد ، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ، فهم أصحاب رسالة خالدة ، تحمل للناس العدل

---

(١) الطراء : الذين يأتون من مكان بعيد ، انظر لسان العرب (١٠٨/١) . وتنأ بالمكان : أقام به ، والتناء : الإقامة . اللسان (٣٢/١) .

(٢) الطبري - المصدر السابق (١٥٦/٤ ، ١٥٧) .

والإنصاف ، وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية . ولكن الناس في البلاد المفتوحة ، لأنهم لم يشهدوا فتحًا كالفتح الإسلامي من قبل ؛ كانوا في حاجة إلى وقت ليعرفوا أهداف المسلمين الحقيقية ، فلما تكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة - كما سنعرف فيما بعد - ولقد حرص المسلمون على الوفاء بكل ما التزموا به ، ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط ، وإنما هو واجب ديني يفرضه الإسلام على المسلمين ، فالوفاء بالعهد ليس تبرعًا من المسلمين يمنون به على الناس ، ولكنه مسؤولية واجبة عليهم ، يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] ، ويقول الرسول ﷺ : « **من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه** » [١] .

الوفاء بهذه المعاهدات من جانب المسلمين هو السياسة الثابتة حتى عندما كان ينقض أهل إقليم من الأقاليم المعاهدات من جانبهم ، كان المسلمون يكتفون منهم بالعودة إلى الطاعة وأداء التزاماتهم ولم يحملهم الانتقاض على الانتقام ، فقد ذكر الطبري : أن أهل أذربيجان كانوا قد نقضوا عهدهم ، فغزاهم الوليد بن عقبة - من الكوفة - في عهد عثمان ، وصالحهم على ثمانمائة ألف درهم ، وذلك هو الصلح الذي كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان سنة اثنتين وعشرين - بعد نهاوند بسنة - ثم إنهم حبسوها عند وفاة عمر فلما ولي عثمان ، وولّى الوليد بن عقبة الكوفة سار حتى وطئهم بالجيش فلما رأوا ذلك انقادوا له وطلبوا إليه أن يتم لهم على ذلك الصلح ففعل [٢] ، ولم يكن هذا مثلًا وحيدًا ؛ بل تكرر كثيرًا .

ولما كانت الجزية هي أبرز الالتزامات التي فرضها الفاتحون المسلمون على المعاهدين ، وكثر الكلام حولها من جانب بعض المستشرقين ، من حيث علاقتها بإسلام الشعوب المفتوحة ؛ فينبغي أن نخصَّها بكلمة .

الجزية :

تقررت الجزية على المعاهدين بنص الآية الكريمة : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] فأداؤهم للجزية يكف عنهم القتال ، ويظلون على عقائدهم ، فهم لم يقاتلوا

---

(١) أبو يوسف - كتاب الخراج (ص ٢٥٧) . (٢) تاريخ الطبري (٤/٢٤٧) .

ليسلموا ، فلو كان القتال لحملهم على الإسلام ، لقال اللّه تعالى : « قاتلوهم حتى يسلموا » فالجزية إذن لم تكن عقابًا لامتناعهم عن قبول الإسلام ؛ وإنما هي علامة على التسليم وعدم المقاومة ، وفي مقابل أدائها فإنهم إلى جانب تمتعهم بالبقاء على أديانهم يستمتعون بحماية الدولة الإسلامية لهم ، فإذا عجزت عن حمايتهم فهم في حل من أدائها ، كما نص على ذلك في معاهدة خالد بن الوليد لأهل الحيرة (١) ، بل أكثر من ذلك فقد كان المسلمون في حالة العجز عن حمايتهم يردون إليهم ما كانوا قد أخذوه منهم ، فقد رد أبو عبيدة بن الجراح ما كان أخذه من أهل حمص وكتب إليهم : « إنما رددنا عليكم أموالكم ؛ لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك ، فرددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم » فقال أهل حمص : « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم » (٢) .

ويعلق الأستاذ أرنولد على هذه الحادثة الفريدة في تاريخ البشرية بقوله : « وبذلك ردت مبالغ طائلة من أموال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : ردكم اللّه علينا ونصركم عليهم - الروم - فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء بقي لنا » (٣) . وقد بلغ عدل الإسلام ورحمته بأهل الذمة أنه لم يكن يعفي فقراءهم من الجزية فحسب بل كان يفرض لهم عطاء دائمًا من بيت مال المسلمين ، فقد فرض عمر بن الخطاب لليهودي الذي وجده يطلب الصدقة رزقًا دائمًا من بيت المال » (٤) .

وكانت الجزية بصفة عامة يسيرة القيمة ، فقد تراوحت بين ٤٨ درهمًا في السنة على الأغنياء ، ٢٤ درهمًا على المتوسطين ، ١٢ درهما على القادرين على الكسب من الفقراء . كما كانت تجبى بروح الرحمة الإنسانية ولم يكن الخلفاء يسمحون إطلاقًا باستخدام القوة في جبايتها (٥) . وهذه شهادة أرنولد في هذا المجال حيث يقول : « وقد أوصى جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة خاصة ، فلا يظلموهم ولا يؤذوهم في المعاملة ، ولا ينزلوا بهم عقابًا جسمانيًا إذا لم يؤدوا الجزية » (٦) . وقد ظلت هذه الروح الإسلامية الرحيمة سارية في الدولة الإسلامية

---

(١) انظر نصها في الطبري (٣٦٤/٣) .
(٢) البلاذري - فتوح البلدان (ص ١٦٢) .
(٣) الدعوة إلى الإسلام (ص ٧٩) .
(٤) أبو يوسف - الخراج (ص٢٥٩) .
(٥) المصدر السابق (ص ٢٥٧ ، ٢٥٨) .
(٦) الدعوة إلى الإسلام (ص ٧٩) .

أمدًا طويلًا ، وها هو أبو يوسف يقول لهارون الرشيد في نهاية القرن الثاني الهجري : « وقد ينبغي لك يا أمير المؤمنين – أيدك اللَّه – أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك ، وابن عمك محمد ﷺ والتقدم لهم حتى لا يظلموا ولايؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولايؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم » [١] .

وقد توسع المسلمون في الإعفاء من الجزية ، فأعفوا منها طوائف عديدة ، فالفقراء غير القادرين على الكسب والنساء والأطفال والمرضى ورجال الدين كل هؤلاء لا جزية عليهم .. كما كان يعفى منها من يحتاج المسلمون إلى خدماتهم في الجيش من القادرين على ذلك كما ورد في بعض المعاهدات التي ذكرناها .

يقول أرنولد : « وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين الذكور ، مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي ، كان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة » [٢] . ثم يستطرد فيذكر أمثلة من إعفاءات الجزية التي كان يتمتع بها المسيحيون الذين يعملون في الجيش الإسلامي حتى العهد العثماني ، كما هو الحال بالنسبة لمسيحيي ألبانيا ورومانيا [٣] . ومعنى هذا أن مراعاة الرحمة والعدالة لم تتوقف مع أهل الذمة طوال مسيرة التاريخ الإسلامي .

والعجيب بعد ذلك كله أن يعزو الأستاذ بتلر إقبال المسيحيين في مصر على الإسلام إلى الهروب من الجزية [٤] ، ويحاول أن يهرب من الحقيقة وهي أن تحولهم إلى الإسلام يرجع إلى اقتناعهم به دينًا يدعو إلى التوحيد الخالص الذي لا تشوبه أية شائبة من شرك . ولا ندري كيف يترك الإنسان دينه هروبًا من أداء جزية يسيرة

---

(١) الخراج (ص٢٥٧) .

(٢) الدعوة إلى الإسلام (ص ٧٩ ، ٨٠) – ويشير أرنولد إلى ما حدث مع الجراجمة في عهد الوليد بن عبد الملك سنة (٨٩هـ) . حيث اتفق معهم ، كما يروي البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٩١) على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ، ويجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت ... وعلى ألا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية ، وعلى أن يغزوا مع المسلمين ، فينفلوا أسلاب من يقتلون » .

(٣) الدعوة إلى الإسلام (ص ٧٩ ، ٨٠) .

(٤) الدكتور شكري فيصل – المجتمعات الإسلامية (ص١٥٤) نقلًا عن بتلر – فتح العرب لمصر .

المقدار ، وهل هانت العقائد على الناس إلى الحد الذي يجعل الإنسان يغيِّر عقيدته من أجل بضعة دراهم يدفعها كل عام ؟ ونحن نعرف أن المسيحيين الأوائل عندما كانت عقيدتهم صحيحة تقوم على التوحيد الخالص كانوا يضحُّون من أجلها بأرواحهم ، كما فعل أصحاب الأخدود نصارى نجران [١] ؛ فالذي يؤمن بدين ويراه جديرًا بالإيمان لا يصرفه عنه شيء مهما كان الثمن غاليًا .

ثالثًا : إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم :

كانت سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات من سعة الأفق والمرونة ؛ بحيث أدركوا أن استتباب الأمن وسير الأمور سيرًا حسنًا في البلاد المفتوحة بما يحقق خير أهلها ومصالحهم - يكمن في الأسلوب الإداري الذي سيسيرون عليه فلم يترددوا في الاحتفاظ بالنظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة سواء كانت خاضعة للبيزنطيين مثل الشام ومصر أو خاضعة للفرس مثل العراق ، وبلاد فارس نفسها ، فهذه البلاد كان بها منذ قرون سابقة إدارات وهيئات وأجهزة ومرافق حكومية راسخة ، ووراءها تجارب طويلة في فن الحكم والإدارة ، فقرر المسلمون أن يستفيدوا من هذا كله ، وأن يطوِّروا ما يرونه ضروريًّا ليتفق مع دينهم ونظامهم السياسي ، والاجتماعي ويحقق الصالح العام ، للدولة وللمواطنين فقد اقتبس عمر بن الخطاب ديوان الجند عندما أشير عليه بذلك من النظام الفارسي [٢] ، ولم يجد أي غضاضة في ذلك ؛ وبهذا سنَّ عمر ﷺ للمسلمين سنة الاستفادة من الخبرة الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة ، ثم كتب إلى عمرو بن العاص عندما فتح مصر : « أن يسأل المقوقس عنها : من أين تأتي عمارتها وخرابها ؟ فسأله عمرو ، فقال له : تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة : أن يستخرج خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ويرفع خرابها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصير كرومهم ، وتحفر كل سنة خلجها ، وتسد ترعها وجسورها ، ولا يقبل محل أهلها - يريد البغي - فإذا عمل هذا فيها عمرت ، وإذا عمل فيها بخلافه خربت » [٣] . هذا ولم يستفد المسلمون بالنظم الإدارية التي وجدوها ، واحتفظوا بها فحسب ، بل

---

(١) اقرأ سورة البروج .

(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص٥٥٤ ، ٥٥٥) وابن الطقطقا - الفخري (ص ٨٣) .

(٣) انظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١١١) .

احتفظوا كذلك بالجهاز الإداري وطبقة الموظفين الذين كانوا يسيِّرون دولاب العمل في البلاد .

وقد احتفظ المسلمون بالمناصب العليا ، كالإدارة وقيادة الجيوش ، فالأمير وقائد الجيش في كل بلد لا بد أن يكون مسلمًا ، وكان يطلق عليه إذا جمع بينهما أمير الحرب والصلاة ، وكان أحيانًا تضم إليه السلطات المالية - الخراج - وأحيانًا كان يعين للخراج وال مستقل ، وكان هذا طابع الإدارة في عهد الخلفاء الراشدين ، أما في العهد الأموي ، فقد كان الوالي في معظم الأحيان يتمتع بكل السلطات والصلاحيات الإدارية والعسكرية والمالية . وكان المسلمون يحتفظون أيضًا بمناصب القضاء والشرطة والحسبة . أما ما عدا ذلك من الوظائف الإدارية فكان المجال فيها متسعًا أمام أبناء البلاد المفتوحة للمشاركة في الإدارة [١] ؛ بل إن كثيرين منهم وصلوا إلى مناصب إدارية في ظل الحكم الإسلامي كانوا محرومين منها في ظل حكومات ما قبل الإسلام كما هو الحال في مصر ، فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم المناصب الإدارية ، بالإضافة إلى المناصب العسكرية العليا ، ولا يتركون للمصريين إلا أقل القليل . تقول الدكتورة سيدة كاشف : « وكما أن روح الإسلام الحقة هي التي حفزت العرب إلى اتباع سياسة التسامح الديني نحو المصريين ، فقد كان أيضًا للعوامل السياسية أكبر الأثر في حملهم على ترك تقاليد الأمور في يد أهل مصر من الأقباط ، محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا ، وتنفيذ أحكام الدين . أي أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة في الدين ، كما أصبح لهم نصيب كبير في إدارة بلادهم ، ربما لم يصلوا إليه قبل الفتح العربي ، ولا شك أن القبط حلُّوا محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيرًا من الأعمال فيها [٢] ، ولم يقتصر القبط على الأعمال الإدارية الصغيرة ، بل شقوا طريقهم إلى أعمال لها خطورتها ، ففي ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ - ٨٥هـ) كان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر : واحد لمصر العليا ، والآخر لمصر السفلي . وقد أشار ساويرس أسقف الأشمونين إلى اسميهما وهما اثناسيوس وإسحاق ، بل أكثر من ذلك فقد تولى ولاية الصعيد وال قبطي اسمه بطرس ، وقد اعتنق الإسلام بعد توليه منصبه ،

(١) انظر د. حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٥٠) ، د . سيدة كاشف - مصر في فجر الإسلام (ص ٢٦) ، د. إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ٢٦٥) وما بعدها .
(٢) مصر في فجر الإسلام (ص ١٧٠) .

كما كان حاكم مريوط قبطيًّا اسمه تاوناس (١) .

ولم يكن هذا في مصر وحدها ، بل حدث مثله في الشام والعراق وفارس وشمال إفريقيا والأندلس ، وقد بقيت دواوين خطيرة بأكملها في أيدي غير المسلمين عشرات السنين ، فديوان الخراج ، وهو أهم دواوين الدولة ، ظلت رئاسته في يد سرجون بن منصور الرومي وابنه منصور طوال عهود معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، كذلك كانت رئاسة ديوان الخراج في العراق في يد رجل فارسي هو ذادان فروخ (٢) ، ولم يكن سرجون بن منصور - وهو رومي مسيحي - رئيسًا لديوان الخراج المركزي في دمشق عاصمة الخلافة فحسب ؛ وإنما كان مستشارًا سياسيًّا لمعاوية بن أبي سفيان (٣) ، وابنه يزيد كما استعمل معاوية طبيبه الخاص ابن آثال على خراج حمص ، وقد توسع الأمويون في استخدام أهل الذمة في الإدارة ، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان تجاه الدولة ، فبدؤوا يقبلون على اعتناق الإسلام لترتفع مكانتهم أكثر فأكثر .

رابعًا : الوضع الديني في البلاد المفتوحة :

لا شك أنه مما جعل أبناء البلاد المفتوحة يقبلون على الإسلام بسرعة : فساد الأديان في بلادهم وانحلالها ، وفساد رجالها ، سواء كانت هذه الأديان سماوية كاليهودية والمسيحية ، أو وضعية كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من الأديان الوثنية التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة . ففي ففارس على سبيل المثال : كان الدين الرسمي للدولة هو الزرادشتية ، والمشهور من تعاليم زرادشت أنه كان يقول : « إن للعالم أصلين ، أو إلهين : أصل الخير وهو أهورا ، أو أهورا مزدا ، وأصل الشر وهو أهرمن ، وهما في نزاع دائم . ولكل من هذه الأصلين قدرة الخلق ، فأصل الخير هو النور ، وقد خلق كل ما هو حسن وخير ونافع ، فخلق النظام وخلق النور وأصل الشر هو الظلمة ، وقد خلق كل ما هو شر في العالم » (٤) ولزرادشت كتاب مقدس يسمى : أفستا AVESTA وعليه شرح يسمى : زندافست ، وإذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل : الأبستاق ، وعدد سوره إحدى وعشرون سورة تقع كل سورة

---

(١) د . سيدة كاشف - المرجع السابق (ص ١٧٠) .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان (ص ٣٦٨) .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (ص٢٢٨) - والطبري تاريخ (٥/٣٣٠ ، ٣٤٨) .

(٤) أحمد أمين - فجر الإسلام (ص ١٠١) .

في مائتي ورقة [١] . ومنذ أن غدت الزرادشتية الدين الرسمي للدولة ناصرها الحكام ، وأفسحوا المجال لكهنتها ، حتى أصبح لهم نفوذ كبير في الدولة فاستغلوه في اضطهاد كل الأديان المخالفة وكانت كثيرة في البلاد ، مثل البوذية والصابئة والمانوية والمزدكية ، بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية التي كان يعتنقها بعض الطوائف . وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهية المريرة الذي أحسه الشعب الفارسي نحو هذا الدين الذي تغلغل في بلادهم ، ونحو تلك الدولة التي وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع ، كما كان من الأسباب التي ساعدت على انتصار الفاتحين المسلمين وجعلهم يظهرون في صورة من جاؤوا لتخليص الأهلين مما أصبحوا فيه ، وما أن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بالمسلمين حبًّا في الخلاص من ظلم الحكام أولًا ، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيًا ، ثم أملًا في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر ؛ وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية [٢] .

هذه الحرية الدينية التي وفرها الإسلام للناس جعلتهم يقارنون بين الإسلام وبين تلك الأديان الوثنية ، فكانت النتيجة لصالح الإسلام ؛ لأن الأديان الوثنية لا يمكن أن تصمد أمام دين سماوي يقوم على التوحيد الخالص للّٰه تعالى ، ويحمل للناس الخير ويسوي بينهم في الحقوق والواجبات والقيمة الإنسانية ؛ لذلك أسرع معظم الفرس إلى ترك تلك الأديان ، واعتنقوا الإسلام عن اقتناع بل دافعوا عنه في حرارة وإخلاص كالعرب تمامًا [٣] .

ولم تكن الأوضاع الدينية في البلاد المسيحية التي فتحها المسلمون بأحسن حالًا مما كان عليه الوضع في بلاد فارس ؛ ففي مصر كانت العقيدة المسيحية قد انحلت وأصبحت في غاية من التعقيد والإبهام على عقول الناس حتى لم يعودوا يفهمونها وفقدت تأثيرها عليهم ، يقول أرنولد : « ومن المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلًا في القرن السابع ، وأن التعليقات النظرية التي استغلها زعماؤهم في إثارة شعور الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية كان يمكن أن يدركها عدد قليل جدًّا من الناس ، كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام

---

(١) المرجع السابق (ص١٠٠) .

(٢) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٣٥ ، ٢٣٦) .

(٣) د . حسن أحمد محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٤٨) .

الأولى من الاحتلال العربي - كذا - قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء ، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام ، وأن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبيين طائفة منفصلة ، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتًا طويلًا ودفعوا ثمنًا غاليًا في هذا السبيل - قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضًا وإبهامًا من الناحية الميتافيزيقية ، ولا شك أن كثيرًا من هؤلاء قد تحولوا - وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم - إلى عقيدة تتلخص في وحدانية اللَّه البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد [ﷺ] (١) .

سياسة الأمويين وأثرها في انتشار الإسلام

ذكرنا فيما سبق أن من بين العوامل التي مكنت للإسلام في البلاد المفتوحة وساعدت على سرعة انتشاره : معاملة المسلمين لأهل تلك البلاد ، والتي تضمنتها معاهدات الصلح ، والتزام المسلمين الكامل بالوفاء بما جاء في تلك المعاهدات ، وقد سار الأمويون على تلك السياسة ، ولم يحيدوا عنها (٢) ، فلم ينقضوا معاهدة ولم ينكثوا عهدًا ، ولم نسمع طوال العهد الأموي كله إلا شكوى واحدة فيما يتعلق بنقض المعاهدات ، وهي الشكوى التي رفعها أهل سمرقند إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) حيث قالوا له : إن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم على غدر(٣) . « فكتب عمر إلى عامله أن ينصب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروه ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا فنصب لهم القاضي جميع بن حاضر الناجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل سمرقند الحرب ، وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم (٤) .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام (ص ١٢٥ ، ١٢٦) .

(٢) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق (ص ٤٨) .

(٣) كان قتيبة بن مسلم عندما فتح سمرقند قد اتفق مع أهلها على أن يدخل المدينة ويبني فيها مسجدًا ويصلي ويخرج ، ولكنه بعد أن دخلها لم يوف بالتزامه وأبقى فيها جنده . انظر الطبري - تاريخ (٤٧٥/٦) .

(٤) البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥١٩) .

هذه هي الشكوى الوحيدة التي قرأنا عنها ضد عامل من عمال بني أمية خالف ما كان قد اتفق عليه ، فلما شكاه أهل سمرقند أنصفهم الخليفة ، وهذا المثل الوحيد - وسط هذه الحروب الطويلة والأحداث المتلاحقة ، وكثرة الانتقاض ونكث العهود من أهل البلاد - يدل على أن السياسة العامة التي اتبعها الأمويون هي المحافظة على نصوص وروح المعاهدات ، فلو كانت هناك مخالفات مماثلة لسمعنا عنها ، ولسنا نريد الادعاء بأن جميع خلفاء وعمال بني أمية كانوا بريئين من الأخطاء والمخالفات ، فهم بشر ولا عصمة لهم من الأخطاء ، ومن كان في موقفهم ويدير دولة كدولتهم ذات المساحات الشاسعة ، والتي تضم العديد من الأجناس والطوائف والفرق والأحزاب والأديان - لا يسلم من الخطأ ، ولكن المخطئ سرعان ما كان يرجع إلى الصواب ؛ فقد أخطأ بعض عمال بني أمية - لما أعوزهم المال وتناقصت الجزية بإقبال الناس على اعتناق الإسلام - وفرضوا الجزية على حديثي الإسلام فلم يحتمل ضمير الأمة هذا الخطأ الجسيم المخالف لروح ومبادئ وأصول الشريعة الإسلامية التي تنص على عدم أخذ الجزية من المسلم [1] ، وضجَّ المسلمون من العرب وسخطوا على هؤلاء العمال الذين ارتكبوا هذا الخطأ الكبير ، فلما رفع الأمر إلى عمر بن عبد العزيز أمر على الفور برفع الجزية عمن أسلموا ، وصاح في عماله صيحته المشهورة : « قبح اللّٰه رأيكم ، فإن اللّٰه قد بعث محمدًا ﷺ هاديًا ولم يبعثه جابيًا » [2] ، وبادر بعزل العمال الذين وقعوا في هذا الخطأ ، مثل الجراح بن عبد اللّٰه الحكمي والي خراسان [3] .

وكان ضمير الأمة يقظًا على حراسة المبادئ والأصول الإسلامية ، وكان يرد العمال إذا أقدموا على مخالفة من هذا القبيل ، فعندما أزمع عبد العزيز بن مروان - والي مصر - أخذ الجزية ممن أسلموا من أهل الذمة ، قال له القاضي ابن حجيرة : « أعيذك باللّٰه أيها الأمير أن تكون أول من سنَّ ذلك بمصر ، فواللّٰه إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟ فتركهم عند ذلك » [4] .

---

(١) أبو يوسف - الخراج (ص ٢٥٤) .
(٢) ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٠٧) والطبري - تاريخ (٥٥٩/٦) .
(٣) الطبري - المصدر السابق (٦/ ٥٦٨) .
(٤) ابن عبد الحكم - فتوح مصر - (ص ١٠٧) .

وكان الخلفاء الأمويون في غالب الأحوال يتحرجون من أخذ الأموال بدون وجه حق ويمنعون العمال من ذلك ، فعندما كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضول من أموال السواد ، منعه من ذلك وكتب إليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحومًا يعقدون عليها شحومًا » [١] . وكان الوليد بن عبد الملك إذا تشكك في مصدر الأموال التي يرفعها إليه العمال ، لا يقبلها إلا إذا أقسم العامل أنه ما ظلم فيها أحدًا ، ولا غصب منها شيئًا ولا أصابها إلا من طيب [٢] .

وقد مر بنا في ترجمة سليمان بن عبد الملك ما ذكره صاحب أخبار مجموعة من أن الخلفاء الأمويين « كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم ، حتى يحلف الواحد باللّه الذي لا إله إلا هو ، ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلاد من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه » [٣] . ومر بنا في ترجمة هشام بن عبد الملك أنه لم يكن يدخل بيت ماله مالًا إلا بعد أن يشهد أربعون قسامة ، لقد أخذ من حقه ، ولقد أعطى الناس حقوقهم [٤] . وكان الخلفاء الأمويون يجتهدون في اختيار الولاة الذين ينفذون هذه السياسة التي تراعي الحق والعدل والإنصاف للناس ، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة على ذلك في تراجمهم ، كما كانوا لا يترددون في عزل العامل إذا اتضح لهم ظلمة وشططه في جباية الخراج والجزية والصدقات [٥] .

هذه السياسة العدلة الرحيمة ، التي كانت تراعي الصالح العام ، وتصحح نفسها بنفسها إذا حدث ميل أو انحراف عن السبيل السوي - أسهمت إسهامًا كبيرًا في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على الإسلام .

---

(١) الماوردي - الأحكام السلطانية (ص ١٤٩) .
(٢) الطبري - تاريخ (٤٩٨/٦) .
(٣) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (ص ٢٢ ، ٢٣) .
(٤) الذهبي - سير أعلام النبلاء (٣٥٢/٣) .
(٥) د . سيدة كاشف - الوليد بن عبد الملك - سلسلة أعلام العرب (ص ٥٦) .

انتشار الإسلام في مصر [١]

بعد أن أتم عمر بن العاص فتح فلسطين ، سار إلى مصر - بعد أن اقتنع الخليفة عمر بن الخطاب بضرورة فتحها لتأمين فتوحات الشام ولأسباب أخرى كثيرة - وقد فتحها في خلال ثلاث سنوات (١٨ - ٢١هـ) . ويعتبر فتح مصر من أسهل الفتوحات التي أنجزها المسلمون ؛ لأنهم لم يكونوا يحاربون الشعب المصري ، بل جيشًا بيزنطيًّا محتلًّا ، وسرعان ما هزموا هذا الجيش الذي تعودوا على قهره ، وأرغموه على الرحيل عن مصر . أما الشعب المصري فلم يشترك في مقاومة المسلمين ، بل رحب بهم ، وكان عونًا لهم . يقول أرنولد : « ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه الغزاة العرب في مصر ، قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي ؛ لما عرف به من الإدارة الظالمة ، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت ، فإن اليعاقبة الذين كانوا يكوِّنون السواد الأعظم من السكان المسيحيين ، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط ، الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق الذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم » [٢] . فمع أن المصريين كانوا مسيحيين كالبيزنطيين ، فإن اشتراكهم في الدين لم ينجهم من الاضطهاد ؛ لأنهم خالفوهم في المذاهب الديني ، فقد كان المصريون يعاقبة ، يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح ، بينما كانت الدولة البيزنطية تدين بالمذهب الذي قرره مجمع خلقدونية سنة (٤٥١م) وهو أن للمسيح طبيعتين : إلهية وبشرية .

وقد مارست الدولة البيزنطية أشد أنواع الإكراه لحمل المصريين على اعتناق مذهبها ، واشتد الأذى عندما جاء الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) بمذهبه التوفيقي الجديد ، وهو مذهب المشيئة الواحدة للمسيح ، وحاول فرضه على المصريين بالقوة ، وأوكل هذه المهمة إلى قيرس - المقوقس - الذي عينه حاكمًا على مصر بجانب رئاسته للكنيسة وقد اشتط قيرس في فرض هذا المذهب الجديد ، وتحت

---

(١) رأينا أن نبدأ بانتشار الإسلام في القسم الغربي من العالم الإسلامي بادئين بمصر - وانظر الخريطة رقم (٣) من ملحق الخرائط - فشمالي إفريقيا فالأندلس ، ثم نعود إلى المشرق : الشام والعراق وفارس وما وراء النهر والسند .

(٢) الدعوة إلى الإسلام (ص ١٢٣) وانظر كذلك د. حسن إبراهيم حسن - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية (ص ١٤) .

ضغوطه تحول كثيرون إليه ممن لم يستطيعوا الهرب ، ومنهم بعض الأساقفة . أما البطريرك بنيامين فقد هرب وظل مختفيًا في الصحراء الغربية حتى دخل عمرو بن العاص مصر وأعاده إلى كرسي البطريركية ، ومن لم يستطع الهرب ولم يقبل المذهب الجديد فقد قاسى أشد أنواع العذاب مثل الأب مينا (١) أخي البطريك بنيامين ، وبهذا الأسلوب القاسي قطع قيرس آخر خيط كان يربط المصريين بالدولة البيزنطية (٢) .

هذه الصورة القاتمة من الاضطهاد الديني الذي مارسه البيزنطيون في مصر ، حلت محلها صورة وضيئة مع مجيء الفتح الإسلامي الذي وفر للمصريين « حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان ، وقد تركهم عمرو بن العاص أحرارًا على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنُّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني . لم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملًا من أعمال السلب والنهب (٣) ، ولكن اللافت للنظر أنه بالرغم من الحرية الدينية الكاملة التي أتاحها الفتح الإسلامي للمصريين ، وعدم التدخل في شؤونهم الدينية ؛ فقد تحول كثيرون منهم إلى الإسلام ، وتركوا عقيدتهم المسيحية ، منذ الأيام الأولى للفتح ، بل تحول كثير منهم إلى الإسلام قبل أن يتم فتح مصر ، حيث كانت الإسكندرية - حاضرة مصر - وقتئذ ، لا تزال تقاوم الفاتحين (٤) ، وكتب يوحنا النقيوس : إن بعض المصريين تركوا الدين المسيحي وأسلموا ، وصحبوا جيوش العرب أثناء الفتح ، وكان منهم يوحنا أحد رهبان دير سينا (٥) .

وأصبح تناقص الجزية بشكل ملحوظ مؤشرًا كبيرًا على كثرة الداخلين في الإسلام من المصريين ؛ فقد نقصت الجزية من اثني عشر مليون دينار في عهد عثمان (٢٣ - ٣٥هـ) إلى خمسة ملايين في عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠هـ) ، ثم بلغ النقص مداه في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) وهذا هو الذي خلق المشكلة التي تورط فيها بعض الولاة في مصر ؛ حيث استمروا يأخذون الجزية ممن

---

(١) د . سيدة كاشف - مصر في فجر الإسلام (ص ٨) نقلًا عن ساويرس بن المقفع .
(٢) المرجع السابق (ص ٨) نقلًا عن بتلر .
(٣) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ١٢٣) .
(٤) المرجع السابق (ص ١٢٤) .
(٥) الدكتورة سيدة كاشف - مصر في فجر الإسلام (ص ١٦٤) .

أسلموا من القبط، وهو الوضع الذي قضى عليه عمر بن عبد العزيز [١] .

وقد استمرت حركة دخول مسيحيي مصر في الإسلام في زيادة مضطردة ، ففي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك دخل أربعة وعشرون ألفًا منهم الإسلام دفعة واحدة في سنة (١٠٨هـ - ٧٤٤م) [٢] . ولم يكن الدخول في الإسلام منذ أن فتحت مصر قاصرًا على طبقة بعينها ، بل دخل فيه رجال من كل الطبقات من رجال الدين مثل يوحنا - راهب دير سينا - المشار إليه آنفًا - ومن المفكرين والأشراف ومن عامة الناس [٣] .

ولم يقتصر اعتناق الإسلام على القبط بل أسلم كثير من الروم الذين بقوا في مصر بعد الفتح [٤] ، وهكذا استمر دخول مسيحيي مصر في الإسلام حتى تحول أغلبية السكان إليه ، وتعلموا اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، والتي غدت لغة الدواوين والإدارة وأصبحت مصر بالتدريج بلدًا عربيًّا مسلمًا ، أغلبية سكانه مسلمون ، وبقي بعض القبط على دينهم حتى الآن ، وبقاء هذا العدد من المصريين على مسيحيتهم دليل على التسامح الإسلامي ، وعلى أن من اعتنق الإسلام منهم اعتنقه عن رضى وقناعة ، دون جبر أو إكراه ؛ فلم نسمع عن حادثة واحدة استخدمت فيها القوة لحمل أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام ، وهذه حقيقة يعترف بها الكتاب المسيحيون أنفسهم في صراحة تامة [٥] .

وقد يتساءل القارئ : إذا كان المسلمون قد منحوا المصريين حريتهم الدينية ولم يكرهوا أحدًا منهم على الدخول في الإسلام ، فلماذا ترك أكثرهم دينه المسيحي واعتنق الإسلام ؟ والإجابة عن هذا التساؤل تكمن في العوامل السابقة التي ذكرناها : عالمية الإسلام وبساطته وملاءمته للفطرة ، وبعده عن التعقيد والإبهام ، ومعاملة المسلمين الحسنة ، وإتاحة الفرصة للمصريين للمشاركة في إدارة بلادهم ، وأخيرًا انحلال الديانة المسيحية وتعقيداتها اللاهوتية ، وفساد رجال الدين . كل ذلك زهَّد المصريين في المسيحية وجعلهم يقبلون على الدخول في الإسلام ، كما

---

(١) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ١٢٤) ، وراجع ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٠٧) .
(٢) أرنولد - المرجع السابق (ص ١٢٥) ، نقلًا عن ساويرس بن المقفع .
(٣) د . شكري فيصل - المجتمعات الإسلامية (ص ١٥٦) .
(٤) المرجع السابق (ص ١٥٦) .
(٥) انظر أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٦٥ ، ٨٨) .

أشار إلى ذلك أرنولد في أكثر من موضع في كتابه [١] ، وكما يقول بتلر عن الموضوع نفسه : « فقد رأوا - المصريون - أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم ، ويجعلهم إخوانهم في كل شيء ، يسهم لهم في الفيء ولا يفرض عليهم الجزاء ، فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام ، لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنًا ، وحطم يقينهم باضطهاده » [٢] .

وقد يتساءل القارئ أيضًا عن دور المسلمين في جذب مسيحيي مصر إلى الإسلام ؟ والذي يعرفه كل مطلع على سيرة الدعوة الإسلامية أن أعظم ما يدخل السرور على قلب المسلم ، أن يهدي اللّٰه به ولو رجلًا واحدًا إلى الإسلام فهذا خير له من حمر النعم . فدور المسلمين في ذلك هو دور الداعي إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة والقدوة الطيبة ، فالخلفاء والأمراء كان دورهم التشجيع وخلق الجو المناسب ، والالتزام بروح ونصوص المعاهدات وإشاعة الحرية والتسامح بين الناس .

أما العرب المسلمون الذين عاشوا في مصر بعد الفتح فقد كان تأثيرهم في جذب القبط إلى الإسلام من ناحية سلوكهم الإسلامي الملتزم وقدوتهم الحسنة ، وامتزاجهم بالمصريين ، فالعرب المسلمون لم يكونوا يعتبرون أنفسهم طبقة فوق المصريين يتعالون عليهم ، بل اختلطوا بهم ، وصاهروهم وعايشوهم ، ومن أسلم منهم فهو أخوهم في الدين ، ومن لم يسلم فله كل الاحترام وكل الوفاء . وقد أفاضت المصادر في ذكر الآثار التي تنسب إلى الرسول ﷺ في الوفاء لأهل الذمة ، وفي وصية المسلمين بأهل مصر ؛ لأن لهم ذمة ورحمًا [٣] ، مما كان له تأثير كبير على معاملة المسلمين للمصريين . وكان انتشار الإسلام يزداد في مصر مع ازدياد وفود العرب المسلمين إليها ، فيذكر المقريزي أن الإسلام فشا في قرى مصر بعد هجرة عرب قيس إليها في خلافة هشام بن عبد الملك [٤] ، فسكنى هذه القبائل في مصر وإقامتها لشعائر الدين ، وانقطاع جماعات منها للدعوة ، لا بد وأن يكون له أثر في تقريب الإسلام إلى قلوب المصريين ؛ لأن هذه القبائل لم تكن تعيش في نطاق محصور ، ولكنها

---

(١) المرجع السابق (ص ٧٤ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥) .
(٢) نقلًا عن الدكتور شكري فيصل - المجتمعات الإسلامية (ص ١٥٤) .
(٣) انظر على سبيل المثال : ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٣) .
(٤) الخطط (٢/ ٢٦١) .

كانت تجوب مناطق كثيرة ، ولم تكن تعيش منعزلة ، وإنما كانت تشارك في كل مظاهر الحياة وألوان النشاط في إطار من سلوكها الإسلامي ؛ ولذلك فإن لنا أن نتصور أنها أعانت على نجاح الدعوة الإسلامية ومكّنت لها في البلاد [(١)] .

انتشار الإسلام في المغرب [(٢)]

مانقصده بالمغرب - هنا - الشمال الإفريقي كله ، من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي ، وهي المنطقة التي أتم المسلمون فتحها في نهاية القرن الهجري الأول - كما عرفنا في الفصل السابق - بعد جهود مضنية ، بسبب مقاومة البربر العنيدة [(٣)] ، والتي كان من أهم أسبابها أن البربر لم يفهموا منذ البداية طبيعة الإسلام ومميزاته ، وما يحمله لهم من خير ، فكانت مقاومتهم للمسلمين في ضوء تجاربهم المريرة مع من تداول حكمهم خلال قرون ، من رومان ووندال وبيزنطيين ، وما عانوه من هذه الحكومات من ظلم واضطهاد ، ولكن بعد أن كثر احتكاكهم بالمسلمين ، وتعرفوا على طبيعة الإسلام وأهدافه ومبادئه تغيَّر الموقف تمامًا ، وتحول معظم البربر إلى الإسلام ، وحملوا رايته ودافعوا عنه ، وكان لهم في فتح الأندلس دور مشكور وبلاء حسن .

سكان المغرب عند الفتح الإسلامي وديانتهم :

من خلال المصادر التي تحدثت عن أصل وعناصر السكان في الشمال الإفريقي نستخلص أنهم كانوا يتألفون من ثلاثة عناصر رئيسية هي :

---

(١) د . شكري فصيل - المجتمعات الإسلامية (ص ٢١١) .

(٢) انظر الخريطة رقم (٤) من ملحق الخرائط .

(٣) أجمل الأستاذ محمد علي دبوز - في كتابه تاريخ المغرب الكبير (٢/١٠٧ - ١١٠) - الصعوبات التي لقيها المسلمون في فتح المغرب فذكر منها كره البربر للحكومات المركزية ، وعشقهم لحياة الحرية والاستقلال ، وكرههم للأجنبي أيًّا كان ، ونفورهم من أي شيء يأتيهم من الخارج ، ومنها الدعاية الكاذبة المسمومة التي كان يذيعها الروم بينهم لتنفيرهم من الإسلام والمسلمين ، ومنها أن المسلمين عندما طرقوا أبواب المغرب ، كان في مرحلة الشباب والقوة والفتوة ، ووجدوه واقفًا على قدميه ، مستعدًّا لبناء دولته المستقلة ، كما أن طبيعة البلاد ، ذات الجبال الشاهقة والطرق والمسالك الوعرة ساعدتهم على المقاومة وفوق هذا كله شجاعتهم وشدة شكيمتهم في الدفاع عن أرضهم . لكنهم بعد أن عرفوا الإسلام ومبادئه حق المعرفة وأدركوا ما يحمله لهم من الخير أقبلوا عليه وآمنوا به بحماس شديد ودافعوا عنه ببسالة .

أولًا البربر : وهم أهم هذه العناصر وأكثرها عددًا ويقول عنهم ابن خلدون : « هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى ... ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل إلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان » [١] وينقسم هؤلاء البربر إلى قسمين كبيرين : البربر الحضر الذي يسكنون النواحي الخصبة في الشمال على الساحل ، ومعظمهم من البرانس . والبربر الرحل الذين يعمرون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوبًا [٢] ، ومعظمهم من قبائل البتر .

ثانيًا الأفارقة : وهم - كما يرى الحسن بن الوزان - : إما من أصل فلسطيني ، لجؤوا إلى المغرب بعد أن طردهم الأشوريون من بلادهم ، وإما من أصل يمني ، أو من سكان بعض مناطق آسيا [٣] ، ولكن يبدو أن الأفارقة لم يكونوا ينتمون إلى أصل واحد ، وأن كلمة أفارقة تعني أخلاطًا من الناس « كانوا يسكنون النواحي الساحلية العامرة المحيطة بالمدائن البيزنطية ، والأجزاء المزروعة الأخرى ، الداخلة في الرباطات البيزنطية وهؤلاء خليط من المستعمرين اللاتين ، وبقايا الشعب القرطاجني القديم ، ومزارعي البيزنطيين وصناعهم ونفر من البربر ممن استقر ودخل في طاعة البيزنطيين » [٤] .

ثالثًا الروم : وهم الذين غلبوا على البلاد وحكموها ، وهاجروا إليها وسكنوها ، وكان منهم رجال الحكم والإدارة ، والتجار والصناع ، وعلى الجملة كانوا الطبقة المسيطرة في البلاد [٥] .

تلك هي أهم العناصر التي كان يتألف منها سكان المغرب عند الفتح الإسلامي .

الديانة :

كان القسم الأكبر من أهل الشمال الإفريقي - وبصفة خاصة في المناطق الداخلية بعيدًا عن الساحل - وثنيين [٦] . وقد دخلت المسيحية بلاد المغرب منذ القرون الأولى للميلاد ، عن طريق مصر وإيطاليا ، وقد لقيت قبولًا عند بعض السكان ، خصوصًا في المناطق الساحلية الشمالية ، وقد نشأت في البلاد الكنائس ،

---

(١) العبر (١٠٦/٦) .

(٢) د . حسين مؤنس - فتح العرب للمغرب (ص ٦) ، د . شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ١٨١) .

(٣) وصف إفريقيا (ص ٤٣) .

(٤) د . حسين مؤنس - المرجع السابق (ص ٥) .

(٥) د . شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص١٨٠) .

(٦) ابن خلدون - العبر (١٠٦/٦) وانظر أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ١٤٥) .

وكانت كنيسة قرطاجنة من أنشط الكنائس في العالم المسيحي . وقد أمدته بعدد كبير من رجال الدين والقديسين أمثال : القديس أوغسطين [١] . فما هو مصير المسيحية والمسيحيين وكنائسهم بعد الفتح الإسلامي للمغرب ؟ يقول أرنولد : « إن الكنيسة في المغرب قد تلاشت كما يتلاشى الضباب » [٢] فهل كان للفتح الإسلامي يد في ذلك ؟ يجيب في صراحة عن هذا فيقول : « تعود الباحثون أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالي تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين ، الذي أملته عليهم روح التعصب الديني ، وإكراههم على الدخول في الإسلام ، ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الرأي في هذه المسألة الشائكة : أولها عدم وجود الدليل البين الذي يؤيد مثل هذا الرأي ... وأن بقاء الكنيسة الوطنية بعد الفتح العربي ، أكثر من ثمانية قرون ، لشاهد على روح التسامح التي استطاعت وحدها أن تجعل هذا البقاء أمرًا ممكنًا . فمن اللازم أن نتلمس الأسباب التي مهدت السبيل إلى تدهور المسيحية في شمال إفريقيا في شيء آخر ، أكثر مما نتلمسها في تعصب الولاة المسلمين » [٣] .

ويلخص تلك الأسباب في ضعف تأثير المسيحية على الناس ، وعجزها عن التغلغل في الداخل بعيدًا عن الساحل ، وفي اضطهاد الوندال للكنيسة الإفريقية الأرثوذكسية - أثناء احتلالهم للشمال الإفريقي خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين - حيث شرَّدوا أساقفتها ، وحرَّموا على الناس الجهر بشعائر دينهم ، وقسوا في تعذيب من لم يدخل في مذهبهم الديني [٤] .

كما أن من أسباب تدهور المسيحية في شمال إفريقيا أن كنيستها لفَّتها دوامة الخلافات الدينية ، خصوصًا بعد أن دخلها المذهب اليعقوبي على يد رجال الدين الذين فروا إليها من مصر ؛ بسبب الاضطهاد البيزنطي في القرنين السادس والسابع [٥] ، ومما زاد الطين بلة محاولة هرقل فرض مذهبه الجديد - مذهب المشيئة الواحدة - على أهل شمال إفريقيا ، كما حاول ذلك في مصر ، فلقي معارضة شديدة من رجال الكنيسة ؛ فقوبلت المعارضة بالقسوة والاضطهاد كما حدث في مصر . كل هذه الأسباب بالإضافة إلى تعقيد الديانة المسيحية واستعصائها على أفهام

---

(١) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ١٤٣) . (٢) المرجع السابق (ص ١٤٣) .
(٣) المرجع السابق (ص ١٤٤) . (٤) نفسه (ص ١٤٦) .
(٥) د . حسين مؤنس - فتح العرب للمغرب (ص ٤٤) .

الناس - أدت إلى تدهور المسيحية وتناقص عدد المسيحيين في شمال إفريقيا قبل وصول المسلمين إليها [١] .

سرعة استجابة السكان إلى الإسلام :

على الرغم من المقاومة العنيدة التي لقيها المسلمون من أهل المغرب ومن طول أمد الفتح ، إلا أن الملاحظ أن الاستجابة إلى الإسلام ربما كانت أسرع وأوسع انتشارًا مما حدث في المشرق : في العراق والشام ومصر .

فمنذ غزو عمرو بن العاص لبرقة - أواخر عهد عمر بن الخطاب - نجد إقبالًا من السكان على اعتناق الإسلام فقد كتب إلى عمر : أنه ولَّى عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، وقد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه أمر عماله أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء ويردوها على الفقراء ، وأن يأخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ، ومن أهل الصلح صلحهم [٢] . فذكر الصدقة وأرض المسلمين ، يدل على وجود أعداد ليست قليلة اعتنقت الإسلام في هذا الوقت المبكر .

ويذكر ابن خلدون : أنه في عهد عثمان بن عفان وقع أحد ملوك البربر - وهو وزمار بن صقلاب ، وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة - في الأسر ، فأرسلوه إلى عثمان فأسلم على يديه ، وعقد له على قومه [٣] . ومن الممكن أن نفترض أن قوم وزمار هذا قد أسلموا - أو بعضهم على الأقل - بإسلامه ، على عادة الناس في متابعة زعمائهم في تلك البلاد يومئذ ، ومن المؤكد أن هؤلاء الذين أسلموا في ذلك الوقت المبكر قد حسن إسلامهم ، وظلوا متمسكين به رغم انشغال المسلمين عن الفتوحات في المغرب ، من أواخر خلافة عثمان حتى بداية خلافة معاوية ؛ لأننا نجد كثيرين من مسلمي البربر ينضمون إلى عقبة بن نافع يغزون معه ، عندما أسند إليه معاوية قيادة الفتح في المغرب [٤] . وقد ازداد عدد المسلمين زيادة ملحوظة في ولاية عقبة الأولى (٤٦ - ٥٥هـ) خصوصًا بعد بناء القيروان ، حيث دخل كثير من

---

(١) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (١٤٧) .

(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٢٦٥) .

(٣) العبر (١٠٨/٦) .

(٤) ابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٦٥/٣) .

البربر في الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين - على حد تعبير ابن الأثير [١] .

ويعلل الدكتور حسين مؤنس إقبال البربر على الإسلام في هذه المرحلة المبكرة بعدائهم للروم من ناحية ، وضعف تأثير المسيحية عليهم من ناحية ثانية فيقول : إننا نعرف أن القبائل التي كانت تسكن الناحية التي أقيمت فيها القيروان أو تحيط بها ، إنما هي لواتة ونفزاوة ونفوسة ، وأن هذه القبائل معدودة من قبائل البدو ، الذين لبثوا على عداء الروم زمنًا طويلًا ، ونعرف أن تأثير المسيحية في هذا الفريق من البربر كان ضعيفًا جدًّا ، فهل يكون ذلك مؤيدًا لرواية إسلامهم السريع ؟ » [٢] .

قد يكون هذا أو ذاك من الأسباب ، لكن من المؤكد - وقد عرفنا اعتزاز البربر بأنفسهم - أن هذه الأسباب وحدها لم تكن هي التي دفعتهم إلى اعتناق الإسلام ، إلا إذا كانوا قد اقتنعوا به دينًا يدعو إلى توحيد الله في بساطة وأنه حقق لهم المساواة بإخوانهم المسلمين الفاتحين ، فأقبلوا عليه ، وأخذت أعدادهم تزيد باطراد حتى أسلموا عن آخرهم في نهاية الأمر [٣] .

اضطردت خطى الإسلام في المغرب في ولاية أبي المهاجر دينار ، الذي حل محل عقبة بن نافع في المغرب (٥٥ - ٦٢هـ) والذي عرف طبيعة البربر فمال إلى سياسة الملاينة معهم والتقرب إليهم ، وقد نجحت هذه السياسة ، وآتت ثمارًا طيبة في مجال تقريب الإسلام إلى عقول وقلوب البربر فازداد إقبالهم عليه . وقد فتح أبو المهاجر المغرب الأوسط ، وتجلت سياسته بعد الفتح في جذب أبرز زعيم في المنطقة ، وهو كسيلة بن لمزم إلى الإسلام [٤] ، حيث أسلم بإسلامه كثير من قومه ، فإسلام كسيلة كان حدثًا عظيمًا دون شك ، ولا يقلل من أهميته ما حدث بين عقبة بن نافع في حملته الثانية وبين كسيلة والذي انتهى باستشهاد عقبة في حادثة تهوذة ، ولم يكتف أبو المهاجر بإسلام كسيلة ومن تبعه من قومه ؛ وإنما عمل على توطيد أقدام الإسلام في المغرب كله ، فكان كلما فتح مدينة يقيم فيها ويبني المساجد ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، فعل ذلك في ميلة وفي تلمسان وفي غيرها ، وكان يعمل على تحقيق الامتزاج بين العرب والبربر ، ليحدث أثره في اقتباس البربر الدين واللغة من

---

(١) المصدر السابق (٤٦٦/٣) .
(٢) فتح العرب للمغرب (ص ٢٨٤) .
(٣) انظر ابن خلدون - العبر (١١٠/٦) .
(٤) ابن عذاري - البيان المغرب (٢٨/١ ، ٢٩) .

العرب [١] . وقد أثمرت جهود أبي المهاجر في مجال نشر الإسلام ، ووضحت آثارها بعده بثلاثين سنة تقريبًا ؛ حيث نجد رجالًا من البربر مسلمين ، على ثقة وتمكن من دينهم يسيرون مع العرب جنبًا إلى جنب لفتح البلاد ورفع راية الإسلام ، « وهذا هو ما يفسر ظهور رجل كطارق بن زياد عربي الاسم عربي الأب في سنة (٩١هـ) ، وإنما ضربنا المثل بطارق ؛ لكي نؤكد أن حركة الاختلاط بين العرب والبربر بالزواج والإسلام كانت تسير جنبًا إلى جنب مع الفتوح » [٢] .

وبينما أبو المهاجر دينار يواصل فتوحاته في المغرب ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويحقق النجاح تلو النجاح ، إذا بالخليفة يزيد بن معاوية يعزله ، ويرد عقبة بن نافع ثانية إلى المغرب . وقد قام عقبة في هذه المرحلة بحملته السريعة التي وصل فيها إلى شواطئ المحيط ، وفي هذه المرحلة أسلم على يديه خلق كثير من البربر ، منهم المصامدة الذين ترك فيهم عقبة بعض أصحابه يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام منهم شاكر صاحب الرباط وغيره [٣] . وقد ظهرت آثار جهود عقبة ومن سبقوه في نشر الإسلام وتوطيد أقدامه في المغرب في حادثة تهوذة التي استشهد هو فيها . فعلى الرغم من مرارة هذه المأساة ، إلا أنها كشفت عن رسوخ أقدام الإسلام في البلاد وسعة انتشاره يقول ابن الأثير : إنه بعد مقتل عقبة ومن معه ، وقع جماعة منهم في الأسر ، منهم : « محمد بن أوس الأنصاري في نفر يسير ، فخلصهم صاحب قفصة [٤] وبعث بهم إلى القيروان » [٥] . فمن هو صاحب قفصة الذي خلص المسلمين من أسر كسيلة وبعث بهم إلى القيروان ؟ ألا يحق لنا أن نفترض أنه كان مسلمًا وأن كثيرًا من أهل مدينته كانوا مسلمين حتى اندفع يخلص أسرى المسلمين ويبعث بهم إلى القيروان [٦] . ثم إن كسيلة بعد سيطرته على المغرب ، عقب استشهاد عقبة وانسحاب المسلمين من القيروان إلى برقة - أعطى المسلمين الأمان [٧] . فهل كان ذلك رحمة بالمسلمين ، وهو الذي ارتد وقضى على عقبة وأصحابه ؟ أم أنه يجوز لنا

(١) محمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (٥٦/٢) .
(٢) د . حسين مؤنس - فتح العرب للمغرب (ص ٢٨٦) .
(٣) ابن عذاري - البيان المغرب (٤٢/١) .
(٤) بلدة صغيرة في طرف إفريقية ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . ياقوت - معجم البلدان (٤/ ٣٨٢) .
(٥) الكامل في التاريخ (١٠٨/٤) .
(٦) د . شكري فيصل - المجتمعات الإسلامية (ص ١٧٨) .
(٧) ابن الأثير - المصدر السابق (١٠٨/٤) .

أن نفترض أن أكثر هؤلاء المسلمين - الذين أعطاهم الأمان - كانوا من البربر وأنه فعل ذلك معهم ليتقرب إليهم وإلى قبائلهم ؟

حسان بن النعمان وموسى بن نصير ونشر الإسلام في المغرب :

نجح حسان بن النعمان في القضاء على النفوذ البيزنطي في المغرب كله ودمر عاصمتهم قرطاجنة ، كما مكنه انتصاره الساحق على الكاهنة ، من بسط سلطان الإسلام على معظم المغرب ، ولم يكن حسان فاتحًا فحسب ؛ وإنما كان هدفه الأكبر نشر الإسلام وتمكينه من قلوب الناس بالدعوة الصادقة والقدوة الحسنة ، وكان حريصًا على تحقيق هذا الهدف ؛ فعندما انتصر على الكاهنة حذا حذو أبي المهاجر بعد انتصاره على كسيلة الأربي في تلمسان ، فقد أحسن إلى أولادها وأهلها ، وعهد إلى ابنها الأكبر بولاية قومه من جراوة وعلى جبال أوراس [١] . ونتيجة لهذه السياسة الحسنة أسلم على يدي حسان اثنا عشر ألفًا من البربر - قوم الكاهنة - دفعة واحدة « فعقد لولدي الكاهنة - الآخرين - لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر » [٢] . ولم ينصرف حسان إلى القيروان إلا بعد أن كان الإسلام قد فشا بين البربر وحسنت طاعتهم [٣] بحسن سياسته ، فقد عرف كيف يملك قلوبهم بحكمته ؛ حيث أشعرهم أن دولة الإسلام في المغرب دولتهم ، حينما أشرك أبناء الكاهنة وغيرهم من الزعماء في القيادة وإدارة البلاد ، وساوى في الأعطيات والغنائم بين العرب والبربر . وضرب بذلك المثل العملي على المساواة التي يحققها الإسلام لأبنائه مهما اختلفت أجناسهم .

أما موسى بن نصير ، الذي أتم فتح المغرب كله ، فقد ركز اهتمامه على نشر الإسلام بين البربر ؛ فعندما عين مولاه طارق بن زياد على طنجة ، ترك معه سبعة عشر ألفًا من العرب ، واثني عشر ألفًا من البربر ، كلهم مسلمون وأمر العرب أن يعلموهم القرآن ويفقهوهم في الدين [٤] ، كما ترك بين قبائل المصامدة « سبعة عشر رجلًا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام ، وكان عقبة بن نافع قد ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن » [٥] . فهذا الربط من ابن عذاري بين عمل موسى

(١) محمد علي دبوز - تاريخ المغرب الكبير (١٠٢/٢) ، نقلًا عن الاستقصاء للسلاوي (٨٣/١) .
(٢) ابن عذاري - البيان المغرب (٣٨/١) . (٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٤) ابن عذاري - المصدر السابق (٤٢/١) . (٥) المصدر السابق نفس الصفحة .

ابن نصير وعمل عقبة بن نافع قبله - وبينهما ربع قرن تقريبًا - يدل على اتصال الجهود لنشر الإسلام بين البربر، وتعليمهم القرآن وأمور الدين . وعلى يدي موسى ابن نصير « تم إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات » (١) .

ويذهب الدكتور حسين مؤنس إلى أن هؤلاء الذين أسلموا على يد موسى هم من بربر الحضر، الذين يسكنون المدن التي فيها كنائس يمكن تحويلها إلى القبلة وإقامة المنابر فيها، وعلى هذا تكون رواية ابن عذاري على جانب عظيم من الأهمية ؛ لأنها تدل على أن طائفة من البربر الحضر الذين كانوا متأثرين بالحضارة اللاتينية واعتنق النصرانية منهم نفر - بدأت تقبل الإسلام، وأن إسلامها كان صحيحًا بحيث اقتضى إقامة المساجد عندهم (٢) . ومن المهم هنا أن نعيد إلى الأذهان أن هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام وحولوا دور عبادتهم إلى مساجد، سواء كانوا بربرًا أو رومًا - قد تحولوا إليه بمحض إرادتهم واختيارهم، ولم يمارس عليهم أي ضغط لإكراههم على اعتناق الإسلام (٣) ؛ وإنما أقبلوا عليه لنفس العوامل والأسباب التي تحدثنا عنها في صدر هذا الفصل ولا نريد أن نكررها هنا، وأن دور المسلمين هنا - كما كان دورهم في مصر وغيرها - في مجال نشر الإسلام بين البربر هو دور الدعوة والقدوة والتعليم . وكان الخلفاء الأمويون من وراء هذا كله يشجعون، ويبعثون الدعاة، ويختارون أكفأ وأصلح الولاة (٤) ؛ لتحقيق هدفهم النبيل وهو نشر الإسلام .

عمر بن عبد العزيز ونشر الإسلام في المغرب :

هذه الجهود المتلاحقة التي بذلها الولاة لنشر الإسلام في المغرب حققت دفعة هائلة في عهد عمر بن عبد العزيز الذي جعل هدفه الأول نشر الإسلام في البلاد المفتوحة، واعتبر هذا مسؤوليته الأولى ؛ فكتب إلى ملوك وأمراء هذه البلاد يدعوهم إلى الإسلام في رقة ولين، وعدل عن إرسال الجيوش إلى إرسال الدعاة، وقد خص المغرب بأكبر قدر من اهتمامه واختار لولايته رجلًا من أصلح وأتقى وأعلم الرجال، كان يراقبه منذ زمن بعيد (٥) ؛ فلما اطمأن إليه ولاه المغرب، وعهد إليه بنشر الدعوة

---

(١) المصدر السابق (٤٣/١) .
(٢) فتح العرب للمغرب (ص ٢٨٧ ، ٢٨٨) .
(٣) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ١٤٤) .
(٤) ابن عذاري - البيان المغرب (٤٧/١) .
(٥) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (ص ٢٣) .

وأرسل معه عددًا من التابعين ليعاونوه في مهمته [١] ، هذا الرجل هو إسماعيل ابن أبي المهاجر الذي كان خير أمير وخير وال ، على حد تعبير ابن عذاري : « وما زال حريصًا على دعاء البربر إلى الإسلام ، حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه ، وبعث معه عمر ﷺ عشرة من التابعين أهل علم وفضل ، منهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي ، وسعيد بن مسعود التجيبي وغيرهما » [٢] .

ولنا أن نتصور الأثر العظيم الذي يحدثه وصول عشرة من علماء التابعين إلى المغرب في تعليم البربر أمور الدين ، وقد وضع هؤلاء العلماء نواة التعليم المنظم في المساجد ، وبصفة خاصة في القيروان التي أقام فيها معظمهم [٣] . وكان الناس يفدون عليهم من أنحاء البلاد لتلقي العلم والتفقه في الدين ، وقد بنى هؤلاء التابعون عدة مساجد منها : مسجد الرباطي ، الذي بناه عبد الرحمن بن عبد اللّٰه بن يزيد المعافري الإفريقي ، وجامع الزيتونة الذي بناه إسماعيل بن عبيد الأنصاري والمعروف بتاجر اللّٰه [٤] . وقد تلقى العلم عن هؤلاء الشيوخ عدد طيب من أهل إفريقية [٥] .

لقد واتت الظروف في عهد عمر بن عبد العزيز إلى ترسيخ أقدام الإسلام في الشمال الإفريقي كله لاهتمامه الشخصي بنشر الإسلام ، كما أن الأندلس قد فتحت وشارك البربر المسلمون بجهود عظيمة في فتحها ، وكان لذلك أعظم الأثر في تمكين الإسلام في قلوبهم ، ففوق ما حقق هذا الفتح من فوائد دينية وروحية ؛ فقد غنم منه المسلمون مغانم كثيرة ، وأصاب البربر نصيبهم منها على المساواة الكاملة بالعرب ، فحفز ذلك من لم يكن قد اعتنق الإسلام من البربر على اعتناقه بعدما رأوا إخوانهم الذين أسلموا قد رفع الإسلام من شأنهم وساواهم بالعرب ، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ، فقرروا اللحاق بهم ؛ لينعموا بما نعموا به . كما كان لفتح الأندلس أثر عظيم آخر في ترسيخ دعائم الإسلام ومبادئه في المغرب فقد اقتضى هذا الفتح إيفاد كثيرين من عرب المشرق من الشام والحجاز ، وكان هؤلاء من أعرق القبائل وأعلمها بالدين واللغة العربية ، فكانوا وهم في طريقهم إلى الأندلس يمرون بالمغرب

---

(١) المالكي - رياض النفوس (٦٤/١) وما بعدها .

(٢) انظر : أبو العرب القيرواني - طبقات علماء إفريقية وتونس (ص ٨٤) وما بعدها ، وابن عذاري - البيان المغرب (٤٨/١) .

(٣) المالكي - المصدر السابق (٦٤/١) وما بعدها ، فقد ترجم للعشرة الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى المغرب وذكر أخبارهم وسني وفاتهم ، والقيرواني - المصدر السابق (ص ٨٤) وما بعدها .

(٤) المالكي - المصدر السابق (٧٠/١) .

(٥) المصدر السابق (٦٩/١) .

ويختلطون بالبربر ، بل كان كثيرون منهم يتخلفون فيه ، وكانت تحدث بينهم وبين البربر مصاهرات ، ومن ثم أتيح للأخيرين فرص كثيرة للاستزادة من معرفة أصول الإسلام وأحكامه ، واللغة العربية وآدابها . وقد استمرت حركة ازدهار الإسلام في المغرب بعد عهد عمر بن عبد العزيز ؛ فقد أصبح البربر أنفسهم من المدافعين عنه بحماس ، بعدما أدركوا ما تحقق لهم من خير في رحابه ، وقد عرفوا حقوقهم التي كسبوها بإسلامهم ، فلم يدعوا فرصة لأحد من الولاة ليعبث بها ، فالوالي الذي كان يسيء السيرة فيهم كانوا يعزلونه ، ويولون من يرونه أصلح لهم دون أن يخلعوا طاعة الخلفاء وكان الخلفاء يستجيبون لهم » (١) .

وخلاصة القول أن خطى الإسلام قد انتظمت في المغرب منذ مطلع الفتوحات واضطردت مسيرته ، وكان في كل يوم يكسب أرضًا جديدة حتى عم الإقليم كله وفاض على ما حوله (٢) . واكتملت للمغرب كل الأسباب وتهيأت كل الفرص من تشجيع الخلفاء وجهود الولاة والدعاة ؛ ليصبح بلادًا عربية إسلامية خالصة ، يحكمها عامل لخليفة المسلمين ، واختفى المغرب القديم بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضارته الواهنة ، وحل محله المغرب الإسلامي .

وبدأ هذا القطر الكبير يأخذ طريقه ليقوم بدوره المجيد في تاريخ الإسلام والحضارة العالمية ، وكان فاتحوه من العرب قد مهدوا له الطريق لذلك ، فمهدوا له الساحل وأنشؤوا عليه تونس : الميناء الإسلامي الجديد ، الذي أطل منه أهل المغرب على البحر الأبيض ليلعبوا دورهم الخطير فيه ، وفتحوا له أبواب أسبانيا ، فانبسط أمام أهله ميدان جديد للفتح والعمل والحياة ، وكان المغرب القرطاجني والرومي لا يعدو الساحل ، فشمل المغرب الإسلامي شمال إفريقيا كله ... فبدأت الحياة تتنفس في هذه النواحي التي ظلت حتى ذلك الوقت شيئًا مهملًا في حساب الحضارة والتاريخ وبدأت في ظل الإسلام تأخذ سبيلها إلى الحياة العقلية والسياسية ، وتساهم بنصيب مشكور في بناء صرح الحضارة البشرية (٣) .

---

(١) عندما أساء يزيد بن أبي مسلم – والي يزيد بن عبد الملك على المغرب – السيرة وظلم وجار ، قتلوه ، وولوا غيره فأقرهم الخليفة على ذلك وقد أشرنا إلى القصة كاملة في ترجمة يزيد بن عبد الملك .
(٢) د. شكري فيصل – المجتمعات الإسلامية (ص ١٨٠) .
(٣) د . حسين مؤنس – المرجع السابق (ص ٢٩٩) .

انتشار الإسلام في الأندلس

ذكرنا من قبل أن المسيحية الكاثوليكية كانت هي السائدة في الأندلس عند الفتح الإسلامي ، كما كانت هناك جالية يهودية كبيرة بالإضافة إلى بعض الوثنيين ، فلما أتم المسلمون فتح البلاد ، بدأ قطاع كبير من الشعب في التحول إلى الإسلام ، وكان أول من تحول إلى الإسلام طبقة الرقيق الذين كانوا قد وصلوا إلى الحضيض في السلم الاجتماعي ، وكانوا يعانون الظلم والقهر من طبقة الحكام ورجال الدين ، فوجدوا في الإسلام مخلِّصًا لهم من هذا الظلم ؛ فأقبلوا عليه فرفع من شأنهم [١] ، وعاشوا في ظله حياة عزيزة كريمة . ولم تكن طبقة الأرقاء وحدها هي التي أقبلت على الإسلام واعتنقته ؛ بل اعتنقه عدد كبير من الذين كانوا لا يزالون على الوثنية . وكثيرون من أشراف المسيحيين [٢] .. يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا والوسطى الذين تدينوا بالإسلام عن إيمان ثابت متحولين إليه من ديانتهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها ، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا ؛ فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم ، وبعد أن تحول هؤلاء الأسبان إلى الإسلام ظهروا بمظهر الغير لدينهم الجديد » [٣] .

بل إن بعض رجال الدين المسيحي تحولوا إلى الإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك يتودسكلوس (Thiodisclus) الذي كان رئيس أساقفة إشبيلية فلجأ إلى العرب ، ودان بالإسلام بين ظهرانيهم [٤] . حدث كل هذا في السنوات الأولى التي أعقبت الفتح ، فما الذي جعل الأسبان من كل الطبقات يقبلون على الإسلام بهذا الشكل الذي يتحدث عنه المؤرخون الأوربيون في صراحة ؟ هل كان ذلك عن إكراه لهم من جانب المسلمين لحملهم على اعتناق الإسلام ؟ إننا ندع واحدًا من هؤلاء المؤرخين يجيب عن هذا السؤال حيث يقول : « أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام ، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد ، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئًا ، وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية ، كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد » [٥] . وإذا انتفى عنصر الإكراه من جانب المسلمين على هذا النحو الذي يؤكده هذا

---

(١) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ١٥٥) . (٢ ، ٣) المرجع السابق (ص ١٥٥) .
(٤ ، ٥) المرجع السابق (ص ١٥٧) .

الباحث المسيحي ؛ فيكون إقبال من أقبل من الأسبان على الإسلام قد تم عن رضًا واقتناع لما روأه في الإسلام من البساطة والبعد عن التعقيد والكهنوت الذي أحال ديانتهم المسيحية إلى طلاسم تحار في فهمها العقول ، ولمساواته لهم بالفاتحين المسلمين في الحقوق والواجبات .

كما أن سياسة التسامح التي التزم بها المسلمون نحو رعاياهم من الإسبان سواء كانوا مسحيين أو غير مسيحيين - كان لها أكبر الأثر في انتشار الإسلام في أسبانيا ، فقد كانت جميع الأديان في ظل الحكم الإسلامي لها حق الممارسة المطلقة في عباداتها [١] . وهناك أمر آخر كان له أثر كبير في انتشار الإسلام وهو اختلاط العرب المسلمين بأهل البلاد ومصاهرتهم ، فمن المعروف أن الإسلام يبيح للمسلمين التزوج بالكتابيات : مسيحيات أو يهوديات ، وقد أقبل المسلمون على الزواج من بنات القوط المسيحيات منذ بداية الفتح ، وكان من أوائل من أقبلوا على هذا الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ فقد تزوج من أرملة روذريق - ملك القوط الذي قتل في معركة شذونة - وقيل : ابنته [٢] ، وحذا حذوه كثيرون من العرب ، ونتج عن هذه المصاهرات جيل جديد عرف باسم « المولدين » وقد نشأ هؤلاء مسلمين بطبيعة الحال ، وسرعان ما تزايد عددهم وأصبحوا يشكلون أغلبية السكان ، كما أصبحت لهم أهمية كبيرة في الدولة [٣] . وعملية الاختلاط والمصاهرة هذه أدت إلى التشابه في العادات والتقاليد بين العرب والأسبان ، حتى من ظل منهم على دينه المسيحي ، وظهر أثر المسلمين واضحًا على أهل البلاد في مجالات كثيرة ؛ فقد كان بعض المسيحيين يتخذ لنفسه أكثر من زوجة - تقليدًا للمسلمين - على الرغم من تحريم الكنيسة لذلك العمل .

وخلاصة القول فإن الإسلام واللغة العربية بدءا في الانتشار في أسبانيا منذ الأيام الأولى بعد الفتح ، وأخذت بالتدريج تصبح بلدًا عربيًا إسلاميًا في هدوء وسلام وحرية تامة بعيدًا عن أي تعصب ، فلم يستغل المسلمون انتصارهم العسكري الحاسم على القوط لاستئصال الدين المسيحي من البلاد ، كما صنع فرديناند وإزابيلا بالمسلمين بعد ذلك بثمانية قرون . يقول أرنولد : « أدخل العرب الظافرون الإسلام

(١) جاك ريسلر - الحضارة العربية (ص ١٥٤) .
(٢) انظر ابن عبد الحكم - فتوح مصر (ص ١٤٢) وابن عذاري - البيان المغرب (٢٣/٢ ، ٢٤) .
(٣) جاك ريسلر - المرجع السابق (ص ١٥٤) .

في أسبانيا سنة (٧١١م) ، وفي سنة (١٥٠٢م) أصدر فرديناند وإزابيلا مرسومًا يقضي بإلغاء شعائر الدين الإسلامي في جميع أنحاء البلاد ، ولقد كتبت أسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوربا العصور الوسطى ، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس إلى الممالك الأوربية الأخرى ، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة ، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة » [١] .

انتشار الإسلام في الشام

كان أغلب سكان الشام عند الفتح الإسلامي من العرب الذين هاجروا إليه من الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون عديدة إلى جانب أقليات من الروم المستعمرين والأرمن واليهود والجراجمة ، وهذه الكثرة الكثيرة من العرب الذين كانوا يقطنون الشام ، وكانت لهم فيه دول وإمارات [٢] - دفعت بعض المؤرخين إلى الظن بأنها مهدت الطريق للفتح الإسلامي ، بل وأعانت عليه ، بل بالغ هذا البعض فقال : « إن الفتح كان حركة قومية ، وإن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الإسلامي » [٣] ولكن الواقع التاريخي وحوادث الفتح بل وما سبق الفتح من أحداث ، لا يؤيد هذا الرأي بل ينقضه تمامًا ، فالمسلمون منذ حياة الرسول ﷺ كانوا يواجهون عدوان الروم والعرب معًا ، كما حدث في غزوة مؤتة سنة (٨هـ) وغزوة تبوك سنة (٩هـ) ، وظل موقف عرب الشام على العداء للرسول طوال حياته ، ففي عام الوفود - بعد تبوك - وجدنا معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية ترسل وفودها معلنة إسلامها وبيعتها بين يدي رسول الله ﷺ في المدينة ولم نجد ذكرًا لوفد واحد أتى من الشام [٤] . فإذا تجاوزنا عهد الرسول ﷺ إلى عهد أبي بكر وبداية الفتوحات وما تلا ذلك ، وجدنا إصرارًا من عرب الشام على المقاومة العنيفة والوقوف مع البيزنطيين ضد العرب المسلمين ، فالذين يذهبون إلى غير هذا ، ويعولون على مساعدات عرب الشام

(١) الدعوة إلى الإسلام (ص ١٥٤) .
(٢) د . إبراهيم العدوي - الأمويون والبيزنطيون (ص ٨ ، ٩) .
(٣) فيليب حتى - نقلًا عن الدكتور شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ٤٥) .
(٤) انظر سنة الوفود وقوائمها في ابن هشام (٢٢١/٤) وما بعدها والطبري - تاريخ (١١٥/٣) وما بعدها .

للمسلمين الفاتحين - يريدون أن يقللوا من جهود المسلمين التي بذلوها في هذا الفتح الذي استرخصوا في سبيله الحياة ذاتها ، بل إن الموت في سبيل الله دفاعًا عن دينه كان أحب إليهم من الحياة . ولكن ما الذي جعل عرب الشام ينضمون للروم ويقفون هذا الموقف المعادي لأبناء عمهم الفاتحين القادمين من الجزيرة العربية ؟

لعل أهم أسباب ذلك خوفهم أن يزاحمهم المسلمون في بلادهم ويقاسموهم نفوذهم ومعيشتهم ، ولكن هذا الموقف لم يدم طويلًا فقد حدث التغيير بعد ظفر المسلمين ، وهزيمتهم للروم وطردهم من البلاد ، عندئذ استيقظت صلة القربى التي تربط العرب القاطنين بالعرب الفاتحين ، بل إن عرب الشام وجدوا أنفسهم في حاجة إلى الاعتداد بهذه القرابة ، التي مكنت لها وحدة اللغة ، والتفتت القبائل العربية في الشام ، فوجدت أن الأصداء التي كانت تنبعث من مراكز الحكم يونانية ، والأصداء التي كانت تستجيب لها آرامية ، أضحت عربية مبينة صوتًا ومقالًا ، فلم لا تكون هذه القبائل الفراغ الذي تتردد فيه ، والصدى الذي تتجاوب معه ؟ أليس في ذلك ما يرفع شأنها ويعلي مكانها ، ويتيح أن يكون لها في ميزان الدولة نصيب » [1] .

ثم إن عرب الشام وجدوا أن المخاوف التي ساورتهم من أن يزحزحهم أبناء عمومتهم القادمون من الجزيرة العربية عن سلطانهم ، وأن يقاسموهم أرزاقهم ، ويستولوا على ممتلكاتهم ، وجدوا أن هذه المخاوف لم يكن لها ما يبررها ، بعد أن رأوا المعاهدات التي أعطيت لكل المدن في الشام تنص على احترام الأموال ، إلى جانب احترام الأنفس والأديان ، فمن يسلم من هؤلاء العرب ومن غيرهم ؛ فلن تمس أمواله بل يصبح مسلمًا له كل حقوق المسلمين وعليه كل واجباتهم دون تمييز ، ومن يبقى على دينه فعليه الجزية ، ولا شيء فوق ذلك . ثم رأوا أن أبواب العمل والاشتراك في الإدارة مفتوحة أمامهم ، سواء من أسلم منهم أو من بقي على دينه ، وقد سبقت الإشارة إلى اشتراك كثير من المسيحيين في الإدارة ، بل في بعض الأعمال ذات الأهمية الكبرى ، رأوا كل ذلك فاطمأنوا وتغير موقفهم ؛ فقد انتهت المعارك وانقشع غبارها ، ووضحت نتائجها وزالت مفاجآتها ، وزال معها سلطان الروم ، وبقي العرب القاطنون وجهًا لوجه مع العرب الفاتحين ، فاستيقظت صلة القربى ، وبدأ التفاهم وأدى إلى التضامن بل إلى مشاركة عرب الشام عرب الجزيرة في عقيدتهم

(١) د . شكري فيصل - المجتمعات الإسلامية (ص ٦٦) .

ومثلهم وتطلعاتهم .

وشاءت الأقدار أن يصبح الشام حاضرة العالم الإسلامي في العصر الأموي (٤١هـ - ١٣٢هـ) ودمشق عاصمة الخلافة ، ومركز الحكم والسلطان والإدارة ما يقرب من قرن من الزمان .

سارت الدعوة الإسلامية ، وبدأ الإسلام في الانتشار في الشام بخطى حثيثة ، وأسرعت القبائل العربية - والتي كانت قد اعتنقت المسيحية منذ قرون عديدة - إلى ترك هذه الديانة ، والإيمان بالدين الجديد ، مثل قبيلة الغساسنة - أكبر القبائل العربية في الشام - والتي كانت تبسط نفوذها على شرق الأردن وجنوب سوريا ، حتى قيل عنهم : « أرباب في الجاهلية نجوم في الإسلام » [١] . كما أسلمت قبائل لخم وجذام وكلب وغيرها ، عن اختيار وإرادة حرة ، وأكبر دليل على ذلك أن فريقًا من هذه القبائل بقي على مسيحيته ودفع الجزية ، ومن الظواهر الواضحة في الشام حتى الآن أننا نجد في سوريا والأردن وفلسطين قبائل بعضها مسلمون وبعضها مسيحيون ، ومنها قبيلة غسان نفسها [٢] ؛ وهذا أقوى دليل على تسامح الإسلام وعلى عدم إكراه أحد على اعتناقه . ولم يقتصر اعتناق الإسلام على القبائل العربية بل إن كثيرًا من المسيحيين غير العرب تحولوا إلى الإسلام الذي لفت نظرهم ما فيه من سماحة وبساطة إلى ما كانوا عليه من ضلال ، وما حل بديانتهم من خلل وفساد ، بعد أن كانت توحيدية خالصة ، فحولتها الخلافات بين الفرق الدينية المتناحرة من نساطرة ويعاقبة وغيرهم إلى طلاسم وألغاز استعصت على أفهام الناس ، وبعثت فيهم الملل والضجر ، وملأت نفوسهم حيرة وقنوطًا . يقول أرنولد : « فكم من أناس لا بد أن يكون هذا الجدل المستمر قد زعزع أسس عقيدتهم ! وكم كان يكون غريبًا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا - وهم في ضجرهم وحيرتهم - ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي عند حد ولا تعرف اللين والتسامح ، في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة ، حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ﷺ ونبوته » [٣] . ثم يقول : « وشبيه بهذا ما يراه كايتاني من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوات المسيحي ... لأنها أحالت تعاليم المسيح [عليه السلام]

(١) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٦٥) . (٢) المرجع السابق (ص ٧٠) .
(٣) المرجع السابق (ص ٨٩) .

البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس ، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها ، فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء ؛ لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية واستولى على رجالها اليأس والقنوط من هذه الريب ، لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة واحدة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل ، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب » [(١)] .

هذا الفساد الذي أدخله رجال الدين المسيحي على المسيحية جعل الناس في الواقع لا يعبدون اللَّه الواحد الأحد - كما جاءت بذلك الديانة في أصلها وجوهرها - وإنما صيَّرهم مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين .. فأزال الإسلام هذا الفساد وتلك الخرافات ، وكان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة ، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبنة ، باعتبارها رأس التقوى . ولقد بيَّن أصول الدين التي تقوم على وحدانية اللَّه وعظمته ، كما بيَّن أن اللَّه رحيم عادل ، يدعو الناس إلى الامتثال لأمره ، والإيمان به وتفويض الأمر إليه .. ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني ، والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين ، وأحل الشجاعة محل الرهبنة ، ومنح العبد رجاء ، والإنسانية إخاء ، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية [(٢)] .

فليس غريبًا إذن أن يتحول غالبية عرب الشام وكثيرون غيرهم إلى الإسلام ، ذلك الدين العالمي الخالد وخاتم الأديان كلها ، وكان من الطبيعي أن يكون حجم انتشار الإسلام في الشام كبيرًا ؛ لقربه من الحجاز مهبط الرسالة ، ووفود كثير من أعلام الصحابة إليه في الفتوحات وبعدها وإقامتهم فيه ، بالإضافة إلى جيوش الفتح نفسها التي بقيت في الشام ، فقد كان لهؤلاء جميعًا أعظم الأثر في نشر الإسلام في الشام سواء بشرح تعاليمه أو بالقدوة الحسنة والسلوك الإسلامي الرفيع ، كما كان الخلفاء يرسلون وفودًا من علماء الصحابة لتعليم الناس أمور دينهم ؛ فقد كتب يزيد ابن أبي سفيان لعمر بن الخطاب : « قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن

(١ ، ٢) المرجع السابق (ص ٩٠) .

ويثقفهم ، فأرسل معاذًا وعبادة وأبا الدرداء .. وقد تفرق هؤلاء الثلاثة في بلاد الشام يعلمون أهلها ، فنزل عبادة حمص ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ، ومعاذ إلى فلسطين » (١) .

ولما قامت الدولة الأموية سنة (٤١هـ) واتخذ مؤسسها معاوية بن أبي سفيان من دمشق عاصمة لها - اتسع نطاق الإسلام بين القبائل العربية فيها وأصبحت الشام مركز الدولة الإسلامية ، بل الركن المكين الذي كان يعتمد عليه الأمويون كلما حزبهم أمر ، أو هبت في وجههم ثورة ، وهذا يدل على أن الشام في العهد الأموي قد أصبح قطرًا عربيًّا إسلاميًّا خالصًا ، تعيش فيه بعض الأقليات المسيحية واليهودية في حرية وأمان ، وأصبح منطلقًا للدعوة الإسلامية يخرج منه الدعاة لنشر الإسلام في أطراف الدولة .

انتشار الإسلام في العراق

العراق بلد من بلدان الحضارات القديمة ، تعاقبت على حكمه أمم كثيرة ، فالبابليون والأشوريون والكلدانيون والسومريون والفرس ، كل هؤلاء أنشؤوا في العراق ممالك تختلف صبغتها ، وكانت حضارتهم منارًا يلقي أشعته على ما حوله من بلدان (٢) ، وقد نزل العراق كثير من القبائل العربية ، خصوصًا من قبائل بكر بن وائل وربيعة ، ثم قامت فيه إمارة العرب المناذرة التي كانت عاصمتها مدينة الحيرة ، وكان الفرس هم الذين أقاموا هذه الإمارة على حدودهم مع شبه الجزيرة العربية والشام ؛ لتقوم بصد غارات البدو عن حدود الدولة الفارسية ، ولتكون خط الدفاع الأول ضد أعدائها البيزنطيين وحلفائهم الغساسنة في الشام ، ولكن قبيل ظهور الإسلام سنة (٦٠٢م) أسقط الفرس هذه الإمارة العربية ، وحكموا العراق حكمًا مباشرًا (٣) . ولكن العرب القاطنين ظلوا يعيشون في العراق ، فكيف كان موقفهم من الفتح الإسلامي للعراق ؟ وكيف تطور هذا الموقف بعد إتمام الفتح ؟ وماذا كان موقفهم من الإسلام ؟ إن الوقائع التاريخية تشير إلى أن موقف عرب العراق قد اختلف عن موقف عرب الشام من الفتح الإسلامي اختلافًا يسيرًا ، فبينما كان موقف

(١) أحمد أمين - فجر الإسلام (ص ١٨٨ ، ١٨٩) .
(٢) أحمد أمين - فجر الإسلام (ص ١٧٩) .
(٣) ثابت إسماعيل الراوي - العراق في العصر الأموي (ص ٨) .

عرب الشام موقف عداء ومقاومة صريحة للفتح ، وتضامن كامل مع البيزنطيين ؛ فقد تردد موقف عرب العراق بين العداء والمقاومة وبين الترحيب والتعاون ، وإن كانت المواقف العدائية أظهر . وقد قسم الأستاذ ثابت الراوي أهل العراق في موقفهم من الفتح الإسلامي إلى ثلاث فئات [١] :

الفئة الأولى : وهم القبائل النصرانية كبكر بن وائل ، وهذه الفئة ساعدت الفرس على العرب .

الفئة الثانية : وهم أكثر سكان السواد من العرب والنبط ، وهؤلاء رحبوا بالعرب الفاتحين ولم يقاوموهم .

الفئة الثالثة : كانت محايدة ، وهؤلاء هم عرب الحيرة .

وهذا التقسيم في الواقع غير دقيق ولا يعكس الواقع التاريخي ؛ فإن عرب الحيرة لم يكونوا محايدين تمامًا ، فقد ساعدوا الفرس في بعض معاركهم ضد المسلمين كما يعترف بذلك الأستاذ ثابت الراوي نفسه [٢] . ومن يرجع إلى المصادر التي فصّلت أحداث الفتح - كالطبري [٣] - يرى أنه ما من معركة مع الفرس في العراق إلا وكان للعرب مشاركة فيها ضد المسلمين ، مثل معارك الليس والمصيخ والولجة والأنبار . ومع ذلك فقد ظهر من بعض عرب العراق ميل إلى العرب المسلمين ، بل قاتلوا معهم في معركة البويب ، حيث انضم بعض تغلب والنمر إلى المثنى بن حارثة ، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم : نقاتل مع قومنا [٤] . ولكن هذه المواقف كانت محدودة ، ولا تعكس اتجاهًا عامًّا نرى فيه مساعدة كبيرة قدمها العرب القاطنون إلى العرب الفاتحين ؛ والدليل على ذلك ما كان من حركات الارتداد الكثيرة ونقض عهود الصلح والأمان من جانب عرب العراق ، « لقد نقض أهل الحيرة عهدهم ثلاث مرات ولقد نقض أهل الأنبار عهودهم ، لم تنفع عروبتهم المسلمين في شيء كما لم تنفعهم عروبة الحيرة » [٥] . ونتساءل لم وقف عرب العراق من الفتح الإسلامي هذا الموقف ؟ أغلب الظن أن الذي جعلهم يتخذون هذا الموقف جهلهم بطبيعة الفتح الإسلامي من ناحية ، وخوفهم من الفرس من ناحية ثانية ، ولعلهم كانوا يخشون - كما كان حال عرب الشام - أن يقاسمهم المسلمون السيادة والرزق في بلادهم .

---

(١) المرجع السابق (ص ١٠) . (٢) المرجع السابق (ص ١١) .

(٣) تاريخ الطبري (٣٥٣/٣) وما بعدها . (٤) الطبري - تاريخ (٤٦٤/٣) .

(٥) د . شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي (ص ٩٤) .

وعلى كل حال لم تنفعهم مقاومتهم ، ولا نفعت مقاومة الفرس في صد المسلمين ، وتم فتح العراق ، فماذا كان موقفهم من الإسلام بعد الفتح ؟ وكيف أقبلوا عليه ؟

لقد تحدثنا في صدر هذا الفصل عن العوامل التي مكنت للإسلام في البلاد المفتوحة وأدت إلى إقبال أبناء هذه البلاد عليه واعتناقه ، وهذه العوامل هي بعينها التي مكنت له في العراق ، وجذبت أبناءه إليه ؛ فالعراق متاخم للجزيرة العربية ، وأغلب سكانه عرب ، يمتُّون إلى أهلها بصلة القربى ، وهؤلاء السكان كانوا يعيشون تحت حكم الفرس وكانوا يعانون من نير هذا الحكم وطغيانه واستغلاله ، وكانت حياتهم أقرب ما تكون إلى حياة العبودية ؛ فقد كان معظمهم يشتغلون بفلاحة الأرض ، ولا ينالهم من ناتج عملهم إلا أقل القليل ، أما وافر الخير فكان يذهب إلى دهاقين الفرس ، الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم [١] .

وقد قدر المسلمون منذ البداية ظروف هؤلاء العرب وغيرهم من سكان العراق ، فعملوا على تغيير هذه الحال ، ورفع الظلم عنهم ، ودلت السياسة التي رسمها أبو بكر الصديق للمسلمين ليسيروا عليها في العراق - على نظرة ثاقبة وخبرة ومعرفة بأحوال العراق وسكانه وعلاقاتهم بالفرس ، فكانت توجيهاته للقادة أن سكان العراق - من عرب وغيرهم - إذا ما عرفوا طبيعة الدعوة الإسلامية معرفة حقيقية ، وما تحمله لهم من خير وعدل وإنصاف وحرية وعزة وكرامة ، فلن يجدوا مبررًا لمقاومتها ، فليس في الحكم الفارسي ما يغريهم بالتمسك به والدفاع عنه ؛ فهم ما خضعوا له إلا مكرهين ، فواجب المسلمين الأول أن يجعلوا هؤلاء الناس يحسون بطريقة عملية بمزايا الإسلام ، ولا يأخذوهم بجريرة الفرس ، فأصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ، لا يقتلون منهم أحدًا ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسيئون إليهم في أمر يتصل بهم ، فهم عرب مثلهم ، وهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس ، فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم بمقدم العرب ، ويجب أن يعمهم العدل على أيدي بني عمومتهم .

ذلك واجب المسلمين يأمرهم اللّه به ، وهو بعد السياسة الحكيمة التي تكفل لهم النصر ، وألا يؤتوا بعد نصرهم من خلفهم [٢] . وقد طبقت هذه السياسة التي

---

(١) د . محمد حسين هيكل - الصديق أبو بكر (ص ٢٠٣) .

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠٣) ، انظر د. شكري فيصل - المجتمعات الإسلامية (ص ٧٨) .

وضعها أبو بكر بأمانة وإخلاص ؛ فلم تنتزع منهم أرض ، ولم يكرهوا على ترك دينهم واعتناق الإسلام ، وكفلت لهم الحماية والأمن على الأرواح والأموال ، فظهر عليهم الارتياح والاطمئنان ، وتمثل ذلك في كتبهم التي كتبوها عن خالد بن الوليد يعبرون فيها عن اقتناعهم حيث قالوا : « إنا أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالدًا العبد الصالح ، والمسلمون عباد اللّٰه الصالحون ، على أن يمنعونا وأميرهم ، البغي من المسلمين وغيرهم » (١) .

استمرت هذه السياسة الإسلامية العادلة الرحيمة في عهد عمر بن الخطاب ، بل جاء تصرف عمر في أرض السوداء ؛ ليزيل كل هواجسهم وشكوكهم نحو الإسلام والمسلمين ، وليزيد من اطمئنانهم إلى سياستهم الرحيمة ، فمع أن معظم أرض السوداء فتحت عنوة ، وكانت بمقتضى حق الفتح غنيمة خالصة للمسلمين ، إلا أن عمر اجتهد في الأمر ، فلم يأخذ الأرض ويوزعها على الفاتحين ؛ وإنما قرر إبقاءها في أيدي أهلها يزرعونها ويدفعون خراجها للدولة (٢) ، وكان هذا اجتهادًا موفقًا من عمر ، حقق أكثر من فائدة ؛ فقد أدى إلى ارتياح أصحاب الأرض واطمئنانهم إلى عدالة الإسلام ، كما ضمن لبيت المال موردًا ثابتًا للإنفاق على مرافق الدولة كلها .

لكل ما تقدم بدأت نظرة أهل العراق إلى الفتح الإسلامي تتغير ، فأرضهم بقيت في أيديهم ، ولم يجبروا على تغيير أديانهم ، بالإضافة إلى أن كابوس الحكم والسيطرة الفارسية قد انزاح عنهم ، وحلت محله حكومة رحيمة عادلة متسامحة ، فبدؤوا يستجيبون للإسلام ، وأسلمت جماعات من شتى القبائل ، بل إن من أسلموا كانوا يحاربون مع المسلمين من لم يسلم من قبائلهم (٣) .

ولم تقتصر الاستجابة للإسلام على العرب في العراق ، بل أسلم كثير من الفرس أنفسهم ، وقدموا للمسلمين خدمات طيبة واشتركوا معهم في القتال في موقعة القادسية ، واستشار سعد بن أبي وقاص بعض مسلمي الفرس في كيفية التغلب على الفيلة التي أرهقت المسلمين وقتلت منهم أعدادًا كثيرة ، يقول الطبري : « ولما رأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب ، وعادت لفعلها يوم أرماث ، أرسل إلى أولئك

---

(١) الطبري – تاريخ (٣٧١/٣) .
(٢) أبو يوسف – الخراج (ص ٩١) ، وانظر : أبو عبيد القاسم بن سلام – كتاب الأموال (ص ٦١ – ٦٢) .
(٣) الطبري – تاريخ (٣٥٥/٣) .

المسلمة : ضخم ، ومسلم ، ورافع ، وعشنق ، وأصحابهم من الفرس الذين أسلموا ، فدخلوا عليه ، فسألهم عن الفيلة : هل لها مقاتل ؟ فقالوا : نعم ، المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها » [١] .

وكان المسلمون كلما حققوا نصرًا على الفرس يزداد عدد المسلمين من الفرس ، فقد أسلم أربعة آلاف من الديلم دفعة واحدة بعد القادسية ، حيث أرسلوا إلى سعد ابن أبي وقاص يخبرونه بعزمهم على الدخول في الإسلام ، والاعتزاز بهم ، فرحب بهم « فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد ، وشهدوا فتح جلولاء ، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة مع المسلمين » [٢] . فازدياد حركة الإقبال على الإسلام بعد القادسية – سواء من العرب ، أو من غيرهم – يدل على أن اشتراك هذه الطبقات المقهورة مع الفرس في مقاومة المسلمين في البداية كان خوفًا من بطش الفرس ، فلما تحطمت قوتهم في القادسية زال الخوف وأقبل الناس على الإسلام يعتزون به كما عبر من أسلم من الديلم أنفسهم [٣] ، وبالإضافة إلى هذه الطبقات التي كانت مغلوبة على أمرها ووجدت في الإسلام حريتها وعزتها وكرامتها ، فقد أسلمت أعداد من الأساورة والأشراف وعلية القوم ، فقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى عبد اللّٰه بن المعتم : « أن خلف على الموصل مسلم بن عبد اللّٰه ، الذي كان أسر يوم القادسية ، فيمن استجاب لكم من الأساورة ، ومن كان معكم منهم » [٤] .

ويروي الطبري أن القعقاع بن عمرو التميمي ، استخلف على حلوان بعد فتحها رجلًا اسمه قباذ ، أصله من خراسان ، وأنزلها قومًا من الحمراء [٥] ، فاستخلاف القعقاع قباذ على حلوان ، وهي مدينة هامة ، والاستعانة به – دليل على إسلام طبقة من أشراف الفرس ، ممن يصلحون للحكم والإدارة [٦] .

وهكذا نرى الإسلام ينتشر بخطى حثيثة في العراق ، وبين كافة الطبقات التي

---

(١) تاريخ (٣/٥٥٥) .

(٢) البلاذري – فتوح البلدان (ص ٣٤٤) والطبري – المصدر السابق (٣/٥٦٧) .

(٣) البلاذري – المصدر السابق (ص ٣٤٤) .

(٤) د . شكري فيصل – المجتمعات الإسلامية (ص ١١٥) .

(٥) تاريخ (٣٤/٤ ، ٣٥) وتعبير الحمراء هنا المقصود به العجم ؛ لأن العرب كانوا يطلقون عليهم ذلك ، وبصفة خاصة الديلم . البلاذري – فتوح البلدان (ص ٣٤٤) .

(٦) د . شكري فيصل – المرجع السابق (ص ١١٥) .

كانت تكوّن المجتمع ، فدخله عرب ، وفرس من العامة والدهاقين والأساورة وأبناء البيوتات ، ولا شك أن إسلام هؤلاء قد فتح الأبواب للإسلام أمام من وراءهم من قومهم ، حتى إذا تقدمت الأيام رأينا معظم السكان في هذه المناطق ، وقد أصبحوا مسلمين .

وفي الواقع إن تأمل الحياة في العراق بكل جوانبها السياسية والدينية والاجتماعية - يبعث على الاعتقاد بأنها كانت صائرة إلى التحول إلى الإسلام طال الزمن أو قصر ؛ فقد استبد القلق الديني بالناس ، فالمسيحية لم تكن أرسخ قدمًا هنا ، أو أحسن حالًا منها في مصر والشام ، والزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من النحل الفارسية اشتدت خلافاتها وتطاحنها ، ولم يكن شيء من هذا كله مستحقًّا للبقاء ، أو قادرًا على الصمود في وجه الإسلام .

ولم ينته الأمر بالعراق ليصبح قطرًا إسلاميًّا فحسب ، بل أصبح في العهد الأموي مركزًا لتثبيت الحكم الإسلامي في بلاد فارس كلها ، ومنطلقًا للفتوحات وانتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر والسند ، فالعرب المسلمون الذين فتحوا العراق واستقروا فيه كانوا ومن أسلم من أهله هم الذين قاموا بالدور الكبير والخطير في فتوح ما وراء النهر والسند ، ونشر الإسلام بين أهل هذه البلاد ، حتى لقد أصبح العراق في العصر الأموي يعنى به الشطر الشرقي كله من الدولة الإسلامية ؛ ولذلك كان عامل العراق يشرف على العراق والأقسام الشرقية كلها ، ولم تكن حدود العراق الإدارية والسياسية تتطابق مع حدوده الجغرافية ؛ فحدوده الجغرافية كانت تمتد من تكريت شمالًا إلى عبادان جنوبًا ومن حلوان شرقًا إلى العذيب غربًا . أما حدوده الإدارية والسياسية فكانت تمتد من هيت على الفرات غربًا حتى حدود الصين شرقًا ، مشتملة بذلك على بلاد فارس والسند وما وراء النهر [1] .

انتشار الإسلام في فارس

ذكرنا من قبل أن الزرادشتية كانت هي الديانة الرسمية في بلاد فارس قبل الإسلام [2] ، وإلى جانبها كانت توجد مذاهب وديانات أخرى مثل البوذية والمانوية والمزدكية ، بالإضافة إلى وجود اليهودية والمسيحية على نطاق ضيق . والزرادشتية ديانة

(١) ثابت إسماعيل الراوي - العراق في العصر الأموي (ص ٢٣) .
(٢) انظر أحمد أمين - فجر الإسلام (ص ١٠٣) ، أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٣٥) .

تقوم فلسفتها على وجود إلهين للعالم : إله للخير أو النور ، وإله للشر أو الظلمة .

ولما كانت هذه الديانة هي المعترف بها من الدولة الساسانية ، ويدين بها الملوك والأمراء من آل ساسان ، كان من الطبيعي أن تلقى المناصرة والتأييد من الدولة على حساب الأديان والمذاهب الأخرى ، كما أصبح لكهنتها نفوذ كبير في مجالس الملك ، فاستغلوا هذا الوضع في اضطهاد كل الديانات المخالفة لديانتهم [١] ؛ مما جعلها بغيضة عند من لا يدين بها وزاد من بغضهم إياها تعضيد الدولة لها [٢] . فلما فتح المسلمون بلاد فارس ، وزالت الدهشة التي صاحبت الفتوحات من نفوس الناس ؛ بدؤوا يفكرون في الوضع الجديد ، فالدولة الساسانية قد زالت من الوجود ، فهل خسر الشعب الفارسي شيئًا بزوالها ؟ الحق أن الشعب الفارسي لم يخسر شيئًا على الإطلاق ، بل تنفس الصعداء ؛ حيث زال عنه حكم ظالم مستبد [٣] ، وحل محله حكم عادل رحيم ، هو الحكم الإسلامي ، الذي يقوم على المساواة بين الناس ، ويحقق لهم العزة والكرامة والحرية ، وقد تأكد الناس من هذه المبادئ ، بعد أن استقر الحكم الإسلامي ، ورأوا حرص المسلمين على تحقيقها ، كما نصت عليها معاهدات الصلح التي تمت بين المسلمين وحكام المقاطعات الفارسية التي أشرنا إليها فيما سبق ، والتي ضمنت للفرس المحافظة على الأنفس والأموال ، وأباحت لهم البقاء على أديانهم إذا أرادوا ذلك ، ودفعوا الجزية ؛ حيث ساواهم الإسلام في هذه الناحية بأهل الكتاب [٤] . فلما رأوا ذلك كله ، ورأوا أن المسلمين لم يكرهوا أحدًا على ترك دينه واعتناق الإسلام [٥] - بدؤوا يفكرون في الإسلام ، ويقارنون بينه وبين غيره من الأديان ، ثم يقبلون عليه من تلقاء أنفسهم .

وقد رأينا مما تقدم أن إقبال الفرس على الإسلام قد بدأ حتى قبل تمام فتح فارس كلها ، فقد أسلمت جماعات كبيرة من مختلف الطوائف بعد معركة القادسية سنة (١٥هـ) [٦] . ثم أخذ الإسلام ينتشر مبكرًا في أطراف فارس ، ففي عهد عثمان بن عفان أرسل الوليد بن عقبة - والي الكوفة - الأشعث بن قيس إلى أذربيجان ،

(١) أرنولد - المرجع السابق (ص ٢٣٥) . (٢) المرجع السابق (ص ٢٣٥) .
(٣) المرجع السابق (ص ٢٣٦) .
(٤) أبو يوسف - كتاب الخراج (ص ٢٥٣ ، ٢٦٥) .
(٥) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٣٨) .
(٦) البلاذري - فتوح (ص ٣٤٤) ، والطبري - تاريخ (٣٤/٤ - ٣٥) .

وأمره أن يسكنها بعض العرب ، وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام [١] ، ثم ولَّى علي ابن أبي طالب في خلافته الأشعث أذربيجان . « فلما قدمها وجد أكثرها قد أسلموا وقرؤوا القرآن ، فأنزل أردبيل [٢] جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب ومصرها ، وبنى مسجدها » [٣] .

وكلما حقق المسلمون خطوة من النجاح ، سواء في ميدان الفتوحات ، أو في مجال تطبيق المبادئ الإسلامية تطبيقًا سليمًا وأمينًا ، كانت تتبعها خطوات من جانب الشعب الفارسي في الإقبال على الإسلام ؛ لأن جميع الأديان - وهي أديان وثنية - لم تقو على الصمود أمام الإسلام ، ذلك الدين البسيط الخالي من التعقيد والكهنوت والذي يدعو إلى وحدانية الخالق في وضوح ، وأدرك الشعب الفارسي أنه لم يخسر شيئًا بزوال الدولة الساسنيين فلم يندم على أيامها الغابرة ، ولم يجد مبررًا لتمسكه بعقائد وأديان مليئة بالخرافات والأباطيل ، فتركها غير آسف عليها وأقبل على اعتناق الإسلام ، وكذلك المسيحيون منهم - الذين كانوا يعانون من الاضطهاد الديني - تخلوا عن ديانتهم وأقبلوا على الإسلام . يقول أرنولد : « وقد أدى تغيير الحكومة إلى تخليص الكنيسة المسيحية المضطربة في فارس من استبداد ملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلافات بين اليعاقبة والنسطوريين ، وزادوا في فوضى الطوائف المتنافرة .. ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائي في شعورهم الذي سهل تغيير العقيدة ، وإلى جانب الاضطراب السياسي في الدولة ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التي أثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة ، فمالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر ، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى ، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد . وبعبارة أخرى كان أهالي فارس .. قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة ، وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم ، وأن يفتح أمام الناس سبلًا واضحة من الآمال الكبيرة ، وأن

---

(١) البلاذري - فتوح (ص ٤٠٣) .
(٢) أردبيل : أشهر مدن أذربيجان وكانت قصبتها قبل الإسلام . ياقوت - معجم البلدان (١/١٤٥) .
(٣) البلاذري - المصدر السابق (ص ٤٠٤) .

يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة » [١] .

تتابع دخول الفرس في الإسلام بخطى حثيثة عن اختيار حر واقتناع ، ولم يمارس عليهم أي نوع من أنواع الإكراه [٢] ، وكل ما كان يفعله المسلمون لجذب الفرس إلى الإسلام هو التعريف به وشرح مبادئه . ولما استقر الفتح في العهد الأموي ، خطا الأمويون خطوة كان لها أثر كبير في انتشار الإسلام في بلاد فارس ، وهي التوسع في تهجير القبائل العربية إلى الأقاليم الفارسية ، وبصفة خاصة إلى خراسان ، التي أصبحت إقليمًا ثغريًّا في العصر الأموي ، لمواجهتها لأقاليم ما وراء النهر ، فقد نقل زياد بن أبي سفيان إلى خراسان في سنة (٥١هـ) خمسين ألفًا بأسرهم من أهل البصرة والكوفة [٣] . وتتابعت هجرات العرب إلى الأقاليم الفارسية للإقامة والسكنى بأعداد كبيرة ، وكان لهؤلاء المهاجرين العرب أثر في انتشار الإسلام بين الفرس بالمخالطة وعن طريق القدوة ، وإقامتهم لشعائر الدين [٤] .

وهذه الهجرات العربية إلى أقاليم فارس ، صاحبتها هجرة مضادة من الأقاليم الفارسية إلى الأمصار الإسلامية ، وبصفة خاصة إلى البصرة والكوفة فقد قصدت أعداد كبيرة من الفرس - الموالي - هذه المدن للعمل في التجارة والأعمال الحرفية [٥] ، كما عمل كثيرون منهم في دواوين الدولة ، ففي ولاية عبيد اللّه بن زياد على البصرة (٥٥ - ٦٤هـ) كان عدد العمال من الموالي المقيدين في ديوانه مائة وأربعين ألفًا [٦] . وقد يندهش البعض من ضخامة هذا العدد ، ولكن الدهشة تزول إذا عرف أن ديوان البصرة كان يشمل الموظفين المدنيين في الكور والمقاطعات الفارسية الجنوبية حتى خراسان . ولقد أكثر ابن زياد من استخدامهم في الديوان لكفاءتهم ومهارتهم وأمانتهم ، وقال بصدد ذلك : « كنت إذا استعملت الرجل من العرب على الخراج يكسره ، فإذا أغرمته أوغرت صدور عشيرته ، وإذا تركته تركت مال اللّه وأنا أعرف مكانه ؛ فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأهون في الطلب منكم » [٧] .

---

(١) أرنولد - المرجع السابق (ص ٣٣٦ ، ٣٣٧) .
(٢) المرجع السابق (ص ٢٣٨) . (٣) البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٠٧) .
(٤) د . شكري فيصل - المجتمعات الإسلامية (ص ٢١١) .
(٥) د . حسن محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ٥٦) .
(٦) الطبري (٥/٥٠٤) . (٧) المصدر السابق (٥/٥٢٣) .

فوجود هذا العدد الكبير من الموالي في ديوان البصرة يدل على الثقة التي منحتها الدولة لهم [١] ، وقد كثر الموالي كثرة هائلة في الأمصار الإسلامية ، وبصفة خاصة في البصرة والكوفة ، وتركوا قراهم فتأثرت الزراعة وتناقصت المحاصيل ؛ مما جعل الحجاج الثقفي يعيد كثيرين منهم إلى مواطنهم الأصلية ليعملوا في الزراعة كما كانوا .

والذي نستخلصه من وجود الموالي بأعداد كبيرة في المدن الإسلامية واشتراكهم في الجباية ، والأعمال الإدارية وغيرها من وظائف الدولة بالإضافة إلى وجود أعداد كبيرة منهم في البيوت العربية ، فقلما كان يخلو بيت عربي من وجود مولى أو أكثر فيه [٢] – الذي نستخلصه أن هؤلاء أو معظمهم على الأقل قد اعتنقوا الإسلام ، بل لم يكتف هؤلاء بالدخول في الإسلام ، وإنما اتخذوا أسماءً وألقابًا عربية للمحافظة على أوضاعهم وزيادة حقوقهم واستعرابهم على هذا النحو زادهم اتصالًا بالمجتمع والحكومة [٣] .

وباختصار يمكن القول : إن غالبية الشعب الفارسي قد تحولت إلى الإسلام في العصر الأموي ، وليس أدل على ذلك من المشكلة التي أوجدها إقبال الفرس على الإسلام أمام ولاة بني أمية . فهؤلاء عندما رأوا أن كثرة الذين دخلوا في الإسلام قد أدت إلى تناقص موارد المال من الجزية التي كانت تؤخذ منهم قبل إسلامهم عمدوا إلى إبقاء الجزية عليهم حتى بعد إسلامهم ، وكان هذا خطأً كبيرًا من الولاة الذين فضلوا الجباية على الهداية ، وقد أزال عمر بن عبد العزيز هذا الخطأ ، وصحح المسار الإسلامي ، وكتب إلى جميع عماله برفع الجزية عمن أسلم من الفرس وغيرهم – كما وضحنا ذلك فيما سبق – فازداد في عهده الإقبال على الإسلام زيادة كبيرة .

أصبح الفرس في العصر الأموي عنصرًا مؤثرًا في الدولة والمجتمع الإسلامي وكان تأثيرهم نافعًا إيجابيًا في الناحية العلمية . فقد نبغ عدد كبير منهم في مختلف العلوم الإسلامية ، وكانوا موضع احترام وتقدير العرب بمن فيهم الخلفاء أنفسهم [٤] ..

---

(١) د. حسن محمود – المرجع السابق (ص ٥٠ ، ٥٨) .
(٢) أحمد أمين – فجر الإسلام (٩١) .
(٣) د . حسن محمود – المرجع السابق (ص ٥٠ ، ٥١) .
(٤) ذكر ابن قتيبة في المعارف (ص ٤٤٤) والذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/٨٤) ، واللفظ له قال : « دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان ، وهو جالس على السرير ، وحوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ، فلما بصر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه ، وأجلسه معه على السرير ، =

نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر : مجاهد بن جبر (ت ١٠٣هـ) ، وعطاء بن يسار (ت ١٠٣هـ) ، والحسن البصري (ت ١١٠هـ) ، ومحمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) ، ومكحولًا الدمشقي (ت ١١٣هـ) ، وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٥هـ) ، ونافعًا مولى عبد اللَّه بن عمر (ت ١١٧هـ) ، وميمون بن مهران (ت ١١٧هـ) ، وربيعة الرأي (ت ١٣٦هـ) ، وصالح بن كيسان (ت ١٤٠هـ) ، وابن جريج (ت ١٥٠هـ) . وقد أثرى هؤلاء العلماء الحركة العلمية الإسلامية ، وتتلمذ على أيديهم أعداد كبيرة من العرب ، أما في الناحية السياسية فكان تأثير الموالي الفرس سلبيًا ، أو بمعنى آخر كان تأثيرًا معاكسًا للدولة الأموية ؛ فقد ناصبوها العداء طوال تاريخها وانحازوا انحيازًا كاملًا لكل خصومها ، فانضموا إلى عبد اللَّه ابن الزبير وحاربوا معه . ولبَّوا نداء كل ثائر أو خارج على الدولة ، مثل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ويزيد بن المهلب وغيرهم ، كما انضموا إلى الخوارج ، وحاربوا في صفوفهم .

ثم تحالفوا تحالفًا رئيسيًا مع الشيعة ، فبالإضافة إلى اشتراكهم معهم في العداء الشديد لبني أمية فقد كان هناك سببان رئيسيان وراء ميل الموالي إلى الشيعة وتعضيدهم :

السبب الأول : أن نظرية الشيعة في الإمامة وتخصيصها لآل البيت تنسجم مع نظرية الحكم الملكي الفارسي ، التي كانت تقصر الملك على أسرة ملكية بعينها ، يتوارثه أبناؤها فيما بينهم .

= وقعد بين يديه ، وقال : يا أبا محمد ، حاجتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، اتق اللَّه في حرم اللَّه ، وحرم رسوله ، فتعاهده بالعمارة واتق اللَّه في أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق اللَّه في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسؤول عنهم ، واتق اللَّه فيمن على بابك ، فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق دونهم بابك ، فقال له : أفعل ، ثم نهض وقام ، فقبض عليه عبد الملك ، وقال : يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك ، فما حاجتك ؟ قال : ما لي إلى مخلوق حاجة ثم خرج ، فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ، هذا وأبيك السؤدد » ... هذا هو تقدير عبد الملك ابن مروان لأحد علماء التابعين من الموالي ، ويزداد تقديرنا لموقف عبد الملك إذا عرفنا أن عطاء كان من أنصار عبد اللَّه بن الزبير ، وقاتل معه حتى قطعت يده - انظر السير (٥/٨٠) - ولكنه العلم يسمو بأهله فقد كان عطاء كما يقول الذهبي مفتي الحرم ؛ لأنه كان من أعلم الناس بمناسك الحج ، وقد روى عن كيسان قوله : « أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج مناديًا يصيح : لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح ، فإن لم يكن عطاء ، فعبد اللَّه بن أبي نجيح » سير (٥/٨٢) .

السبب الثاني : هو زواج الحسين بن علي بن أبي طالب ، من شاهبانو بنت يزدجرد الثالث آخر ملوك الأسرة الساسانية ، فنظروا إلى ذرية الحسين منها على أنهم يحملون أنقى دم عربي ؛ لانتسابهم إلى الرسول ﷺ من جهة أبيهم ، وأنقى دم فارسي ؛ لانتسابهم إلى ملوك الفرس من جهة أمهم . وعلى هذا فهم في نظرهم أحق الناس بالإمامة وحكم الأمة الإسلامية ، فألقوا بكل ثقلهم وراء حركات الشيعة ، ثم آل أمرهم إلى أن أصبحوا من أقوى دعائم الدعوة العباسية ، التي استغلت ميلهم إلى آل البيت ، واستثمرت جهودهم في تقويض الدولة الأموية .

هذا الموقف العدائي الشديد الذي وقفه الموالي من الدولة الأموية جعل كثيرًا من الباحثين يظن أن هذا الموقف كان نتيجة ظلم وقع عليهم من جانبها ؛ لأنها كانت تتعصب للعرب ضدهم [1] ، وهذا الظن بعيد عن الواقع إلى حد بعيد ، فالدولة الأموية عرفت بسياسة التسامح تجاه أهل الذمة ، فكيف يمكن أن نتصور أن صدور خلفائها تضيق بالموالي وتضطهدهم وهم مسلمون ؟ هذا بعيد جدًّا .

أما السبب الرئيسي لعداء الموالي للدولة الأموية - فيما أرى - فيكمن في أن كثيرين من الفرس لم يستطيعوا التخلص تمامًا من الماضي ، ذلك الماضي الذي كانت لهم فيه السيادة والكلمة العليا . فلما فتح المسلمون بلادهم ، وضموها إلى الدولة الإسلامية ؛ عز عليهم أن يحكمهم العرب فعملوا كل ما في وسعهم لتقويض الدولة الأموية .

وحتى لا نعمم الحكم ، ولا نظلم الفرس كلهم ؛ فإننا نستطيع - من خلال استقراء حوادث العصر في مصادرها الأصلية - أن نقسم الموالي - وهي التسمية التي كانت تطلق على المسلمين من غير العرب ، وبصفة خاصة الفرس - إلى أربع طوائف رئيسية هي :

الطائفة الأولى : وهم الذين أسلموا إسلامًا حقيقيًّا ، وملك الإسلام كل جوانب حياتهم ، وارتفع بهم فوق العصبية القومية ، وخلصهم من الماضي الفارسي بكل ما فيه ، ويمثل هؤلاء في جيل الصحابة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وفي جيل التابعين من ذكرنا أسماءهم آنفًا ، فهؤلاء اندمجوا في الأمة الإسلامية اندماجًا كاملًا ، وأخلصوا

(١) انظر على سبيل المثال : أحمد أمين - ضحى الإسلام (١/٣٧) ، ود. محمد الطيب النجار - الدولة الأموية في المشرق (ص ١٤٩) وما بعدها ود. عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية (٢/٣٢٧) ، ود. زاهية قدورة - الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي (ص ٤٦ ، ٤٧) .

لها غاية الإخلاص ، وآمنوا أن الإسلام سوَّى بين الناس جميعًا ، فلم يفرقوا بين عربي وعجمي ، ولم يروا بأسًا في أن يحكمهم العرب ، بل إنهم كانوا ينظرون إلى العرب نظرة احترام وتقدير ، ويعرفون لهم أنهم هم الذين هدوهم إلى الإسلام ، واستنقذوهم من ضلال المجوسية إلى هدى الإسلام (١) .

الطائفة الثانية : وهم الذين أسلموا إسلامًا رقيقًا ولم يستطيعوا التخلص نهائيًا من الماضي الفارسي ، وظلوا يفخرون ويتغنون بالأمجاد الفارسية القديمة يوم أن كانوا أعز من العرب وأعظم سلطانًا ، وهذه الطائفة لم ترفض الإسلام دينًا ، ولكنها رفضت الحكم العربي ، وظلت تسعى للقضاء عليه . وهؤلاء هم أصحاب النظرة الشعوبية التي قامت على تفضيل العجم على العرب ، والفخر بمجد الفرس القديم وعزهم التالد (٢) .

وقد كشفت هذه الحركة عن وجهها في أواخر الدولة الأموية ، وكان أحد دعاتها الشاعر الفارسي إسماعيل بن يسار (ت نحو ١٣٠هـ) الذي كان يتغنى بأمجاد الفرس ، ويفخر بها على العرب ، حتى في حضرة الخلفاء ؛ فقد ألقى قصيدة بين يدي الخليفة هشام بن عبد الملك يفخر فيها بأمجاد الفرس القديمة ، مما أحنق عليه الخليفة (٣) .

الطائفة الثالثة : وهم الذين أسلموا نفاقًا ؛ لأنهم رأوا أن الجاه والمال والسلطان بيد العرب ، وأنهم لا يستطيعون الوصول إلى هذا كله إلا بالإسلام ، فأسلموا إسلامًا ظاهريًا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، فالإسلام عند هؤلاء كان ثيابًا ظاهرية ، يرتدونها أمام العرب ، ويخلعونها إذا خلوا إلى أهليهم ، وإذا أمكنتهم الفرصة كادوا للإسلام وللعرب ، ودعوا للشعوبية والمذاهب الدينية القديمة ، وهؤلاء هم مؤسسوا الحركة التي عرفت باسم الزندقة (٤) .

الطائفة الرابعة : وهم الذين لم يسلموا قط ، وأتاحت لهم الحرية الدينية التي منحها إياهم العرب - أن يظلوا على مجوسيتهم (٥) . هذه الطوائف الثلاث الأخيرة ، ناصبت العرب ، كل العرب ، العداء وكان دينهم أن يقتل العرب ، كما جاء على لسان نصير بن يسار في قصيدته التي يقول فيها :

---

(١) انظر أحمد أمين - المرجع السابق (٣٠/١) . (٢) أحمد أمين - المرجع السابق (٢٨/١) .
(٣) المرجع السابق (٢٩/١) . (٤) المرجع السابق (١٥٠/١) .
(٥) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٣٨) .

ألا أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن أن اغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تنشبون الحرب بينكم كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب
وتتركون عودًا قد أحاط بكم ممن تأشب لا دين ولا حسب
من كان يسألني عن أصل دينهم فإن دينهم أن تهلك العرب [١]

وهي القصيدة التي قالها ليهيب بالعرب في خراسان أن يتحدوا في مواجهة خطر أبي مسلم الخراساني .

ناصبت هذه الطوائف العرب العداء ، وخصت الأمويين بالنصيب الأكبر منه ، باعتبارهم أصحاب الدولة ويمثلون السيادة العربية في نظرهم . ولما كانوا لا يستطيعون الدعوة صراحة لإقامة حكومة فارسية عندما كانت الدولة الأموية قوية وفي عنفوانها ، فقد عمدوا إلى تقويضها - كخطوة أولى - عن طريق الانضمام إلى كل ثائر عليها ، ولما نجحوا في نهاية الأمر في القضاء عليها ، لم يقنعوا بما أتاحه لهم العباسيون ، من مشاركة في الحكم وإدارة الدولة ، بل حاولوا السيطرة والاستحواذ على السلطات كلها ، ومن هنا بدأ صدامهم مع العباسيين منذ بداية دولتهم ، وكان أول من تنبه لخطر بعث الروح القومية الفارسية ، وطموح الفرس إلى السيطرة على الدولة ، هو أبو جعفر المنصور ، الذي تخلص من أبي مسلم الخراساني ، صاحب الدور البارز في القضاء على الدولة الأموية والبطل القومي في نظر الفرس . ثم جاءت نكبة البرامكة على يد الرشيد ، ونكبة بني سهل على يد المأمون .

كل ذلك يؤكد أن الفرس كانوا يسعون إلى الإطاحة بالحكومة العربية وتحويلها إلى حكومة فارسية ، ولما لم يستطيعوا ذلك في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ) لوجود خلفاء أقوياء ، كانوا يقفون لحركاتهم بالمرصاد فقد انتظروا حتى مضى عصر الخلفاء الأقوياء . وجاء العصر العباسي الثاني وضعفت سلطة الخلافة العباسية وفاعليتها ، فأخذوا يقطعون أوصالها ويقيمون دولًا مستقلة على حسابها .

من كل ما تقدم يتضح أن القول بأن عداء الفرس الموالي للأمويين كان نتيجة الظلم والاضطهاد والتعصب ضدهم ، هو قول بعيد عن الواقع ؛ فلم تكن هناك سياسة عامة مرسومة للدولة الأموية لاضطهادهم ، أو التعصب ضدهم ، ولم يكن هناك مجال من مجالات العمل موصد أمامهم إلا المناصب العليا ، التي كانت

---

(١) ابن الأثير - الكامل (٣٦٧/٥ ، ٣٦٨) .

تفرض الضرورة أن يحتفظ بها العرب في تلك المرحلة ؛ لأنهم كانوا آنئذ أكثر فهمًا للرسالة وأهدافها من غيرهم ، ولم يكن متصورًا ولا معقولًا أن يقيم العرب دولة ثم يسلموها للفرس ، وليس هذا من التعصب في شيء ؛ بل هو من باب المحافظة على الكيان الذي جاهد العرب في إقامته .

وفي النهاية نود أن نقول : إننا لا نبرئ العرب بصفة عامة من أن بعضهم كان ينظر إلى الموالي نظرة فيها نوع من التعالي وهي نظرة كان منشؤها ما يولده شعور الغالب المنتصر من عزة في نفسه ، ولعل الذي عمق الشعور بهذه النظرة المتعالية عند الموالي إحساسهم بهزيمتهم أمام العرب ، وضياع دولتهم على أيديهم .

والحق أن هذه النظرة المتعالية إلى الموالي ، لم تكن نظرة كل العرب ؛ بل كانت نظرة البدو الذين لم يفهموا الإسلام فهما حقيقيًا ، وربما كانت نظرة بعض الولاة الذين كان يستفزهم عداء الموالي للعرب ، فيصدر منهم ما يعتبره الموالي إهانة لهم وازدراء بهم ، ومن الظلم أن يحمل ذلك على أنه السياسة العامة للدولة الأموية .

وكما كان في الفرس من ارتفع به إيمانه فوق العصبية والعنجهية القومية ، فقد كان الكثير من العرب من فهم الإسلام جيدًا ، وآمن بأنه يسوي بين جميع المسلمين ، من عرب وعجم ، وأيقن أن الرجل يشرُف بدينه وعمله وخلقه ، وليس بجنسه وعرقه ، فأكرم الناس عند اللّه أتقاهم ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . فالحسن البصري ، وهو مولى ، كانت له منزلة كبيرة عند العرب وكلمة مسموعة حتى عند الدولة ، بل كان ينتقد علانية خلفاء بني أمية وولاتهم ، دون أن يتعرض له أحد بأذى ، ويوم مات تبع الناس كلهم جنازته ، حتى لم يبق في المسجد من يصلي العصر [١] .

وعلى كثرة من قتل الحجاج بن يوسف الثقفي من العرب والموالي ، في الثورات والفتن العديدة التي شهدتها ولايته على العراق ، لم يشتد استنكار الناس عليه في قتل أحد ، كما اشتد عليه في قتله سعيد بن جبير [٢] وهو مولى ؛ وذلك لمكانة سعيد عند الناس ، مع أنه كان قد خرج ثائرًا على الدولة مع ابن الأشعث .

انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر

على الرغم من أن منطقة ما وراء النهر كانت من آخر المناطق التي فتحها

(١) الذهبي - سير أعلام النبلاء (٥٨٧/٤) . (٢) أحمد أمين - المرجع السابق (٢٨/١) .

المسلمون في العصر الأموي ، حيث تم فتحها فيما بين سنتي (٨٧ - ٩٦هـ) ، وأن ما تبقى من عهد الدولة الأموية كان جهودًا متواصلة من الولاة لتثبيت الفتوحات من ناحية [١] ، ولصد خطر الأتراك الشرقيين فيما وراء نهر سيحون من ناحية ثانية [٢] ، على الرغم من كل ذلك فقد أخذ الإسلام ينتشر في هذه البلاد بخطى حثيثة ، منذ بداية الفتوحات [٣] ؛ لأن معظم أهالي البلاد وإن كانوا قد قاوموا المسلمين ، وخاضوا معهم معارك طاحنة ، إلا أنهم سرعان ما بدؤوا يفكرون في الإسلام ، دين هؤلاء الفاتحين ، فوجدوه دعوة خالصة لتوحيد اللَّه ﷻ ، وأنه دين سمح عادل رحيم ، يدعو إلى المساواة بين الناس جميعًا ، وإلى عزتهم وكرامتهم ، فأقبلوا على اعتناقه عن طواعية واختيار ، ولا شك أن فساد الأحوال الدينية في بلادهم قد شجعهم على ذلك ، فقد كان معظمهم وثنيين يعبدون الأصنام [٤] ، وكان بعضهم متأثرًا بالأديان المنتشرة في بلاد فارس ، مثل الزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها ، ولكن يبدو أن هذه الأديان الباطلة لم تكن راسخة في هذه البلاد ، ولم يكن تمسك الناس بها قويًا ، وقد زال كل أثر لتمسكهم بها لما تبين لهم فسادها بالمقارنة مع الإسلام ، واتضح لهم أنها لم تكن إلا خرافات وأوهامًا .

فعندما دخل قتيبة بن مسلم مدينة سمرقند سنة (٩٣هـ) واشترط أن يبني فيها مسجدًا ، وأبقى فيها جماعة من المسلمين ، فيهم الضحاك بن مزاحم - صاحب التفاسير ، كما يقول البلاذري [٥] - عندئذ وجد قتيبة عددًا كبيرًا من الأصنام في المدينة ، فقرر تحطيمها ، ولما خوفه بعض السكان من ذلك ، وقالوا له : إن من يقترب منها تهلكه ، لم يأبه بهذه الخرافات وأقسم أن يحطمها بيديه ، وحطمها فعلًا وأحرقها بالنار ، ولم يحدث له شيء بطبيعة الحال ، فلما رأى الناس ذلك أدركوا أن

---

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٢٤) وما بعدها .

(٢) انظر د. حسن محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ١٥٢ ، ١٥٣) .

(٣) ينبغي أن نتذكر هنا أيضًا أن كثيرين من أهالي ما وراء النهر من الذين كان المسلمون يأسرونهم في غزواتهم السابقة على فتوحات قتيبة ويعودون بهم إلى بلادهم ، وكانوا يقسمونهم على الفاتحين كموالٍ لهم ، يعيشون معهم في مخالطة تامة ، لا بد أن هؤلاء أو معظمهم على الأقل قد اعتنقوا الإسلام ، فقد عاد عبيد اللَّه بن زياد من غزوته لما وراء النهر في عهد معاوية بأعداد كبيرة من أسرى بخارى وقدم بهم البصرة ، وفرض لهم العطاء . انظر البلاذري (ص ٥٠٧) .

(٤) المصدر السابق (ص ٥١٨) ، والطبري (٤٧٥/٦ ، ٤٧٦) .

(٥) فتوح (ص ٥١٨) .

هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ، فأسرع كثير منهم إلى اعتناق الإسلام [١] ، ويبدو أن صدى هذه الحادثة قد تردد في مدن أخرى كثيرة ، فأسلم كثير من أهلها ، بدليل أن قتيبة لما سار ليفتح إقليم الشاش فيما وراء نهر سيحون سنة (٩٤هـ) - بعد هذه الحادثة بسنة واحدة - كان جيشه يضم عشرين ألفًا من أهل بخارى وكش ونسف [٢] ؛ لأن أهل بخارى الذين قاوموا الفاتحين في البداية مقاومة شديدة ، سرعان ما أقبلوا على اعتناق الإسلام في حماس شديد .

يقول المستشرق المجري أرمينيوس فامبري : « إن بخارى التي قاومت العرب في البداية مقاومة عنيفة ، قد فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم « ومعهم تعاليم نبيهم ، تلك التعاليم التي قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة ، ثم أقبل القوم من بعد ذلك عليها في غيرة شديدة ، حتى لترى الإسلام الذي أخذ شأنه اليوم يضعف في جهات آسيا الأخرى ، وقد غدا في بخارى اليوم (١٨٧٣م) على الصورة التي كان عليها أيام الخلفاء الراشدين » [٣] .

وهكذا أخذ الإسلام ينتشر بين سكان أمهات المدن فيما وراء النهر ، حتى قبل تمام الفتح ، وكان الفاتحون المسلمون يشجعون الناس على اعتناق الإسلام بالدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وهي مهمة واجبة يقوم بها أولئك الرجال الذين كان يخلفهم قتيبة في المدن التي كان يحرص على أن يبني فيها المساجد لأداء شعائر الإسلام ، ولكي يقوم الدعاة فيها بتعريف الناس بالإسلام ، وشرح مبادئه ، ونشر الثقافة الإسلامية ، وتعليم اللغة العربية [٤] ، مما جعل أعداد المسلمين من أهل البلاد في زيادة مستمرة ، إلى الحد الذي جعل بعض الولاة يأخذون الجزية ممن أسلموا ، حرصًا منهم على الأموال ، بحجة أن كثرة المسلمين من أهل البلاد وإعفاءهم من الجزية قد أضر بيت المال ، وهو الإجراء الخاطئ الذي أزاله عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ) الذي خطت حركة انتشار الإسلام في عهده في بلاد ما وراء النهر ، وفي غيرها من البلاد المفتوحة - خطوات كبيرة ؛ حيث أصدر أمره إلى العمال برفع الجزية عمن أسلموا ، وصاح فيهم صيحته المشهورة « إن اللَّه بعث محمدًا ﷺ هاديًا ، ولم يبعثه جابيًا » ، ثم كتب إلى ملوك ما وراء النهر ، ودعاهم

---

(١) المصدر السابق (ص ٥١٨) ، وانظر أيضًا : أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (ص ٢٤٣) .
(٢) انظر الطبري (٦/٤٨٣) .
(٣) تاريخ بخارى (ص ٦٧) الترجمة العربية .
(٤) د . حسن محمود - المرجع السابق (ص ١٥٤) .

إلى الإسلام فأسلم بعضهم [١] ، ثم تتابعت الجهود لنشر الإسلام ، بعد عمر بن عبد العزيز ، وبصفة خاصة في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) ، ففي سنة (١٠٩هـ) أسند هشام ولاية خراسان إلى أشرس بن عبد الله السلمي ، وكان رجلًا فاضلًا خيرًا ، وكان الناس يسمونه الكامل لفضله عندهم ، كما يقول الطبري [٢] .
فلما استقر في خراسان ، عزم على توجيه الدعاة إلى ما وراء النهر ، يدعون الناس إلى الإسلام ، فقال لخاصته : « أبغوني رجلًا له ورع وفضل ، أوجهه إلى من وراء النهر ، فيدعوهم إلى الإسلام ، فأشاروا عليه بأبي الصيداء ، صالح بن طريف » [٣] ، فاستدعاه وعرض عليه القيام بالمهمة ، ولكن أبا الصيداء قال له : « أخرج على شريطة أن من أسلم لم يؤخذ منه الجزية .. قال أشرس : نعم ، قال أبو الصيداء لأصحابه : فإني أخرج ، فإن لم يف العمال أعنتموني عليهم ، قالوا : نعم » [٤] .
نفهم من كلام أبي الصيداء ، وتشدده في اشتراط أن من يسلم لا تؤخذ منه الجزية ، أن العمال بعد عمر بن عبد العزيز ، قد عادوا إلى السياسة الخاطئة والضارة معًا ، وهي أخذ الجزية ممن كانوا يسلمون . ذهب أبو الصيداء إلى ما وراء النهر وأخذ يدعو أهل سمرقند وما حولها إلى الدخول في الإسلام على أن توضع عنهم الجزية ، فسارع الناس إلى الإسلام [٥] .

أثمرت دعوة أبي الصيداء ، وآتت نتائج طيبة ، وأقبل أهل ما وراء النهر على الإسلام إقبالًا هائلًا ، ولكن دعوته اصطدمت مرة أخرى بمشكلة الجزية قد كتب بعض العمال إلى أشرس : أن إقبال الناس على الإسلام وإعفاءهم من الجزية ، قد أضر بيت المال [٦] . فاستجاب أشرس - للأسف - لهؤلاء العمال ، وأمر بإعادة الجزية على من أسلموا ، ولا ندري كيف ارتكب هذا الرجل - الذي وصف بأنه خير فاضل - هذا الخطأ الفادح ؟ مع أن عامل الخراج فيما وراء النهر ، وهو هانئ ابن هانئ كتب إليه : « إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد » [٧] ، كما جاءه وفد من أهل بخارى وقالوا له : « ممن تأخذ الجزية وقد صار الناس كلهم عربًا » [٨] يقصدون أنهم أصبحوا مسلمين .

ولكن على الرغم من ذلك فقد كتب أشرس إلى عماله ، وقال لهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه ، فأعادوا الجزية ، على من أسلم فامتنعوا ، واعتزل من

(١) البلاذري - فتوح (ص ٥٢٤) .
(٢) تاريخ (٥٢/٧) .
(٣ ، ٤) المصدر السابق (٥٤/٧) .
(٥ - ٨) المصدر السابق (٥٥/٧) .

أهل السغد سبعة آلاف ، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند ، وخرج إليهم أبو الصيداء ، وربيع بن عمران التميمي ، والقاسم الشيباني ، وأبو فاطمة الأزدي ، وعامر بن قشير - أو بشير - الخجندي ، وبيان العنبري ، وإسماعيل بن عقبة ، لينصروهم » [١] .

واضح من هذا النص الذي أورده الطبري أن أبا الصيداء - الداعية الإسلامي - قد ساءته إجراءات الوالي أشرس ، ونكوصه عن شرطه الذي كان قد اشترطه عليه ، وهو إعفاء من يسلمون من الجزية ، وأن طائفة من صلحاء المسلمين العرب ، قد تضامنوا معه ، وانحازوا جميعًا إلى إخوانهم الذين أسلموا من السغد ، لينصروهم ، وليقاوموا إجراءات الوالي بالقوة ، ومعنى هذا أنه إذا كان الوالي قد فضل الجباية على الهداية ، فإن المسلمين من العرب الذين تمكنت مبادئ الإسلام من نفوسهم لم يوافقوا على ذلك ، وانحازوا إلى المسلمين الجدد ، وقرروا التصدي للوالي ، ولكنه تغلب عليهم ، وأمر بالقبض على أبي الصيداء ، فقبض عليه ، وأرسل إلى أشرس في مرو فضعفت حركة أصحابه بعده ، وتغلبت سياسة الوالي ، التي آثرت المال على نشر الإسلام [٢] .

ولكن كان ذلك رد فعل عنيف عند أهالي ما وراء النهر ، الذين ظلوا يقاومون هذه التصرفات بالقوة [٣] ، واستمر الصراع بينهم وبين الولاة الأمويين سنين عديدة ، ولم يعالج الموقف ويصحح الخطأ إلا نصر بن سيار ، منذ أصبح واليًا على خراسان في سنة (١٢٠هـ) ، فقد شخص بنفسه إلى ما وراء النهر سنة (١٢١هـ) ، وخطب في الناس ، وأعلن رفع الجزية عمن أسلموا فكان لذلك أثر طيب وسريع عند الناس ، حتى يقول الطبري : « فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم ، كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم » [٤] . ومعنى هذا أن هؤلاء الثلاثين ألفًا ، الذين أتوا نصرًا ، ظلوا يدفعون الجزية ولم يرجعوا عن إسلامهم ؛ مما يدل على رسوخ العقيدة الإسلامية في قلوبهم . ومن الطبيعي أن أعدادًا كبيرة اعتنقت الإسلام بعد إعلان نصر هذا .

وهكذا يمكن القول : إن حركة انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر قد مضت في طريقها رغم المعوقات التي كان يضعها بعض الولاة في طريقها في بعض الأحيان ،

(١) المصدر السابق (٥٥/٧) .
(٢ ، ٣) المصدر السابق (٥٦/٧) .
(٤) المصدر السابق (١٧٣/٧) .

وبصفة خاصة مشكلة أخذ الجزية ممن كانوا يسلمون ولولا هذا الإجراء الخاطئ لكانت حركة انتشار الإسلام قد مضت بخطى أسرع في هذه البلاد .

والذي يبدو لي أن استياء المسلمين من سكان ما وراء النهر من دفع الجزية ، لم يكن راجعًا إلى كونها عبئًا ماليًا ، بقدر ما كان راجعًا إلى إحساسهم بالمهانة من دفعها وهم مسلمون ، بعد أن علموا أنه لا جزية على المسلم ، ولذلك تمسكوا بهذا الحق المشروع ، وقاوموا الولاة من أجل ذلك ، وكان العرب المسلمون يتضامنون معهم لرفع هذا الحيف ، ولتصحيح أخطاء الولاة .

وخلاصة القول : أنه على الرغم من كل شيء فقد شق الإسلام - ذلك الدين السمح البسيط - طريقه إلى قلوب الناس ، وتحول أهالي ما وراء النهر إليه بالتدريج ، وأصبحت بلادهم جزءًا مهمًا من العالم الإسلامي أثرت في تاريخه وحضارته تأثيرًا كبيرًا ، وازدهرت فيها الثقافة الإسلامية وأخرجت عددًا هائلًا من العلماء والمفكرين المسلمين ، وأصبحت مدن كبخارى وسمرقند وترمذ ونسف ، وغيرها من أهم مراكز الحضارة الإسلامية .

ولا أدل على رسوخ الإسلام في هذه البلاد من تمسك أهلها به على مدى القرون الماضية وحتى الآن ، رغم وقوعها منذ القرن الماضي وبداية القرن الحالي تحت براثن الحكم الشيوعي الروسي .

كما أصبحت بلاد ما وراء النهر معبرًا رئيسيًا للإسلام إلى الصين وغيرها من بلدان شرق آسيا ، فقد أخذ التجار المسلمون يجوبون الطرق التجارية القديمة بين العالم الإسلامي وتلك البلاد ، وكانوا إلى جانب تجارتهم يقومون بدور الدعاة إلى دين اللّٰه [1] ، وكانوا لأمانتهم وصدقهم وحسن معاملتهم يجذبون الناس إلى الإسلام بأعداد كبيرة .

وقد يسر للتجار المسلمين مهمتهم تلك العلاقات الطيبة التي قامت بين الدولة الأموية في أواخر أيامها وبين إمبراطورية الصين ، فقد سبق أن ذكرنا أن قتيبة بن مسلم كان قد وصل بفتوحاته سنة (٩٦هـ) عند كاشغر على حدود الصين ، وأنه أرسل وفدًا إلى إمبراطور الصين ، بناء على طلب الأخير ، وأن الوفد عاد محملًا بالهدايا والجزية .

---

(١) د . حسن محمود - المرجع السابق (ص ١٥٥) ، وبارتولد - تاريخ الترك في آسيا الوسطى (ص ١٢٩) .

ثم قامت بعد ذلك علاقات ودية بين الدولة الأموية وإمبراطور الصين فقد ذكر أرنولد [١] - نقلًا عن المصادر الصينية - أن الخليفة هشام بن عبد الملك أرسل في سنة (١٠٨هـ - ٧٢٦م) سفيرًا اسمه سليمان إلى إمبراطور الصين هزوان تسنج ، ومع أن أرنولد لم يحدثنا عن طبيعة هذه السفارة ومهمتها ، إلا أنها تدل على حسن العلاقات على كل حال ، تلك العلاقات التي تطورت إلى أفضل مع العباسيين ، حيث يذكر المؤلف نفسه أن إمبراطور الصين سوتسونج ، وهو ابن الإمبراطور السابق ، قد استغاث بالخليفة العباسي ، أبي جعفر المنصور ، ضد ثورة قامت عليه في سنة (١٣٩هـ - ٧٥٦م) فأغاثه المنصور بفرقة من الجيش الإسلامي ، التي لم تعد إلى بلادها بعد القضاء على الثورة ، بل بقي الجنود المسلمون في الصين وتزوجوا وعاشوا هناك [٢] .

انتشار الإسلام في السند

كان إقليم السند عندما فتحه المسلمون - في أواخر القرن الأول الهجري - مملكة مستقلة ، يحكمه ملك ، هو داهر بن جج ، الذي قضى عليه محمد بن القاسم ؛ ذلك لأن الإمبراطورية الهندية كانت قد أضعفتها غزوات الهون ، التي انحدرت إليها من بلاد ما وراء النهر منذ القرن الخامس الميلادي [٣] ، فتفككت وانقسمت إلى ولايات مستقلة ، ولم تكن العلاقات بين هذه الولايات ودية ؛ وإنما سادت بينها المنازعات والحروب قبل الفتح الإسلامي ، وكان وضعها شبيهًا بوضع إمارات ما وراء النهر ، في الفترة ذاتها [٤] ، وكانت السند واحدة من هذه الولايات .

وكانت الأديان السائدة في السند آنئذ ، هي الأديان نفسها التي كانت سائدة في سائر الولايات الهندية ، وهي البرهمية ، والجينية والبوذية ، وليس من شأن هذه الدراسة أن تخوض في تفاصيل عقائد ومبادئ وأصول هذه الديانات وإنما يكفي أن نقول : إن الديانة البرهمية مثلًا قامت على الاعتقاد بألوهية براهما [٥] ، وبفكرة

---

(١) الدعوة إلى الإسلام (ص ٣٣٢ ، ٣٣٣) . (٢) المرجع السابق (ص ٣٣٣) .

(٣) د . حسن محمود - الإسلام في آسيا الوسطى (ص ١٩٩) .

(٤) المرجع السابق (ص٢٠١ - ٢٠٢) .

(٥) أحمد أمين - ضحى الإسلام (٢٣٧/١) ، نقلًا عن البيروني - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة .

الحلول وتناسخ الأرواح (١) .

وقد اعتقد الهنود أن إلههم براهما خلق الخلق على أربعة أنواع (٢) :

النوع الأول : خلقه من فمه ، وهم طبقة البرهميين .

النوع الثاني : خلقه من ذراعه وهم الأكشترية ، أو الكشتريون .

النوع الثالث : خلقه من فخذه وهم الفيشية ، أو الفيشيون .

النوع الرابع : خلقه من قدمه وهم الشودرية ، أو المنبوذون .

وعلى هذا الأساس قام نظام الطبقات الهندي المشهور ، حيث اعتبروا الطبقة الأولى المخلوقة من الفم ، هي أشرف الطبقات وأطهرها ، تليها الطبقة المخلوقة من الذراع ، ثم المخلوقة من الفخذ ، وأحط هذه الطبقات جميعًا هي المخلوقة من القدم .

ولقد انعكس هذا التقسيم على الأوضاع الاجتماعية ، حيث قسمت الكتب المقدسة عند الهنود ، وهي أسفار الفيدا ، الوظائف بين الطبقات على النحو التالي :

تتمتع طبقة البرهميين بأرقى الوظائف ، وهي الوظائف الدينية ، فهم وحدهم الـذين يعلِّمون الناس الأسفار الدينية المقدسة ، ويشرفون على القرابين والضحايا ، ولهم وحدهم الحق في القبول والمنع ، والإعطاء والأخذ .

أما الطبقة الثانية ، الأكشترية ، فلهم الوظائف الحربية وحماية الشعب ، والعمل على استتباب الأمن .

وتختص الطبقة الثالثة ، وهم الفيشيون ، بأعمال الزراعة والتجارة والصناعة إلخ ...

أما الطبقة الرابعة ، وهم المنبوذون ، فهم ليسوا إلا خدمًا للطبقات الثلاثة السابقة ، وفوق ذلك فهم رجس ونجس ، فلا يصح لمسهم ، ولا مؤاكلتهم ، ولا مصاهرتهم ، ولا الارتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود (٣) .

ولا يخفى ما في هذا التقسيم من ظلم وبعد عن الإنسانية وبصفة خاصة للطبقة الأخيرة ، والعجيب أن يظل هذا التقسيم الغريب للبشر قائمًا حتى الوقت الحاضر في

---

(١) المرجع السابق (٢٣٨/١) ، وانظر د. عبد الله مبشر الطرازي - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (٣١٨/١) .

(٢) د . علي عبد الواحد وافي - حقوق الإنسان في الإسلام (ص ١١) .

(٣) د . علي عبد الواحد وافي - المرجع السابق (ص ١١ ، ١٢) ، د . عبد الله الطرازي - المرجع السابق (٣٢٠/١ ، ٣٢١) .

الهند ، حيث يمثل مشكلة من أخطر المشكلات الاجتماعية التي تهدد الكيان الهندي كله .

وقد قامت الديانتان الأخريان (الجينية والبوذية) ، كرد فعل لنظام الطبقات الذي اتسمت به البرهمية ، وقد نشأتا في وقت متقارب ، حيث ولد مهاديرا مؤسس الديانة الجينية عام (٥٩٩ قبل الميلاد) ، وولد بوذا مؤسس البوذية عام (٥٥٧ قبل الميلاد) ، وقد حارب الجينيون والبوذيون نظام الطبقات حربًا لا هوادة فيها ، ولم يبحثوا في أمر الإله [١] ، كما هو الشأن في البرهمية وإنما اهتموا بالنواحي الأخلاقية ، فدعوا إلى تجرد الإنسان من شرور الحياة ، وإلى تطهير النفس من شهواتها وتحليها بالأخلاق في معاملاتها مع الناس ، فمبادئ الجينية والبوذية تتشابه تشابها كبيرًا في هذه النواحي [٢] .

والذي يعنينا هنا هو وضع هذه الأديان في السند عند الفتح الإسلامي حيث كانت الديانة الجينية قد تلاشت من الإقليم لأسباب كثيرة لا داعي لذكرها ، وبقيت الديانتان الأخريان ، ولكن في صراع ، فقد كانت البرهمية هي ديانة الملك والطبقة الحاكمة ، وكان الملك داهر نفسه من أسرة دينية برهمية ، حيث كان أبوه جج سادنًا لأحد المعابد البرهمية [٣] ، ومن ثم اشتد اضطهاد أتباع الديانة البوذية ، وكان الوضع في السند شبيهًا بالوضع في بلاد الفرس المجاورة ، حيث اضطهد الزرادشتيون أتباع الديانات الأخرى ، ولهذا رحب البوذيون بدخول المسلمين إلى السند ، واعتبروهم مخلصين لهم من الظلم والاستعباد ، وانضموا إليهم ، وأقبلوا على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة ، تفوق أعداد من اعتنقوه من البراهمة ، وفي الصفحات التالية نشرح كيف كان إقبالهم على الإسلام .

ذكرنا فيما سبق أن محمد بن القاسم الثقفي فتح السند في بضع سنين (٨٩ - ٩٦هـ) بعد مرحلة طويلة من الغزوات المتقطعة بدأت منذ عهد عمر بن الخطاب . ومنذ أن فتح المسلمون إقليم مكران سنة (٢٣هـ) - والذي يبدو أنه كان تابعًا للسند [٤] - بدأ الاحتكاك بين المسلمين وأهل السند ، وبدأت أخبار العرب ودينهم تصل إلى السكان هناك . ويذكر البلاذري أن كثيرين من أهل السند الذين فروا من

---

(١) لذلك تعتبر الجينية والبوذية من المذاهب الإصلاحية وإطلاق لفظ ديانة عليهما فيه تجوز .

(٢) د. عبد الله الطرازي - المرجع السابق (٣٢٦/١ - ٣٢٩) .

(٣) المرجع السابق (٣٣٣/١) .

(٤) انظر الطبري (١٨١/٤) وما بعدها .

اضطهاد البراهمة إلى أراضي الدولة الفارسية وحاربوا في صفوفها ، قد انحازوا إلى المسلمين واعتنقوا الإسلام ، فعندما كان أبو موسى الأشعري يفتح في السوس والأهواز في عهد عمر بن الخطاب ، أرسل إليه زعيم سندي اسمه سياه ، وهو زعيم الأساورة ، وقال له : « إننا قد أحببنا الدخول معكم في دينكم ، على أن نقاتل عدوكم من العجم معكم » [١] واشترط أن يفرض له ولقومه في العطاء ، وأن ينزلوا حيث شاؤوا من البلاد . فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فرد عليه عمر أن أعطهم جميع ما سألوا فلحقوا بالمسلمين وشهدوا مع أبي موسى حصار تستر [٢] . وبعد انتهاء المعارك نزلوا البصرة ، وفرض لهم العطاء ، ثم سألوا أي الأحياء أقرب إلى رسول الله ﷺ فقيل لهم : بنو تميم ، فحالفوهم ووضعت لهم الخطط [٣] .

ويذكر البلاذري أيضًا أن قومًا من أهل السند من الزط والسيابجة والأندغار ، قد لحقوا بالأساورة وأتوا أبا موسى الأشعري ، فأنزلهم البصرة [٤] ، وقد عمل كثيرون منهم في بيت المال ؛ لخبرتهم في الشئون المالية ، ومعرفتهم بالجبابة ، فيذكر البلاذري أنه كان في بيت مال البصرة في عهد علي بن أبي طالب ، أربعون من السيابجة وقيل : أربعمائة [٥] . ولم يكن عملهم قاصرًا على بيت المال ، وإنما عمل كثيرون منهم في المصارف الخاصة حتى ليروي الجاحظ : « أنك لا ترى في البصرة صيرفيًا إلا وصاحب كيسه سندي » [٦] .

وهكذا نجد في التاريخ أمثلة كثيرة على اتصال أهل السند بالمسلمين واعتناقهم الإسلام قبل فتح بلادهم ، ولا شك أن هؤلاء كانوا يسافرون بين حين وآخر إلى بلادهم ويحدثون ذويهم وأقرباءهم وأصحابهم عن الإسلام وتعاليمه السامية وسماحته الكبيرة [٧] ؛ مما يحملنا على الاعتقاد بأن قلوب بعض أهل السند قد تهيأت واستعدت لقبول الإسلام ، ويؤيد هذا الإقبال الكبير على اعتناقه أثناء الفتح وبعده .

فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام ، فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التي كان بها الأسرى من الجنود والتجار العرب ، والنساء العربيات وقتل حراس القلعة بناء على أوامر الحجاج ، انتقامًا

---

(١) فتوح البلدان (ص ٤٥٩) .
(٢ ، ٣) المصدر السابق (ص ٤٥٩) .
(٤) المصدر السابق (ص ٤٦١) .
(٥) المصدر السابق (ص ٤٦٢) .
(٦) أحمد أمين – المرجع السابق (٢٣٣/١) .
(٧) د . عبد الله الطرازي – المرجع السابق (٣٤٤/١) .

لشهداء المسلمين ، عندئذ جاء مدير السجن الذي كان به المسلمون ، واسمه قبلة بن مهترائج طالبًا منه العفو ؛ لأنه كان محسنًا للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة ، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه ، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشؤون الاقتصادية بمدينة الديبل ثم أعلن الرجل إسلامه ، فقربه محمد أكثر ، وعينه مترجمًا لرئيس الوفد الذي أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه ، ومعنى هذا أن الرجل كان يعرف اللغة العربية ، ومن المحتمل أن يكون قد تعلمها من العرب الذين كانوا مسجونين عنده في الديبل (١) .

وعندما تقدم محمد بن القاسم في السند ، بعد فتح الديبل ، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول في الإسلام فاستجاب له كثيرون وبصفة خاصة من البوذيين (٢) . فبعد أن أتم فتح إقليم سيوستان ، جاءه قوم من أهله وأسلموا بجملتهم (٣) .

وقصة إسلام هؤلاء تدل على عظمة الإسلام ، وتأثيره في القلوب ، فقد روي في سبب إسلامهم : أنهم كانوا قد أرسلوا جاسوسًا منهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم ، وأثناء وجوده حان وقت الصلاة فقام أحد الجنود المسلمين فأذن للصلاة بصوت خاشع جميل مؤثر ، ثم اصطف المسلمون في صفوف منتظمة خلف قائدهم محمد بن القاسم . فلما رأى الجاسوس السندي ، هذه الكيفية دخلت قلبه رهبة وتأثر بالمنظر تأثرًا كبيرًا ، فذهب إلى قومه وأخبرهم بما شاهده ، وشرح لهم شعوره فقالوا : إذا كان العرب متحدين متمسكين بدينهم بهذا الشكل في مثل هذا الوقت الخطير ، فلا يمكن لنا التغلب عليهم . وبعد المناقشة قرروا إرسال وفد إلى محمد بن القاسم وانتهت المفاوضات باعتناقهم الإسلام جميعًا ، وانضمامهم إلى المسلمين . ويعتبر هؤلاء أول جماعة كبيرة من البوذيين دخلوا الإسلام في بلاد السند (٤) .

وفي أثناء المعركة الرئيسية بين محمد بن القاسم ، وبين داهر ملك السند – انضمت فرقة كاملة من جيش داهر إلى المسلمين ، وأعلنوا إسلامهم وحاربوا معهم ، وبهذا يكون هؤلاء ثاني مجموعة كبيرة من أهل السند – وأول مجموعة من البراهمة –

(١) المرجع السابق (٣٤٨/١) . (٢) المرجع السابق (٣٤٦/١) .
(٣) المرجع السابق (٣٤٨/١) .
(٤) المرجع السابق (٣٥٨/١ ، ٣٥٩) نقلًا عن تاريخ معصومي بالفارسية الذي يذكر أن هؤلاء الذين أسلموا من أهل إقليم سيوستان ، قد أقاموا حفل تكريم للقائد محمد بن القاسم بمناسبة إسلامهم .

تدخل في الإسلام أثناء الفتح « لا بالقوة وإنما بالرغبة ، وعن إيمان ويقين بعظمة الإسلام ، مع أن الحرب كانت لا تزال دائرة ولم يكن من السهل معرفة نتيجة هذه المعركة الرئيسية » [١] .

وهكذا أخذ أهل السند يقبلون على الإسلام ، قبل تمام الفتح ، لا من عامة الشعب فحسب ، بل من الزعماء والحكام والقواد ، مثل حاكم بيت البوذي الأمير كاكة بن بساية وإخوته ووالدهم ، وكبار القواد في الديبل وسيوستان والبيرون ، ثم بعض الوزراء ، مثل سياكر وزير داهر نفسه [٢] . وكل هؤلاء أسلموا قبل مقتل داهر ، وبعد مقتله دخل كثير في الإسلام من حكام وأمراء المناطق الأخرى ، مثل الأمير كاكه بن جندر ، ابن عم داهر ، وحاكم منطقة الباتيه الواسعة [٣] .

وغني عن البيان أن إسلام هذا العدد الكبير من أهل السند من مختلف الأديان والطوائف من القواد ، والحكام ، والجيوش ، والآلاف من أفراد القبائل وقبل انتهاء عمليات الفتح ، غني عن البيان أن هذا تم عن قناعة وإيمان ثابت ، وليس بالقوة والإكراه كما يدَّعي أعداء الإسلام [٤] .

وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب ، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام ، أثر كبير في جذب الأهلين إلى الإسلام ، فلم يكن محمد بن القاسم يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجدًا [٥] ، فقد بنى مساجد في الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية .

وبعد محمد بن القاسم استمر الولاة في بناء المساجد في سائر مدن السند ، كما أسسوا مدينتين جديدتين ، وهما مدينة المحفوظة ، التي أنشأها الحكم بن عوانة الكلبي ، ومدينة المنصورة التي أنشأها عمرو بن محمد بن القاسم [٦] ، وكان المسجد أهم منشأة يحرص المسلمون على إقامتها ، بحيث كان يقام في مركز المدينة . ولا شك

---

(١) المرجع السابق (٣٤٩/١) نقلًا عن كتاب ججنامة بالفارسية ، ويقول المؤلف : إن هذا الكتاب ترجمة لكتاب ألفه عالم عربي في أواخر العصر الأموي ببلاد السند بعنوان منهاج الدين والملك ، ثم ترجمه عالم عربي آخر إلى الفارسية في القرن السابع الهجري ، وقد فقد الأصل العربي .

(٢) المرجع السابق (٣٥٠/١) نقلًا عن ججنامة بالفارسية .

(٣ ، ٤) المرجع السابق (٣٥٠/١) .

(٥) انظر البلاذري – فتوح (ص ٥٣٨) وما بعدها .

(٦) المصدر السابق (ص ٥٤٢ ، ٥٤٣) .

أنه كان لإنشاء هذه المساجد وأداء الشعائر الدينية فيها أثر كبير في جذب انتباه أهل السند وإثارة حب الاستطلاع في نفوسهم حول الإسلام ، والتساؤل حول عقيدته ومبادئه . وكان طبيعيًا أن يشرح لهم المسلمون كل هذه الأمور وكانوا كلما ازدادت معرفتهم بالإسلام يزدادون إقبالًا عليه ، عن رغبة صادقة وعقيدة راسخة [١] . وقد رأينا أن رجلًا واحدًا هزه مشهد المسلمين وهم يؤدون الصلاة ؛ فكان ذلك سببًا في إسلام طائفة كبيرة من قومه .

وهكذا نرى أن ظاهرة انتشار الإسلام في السند أثناء الفتح ربما كانت أوضح وأسرع منها في أي بلد آخر . وبعد الفتح بسنوات قلائل جاءت خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) ، ودعوته لملوك السند للدخول في الإسلام ، على أن يملكهم بلادهم ، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فاستجابوا له ، ودخل بعضهم في الإسلام ، وتسموا بأسماء عربية ، بعد أن كانت سيرته في العدل والتقوى والإصلاح قد وصلتهم [٢] .

والآن قد يتساءل البعض قائلًا : ما الذي جعل الشعب في السند يقبل على الإسلام بهذه السرعة الواضحة وعن طواعية واختيار ؟

الواقع أن السبب ، أو الأسباب هنا لا تشذ عما رأينا في سائر البلاد التي فتحها المسلمون من كاشغر إلى الأندلس .

فأولًا : كانت الديانة البوذية ، وهي ديانة أغلبية السكان ، قد تضاءل شأنها نتيجة الاضطهاد الوحشي والتفرقة الطبقية القاسية من جانب البراهمة وقد عانى البوذيون كثيرًا من ذلك . فلما دخل المسلمون بلادهم ، وجدوا في تعاليم الإسلام كل معاني الخير من حرية دينية وعدالة اجتماعية ، فأقبلوا عليه ليتخلصوا من الاضطهاد ومظالم نظام الطبقات [٣] ؛ لأن الإسلام لايعرف الطبقية ، فهو دين المساواة ، ولا يفاضل بين الناس على أساس الجنس أو الطبقة ، بل أفضل وأكرم الناس عند اللَّه أتقاهم ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

ثانيًا : الحرية الدينية التي منحها المسلمون لأهل السند ، سواء أكانوا براهميين

---

(١) د . عبد اللَّه الطرازي - المرجع السابق (٣٥٧/١) .
(٢) البلاذري - المصدر السابق (ص ٥٤٠) .
(٣) د . عبد اللَّه الطرازي - المرجع السابق (٣٥١/١ ، ٣٥٢) .

أو بوذيين ، فمن رغب في البقاء على ديانته فله هذا الحق ، على أن يدفع الجزية ، وبهذا عامل المسلمون أتباع هذه الأديان كمعاملتهم لأهل الكتاب .

وقد ذكر البلاذري أن بعض المدن السندية فتحت صلحًا ، وأن أهلها دفعوا الخراج - أي الجزية - ومعنى ذلك أنهم أو بعضهم بقي على دينه ، كما حدث في مدينة البيرون [١] .

ولا شك أن هذه الحرية أشاعت جوًّا من الاطمئنان بين الناس ، وأعطتهم الفرصة للتفكير والمقارنة بين أديانهم وبين الإسلام ، ومثل هذه المقارنة إذا تمت في جو الحرية هذا ، وبعيدًا عن الإكراه ؛ فإنها بالتأكيد تظهر عظمة الإسلام وتفوقه على أديانهم من جميع الوجوه ، ولعل ذلك ما يفسر إقبال كثيرين من البراهمة على اعتناقه ، وهؤلاء لم يكونوا مضطهدين واعتناقهم الإسلام يبرهن على سلامة اعتقادهم فيه دينًا يدعو للتوحيد الخالص .

ثالثًا : التزام المسلمين في السند بما التزموا به في سائر البلاد التي فتحوها ؛ من حيث احترامهم لأموال الناس وأنفسهم ، وإبقاؤهم للنظم الإدارية القديمة ، واستخدام السكان في الإدارة وإشراكهم في الحكم . وقد تضمنت عقود الصلح التي أشار إليها البلاذري تأمين بعض الحكام على ما بيدهم من سلطات ، وهذا جعل الطبقات الحاكمة في السند تستجيب للإسلام على نحو ما استجابت له الطبقات الحاكمة في إيران وما وراء النهر .

وهكذا يمكن القول : إن معظم أهل السند قد وجدوا أنهم لم يخسروا شيئًا بدخول الإسلام بلادهم ، بل حققوا كثيرًا من المكاسب ، حيث حررهم الإسلام دينيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا ، وزاد تحررهم بالدخول في الإسلام وتحولهم إلى جماعات المؤمنين وفتحت أمامهم الحياة الإسلامية الأبواب واسعة [٢] .

وبالإضافة إلى كل ما تقدم فقد لعبت الهجرات العربية التي تدفقت على السند بعد الفتح مباشرة الدور نفسه الذي لعبته في الأقطار الأخرى من حيث تقريب الإسلام إلى قلوب الناس عن طريق الدعوة وإقامة الشعائر والاختلاط ، فالعرب لم يكونوا كغيرهم من الفاتحين ، يعيشون حياة منعزلة عن أهل البلاد بل كان هناك

---

(١) فتوح (ص ٥٣٦) .

(٢) انظر د. حسن محمود - المرجع السابق (ص ٢٢٩) .

امتزاج ومصاهرة ومعايشة .

والخلاصة : أنه منذ أن دخل الإسلام السند ، دخوله الظافر في نهاية القرن الأول الهجري ، أصبح هذا الإقليم جزءًا من الدولة الإسلامية واحتفظ بإسلامه حتى وقتنا هذا [١] ، وشارك ولا يزال مشاركة إيجابية في صنع التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، والحق أن إقليم السند مدين للإسلام لقيامه بهذا الدور ، فلولا الإسلام لبقي منزويًا في عزلته كما كان دون أن يحس به أحد ، أو يكون له دور في التاريخ .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي [٢] : « كانت هذه البقعة من الأرض وما جاورها من البلدان تعيش في عزلة عن العالم يحكمها ولاة يعتبرون أنفسهم آلهة على الأرض ، والناس كانوا يكفرون بين أيديهم ، ويقدسونهم كتقديس العبد لربه ، وكانت الأرض وخيراتها ملكًا لهم ، والناس عبيد عندهم ، يفعلون ما شاؤوا ويحكمون بما أرادوا ، الرقاب تحت سيوفهم ، والأعراض رهينة شهواتهم ، الضعيف المكافح كان أذل من الحيوان ، ولم يكن الشرف إلا بالوراثة . أما من ناحية العقيدة ، فلم تكن هناك ديانة واحدة بل ديانات متفرقة ، ليس فيما بينها رابط جامع ، وكل ما في الأمر أنهم كانوا يعتزون بطقوس وتقاليد ورثوها من آبائهم وتمسكوا بها جهلًا وغرورًا ، إن دخول الإسلام إلى بلاد السند وبلاد الهند ، كان فاتحة عصر جديد ، عصر علم ونور ، وحضارة وثقافة » ثم يقول : « لم يكن العرب المسلمون من طراز أولئك الغزاة الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها واعتبروها بقرة حلوبًا ، أو ناقة ركوبًا ، يحلبون ضرعها ، ويركبون ظهرها ، ويجزُّون صوفها ، ثم يتركونها هزيلة عجفاء ، ولا يعتبرون أنفسهم إلا كالإسفنج يتشرب الثروة من مكان ويصبها في مكان آخر ، كما كان شأن الإنجليز في الهند ، وفرنسا في الجزائر والمغرب الأقصى ، وإيطاليا في طرابلس وبرقة ، وهولندا في إندونيسيا .

بل وهب العرب البلاد التي فتحوها أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة وأخلاق وسجايا ومقدرة وكفاية وتنظيم وإدارة . أقبلوا عليها بالعقل النابغ ، والشعور الرقيق ، والذوق الرفيع ، والقلب الولوع ، واليد الحاذقة الصناع ؛ فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض ؛ فأمنت بعد خوف ،

(١) إقليم السند جزء من دولة باكستان المسلمة الحالية .

(٢) من تقديمه لكتاب الدكتور عبد الله الطرازي - السالف الذكر (٦/١ ، ٧) .

واستقرت بعد اضطراب ، وأخذت الأرض زخرفها وبلغت المدينة أوجها ، وتحولت الصحاري الموحشة والأراضي القاحلة إلى مدن زاخرة وأرض خصبة ، وتحولت الغابات إلى حدائق ذات بهجة ، والأشجار البرية إلى أشجار مثمرة مدنية ، ونشأت علوم لا علم بها للأولين ، وفنون وأساليب في الحضارة لا عهد لهم بها في الماضي ، وانتشرت التجارة وازدهرت الزراعة ، فكأنما ولدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلادًا جديدًا ولبست ثوبًا قشيبًا [١] .

* * *

(١) المرجع السابق (١/٥ ، ٦) .





الأحزاب والثورات المعادية لبني أمية

الفصل الخامس

الأحزاب والثورات المعادية لبني أمية

امتد عصر الدولة الأموية في التاريخ الإسلامي تسعة عقود أو تزيد ، من سنة (٤١هـ) إلى سنة (١٣٢هـ) ، وفي خلال هذه الفترة مدت حدود الدولة الإسلامية ، ورفعت راية الإسلام من كاشغر على حدود الصين شرقًا إلى الأندلس وجنوب فرنسا غربًا ، ومن آسيا الصغرى شمالًا حتى المحيط الهندي جنوبًا ، وعمل الخلفاء الأمويون بجد ومثابرة على نشر الإسلام في هذه الرقعة الهائلة ، وعلى استتباب الأمن وتوطيد الحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه المساحة من الأرض بمن عليها من أمم وشعوب تشكل عالمًا إسلاميًا واحدًا ، له طابعه وخصائصه كما رأينا في الفصول السابقة ، كما أن عصر الدولة الأموية كان عصر نمو الحضارة الإسلامية - التي وضعت بذورها منذ عهد الرسول ﷺ في ميادينها المختلفة من إدارة وعمارة وعلوم - وهذه كلها أعمال جليلة تشهد للأمويين بدورهم البارز في التاريخ الإسلامي . ويزداد الإعجاب بالأمويين وتقديرهم إذا عرفنا أنهم قاموا بتلك الأعمال الجليلة ، في الوقت الذي كانوا يصارعون فيه أعداء أشداء من كل لون ، ناصبوهم العداء وحقدوا عليهم أشد الحقد ، فلم يدعوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها ، فجعلوا الدولة تعيش معظم أيامها في صراع داخلي « فلا تكاد تتغلب على عدو ، حتى يبرز لها عدو آخر ، حتى إذا أذن الله أن تتغلب عليه فاجأها عدو غيره أو أفاق العدو الأول ليستأنف معها المعركة من جديد » [1] .

والثورات التي هبت في وجه الدولة الأموية منذ قيامها ، والأحزاب التي ناصبتها العداء طوال تاريخها عديدة ، والعجيب أن هذه الثورات والأحزاب لا يجمعها هدف واحد سوى العداء لبني أمية والقضاء على دولتهم ؛ فكانت منها الثورات ذات الطابع العقدي ، مثل ثورات الخوارج والشيعة ، الذين اتخذوا من الدين سندًا لمحاربة بني أمية ، ويمكن أن نعتبر حركة عبد الله بن الزبير من هذا القبيل أيضًا ؛ لأنه كان يرى نفسه أحق بالخلافة من يزيد بن معاوية ومن جاء بعده منهم ، والسند هنا

(١) د . محمد الطيب النجار - الدولة الأموية في المشرق (ص ٨٥) .

ديني أيضًا ، كما كانت هناك ثورات دفع إليها الطموح الشخصي والبحث عن الأضواء والسلطان ، مثل ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، الذي ركب تيار الشيعة ليخفي هدفه الحقيقي ، ومثل ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ويزيد ابن المهلب .... إلخ .

ثم هناك عنصر آخر ناصب الدولة الأموية العداء طوال تاريخها ، وهم الموالي ، وأعني بهم المسلمين من غير العرب ، وبصفة خاصة الفرس ، « وهؤلاء لم يظهروا كحزب معارض له كيانه واستقلاله ولكنهم كانوا ينضمون للأحزاب المعارضة للدولة ، والخارجة على سياستها ويرون في ذلك متنفسًا لهم ، وسبيلًا إلى تحقيق آمالهم في إضعاف الكيان العربي ، ومحاولة القضاء عليه » [1] . ومع أن الدولة الأموية لم تلن أمام كل هؤلاء الأعداء ، وواجهتهم بكل قوة وحزم ، وقضت على معظمهم ، إلا أن كفاحها ضدهم وما كبدوها من خسائر مادية ومعنوية ، أضعفها وأوهن من قوتها ، وكان من أهم أسباب سقوطها . وفي هذا الفصل سندرس قصتها مع هذه المجموعات طوال تاريخها ، بادئين بالخوارج ؛ لأنهم كانوا أول من شهر السلاح في وجهها .

الخوارج

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم في معركة صفين ، وكانوا قبلها من أشد أنصار علي بن أبي طالب ، وحضروا معه موقعة الجمل وصفين ، ولكنهم انشقوا عليه بعدها ، ورفضوا التحكيم ، وحاول عليٌّ إقناعهم وردهم إلى الجماعة ، ولكنهم تشبثوا بموقفهم ، وبالغوا في شقاقهم وتطرفوا ، حتى عاثوا في الأرض فسادًا ؛ مما جعل عليًّا يقاتلهم ويقضي على معظمهم في معركة النهروان ، كما سبقت الإشارة .

وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج ؛ لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام ، وعلى جماعة المسلمين . أما هم فيسمون أنفسهم الشراة ؛ لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى ، على أن لهم الجنة . يشيرون بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] ويسمون المحكمة ؛ لأنهم قالوا : لا حكم إلا لله .

---

(١) المرجع السابق (ص ٨٦) .

وكان يطلق عليهم أيضًا الحرورية ؛ نسبة إلى قرية حروراء التي انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على علي ، ولما كان سبب خروجهم هو قبول عليٍّ التحكيم بينه وبين معاوية ، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية في الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة [١] :

المبدأ الأول : أن الخلافة ليست وقفًا على قريش كما يذهب أهل السنة [٢] . بل تجوز لكل مسلم يكون أهلًا لها حتى ولو كان عبدًا حبشيًّا ، ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين ، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها ، أويقبل التحكيم [٣] . وفي ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر ، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته في شطرها الأول ، ثم تبرؤوا منه وكفَّروه في بقية عهده . وأما عليٌّ فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم ، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته ، بل كفَّروه [٤] . كذلك لم يعترفوا بخلافة معاوية وسائر بني أمية [٥] ، وكفَّروهم . كما كفَّروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري . وعلى الجملة كفَّروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين واعتبروا دارهم دار كفر ، وأباحوا أموالهم ودماءهم ، وحتى قتل أطفالهم [٦] .

المبدأ الثاني الذي قامت عليه نظرية الخوارج : هو وجوب الخروج على الإمام الجائر [٧] ، وهنا وجه الخطورة في حركتهم كلها ، فلو اقتصروا على الخلاف النظري في الرأي أو الجدال بالحجة والبرهان ؛ لكان الأمر أهون ، ولكنهم شهروا السلاح في وجه مخالفيهم ، بدءًا من علي بن أبي طالب ، وحاولوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة ، وكما تطرفوا إلى أبعد حد في الرأي والمذهب ، فقد تطرفوا في اللجوء إلى القوة والعنف ، وكبدوا الأمة وأنفسهم خسائر فادحة ، وعكروا صفو الدولة الأموية ، وكانوا من أشد مناوئيها .

---

(١) د . محمد ضياء الدين الريس – النظريات السياسية الإسلامية (ص ٥٧) .
(٢) الماوردي – الأحكام السلطانية (ص ٦) .
(٣) د . محمد الطيب النجار – المرجع السابق (ص ٨٧) .
(٤) أبو الحسن الأشعري – مقالات الإسلاميين (١٥٦/١ ، ١٨٩) .
(٥) د . محمد الطيب النجار – المرجع السابق (ص ٨٧) .
(٦) أبو الحسن الأشعري – المصدر السابق (١٥٩/١ ، ١٨٩) .
(٧) د . محمد ضياء الدين الريس – المرجع السابق (ص ٦٧) .

يقول الدكتور النجار : « ولم يكن الخوارج إلا فئة من الناس خدعوا بالسراب فرأوا أن الحق في جانبهم وحدهم وأن الناس جميعًا ليسوا على شيء ؛ ولذا قالوا بكفر كل من يخالفهم من المسلمين ، بل لقد كانوا يرون الكفار المشركين أحسن حالًا من المسلمين المخالفين لمبادئهم » [(١)] . ومما يدل على ذلك قصتهم مع واصل بن عطاء ، أحد شيوخ المعتزلة ، فقد وقع يومًا في أيديهم هو وبعض أصحابه ، فخافوهم على أنفسهم عندما سألوهم من أنتم ؟ فقالوا : نحن مشركون مستجيرون [(٢)] . فتركوهم ونجوا بذلك من أذاهم .

ومع خطورة أفكار الخوارج ، التي لا زالت تجد لها مكانًا في عقول بعض شباب المسلمين ، الذين يكفِّرون المجتمع المسلم كله لقلة فهمهم لروح الإسلام ، إلا أننا لا نستطيع أن نحكم عليهم بالكفر ، وأصدق وصف لهم ما قاله لهم عمر بن عبد العزيز : « أردتم الآخرة وأخطأتم طريقها » [(٣)] فضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

أشهر فرق الخوارج :

ظل الخوارج فرقة واحدة يتبنون أفكارًا ومبادئ واحدة بصفة عامة إلى ما بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة (٦٤هـ) . ولكنهم منذئذ بدؤوا ينشقون على أنفسهم وكلما اختلف أحدهم مع رفاقه في الرأي انشق عنهم مكونًا له فرقة خاصة ، حتى وصل عدد فرقهم إلى أكثر من ثلاثين فرقة [(٤)] . ورؤوس هذه الفرق وأشهرها خمس :

١ - **الأزارقة** : وهم أتباع نافع بن الأزرق ، الذين يعدون أشد فرقهم تطرفًا في الأفكار والمبادئ وجنوحًا إلى العنف ، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه ؛ فقد برئ من القاعدين الذين لا يخرجون معه للقتال ، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه [(٥)] . فضلًا عن إباحته أموال ودماء مخالفيه ، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده في النار .

٢ - **النجدات** : وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي ، وهم أقل تطرفًا من الأزارقة

---

(١) المرجع السابق (ص ٨٨) .

(٢) المبرد - الكامل (١٦٤/٣) . يحدث هذا مع أحد رؤوس المعتزلة مع أن أفكار ومبادئ المعتزلة أقرب ما تكون إلى فكر الخوارج . انظر مقالات الإسلاميين (١٨٩/١) .

(٣) المسعودي - مروج الذهب (٢٠١/٣) .

(٤) انظر مقالات الإسلاميين للأشعري (١٥٧/١) وما بعدها .

(٥) المصدر السابق (١٥٨/١) .

ولا يقولون بتكفير مرتكب الكبيرة [١] .

٣ – **البيهسية** : ينسبون إلى بيهس ، واسمه هيصم بن جابر من بني سعد ابن ضبيعة بن قيس [٢] . وهم أقل تطرفًا من الأزارقة ، ويزعمون أن مخالفيهم تجري عليهم أحكام المنافقين ؛ يجوز جوارهم وزواجهم وميراثهم .

٤ – **الصفرية** : أتباع زياد بن الأصفر ، وهم لا يوافقون الأزارقة على تعذيب الأطفال [٣] .

٥ – **الإباضية** : أتباع عبد اللّه بن إباض ، ويختلفون عن الأزارقة في أنهم لا يرون اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأي شيء ، بالسيف أو بغيره [٤] .

وليس من شأن هذه الدراسة أن تدخل في تفاصيل مبادئ الخوارج وأفكارهم ومسائل الخلاف بينهم وبين الفرق الإسلامية الأخرى ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم [٥] . وإنما قصدنا هنا أن نبين إلى أي مدى وصل الخوارج في مناوأة الدولة الأموية ، وشن الحرب عليها دون هوادة ، وما صحب ذلك من نتائج كان لها أثرها البعيد في حياة هذه الدولة .

ثورات الخوارج :

ذكرنا قبل قليل أن خطورة حركة الخوارج تكمن في لجوئهم إلى الثورة والعنف ، ولشدة إيمانهم بمبادئهم فقد ضحوا في سبيلها بأرواحهم ، وأبدوا كثيرًا من ضروب الشجاعة والإقدام في حروبهم مع الدولة الأموية ، وكانوا اشبه بالفرق الانتحارية ، فكثيرًا ما كانت أعداد قليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة ، ولو أن هذه الشجاعة

---

(١) نفسه (١٥٧/١) .

(٢) ابن قتيبة – المعارف (ص ٦٢٢) ، والأشعري – المصدر السابق (١٧٧/١) .

(٣) الأشعري المصدر السابق (١٦٩/١) . (٤) المصدر السابق (١٨٩/١) .

(٥) أهم المسائل التي دار حولها جدل الخوارج وخلافاتهم ، هي : الجهاد أو العقود عنه ؟ التقية أو المجاهرة ؟ البحث في دار المخالفين ، أدار حرب أم سلام ؟ وكيف تكون المعاملة معهم من مبايعة وموارثة ونسب ... إلخ ؟ وهل تجوز الإقامة بينهم ؟ وهل الكفر نوع أم أنواع ؟ وما حكم أطفال المشركين وأموالهم ، وهكذا خلطوا أبحاث العقيدة بالمسائل الفقهية ، وكان لكل فرقة آراؤها الخاصة بها حول هذه المسائل . راجع حول كل هذا المصدر السابق (١٥٦/١ – ١٩٦) ، والدكتور محمد ضياء الدين الريس – المرجع السابق (ص ٦٨) .

والإقدام والتضحية اتجهت اتجاهًا سليمًا ووحّد الخوارج جهودهم مع جهود الدولة في محاربة أعداء الإسلام لربما تغيّر وجه التاريخ الإنساني كله بشكل جذري . والغريب أنهم لم يكونوا طلاب دنيا ، ولم يجروا وراء المادة ، وانما أخلصوا للفكرة التي آمنوا بها وملكت عليهم جوانب حياتهم [١] ؛ فأفنوا أنفسهم ، وكلفوا الدولة الأموية الكثير من الجهد والوقت والمال والأرواح .

وإذا كان الخوارج قد خرجوا على إمامهم علي بن أبي طالب وكفَّروه وحاربوه ، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف وبغضهم لها أشد ؛ فقد شهروا السلاح في وجهها من أول لحظة فثاروا على معاوية قبل أن يغادر الكوفة في عام الجماعة (٤١هـ) وكان أول من ثار عليه عبد اللّٰه بن أبي الحوساء ، بالنخيلة [٢] . فبعث إليه معاوية خالد ابن عرفطة العذري ، في جمع من أهل الكوفة فهزم جمعه ، وقتل ابن أبي الحوساء في جمادى الأولى سنة (٤١هـ) [٣] .

وبعد القضاء على ثورة ابن أبي الحوساء خرج حوثرة بن ذراع الأسدي ، فأرسل إليه معاوية عبد اللّٰه بن عوف بن أحمر في ألف جندي ، فقضى على ثورته وقتله في جمادى الآخرة من نفس العام [٤] .

ثم خرج فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة من الخوارج ، فأرسل إليه معاوية جمعًا من أهل الشام ، ولكن الخوارج ، وهم في قلة عددهم ، هزموا أهل الشام وكشفوهم . فقال معاوية لأهل الكوفة : « لا أمان لكم واللّٰه عندي حتى تكفوا بوائقكم . فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم [٥] وكانت أشجع قد أخذوا صاحبهم فروة ، فاستعمل الخوارج بدله عبد اللّٰه بن أبي الحر – رجلًا من طيئ – فقاتلوا فقتلوا [٦] .

وفي سنة (٤٣هـ) خرج خارجي آخر هو المستورد بن جوين الطائي ، والغريب أن خروجه كان في أثناء ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة ، الذي انتهج سياسة

---

(١) لعل خير ما يصور حال الخوارج وعزوفهم عن الدنيا واستغراقهم في العبادة ، وتفانيهم في سبيل مبادئهم ، وصف أبي حمزة الخارجي لهم . انظر في ذلك الطبري – تاريخ (٣٩٦/٧ ، ٣٩٧) ولولا تطرف هذه الفرقة في الأفكار وجنوحها الى العنف لكان لها في التاريخ الإسلامي مكان غير الذي كان .

(٢) النخيلة موضع قرب الكوفة على سمت الشام – انظر – ياقوت معجم البلدان (٢٧٨/٥) .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٠٣ ، ٢٠٤) . (٤) المصدر السابق (ص ٢٠٤) .

(٥) الطبري – تاريخ (١٦٦/٥) . (٦) المصدر السابق (١٦٦/٥) .

سلمية هادئة ، ولم يشأ أن يزيد جراح العراقيين اتساعًا ، يقول الطبري : « وبعث - معاوية - المغيرة بن شعبة واليًا على الكوفة ، فأحب العافية ، وأحسن في الناس السيرة ، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم ، وكان يؤتى فيقال له : إن فلانًا يرى رأي الشيعة ، وإن فلانًا يرى رأي الخوارج ، فكان يقول : قضى اللَّه ألا تزالوا مختلفين ، وسيحكم اللَّه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون . فأمنه الناس » [١] .
كان خليقًا بهذه السياسة أن تجعل الخوارج يميلون إلى الهدوء ويبتعدون عن العنف ، ولكنها على العكس أغرتهم بالخروج والتمرد ، فلما خرج المستورد ، لم يجد المغيرة بدًّا من قتاله لتخليص الناس من شروره وشرور أمثاله ، وقد دلت الأحداث على أن أهل الكوفة رغم عدائهم للدولة الأموية ، إلا أنهم ملُّوا حركات الخوارج ، وساءهم إفسادهم في الأرض وإراقتهم للدماء فلما دعا المغيرة رؤساءهم وقال لهم : « إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأي ، فمن ترون أبعث إليهم ؟ فقام إليه عدي بن حاتم ، فقال : كلنا لهم عدو ، ولرأيهم مسفه ، وبطاعتك مستمسك ، فأينا شئت سار إليهم » [٢] . ثم قال معقل بن قيس ، وهو من زعماء الكوفة ومن أنصار علي السابقين : « إنك لا تبعث إليهم أحدًا ممن ترى حولك من أشراف المصر ، إلا وجدته سامعًا مطيعًا ، ولهم مفارقًا ، ولهلاكهم محبًا ، ولا أرى - أصلحك اللَّه - أن تبعث إليهم أحدًا من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني ، فابعثني إليهم ، فإني أكفيكهم بإذن اللَّه ، فقال : اخرج على اسم اللَّه ، فجهز معه ثلاثة آلاف رجل » [٣] .

وظل معقل يتعقب المستورد وأصحابه ، ودارت بينهم عدة معارك ، وفي النهاية هزم الخوارج عند ساباط [٤] . وقتل المستورد ومعقل كل منهما صاحبه [٥] . وهكذا أثبت المغيرة للخوارج أنهم كانوا مخطئين عندما ظنوا لينه وتسامحه ضعفًا . وأنه لن يسمح لأحد أن يهدد سلطان الدولة .

ازداد الضغط على الخوارج منذ ولي معاوية زياد بن أبي سفيان البصرة سنة (٤٥هـ) ، فزياد معروف بسياسة الحزم والقوة ، والحرص الشديد على استقرار الأمن والنظام ، فأخذ هو والمغيرة ، يتعقبان الخوارج ويضربان على أيديهم بيد من حديد .

(١) المصدر السابق (١٧٤/٥) .
(٢ ، ٣) المصدر السابق (١٨٨/٥) .
(٤) ساباط : موضع بالقرب من المدائن . ياقوت - معجم البلدان (١٦٦/٣) .
(٥) الطبري - المصدر السابق (٢٠٩/٥) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤٣٦/٣) .

ولما توفي المغيرة سنة (٥١هـ) ، جمع معاوية الكوفة مع البصرة لزياد ، وأصبح سيد الموقف في المشرق كله ، استمر على سياسته الحازمة القوية تجاه الخوارج ، فلم تقم لهم طيلة ولايته قائمة [(١)] . وبعد وفاة زياد سنة (٥٣هـ) ، حمل لواء مقاومة الخوارج ابنه عبيد الله فقد ولاه معاوية البصرة سنة (٥٥هـ) [(٢)] فاشتد في تعقبهم ومعاقبتهم أكثر مما كان يصنع أبوه ، فقتل منهم أعدادًا كبيرة [(٣)] ، ومما يدل على قسوته في معاملتهم قتله عروة بن أدية ، الذي كان ينتقده ويتناوله بلسانه ، فقبض عليه ، وأمر بقطع يديه ورجليه ، وقال له : كيف ترى ؟ قال : « أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك ، فقتله ، وأرسل إلى ابنته فقتلها » [(٤)] . هذه المعاملة القاسية التي لقيها عروة بن أدية من عبيد الله بن زياد أدت إلى خروج أخيه أبي بلال مرداس ابن أدية وثورته بالأهواز ، والعجيب أن مرداسًا استطاع بأصحابه الذين لم يكن عددهم يزيد عن الأربعين رجلًا أن يهزم عدة جيوش أرسلها إليه ابن زياد ، منها جيش كان على رأسه ابن حصن التميمي ، وكانت عدته ألفين ، فهزمهم مرداس وأصحابه ، وقال فيهم شاعرهم :

أألفا مؤمن منكم زعمتم ... ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

ظل مرداس بن أدية ثلاث سنوات من (٥٨هـ) إلى سنة (٦١هـ) يقاوم جيوش ابن زياد ويهزمها الواحد بعد الآخر ، وفي النهاية أرسل إليه جيشًا قوامه ثلاثة آلاف عليهم عباد بن الأخضر التميمي ، فاستطاع هزيمة مرداس وأصحابه وقتلهم جميعًا بتوج سنة (٦١هـ) [(٥)] .

ولما اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج ، وأسرف في قتلهم ، اضطر كثيرون منهم إلى الخروج من البصرة ، فانحاز قسم منهم إلى عبد الله بن الزبير في مكة ، ليدافعوا معه عن الكعبة ضد جيش مسلم بن عقبة المري ، الذي سار إليها بعد موقعة الحرة في نهاية سنة (٦٣هـ) . ولكنهم ما لبثوا أن انشقوا على ابن الزبير لما عرفوا أنه

---

(١) د . محمد الطيب النجار - المرجع السابق (ص ٩٣) .
(٢) الطبري - تاريخ (٢٩٩/٥) .
(٣) المصدر السابق (٣١٢/٥) .
(٤) المصدر السابق (٣١٤/٥) .
(٥) المصدر السابق (٤٧١/٥) .

لا يوافقهم على آرائهم ، وبصفة خاصة في تكفير عثمان بن عفان والبراءة منه [١] .
وعادوا من مكة منقسمين على أنفسهم ، فخرج نجدة بن عامر الحنفي إلى اليمامة ، وعاد نافع بن الأزرق إلى البصرة مكونين فرقتي النجدات والأزارقة ، ولعل هذا أول انقسام في صفوفهم . أما النجدات فقد كونوا لهم دولة في اليمامة والبحرين ، اتسع نفوذها إلى اليمن والطائف ، وظلت تصارع الأمويين حتى قضى عليها عبد الملك بن مروان سنة (٧٣هـ) [٢] .

أما الأزارقة ، فعند عودتهم إلى البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية ، في ربيع الأول سنة (٦٤هـ) - كان الأمن فيها قد اضطرب اضطرابًا شديدًا ، وعجز عبيد اللَّه ابن زياد عن السيطرة على الموقف ، فاضطر إلى الهرب منها [٣] .

ولما رأى أهل البصرة خطر الخوارج يقترب منهم ، فزعوا وانزعجوا ؛ لما يعلمونه عنهم من عنف وتطرف وإفساد في الأرض ، فاجتمع زعماؤهم للتشاور والاتفاق على دفع هذا الخطر ، واتفقوا على تكوين جيش عدته عشرة آلاف ، أمَّروا عليهم مسلم بن عبيس القرشي ، فاستطاع أن يطاردهم إلى الأهواز ، ولكنه قتل في معركة معهم عند دولاب ، وقتل أيضًا نافع بن الأزرق زعيم الخوارج وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة (٦٥هـ) [٤] . فولوا مكانه عبد اللَّه بن الماحوز ، فلم يلبث أن قتل في إحدى المعارك . فولوا بعده أخاه عبيد اللَّه بن الماحوز ، فاستطاع هزيمة أهل البصرة ، فلما رأى أهلها تفاقم الخطر وعجز القواد عن صد هذا الخطر ؛ فزعوا إلى واحد من خيرة الرجال ليتولى قيادتهم في قتال الخوارج وإبعاد خطرهم عن البصرة ، إنه المهلب بن أبي صفرة .

كان المهلب عندما وقع عليه هذا الاختيار قادمًا من مكة من عند عبد اللَّه ابن الزبير ، الذي كان قد أعلن نفسه خليفة ، وقد ولاه خراسان ، فلما عرض عليه أهل البصرة قيادتهم لقتال الخوارج اعتذر لهم بعهده على خراسان ، ولكنهم ألحوا عليه ، وكتبوا كتابًا إلى ابن الزبير يطلبون منه أن يوافق على تصدي المهلب للخوارج ، فوافق

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٥٣) ، وانظر الطبري - تاريخ (٥/٥٦٦) .
(٢) انظر الطبري - تاريخ (٦/١٩٣) وابن الأثير - الكامل (٤/٣٦٢) .
(٣) انظر الطبري - تاريخ (٦/٥٢١) وابن الأثير - الكامل (٤/١٢٩) .
(٤) الطبري (٥/٦١٤) ، وابن الأثير (٤/١٩٥) .

على ذلك [١] . وتحت إلحاح أهل البصرة قبل المهلب القيام بالمهمة بشروط اشترطها عليهم ، وهي : أن يأخذ من بيت المال ما يقوى به على قتال الخوارج ، وأن يكون له ما غلب عليه من البلاد ، فوافقوا على ذلك [٢] ، فاختار اثني عشر ألفًا من أهل النجدة والشجاعة من أهل البصرة ، وتمكّن المهلب بما أوتي من شجاعة وبسالة وعبقرية في القيادة أن يبعدهم عن البصرة ، ودارت بينه وبينهم عدة معارك كان النصر حليفه فيها ، وظل يلاحقهم حتى تفرقوا في أقاليم الأهواز وفارس وكرمان [٣] .

استمر المهلب يقاوم الخوارج ما يقرب من عامين ، ثم استدعاه مصعب بن الزبير - الذي أصبح والي البصرة من قبل أخيه عبد اللّه - ليشترك معه في حرب المختار الثقفي سنة (٦٧هـ) . وبعد هزيمة المختار عيَّن مصعب المهلب واليًا على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية [٤] ، ولكن أحدًا لم يستطع أن يقوم مقام المهلب في مقاومة الخوارج ؛ مما اضطر مصعبًا أن يستدعيه من الموصل ليتولى قتالهم من جديد [٥] . وبينما المهلب يقاوم الخوارج في الأهواز تمكّن عبد الملك بن مروان من استعادة سيطرة الدولة الأموية على العراق ، بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة (٧٢هـ) [٦] ، وولّى أخاه بشر بن مروان على العراق وأمره بإبقاء المهلب على حرب الخوارج ومساعدته ، فعمل بشر بما أمره به أخوه .

وبرهن المهلب على إخلاصه في حرب الخوارج الأزارقة مهما كانت السلطة التي تصدر إليه الأوامر [٧] ، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير استمر يقاتلهم تحت لواء عبد الملك ، ولما أسندت ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف الثقفي سنة (٧٥هـ) جدَّ في مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره ، فاشتد في مقاومتهم حتى تمكّن من القضاء على خطرهم ، وقد أتاح له الخوارج أنفسهم فرصة كسر شوكتهم عندما انقسموا على أنفسهم قسمين : قسم تزعمه رجل اسمه عبد ربه الكبير ، وقسم ظل تحت قيادة قطري بن الفجاءة [٨] . أما مجموعة عبد ربه فقد قضى عليها

---

(١) الطبري - تاريخ (٦١٦/٥) . (٢) المصدر السابق (٦١٦/٥) .
(٣) المصدر السابق (٦١٩/٥) وما بعدها . وانظر ثابت الرواي - العراق في العصر الأموي (ص ٢٣٣) .
(٤) الطبري - تاريخ (١١٦/٦) . (٥) المصدر السابق (١٢٧/٦) .
(٦) المصدر السابق (١٦٠/٦) .
(٧) ثابت الراوي - المرجع السابق (ص ٢٣٣ ، ٢٣٤) .
(٨) الطبري ، المصدر السابق (٣٠١/٦) .

المهلب نهائيًّا [١] ، وأما قطري بن الفجاءة ومجموعته فقد رحلوا إلى طبرستان ، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم سنة (٧٧هـ) بمساعدة جيش أرسله إليه الحجاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي [٢] ، وهكذا قضى المهلب على خطر من أكبر الأخطار التي هددت الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان ، وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز ، واستمرت حركتهم ثلاثة عشر عامًا (٦٥ - ٧٨هـ) .

ثورة شبيب بن يزيد :

قبل أن يتم للمهلب القضاء على الأزارقة ، واجهت الحجاج ثورة خارجية أخرى قام بها الخوارج الصفرية من الموصل في شمال العراق ، وكانت ثورة خطيرة جدًّا ، فقد تمكّن قائدها شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجاج الجرارة وهو في عدد قليل ، وتمكن من دخول الكوفة [٣] والصلاة في مسجدها ، وقتل عددًا من أشرافها ، ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فخرج منها ، ثم عاد إليها ثانية وضرب عليها الحصار [٤] ، بعد أن هزم جيشًا للحجاج عدته أربعون ألفًا ، وقتل قائده عتاب ابن ورقاء ، وهو في ستمائة رجل [٥] . ولما يئس الحجاج من أهل الكوفة لتقاعسهم عن القتال وهالته هزائمهم المتكررة وهم في أعداد كبيرة أمام شبيب وهو في أعداد قليلة - أرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب مددًا من أهل الشام ، واضطر الحجاج أن يقود الجيش بنفسه ، واستطاع هزيمة شبيب لأول مرة ، فلاذ بالأهواز ، فأرسل الحجاج خلفه جيشًا التقى به هناك ، ولم تكن النتيجة حاسمة لأي من الفريقين . غير أن شبيبًا غرق بينما كان يعبر أحد الأنهار ، فوضع القدر نهايته وكان ذلك سنة (٧٧هـ) وبهذا تخلص منه الحجاج بعد أن كبّد الدولة كثيرًا من الأموال والأرواح [٦] .

---

(١) المصدر السابق (٣٠٤/٦) .
(٢) المصدر السابق (٣٠٩/٦) وما بعدها .
(٣) المصدر السابق (٢٢٤/٦) وما بعدها .
(٤) المصدر السابق (٢٦٧/٦) وما بعدها .
(٥) ثابت الراوي - المرجع السابق (ص ٢٣٨) .
(٦) المرجع السابق (ص ٢٣٨) وراجع تفاصيل ثورة شبيب وحروبه مع الحجاج في الطبري (٢٢٤/٦ - ٢٥٦ ، ٢٦٧ - ٢٨٤) .

شوذب الخارجي :

كانت الضربات الموجعة والمتلاحقة التي كالها المهلب بن أبي صفرة والحجاج بن يوسف الثقفي للخوارج من القوة بحيث كسرت شوكتهم وأخمدت أنفاسهم ، فاستكانوا فترة طويلة ، مدتها اثنان وعشرون عامًا (٧٨ - ١٠٠هـ) ، فلم نسمع لهم حسًّا ولم نر لهم حركة طوال ما تبقى من عهد عبد الملك بن مروان ، وعهدي ولديه الوليد وسليمان . وفجأة تحركوا من جديد بزعامة شوذب ، واسمه بسطام اليشكري سنة (١٠٠هـ) . والعجيب أن حركتهم الجديدة هذه جاءت في عهد رجل اشتهر بالصلاح والعدل ، وهو عمر بن عبد العزيز . فلما علم عمر بخروجهم أرسل إلى واليه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن ، أن يختار قائدًا كفئًا لمواجهتهم ولكن لا يهيجهم ولا يقاتلهم إلا إذا قاتلوه [١] . وفي الوقت نفسه قرر عمر أن يجرب معهم أسلوب الحوار بالحجة والبرهان ، بدلًا من الصراع بالسيف والسنان ؛ فأرسل إلى زعيمهم شوذب يعرض عليه ذلك ، وطلب منه إرسال وفد من عنده للمناظرة ، فقبل شوذب وأرسل إلى عمر رجلين من أصحابه ، فناظراه وناظرهما وأقام عليهما الحجة في معظم المسائل التي عرضت للمناقشة فاقتنعا بمنطقه ، عدا مسألة واحدة ظهر أن حجتهم فيها أقوى من حجة عمر ، وهي ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك ؛ فطلب عمر منهما إعطاءه فرصة للتفكير ، ولكنه توفي قبل أن تحل هذه المسألة [٢] . فلما بويع يزيد بن عبد الملك في سنة (١٠١هـ) أقر عبد الحميد بن عبد الرحمن على ولاية الكوفة ، فأراد أن يتقرب إلى يزيد بقتالهم ، فأرسل إليهم محمد بن جرير البجلي ، فأنشب معهم القتال ، فعلموا أنه ما صنع ذلك إلا لوفاة عمر ، ودارت الحرب ، وانتصر شوذب وجماعته القليلة على جيش محمد بن جرير ، كما هزموا جيشين آخرين أرسلهما يزيد بن عبد الملك [٣] . فلما رأى أهل الكوفة ذلك خافوا خطر الخوارج ، ففزعوا إلى مسلمة بن عبد الملك ، الذي كان قد وصل إلى الكوفة للقضاء على ثورة يزيد بن المهلب . فأرسل مسلمة جيشًا عدته عشرة آلاف بقيادة عمرو بن حريث ، فتمكّن من القضاء على شوذب وأصحابه وقتلهم جميعًا [٤] .

---

(١) انظر الطبري - تاريخ (٦/٥٥٥ - ٥٥٦)

(٢) المصدر السابق (٦/٥٥٦) . وقد أشرنا إلى هذه المسألة في ترجمة عمر بن عبد العزيز .

(٣) المصدر السابق (٦/٥٧٦) .

(٤) المصدر السابق (٦/٥٧٧) .

آخر ثورات الخوارج في العهد الأموي :

ظهرت حركات صغيرة للخوارج في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) ، مثل : حركة بهلول بن بشر ، وحركة الصحارى بن شبيب سنة (١١٩هـ) ، فقضى خالد بن عبد اللّه القسري - والي العراق - على الحركتين ، وقتل زعيميهما (١) . ثم شهد عهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (١٢٧ - ١٣٢هـ) ، آخر وأخطر حركتين للخوارج وهما ثورة الضحاك بن قيس الشيباني ، وأبي حمزة الخارجي .

ثورة الضحاك بن قيس الشيباني :

ذكرنا فيما سبق الظروف التي تولى فيها مروان بن محمد الخلافة ، وكيف انقسم أبناء البيت الأموي على أنفسهم : قسم مع مروان ، وقسم ضده . وتبع ذلك انقسام القبائل العربية فظاهرت قيس مروان ووقفت إلى جانبه ، بينما انضم اليمنيون إلى خصومه ، وبينما كان مروان يكافح لتثبيت حكمه وتدعيم مركزه ، ويخوض الحروب ضد أبناء عمومته ، قام الخوارج الصفرية بثورتهم في العراق بزعامة الضحاك ابن قيس ، منتهزين فرصة انشغال مروان بالقتال في جهات أخرى في الشام .

قاد الضحاك أصحابه الذين كانوا قلة في البداية ، ثم أخذت أعدادهم تتزايد بسرعة ، وقصد بهم الكوفة التي كانت آنئذ محل نزاع بين عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز ، وهو من خصوم مروان ، والذي كان ولاه عليها يزيد بن الوليد ويظاهره اليمنيون ، وبين الوالي الذي عينه مروان بن محمد ، وهو النضر بن سعيد الحرشي ومعه المضريون ، ودارت بينهما حروب انتصر فيها النضر وتمكّن من دخول الكوفة ، فلاذ عبد اللّه بن عمر بالحيرة (٢) ، فلما داهم الضحاك الكوفة بقواته ، وحد النضر وعبد اللّه بن عمر قواتهما لمواجهته ، ولكنه استطاع هزيمتهما ودخول الكوفة ، فاضطرا إلى اللجوء إلى واسط (٣) . والعجيب أن عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز بايع الضحاك الخارجي ، ونقض بيعة ابن عمه مروان ، وتبعه في ذلك سليمان بن هشام ابن عبد الملك (٤) ، الذي كان فر من حمص أمام مروان - كما أشرنا سابقًا - وهكذا بلغ الخبال وسوء التقدير بأبناء البيت الأموي أن ينضموا إلى أعدى أعداء

---

(١) انظر الطبري (١٣٠/٧) وما بعدها و (ص ١٣٧) وما بعدها .

(٢) الطبري - تاريخ (٣١٦/٧ ، ٣١٧) ، ابن الأثير - الكامل (٣٣٥/٥) .

(٣) الطبري (٣١٧/٧) . (٤) ابن الأثير (٣٣٧/٥) .

دولتهم ، ولم يراعوا مصلحتهم ، ولم يدركوا أن الدائرة ستدور عليهم جميعًا في نهاية الأمر !

اشتدت حركة الضحاك ، وقوي ساعده بانضمام بعض الأمويين إليه ، فكاتبه أهل الموصل ، وطلبوا منه المسير إليهم ، فسار إليها ، وقد كثر أتباعه حتى صاروا أكثر من مائة ألف [١] ، وهو عدد لم يجتمع تحت قيادة زعيم خارجي طوال العهد الأموي كله . علم مروان بثورة الضحاك وهو في حمص ، فكتب إلى ابنه عبد اللَّه ، وهو بالجزيرة أن يسير إلى نصيبين ، ليمنع الضحاك من توسط الجزيرة ، فسار إليها في حوالي ثمانية آلاف رجل ، ولكن الضحاك استطاع بقواته الكبيرة حصاره فيها ، الأمر الذي جعل مروان يسير إليها بنفسه على عجل ، ودارت بينه وبين الضحاك معركة شرسة عند كفر توثا من أعمار ماردين ، فدارت الدائرة على الخوارج ، وقتل الضحاك ، وبعث مروان برأسه إلى مدائن الجزيرة فطيِّف به فيها [٢] . بعد مقتل الضحاك بايع الخوارج زعيمًا جديدًا يسمى الخيبري فقتل أيضًا [٣] ؛ فولوا ثالثًا هو شيبان بن عبد العزيز الحروري ، فأشار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، الذي كان قد تزوج أخته - أن يسير إلى الموصل ، فسار إليها في نحو أربعين ألفًا ، لكن مروان تمكن من هزيمته بعد قتال استمر ستة شهور وقيل : تسعة ، فهرب إلى سجستان فهلك هناك سنة (١٣٠هـ) [٤] .

ثورة أبي حمزة الخارجي :

قبل أن ينتهي مروان من القضاء على ثورات الخوارج في العراق والجزيرة ، نشبت ثورة خوارج جنوب الجزيرة العربية ، بقيادة المختار بن عوف الأزدي ، الملقب بأبي حمزة ، الذي اتصل بعبد اللَّه بن يحيى ، المعروف بطالب الحق ، وبايعه وكان ذلك في آخر سنة (١٢٨هـ) [٥] . بدأت ثورة أبي حمزة من حضرموت ، ثم زحف على مكة والمدينة واستولى عليهما ، ثم سار متجهًا إلى الشام ، ولكن مروان رغم المشاكل الخطيرة التي كان يواجهها لم يغفل أمر أبي حمزة ، فأرسل إليه جيشًا عدته

---

(١) المصدر السابق (٣٤٩/٥) .
(٢) الطبري - تاريخ (٣٤٦/٧) ، وابن الأثير - الكامل (٣٤٩/٥) .
(٣) الطبري - تاريخ (٣٤٦/٧) ، وابن الأثير - الكامل (٣٥٠/٥) .
(٤) الطبري - تاريخ (٣٨٥/٧) ، وابن الأثير - الكامل (٣٥٥/٥) .
(٥) الطبري (٧/ ٣٤٨) ، وابن الأثير (٣٥١/٥) .

أربعة آلاف بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي ، فالتقى معه في وادي القرى ، ودارت الحرب بينهما فقتل أبو حمزة وهزم أصحابه ، وكان ذلك سنة (١٣٠هـ) [١] .

وهكذا قضى مروان بن محمد على حركات الخوارج في عهده ، ولكن بعد أن أنهكوا قوته وكبَّدوه خسائر فادحة . فلم يستطع الصمود أمام زحف العباسيين . والآن هل لنا أن نسأل : أية فائدة عادت على الأمة الإسلامية من جراء هذه الثورات التي أشعلها الخوارج ضد الدولة الأموية ؟ الحق أنه لا فائدة ، بل خسائر ودماء ودمار ، والأخطر من ذلك كله فكر متطرف خلَّفه الخوارج لا يزال يضلل عقول شباب المسلمين ويدفعهم إلى الثورة والتمرد على المجتمعات الإسلامية .

الشيعة

كلمة « شيعة » لها معانٍ عديدة ، منها الأهل والأتباع والأنصار والأمثال ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة « وقد غلب هذا الاسم على من يتوالى عليًّا وأهل بيته - رضوان الله عليهم أجمعين - حتى صار لهم اسمًا خاصًّا ، فإذا قيل : فلان من الشيعة عرف أنه منهم ، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم » [٢] . وقد نشأ التشيع بهذا المعنى بسيطًا واضحًا في أول الأمر ، ثم لم يلبث أن تطور بمضي الزمن وأصبح مذهبًا دينيًّا معينًا ، دخله التعقيد والغموض بفعل عناصر كثيرة دخلت الإسلام ظاهرًا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، « وكان فيهم من يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية ، وفيهم من كان يريد أن يثور على الدولة الحاكمة ويهدمها ؛ لأنها دولة عربية ومسلمة ، وكل هؤلاء كانوا يتخذون التشيع ستارًا يخفون وراءه كل ما شاءت لهم أهواؤهم » [٣] . وقد تبلور مذهب الشيعة ، أو بدأ يتبلور بعد استشهاد الحسين بن علي ﷺ سنة (٦١هـ) ، وتفرعت عنه فرق عديدة ، مثل الإمامية والزيدية والإسماعيلية ... إلخ ، وكل فرقة من هذه الفرق تفرعت منها فرق أخرى [٤] . وكان منها المعتدل كالزيدية ، ومنها المغالي الذي

---

(١) الطبري (٣٩٩/٧) ، وابن الأثير (٣٩١/٥) .
(٢) انظر لسان العرب لابن منظور (٥٥/٩) وابن خلدون - المقدمة (٥٨٧/٢) .
(٣) د . محمد الطيب النجار - المرجع السابق (ص ١١٤) .
(٤) انظر مقالات الإسلاميين للأشعري (٦٥/١) وما بعدها .

لم يكتف بتفضيل علي ﷺ على الصحابة أجمعين ، وبأنه معصوم بل ألَّهه [١] .

ولا يعنينا هنا أن نتتبع مبادئ الشيعة وأفكارهم وفرقهم ، وما طرأ على تفكيرهم فنقله من البساطة إلى التعقيد ، بل خرج به أحيانًا من الحق والهدى إلى الباطل والضلال [٢] . وإنما يعنينا أن نتحدث عن أمرين :

الأول : رأيهم في الخلافة ، وهي الإمامة عندهم .

والثاني : تتبع ثوراتهم باعتبارهم حزبًا معارضًا للدولة الأموية .

فأما عن آرائهم في الخلافة - الإمامة - فإن جمهور المسلمين متفقون على أن الخلافة من الأمور العامة التي يفوَّض أمرها إلى الأمة ، أو إلى أهل الحل والعقد منها يختارون من يصلح لها وتجتمع فيه شروطها المعتبرة عندهم ، فهي من فروض الكفاية ، كالجهاد وطلب العلم [٣] . بينما يرى الشيعة أنها ليست من المصالح العامة التي تفوَّض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبي إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر ، وأن عليًّا ﷺ هو الذي عينه - صلوات اللَّه وسلامه عليه - بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة [٤] .

فمذهب الشيعة في الإمامة إذن لا يستند إلى دليل يعتد به لا من الكتاب ولا من السنة ، كما أنه لا يستند إلى واقع تاريخي ؛ لأن الواقع التاريخي الثابت أن الصحابة بايعوا الخلفاء الثلاثة قبل علي ، وبايعهم علي معهم ، ولم نسمع أن أحدًا قال عندها : إن عليًّا هو الإمام بالوصية ، ولو كان علي يعلم أنه إمام منصوص عليه ، لما سكت عن حقه ، وهو المعروف بالجرأة والشجاعة ، ثم إن عليًّا نفسه قبل الخلافة بعد استشهاد عثمان تحت إلحاح الصحابة - كما تقدم - إنقاذًا للأمة من الفتنة ، ولو كان يعلم أنه إمام بالنص لما انتظر أحدًا يعرضها عليه . ثم إن عليًّا نفسه عندما طعنه ابن ملجم رفض أن يعهد لابنه الحسن - كما قدمنا - بل رفض حتى أن يأمر

---

(١) انظر المصدر السابق (٨٢/١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦) وانظر أحمد أمين - فجر الإسلام (ص ٢٦٩) .

(٢) د . محمد الطيب النجار - المرجع السابق (ص ١١٤) .

(٣) الماوردي - الأحكام السلطانية (ص ٥) وابن خلدون - المقدمة (٥٨١/٢) .

(٤) ابن خلدون - المقدمة (٥٨٧/٢) وانظر مقالات الإسلاميين للأشعري (٨٧/١) .

أصحابه ببيعته ، فلو كانت الإمامة بالوصية للإمام ومنه إلى أولاده لعهد إلى الحسن من تلقاء نفسه ، بل لكان ذلك واجبًا عليه ، وإذا لم يفعل ، فلا وصية إذن ولا نص ؛ لكل ذلك يكون مذهب الشيعة في الإمامة باطلًا ولا يقوم على أي أساس . هذا عن مذهبهم في الإمامة بإيجاز . وننتقل الآن إلى الأمر الثاني هو :

ثورات الشيعة ضد الدولة الأموية :

ثورة الحسين بن علي :

لم يقم الشيعة بأية ثورة مسلحة ضد معاوية بن أبي سفيان طوال خلافته (٤١ - ٦٠هـ) ، وكل ما كان يحدث في هذه الفترة انتقاد من بعض الشيعة لمعاوية أو لبعض ولاته ، كما حدث من حجر بن عدي ، حين اشتد وعنف في نقده لزياد ابن أبي سفيان في الكوفة ، وكان من أمره ما ذكرناه في ترجمة معاوية ، أما الحسين ابن علي - الذي يعتبره الشيعة إمامهم وزعيمهم - فلم يتحرك ضد معاوية ولم يخرج عليه ، ولم يستجب لنداءات أهل العراق حين دعوه للخروج عليه [1] ؛ بل وفى له ببيعته التي كان أعطاه إياها مع أخيه الحسن . وكان معاوية محسنًا للحسين ولآل البيت جميعًا ، قد وسعهم بكرمه وإحسانه . فلما توفي معاوية سنة (٦٠هـ) تغير الموقف ومن ثم تفجرت ثورة الحسين على يزيد بن معاوية .

كان الحسين عند وفاة معاوية بالمدينة المنورة ، فأرسل يزيد إلى الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان - والي المدينة - يعلمه بموت معاوية ، ويأمره بأخذ البيعة له من الحسين بن علي وعبد اللّٰه بن الزبير ، فاستدعاهما الوليد ، وأخبرهما بموت معاوية ، وطلب منهما البيعة ليزيد ، فاستمهلاه ولم يبايعا [2] ، « وخرجا من ليلتهما إلى مكة ، فلقيهما ابن عباس وابن عمر - قادمين - من مكة ، فسألاهما : ما وراءكما ؟ قالا : موت معاوية والبيعة ليزيد ، فقال لهما ابن عمر : اتقيا اللّٰه ولا تفرقا جماعة المسلمين » [3] . ولكن ما أن وصل الحسين إلى مكة حتى توالت عليه رسل ورسائل أهل الكوفة ، تفيض حماسة وعاطفة ، وقالوا له : « إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي فأقدم علينا » [4] . وتحت إلحاحهم قرر الحسين إرسال

---

(١) ثابت الراوي - العراق في العصر الأموي (ص ١٩٣) .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٣٣) والطبري - تاريخ (٣٤٣/٥) .
(٣) الطبري (٣٤٣/٥) .
(٤) المصدر نفسه (٣٤٧/٥) والمسعودي - مروج الذهب (٦٤/٦) .

ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليستطلع الموقف ، وقال له : « سر إلى أهل الكوفة فإن كان حقًّا ما كتبوا به عرفتني حتى ألحق بك » فخرج مسلم من مكة في النصف من شهر رمضان حتى قدم الكوفة لخمس خلون من شوال [١] سنة (٦٠هـ) .

علم أهل الكوفة بوصول مسلم بن عقيل فتقاطروا عليه ، وبايعه منهم اثنا عشر ألفًا ، وقيل : ثمانية عشر ألفًا [٢] انخدع مسلم بحماس أهل الكوفة ، وشجعه تغافل النعمان بن بشير الأنصاري - والي الكوفة من قبل يزيد - عنه وعدم تعرضه له [٣] ، فأرسل إلى الحسين ببيعة أهل الكوفة ، وأن الأمر على ما يرام ، وطلب منه القدوم ، لكن الأقدار كانت تخبئ شيئًا آخر ؛ فإن أحد أنصار يزيد في الكوفة لما رأى تقاعس النعمان عن التصدي لمسلم ومنعه من أخذ البيعة للحسين من أهل الكوفة - كتب بذلك إلى يزيد ، فعزل النعمان من ولاية الكوفة وأسندها إلى عبيد اللّه بن زياد والي البصرة ، وأمره بقتل مسلم بن عقيل . فجاء عبيد اللّه إلى الكوفة على عجل ، وبحث عن مسلم ، فأخبره عيونه بأنه يختبئ في بيت أحد زعماء الكوفة وهو هانئ ابن عروة المرادي ، فقبض عبيد اللّه بن زياد على هانئ ومسلم وقتلهما [٤] .

وهنا ظهر غدر أهلِ الكوفة وتخاذلهم ؛ فقد قتل هانئ ومسلم أمام أعينهم ولم يحركوا ساكنًا ، وتنكّروا لوعودهم للحسين ، واشترى ابن زياد ذممهم بالأموال . وراح مسلم ضحية تسرعه ، وعدم تثبته من ولاء أهل الكوفة وصدق عزائمهم . كما أن النعمان بن بشير يتحمل نصيبه فيما حدث ، فلو أنه أظهر الحزم ومنع مسلمًا من الاتصال بأهل الكوفة كما يحتم عليه واجبه كوالٍ مسؤول عن الأمن في الكوفة لربما تغيَّر الموقف كله ، ولكان مسلم قد فكر في الأمر ولم يبادر بطلب قدوم الحسين ، وربما لم تكن مأساة كربلاء قد حدثت أصلًا . فلا شك أن النعمان - ربما بحسن نية - كان سببًا من أسباب المأساة كلها .

خروج الحسين إلى الكوفة ونصيحة ابن عباس له بعدم الخروج :

عندما وصلت الحسين رسائل مسلم بن عقيل ببيعة أهل الكوفة وطاعتهم

---

(١) الطبري (٣٤٧/٥) والمسعودي - مروج الذهب (٦٤/٦) .
(٢) الطبري (٣٤٨/٥) والمسعودي - مروج الذهب (٦٤/٦) .
(٣) الطبري - المصدر السابق (٣٤٨/٥) .
(٤) المسعودي - مروج الذهب (٦٧/٣ - ٦٩) .

الكاذبة ، وأزمع الرحيل إليها ، جاءه عبد اللَّه بن عباس ، وقال له : « يا ابن عم ، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبيِّنْ لي ما أنت صانع ؟ قال : إني قد أجمعت المسير في أحد يوميَّ هذين إن شاء اللَّه تعالى ، فقال له ابن عباس : فإني أعيذك باللَّه من ذلك ، أخبرني رحمك اللَّه ! أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم ، وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبي بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك . فقال له الحسين : وإني أستخير اللَّه وأنظر ما يكون » [1] . كان كلام ابن عباس هو عين الحكمة والصواب ، وهو لم يقل ذلك من فراغ ، ولكن من واقع خبرته بأهل الكوفة وتقلباتهم وعدم صدقهم ، فقد رأى بنفسه - كما رأى الحسين أيضًا - مواقفهم وصنيعهم مع علي والحسن ﵄ ، ومن واقع حرصه على مصلحة الحسين وسلامته .

والحقيقة أنه لم يكن ابن عباس وحده هو الذي نصح الحسين تلك النصيحة الصادقة ، ولكن كان هناك كثيرون حتى من غير الهاشميين ، حريصون على سلامة الحسن ، ويتوجسون الشر من خروجه ، ومنهم عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، الذي رجا الحسين رجاء حارًّا ألا يخرج وألا يعرض نفسه وأهله للهلاك [2] . ولكن للأسف لم يصغ الحسين ﵀ لهذه النصائح الصادقة فخرج في أهله وقلة من أصحابه عددهم حوالي سبعين رجلًا ، فلما وصل إلى القادسية لقيه الحر بن يزيد التميمي ، فقال له : « أين تريد يا ابن رسول اللَّه ؟ قال : أريد هذا المصر ، فعرفه بقتل مسلم وما كان من خبره ، ثم قال له : ارجع ؛ فإني لم أدع خلفي خيرًا أرجوه لك . فهمَّ بالرجوع ، فقال له إخوة مسلم : واللَّه لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل كلنا ، فقال الحسين : لا خير في الحياة بعدكم » [3] .

والحقيقة : أن الإنسان لتأخذه الدهشة من موقف إخوة مسلم بن عقيل ، ومنطقهم في الثأر لأخيهم ، فهم يعلمون أن الذي قتل أخاهم الدولة ، فهل كان في مقدورهم

---

(١) الطبري (٥/٣٨٣) وابن الأثير - الكامل (٤/٣٧) .

(٢) الطبري - تاريخ (٥/٣٨٢) ، وكذلك كتب عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب إلى الحسين يحذره من الخروج إلى الكوفة - الطبري (٥/٣٨٧) .

(٣) المسعودي - مروج الذهب (٣/٧٠) والطبري - تاريخ (٥/٣٨٩) .

وهم في قلتهم هذه أن يتصدوا للدولة ليثأروا منها ؟! الحق أنه منطق عجيب فقد عرضوا أنفسهم وابن عمهم للهلاك - رحمهم الله جميعًا - .

سار الحسين حتى وصل إلى كربلاء ، وكان عبيد الله بن زياد - لما علم بمسيره - قد انتدب لقتاله واحدًا من أبناء الصحابة ، وهو عمر بن سعد بن أبي وقاص (١) في ثلاثة آلاف ، وعسكر عمر بن سعد بالقرب من عسكر الحسين ، وكان الناس يختلطون من الفريقين ، بل كانوا إذا حانت الصلاة يأتي بعض جنود عمر ليصلوا خلف الحسين ، وهنا بدرت بادرة طيبة من الحسين ﷺ لو قدِّر لها أن تمضي إلى غايتها لكان فيها حقن الدماء ، ودم الحسين بصفة خاصة ، فقد عرض على عمر بن سعد عرضًا فيه السلامة ، وقال له : « إما أن تدعوني فأنصرف من حيث جئت ، وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد ، وإما أن تدعوني فألحق بالثغور » (٢) . كانت هذه فرصة ذهبية لمنع الكارثة ، والحق أن عمر بن سعد فرح بهذا العرض من الحسين ؛ لأنه كان قد خرج إليه على مضض (٣) ، فكتب بالاقتراح إلى عبيد الله بن زياد ، ولكنه رفض وقال : « لا ولا كرامة حتى يضع يده في يدي » (٤) يالله !! أيُّ شيطان هذا الذي سوَّل لابن زياد أن يسلم الحسين له نفسه أسيرًا ؟! فالموت عند الحسين أهون من ذلك ، فبحسبه أنه عرض عليهم ذلك ، وكان يجب أن يقبل ابن زياد منه ، فلو أن الذي عرض ذلك كان من أعداء الإسلام لما وسعه إلا قبوله ، فكيف بابن بنت رسول الله ؟! رفض الحسين رفضًا باتًّا أن يضع يده في يد ابن زياد وقال : « لا والله لا يكون ذلك أبدًا » (٥) . والحقيقة أن عاقلًا لا يستطيع أن يلوم الحسين على هذا الموقف ، بل اللوم كل اللوم على ابن زياد الذي تحجَّر قلبه ، ويرهن على قصر نظر وسوء تقدير وفساد سياسة ، وتسبب في حدوث أبشع كارثة شهدها العهد الأموي كله . ولا أدري كيف غفل ابن زياد عن أن قتل الحسين سوف يزعزع كيان الدولة كلها ، وسوف يدمي قلوب المسلمين جميعًا ويشحنها بالبغض والكراهية ليزيد وللدولة الأموية كلها ؟ وإذا كان الحسين قد أخطأ في الخروج من الأساس ، فإنه هنا في هذا الموقف قد أبرأ ذمته تمامًا ، حيث أراد الرجوع إلى الصواب ؛ ولذلك فإننا نرى أن مسؤولية دمه تقع على عاتق ابن زياد بالدرجة الأولى ، كما تقع - بنفس المقدار - على أهل الكوفة الذين كتبوا إليه وبايعوه ووعدوه بنصرتهم له ، ثم تخلوا

(١) الطبري - تاريخ (٣٨٩/٥) .
(٢ - ٥) نفسه (٣٨٩/٥) .

عنه في أحرج اللحظات . كما أن عمرو بن سعد لا يسلم من المسؤولية ، وكذلك شمر بن ذي الجوشن ، ذلك الشيطان الذي قيل : إنه هو الذي أغرى ابن زياد بقتل الحسين .

رفض الحسين أن يسلِّم نفسه لابن زياد ، فدارت الحرب غير متكافئة ، فقتل الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وقتل سائر أصحابه ، ومنهم سبعة عشر شابًّا من أهل بيته ، وكان آخر كلامه قبل أن يسلم الروح : « اللّهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا » [١] . وكان استشهاده في العاشر من المحرم سنة (٦١هـ) . وبعد قتله حزُّوا رأسه ، وأرسلوها إلى يزيد مع نسائه وأخواته ، ولم يكن قد بقي من أبنائه الذكور سوى علي زين العابدين ، فلما وصلوا إلى دمشق أدخلهن يزيد إلى بيوته وأكرمهم وعطف على علي ابن الحسين ، ثم جهزهم وأعادهم إلى المدينة مكرمين [٢] .

مسؤولية يزيد في مقتل الحسين :

قد يتساءل الناس : ما هو نصيب يزيد بن معاوية من المسؤولية فيما حدث للحسين ؟ الحق أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ولم يسعد به ، بل بكى عليه ، وساءه مقتله [٣] .

ولقد كان يزيد حريصًا على عدم خروج الحسين أصلًا تحسبًا من سوء نتائجه . فقد روى ابن عساكر أن يزيد لما علم بخروج الحسين من المدينة إلى مكة ، وامتناعه عن بيعته ، قدَّر عواقب ذلك وكتب إلى عبد اللّه بن عباس يعلمه بخروج الحسين إلى مكة ، وقال له : أحسب أن رجالًا من أهل هذا المشرق - يقصد أهل العراق - قد جاؤوه فمنَّوه الخلافة ، وعندك منهم خبرة وتجربة ، فإن كان فعل فقد قطع وأشج القرابة ، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه ، فاكففه عن السعي في الفرقة . فكتب إليه ابن عباس : إني لأرجو أن لا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه ، ولست أدع النصيحة له في كل ما يجمع اللّه به الألفة وتطفأ به الثائرة [٤] . هذا هو موقف يزيد حتى قبل أن يعلم بعزم الحسين على الخروج إلى الكوفة . وقد مر بنا أن ابن عباس حاول منع الحسين من الخروج ونصحه بذلك ولكنه لم يستجب ، فلما حدث ما حدث وقتل الحسين ، ندم يزيد على ذلك ليقينه بأثره عليه وعلى دولته ، يقول

---

(١) المصدر السابق (٣٨٩/٥) .
(٢) المصدر السابق (٣٩٠/٥) وانظر ابن تيمية - منهاج السنة (٢٤٩/٢) .
(٣) المصدران السابقان على الترتيب (٥٠٦/٥) ، (٢٤٩/٢) .
(٤) انظر عبد القادر بدران - تهذيب تاريخ ابن عساكر (٣٣٠/٤ ، ٣٣١) .

الطبري [١] : « ثم لم يلبث - يزيد - إلا قليلًا حتى ندم على قتل الحسين ، فكان يقول : وما كان علي لو احتملت الأذى ، وأنزلته معي في داري ، وحكّمته فيما يريد ، وإن كان عليَّ في ذلك وكف ووهن في سلطاني ؛ حفظًا لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته ؟! لعن الله ابن مرجانة ، فإنه أحرجه واضطره ، وقد كان سأله أن يخلي سبيله ويرجع فلم يفعل ، أو يضع يده في يدي ، أو يلحق بثغر من ثُغور المسلمين حتى يتوفاه الله ﷻ ، فلم يفعل ، فأبى ذلك ورده عليه وقتله ، فبغضني بقتله إلى المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة ، فبغضني البر والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلي حسينًا ، ما لي ولابن مرجانة ، لعنه الله وغضب عليه ! » هذا هو موقف يزيد من قتل الحسين ورد فعله عنده .

ولكن الإنصاف للحقيقة يقتضينا أن نقول : إنه مع ميلنا إلى تصديق أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ولم يسعد به ، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا - من وجهة نظرنا - بل كان يجب عليه أن تكون أوامره صريحة لابن زياد بعدم قتل الحسين ، والتصرف معه بكل حكمة وتعقل ؛ حفظًا لرحمه وقرابته من رسول الله ﷺ ، ومكانته في قلوب المسلمين .

خصوصًا وأن أباه معاوية كان قد وصاه بالعفو عنه إذا أخرجه أهل العراق عليه وظفر به [٢] . ولكنها إرادة الله وقضاؤه الذي لا رادَّ له .

التوابون

هؤلاء مجموعة من الشيعة كان كثيرون منهم ممن كتبوا إلى الحسين بن علي وهو في مكة بعد موت معاوية ليسير إليهم في الكوفة - كما أسلفنا - فلما سار إليهم خذلوه وتخلّوا عن نصرته وأسلموه للمصير المؤلم الذي صار إليه . ولكن بعد استشهاده هزتهم الفاجعة ، وعضهم الندم على تقصيرهم نحوه ، فلم يجدوا طريقة يكفرون بها عن هذا التقصير الكبير ، ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب العظيم سوى الثأر للحسين بقتل قتلته ، فسُمُّوا بذلك التوابين [٣] . وتزعمهم سليمان ابن صرد الخزاعي ، وسموه أمير التوابين ، وهو من الصحابة ، ومن كبار شيعة عليٍّ ،

---

(١) تاريخ (٥/٥٠٦) . (٢) انظر ابن الطقطقا - الفخري (ص ١١٢) .

(٣) راجع تفاصيل حركة التوابين وما آل إليه أمرهم ، في الطبري - تاريخ (٥/٥٨٣ - ٦٠٩) ، وابن الأثير - الكامل في التاريخ (٤/١٧٥ - ١٨٩) .

وشهد معه مشاهده كلها ، وكان ممن كتبوا إلى الحسين في القدوم إلى الكوفة [(١)] .

ومع أن حركتهم بدأت بعد استشهاد الحسين مباشرة ، إلا أنهم لم يستطيعوا التحرك لتنفيذ خطتهم في حياة يزيد ؛ لشدة عبيد الله بن زياد عليهم وإحكام قبضته على الكوفة ، ومراقبة تحركاتهم . فلما مات يزيد واضطرب أمر بني أمية ، نشطوا وأسرعوا الخطى لتنفيذ ما أجمعوا عليه ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة (٦٥هـ) [(٢)] ، وكانت الكوفة في ذلك الوقت قد بايعت لعبد الله بن الزبير ، فولّى عليها عبد الله ابن يزيد الخطمي ؛ مما شجع التوابين على الخروج للقتال باعتبار الأمويين أعداء لهم جميعًا . وقد عرض عبد الله بن يزيد على سليمان بن صرد أن ينتظر حتى يهيئ له جيشًا يسير معه ؛ لتقوى حركتهم ، ويكونوا أقدر على محاربة عدوهم وتحقيق هدفهم ، ولكن سليمان رفض هذا العرض [(٣)] . ويبدو أن هذا لم يكن إلا تظاهرًا فقط من والي ابن الزبير بمساعدتهم ، وتسجيل موقف معهم ، وحقيقة الأمر أنه كان يود خروجهم من الكوفة ليتخلص منهم [(٤)] .

أزمع سليمان السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد ، باعتباره الذي أصدر الأمر بقتل الحسين ، ولكن أصحابه أشاروا عليه بأن قتلة الحسين معظمهم لا يزال بالكوفة ، ومنهم عمرو بن سعد . غير أن سليمان رفض هذا الرأي ، وقرر المسير إلى الشام [(٥)] ، فلما دعا أصحابه إلى المسير معه جاءه أربعة آلاف رجل ، فنظر في ديوانه الذي كان يسجل فيه أسماء من بايعوه على الأخذ بثأر الحسين فوجد عددهم ستة عشر ألفًا فقال : « سبحان الله ! ما وافانا إلا أربعة آلاف من ستة عشر ألفًا » [(٦)] فقال له بعض أصحابه : « إن المختار [(٧)] يثبط الناس عنك ، إني كنت عنده فسمعت نفرًا من أصحابه يقولون : كمل عددنا ألفي رجل ، فقال : وهب أن ذلك كان ، فأقام عنا عشرة آلاف ، أما هؤلاء بمؤمنين ؟ أما يخافون الله ؟ أما يذكرون الله ؟ وما أعطونا من أنفسهم من

---

(١) انظر ابن الأثير - أسد الغابة (٤٤٩/٢) - والذهبي - سير أعلام النبلاء (٣٩٤/٣) .
(٢) الطبري - تاريخ (٥٨٣/٥) - وابن الأثير - الكامل (١٧٥/٤) .
(٣) الطبري - تاريخ (٥٨٧/٥) وابن الأثير - الكامل (١٧٧/٤) .
(٤) د . علي حسني الخربوطلي - تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي (ص ١٣٥) .
(٥) الطبري - تاريخ (٥/ ٥٨٦) وابن الأثير الكامل (١٧٦/٤) .
(٦) الطبري - تاريخ (٥٨٤/٥) وابن الأثير الكامل (١٧٥/٤) .
(٧) سنتحدث بعد قليل عن المختار وحركته ، وسنعرف لماذا كان يثبط الناس عن سليمان .

العهود والمواثيق ليجاهدن ولينصرن » [١] . ولكن يبدو أن هذه هي طبيعة أهل الكوفة التي لم تزايلهم أبدًا ، فإنهم يتحمسون أول الأمر ، ويعطون العهود والمواثيق ، فإذا جاء وقت العمل الجاد ؛ نكصوا وتقاعسوا ، وتنكّروا لعهودهم ومواثيقهم ، فحتى الآلاف الأربعة الذين تجمعوا حوله تخلّى عنه منهم ألف ، وبقي معه ثلاثة آلاف فقط [٢] ، ومع ذلك قرر السير بهم إلى الشام ، وقبل مسيرهم زاروا قبر الحسين فأقاموا عنده يومًا وليلة يصلون ويبكون ، ونادوا بصيحة واحدة ، قائلين : « يا رب إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا ، فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وارحم حسينًا وأصحابه الشهداء الصديقين ، وإنا نشهدك يا رب أنّا على مثل ما قتلوا عليه ، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » [٣] .

في الوقت الذي سار فيه سليمان على رأس التوابين إلى الشام ، كان هناك جيش كبير ، قيل : إن عدده كان ستين ألفًا على رأسه عبيد اللّٰه بن زياد ، أرسله مروان ابن الحكم ليعيد العراق إلى سلطان الأمويين [٤] ، بعد أن بسط حكمه على الشام ، فالتقى بالتوابين في عين الوردة ، من أرض الجزيرة ، ودارت معركة غير متكافئة ، قتل فيها معظم التوابين ، وزعيمهم سليمان بن صرد ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة (٦٥هـ) [٥] . وفر الباقون عائدين إلى الكوفة ، لينضموا إلى المختار الثقفي .

وهكذا انتهت حركة التوابين ، وهي في الواقع من الحركات الطائشة التي دفع إليها الحماس ، ولم يكن فيها شيء من العقل أو التبصر ، فلا ندري كيف أقنع سليمان بن صرد نفسه بإمكانية التغلب على الدولة وهزيمتها في عقر دارها بهذه الأعداد القليلة التي كانت معه ، ولم يكن لهذه الحركة من نتيجة سوى المزيد من إراقة الدماء ، وتعميق الكراهية بين أهل العراق والدولة الأموية [٦] ، وهي نتيجة سلبية في حساب تاريخ الأمة الإسلامية .

---

(١) الطبري (٥/٥٨٤) وابن الأثير (٤/١٧٥) .
(٢) الطبري (٥/٥٨٩) .
(٣) الطبري (٥/٥٨٩) وابن الأثير (٤/١٧٨) .
(٤) ثابت الراوي – العراق في العصر الأموي (ص ١٩٨) .
(٥) الطبري (٥/٦٠٩) وابن الأثير (٤/١٨٩) .
(٦) ثابت الراوي – المرجع السابق (ص ١٩٨ ، ١٩٩) .

ثورة المختار الثقفي [١]

ظهر المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد ابن معاوية سنة (٦٤هـ) ، وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي ، والتي كانت تبحث لها عن دور ، وتسعى إلى السلطان بأي ثمن ، فتقلَّب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم ، والمطالبة بثأر الحسين [٢] . فقد مر بنا أنه أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي بالقبض على الحسن بن علي وتسليمه إلى معاوية ، لينال بذلك الحظوة عنده [٣] ، ثم حاول الاتصال بعبد اللّه بن الزبير والانضمام إليه ، وشرط عليه شروطًا ، منها : أن يكون أول داخل عليه ، وألا يقضي الأمور دونه ، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله [٤] . وباختصار أراد أن تكون له كلمة في دولته ، ولكنه لم يجد تجاوبًا من ابن الزبير ، فانصرف عنه إلى الكوفة [٥] . حيث كان الأمر فيها مضطربًا فأراد أن يصطاد في المياه العكرة ، ولم يجد فيها ورقة يلعب بها سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت ، وادعى أن لديه تفويضًا بذلك من محمد بن علي بن أبي طالب – الملقب بابن الحنفية – ولكنه لم يكن صادقًا في ذلك ، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان . وقد عبَّر هو نفسه عن ذلك في حواره مع رجل من رجاله الذين أخلصوا له ، وكانوا يظنونه صادقًا في دعوته للثأر لآل البيت ، وهو السائب بن مالك الأشعري . فقد قال له المختار عندما ضيق عليه مصعب بن الزبير الخناق واقتربت نهايته : ماذا ترى ؟ فقال له السائب : الرأي لك ، فماذا ترى ؟ قال : « أنا أرى أم اللّه يرى ؟ قال : اللّه يرى . قال : ويحك أحمق أنت ! إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ، ومروان على الشام ، فلم أكن دون أحد من رجال العرب ، فأخذت هذه البلاد ، فكنت كأحدهم ، إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي ﷺ إذ نامت عنه العرب ، فقتلت من شرك في دمائهم ، وبالغت في ذلك إلى يومي هذا ،

---

(١) انظر ترجمته في المعارف لابن قتيبة (ص٤٠٠) والطبري (٥/٥٦٩) ، (٦/٧ ، ٨) ، وما بعدها وأسد الغابة لابن الأثير (٥/١٢٢) والكامل في التاريخ (٤/٢١١ ، ٢٦٧) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/٥٣٨) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٨/٢٨٩) .

(٢) ابن كثير – المصدر السابق (٨/٢٩٠) .

(٣) الطبري (٥/١٥٩) ، وابن كثير – المصدر السابق (٨/٢٩٠) .

(٤) ابن الأثير (٤/١٧٠) . (٥) ابن كثير (٨/٢٩٠) .

فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية . فقال السائب : إنا لله وإنا إليه راجعون » [١] . قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ما صنع من أجل السلطان وحده ؛ ولذلك يصف الذهبي المختار بالكذب وقلة الدين [٢] .

ظهر المختار في الكوفة من جديد [٣] في الوقت الذي كان فيه سليمان بن صرد الخزاعي - زعيم التوابين - يستعد للذهاب إلى الشام ؛ لقتال عبيد الله بن زياد ، فحاول تثبيط الناس عنه ، وقال لهم : « إن سليمان ليس له بصر بالحرب ولا تجربة بالأمور ، وإنما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه ، وأنا أعمل على مثال مثل لي ، وأمر بيِّن لي عن وليكم ، وأقتل عدوكم ، وأشفي صدوركم ، فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري » [٤] . وقد نجحت دعايته فتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة ، وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد ، فسار بهم حيث التقى بعبيد الله بن زياد في عين الوردة ، فقتل هو ومعظم أصحابه كما تقدم .

ولقد كانت نتيجة معركة عين الوردة في مصلحة المختار ؛ فقد جاءت مصدقة لتوقعاته ، كما أنه انفرد بزعامة الشيعة ولجأ إليه الفارون من المعركة ، فقويت حركته وكثر أتباعه ، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعي إليه ، وهو من زعماء الكوفة ، فثار على عبد الله بن مطيع العدوي ، أمير الكوفة من قبل عبد الله ابن الزبير ، فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها . ولكي يثبت صحة دعواه في المطالبة بدم الحسين ، فقد تتبع قتلته فقتل معظمهم في الكوفة [٥] . ثم أعد جيشًا جعل على قيادته إبراهيم بن الأشتر ، وأرسله إلى قتال عبيد الله بن زياد ، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد ، الذي خر صريعًا في ميدان المعركة سنة (٦٧هـ) [٦] .

تعاظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد ، وسيطر على شمال

---

(١) الطبري (١٠٧/٦) . (٢) سير أعلام النبلاء (٥٣٨/٣ ، ٥٣٩) .

(٣) كان المختار في الكوفة حين قدوم مسلم بن عقيل إليها ، فبايعه فيمن بايعه من أهلها ، فقبض عليه عبيد الله ابن زياد ووضعه في السجن ، وظل سجينًا حتى قتل الحسين ، فبعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان زوج أخته ، فشفع له عند يزيد بن معاوية فأمر بإطلاق سراحه . انظر الطبري (٥٦٩/٥ ، ٥٧٠) .

(٤) ابن الأثير - الكامل (١٧٢/٤) .

(٥) ثابت الراوي - العراق في العصر الأموي (ص ٢٥٠ - ٢٥١) .

(٦) الطبري (٨٦/٦) وما بعدها . وابن الأثير - الكامل (٢٦١/٤) ما بعدها .

العراق والجزيرة ، وأخذ يولي العمال من قبله على الولايات [١] ويجبي الخراج ، وانضم إليه عدد كبير من الموالي ؛ لبغضهم لبني أمية من ناحية [٢] ، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية [٣] . وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به في العراق ، بين دولتي ابن الزبير في الحجاز ، وعبد الملك بن مروان في الشام . ولكنه لن ينعم طويلًا بهذه الدولة ؛ فسيقضى عليها سريعًا ، وكان المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذي وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه ، ولكن هذا كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير وإن كان قد أسعده ظهور المختار في البداية وقهره لجيش عبد الملك [٤] ، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته ، وأنه لا بد أن يتحرك للقضاء عليه ، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار ؛ لأن نتيجة المواجهة ستكون في صالحه ، فسوف يقضي أحدهما على صاحبه ، ومن يبقى تكون قوته قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه . وقد حدث ما توقعه عبد الملك ، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك ، وبسط نفوذه على شمال العراق والجزيرة ، بل أخذ يعد نفسه للسير إلى البصرة ؛ لانتزاعها من مصعب بن الزبير الذي أصبح واليًا عليها من قبل أخيه عبد اللَّه بعد أن بايعه أهلها ، وهنا أصبح الصدام محتومًا بين المختار وآل الزبير [٥] . فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار قبل أن يعالجه في البصرة ، والتقى به عند حروراء ، فدارت الدائرة على المختار ، فأسرع بالفرار عائدًا إلى الكوفة وتحصَّن بقصر الإمارة ، إلا أن مصعبًا حاصره في القصر حتى سقط ، وقتل في سنة (٦٧هـ) [٦] . وهكذا انتهت حركة هذا المغامر الذي كان كل همه الوصول إلى الحكم والسلطان بأية وسيلة ، ولم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والطلب بثأرهم ، فقد انكشفت حيله ، وتخلَّى عنه أهل العراق ، وأسلموه إلى مصيره المحتوم .

---

(١) انظر الطبري (٩٢/٦) ، وابن الأثير - الكامل (٢٦٥/٤) .
(٢) د . محمد الطيب النجار - الدولة الأموية في المشرق (ص ١٤٣) .
(٣) ثابت الراوي - المرجع السابق (ص ٢٥٠) ، ود. علي حسني الخربوطلي ، المرجع السابق (ص ١٤٦) .
(٤ ، ٥) د . علي حسني الخربوطلي ، المرجع السابق (ص ١٤٧) .
(٦) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٦٤) ، والطبري (١٠٧/٦) ، وابن الأثير الكامل (٢٧٣/٤) .

ثورة زيد بن علي بن الحسين سنة (١٢١هـ)

بعد القضاء على ثورة المختار الثقفي في الكوفة سنة (٦٧هـ) ، مضت فترة طويلة تزيد على نصف قرن ، لم يقم الشيعة فيها بثورات على الدولة الأموية ؛ ولعل السبب في ذلك الهزائم المتلاحقة والخسائر التي منوا بها من ناحية ، ثم افتقارهم إلى زعامة قوية يلتفُّون حولها من ناحية ثانية . كما أن العراق التي هي موطن حركاتهم قد شهدت حكم ولاة أقوياء عرفوا بالحزم والقسوة مع الخارجين على الدولة مثل الحجاج بن يوسف ، كل ذلك جعلهم يستكينون ولكن إلى حين ، فجمرة الثورة والتمرد على الحكم الأموي لم تَخْبُ في أنفسهم قط ، فلما وجدوا الفرصة لم يترددوا في اغتنامها ، غير أن عيبهم الذي عرفوا به ، وهو الحماس الزائد في أول الأمر ، ثم النكوص والتخاذل قبل تحقيق الهدف لم يزايلهم قط . وكان هذا حالهم مع قائد الثورة الجديدة التي هبَّت في وجه هشام بن عبد الملك سنة (١٢١هـ) وهو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب [١] .

كان زيد من كبار آل البيت وعلمائهم ، وكان يحدِّث نفسه بالخلافة ويرى أنه أهل لها ، وكان هشام بن عبد الملك يخشاه لفضله وعلمه وفصاحته ومكانته بين الناس ، وفي لقاء بينهما قال له هشام : « يا زيد لقد بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك وأنت ابن أمة » [٢] . فغضب زيد ورد على هشام ردًّا غليظًا ، وقال له في كلام كثير : « لا يضيرني أن أكون ابن أمة ، وجدي رسول الله ﷺ » [٣] . فاستاء هشام من رده وقال له : « اخرج ، قال : أخرج ولا تراني إلا حيث تكره » [٤] . خرج زيد من عند هشام مغضبًا متوعدًا ، ثم أتى الكوفة ، فجعل الشيعة يختلفون إليه ويحثونه على الثورة ، ويقولون له : « إنا لنرجو أن تكون المنصور ، وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية » [٥] .

كان من الطبيعي أن يكون زيد محل رصد هشام بعد تلك المقابلة المثيرة ، وأن يكون وجوده في الكوفة - بخاصة - مصدر قلق له ، فأوعز إلى عامله على العراق ، يوسف بن عمر الثقفي بطرده منها [٦] ، فما زال به يوسف حتى أخرجه ، ولكن

---

(١) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد (٥/٣٢٥) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥/٣٨٩) .

(٢) الطبري (٧/١٦٥) . (٣ - ٥) نفسه (٧/١٦٦) .

(٦) نفسه (٧/١٦٩) .

الشيعة ساروا خلفه ، وقالوا له : « أين تذهب عنا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غدًا ؟ » [١] . نفس النغمة القديمة التي طالما خدع بها أهل العراق آل البيت ، وعلى الرغم من أن زيدًا أبدى شكوكه فيهم ، حتى بعد أن أعطوه عهودهم ومواثيقهم ، وقال لهم : « إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي » [٢] ، وأن أحد أبناء عمومته قال له : « يا ابن عم إن هؤلاء يغرونك من نفسك ، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك ، جدك علي بن أبي طالب حتى قتل ؟ والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه ، وانتهبوا فسطاطه وجرحوه ؟ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين ، وحلفوا له بأوكد الأيمان ، ثم خذلوه وأسلموه ، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا تفعل ولا ترجع معهم ، إني لخائف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم » [٣] . على الرغم من كل ذلك إلا أن زيدًا رَحِمَهُ اللَّهُ غلط الغلطة الكبرى وانخدع بأهل الكوفة وعاد معهم فأوردوه حتفه كما فعلوا بجده الحسين من قبل .

تقاطر أهل الكوفة على زيد بعد عودته وأخذوا يبايعونه ، وكانت بيعته التي دعا إليها : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء في أهله بالسواء ، ورد الظالمين ، وإقفال المجمر ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا » [٤] . انتشر أمر زيد ، ووصل خبر دعوته الناس إلى البيعة إلى البصرة وواسط والموصل والمدائن وخراسان والري ، وبلغت أخباره يوسف بن عمر الثقفي وكان بالحيرة فأدرك خطورتها ، وكان زيد قد واعد أصحابه على الخروج ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة (١٢٢هـ) ، فقرر يوسف أن يحول دون ذلك ، فأمر الحكم بن الصلت - نائبه على الكوفة - أن يدعو الناس لاجتماع في المسجد الأعظم وهدد كل من يتخلف منهم ، وكان ذلك قبل موعد خروج زيد بيوم واحد ، فهرع أهل الكوفة إلى المسجد ، فحصرهم يوسف بن عمر فيه ، وأصبح زيد فلم يجد معه من خمسة عشر ألفًا بايعوه سوى مائتين وثمانية عشر رجلًا [٥] ؛ فلما رأى خذلان الناس إياه قال

---

(١) نفسه (١٦٦/٧) .
(٢) المصدر السابق (١٦٨/٧) .
(٣) نفسه (١٦٨/٧) .
(٤) نفسه (١٧٢/٧) ، وإقفال المجمر : يقصد به إعادة الجيش الذي طال مكثه في أرض العدو .
(٥) المصدر السابق (١٨٢/٧) .

لأحد أنصاره - نصر بن خزيمة - : « أتخاف أن يكونوا قد جعلوها حسينية ؟ » [١] يشير إلى حادثة جده الحسين ، وهم حقًّا قد فعلوها حسينية وتركوه يواجه قوات يوسف بن عمر الثقفي في هذا العدد القليل ، كما ترك أسلافهم جده الحسين يواجه قوات عبيد اللّٰه بن زياد من قبل ، ومن العجب أن تتشابه الحادثتان في أمور كثيرة ، فيوسف بن عمر لم يكن أقل قسوة من عبيد اللّٰه بن زياد ، واجه زيد وأصحابه القلائل جيوش يوسف بن عمر ، وظل يقاتل حتى أصابه سهم في رأسه ، فتوفي متأثرًا به بعد أيام . ولم يكتف يوسف بن عمر بمقتله ، بل أمر بإخراج جثته من القبر الذي دفن فيه سرًّا ، وأمر بقطع رأسه ، وصلب جسده في كناسة الكوفة [٢] ، وهكذا لقي زيد بن علي هذا المصير المؤلم ، ولا شك أن التبعة الأولى هنا تقع على أهل الكوفة الذين حرَّضوه على الخروج وبايعوه ثم خذلوه في اللحظات الحرجة . وبعد مقتل زيد فر ابنه يحيى إلى خراسان [٣] ، ولكنه لقي مصير أبيه هناك على يد نصر بن سيار والي خراسان .

وإذا كانت آخر ثورة علوية شيعية في العهد الأموي قد باءت بالفشل ، فقد كانت هناك دعوة سرية منظمة ، تدعو للرضا من آل محمد ، وهي الدعوة العباسية ، التي سوف تستفيد من هذه الأحداث في زعزعة الحكم الأموي وسيكتب لها النجاح أخيرًا في القضاء على الدولة الأموية وإقامة دولة عباسية مكانها .

ثورة أهل المدينة على يزيد بن معاوية وموقعة الحرة سنة (٦٣هـ)

في سنة (٦٣هـ) ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية ، وخلعوا طاعته ، وهذه الثورة محيرة في الواقع ؛ فلا نعرف لها سببًا مقنعًا ولا هدفًا واضحًا ، وقد ظن بعض الباحثين أنها كانت رد فعل لاستشهاد الحسين بن علي وغضبًا له [٤] . وهذا غير صحيح ؛ وآية ذلك أن زعماء الهاشميين وآل البيت ، مثل عبد اللّٰه بن عباس ، ومحمد ابن الحنفية ، وعلي بن الحسين ، لم يشتركوا فيها ، ولم يكونوا راضين عنها ، كما رفضها وعارضها كبار الصحابة الموجودين يومئذ كعبد اللّٰه بن عمر بن الخطاب .

---

(١) المصدر السابق (٧/١٨٤) وابن الأثير - الكامل (٥/٢٤٤) .

(٢) ابن الأثير - الكامل (٤/٢٤٦) .

(٣) الطبري (٧/١٨٩) .

(٤) د . عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية (٢/٨٢) .

وقصة هذه الثورة (١) بدأت حين عزل يزيد بن معاوية ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عن ولاية المدينة ، بناء على رغبة نجدة بن عامر الحنفي - من زعماء الخوارج - الذي اتهم الوليد بالخرق وعدم الرشد ، وطلب من يزيد أن يبعث واليًا آخر مكانه سهل الخلق ؛ رجاء صلاح الأحوال وجمع الكلمة ، وحرصًا من يزيد على هذا عزل الوليد وولى عثمان بن محمد بن أبي سفيان (٢) الذي استهل عهده بالإحسان إلى أهل المدينة ، ثم بعث منهم وفدًا إلى يزيد في دمشق ، فيهم عبد الله ابن حنظلة الأنصاري وأبناؤه وكانوا ثمانية ، والمنذر بن الزبير بن العوام ، وكثيرون غيرهم من أشراف المدينة ، فأكرم يزيد وفادتهم وعظم جوائزهم ، فأعطى عبد الله ابن حنظلة مائة ألف درهم ، وأعطى أبناءه كل واحد عشرة آلاف ، وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف (٣) . فما أن عادوا إلى المدينة حتى أعلنوا الثورة على يزيد وخلعوا طاعته (٤) فلما سألهم الناس ، عن سبب ثورتهم وقد أكرمهم يزيد وأعطاهم أموالًا كثيرة ، قالوا : إنه يشرب الخمر ، وتعزف عنده القيان ، ويترك الصلاة ، ويتعدى حكم الكتاب (٥) . وهذه التهم نفاها عن يزيد رجل عدل لا يتهم بمحاباة يزيد ، وهو محمد ابن الحنفية ، لقد قال لهم عندما مشوا إليه لينضم إلى ثورتهم : « ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة ، متحريًا للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازمًا للسنة . قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعًا لك ، فقال : وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه . فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة ، فقال : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] ولست من أمركم في شيء . قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا ، قال : ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعًا ولا متبوعًا ، قالوا : فقد قاتلت مع أبيك . قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه ، فقالوا : فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا ، قال : لو أمرتهما قاتلت . قالوا :

(١) راجع تفاصيل أخبار ثورة أهل المدينة وموقعة الحرة في تاريخ خليفة ابن خياط (ص ٢٣٦) وما بعدها ، والطبري (٤٨٢/٥) وما بعدها ، وابن الأثير - الكامل (١١١/٤) وما بعدها ، وابن كثير - البداية والنهاية (٢١٧/٨) وما بعدها .

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية (٢١٦/٨) .

(٣) المصدر السابق (٢١٦/٨) .

(٤) تاريخ خليفة (ص ٢٣٧) .

(٥) ابن كثير - المصدر السابق (٢٣٣/٨) .

فقم معنا مقامًا تحض الناس فيه على القتال ، قال : سبحان اللّٰه !! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ، إذا ما نصحت للّٰه في عباده . قالوا : إذًا نكرهك . قال : إذًا آمر الناس بتقوى اللّٰه ، ولا يرضون المخلوق بمعصية الخالق . وخرج إلى مكة » (١) .

أوردنا هذا الحوار الطويل الذي دار بين محمد بن علي بن أبي طالب وبين زعماء المدينة ؛ لأنه يوضح إصرارهم على الثورة من أجل الثورة ، حتى بعد أن بيَّنَ لهم أن ذلك لا يحق لهم . ثم مضوا في خطتهم ، والعجب أنهم أمَّروا عليهم أميرين ، مما يدل على أن هدفهم لم يكن واضحًا ، وكلمتهم لم تكن واحدة ، فقد أمَّروا على الأنصار عبد اللّٰه بن حنظلة الأنصاري وعلى قريش عبد اللّٰه بن مطيع العدوي (٢) .

ولما وضحت نيتهم في الثورة وتفريق أمر الأمة ، انزعج كبار الصحابة في المدينة من نتائج ذلك ؛ فالأمة قد عانت من الفتن ، ولم تندمل جراحها بعد من مأساة الحسين في كربلاء ، فذهب عبد اللّٰه بن عمر بن الخطاب إلى عبد اللّٰه بن مطيع ، فلما دخل عليه ، قال : مرحبًا بأبي عبد الرحمن . ضعوا له وسادة ، فقال ابن عمر : « إني لم آتك لأجلس ؛ جئتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقوله ، سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « **من خلع يدًا من طاعة لقي اللّٰه يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية** » (٣) . ولم يكتف ابن عمر بتحذير زعماء الثورة من الخروج على الخليفة الشرعي ومن تفريق كلمة الأمة . وإنما جاهد في منعها وحث الناس على عدم الاشتراك فيها ، وكذلك منع أهله وولده من ذلك .

فقد روى البخاري مرفوعًا إلى نافع قال : « لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية ، جمع ابن عمر حشمه وولده ، فقال لهم : إني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « **ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة** » ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع اللّٰه ورسوله ، وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع اللّٰه ورسوله ، ثم ينصب له القتال ، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه » (٤) .

هذا هو موقف عبد اللّٰه بن عمر ، من ثورة أهل المدينة ، فهو يرى أن يزيد خليفة

---

(١) ابن كثير ، المصدر السابق (٢٣٣/٨) .

(٢) تاريخ خليفة (ص ٢٣٧) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٤٠/١٢) .

(٤) البخاري - الصحيح (٢٣٠/٤) طبعة الحلبي .

شرعي له في أعناقهم بيعة ، وهو موقف يشاركه فيه رجالات بني هاشم[١] . وكانت الحكمة تقضي أن يعيد الثائرون النظر في موقفهم على ضوء معارضة هؤلاء السادة وعدم رضاهم عن ثورتهم ، ولكنهم لم يفعلوا وصمموا على المضي قدمًا فيما عزموا عليه .

بلغت هذه الأخبار يزيد في دمشق ، فتمثل قائلًا :

لقد بدلوا الحلم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

ثم رأى أن يعالج الموقف بالحكمة ، فأرسل النعمان بن بشير الأنصاري إلى أهل المدينة ؛ ليدعوهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة ، وعدم تفريق كلمة الأمة . فأتاهم النعمان ؛ وفعل ما أمره به يزيد ، وخوفهم الفتنة ، ولكنهم لم يستجيبوا [٢] ؛ بل عمدوا إلى والي المدينة وسائر بني أمية فطردوهم منها ، فأصبح الموقف خطيرًا . ولم يكن في وسع يزيد إلا أن يواجه هذه الثورة بما تستحقه ، فأرسل إلى المدينة جيشًا كبيرًا ، بقيادة مسلم بن عقبة المري ، وقال له : « ادع القوم ثلاثًا فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم » [٣] . كان أهل المدينة على يقين من أن الخليفة لن يسكت عليهم ، وأنه سيرسل إليهم جيشًا لقتالهم ؛ لذلك قاموا بخطوة خطيرة ، حيث عمدوا إلى المياه التي بينهم وبين الشام ، فغوروها وصبوا فيها القطران لتفسد ولا ينتفع بها جيش يزيد ويموت عطشًا ، « فأرسل اللّٰه على جيش الشام السماء مدرارًا بالمطر فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة » [٤] . ثم حفر أهل المدينة خندقًا ليمنعوا الجيش من اقتحامها .

وصل مسلم بن عقبة بجيشه وأنذرهم ثلاثًا كما أمره يزيد ، ولكنهم لم يستجيبوا ، فبدأ القتال ، وحلت الهزيمة بأهل المدينة في المعركة التي سميت معركة الحرة ، وذلك لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة (٦٣هـ) [٥] وقتل زعيمهم عبد اللّٰه بن حنظلة ، وقتل كثيرون غيره من أشرافها ، وأباح مسلم المدينة ثلاثة أيام . وهذه غلطته الكبرى ، بل غلطة يزيد إن كان أمره بذلك ؛ فالتصدي للثورة وقمعها والقضاء عليها أمر مشروع للخليفة [٦] ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه ذلك ، خصوصًا بعد أن أنذرهم أكثر من مرة . أما إباحة مدينة الرسول ﷺ وهتك حرمتها فأمر لا يقبله مسلم ، ولم يكن له مبرر بعد أن أخمدت الثورة ، والمسلمون في حروبهم كلها لم

---

(١) ابن كثير - البداية والنهاية (٢١٨/٨) .
(٢) المصدر السابق (٢١٦/٨) وانظر ابن تيمية - منهاج السنة (٢٥٣/٢) .
(٣) الطبري (٤٨٤/٥) .
(٤) ابن كثير - البداية والنهاية (٢٢٢/٨) .
(٥) الطبري (٤٨٧/٥) .
(٦) ابن كثير - المصدر السابق (٢٣٢/٨) .

يفعلوا ذلك أبدًا بأي مدينة من مدن الأعداء ، ولا شك أن مسلم بن عقبة ، ذلك الرجل الجلف الغشوم قد أساء إساءة بالغة بإقدامه على ذلك ، وجعل ذكرى إباحة المدينة لجند الشام تقف على قدم المساواة مع قتل الحسين وحصار الكعبة كنقاط سوداء في تاريخ يزيد ، بل في تاريخ الدولة الأموية كله . فلو لم يبح المدينة لما لامه أحد على قتالهم .

والآن على من تقع المسؤولية فيما حدث ؟ الحق أن المسؤولية تقع على أهل المدينة ، وعلى عبد اللّٰه بن حنظلة وعبد اللّٰه بن مطيع بصفة خاصة . يقول الشيخ الخضري معلقًا على هذه الثورة : « وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب ، والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ، ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه من خلع يزيد ، أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم ؟ أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ، ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية . إنهم فتقوا فتقًا وارتكبوا جرمًا فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة » [1] . وفي ظني أنه لم يكن وراء هذه الثورة من دافع سوى الكره للحكم الأموي ، ولكن هل مجرد الكره يكفي ليكون سببًا للثورة ؟ فلو أن كل كاره لحكومة ثار عليها لما بقيت حكومة ولا دولة . وهل هناك حكومة - بعد حكومة الرسول وأبي بكر وعمر - كانت موضع رضا جميع الناس ؟ .

عبد الله بن الزبير والدولة الأموية

هو عبد اللّٰه بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي [2] ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، ولد في العام الأول من الهجرة ، وقيل : إن أمه هاجرت وهي حامل به ، وكان أول مولود ولد للمسلمين في المدينة بعد الهجرة ، وكان فرحهم به عظيمًا ؛

(١) انظر تاريخ الأمم الإسلامية (١٣٢/٢) .

(٢) انظر ترجمته في نسب قريش للمصعب الزبيري (ص ٢٣٧) وما بعدها . وتاريخ الطبري (٥٦٣/٥ ، ٥٨٢ ، ٦٢٢) و (١٦٦/٦ ، ١٨٧) ، ومروج الذهب للمسعودي (٨٢/٣) وما بعدها . وأسد الغابة لابن الأثير (٢٤٢/٣) ، والكامل له (٣٤٨/٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٦٣/٣) وما بعدها . والبداية والنهاية لابن كثير (٣٣٢/٨) وما بعدها والإصابة لابن حجر (٨٣/٦) وما بعدها .

لأن اليهود كانوا قد أشاعوا أنهم سحروا المسلمين فلن يولد لهم ولد . نشأ عبد اللَّه نشأة إسلامية خالصة ، في تلك البيئة الطيبة الطاهرة ، فأبوه من كبار الصحابة وحواري الرسول ﷺ وابن عمته ، وأمه أسماء ذات النطاقين من الصحابيات الجليلات ، وجده الصديق ، وخالته عائشة رضي اللَّه عنهم جميعًا ، وكانت أم المؤمنين تكنى به لعدم إنجابها من رسول اللَّه ﷺ فلما قالت له : أكنني قال لها ﷺ : « **تكني بابنك عبد اللَّه بن الزبير** » [1] . وكان يتردد عليها كثيرًا في بيت النبي ﷺ ، وهو من الصحابة ؛ لأنه عاش ما يقرب من عشر سنين في حياة النبي ﷺ وروى عنه بعض الأحاديث ، كما روى عن أبيه وجده الصديق ، وأمه أسماء وخالته عائشة . كما روى عن عمر وعثمان وغيرهم . يقول عنه الذهبي : « عداده في صغار الصحابة وإن كان كبيرًا في العلم والشرف والجهاد والعبادة » [2] ، وكان إلى جانب هذا ذكي الفؤاد جريئًا شجاعًا ، معتدًّا بنفسه ، ذا طموح . شارك مبكرًا في الفتوحات ، فقد روى أنه حضر اليرموك وهو غلام [3] . ثم شارك في غزو إفريقية مع عبد اللَّه بن سعد في عهد عثمان ﷺ ، وقيل : هو الذي قتل جرجير ، ولما حصر عثمان ﷺ في بيته سنة (٣٥هـ) كان عبد اللَّه من المدافعين عنه . وقد حضر موقعة الجمل مع أبيه وطلحة وعائشة ، ولما بويع معاوية وحاول استمالة كبار الصحابة وأبنائهم وأحسن إليهم وأكرمهم ، كان عبد اللَّه من جملة الذين حسنت علاقتهم معه ؛ فكان كثير التردد عليه [4] ، كثير الثناء عليه [5] ؛ ولذلك كانت له مشاركة في الغزو والجهاد في عهده ، فقد غزا إفريقية مع معاوية بن حديج سنة (٤٥هـ) . ثم اشترك في غزو القسطنطينية مع الجيش الذي قاده يزيد بن معاوية سنة (٤٩هـ) كما تقدم . واستمرت علاقته بمعاوية على أحسن ما يكون إلى أن شرع في أخذ البيعة لابنه يزيد ، فعارض ابن الزبير ، وقيل : إنه لم يبايع ليزيد هو والحسين بن علي .

فلما توفي معاوية سنة (٦٠هـ) كان أول ما اهتم به يزيد أخذ البيعة منه ومن الحسين ، وأرسل إلى والي المدينة الوليد بن عتبة يأمره بأخذ البيعة منهما ، فلما استدعاهما الوليد استمهلاه ولم يبايعا ، ثم خرجا إلى مكة ، كما ذكرنا من قبل . أما الحسين فقد راسله أهل الكوفة وطلبوا منه المسير إليهم ، وكان من أمره ما ذكرناه آنفًا .

---

(١) نسب قريش (ص ٢٣٧) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٣٦٤/٣) .
(٣) المصدر السابق (٣٦٤/٣) .
(٤) الفخري لابن الطقطقا (ص ١٠٤) .
(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (١١/١ ، ١٢) .

أما ابن الزبير فبقي في مكة ، وسمى نفسه العائذ بالبيت ، وقد اتهم ابن الزبير بأنه حرض الحسين على الخروج إلى الكوفة ؛ ليخلو له الجو في مكة وقال له : « ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك ، فوالله لو أن لي مثلهم لذهبت إليهم » [١] ، ولكن هناك رواية أخرى تقول عكس ذلك ، فقد روى المصعب الزبيري أن الحسين ذهب إلى عبد الله بن الزبير ، وقال له : « أتتني بيعة أربعين ألف رجل من أهل الكوفة ، أو قال : من أهل العراق ، فقال له عبد الله بن الزبير : أتخرج إلى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك ؟ » [٢] . ومعنى هذا أن ابن الزبير حذر الحسين من الخروج إلى الكوفة ونصح له ، وذكر بمواقف أهل العراق من أبيه وأخيه ولم يكن رجلًا انتهازيًّا . وكيفما كان الأمر فقد بقي ابن الزبير في مكة ، وجاءته أخبار استشهاد الحسين ، فحزن عليه ورثاه . وبقي مخالفًا ليزيد ، وتجمع الناس حوله لسخطهم على يزيد من أجل مقتل الحسين ، ولم يتمكن يزيد من القضاء على معارضة ابن الزبير ؛ لامتناعه بمكة ، وقد اشتد غضبه عليه ، وأقسم ألا يقبل بيعته إلا أن يؤتى به في جامعة ، وأمر واليه على المدينة عمرو بن سعيد بن العاص أن يرسل إليه من يأتيه به ، فأرسل إليه عمرو أخاه عمرو بن الزبير - الذي كان معاديًا له ، وكان على شرطة عمرو بن سعيد في المدينة - على رأس جيش ولكن عبد الله بن الزبير هزم هذا الجيش وقتل أخاه عمرًا [٣] . وظل بعيدًا عن متناول يزيد ، حتى سار إليه مسلم بن عقبة المري بأمر من يزيد بعد القضاء على ثورة المدينة في نهاية سنة (٦٣هـ) ، ولكن مسلمًا توفي في الطريق ، فتولى قيادة الجيش الحصين بن نمير السكوني . وواصل المسير إلى مكة ، فوصلها لأربع بقين من المحرم سنة (٦٤هـ) . وحاصر ابن الزبير فيها أربعة وستين يومًا ، ودارت في تلك المدة مناوشات بين ابن الزبير وجيش الشام الذي نصب المنجنيق على الكعبة من جبل أبي قبيس ، وأشعل فيها الحريق [٤] .

وفي أثناء ذلك توفي يزيد بن معاوية في الرابع عشر من ربيع الأول سنة (٦٤هـ) وبلغ خبر موته بن الزبير ، فصاح في جيش الشام : علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ [٥] فلما سرى خبر موت يزيد في جيش الشام انكسرت شوكتهم . وهنا لاحت فرصة لابن الزبير ، تعتبر من الفرص القليلة التي تعرض للإنسان في

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٣٣) . (٢) نسب قريش (ص ٢٣٩) .
(٣) الطبري (٥/٣٤٦ ، ٣٤٧) . (٤) المصدر السابق (٥/٤٩٨) .
(٥) المصدر السابق (٥/٤٩٩ - ٥٠١) .

حياته ، فإما اقتنصها ، وإلا ضاعت منه إلى الأبد ؛ فقد بعث إليه الحصين بن نمير قائد جيش الشام ، طالبًا منه أن يلتقيا ويتحادثا ، فلما التقيا قال له الحصين : « إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، هلم فلنبايعك ، ثم اخرج معي إلى الشام ، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس ، وتهدر الدماء التي كانت بيننا وبينك ، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة » [١] . ولكنه لم يقبل هذا ، بل قال للحصين : « أنا أهدر تلك الدماء ؟ أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة ، وأخذ الحصين يكلمه سرًا ، وهو يجهر جهرًا ، وأخذ يقول : لا والله لا أفعل ، فقال له الحصين بن نمير : قبح الله من يعدك بعد هذه داهية قط أو أديبًا ، قد كنت أظن أن لك رأيًا .. أكلمك سرًا وتكلمني جهرًا ، وأدعوك إلى الخلافة ، وتعدني القتل والهلكة ؟! » [٢] . حقًا إنها فرصة نادرة ، ولكن ابن الزبير ضيعها فلو قبل وذهب معهم إلى الشام لكان من المرجح أن يتم له الأمر ؛ لأن موقف بني أمية قد اضطرب اضطرابًا شديدًا بعد موت يزيد ، ثم تفاقم وازداد سوءًا عقب موت ابنه معاوية بعده بقليل ، ولم يكن الأمويون قد تمكنوا بعد من إحكام أمرهم والبيعة لمروان في مؤتمر الجابية ، أوائل ذي القعدة سنة (٦٤هـ) ، ومن أهم ما يعكس تدهور موقف بني أمية تفكير مروان نفسه في الذهاب إلى ابن الزبير في مكة ومبايعته ؛ وذلك لأن معظم الأمصار الإسلامية كانت قد بايعت له : الكوفة والبصرة ومصر ، وبايع له عبد الله ابن خازم الذي كان قد غلب على خراسان ، حتى الشام وهي معقل الأمويين ومستقر دولتهم بايعت له بأسرها ، عدا إقليم الأردن ، فهو وحده الذي بقي على الولاء لبني أمية بزعامة حسان بن بحدل الكلبي [٣] . فتشبث ابن الزبير بالبقاء في مكة أضاع عليه كل شيء ؛ فمكة مع حرمتها ومكانتها ، إلا أنها لم تكن تصلح عاصمة للدولة الإسلامية في ذلك الوقت ؛ لبعدها عن مركز الدولة من ناحية ، ولافتقارها إلى الأموال والرجال من ناحية ثانية . ولعل ابن الزبير لو تركها يومئذ وخرج إلى الشام أو إلى العراق لتغير الموقف تغيرًا حقيقيًا .

(١) المصدر السابق (٥/٥٠٢) .
(٢) المصدر السابق (٥/٥٠٢) وتاريخ اليعقوبي (٢/٢٥٣) .
(٣) انظر تاريخ اليعقوبي (٢/٢٥٥) .

متى أخذ ابن الزبير البيعة لنفسه ؟

يرى بعض الباحثين أن ابن الزبير أصبح خليفة وبايعه بعض الناس في مكة بعد استشهاد الحسين سنة (٦١هـ) [١] . وعند ثقاة المؤرخين أنه لم يدع إلى نفسه ولم يبايع خليفة إلا بعد موت يزيد بن معاوية ، فيقول خليفة بن خياط : « وفي سنة أربع وستين دعا ابن الزبير إلى نفسه ، وذلك بعد موت يزيد بن معاوية ، فبويع في رجب لسبع خلون من سنة أربع وستين ، ولم يكن يدعو إليها ولا يدعى لها حتى مات يزيد » [٢] وهذا هو الأقرب إلى الصواب ، ففي هذه الحالة تكون بيعته بيعة شرعية صحيحة ؛ لأنها تمت وليس للمسلمين خليفة ؛ لأنها تمت قبل بيعة مروان في الجابية في ذي القعدة سنة (٦٤هـ) . ويكون موقف ابن الزبير أقوى من الناحية الشرعية من موقف مروان . لكن ابن الزبير لم يعرف كيف يدعم هذه الشرعية ، ولعله كان سعيدًا ببيعة الأمصار التي جاءته طواعية ، وهو قابع في مكة ، ولم يتحرك ليثبت هذه البيعة ويحميها ، وأتاح للأمويين الفرصة ليحكموا أمرهم ، ويفسدوا عليه كل شيء . ولقد غلط غلطة كبرى لم يدرك عواقبها إلا بعد فوات الأوان ؛ فقد كان جل رجالات بني أمية في المدينة عند وفاة يزيد ، وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، فأمر بطردهم منها ، فتردد مروان ، ولكن ابنه عبد الملك - وكان مريضًا - أشار عليه بالخروج على وجه السرعة وقال له : « فإن هذا رأي لم يتعقبه ابن الزبير ، فخرج وأخرج عبد الملك ، وتعقب ابن الزبير الرأي ، فعلم أنه قد أخطأ ، فوجه في ردهم ففاتوه » [٣] .

ووجه الخطأ في هذا أن ابن الزبير بإخراج بني أمية من المدينة إلى الشام قد أعطاهم فرصة لجمع شملهم مع أنصارهم هناك سواء الذين كانوا في الشام ، أو الذين جاؤوا إليهم من الأمصار الأخرى ، مما كان له أكبر الأثر في عقد مؤتمر الجابية وبيعة مروان . وكانت الحكمة تقضي أن يبقيهم في المدينة تحت المراقبة ، ولو حدث ذلك لربما كان من العسير إقامة الدولة الأموية من جديد . خصوصًا بعد

---

(١) انظر د. محمد الطيب النجار - المرجع السابق (ص ١٠٣) .

(٢) تاريخ خليفة (ص ١٥٧) ويقول ابن كثير في البداية والنهاية (٢٣٨/٨) : « فلما رجع حصين بن نمير السكوني بالجيش إلى الشام ، استفحل أمر ابن الزبير بالحجاز وما والاها ، وبايعه الناس بعد يزيد بيعة هناك » .

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي (٢٥٥/٢) .

أن كانت معظم أقاليم الشام قد بايعته .

عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم :

قلنا قبل قليل : إن بيعة عبد اللّٰه بن الزبير تمت سنة (٦٤هـ) بعد موت يزيد ، وفي وقت لم يكن للمسلمين فيه خليفة ، فهي بيعة شرعية ، ولكن بعد بيعة مروان ، بدأ الموقف يتغير ، ولن تحسمه الشرعية ، بل السياسية والدهاء والقوة . وقد استهل مروان أمره باستعادة الشام ، وتمكن من ذلك ، حين قهر أنصار بن الزبير ، بزعامة الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط في نهاية سنة (٦٤هـ) [١] . وقيل : كانت في المحرم سنة (٦٥هـ) . ثم اتبع ذلك بخطوة هامة فاستولى على مصر [٢] . وولى عليها ابنه عبد العزيز . ثم عاد إلى الشام ، ليوجه جهوده للزحف على العراق ، فأرسل عبيد اللّٰه بن زياد على رأس جيش كبير ليسترده . وهو الجيش الذي التقى بالتوابين في عين الوردة وهزمهم كما قدمنا . وتوفى مروان في رمضان سنة (٦٥هـ) . دون أن يتمكن من استرداد العراق . وترك هذه المهمة لابنه عبد الملك .

عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان :

عندما تولى عبد الملك بن مروان بعد وفاة أبيه ، كانت دولته تتكون من الشام ومصر ، ودولة ابن الزبير تتكون من الحجاز والعراق . وهنا ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وتزعم الشيعة بعد مقتل سليمان بن صرد الخزاعي في عين الوردة ، ثم تمكَّن من طرد عبد اللّٰه بن مطيع – عامل ابن الزبير – من الكوفة ، وأحكم سيطرته عليها ، ثم دعم موقفه بهزيمة جيش عبد الملك بقيادة عبيد اللّٰه بن زياد في موقعة الخازر سنة (٦٧هـ) – كما أسلفنا – وهنا رأى عبد الملك أن يترك المختار يواجه ابن الزبير ؛ لأنه كان على يقين من أن ابن الزبير لن يترك المختار يستبد بأمر العراق . وبالفعل أحس ابن الزبير بالقلق من تصاعد قوة المختار الذي بسط سلطانه على شمال العراق والجزيرة ، وبدأ يعد العدة للزحف على البصرة لانتزاعها من مصعب بن الزبير فأمر عبد اللّٰه أخاه مصعبًا أن يسير إلى المختار للقضاء عليه ، فزحف مصعب من البصرة وقضى على المختار سنة (٦٧هـ) . وقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن ثورة المختار .

وبعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين

---

(١) الطبري (٥/٥٣٤ ، ٥٣٥) وما بعدها ، وابن الأثير – الكامل (٤/١٤٩ ، ١٥٠) .
(٢) خليفة بن خياط – المصدر السابق (ص ٢٦١) .

عبد الملك الذي قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته في ذلك ، فمنهم من أشار عليه أن يقيم في الشام ، ويرسل واحدًا من أهله ليقود الجيش ، ومنهم من أشار عليه بأن يسير بنفسه ، فمال هو إلى هذا الرأي . وقال : « إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي ، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له ، وإني بصير بالحرب ، شجاع بالسيف إن احتجت إليه ، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ، ولكنه لا علم له بالحرب ... ومعه من يخالفه ، ومعي من ينصح لي » [١] .

عزم عبد الملك إذن على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير ، وكان ذلك في سنة (٧١هـ) أي بعد أربع سنين من القضاء على المختار ، ولعله أخر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمدًا ؛ فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام ، فقضى هذه السنين في تحقيق هذا الهدف ، فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابي الذي كان معتصمًا بقرقيسياء [٢] ، مهددًا بذلك إقليم الجزيرة كله . وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة ، واصطلح معه ، وأنهى بذلك مسألة قرقيسياء التي استمرت حوالي سبع سنين كالشكوكة في جنب دولته ، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيرة [٣] ، ثم تخلص من منافسه الخطير ، وهو عمرو بن سعيد الأشدق [٤] .

ولما اطمأن إلى سلامة وقوة موقفه لم يضيع وقتًا ؛ فأعد جيشه وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان ، وسار إلى العراق ليخوض المعركة الفاصلة مع مصعب ابن الزبير ، ونزل بمسكن ، وكان مصعب قد علم بمسيره ، فسار هو أيضًا بجيشه وعلى مقدمته إبراهيم بن الأشتر ، ونزل باجميرا [٥] . وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم ، وكان إبراهيم بن الأشتر من بين الذين كتب إليهم عبد الملك ، فأخذ الكتاب مختومًا ودفعه إلى مصعب ، فقال له : ما فيه ؟ فقال له : ما قرأته . « فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه ، ويجعل له

(١) ابن الأثير - الكامل (٣٢٣/٤) .

(٢) كان زفر من أنصار ابن الزبير وممن بايعوه ، وقد حضر معركة مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، ولما حلت بهم الهزيمة وقتل الضحاك ونجا هو من الموت ذهب إلى قرقيسياء وظل معتصمًا بها مخالفًا لعبد الملك ، حتى تم الصلح بينهما سنة (٧١هـ) .

(٣) انظر ابن الأثير - الكامل (٣٤٠/٤) و د. محمد ضياء الدين الريس - عبد الملك بن مروان (ص ٢٠٩) .

(٤) الطبري (١٤٠/٦) .

(٥) المصدر السابق (١٥٧/٦) .

ولاية العراق ، فقال لمصعب : إنه والله ما كان من أحد آيس منه مني ، ولقد كتب إلي أصحابك كلهم بمثل الذي كتب إلي ، فأطعني فيهم فاضرب أعناقهم ، قال : إذًا لا تناصحنا عشائرهم ، قال : فأوقرهم حديدًا ، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك ، ووكل بهم من إن غلبت ضرب أعناقهم ، وإن غلبت مننت بهم على عشائرهم ، فقال : يا أبا النعمان إني لفي شغل عن ذلك ، يرحم الله أبا بحر ؛ إنه كان ليحذرني غدر أهل العراق ، كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه ! » [١] ، وهذا ليس غريبًا على أهل العراق ؛ فلهم في الغدر وتغيير المواقف سجل حافل . بل لقد صرح عبد الملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم [٢] . ولم يكن هذا خافيًا في معسكر مصعب ، فعندما استدعى المهلب بن أبي صفرة - وكان من رجاله في ذلك الوقت - يستشيره ، قال له : « اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم ، فلا تبعدني عنك . فقال له مصعب : إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج ، وهم قد بلغوا سوق الأهواز ، وأنا أكره إذ سار عبد الملك إلى أن لا أسير إليه ، فاكفني هذا الثغر » [٣] .

في الوقت الذي كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلي عنه والانضمام إليه [٤] . كان حريصًا على ألا يقاتل مصعبًا ، للمودة والصداقة القديمة التي كانت بينهما ، فأرسل إليه رجلًا من كلب ، وقال له : « أقرئ ابن أختك السلام - وكانت أم مصعب كلبية - وقل له يدع دعاءه إلى أخيه ، وأدع دعائي إلى نفسي ، ويجعل الأمر شورى ، فقال له مصعب : قل له : السيف بيننا » [٥] . ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى ؛ فأرسل إليه أخاه محمدًا ليقول له : « إن ابن عمك يعطيك الأمان ، فقال مصعب : إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا » [٦] . ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر فقد أمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتاب بن ورقاء ، وهو من الذين

---

(١) الطبري (١٥٧/٦) ، وابن الأثير - الكامل (٣٢٥/٤) ، وأبو بحر هو الأحنف بن قيس .

(٢) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٢٣/٤) . (٣) المصدر السابق (٣٢٤/٤) .

(٤) ذكر الطبري من هؤلاء حجار بن أبجر ، والغضبان بن القبعثري ، وعتاب بن ورقاء ، وقطن بن عبد الله الحارثي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، وزحر بن قيس ، ومحمد بن عمير . انظر (١٥٦/٦) .

(٥) ابن الأثير - الكامل (٣٢٦/٤) .

(٦) الطبري (١٥٩/٦) .

كانوا كاتبوا عبد الملك ، فاستاء إبراهيم من ذلك ، وقال : « قد قلت له : لا تمدني بعتاب وضربائه ، إنا للَّه وإنا إليه راجعون ، فانهزم عتاب بالناس » ، فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل [١] ، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب ؛ لأنه فوق شجاعته ، كان مخلصًا له غاية الإخلاص ، ولذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح قائلًا : « يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم » [٢] . تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه ، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال [٣] ، ولكنه ظل يقاتل في شجاعة وبسالة ، حتى أثخنته الجراح ، وأخيرًا قتله زياد بن ظبيان . وكان مقتله في المكان الذي دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق [٤] في جمادى الآخرة سنة (٧٢هـ) . فلما بلغ عبد الملك مقتله قال : « واروه فقد واللَّه كانت الحرمة بيننا قديمة ، ولكن هذا الملك عقيم » [٥] . وبمقتل مصعب انتهت المعركة ، فدخل عبد الملك الكوفة ، وبايعه أهلها ، وعادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية . وعين عبد الملك أخاه بشرًا واليًا عليها ، وقبل أن يغادرها أعد جيشًا للقضاء على عبد اللَّه ابن الزبير في مكة .

القضاء على عبد الله بن الزبير سنة (٧٣هـ) :

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في معركة دير الجاثليق ، إيذانًا بانتهاء دولة عبد اللَّه بن الزبير ، فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية ، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز ، ولم يكن في استطاعته الصمود ، لافتقاره إلى المال والرجال ، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فتَّ في عضده وأصابه بالإحباط ، ولكنه لم يلق الراية ، وظل يقاوم حتى النهاية .

لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتًا بعد انتصاره على مصعب ، وقرر أن يقضي نهائيًا على دولة ابن الزبير ، وبينما يشارو رجاله في شخص يتولى هذه المهمة ، قام إليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقال له : « ابعثني إليه يا أمير المؤمنين ، فإني رأيت في المنام كأني ذبحته ، وجلست على صدره وسلخته . فقال : أنت له ، فوجهه في

---

(١) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٢٦/٤) . (٢) المصدر السابق (٣٢٦/٤) .
(٣) المصدر السابق (٣٢٨/٤) .
(٤) الطبري (١٦٠/٦ ، ١٦٢) ، يذكر الطبري تاريخين لقتل مصعب : الأول أنه كان سنة (٧١هـ) ، والثاني أنه كان سنة (٧٢هـ) ولعل الثاني هو الأرجح فقد ذكره خليفة بن خياط في تاريخه (ص ٢٦٨) .
(٥) الطبري (١٦١/٦) .

عشرين ألفًا من أهل الشام وغيرهم » [١] . توجه الحجاج إلى الحجاز ونزل الطائف أولًا ، ثم أخذ يرسل بعض جنوده إلى قتال ابن الزبير ، ودارت بين الفريقين عدة اشتباكات في عرفة كانت دائمًا لمصلحة جيش الحجاج [٢] . وفي ذي القعدة زحف الحجاج من الطائف على مكة ، وحاصر ابن الزبير ، ونصب المنجنيق على الكعبة من جبل أبي قبيس ، فلما أهل ذو الحجة لم يستطع ابن الزبير أن يحج ، وحج بالناس عبد اللَّه بن عمر ، وطلب من الحجاج أن يكف عن ضرب الكعبة بالمنجنيق ؛ لأنه قد منع الناس من الطواف ، فامتثل الحجاج ، ولكن بعد فراغ الناس من طواف الفريضة ، نادى الحجاج في الناس أن يعودوا إلى بلادهم ؛ لأنه سيعود إلى ضرب البيت بالحجارة [٣] ، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة ، وشدد على ابن الزبير ، وتحرج موقفه وانفض عنه معظم أصحابه ، ومنهم ابناه حمزة وخبيب ، اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما [٤] . فلما رأى ذلك دخل على أمه فقال لها : « يا أمه ، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت واللَّه يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن . فدنا .. فقبل رأسها ، وقال : هذا واللَّه رأيي ، والذي قمت به داعيًا إلى يومي هذا ، وما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت البقاء فيها ... ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أمه فإني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الأمر للَّه » [٥] فخرج من عندها ، وذهب إلى القتال فقتل من يومه ، وهو السابع عشر من جمادى الأولى سنة (٧٣هـ) [٦] . وبهذا انتهت دولته التي استمرت حوالي تسع سنين .

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢٦٦/٢) وابن الأثير - الكامل (٣٤٩/٤) .
(٢) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٤٩/٤) . (٣) المصدر السابق (٣٥٠/٤) .
(٤) الطبري (١٨٨/٦) وابن الأثير - الكامل (٣٥٢/٤) .
(٥) الطبري (١٨٨/٦) وابن الأثير - الكامل (٣٥٢/٤ ، ٣٥٣) .
(٦) الطبري (١٨٧/٦) .

أسباب فشل ابن الزبير :

عندما أعلن عبد اللّٰه بن الزبير دولته وبايعه الناس في رجب سنة (٦٤هـ) ، كانت كل عوامل النجاح متوفرة له . فبيعته جاءت في وقت لم يكن للمسلمين فيه خليفة ، فهو والحالة هذه خليفة شرعي وليس خارجًا على خليفة . وكانت هذه دعامة قوية . ثم بايعته معظم أقطار الأمة الإسلامية ، عدا إقليم الأردن ، فكان عليه أن يتحرك إلى الشام أو العراق ، ولو فعل وظهر في أيٍّ من هذين القطرين لكان في ظهوره للناس ما يشد أزرهم ويقوي عزيمتهم ، وإذا قورن بمروان وابنه عبد الملك فربما رجحت كفته عند كثير من الناس . ولكنه بقي قابعًا في مكة ، ولم يقد معركة خارجها بنفسه ، بينما خصومه كانوا سريعي الحركة ، فقد خرج مروان إلى مرج راهط وهزم أنصاره هناك ، ثم سار إلى مصر وانتزعها من واليه عبد الرحمن بن جحدم . ثم جاء عبد الملك ، وقاد معركته ضد مصعب بنفسه .

وكان من أهم أسباب إخفاق ابن الزبير إلى جانب هذا :

١ - عدم بيعة بني هاشم له ومعارضتهم لدولته ، فقد امتنع عن بيعته عبد اللّٰه ابن عباس ، ومحمد بن علي بن أبي طالب - ابن الحنفية - وغيرهما . فلم يعاملهم بالحكمة ، ولم يقدر مكانتهم بين الناس ، وإنما ضيق عليهم ، وسجنهم ، بل هددهم بالتحريق بالنار ، مما جعل محمد ابن الحنفية يستغيث بالمختار الثقفي ، الذي أرسل إليه أربعة آلاف من الشيعة ، ولولا ذلك لما أطلق سراحهم [١] . كذلك امتنع عن بيعته عبد اللّٰه بن عمر بن الخطاب [٢] .

٢ - معارضة الخوارج له ، بعد أن تبين لهم أنه لا يرى رأيهم ، فقد ناصبوه العداء، وقد مر بنا أنه بينما كان مصعب يقاتل عبد الملك ، كان قائده المهلب بن أبي صفرة مشغولًا بحربهم .

٣ - خيانة أهل العراق له ، وعدم إخلاصهم في الوقوف معه .

٤ - إسراف أخيه مصعب في الدماء بعد القضاء على المختار الثقفي ، حيث قتل فيما يروى ستة آلاف من أهل الكوفة [٣] دفعة واحدة ؛ مما أوغر عليه صدور

---

(١) المسعودي - مروج الذهب (٣/٨٥ ، ٨٦) وتاريخ اليعقوبي (٢/٢٦١ ، ٢٦٢) .
(٢) ابن خلدون - المقدمة (٢/٦٢٣) .
(٣) ابن الأثير (٤/٢٧٨) .

عشائرهم . وليس ببعيد أن يكون موقفهم منه في معركة دير الجاثليق له علاقة بهذه الأحداث ، فقد مر بنا أن الذي قتل مصعبًا هو زياد بن ظبيان . فلما ذهب إلى عبد الملك أمر له بألف دينار فرفض ابن ظبيان أن يأخذ شيئًا ، وقال لعبد الملك : « لم أقتله على طاعتك وإنما قتلته على قتل أخي النابئ » [(١)] وقيل : اشترك في قتله زائدة بن قدامة الثقفي ، وقال حين طعنه : « يالثارات المختار » [(٢)] .

٥ - ومن بين الأسباب أيضًا شح ابن الزبير بالمال وعدم بذله لأنصاره ، ولا شك أن سلاح المال خطير ، يجذب القلوب ويأسر النفوس ، ولقد كان خصمه عبد الملك جوادًا به ، فجذب إليه القلوب ، وبصفة خاصة من أهل العراق . أما هو فكان بخيلًا فانصرفوا عنه ، فقد روي أن أخاه مصعبًا ذهب إليه بعد مقتل المختار بزعماء أهل العراق ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ، قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع في قومه ، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك ، وقاموا بإحياء دعوتك ، ونابذوا أهل معصيتك ، وسعوا في قطع عدوك ، فأعطهم من هذا المال : فقال له : ... جئتني بعبيد أهل العراق ، وتأمرني أن أعطيهم مال الله ؟! لا أفعل ، وايم الله لوددت أن أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم ، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام .. فقال رجل منهم : علقناك وعلقت أهل الشام ، ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده ، لا يرجون رفده ، ولا يطمعون فيما عنده ، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا » [(٣)] .

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى إخفاق ابن الزبير .

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث (٨١ - ٨٣هـ)

هذه واحدة من الثورات العديدة التي قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموية ، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة ، بل دفع إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والي العراق الحجاج بن يوسف . وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي [(٤)] . رئيس

(١ ، ٢) ابن الأثير - الكامل (٣٢٨/٤) .

(٣) انظر الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٢٠/٢) .

(٤) شاركت أسرة الأشعث في كثير من الأحداث البارزة في التاريخ الإسلامي ، فالأشعث - جد عبد الرحمن - حضر صفين مع علي بن أبي طالب ، وكان من المحبذين لإيقاف القتال وقبول التحكيم ، =

قبيلة كندة وأحد زعماء الكوفة الذي استغل العداء المتأصل والحقد الدفين الذي يكنه أهل العراق للدولة الأموية ، فأشعل هذه الثورة العارمة التي كانت من أخطر الثورات التي واجهها عبد الملك بن مروان . وبدأت هذه الثورة من إقليم سجستان ، ذلك الإقليم الذي أتعب الأمويين ، وكان كثير الانتفاض والتمرد عليهم (١) ، فلما كانت ولاية الحجاج بن يوسف على العراق (٧٥ - ٩٥هـ) صبر على مضض على تجاوزات رتبيل ملك سجستان ضد الدولة ، واستغلاله الظروف الصعبة التي كانت تمر بها ، ومنعه الجزية ، فلما انتهت مشاكل العراق الخطيرة ، وكسرت شوكة الخوارج سنة (٧٨هـ) . قرر أن يؤدب رتبيل فأرسل إليه جيشًا سنة (٧٩هـ) بقيادة عبيد اللَّه بن أبي بكرة ، وأمره أن يتوغل في سجستان ويدك قلاع رتبيل وحصونه ، وقد فعل عبيد اللَّه ما أمر به الحجاج وتوغل في البلاد وأصاب كثيرًا من الغنائم ، إلا أن رتبيل خدعه حيث تظاهر بالهزيمة أمامه ثم أطبق عليه وأخذ عليه العقاب والشعاب وقضى على معظم جيشه . ومات عبيد اللَّه بن أبي بكرة كمدًا لما نال الناس وأصابهم (٢) .

كان لهزيمة هذا الجيش وقع أليم في نفس الحجاج ، بل في نفس عبد الملك ابن مروان نفسه ، الذي كلف الحجاج بتجريد جيش كبير للانتقام من رتبيل ، فسارع الحجاج في إعداد جيش كبير بلغ عدده أربعين ألفًا ، وبالغ في تجهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل - على حد تعبير الطبري (٣) ، وبلغ من فخامة الجيش أن سماه الناس جيش الطواويس (٤) ، وأسند الحجاج قيادته إلى عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث الذي لم تكن علاقته به على ما يرام ، بل كان كل منهما يحمل

= وكان له دور في اختيار أبي موسى ممثلًا لعلي . وكان علي لا يحبه ولا يثق فيه ، وقد حاول عزله عن رئاسة كندة وإسنادها إلى حجر بن عدي ، ولكن حجرًا رفض ذلك . أما أبوه محمد فقد ولّي الموصل لعبد اللَّه ابن الزبير ثم تركها وانحاز إلى المختار الثقفي ضد ابن الزبير ، ثم لم يلبث أن عاد ثانية إلى آل الزبير وكل ذلك بتأثير ابنه عبد الرحمن وقد اشتركا مع مصعب في قتال المختار ، وقتل محمد والد عبد الرحمن أثناء ذلك . وبعد مقتل المختار حمل عبد الرحمن مصعبًا على قتل عدة آلاف من أهل الكوفة انتقامًا لمقتل أبيه ، وبعد مقتل مصعب تحول ولاؤه إلى الأمويين وظل في خدمة عبد الملك بن مروان حتى قام بثورته التي نتحدث عنها الآن .

(١) انظر البلاذري - فتوح (٤٨٨ - ٤٩٢) .

(٢) انظر المصدر السابق (ص ٤٩١ ، ٤٩٢) ، والطبري (٣٢٢/٦ ، ٣٢٤) .

(٣) المصدر السابق (٣٢٧/٦) ، وابن الأثير - الكامل (٤٥٤/٤) .

(٤) الطبري (٣٢٩/٦) .

الكراهية للآخر ، ويتمنى الخلاص منه ، فكان الحجاج يقول عن ابن الأشعث : « ما رأيته قط إلا أردت قتله » (١) ، وكان عبد الرحمن يتحدث علانية أنه يحاول أن يزيل الحجاج عن سلطانه . وكان يتعالى عليه ويشمخ بأنفه باعتباره سليل الملوك من قبيلة كندة ، وكان يعز عليه أن يكون خاضعًا لسلطان أحد (٢) . ولقد أدرك عمه إسماعيل بن الأشعث منه ذلك وكان يخشى خلافه وخروجه على الحجاج فنصحه بعدم إسناد قيادة هذا الجيش إليه ، وقال له : « لا تبعثه فإني أخاف خلافه ، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطانًا » (٣) . ولكن يبدو أن الحجاج قد خانه ذكاؤه هذه المرة ، أو كان مفرطًا في ثقته بنفسه ، فلم يسمع نصيحة إسماعيل ورد مستخفًّا بعبد الرحمن ، فقال : « هو لي أهيب وفيَّ أرغب من أن يخالف أمري ، أو يخرج عن طاعتي » (٤) .

مضى عبد الرحمن بهذا الجيش العظيم إلى سجستان لتأديب رتبيل ، وكان ذلك في سنة (٨٠هـ) ، فلما بلغته الأخبار ، كتب إلى عبد الرحمن يعتذر إليه مما حل بالمسلمين في بلاده ويطلب الصلح ، ولكن عبد الرحمن لم يقبل (٥) ، وأخذ يتوغل في بلاده ، وهنا حاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمن ما صنعه مع عبيد الله ابن أبي بكرة ، فأخذ يخلي البلاد والحصون أمامه ليوقعه في شرك . ولكن ابن الأشعث فطن إلى ذلك ، وكان كما يقول الطبري :

« كما حوى بلدًا بعث إليه عاملًا . وبعث معه أعوانًا ، ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ، ووضح المسالح بكل مكان مخوف ، حتى إذا جاز من أرضه أرضًا عظيمة ، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة - حبس الناس عن الوغول في أرض رتبيل وقال : نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم ، حتى نجبيها ونعرفها ، ويجترئ المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ، وفي أقصى بلادهم وممتنع حصونهم ، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله » (٦) .

---

(١) المصدر السابق (٣٢٧/٦) .
(٢) ثابت الراوي ، العراق في العصر الأموي (ص ٢٠٦ ، ٢٠٧) .
(٣ - ٥) الطبري (٣٢٨/٦) .
(٦) المصدر السابق (٣٢٩/٦) وابن الأثير - الكامل (٤٥٥/٤) .

أوردت هذا النص الطويل من الطبري ؛ لأنه يبين بوضوح خطة عبد الرحمن في حرب رتبيل وهي خطة سديدة وعملية وتدل على ذكاء وحنكة وتجربة وقد كتب إلى الحجاج بما حققه من فتوحات وبخطته التي اعتزم تنفيذها (١) .

ولكن الحجاج لم يعجبه ذلك ورد عليه ردًّا قاسيًا اتهمه فيه بالضعف والتياث الرأي ، حيث قال له : « أما بعد ؛ فإن كتابك أتاني ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ، ويستريح إلى الموادعة ، قد صانع عدوًّا قليلًا ذليلًا ، قد أصابوا من المسلمين جندًا كان بلاؤهم حسنًا ، وغناؤهم في الإسلام عظيمًا ، لعمرك يابن أم عبد الرحمن ، إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين ، إني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأي مكيدة ، ولكني رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك ، والتياث رأيك ، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم ، والهدم لحصونهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبي ذراريهم » (٢) .

أحس ابن الأشعث بالإهانة من مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب العنيف ، والحق معه في ذلك ؛ فالحجاج وقد عهد إليه بهذه المهمة الخطيرة ، وفي هذا الإقليم البعيد كان يجب أن تكون ثقته فيه كاملة ، وأن يشجعه بدلًا من أن يعنفه ، فهو الذي يعاني الحرب ، وأقدر على تكييف موقفه وظروفه من الحجاج البعيد عن الميدان . ولو كان ضعيف الرأي يحب الموادعة - كما يقول عنه الحجاج - لكان الحجاج نفسه قد ارتكب خطأً فاحشًا في أن يعهد بمثل هذا العمل الخطير إلى رجل ضعيف الرأي ، فالحرب لا يصلح لها من تكون هذه صفته .

ولم يكتف الحجاج بهذا الكتاب القاسي ، وإنما أردفه بكتابين آخرين ، يتضمنان نفس المعاني ، بل هدده في الثاني منهما بالعزل ، حيث قال له : « أما بعد ، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم ، وإلا فإسحاق بن محمد أخوك أمير الناس ، فخله وما وليته » (٣) .

أحدث هذا الكتاب أثرًا أليمًا في نفس ابن الأشعث ؛ فجمع كبار جنده ، وهو في ثورة غضب ، وقال لهم : « أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحكم محب ،

---

(١) المصدران السابقان (٣٢٩/٦) ، (٤٤٥/٤) .
(٢، ٣) المصدران السابقان (٣٣٥/٦) ، (٤٦١/٤) .

ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم ، وأولي التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأيًا ، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحًا ، وقد كتبت إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ، ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضي إذا مضيتم ، وآبى إذا أبيتم ، فثار إليه الناس فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع » (١) .

هنا ارتكب ابن الأشعث خطأ قاتلًا في حق الدولة ، بل في حق نفسه ؛ حيث جهر بأمر المكاتبات التي دارت بينه وبين الحجاج ، والتي كان يجب أن تكون في صدره وحده ، وإذا كان لا بد من الاستشارة فكان عليه أن يختار عددًا محدودًا من أهل الرأي والحكمة ، يأخذ رأيهم في الطريقة التي يجب أن يتصرف بها . وكان يمكنه أن يرسل وفدًا على نفس المستوى إلى الحجاج على وجه السرعة ، ليشرحوا له موقفهم وخططهم ، أما اللجوء إلى استثارتهم ضد الحجاج ، وهو يعلم أنهم لا يحبونه ، ويودون التخلص منه ، فعمل ليس من الأمانة في شيء .

وما كاد أهل العراق يسمعون مقالة ابن الأشعث حتى قام خطباؤهم وشعراؤهم يعلنون سخطهم على الحجاج ويعلنون خلعه ، ودعوه إلى البيعة ، فاستجاب على الفور ، وقال لهم : « تبايعوني على خلع الحجاج عدو الله ، وعلى النصرة لي ، وجهاده حتى ينفيه الله من أرض العراق ، فبايعه الناس ، ولم يذكر خلع عبد الملك إذ ذاك بشيء » (٢) . ومن هنا بدأ ما سمي بثورة ابن الأشعث ، التي كانت من أخطر الثورات التي واجهها عبد الملك بن مروان .

ولقد أنصفنا ابن الأشعث عندما ذكرنا أنه كان على حق إذ استاء من معاملة الحجاج له ، ولكننا هنا نحمله مسؤولية هذه الثورة كاملة ، فمهما كان من أمر الحجاج معه ، وكيفما كانت علاقته به ، فنحن هنا أمام مصلحة المسلمين ومصير الدولة ، فما كان يحق له أن يعلن الثورة عليها ، وهي التي عهدت إليه بهذا العمل الكبير ، ولكن يبدو أن بذور الثورة كانت كامنة في نفسه ، وشجعه على ذلك

---

(١) المصدران السابقان (٦/٣٣٥) ، (٤/٤٦١ ، ٤٦٢) .

(٢) المصدران السابقان (٦/٣٣٦) ، (٤/٤٦٣) .

الاستجابة الفورية من جند العراق ، الذين كانت قلوبهم تنطوي على حقد دفين على الحجاج ، بل على الدولة الأموية نفسها ، وشجعه أكثر استجابة الفقهاء الذين كانوا معه ، فقد كان في الجيش عدد كبير من كبار التابعين ، ذكر منهم خليفة بن خياط أكثر من عشرين رجلًا [1] ، منهم سعيد بن جبير ، وعامر بن شراحيل الشعبي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، والحسن بن أبي الحسن البصري .

ويبدو أن الحجاج قصد من إرسالهم مع الجيش أن يكون وجودهم حافزًا للجند على قتال الأعداء ، فإذا به يكون حافزًا على الثورة ، وعاملًا من أهم عوامل تأجيجها [2] ؛ لمكانتهم من الناس ، وثقتهم فيهم . فقد ذكر خليفة بن خياط أنه « قيل لابن الأشعث : إن أحببت أن يقتلوا حولك ، كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرج الحسن » [3] . وهكذا انقلب كل شيء على الحجاج ليؤدي إلى عكس ما كان يريد . عزم ابن الأشعث على الثورة إذن ، وبدلًا من أن يمضي في مقاتلة رتبيل ملك سجستان ، ارتد إلى العراق ليقاتل الحجاج ، بل عقد اتفاقًا مع رتبيل وصالحه على أنه إن انتصر على الحجاج فسيعفيه من الخراج ، وإن انهزم فعلى رتبيل أن يوفر له الملجأ والحماية [4] .

بلغت أخبار الثورة الحجاج فانزعج انزعاجًا شديدًا ، وكتب إلى عبد الملك ابن مروان بالأمر ، وسأله أن يعجل بإرسال الجنود من الشام [5] . ولم يكن عبد الملك أقل انزعاجًا من الحجاج لدى سماعه أخبار الثورة ، التي هزته ربما أكثر من جميع الأحداث التي مرت به حتى الآن . واستدعى خالد بن يزيد بن معاوية ليستشيره ، وأقرأه الكتاب الذي جاءه من الحجاج ، فلما رأى خالد ما به من الجزع ، أراد أن يهوّن عليه الأمر ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ؛ إن كان هذا الحدث من قبل

---

(١) تاريخ خليفة (ص ٢٨٦ ، ٢٨٧) .

(٢) كان هؤلاء الفقهاء أو القراء - كما كانوا يسمون - لا يرون من الحجاج إلا الوجه المظلم ، كوال قاس طاغية مستبد ، ولم يقدروا الظروف التي كان يعمل فيها والتي ألجأته إلى هذه القسوة ، فالعهد كان عهد فتن وثورات وقلاقل في كل مكان . ولو وجد الحجاج في عهد استقرار وأمن لربما رأى الناس منه غير ما رأوا ، فالرجل رغم كل شيء كان رجل تعمير وإدارة ، وكان ينطوي على لمحات إنسانية ظهرت في مواقف كثيرة . ولكن الفقهاء بروحهم المسالمة ينفرون من القسوة ويتصورون أن المشاكل كلها يمكن أن تحل بالوعظ والإرشاد وهذه نظرة مثالية للأمور . من قوم لم يعانوا السياسة وضروراتها .

(٣) المصدر السابق (ص ٢٨٧) . (٤) الطبري (٣٣٦/٦) .

(٥) نفسه (٣٣٨/٦) .

سجستان فلا تخفه ، وإن كان من قبل خراسان تخوفته » [١] . وأخذ عبد الملك يوالي الحجاج بجند الشام . وكان المهلب بن أبي صفرة في ذلك الوقت في خراسان فلما بلغته أخبار الثورة كتب إلى ابن الأشعث يحذره من مغبة العمل الذي أقدم عليه ، وينهاه عن تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم [٢] . ثم كتب إلى الحجاج بخبرته بأهل العراق ، فقال له : « أما بعد ؛ فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من عل ، وليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره ، وإن لأهل العراق شره في أول مخرجهم ، وصبابة إلى نسائهم وأبنائهم ، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ، ويشموا أولادهم ، ثم وافقهم عندها ، فإن اللّٰه ناصرك عليهم إن شاء اللّٰه » [٣] . كان هذا الرأي الذي أشار به المهلب - صاحب الخبرة الكبيرة بأهل العراق - هو الصواب ؛ فقد أراد أن يوفر على الحجاج الجهد ، وقد أشار عليه بالرأي نفسه ذادان فروخ [٤] . ولكن الحجاج لم يعمل برأي المهلب ، بل اتهمه بالخديعة ، وقال : « لا واللّٰه ما لي نظر ، ولكن لابن عمه نصح » [٥] . ولكنه ندم على ذلك فيما بعد [٦] ، عندما تحقق ما أشار به المهلب ؛ لأن ابن الأشعث ما أن دخل البصرة حتى قعد عنه عامة أهلها وركنوا إلى أهلهم [٧] .

كانت بداية الثورة سنة (٨١هـ) ، وقد هزم ابن الأشعث كل الجيوش التي أرسلها إليه الحجاج ولم تستطع إيقافه فتقدم حتى دخل البصرة ، فتركها الحجاج وسار إلى الزاوية [٨] ، حيث دارت بينهما معركة في المحرم سنة (٨٢هـ) [٩] انتصر فيها الحجاج ، فاضطر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة ، فعاد الحجاج إليها . ولكن ابن الأشعث حقق مزيدًا من الانتصارات ، وتزايدت جموعه ، حتى بلغت مائة ألف مقاتل [١٠] .

---

(١) نفسه (٣٣٩/٦) .
(٢) نفسه (٣٣٨/٦) .
(٣) المصدر السابق (٣٣٩/٦) .
(٤) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٢٨١) .
(٥) الطبري (٣٣٩/٦) .
(٦) نفسه (٣٤٠/٦) فقد قال الحجاج : « للّٰه أبوه أي صاحب حرب هو ! أشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل » .
(٧) تاريخ خليفة (ص ٢٨١) .
(٨) يوجد أكثر من مكان يحمل اسم الزاوية . ولكن المقصود هنا زاوية البصرة ، مكان قريب منها - انظر ياقوت - معجم البلدان (١٢٨/٣) .
(٩) تاريخ خليفة (ص ٢٨١) والطبري (٣٤٢/٦) .
(١٠) الطبري (٣٤٧/٦) .

وكان ابن الأشعث لما رأى إقبال الناس عليه واستجابتهم لدعوته قد خلع عبد الملك بن مروان [١] ، وهنا تطورت الثورة تطورًا خطيرًا ، فتحولت من ثورة على الحجاج والي العراق ، إلى ثورة على الخليفة نفسه . وإزاء هذا التطور شاور عبد الملك خاصة رجاله ، فأشاروا عليه بخلع الحجاج ، وقالوا له : « إن كان إنما يرضى أهل العراق أن ينزع عنهم الحجاج ، فإن نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق ، فانزعه عنهم تخلص لك طاعتهم » [٢] . فاقتنع الملك بهذه الفكرة ، وأرسل إلى العراق ابنه عبد اللّه وأخاه محمدًا ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج ، وأن تجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد من العراق شاء ، وأن يكون واليًا عليه ما دام حيًا ، وكان عبد الملك واليًا ، فإن هم قبلوا ذلك عزل عنهم الحجاج ، وكان محمد بن مروان أمير العراق ، وإن أبوا أن يقبلوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام وولي القتال ، ومحمد بن مروان وعبد اللّه بن عبد الملك في طاعته [٣] .

كان من الطبيعي أن يستاء الحجاج من هذا ، وعز عليه أن يضحي به عبد الملك ابن مروان ، بعد كل ما قدم له من خدمات . وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، واللّه لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلًا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك ، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان ؟ فلما سألهم ما يريدون قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ! إن الحديد بالحديد يفلح ، خار اللّه لك فيما رأيت . والسلام عليك » [٤] . غير أن عبد الملك كان مقتنعًا بالفكرة ، وأن مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار ، ورأى في ذلك منع الحرب [٥] . ولكن من حسن حظ الحجاج أنه لما عرضت الفكرة على أهل العراق رفضوها بقوة ، مع أن ابن الأشعث قبلها ، وحثهم على قبولها ، لكنهم لم يوافقوه ، بل جددوا خلع عبد الملك ، وظنوا الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموي [٦] . وبدأ الفريقان يستعدان للقتال ، فاشتبكا في

(١) نفسه (٣٣٨/٦) .
(٢) نفسه (٣٤٧/٦) .
(٣ - ٥) نفسه (٣٤٨/٦) .
(٦) نفسه (٣٤٨/٦ ، ٣٤٩) .

أشهر وقائعهم - التي زادت عن ثمانين موقعة - في دير الجماجم [١] والتي استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث . في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة (٨٣هـ) [٢] ، ثم دارت معركة أخرى بعدها في مسكن ، في شعبان من نفس السنة ، فهزم ابن الأشعث أيضًا ، ثم ولى هاربًا إلى سجستان [٣] ، ملتجئًا إلى رتبيل للاتفاق الذي كان قد تم بينهما . ولكن الحجاج هدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل [٤] ؛ فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه ، فلما أحس ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان فيه ، فمات فأخذ رأسه وأرسلها إلى الحجاج ، وكان ذلك سنة (٨٥هـ) [٥] .

وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذي قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان ، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين ، وهي ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة في نفس ابن الأشعث والحجاج ، كل منهما للآخر من ناحية ، وبغض أهل العراق للحكم الأموي من ناحية ثانية .

ثورة يزيد بن المهلب (١٠١ - ١٠٢هـ)

هذه ثورة أخرى من الثورات العديدة التي هبت في وجه الدولة الأموية ، وهي شديدة الشبه بثورة ابن الأشعث - التي سبق الحديث عنها - فلها خلفية طويلة من الأحقاد الشخصية ، ولها علاقة بصلة قائدها يزيد بن المهلب بالحجاج بن يوسف الثقفي ، فقد ساءت العلاقة بين الحجاج وبين آل المهلب إلى أبعد حد ، فعزلهم جميعًا عن ولاياتهم ، ووضع أكبرهم يزيد في السجن . ولا ندري السبب الذي غيَّر الحجاج وجعله ينقلب عليهم بهذه الصورة . مع أنهم كانوا أصهاره [٦] ، وكان أبوهم المهلب بن أبي صفرة من خيرة الرجال الذين عرفهم العهد الأموي ، ومثالًا يحتذى في الطاعة والإخلاص لكل من عمل معهم ؛ فقد عمل لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم دخل في خدمة عبد الله بن الزبير ، ثم آل أمره إلى أن أصبح من رجال عبد الملك ابن مروان . وكان دوره في حرب الخوارج وكسر شوكتهم بارزًا . ولم تحدثه نفسه

---

(١) على سبعة فراسخ من الكوفة على طريق البصرة . ياقوت - معجم البلدان (٢/٥٠٣) .
(٢) الطبري (٦/٣٦٣) . (٣) نفسه (٦/٣٦٦ ، ٣٦٧) .
(٤) نفسه (٦/٣٨٩) . (٥) نفسه (٦/٣٩١) .
(٦) كان الحجاج متزوجًا من هند بنت المهلب بن أبي صفرة .

أبدًا بالثورة أو الخروج عن الطاعة ، فقد رفض رفضًا باتًّا الانضمام إلى ثورة ابن الأشعث ، بل كتب إليه ليثنيه عن الثورة ويحذره عواقبها ، ثم كتب إلى الحجاج بنصيحته في مقاومة هذه الثورة [(١)] .

وكان الحجاج قد عيَّنه واليًا على خراسان سنة (٧٨هـ) [(٢)] بعد قضائه على الخوارج ، وكانت له أثناء ذلك غزوات موفقة في بلاد ما وراء النهر . ولما حانت وفاته سنة (٨٢هـ) استخلف ابنه يزيد من بعده فأقره الحجاج على ولاية خراسان [(٣)] ، فظل واليًا عليها إلى سنة (٨٥هـ) ، حيث عزله الحجاج ، وعين مكانه أخاه المفضل [(٤)] ، ثم لم يلبث أن عزل المفضل وعين قتيبة بن مسلم الباهلي سنة (٨٦هـ) [(٥)] . وبهذا تخلص الحجاج من أسرة المهلب نهائيًّا ، وألح في ذلك إلحاحًا شديدًا على عبد الملك ابن مروان ، الذي لم يكن يرى داعيًا لعزلهم وحرمان الدولة من جهودهم - ولم يجد الحجاج عذرًا له في ذلك سوى اتهامهم بأنهم كانوا في خدمة ابن الزبير ، وخوفه غدرهم ، ومع أن عبد الملك لم ير ذلك عيبًا فيهم ، وقال له : « إني لا أرى نقصًا بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير ، بل أراه وفاء منهم ، وإن وفاءهم لهم ، يدعوهم إلى الوفاء لي » [(٦)] .

ومن العجيب أن تكون علاقتهم بابن الزبير - الذي انتهى أمره منذ زمن بعيد - سببًا للشك في وفائهم كما ادعى الحجاج .

ولكن رغم ذلك فقد أفلح في إقناع عبد الملك برأيه ، وتخلص منهم ، ولم يكتف بذلك ، بل وضعهم في السجن ، فظلوا فيه إلى أن استطاعوا الهرب في سنة (٩٠هـ) ، والتجؤوا إلى سليمان بن عبد الملك الذي كان ولي العهد آنذاك ، والذي كانت صلتهم به طيبة ، وفي الوقت نفسه كانت علاقاته مع الحجاج سيئة للغاية ، فشفع لهم عند أخيه الوليد ، فقبل الوليد شفاعته [(٧)] ، وظلوا في حماية سليمان إلى أن توفي الوليد سنة (٩٦هـ) وأصبح سليمان خليفة ، فارتفع نجمهم من جديد ، وعين سليمان يزيد بن المهلب واليًا على العراق ، ثم على خراسان بعد ذلك بناء على طلبه [(٨)] ، فأعاد فتح جرجان وطبرستان - اللتين كانتا قد نقضتا عهودهما - وظل

(١) الطبري (٣٣٨/٦ ، ٣٣٩) .
(٢) نفسه (٣٢١/٦) .
(٣) نفسه (٣٥٥/٦) .
(٤) نفسه (٣٩٣/٦) .
(٥) نفسه (٤٢٤/٦) .
(٦) نفسه (٣٩٥/٦) .
(٧) الطبري (٤٤٨/٦) .
(٨) نفسه (٥٢٦/٦) .

واليًا على خراسان طوال خلافة سليمان بن عبد الملك ، فلما توفي سليمان ، وولي عمر بن عبد العزيز سنة (٩٩هـ) عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ؛ لأنه لم يكن يحب آل المهلب وكان يقول : « هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم » [(١)] . ثم لم يلبث عمر أن أمر بالقبض على يزيد ووضعه في السجن ، بسبب أموال كانت عنده لبيت المال ، ولم يقبل فيه شفاعة أحد ، ورفض إطلاق سراحه إلا بعد أداء هذا المال [(٢)] .

وظل يزيد في السجن ، حتى سمع بمرض عمر بن عبد العزيز ، فهرب من السجن [(٣)] ؛ لأنه كان يخشى أن يقع في يد يزيد بن عبد الملك ، فينكل به ؛ لأن يزيد كان يميل إلى آل أبي عقيل ، أسرة الحجاج ؛ لأنهم كانوا أصهاره . وكان يزيد ابن المهلب قد انتقم منهم بعد أن استعاد مركزه في خلافة سليمان . ومن هنا بدأ ما سمي بثورة يزيد بن المهلب ، الذي يبدو أنه لم يكن يفكر في الثورة عند هروبه من السجن ، وكان كل همه أن يجد لنفسه الأمان بعيدًا عن بطش يزيد بن عبد الملك . ولكن ما أن وصل إلى البصرة ، حتى وجد نفسه في بيئة الثورات وموطن الفتن ، فالتف أهل البصرة حوله كعادتهم مع كل ثائر على الدولة الأموية ، وساقوه إلى الثورة سوقًا ، فانخدع بهم ، ولم يتعظ من كل الأحداث السابقة ، وأقربها ثورة ابن الأشعث ، فلما شجعوه ، وثب على عدي بن أرطأة الفزاري والي البصرة ووضعه في السجن وسيطر عليها [(٤)] . وخلع طاعة يزيد بن عبد الملك ، وأقبل عليه أهل البصرة ، فدعاهم إلى بيعته على كتاب اللّٰه وسنة نبيه وعلى الجهاد ، وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابًا من جهاد الترك والديلم [(٥)] ؛ فبايعوه ولم يأبهوا لتثبيط الحسن البصري الذي كان لا يرى رأيهم في الخروج مع يزيد ، فقد رأى بنفسه ما جرته ثورة ابن الأشعث على الأمة من كوارث وما أريق فيها من دماء ؛ ولذلك لم يخش بطش ابن المهلب ، ورأى أن من واجبه هذه المرة أن يحذر من الفتنة ، ويبصر بعواقبها ، بل ذكّر أهل البصرة بأن يزيد بن المهلب طالما عذبهم وقتل منهم كثيرين في طاعة بني مروان ، فلما غضب عليهم ، جاء يدعوكم إلى الخروج عليهم ، فقالوا له : إنه يدعونا إلى سنة العمرين ، فقال لهم : « إن من سنة العمرين أن يوضع في رجله قيد ثم يرد إلى محبسه » [(٦)] ، ولكن صيحة الحسن لم تؤد إلى نتيجة ،

(١ ، ٢) نفسه (٦/٥٥٧) .
(٣) نفسه (٦/٥٦٤) .
(٤) نفسه (٦/٥٧٨) .
(٥) ابن الأثير – الكامل (٥/٧٥) .
(٦) الطبري (٦/٥٨٧) .

ولم تلبث حركة ابن المهلب أن اشتدت ، وانضم إليها كثيرون من الموالي ، ومن الموتورين من زعماء القبائل العربية ، أمثال إسحاق بن محمد بن الأشعث ، والنعمان ابن إبراهيم بن الأشتر [(١)] ، وهؤلاء يمنيون ؛ فلعل العصبية حركتهم لمؤازرة يزيد ، بالإضافة إلى حنقهم على الدولة ثم انضمت إليه قبائل ربيعة وتميم وبعض قيس ، بل انضم إليه بعض أهل الشام مع عمران بن مسمع الذي كان ساخطًا على عدي ابن أرطأة [(٢)] . ولما ترامت أخبار الثورة خارج البصرة ، جاءه تأييد من الجزيرة والبحرين وعمان [(٣)] . وبعث عماله على فارس والأهواز وكرمان [(٤)] . فلما استفحل أمر الثورة وعجز عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة عن القضاء عليها ، اضطر يزيد بن عبد الملك إلى إرسال أخيه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد ابن عبد الملك ، على رأس جيش كبير من أهل الشام ، فتمكنا من هزيمة ابن المهلب في معركة عقر - قرب الكوفة - في صفر سنة (١٠٢هـ) ، بعد أن خذله العراقيون كعادتهم [(٥)] وقتل يزيد ، وقتل معه بعض أفراد أسرته ، وفرَّ الباقون حتى لحقوا بقندابيل من أرض السند [(٦)] .

وهكذا انتهت إحدى الثورات العنيفة التي اندلعت ضد الدولة الأموية ، والتي دفع إليها الحقد والطموح ، وربما العصبية القبلية . وانتهت أسرة من الأسر نابهة الذكر ، عظيمة الشأن ، أدت دورًا كبيرًا في التاريخ الإسلامي ، في العصر الأموي .

انتشار القلاقل في معظم الولايات في أواخر الدولة الأموية

هذه الثورات العنيفة المتلاحقة والمتعددة الاتجاهات والأهداف التي تحدثنا عنها ، وإن كانت الدولة الأموية قد نجحت في القضاء عليها ، إلا أنها أنهكتها وأضعفت كيانها ، وكانت لها نتائج خطيرة على مستقبلها ، بل على مصيرها كله ، وساهمت في سقوطها . فمن نتائجها المباشرة : أنها عمقت العصبية القبلية ، وجعلتها تأخذ شكلًا حادًّا بين عرب الجنوب - اليمن - وعرب الشمال - مضر وقيس كما يطلق

---

(١) ثابت الراوي - المرجع السابق (ص ٢١٧) ، وراجع ابن الأثير (٨٥/٥) .
(٢) الطبري (٥٨٠/٦) .
(٣) ثابت الراوي - المرجع السابق (ص ٢١٧) . (٤) الطبري (٥٨٥/٦) .
(٥) ثابت الراوي - المرجع السابق (ص ٢١٨) . (٦) الطبري (٥٩٠/٦) وما بعدها .

عليها - وهذه المشكلة استعصت على الحل ، ولم يستطع أحد إيقاف مضاعفاتها حتى نهاية الدولة . كما كان من نتائجها تعميق الكراهية ضد الحكم الأموي في كثير من الأقاليم ، فلا شك أن قتل عشرات الألوف من هذه الثورات ، سواء من جيوش الدولة أومن أعدائها قد خلف وراءه مشاكل كثير وخطيرة ، فكل أسرة قتل أحد أفرادها أو بعضهم في هذه المعارك - أصبح لها عند الدولة ثأر ، والناس عادة في مثل هذه الأحوال ينظرون إلى الأمور بقدر انعكاسها عليهم وتأثرهم بها بصرف النظر عن من المخطئ ومن المصيب ، أو من على حق ومن على باطل من أطراف الصراع . ثم كان من نتائج هذه الثورات أنها كبّدت الدولة خسائر فادحة في الرجال والأموال ، وشغلتها عن العناية بإدارة البلاد والمحافظة على الأمن والاستقرار ، فتراخت قبضتها على الأقاليم ، وأدى اتساع الدولة وترامي أطرافها إلى تفاقم هذه المشكلة . كما أن التخبط في السياسة المالية - الذي نتج عن حاجة الدولة لتمويل هذه الحروب - كان له أثره في كثير من حركات التذمر التي سادت أكثر أقاليم الدولة منذ بداية القرن الثاني الهجري .

ولقد حاول هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) تلافي الآثار السيئة التي خلفتها هذه الثورات بقدر الإمكان ، فنجح نجاحًا جزئيًا في هذا المجال ، ثم أفلت منه الزمام في نهاية الأمر ؛ لأن المشاكل كانت كثيرة وصعبة . ففي العراق ، وهي بؤرة العداء للدولة الأموية ، والتي خرجت منها معظم الثورات والحركات المناوئة - رأى هشام أن اليمنيين هناك ازداد حقدهم على الدولة ؛ بسبب الهزائم التي حلت بابن الأشعث وابن المهلب ، والقضاء على ثورتيهما ، وهما ينتميان إلى قبائل اليمن ؛ الأول كندي والثاني أزدى ، فأراد أن يخفف من حدة هذا الحقد ، وأن يداوي الجراح ، فعزل والي العراق القيسي ، عمر بن هبيرة ، وولّى خالد بن عبد اللّه القسري ، وهو يمني ، وكانت هذه سياسة حكيمة بدون شك .

وقد حاول خالد أثناء ولايته الطويلة والتي استمرت خمسة عشر عامًا (١٠٥ - ١٢٠هـ) [1] أن يكون حياديًا ، وأن يعيد التوازن بين القبائل في العراق ، وهادن جميع الأطراف ، وعطف على بني هاشم بصفة خاصة ، وحقق بذلك للعراق فترة استقرار طويلة [2] ، كما قام بتحسين أحواله الاقتصادية ، فاعتنى بالزراعة ، وشق

(١) انظر ابن الأثير - الكامل (٥/٢٢٤) .

(٢) ثابت الراوي - العراق في العصر الأموي (ص ١٨٠) ، د. عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية (٢/٢٨١) .

الترع والقنوات ، وجفف المستنقعات ، ليشغل أهل العراق بالزراعة ، وكان هو نفسه مولعًا بالزراعة وكان له كثير من الضياع ، كان ينافس بها الخليفة هشامًا [١] . كما قام بتجويد العملة ، وسك دراهم عرفت بالخالدية نسبة إليه [٢] . ولكن رغم كل هذا فقد غضب هشام عليه وعزله سنة (١٢٠هـ) ؛ ولعل ذلك كان نتيجة سعايات السوء التي مشت بينهما ، ولفقت كثيرًا من التهم لخالد ، وبصفة خاصة ميله إلى آل البيت [٣] . أو لعل هشامًا رأى منه ميلًا إلى عصبيته من اليمن ، وكيفما كان السبب فقد عزله وولّى مكانه واليًا قيسيًّا ، وهو يوسف بن عمر الثقفي ، وكان رجلًا فظًّا قاسيًا ، متقلب المزاج ، فيه كثير من المتناقضات [٤] ؛ فأساء السيرة ، واستهل عهده بتعذيب سلفه خالد القسري وعشيرته ، فأوغر بذلك صدور اليمنيين من جديد ، وبغضه أهل العراق بغضًا شديدًا لقرابته من الحجاج . وعادت العراق في عهده إلى الفتن والثورات ، التي لم تنته إلى نهاية العهد الأموي ؛ فكانت ثورة زيد ابن علي ابن الحسين سنة (١٢١ - ١٢٢هـ) .

ثم توالت الأحداث الخطيرة في العراق ، فكانت ثورات الخوارج التي تحدثنا عنها في عهد مروان بن محمد . كما أن أحد أفراد البيت الهاشمي انتهز فرصة الفوضى والاضطراب في العراق ، وانشقاق البيت الأموي على نفسه ، بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة (١٢٦هـ) - فقام بثورة ودعا إلى نفسه بالخلافة ، وكان ذلك الشخص هو عبد اللّٰه بن معاوية بن عبد اللّٰه بن جعفر بن أبي طالب ، الذي قام بثورته سنة (١٢٧هـ) [٥] مع أن والي العراق آنئذ ، وهو عبد اللّٰه بن عمر بن عبد العزيز كان قد أكرمه وأجرى عليه وعلى إخوته الأرزاق [٦] . لكنه لما خرج ثائرًا قاتله ابن عمر وأخرجه من الكوفة ، فذهب إلى المدائن ، ثم جمع أنصاره مرة أخرى وتغلب على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والري [٧] . وأخذ يولي إخوته على هذه النواحي ، وقصده كثير من بني هاشم ؛ منهم السفاح ، والمنصور ، وعيسى وعبد اللّٰه ابنا علي بن عبد اللّٰه بن عباس [٨] ثم انضم إليه بعض الأمراء الأمويين

---

(١) ابن الأثير - المصدر السابق (٥/٢١٩ - ٢٢١) ، وانظر فلهاوزن - تاريخ الدولة العربية (ص ٣٢٠) .
(٢) الماوردي - الأحكام السلطانية (ص ١٥٤) . (٣) ابن الأثير - المصدر السابق (٥/٢٧٦) .
(٤) ابن الأثير - المصدر السابق (٥/٢٢٥) . (٥) الطبري (٧/٣٠٢) ، وما بعدها .
(٦) ابن الأثير - الكامل (٥/٣٢٤) .
(٧) المصدر السابق (٥/٣٢٧) .
(٨) انظر مقاتل الطالبيين للأصفهاني (ص ١٦٧) وابن الأثير - الكامل (٥/٣٧١) .

المنشقين على ابن عمهم مروان بن محمد الذي كان قد أصبح خليفة ، ومنهم سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وعمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان (١) . فلما استفحل أمره وكثر أتباعه ، عهد مروان بن محمد إلى واليه على العراق يزيد ابن عمر بن هبيرة بالقضاء عليه ، فأرسل إليه جيشًا كبيرًا بقيادة داود بن عامر ابن ضبارة فهزمه وأسر أعدادًا كبيرة من جيشه . أما هو فقد فر إلى خراسان طمعًا في نصرة أبي مسلم الخراساني ، الذي كان يعد للثورة العباسية في خراسان ، ولكن أبا مسلم قبض عليه وقتله سنة (١٢٩هـ) (٢) .

وهكذا ظلت العراق تغلي بالحركات المناهضة للدولة حتى زحف أبو مسلم من الشرق ، من خراسان التي كانت هي الأخرى في قلاقل مستمرة بسبب الصراع بين اليمنية والمضرية واندلاع الحروب بينهم (٣) ، وكان تعصب ولاة خراسان لقبائلهم يجعل العصبية تتفاقم ، فكان إذا ولي وال يمني تعصب لليمن وجعل كل عماله منهم ، كما حدث من أسد بن عبد اللّٰه القسري ، الذي كان شديد العصبية لقومه من اليمنيين ، شديد الإساءة إلى المضريين (٤) . وبالمثل كل ولاة مضر يتعصبون لها ضد اليمن ، فعلى سبيل المثال كان الجنيد بن عبد الرحمن لا يستعمل في خراسان وما وراء النهر إلا مضريًا (٥) . وهكذا أذكى بعض الولاة بنظرتهم القبلية الضيقة نار العصبية ، وجعلوا العرب يأكل بعضهم بعضًا ، مما سهل على أبي مسلم القضاء عليهم جميعًا في نهاية الأمر .

فلما أدرك هشام خطورة الموقف ، واختار لولاية خراسان رجلًا عفيفًا مجربًا عاقلًا ؛ ليدرأ خطر هذه العصبية ، وهو نصر بن سيار (٦) - جاء هذا الاختيار متأخرًا ؛ حيث كانت العداوة قد استحكمت بين العرب ، فلم يستطع نصر معالجة الموقف (٧) ؛ لأن الدعوة العباسية كانت قد تمكنت في خراسان ، وظهر أبو مسلم

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ١٦٧) .
(٢) ابن الأثير - المصدر السابق (٣٧٠/٥ - ٣٧٣) .
(٣) الطبري (٣٠/٧ - ٣٢) .
(٤) انظر الطبري (٤٧/٧) - تولى أسد خراسان مرتين : الأولى من (١٠٦ - ١٠٩هـ) والثانية من (١١٦ - ١٢٠هـ) .
(٥) الطبري (٦٩/٧) وابن الأثير - الكامل (١٥٧/٥) كانت ولاية الجنيد (١١١هـ - ١١٦هـ) .
(٦) الطبري (١٥٤/٧) وابن الأثير (٢٢٦/٥ ، ٢٢٧) تولى نصر سنة (١٢٠ - ١٢٩هـ) .
(٧) د . عبد المنعم ماجد - المرجع السابق (٢٨٦/٢) .

الخراساني ، فانتهز الشقاق في صفوف العرب حيث كانت اليمن وربيعة بقيادة علي ابن جديع الكرماني في جانب ، ومضر بقيادة نصر بن سيار في جانب - وأخذ يحرش بينهم فاندلعت الحروب من جديد ، وفي النهاية سيطر أبو مسلم على الموقف كله . كذلك امتدت الفتن والقلاقل إلى ما وراء النهر ، فثار هناك الحارث بن سريج سنة (١١٦هـ) [١] . وخرج على الخلافة ، ودعا لتخليص المضطهدين ، والبيعة لمن يرتضيه المسلمون ، وانضم إليه كثير من أهالي البلاد ، وأرسل إليه هشام بن عبد الملك عددًا من القواد خاضوا معه حروبًا كثيرة ، ثم هرب إلى الترك ، ثم عاد إلى خراسان ، وانضم إلى المضرية في صراعها ضد ربيعة واليمن ، وظل يحارب حتى قتل قرب مرو سنة (١٢٨هـ) [٢] .

فإذا تركنا العراق وخراسان وما وراء النهر ، ونظرنا إلى الشام ، التي كانت الحصن الحصين لبني أمية - وجدناها تغلي بالفتن والثورات والانقسامات ، وكان يمن الشام شأنهم شأن يمن العراق وخراسان ؛ قد اختاروا الجانب المعادي للدولة الأموية ، ممثلة في شخص مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذي ثار عليه أبناء عمومته ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

وحتى مصر التي ظلت هادئة معظم سنوات الحكم الأموي ، بدأ فيها التذمر ، فقام القبط بأول ثورة ضد الدولة في عهد هشام بن عبد الملك سنة (١٠٧هـ) في ولاية الحر بن يوسف ، وكان سبب هذه الثورة ، كما يذكر الكندي زيادة الخراج على الأرض [٣] . فقمع الحر بن يوسف هذه الثورة وقضى عليها . ثم قام القبط بثورة أخرى في الصعيد سنة (١٢١هـ) [٤] ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان جيشًا فانتصر عليهم ، وفي سنة (١٣٢هـ) خرج ثائر قبطي في سمنود يدعى يحنس ، فأرسل إليه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير - والي مصر في ذلك الوقت - جيشًا بقيادة عبد الرحمن بن عتبة المعافري ؛ فقضى على ثورته ، وقتله مع عدد من أتباعه [٥] .

وهكذا تغيرت مصر وانقلبت على الأمويين ، ومما زاد الأمر سوءًا خروج رجل من

---

(١) الطبري (٩٤/٧) وما بعدها . وابن الأثير - الكامل (١٨٣/٥) وما بعدها .
(٢) الطبري (٣٣٠/٧ - ٣٤٢) وابن الأثير - الكامل (٣٤٢/٥ - ٣٤٦) .
(٣) الولاة والقضاء (ص ٧٣ ، ٧٤) .
(٤) الكندي - المصدر السابق (ص ٨١) .
(٥) الكندي - المصدر السابق (ص ٩٤) .

الأمويين ، هو عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان ابن محمد ، وانضم إليه كثير من عرب قيس [(١)] . كما كان من أسباب إفساد الأمر في مصر على مروان أن ثابت بن نعيم الجذامي ، وهو من أعدائه كان يكاتب من الشام اليمنيين في مصر ويحرضهم على مروان ، وقد وجد استجابة منهم [(٢)] . وهكذا تغيرت أحوال مصر ، وانتشرت فيها الدعوة العباسية ، ورفع المصريون الأعلام السوداء ، شعار العباسيين ، بل حاولوا منع مروان بن محمد من دخولها عندما جاء إليها في شوال سنة (١٣٢هـ) مطاردًا من العباسيين [(٣)] .

كما امتدت الفتن والثورات إلى المغرب الأقصى بتأثير الخوارج الإباضية والصفرية ، الذين فروا إليها من المشرق بعد أن ضيقت الدولة عليهم الخناق هناك ، وقد وجدت مبادئهم في المغرب أرضًا خصبة ، فاعتنقها كثير من البربر ، وتحفزوا للثورة على الدولة الأموية ، وتزعم الثورة رجل بربري يدعى ميسرة الحقير ، الذي اعتنق مبادئ الخوارج الصفرية . وبدأ ثورته في رمضان سنة (١٢٢هـ) [(٤)] فزحف على طنجة وقتل عاملها عمر بن عبد اللّٰه المرادي ، وعين عليها واحدًا من أنصاره ، هو عبد الأعلى بن حديج ، ثم زحف يقود جموعًا كبيرة من البربر إلى السوس وكان عليها إسماعيل بن عبيد اللّٰه بن الحبحاب ، فقتله ، واستفحل أمره ، وازداد عدد أتباعه من البربر وبايعوه بالخلافة ، فلما علم عبيد اللّٰه بن الحبحاب - والي المغرب ، الذي كان بالقيروان - بأمر هذه الثورة وبقتل عامله على طنجة وابنه في السوس ؛ أعد جيشًا أسند قيادته إلى خالد بن أبي حبيب الفهري وأمره بالمسير إلى ميسرة . وفي الوقت نفسه استدعى حملة كان أرسلها إلى صقلية بقيادة حبيب ابن أبي عبدة لتشترك في مقاومة الثورة ، مما يدل على أنها كانت حركة خطيرة ، وسار خالد وتبعه حبيب ، ودارت بينهما وبين ميسرة معركة كبيرة قرب طنجة انتصر فيها ميسرة [(٥)] ، لكنه لم يستمتع بنصره ، فقد ثار عليه البربر وقتلوه لسوء سيرته فيهم ، وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي ، الذي ألحق بدوره هزيمة ساحقة بخالد بن أبي حبيب ، الذي قتل في المعركة هو وجميع من معه ، وكانوا من حماة

---

(١) الكندي - المصدر السابق (ص ٩٤) . (٢) الكندي - المصدر السابق (ص ٨٦) .

(٣) انظر الكندي - المصدر السابق (ص ٩٤ - ٩٧) .

(٤) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص٣٥٣) وابن عذاري - البيان المغرب (٥٢/١) .

(٥) ابن عذاري - المصدر السابق (٥٣/١) .

العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها - على حد تعبير ابن عذاري [١] ؛ فسميت المعركة غزوة الأشراف لذلك .

بلغت أخبار هذه الأحداث الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانزعج منها انزعاجًا شديدًا ؛ لأن عبيد اللَّه بن الحبحاب عجز عن مواجهة الموقف ، بل إنهم عزلوه ، وسيطر البربر على المغرب ، فقال هشام : « واللَّه لأغضبنَّ لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشًا أوله عندهم ، وآخره عندي » [٢] . وأرسل من الشام كلثوم بن عياض القشيري على رأس اثني عشر ألفًا ، وكتب إلى عمال مصر وبرقة وطرابلس أن يخرجوا معهم ، فقدم كلثوم إلى المغرب وعلى مقدمته ابن عمه بلج بن بشر القشيري ، ورغم ضخامة جيش كلثوم الذي بلغ عدده ثلاثين ألفًا ، إلا أن البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي هزموه هزيمة منكرة في معركة وادي سبو قرب طنجة وقتل كلثوم في المعركة وتشتت جيشه ، فعاد المصريون وأهل برقة وطرابلس إلى القيروان ، أما أهل الشام وكانوا حوالي تسعة آلاف فقد انحازوا إلى سبتة ، ولكن البربر ضيقوا عليهم الحصار فاضطروا إلى العبور إلى الأندلس [٣] .

سيطر البربر على المغرب ، وأخذتهم نشوة النصر ، فزحفوا إلى القيروان في ثلاثمائة ألف رجل تحت قيادة عدد من القواد منهم عكاشة بن أيوب الصفري ، وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وكلاهما من قبيلة هوارة ، وصمموا على طرد العرب من المغرب كله ، وهنا أدرك الخليفة هشام بن عبد الملك أنه أمام ثورة عارمة تجتاح المغرب بأسره ، فعهد إلى واليه على مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبي بالقضاء على هذه الثورة ؛ فاستطاع أن يهزمهم ويقتل زعماءهم بعد معارك شرسة ، وقد أحصوا عدد قتلاهم فوجدوهم مائة وثمانين ألفًا ، وكتب حنظلة بهذا النصر المبين إلى هشام بن عبد الملك فسُرَّ سرورًا عظيمًا ، وعادت سيطرت الدولة على المغرب ، ولكن بعد أن تكبَّدت خسائر فادحة ، وظل صدى هذا النصر يتردد في المشرق سنين عديدة ، حتى روي عن الليث بن سعد أنه قال : ما من غزوة كان أحب إليه أن

---

(١) المصدر السابق (١/٥٤) و د. السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير (٢/٣٠٦) .
(٢) المصدر السابق (١/٥٤) .
(٣) المصدر السابق (١/٥٤ - ٥٦) ، ود. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس (ص ٩٢ ، ٩٣) ، ود. عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية (١/٢٩٠) .

يشهدها بعد غزوة بدر من غزوة حنظلة هذه [١] .

ولكن أخطر ما في ثورات البربر بالمغرب أنها تحولت من حركة تذمر ضد سياسة الولاة هناك - وبصفة خاصة عبيد الله بن الحبحاب [٢] - إلى خروج على الخلافة ، ثم أصبحت صراعًا بين العرب والبربر ، سرعان ما تردد صداه في الأندلس ؛ حيث ثار البربر هناك على العرب وواليهم عبد الملك بن قطن ، في ولايته الثانية (١٢٢ - ١٢٤هـ) [٣] ، وتضامنوا مع بربر المغرب ، واشتد الأمر عل عبد الملك بن قطن ، مما اضطره إلى أن يسمح لبلج بن بشر القشيري ، وصحبه الذين هزموا في موقعة وادي سبو ثم لجؤوا إلى سبتة ، فحاصرهم البربر فيها ، بالعبور إلى الأندلس ، ليساعدوه في إخماد ثورات البربر هناك . بعد أن كان قد رفض السماح لهم بذلك ، ولكن الظروف أجبرته على تغيير موقفه . وحتى سماحه لهم بالعبور إلى الأندلس كان مشروطًا بألا يقيموا فيها بعد القضاء على ثورات البربر ، ولكن عليهم أن يخرجوا منها [٤] .

قبل بلج بن بشر هذا الشرط نظرًا لحرج موقفه وحصار البربر له في سبتة ، فلما عبر إلى الأندلس وجد البربر قد وحدوا صفوفهم ضد عبد الملك بن قطن ، وقسموا أنفسهم إلى ثلاثة جيوش : جيش لمهاجمة طليطلة ، وآخر لمهاجمة قرطبة ، أما الجيش الثالث فكان من المفروض أن يتجه جنوبًا ويعبر البحر إلى سبتة للقضاء على بلج وقواته ، ثم يتصلون بإخوانهم بربر المغرب ، ولكن بلجًا كان أسرع حركة من هذا الجيش الثالث ، وكان قد علم بخطته ففاجأه قبل أن يعبر وأوقع به هزيمة ساحقة في وادي شذونة ، ثم سار من فوره إلى قرطبة وانتصر على الجيش الثاني ، ثم وحد قواته بعد ذلك مع قوات عبد الملك بن قطن ، وساروا جميعًا إلى طليطلة لمقابلة جيش البربر الذي كان يعد نفسه لمهاجمتها ، واشتبكوا معه في معركة كبيرة على نهر التاجو فأوقعوا به هزيمة ساحقة ، وبهذا قضوا على ثورة البربر في الأندلس [٥] . كان بلج بن بشر يتوقع من والي الأندلس عبد الملك بن قطن أن يقدر له جهوده في

(١) انظر ابن عذاري - البيان المغرب (٥٨/١ ، ٥٩) ، ود. السيد عبد العزيز سالم - المرجع السابق (٣١٤/٢) ، ود. عبد المنعم ماجد - المرجع السابق (٢٩١/٢) .

(٢) ابن عذاري - المصدر السابق (٥١/١) ، وما بعدها .

(٣) المصدر السابق (٣٠/٢) وما بعدها .

(٤) المصدر السابق (٣٠/٢) ود. أحمد مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٩٢ - ٩٣) .

(٥) انظر ابن عذاري - المصدر السابق (٣١/٢) ود . أحمد مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٩٣) ود . السيد عبد العزيز سالم - المرجع السابق (٣١٧/٢) .

مساعدته في القضاء على خطر البربر ، التي بدونها ما كان قادرًا على هزيمتهم ، وأن يسمح له ولمن معه بالبقاء في الأندلس ، ولكن عبد الملك لم يسمح له بذلك وطالبه بالخروج حسب الاتفاق الذي تم بينهما فما كان من بلج وصحبه إلا أن ثاروا عليه وقتلوه ، وتولى بلج أمر الأندلس [١] . إلا أن عرب الأندلس - وبصفة خاصة الحجازيين - لم يرضوا بذلك ، وبدأ صراع بينهم وبين بلج ، وقامت حروب استمرت أكثر من عام ، قتل فيها بلج بن بشر سنة (١٢٥) [٢] .

فبدأت بذلك مرحلة من الفوضى والاضطراب والصراع في الأندلس ، بين اليمنيين والمضريين ، فقد أقام العرب هناك واليًا يمنيًا من زعماء الأندلس ، هو أبو الخطار بن ضرار الكلبي ، الذي عمل على تهدئة الأحوال ، وسوَّى بين القبائل العربية ، دون تفرقة بين يمني ومضري [٣] ، فهدأت الأمور ، ولكن لفترة قصيرة ، ثم تفجَّر الصراع من جديد بسبب حادثة بسيطة مما يدل على أن النفوس كانت مشحونة بالغضب ، وأن العصبية تمكنت من القلوب وعز دواؤها . وملخص هذه الحادثة أنه وقع نزاع بين شخصين أحدهما مضري والآخر يمني ، فرفع الاثنان أمرهما إلى الوالي أبي الخطار ، فقضى لليمني فظن المضري أن هذا تعصبًا من أبي الخطار لصالح خصمه اليمني ، فلجأ إلى زعيم مضر في الأندلس : الصميل بن حاتم وشكا له ، فذهب الصميل إلى أبي الخطار وكلمه في الأمر ، فحدث بينهما نقاش حاد ، وأحس الصميل أن أبا الخطار أهانه ؛ فخرج مغضبًا ليشعل الحرب من جديد بين اليمنية والمضرية . وبعد معارك مستمرة تمكن الصميل من هزيمة أبي الخطار وأنصاره من اليمنيين في موقعة كبيرة عند بلدة شقندة في جنوب قرطبة ، واستطاع الصميل أن يعزل أبا الخطار من ولاية الأندلس ، ولم يشأ أن يتولى هو ، بل ولَّى رجلًا من عرب مضر ، هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، الذي ظل متغلبًا على الأندلس حتى قدوم عبد الرحمن الداخل سنة (١٣٨هـ) [٤] .

وهكذا يتضح أن القلاقل والفتن والثورات قد عمت معظم الولايات في أواخر الدولة الأموية ، وساد السخط في كل مكان ، وظهر ضعف الخلافة وعجزها عن السيطرة على الموقف ، بحيث كان الناس يعزلون من يشاؤون ويولون من يشاؤون ،

---

(١) ابن عذاري - المصدر السابق (٢/ ٣٢) . (٢) المصدر السابق (٢/ ٣٢) .

(٣) المصدر السابق (٢/ ٣٢) ود . أحمد مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٩٤) .

(٤) د . أحمد مختار العبادي - المرجع السابق (ص ٩٥) .

كما كان يحدث في المغرب والأندلس . واضطرب الأمر على بني أمية ، وكان كل ذلك في مصلحة أعدائهم العباسيين ، الذين كانوا يخططون في براعة وسرية تامة لتقويض الدولة الأموية وإقامة دولة عباسية مكانها . ولعل أصبع العباسيين ودعاتهم لم تكن بعيدة عن إثارة هذه الفتن والقلاقل وتأليب البلاد على بني أمية ، وما زالوا في سعيهم الدؤوب حتى نجحوا في النهاية ، وقضوا على دولة بني أمية ، وأقاموا دولتهم سنة (١٣٢هـ) . كما سنرى في الصفحات التالية .

الثورة العباسية

كانت الثورة العباسية آخر وأخطر الثورات التي قامت في وجه الدولة الأموية ؛ لأنها كانت ثورة مخططة تخطيطًا محكمًا لم يسبق له مثيل في تاريخ الثورات التي واجهها الأمويون طوال تاريخهم ، وقد استفاد العباسيون في ثورتهم والإعداد لها من الأخطاء التي كانت الثورات السابقة تقع فيها ، كما استفادوا من جهودها في إضعاف كيان الدولة الأموية وهز أركانها .

وقد توفر للثورة العباسية جميع عناصر النجاح : من قيادة واعية مخططة صبورة غير متعجلة للنتائج ، لم تحاول اقتطاف الثمرة قبل نضجها ؛ فقد ظلت قيادة الثورة ثلث قرن وهي تهيئ البلاد والناس للفكرة ، كما توفر لها الأنصار الأوفياء الذين بذلوا قصارى جهدهم لإنجاحها ، والأهم من هذا كله أنها واجهت الدولة الأموية وهي في حالة إعياء شديد ، تسودها الفتن والعصبيات ، والتذمر والاستياء ، وتحيط بها الأخطار من كل جانب ، فلم تقو على الصمود والمقاومة .

ولقد قامت الثورة العباسية على أساس الدعوة الشيعية [١] التي تلقاها العباسيون عن العلويين ، وإذا كان المقام لا يسمح لنا بالحديث عن الدعوة والثورة العباسية بالتفصيل فإننا نوجز القول عنها فيما يلي :

الدعوة العباسية :

لجأ الشيعة بعد مقتل الحسين بن علي والقضاء على حركة التوابين وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى العمل السري ، في أواخر القرن الأول الهجري آل أمر الشيعة إلى محمد بن علي بن أبي طالب ، الملقب بأبي هاشم ، والذي أخذ يدعو إلى نفسه

(١) مع أن العباسيين أقاموا دعوتهم ودولتهم على أساس الدعوة الشيعية إلا أنهم بعد نجاحهم تخلوا عن الفكر الشيعي وأصبحت دولتهم تمثل المذهب السني .

سرًّا وفي كتمان شديد ، وكان له العديد من الأنصار الذين يدعون له ويروجون للفكرة في سرية أيضًا .

ولكنه توفي سنة (٩٨هـ) (١) ، وقيل في سبب وفاته : إنه كان في زيارة إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك في دمشق ، فأكرمه سليمان ، لكنه رأى من فصاحته وذكائه وعلمه ما خوفه منه ، فدس له السم (٢) ، فلما عاد من عنده وأحس بما دبر له قصد الحميمة (٣) ، حيث كان يعيش علي بن عبد اللّٰه بن عباس وابنه محمد ، فأفضى إليهما بالأمر ، وأطلعهما على أسرار الدعوة ورجالها ، ثم أعلم شيعته من أهل العراق وخراسان أنه إذا توفي فليقصدوا محمد بن علي فالأمر صائر إليه . فلما توفي جاء رجال الدعوة إلى محمد بن علي وبايعوه ، وأعطاهم تعليماته ووجههم إلى العراق وخراسان ، حيث وجه ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان (٤) .

وبرهن محمد بن علي على مقدرة فائقة وعبقرية فذة في التنظيم والتخطيط للدعوة ، فقد أمر الدعاة بالدعوة إلى الرضا من آل محمد ؛ وذلك ليضمن تكتل الشيعة كلهم وراءها . ولم يشأ أن يصرح باسمه ؛ لئلا يحدث انشقاق في الحركة . وهذا بعد نظر كبير منه . كما أمر الدعاة بالتركيز على خراسان ؛ فهي أكثر الأقاليم حنقًا وغضبًا على بني أمية ، كما أن العصبية كانت قد مزقت العرب هناك وقسمتهم إلى قسمين كبيرين : قسم فيه اليمن وربيعة وهؤلاء كانوا ضد الأمويين ، والقسم الآخر عرب مضر وهؤلاء كانوا مع الأمويين .

فكان اختيار محمد بن علي لخراسان لتكون منطلقًا للدعوة اختيارًا موفقًا ، ويدل على فهم عميق لأحوال الأقاليم الإسلامية ؛ فقد كانت خراسان حقًّا هي التربة

---

(١) انظر ابن كثير - البداية والنهاية (١٧٧/٩) .

(٢) انظر ابن الأثير (٥٣/٥) .

(٣) الحميمة قرية من أعمال الشراة في جنوب الشام ، وكان ينزلها كثير من الهاشميين ومنهم علي بن عبد اللّٰه بن عباس وأولاده . ولعل من تصاريف القدر العجيبة أن عبد الملك بن مروان عندما حضرته الوفاة وصى ابنه الوليد بالإحسان إلى علي بن عبد اللّٰه بن عباس وقال له : « انظر إلى ابن عمنا علي بن عبد اللّٰه ابن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته ، وله نسب وحق ، فصل رحمه واعرف حقه » انظر البداية والنهاية (٦٧/٩) ، ولم يكن عبد الملك يدري أن أولاد علي بن عبد اللّٰه سوف يقضون على دولته وأولاده وأحفاده قضاء يكاد يكون تامًّا .

(٤) ابن الأثير (٥٣/٥) .

الصالحة لبذر بذور الدعوة ، كما كانت الكوفة مركز الاتصال بين الحميمة - مقر قيادة الدعوة - وبين خراسان ميدانها الفسيح .

وهكذا توفر للدعوة العباسية العقلية القيادية المنظرة ، والدعاة المخلصون الذين تفانوا في سبيلها وبذلوا كل جهدهم لإنجاحها ، وكان الواحد منهم إذا قبض عليه ولاة بني أمية ، يفضل الموت على أن يبوح بكلمة واحدة عن الدعوة وأسرارها [١] ، كما توفرت لها البيئة الصالحة لرعاية البذرة وإنمائها .

وقد مرت الدعوة بمرحلتين رئيسيتين :

الأولى : (من سنة ١٠٠ إلى ١٢٩هـ) ، وهي المرحلة السرية التي انتشر فيها الدعاة يجوبون البلاد - وبصفة خاصة في خراسان وما وراء النهر - على هيئة تجار ، ولكن مهمتهم الحقيقية كانت الدعوة للعباسيين ، وإثارة مشاعر الناس ضد بني أمية واتهام خلفائهم وولاتهم بالظلم والبعد عن النهج الإسلامي [٢] ، وكانوا يضخمون الأخطاء اليسيرة ، بل لا مانع من اختلاق الأخطاء وإطلاق الشائعات لخدمة الهدف ، وقد كان رجال الدعوة - إلى جانب إخلاصهم لها وتفانيهم فيها - يتمتعون بقدرات بارعة على الدبلوماسية والدهاء ومدارات الأحوال واجتذاب الأنصار ، ومنطق في المخاطبة فيه أدب وبلاغة وفن ومراعاة مقتضى الحال [٣] . ومن هؤلاء على سبيل المثال : ميسرة ، ومحمد بن خنيس ، وأبو عكرمة السراج ، وبكير ابن ماهان ، وسليمان بن كثير الخزاعي ، وأبو سلمة الخلال ، وقحطبة بن شبيب الطائي ، وأبو مسلم الخراساني .

وقد نجح الدعاة في خلق رأي عام معادٍ للدولة الأموية ، ومؤيد لقيام دولة في آل البيت ، فقد كانوا يركزون في خراسان بصفة خاصة على رفع شعار المساواة بين الشعوب ، أي أن الدولة الجديدة ستسوي بين العرب وغيرهم ، وقد لقي هذا الشعار بالذات ترحيبًا وقبولًا في خراسان ، حيث كان الناس هناك يزعمون أن الدولة الأموية متعصبة للعرب ضدهم [٤] .

---

(١) قبض أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في عهد هشام بن عبد الملك في سنة (١٠٩هـ) على عدد من الدعاة العباسيين الذين كانوا يتخفون في زي التجار ، ولما ارتاب في أمرهم أمر بقتلهم ، وكانوا عشرة فأقبلوا على الموت دون أن يبوحوا بكلمة واحدة عن الدعوة وإمامها وأسرارها ورجالها . انظر الطبري (٧/٥٠ ، ٥١) .

(٢) المصدر السابق (٧/٥٠) .

(٣) انظر د . حسن محمود ، ود . أحمد الشريف - العالم الإسلامي في العصر العباسي (ص ٩) .

(٤) المرجع السابق (ص ١٥ - ١٦) .

المرحلة الثانية : (من سنة ١٢٩ إلى سنة ١٣٢هـ) . وهي مرحلة إعلان الثورة والعمل المسلح والقضاء على الدولة الأموية [١] ، وكانت قيادة الدعوة قد آلت إلى إبراهيم بن محمد بن علي - الملقب بالإمام - بعد وفاة أبيه سنة (١٢٥هـ) [٢] وقد أثبت إبراهيم الإمام أنه لا يقل مقدرة عن أبيه في القيادة والتخطيط والدهاء السياسي وبعد النظر ، وآية ذلك أنه أسند قيادة الدعوة في مرحلتها الحاسمة تلك ، إلى شخصية فذة ، هي شخصية أبي مسلم الخراساني ، الذي قاد الثورة إلى النجاح ؛ لأنه ما من شك في أن الخراسانيين سيكونون أكثر نشاطًا وتفانيًا وحماسًا لإنجاح الثورة إذا أسندت قيادتهم إلى واحد منهم ؛ فإن مولى يرأس الدعوة في خراسان ، أليق وأجدر بالثقة عند أهلها من عربي حر [٣] .

ذهب أبو مسلم إلى خراسان ليجد الصراع محتدمًا بين العرب هناك : اليمنيون وربيعة بزعامة علي بن جديع الكرماني ، المضريون بزعامة نصر بن سيار الوالي الأموي ، وكان هذا أنسب وضع لأبي مسلم ليضرب ضربته ، فقد حاول منع أي تقارب أو إنهاء للصراع بين الكتلتين العربيتين ، ونجح في ذلك تمامًا ، فظلا يقتتلان ، ولما رجحت كفة اليمنيين والربيعيين ، ضمهم إلى صفه وبدأ العمل المسلح .

إعلان الثورة والقضاء على الدولة الأموية :

بمجرد وصول أبي مسلم إلى خراسان ، وأدرك الوالي الأموي نصر بن سيار خطورة الموقف ، وأن نذر الخطر قد لاحت في الأفق ، فكتب إلى الخليفة مروان ابن محمد ، يشرح له الموقف ، ويطلب نجدته ، واستهل رسالته بأبيات شديدة التأثير ، ليلهب حمية الخليفة ، فقال له :

أرى بين الرماد وميض نار ... وأخشى أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تزكى ... وإن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام [٤]

ولكن صيحات نصر واستغاثاته ضاعت في زحمة انشغال مروان بأحداث العراق

---

(١) انظر الطبري (٣٥٣/٧) وما بعدها ، وابن الأثير (٣٥٦/٥) وما بعدها .
(٢) انظر ابن كثير - البداية والنهاية (٥/١٠) .
(٣) د . حسن محمود ود . أحمد الشريف - المرجع السابق (ص٤٣) .
(٤) ابن الأثير (٣٦٥/٥) .

والشام ومصر وغيرها ، فلم يستطع أن يجيب نصرًا إلا بتلك الرسالة المقتضبة ، حيث كتب إليه : « إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » [١] . فلما قرأ نصر الرسالة فطن إلى حقيقة موقفه ، وقال لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده » [٢] ، ثم حاول أن يستنجد بيزيد بن عمر بن هبيرة - والي العراق - فلم يجد عنده خيرًا مما وجد عند مروان [٣] .

بدأ أبو مسلم ثورته في خراسان ، سنة (١٢٩هـ) بناء على تعليمات إبراهيم الإمام [٤] . فانطلقت كالسيل الهادر ، ولم يؤثر في انطلاقها إلقاء القبض على إبراهيم وقتله [٥] ؛ حيث استولى أبو مسلم على خراسان في سهولة ، ولم يستطع نصر ابن سيار الصمود أمامه ، فولى هاربًا ، ثم مات وشيكًا بعد ذلك [٦] . ثم واصلت قوات العباسيين زحفها على العراق ، وهنا تجلت براعة القيادة العباسية حين أسندت القيادة في هذه المرحلة إلى قحطبة بن شبيب الطائي ، وهو عربي ، فلم يشأ العباسيون أن يقود قواتهم في زحفها على المناطق العربية إلا عربي [٧] . وواصل قحطبة الزحف ، ولكنه توفي قبل الاستيلاء على العراق [٨] ، فتولى القيادة ابنه الحسن ، الذي التقى مع ابن هبيرة - والي مروان على العراق - فألحق به هزيمة ساحقة ، ثم توالت الهزائم على ابن هبيرة ، فترك الكوفة إلى واسط ، ودخل الحسن ابن قحطبة الكوفة في ربيع الأول سنة (١٣٢هـ) . وسلم الأمر إلى أبي سلمة الخلال ، الذي أصبح يسمى وزير آل محمد [٩] ، والذي قيل : إنه حاول صرف الخلافة عن العباسيين إلى العلويين، ولكن تلك المحاولة لم تنجح ، حيث بويع لعبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس ، الذي كان أخوه إبراهيم قد عهد إليه بأمر الدعوة عندما قبض عليه مروان ، والذي لقب بالسفاح ، وكان ذلك في ربيع الأول - وقيل : الثاني ، وقيل : جمادى الأولى على خلاف بين الروايات [١٠] -

---

(١ - ٣) انظر ابن الأثير (٣٦٦/٥) .

(٤) انظر الطبري (٣٥٣/٧) وما بعدها ، وابن الأثير (٣٥٦/٥) وما بعدها .

(٥) كان مروان بن محمد لما ظهر أمر الدعوة العباسية وأعلنت الثورة في خراسان قد قبض على إبراهيم الإمام ووضعه في السجن ، وقتله بعد ذلك ، وقيل : لم يقتل وإنما مات بالطاعون وهو في السجن ، انظر الطبري (٤٣٥/٧) .

(٦) المصدر السابق (٤٠٣/٧ ، ٤٠٤) .

(٧) انظر د . حسن محمود ، ود . أحمد الشريف - المرجع السابق (ص ٥٤) .

(٨) الطبري (٤١٢/٧ - ٤١٧) . (٩) المصدر السابق (٤١٨/٧) .

(١٠) انظر المصدر السابق (٤٢١/٧) وما بعدها ، وابن الأثير (٤٠٨/٥) وما بعدها .

ليصبح أول خليفة عباسي .

أما الحسن بن قحطبة ، فبعد أن سلم الأمر لأبي سلمة في الكوفة ، توجّه إلى واسط لملاحقة ابن هبيرة فاشتبك معه في معركة وألحق به هزيمة هناك .

معركة الزاب وهزيمة مروان :

وأثناء ذلك كان مروان بن محمد يستعد للقاء الحاسم مع قوات العباسيين ، وتحرك بقواته من حران إلى الموصل .

أما أبو العباس السفاح فقد انتدب عمه عبد اللّه بن علي ليقود المعركة الفاصلة مع مروان ، والتقى الجيشان عند نهر الزاب الكبير - أحد روافد دجلة - ودارت رحى الحرب بينهما ، ومع أن جيش مروان كان أضعاف جيش عبد اللّه بن علي - حيث روي أن عدد جنوده كان حوالي مائة وعشرين ألفًا ، بينما كان جيش عبد اللّه حوالي عشرين ألفًا - إلا أن الهزيمة حلت بمروان ، في جمادى الآخرة سنة (١٣٢هـ) ، وهذا من تصاريف القدر ، الذي إذا شاء صرف الأمر عن قوم ، فلن تغني عنهم الجموع ولا الجيوش ؛ فقد اضطرب الأمر على مروان ، وتقاعس عنه جنوده ، وفقد السيطرة على جيشه ، حيث يقول ابن الأثير : « وكان مروان ذلك اليوم لا يدبر شيئًا إلا ظهر فيه الخلل » [١] . بل يروى أن حادثة يسيرة حدثت كان لها أكبر الأثر في هزيمة مروان ، فقد أمر مروان ابنه عبد اللّه أن يسير إلى مؤخرة الجيش لحث الجند على النظام ، فسار ومعه الراية ، فلما رآه الناس صاحوا قائلين : الهزيمة الهزيمة ، فانهزموا وانهزم مروان [٢] .

فرار مروان إلى مصر وقتله هناك :

استطاع مروان النجاة من المعركة ، وأخذ يفر من بلد إلى بلد لا يلوي على شيء [٣] ، حتى دخل مصر ، فأرسل عبد اللّه بن علي أخاه صالح بن علي في أثره ، فأدركه في قرية بوصير - جنوب الجيزة - فقتله هناك في ذي الحجة سنة (١٣٢هـ) [٤] . وبهذا انتهت الدولة الأموية .

(١ ، ٢) الكامل (٥/٤٢٠) .

(٣) العجيب أن أهل الشام بدلًا من أن يقفوا مع خليفتهم في محنته ويشدوا أزره ، أخذوا يحاربونه وهو يمر ببلادهم مطاردًا من أعدائه ، مستغلين ضعفه وهزيمته . انظر المصدر السابق (٥/٤٢٤) .

(٤) المصدر السابق (٥/٤٢٦) .

وفي الحقيقة ؛ فإن المتتبع لسير الحوادث لا يستطيع أن يلقي مسؤولية زوال الدولة على مروان ، بل يمكن أن يلتمس له العذر ؛ فالرجل ظل ما يقرب من خمس سنوات وهو في ميادين القتال يحارب عالمًا معاديًا على جميع الجبهات ، ورغم كل ذلك فقد حقق انتصارات غير مألوفة ، وفاق معظم من كان قبله من خلفاء بني أمية ، بفضل مقدرته الشخصية على احتمال الجهد والمشقة ، حتى لقبه الناس بالحمار ؛ لطول صبره على الأذى . وحقق سيطرته على معظم ولايات الدولة ، وهي الجزيرة والعراق والشام ومصر [1] . ولكن أحداث هذه الولايات شغلته عن الخطر الداهم القادم من خراسان .

ولذلك فإننا نعتقد أن مسؤولية هزيمته والقضاء على الدولة الأموية تقع في المقام الأول على أبناء البيت الأموي ، الذين خرجوا على خليفتهم وابن عمهم ، وانضموا إلى الخارجين عليه ، وأشعلوا في وجهه نيران الثورات التي أحرقتهم جميعًا .

* * *

(١) انظر فلهاوزن - تاريخ الدولة العربية (ص ٣٧٨) .



الفصل السادس

الإدارة والنظم في العصر الأموي

الفصل السادس

الإدارة والنظم في العصر الأموي

الإدارة

تأسست الدولة الإسلامية على يدي رسول الله ﷺ في المدينة المنورة ، بعد الهجرة مباشرة ، وكان هو رئيسها والمدبر لشؤونها ، إلى جانب قيامه بتبليغ الرسالة ، وقد اتخذ الرسول ﷺ من مسجده مقرًّا لحكم الدولة فلم يكن مسجده لإقامة الصلوات فقط ، وإنما كان أيضًا مركزًا للدعوة ومقرًّا للحكم .

وقد تشكلت حكومة الرسول ﷺ من الصحابة - رضوان الله عليهم - الذين كانوا يعاونونه في تسيير أمورها ، وقد اختص بعضهم بملازمته حتى أطلق عليهم اسم الوزراء ، مثل أبي بكر وعمر ، فقد ذكر أبو بكر بن العربي في كتابيه « أحكام القرآن » و « سراج المريدين » ، حديثًا حسنًا عن الرسول ﷺ حيث قال : « **وزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل ، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر** » (١) . كذلك كان من الصحابة كتاب الرسول ، وحراسه ، وحجابه ، ورجال شرطته ، وعماله على الولايات وسفراؤه ... إلخ (٢) ، ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في آخر حياة الرسول ﷺ وشملت الجزيرة العربية كلها ، كان يعين لكل إقليم وال من قبله يحكمه ، وقاض يقضي بين الناس ، وجامع للصدقات ... إلخ .

واستمر هذا الوضع في خلافة أبي بكر ﷺ الذي قسم الجزيرة العربية إلى حوالي عشرة أقسام إدارية :

١ - مكة المكرمة　٢ - الطائف　٣ - صنعاء　٤ - حضرموت
٥ - خولان　٦ - زبيد　٧ - الجند　٨ - نجران
٩ - جرش　١٠ - البحرين

---

(١) انظر أبو الحسن الخزاعي - تخريج الدلالات السمعية (ص ٣٩) . وظافر القاسمي - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ (٤٧/١) .

(٢) راجع عن حكومة الرسول ﷺ المصدرين السابقين ، وكتاب نظام الحكومة النبوية ، المسمى بالتراتيب الإدارية لعبد الحي الكتاني .

وكان معظم ولاة هذه المناطق ممن ولاهم الرسول ﷺ وأبقاهم أبو بكر على أعمالهم [١] .

وفي عهد عمرو بن الخطاب اتسعت الدولة اتساعًا كبيرًا ، فقد فتحت الشام والعراق وفارس ومصر ، فاقتضى هذا تنظيمًا جديدًا يتفق مع اتساع الدولة ، لتسهل إدارتها ، فأنشأ عمر مدينتي البصرة والكوفة ، وجعل على كل مدينة واليًا من قبله يكون مسؤولًا أمامه مباشرة [٢] .

أما الشام فقد قسمها عمر إلى عدة أقسام إدارية ، سميت أجنادًا ؛ لطبيعتها الحربية في تلك المرحلة ، ولأنه كان يقيم في كل قسم منها فليق من فيالق الجيش وهذه الأقسام هي : جند دمشق ، وجند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند قنسرين [٣] .

أما مصر فقد أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص بتأسيس عاصمة إسلامية فيها ، فأسس مدينة الفسطاط ، وظل هذا الوضع قائمًا طوال عهد الخلفاء الراشدين دون تغيير يذكر .

وفي العهد الأموي اتسعت الدولة الإسلامية ، وامتدت حدودها من كاشغر على حدود الصين حتى الأندلس ، ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندي ، **وأصبحت تتكون من الأقسام الإدارية الآتية** [٤] :

١ - **الحجاز** : ويشمل المدينة المنورة ومكة المكرمة والطائف ، وكان الوالي يقيم في المدينة .

٢ - **اليمن** : وكانت في معظم الأحيان ولاية مستقلة ، أي يحكمها وال مسؤول أمام الخليفة مباشرة ، وأحيانًا تضاف إلى والي الحجاز ، يعين لها واليًا من قبله .

٣ - **العراق** : وكانت حدوده الإدارية تشمل الدولة الفارسية القديمة كلها ،

---

(١) انظر : أبو الحسن الخزاعي - المصدر السابق (ص ١٦٤) وما بعدها ، والشيخ محمد الخضري - المرجع السابق (١/١٩٥) .

(٢) كان الوالي في البصرة يعتبر مسؤولًا عن إدارة القسم الجنوبي من العراق والقسم الجنوبي من الدولة الفارسية القديمة ، وكانت تمتد مسؤوليته حتى خراسان وكان هو الذي يعيِّن لهذه الأقاليم من يديرونها . وكان الوالي في الكوفة يعتبر مسؤولًا عن إدارة القسم الشمالي من العراق والولايات الشمالية من الدولة الفارسية القديمة ، وهو كذلك يعيِّن من يدير هذه الأقاليم .

(٣) انظر د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص ٢٦٦) .

(٤) انظر الشيخ محمد الخضري - المرجع السابق (٢/٢١١) .

بالإضافة إلى أقاليم ما وراء النهر وإقليم السند ، وكان الأمويون في أغلب الأحوال يجعلون العراق والمشرق كله تحت حكم وال واحد ، أي يكون الوالي على العراق ، هو الذي يعيِّن والي خراسان ، وهذا يعيِّن الولاة من قبله على أقاليم ما وراء النهر ، وأحيانًا كان والي خراسان يتبع الخليفة مباشرة وهكذا .

٤ - **إقليم الجزيرة** : ويشمل الموصل وأرمينية وأذربيجان .

٥ - **الشام** : وأصبحت في العهد الأموي خمسة أقسام ؛ حيث فصلت حمص عن قنسرين ، وغدت ولاية قائمة بذاتها .

٦ - **مصر** : وكان يتبعها شمال إفريقيا إلى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان سنة (٨٥هـ) . ثم أصبح شمال إفريقيا ولاية منفردة تتبع الخلافة مباشرة .

٧ - **الأندلس** : وهذه كانت في معظم الأحيان تتبع والي شمال إفريقيا وأحيانًا كانت تتبع الخلافة مباشرة .

وكان كل وال من ولاة هذه الأقاليم - والذين كانوا يسمون أمراء أيضًا - يختار من يساعدونه في إدارة الكور والأقاليم الصغيرة ، التي تتبع ولايته ، ويكونون مسؤولين أمامه عن أعمالهم . وكان خلفاء بني أمية يحرصون أن يكون على رأس الولايات الكبرى رجال إما من البيت الأموي نفسه ، أو من أشد المخلصين لدولتهم ، والمشهورين بالحزم والدهاء والمقدرة السياسية والإدارية [١] . وكانوا يمنحونهم سلطات واسعة بحيث كان الوالي مطلق التصرف تقريبًا في ولايته يعمل بما يراه محققًا لمصلحة الدولة . وذلك يختلف عما كان عليه الحال في عهود الخلفاء الراشدين ؛ حيث كانت سلطات الولاة مقيدة إلى حد بعيد فقد حرص الخلفاء الراشدون على الفصل بين السلطات العسكرية والسياسية والإدارية وبين السلطات المالية ، حيث كانوا يعينون إلى جانب الوالي - الذي كان يسمى أمير الحرب والصلاة - واليًا آخر على بيت المال ، وكان يسمى صاحب الخراج ويكون مسؤولًا أمام الخليفة مباشرة ولا سلطان للوالي عليه [٢] .

أما الغالب في العهد الأموي ، فكان الوالي يشرف أيضًا على الشؤون المالية ، وإذا

---

(١) انظر محمد كرد علي - الإسلام والحضارة العربية (٢/١٥٠ - ١٦٤) .

(٢) رأينا فيما سبق أن عثمان بن عفان عندما عين سعد بن أبي وقاص واليًا على الكوفة سنة (٢٤هـ) ، كان عبد الله بن مسعود واليًا على خراجها ، مسؤولًا أمام الخليفة مباشرة .

شئنا المقارنة في بساطة بين أسلوب الخلفاء الراشدين وأسلوب بني أمية في الإدارة ، قلنا : إن طابع إدارة الراشدين كان المركزية الشديدة ، التي كانت تتطلبها الظروف ؛ فقد كانت المرحلة مرحلة تأسيس الدولة ، وكان الخلفاء الراشدون يشرفون بأنفسهم تقريبًا على معظم الأمور .

أما طابع الإدارة الأموية فكان اللامركزية ؛ حيث كانت الدولة قد اتسعت وبعدت المسافات بين العاصمة دمشق ، وبين الولايات في المشرق والمغرب . فلو أن كل أمير في كل ولاية أخذ يراجع الخليفة في كل صغيرة وكبيرة لتعطلت مصالح الناس ، وقد مر بنا أن عمر بن عبد العزيز كره أن يراجعه أحد الولاة في كل الأمور ، وكتب إليه يؤنبه على ذلك [١] .

وليس معنى ذلك أن الولاة في العهد الأموي كانوا يفعلون ما يشاؤون دون رقابة أو محاسبة من الخلفاء ؛ فقد كان معظم الخلفاء الأمويين يتصفحون أعمال الولاة ويراقبونهم عن طريق عيونهم من رجال البريد وغيرهم فإذا ظهر من وال تقصير ، أو تجاوز في تقاضي الخراج والجزية ، لا يترددون في عزله [٢] ، فالذي كان يهمهم في الدرجة الأولى استتباب الأمن ومصالح الناس وسلامة الدولة والمحافظة على هيبتها .

ولذلك كان معظم خلفاء بني أمية لا يستعملون إلا من تثبت كفايته في تأييد سلطان الدولة ، والإخلاص لها ، وتعهده لأحوال الناس وكشف ظلاماتهم ، وانتهاج أفضل الطرق إلى ما فيه راحتهم وهناؤهم ، وإذا تبرم أهل قطر بتدابير من وليهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر ويستعيض عنه أكفأ منه [٣] .

وإلى جانب الكفاية والمقدرة الإدارية ، كان الأمويون يحرصون على أن يكون ولاتهم من أهل النزاهة والأمانة والاستقامة وحسن الخلق ، وقد مر بنا أن عبد الملك ابن مروان عزل أحد العمال حين بلغه عنه أنه قبل هدية [٤] .

وقد عزل معاوية بن أبي سفيان ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم عن ولاية الكوفة لما بلغه أنه أساء السيرة [٥] .

---

(١) انظر المسعودي - مروج الذهب (١٩٤/٣) .
(٢) د . سيدة كاشف - الوليد بن عبد الملك (ص ٥٦) .
(٣) محمد كرد علي - المرجع السابق (١٥٠/٢) .
(٤) المسعودي - مروج الذهب (٣/ ١٢٥) .
(٥) محمد كرد علي - المرجع السابق (١٤٩/٢) .

والحق أنه لولا دقة الخلفاء الأمويين في اختيار ولاتهم وقادتهم وعمالهم ، ولولا كفاءة هؤلاء الولاة والقادة والعمال الإدارية والسياسية والعسكرية ، ومقدرتهم الفائقة - لما أمكنهم حكم وإدارة هذه البلاد الواسعة ، وبسط الأمن والنظام فيها ، فالرقعة التي كان يحكمها الأمويون من دمشق ، يقوم عليها الآن أكثر من ثلاثين دولة وكانت تضم أممًا وشعوبًا عديدة مختلفة الأجناس واللغات والمشارب والاتجاهات والعادات والتقاليد ، فصهر هذه الشعوب في بوتقة واحدة وإخضاعها لنظام واحد لم يكن أمرًا سهلًا ، والذين يتحدثون عن أخطاء الأمويين وولاتهم ينسون هذه الحقيقة . فمن ذا الذي يستطيع أن يحكم هذه الدولة الواسعة في مثل هذه الظروف التي حكم فيها الأمويون دون أن تكون له أخطاء ؟

إن الإنصاف يفرض علينا أن نقول : إن نجاح الأمويين في إدارة الدولة بواسطة ولاتهم الأفذاذ يدل على عبقرية فذة في فن الحكم والإدارة وسياسة الناس ويعتبر من أعظم أمجادهم ، مهما كانت الأخطاء ومهما تقوّل المتقولون ، إن أكثر من ثلاثين دولة تقوم في الوقت الحاضر على الأرض التي كانت تحت حكم الأمويين - كما ذكرنا آنفا - وفي وقت تيسرت فيه الاتصالات والمواصلات وتقدمت فنون الحكم والإدارة بما لا يمكن أن يقارن بما كان عليه الحال في عصر الأمويين ، ومع ذلك فإن معظم هذه الدول تعاني من مشاكل حادة وتتخبط في سياساتها وإداراتها ، مما نراه ونشاهده ونسمع عنه ، فكيف يتوقع الناس أو يفترضون ألا يخطئ الأمويون وولاتهم في عصرهم ؟ إنها أحكام ظالمة تلك التي لا تأخذ في حسبانها الظروف التي كان يعيشها الأمويون وولاتهم ، والتي مر بنا الكثير منها في الفصول السابقة .

ولقد برزت في العصر الأموي أسماء لامعة في فن الحكم والإدارة والسياسة : مثل : عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، ومروان بن الحكم ، وزياد ابن أبي سفيان ، ومسلمة بن مخلد ، وعقبة بن نافع في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وعبيد الله بن زياد وإخوته ، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان في عهد يزيد بن معاوية ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، ومحمد بن مروان ، وعبد العزيز بن مروان . والمهلب ابن أبي صفرة وأولاده ، وبصفة خاصة يزيد ، وزهير بن قيس البلوي ، وحسان ابن النعمان الغساني وغيرهم في عهد عبد الملك بن مروان [1] ، وعبد الله بن عبد الملك ،

(١) انظر تاريخ - خليفة بن خياط (ص ٢٩٣) وما بعدها .

ومسلمة بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد ابن القاسم الثقفي ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وقرة بن شريك في عهد الوليد بن عبد الملك [١] . بالإضافة إلى الحجاج الذي كان أبرز الولاة جميعًا في عهدي عبد الملك والوليد . ومسلمة بن عبد الملك ، وأبو بكر بن حزم ، ومحمد ابن يزيد ، وصالح بن عبد الرحمن في عهد سليمان بن عبد الملك [٢] ، وعبد الحميد ابن عبد الرحمن ، والجراح بن عبد اللّه الحكمي ، وعدي بن أرطأة ، وإسماعيل ابن عبيد اللّه ، والسمح بن مالك الخولاني ، وغيرهم في عهد عمر بن عبد العزيز [٣] ، وعمر بن هبيرة ، وبشر بن صفوان ، ومسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ابن عبد الملك وغيرهم في عهد يزيد بن عبد الملك [٤] ، وخالد بن عبد اللّه القسري وأخوه أسد بن عبد اللّه ومروان بن محمد ويوسف بن عمر الثقفي ، والجنيد بن عبد الرحمن وأشرس بن عبد اللّه السلمي في عهد هشام بن عبد الملك [٥] ، ويزيد ابن عمر بن هبيرة ، ونصر بن سيار في عهد مروان بن محمد [٦] .

وهؤلاء هم أبرز الولاة ورجال الإدارة في العصر الأموي ، والقائمة طويلة ، ولا يتسع المجال أمامنا هنا للحديث عن كل الولاة في العصر الأموي ؛ لأن هذا يحتاج إلى بحث خاص .

ولكننا نشير إلى ثلاثة منهم ، كانوا من أكثر من تعرضوا للنقد بل لحملات التشهير والاتهام بالقسوة والظلم ، وهم زياد بن أبي سفيان ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وقرة بن شريك العبسي ؛ لنرى مدى الظلم الذي وقع على هؤلاء الرجال والقسوة في الأحكام على أعمالهم .

١ - **زياد بن أبي سفيان** [٧] : لقد كان زياد من رجال علي بن أبي طالب ، وكان واليًا له على فارس - وقد رأينا فيما سبق كيف كان حزمه وقدرته الإدارية وضبطه للأمور آنذاك - وبعد مقتل علي انضم إلى معاوية الذي كان حريصًا على أن يكون من رجاله ، وحاول ذلك معه حتى قبل قتل علي ، ثم نجح أخيرًا في مسعاه ،

(١) المصدر السابق (ص ٣١٠ - ٣١٢) .
(٢) المصدر السابق (ص ٣١٧ - ٣٢٠) .
(٣) المصدر السابق (ص ٣٢٢ - ٣٢٤) .
(٤) المصدر السابق (ص ٣٣٢ - ٣٣٤) .
(٥) المصدر السابق (ص ٣٥٧ - ٣٦١) .
(٦) المصدر السابق (ص ٤٠٥ - ٤٠٧) .
(٧) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد (٩٩/٧) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ٣٤٦) والطبري - تاريخ (١٧٦/٥ ، ٢١٤ ، ٢٨٨) ، والمسعودي - مروج الذهب (٣٥/٣) وابن الأثير - أسد الغابة (٢٧١/٢) والكامل (٤٩٣/٣) .

وألحق زيادًا بأبيه أبي سفيان سنة (٤٤هـ) - كما سبقت الإشارة ، ثم ولاه البصرة سنة (٤٥هـ) ، وبعده وفاة المغيرة بن شعبة سنة (٥١هـ) ضم معاوية لزياد البصرة مع الكوفة فكان أول وال يحكم العراق والمشرق كله في عهد الأمويين . فماذا كانت سياسة زياد ؟ وكيف كانت إدارته لهذا القسم من الدولة الإسلامية ؟

ندع الطبري يحدثنا عن زياد وسياسته ، فيقول : « وكان زياد أول من شهد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفًا شديدًا حتى أمن الناس بعضهم بعضًا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها . وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدًا قبله وأدرَّ العطاء وبنى مدينة الرزق » [١] .

هذا النص يوضح سياسة زياد بشتى جوانبها ، فعلى الرغم من القسوة التي اتسم بها ، والتي ألجأه إليها أهل العراق أنفسهم ، الذين مردوا على العصيان وكانوا مصدر إزعاج دائم للدولة الأموية ؛ فقد جاء زياد البصرة وهي جمرة تشتعل والفسق فيها ظاهر فاشٍ ، على حد تعبير الطبري [٢] ، فكان لا بد من الحزم ، الذي كانت نتيجته - كما سجلها الطبري - استتباب الأمن بصورة لم يسبق لها مثيل ؛ بحيث اطمأن الناس على أنفسهم وأموالهم . ولكن برغم هذه القسوة التي لم تطبق إلا على الخارجين على النظام ، فقد كان الرجل صادقًا وعادلًا مع بقية الناس ، فقد قال لهم في خطبته البتراء - القاسية التي أراد بها إرهاب العابثين بالأمن وردعهم عن الشغب والإخلال بالنظام - : « فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي » [٣] ، ثم قال : « فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم ، واعلموا أني مهما قصرت عنه ، فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقًا بليل ، ولاحابسًا رزقًا ولا عطاء عن إبانه ، ولا مجمرًا لكم بعثًا [٤] . فادعوا اللَّه بالصلاح لأئمتكم » [٥] .

---

(١) تاريخ (٥/٢٢٢) . (٢) نفسه (٥/٢١٧) .
(٣) نفسه (٥/٢١٩) .
(٤) تجمير البعث : مكثهم في ميادين الجهاد ، ومنعهم من العودة إلى أهلهم .
(٥) الطبري : المصدر السابق (٥/٢٢٠) .

فماذا ينتظر من حاكم في مثل ظروف زياد - التي كانت تعتبر ظروفًا استثنائية - أن يصنع أكثر من هذا ؟ إن ما فعله زياد هو توفير الهيبة للحكم ، ولا شك أن هذا من مصلحة الغالبية العظمى من الناس ، فالحكومة الضعيفة التي تفقد هيبتها لا يمكن أن تحكم ، وفي هذه الحالة يختل النظام ، ويأكل قوي الناس ضعيفهم . يقول ابن الأثير (١) في آخر ترجمته لزياد : « وكان عظيم السياسة ضابطًا لما يتولاه .. ولي العراق عقب فتنة واختلاف أهواء ، فضبط العراق برجال العراق .. وساس الناس فلم يختلف عليه رجلان » .

ولم يكن زياد ينتقم لنفسه من خصومه وشانئيه ولم يثبت أنه استغل نفوذه وسلطانه لمصلحته الشخصية .

بل الذي كان يهمه في المقام الأول استتباب الأمن والنظام العام ، وكان يعلم أن له خصومًا كثيرين ، فمن كان في مكان زياد لا يمكن أن يكون موضع حب كل الناس ، فنصف الناس أعداء للحاكم ولو عدل - كما يقال - وقد وضح في خطبته - المشهورة - بما لا يدع مجالًا للشك أو اللبس : أن علاقاته الشخصية بالناس لن تكون هي التي توجه سياسته لهم ، فلن يظلم إنسانًا أو يمنعه حقه ؛ لأنه يكرهه ، ولن يحابي إنسانًا أو يعطيه ما لا يستحق ؛ لأنه يحبه ، فقد قال : « وقد كانت بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا ، ومن كان مسيئًا فلينزع عن إساءته . إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعًا ، ولم أهتك له سترًا ، حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ؛ فربَّ مبتئس بقدومنا سَيُسَرُّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس » (٢) .

هذا هو زياد ، وهذه هي سياسته ، فهو لم يفتش عن النوايا ولكنه لم يدع أحدًا يعبث بأمن الناس ويفسد أمورهم ، وهذه لعمري هي مهمة أي حاكم يتوخى الصالح العام في أي عصر من العصور ، وله بعد ذلك بعض العذر إن أخطأ أو تجاوز الحد ، فالعصمة من الخطأ لله وحده ﷻ .

٢ - **الحجاج** : هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي ، وأمه

---

(١) أسد الغابة (٢/٢٧٢) .

(٢) الطبري - المصدر السابق (٥/٢٢٠) .

الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي [1] ، ولد في الطائف حوالي سنة (٤٠هـ) وحفظ القرآن الكريم ، وسمع عن كثير من الصحابة منهم ابن عباس ، وكان في بداية حياته يعلم الصبيان القرآن ، ويبدو أن طموحه لم يقنع بهذا العمل فرحل إلى الشام ، وانضم إلى روح بن زنباع صاحب شرطة الخليفة عبد الملك ابن مروان ، وظهرت كفايته ومقدرته وحزمه أثناء مسير عبد الملك لقتال مصعب ابن الزبير سنة (٧٢هـ) حيث ضبط الجيش ضبطًا محكمًا وأعجب به عبد الملك وبعد مقتل مصعب أرسله إلى الحجاز فقضى على عبد الله بن الزبير سنة (٧٣هـ) فكافأه عبد الملك على ذلك بأن عينه واليًا على الحجاز واليمن وسائر الجزيرة العربية فظل واليًا عليها سنتين (٧٣ - ٧٥هـ) فضبطها وأقر الأمن والنظام فيها ، وفي سنة (٧٥هـ) عينه عبد الملك واليًا على العراق والمشرق كله .. فمكث في ولايته تلك عشرين سنة : منها إحدى عشرة سنة في خلافة عبد الملك (٧٥ - ٨٦هـ) ، وتسع سنوات في خلافة ابنه الوليد (٨٦ - ٩٥هـ) . وخلال هذه المدة الطويلة تصدى الحجاج بعزيمة من حديد لكل أعداء الدولة الأموية من الخوارج إلى ابن الأشعث إلى غيرهم ، وأخلص كل الإخلاص لخليفته عبد الملك ، وبذل أقصى طاقته في تثبيت ملكه [2] .

وبعد أن قضى على الثورات والفتن الداخلية وجه همته للفتوحات ؛ فأرسل قتيبة ابن مسلم ففتح بلاد ما وراء النهر ومحمد بن القاسم الثقفي ففتح إقليم السند ، وكان هو من وراء هذين القائدين الكبيرين القوة المحركة ، يمدهم بالجنود والأموال والنصيحة والمشورة ، وقد عرفنا كثيرًا من ذلك أثناء حديثنا عن الفتوحات . حظي الحجاج بشهرة في التاريخ الإسلامي لا تقل عن شهرة خليفته عبد الملك بن مروان ؛ لأعماله الكبيرة ، وأفرد له المؤرخون صفحات طويلة [3] استقصوا فيها أخباره كلها ،

---

(١) انظر ترجمته في المعارف لابن قتيبة (ص٣٩٥) ، ومروج الذهب للمسعودي (١٣٢/٣) وما بعدها والكامل لابن الأثير (٥٨٤/٤) وما بعدها وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٣/٤) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١١٧/٩) وما بعدها ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢٣٠/١) .

(٢) كان عبد الملك بن مروان يعرف للحجاج قدره وجهده في توطيد دولته ولذلك وصى ابنه الوليد وهو على فراش الموت بإكرامه فقال له : « وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه ، فإنه هو الذي مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك » انظر البداية والنهاية لابن كثير (٦٧/٩) وقد عمل الوليد بوصية أبيه واعتمد على الحجاج في حكم المشرق الإسلامي كله .

(٣) ترجم ابن كثير في البداية والنهاية للحجاج في ثلاث وعشرين صفحة (١١٧/٩ - ١٣٩) بينما ترجم لعبد الملك بن مروان في ثمان صفحات (٦١/٩ - ٦٩) .

ولما كانت الفترة التي حكم فيها الحجاج فترة فتن وثورات اضطرته إلى القسوة على الخارجين على الدولة وأخذهم بالحزم والشدة ؛ فقد حمل عليه بعض المؤرخين حملة شعواء واتهموه بالظلم والقسوة وحب سفك الدماء [١] ، ولما كان تاريخ الحجاج قد كتب في العصر العباسي ؛ فقد راجت روايات كثيرة تصوره حاكمًا ظالمًا مستبدًا لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلًا ، وكان ذلك يعجب العباسيين الذين حرصوا على تشويه التاريخ الأموي ورجاله .

ولكن من بين هذا الكم الهائل من الروايات المعادية للحجاج نستطيع أن نعثر على ما يحملنا على الاعتقاد بأن الرجل لم يكن يحب سفك الدماء لمجرد سفك الدماء ، ولكنه كان أمام ثورات عارمة تريد تقويض الدولة ، فلم يكن يفرغ من ثورة حتى تواجهه أخرى أشد وأعتى ؛ فكان من الطبيعي في هذا الجو المشحون بالفتن وتوتر الأعصاب أن يلجأ إلى الحزم وبدون ذلك لم يكن ممكنًا استقرار الأمن ، الذي هو مطلب إسلامي أساسي . ومع ذلك فكان الرجل يميل إلى الرحمة والعفو ، وقد عفا عن كثير من الذين شاركوا في الثورات ضد الدولة ، عندما جاؤوه تائبين كما فعل مع الشعبي [٢] ، وغيره [٣] ممن اشتركوا في ثورة ابن الأشعث بل كان قلبه يفيض رحمة عندما يجد إنسانًا مظلومًا ، فكان يسمع منه وينصفه ، فقد كتب إليه عبد الملك بن مروان يأمره بقتل رجل اسمه أسام بن عبد البكري ؛ لأنه بلغه عنه ما أساءه ، فلما أحضره الحجاج ، قال له الرجل : « أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب ، وقال اللّٰه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] وما بلغه عني باطل ، وإني أعول أربعًا وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري وهن بالباب ، فأمر الحجاج بإحضارهن ، فلما حضرن جعلت هذه تقول : أنا خالته ، وهذه : أنا عمته ، وهذه : أنا أخته ، وهذه : أنا زوجته ، وهذه : أنا ابنته .. فبكى الحجاج وقال : واللّٰه لا أعنت عليكن ولا زدتكن ضعفًا . ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل .. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته » [٤] .

هذا هو الحجاج الذي يصوره بعض المؤرخين طاغية مستبدًا . حتى سعيد بن جبير

---

(١) انظر : المسعودي – مروج الذهب (١٣٢/٣) ، والنجوم الزاهرة (٢٣٠/١) .

(٢) المسعودي – المصدر السابق (١٥٢/٣ ، ١٥٣) .

(٣) ابن كثير – البداية والنهاية (١٢٥/٩) . (٤) المصدر السابق (١٢٤/٩) .

الذي قتله الحجاج لاشتراكه في ثورة ابن الأشعث ، فإن الطبري يروي أنه كان كارهًا لذلك . وكان هو الذي أرسل سعيدًا مع الجيش ، وجعله على عطاء الجند [١] ؛ ثقة فيه ، وتبركًا وتفاؤلًا بوجوده بين المجاهدين في غزوهم بلاد الأعداء فلما اشترك في الثورة ، وهرب بعد هزيمة ابن الأشعث طلبه الحجاج ، ولكنه تغافل عنه بعد ذلك وتناساه إلى أن قبض عليه خالد بن عبد اللّٰه القسري في مكة ، وأرسله إليه ، فغضب وقال : « لعن اللّٰه ابن النصرانية - يعني خالدًا القسري - أما كنت أعرف مكانه ؟ بلى واللّٰه والبيت الذي هو فيه في مكة » [٢] . وكاد يعفو عنه ، لولا أن سعيدًا أغضبه بقوله : كانت لابن الأشعث في عنقي بيعة . يقول الطبري : أقبل الحجاج على سعيد وقال له : « ما أخرجك علي ؟ فقال : أصلح اللّٰه الأمير ! إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة ويصيب مرة ، فطابت نفس الحجاج ، وتطلق وجهه ، ورجا أن يتخلص من أمره » [٣] ، لكنه لما قال : كانت لابن الأشعث في عنقي بيعة ، غضب الحجاج غضبًا شديدًا ، وقال له : « يا سعيد ، ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير ، ثم أخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى ، قال : ثم قدمت الكوفة واليًا على العراق ، فجددت البيعة لأمير المؤمنين ، فأخذت بيعتك له ثانية ؟ قال : بلى ، قال : فتنكث ببيعتين لأمير المؤمنين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك ؟ اضربا عنقه » [٤] .

هذه هي قصة سعيد بن جبير ، التي كانت من أكبر المآخذ على الحجاج ، وأعظمها أثرًا في بغض الناس له ونحن لا ندافع عن الحجاج هنا ؛ لأنه هو نفسه ندم ندمًا كبيرًا على قتله [٥] . ولكننا نقول : إن الظروف الصعبة التي كان يعيشها الرجل والتهديد الدائم للأمن والاستقرار في الدولة من أهل العراق ، كل ذلك جعل أعصابه في توتر دائم ، وربما جعله ذلك يتجاوز الحد في بعض الأحيان ، ولكنه مع ذلك كان يحترم العلماء ويجلهم ، كما كان حاله مع عامر الشعبي والحسن البصري وأمثالهما .

ولو وجد هذا الرجل في عهد مستقر يسوده الأمن والنظام لكان له في مجال البناء والإصلاح والتعمير دور أعظم من الذي كان ؛ فبالإضافة إلى عبقريته العسكرية والإدارية وحزمه وشجاعته فقد كان رجل بناء وتعمير ، عمل على ترقية الزراعة في العراق بإقامة السدود وشق القنوات ، وترقية التجارة وإصلاح الأحوال الاقتصادية بإصلاح النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس . ومن أعماله الجليلة إعجام

(١) الطبري (٤٨٧/٦) .
(٢) المصدر السابق (٤٩٠/٦) .
(٣ ، ٤) المصدر السابق (٤٩٠/٦) .
(٥) نفسه (٤٩١/٦) .

المصحف بوضع النقط للحروف ؛ للتمييز بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء ، والدال والذال ، كما وضع حركات الشكل : الضم والفتح والكسر ؛ لما رأى اللحن انتشر في قراءة القرآن [١] . ومن أعماله العمرانية بناء مدينة واسط بين البصرة والكوفة سنة (٨٣هـ) [٢] .

كما كان يتمتع بصفات جليلة ، فحتى المؤرخين الذين انتقدوه بشدة اعترفوا بأنه كان شجاعًا فصيحًا كريمًا ، معظمًا للقرآن ، شديد الخوف من الله . يقول الذهبي : « وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء ، وفصاحة وبلاغة ، وتعظيم للقرآن » [٣] . ويقول ابن كثير : « ثم نشأ لبيبًا فصيحًا بليغًا حافظًا للقرآن ، قال بعض السلف : كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة » [٤] . ومما يصور خوفه من الله ما يذكره ابن كثير أيضًا عن المغيرة بن مسلم قال : سمعت أبي يقول : خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر ، فما زال يقول : إنه بيت الوحدة وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكى من حوله » [٥] بل يروي ابن كثير ما يدل على ورعه وتقواه فيقول : « تغدى الحجاج يومًا مع الوليد بن عبد الملك ، فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ [٦] ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الحلال ما أحللت ، ولكني أنهى عنه أهل العراق ، وأهل عملي ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » [٧] .

أما كرم الحجاج فأمر مشهور ؛ فيروى أنه كان يقيم ألف مائدة كل يوم لإطعام الناس ، ويسقيهم العسل واللبن ، ويدور على الموائد ليتفقد الناس ويطمئن على كل شيء بنفسه ، وكانت سماحته زائدة مع العلماء وأهل القرآن وكان يعطيهم ويغدق عليهم كثيرًا [٨] .

والعجيب أن هذا الرجل الذي حكم أكثر من نصف الدولة الإسلامية حوالي عشرين عامًا ، لم يترك حين وفاته سوى ثلاثمائة درهم [٩] ؛ مما يدل على أمانته ونزاهته .

---

(١) د . سيدة كاشف - الوليد بن عبد الملك (ص٨٠) .

(٢) الطبري - المصدر السابق (٣٨٣/٦) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٤٣/٤) .

(٤) البداية والنهاية (١١٩/٩) .

(٥) المصدر السابق (١١٧/٩) .

(٦) النبيذ الذي دعا إليه الوليد الحجاج لم يكن خمرًا وإنما هو عصير التمر والزبيب الذي أباحه فقهاء العراق ؛ لأنه لم يكن مسكرًا .

(٧) البداية والنهاية (١٢٧/٩) .

(٨ ، ٩) المصدر السابق (١٣٣/٩) .

ومما يذكر للحجاج أنه كان يحترم أهل البيت النبوي ، والهاشميين بصفة عامة ولم يتعرض لأحد منهم بأذى [١] ، بل كان يبغض من آذاهم . يروي ابن كثير أن الحجاج قال يومًا : « من كان له بلاء أعطيناه على قدره ، فقام رجل فقال : أعطني فإني قتلت الحسين ، فقال : وكيف قتلته ؟ قال : دسرته بالرمح دسرًا ، وهبرته بالسيف هبرًا ، وما أشركت معي في قتله أحدًا ، فقال : اذهب فواللّٰه لا تجتمع أنت وهو في موضع واحد . ولم يعطه شيئًا » [٢] .

والخلاصة أن الحجاج لم يكن على هذه الصورة القاتمة ، التي يصوره بها بعض المؤرخين ، بل كان - إلى جانب همته العالية في قمع الثورات وجهوده الكبيرة في مجال الفتوحات والتنظيم والإدارة والأعمال العمرانية - ينطوي على نفس رحيمة ونزعة إنسانية وميل إلى العفو والعدل أما قسوته فله فيها بعض العذر ، فرجل يحكم أكثر من نصف العالم الإسلامي هذه المدة الطويلة ويواجه ما واجه من المشاكل والفتن والثورات ، لابد أن تكون له أخطاء . ولعله من الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا ، فعسى اللّٰه أن يتوب عليه .

٣ - **قرة بن شريك** [٣] : تولى قرة بن شريك ولاية مصر ست سنوات (٩٠ - ٩٦هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك الذي عزل أخاه عبد اللّٰه بن عبد الملك عنها وأسندها إلى قرة ، وقد كال له بعض المؤرخين التهم جزافًا [٤] ، فقال عنه ابن تغري بردي : « وكان سيئ التدبير ظالمًا غشومًا فاسقًا » [٥] ، وكان الوليد بن عبد الملك قد أمر قرة بتوسعة وتجديد جامع عمرو بن العاص فنهض بالأمر وجدد ووسع الجامع ، ولكن المؤرخين راحوا يشوهون هذا العمل بالقول : إن قرة كان إذا فرغ العمال والصناع من البناء دعا بالخمور والزمور والطبول ، فيشرب الخمر في المسجد طوال الليل ويقول : لنا الليل ولهم النهار ، وكان أشر خلق اللّٰه » [٦] .

وهذه التهمة تذكرنا باتهام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بأنه همَّ بشرب الخمر

---

(١) انظر : ابن تيمية - منهاج السنة (٢/٢٤٩) . (٢) البداية والنهاية (٩/١٢٤) .

(٣) انظر ترجمته في كتاب الولاة والقضاة للكندي (ص٦٣) وما بعدها ، سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٤٠٩) ، البداية والنهاية لابن كثير (٩/١٦٩) والنجوم الزاهرة لابن تغزي بردي (١/٢١٧) وما بعدها .

(٤) انظر د. سيدة كاشف - الوليد بن عبد الملك (ص ٨٥ - ٨٦) حيث أوردت طائفة من اتهامات المؤرخين لقرة بن شريك ، مثل ساويرس ابن المقفع والمقريزي وابن تغري بردي .

(٥) النجوم الزاهرة (١/٢١٧) . (٦) المصدر السابق (١/٢١٨) .

فوق الكعبة ، ولا ندري كيف يجرؤ وال مسلم في نهاية القرن الأول الهجري على شرب الخمر واللهو والعبث وسماع الغناء والزمر والطبل في بيت من بيوت اللّٰه علانية ؟! وهب أن هذا الوالي كان متهتكًا إلى هذا الحد ، فهل ضاقت عليه الأرض حتى يصنع هذا في المسجد ؟! وإن أشد الناس فجورًا في عصرنا هذا ، لا يجرؤ على ارتكاب مثل هذا العمل القبيح بالقرب من أحد المساجد ، فكيف بوالي مصر المسلم في ذلك الزمان الذي كان الوازع الديني فيه أقوى بكثير مما هو عليه الآن بكل تأكيد ؟ أغلب الظن أن هذه شائعة كاذبة ، أطلقها أعداء الوالي ليشوهوا سمعته عند الناس وأخذوا يرددونها حتى استقرت في بطون بعض الكتب كواقعة تاريخية لا زالت تروى حتى الآن .

والذي يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنها شائعة لا أساس لها من الصحة أن ابن عبد الحكم والكندي – وهما من المؤرخين القدامى ، أهل الثقة في تاريخ مصر وولاتها – لم يشيرا إليها عند حديثهما عن ولاية قرة بن شريك على مصر ، فقد أشارا إلى بنائه الجامع وتوسعته ، ولكنهما لم يذكرا شيئًا عن واقعة شرب الخمر وسماع الغناء بالمرة [١] . ولو كانت حدثت لما أغفلاها ، ولا ندري من أين جاء بها المؤرخون المتأخرون مثل صاحب النجوم الزاهرة ؟

والغريب أن بعض المؤرخين كلما تحدثوا عن الحجاج الثقفي أو قرة بن شريك استشهدوا بمقولة منسوبة إلى عمر بن عبد العزيز ، حيث يزعم بعض المؤرخين أنه قال حين ذكر عنده الحجاج وقرة : « الحجاج بالعراق والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر .. اللهم قد امتلأت الأرض ظلمًا فأرح الناس » [٢] ، تعود بعض المؤرخين على ترديد هذه المقولة واعتبارها حقيقة مسلمة دون تأمل فيها ، ويكفي عندهم أنها منسوبة إلى عمر بن عبد العزيز ، فهل كان عمر بن عبد العزيز يعتبر ابن عمه الخليفة الوليد بن عبد الملك ظالمًا فعلًا ؟ وإذا كان يعتبره كذلك فلماذا قبل أن يعمل له واليًا على المدينة أكثر من ست سنوات (٨٧ – ٩٣هـ) ؟ أم أن الوليد كان عادلًا أثناء ذلك ، ثم أصبح ظالمًا فجأة بعد أن عزل عمر بن عبد العزيز ؟ أغلب الظن أن عمر لم يقل هذا الكلام ، وأنه منحول عنه ، وأن أعداء الأمويين نسبوه إلى عمر ليصدقه

(١) فتوح مصر (ص ٩٣) وكتاب الولاة والقضاة (ص ٦٤) .
(٢) النجوم الزاهرة (٢١٨/١) .

الناس ، ويكون تأثيره كبيرًا عليهم ؛ لما عرف عن عمر من الصدق والعدل والسمعة الطيبة .

على كل حال من حسن الحظ فقد دلت أوراق البردي العربية والتي اكتشفت في كوم اشقاو والتي تعود إلى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية قرة بن شريك على مصر (١) - دلت هذه الأوراق على أن كل ما رواه المؤرخون عن ظلم قرة وفسقه لم يكن صحيحًا ؛ فقد كشفت هذه الأوراق عن بيانات ومعلومات طيبة عن المجتمع المصري ، والإدارة والنظام المالي وطريقة جباية الجزية والخراج ، وإسناد المناصب إلى الموظفين والتجارة وطرقها ، وبناء العمائر والمساجد ، وإنشاء الأساطيل وأثمان البضائع والبيوت والأرض فضلًا عن عقود الزواج والبيع والشراء وما إلى ذلك من المكاتبات الخاصة التي تكشف عن بعض العادات والنظم الاجتماعية في ولاية قرة بن شريك ، ومنها يتضح أن الرجل لم يكن فاسقًا ولا ظالمًا ، بل كان يتحرى العدل بين الناس ، ففي كتاب منه إلى صاحب كورة أشقوة نجده يأمره بأن يرسل كشفًا بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال في كل مكان والجزية الواجب عليهم أداؤها ، وما يملكه كل رجل من الأراضي ، وما يقوم به من أعمال . ويطلب قرة من صاحب الكورة ألا يوجد أي مجال للشكوى أو الاستياء منه ، ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيرًا حسنًا ومعاقبة من يتنكب طريق العدل (٢) ، وفي كتاب آخر يطلب قرة من الوالي أن يكون عادلًا في تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد ، وأن يسهل للناس الاتصال به كي يسمع ما يقولون إذا كانت لهم شكاوى (٣) ، وهكذا تدحض هذه الوثائق البردية المعاصرة ما يزعمه بعض المؤرخين من اتهام قرة ابن شريك بالظلم والفسق ، ويصبح الأمر عبارة عن شائعات وأكاذيب كان يطلقها أعداء الدولة على رجالها وظل الناس يرددونها جيلًا بعد جيل حتى وصلت إلينا ، ولعل الأيام تكشف لنا عن الكثير من أوراق البردي وغيرها من الوثائق المعاصرة التي تعود إلى العصر الأموي ، وعندها يمكن أن يتغير كثير من المفاهيم ومن النظر إلى التاريخ الأموي ، كما تغيرت صورة قرة بن شريك بعد اكتشاف هذه الأوراق .

لم يكن قصدي من حديثي السابق الدفاع عن زياد والحجاج وقرة بن شريك

---

(١) انظر د . سيدة كاشف - الوليد بن عبد الملك (ص٨٤) وما بعدها .

(٢) المرجع السابق (ص ٨٨) .

(٣) المرجع السابق (ص ٨٩) .

وتبرير أخطائهم ، فليست هذه مهمة دارس التاريخ ؛ وإنما أردت أن أوضح أنهم وإن كانت ظروف عصرهم ومشاكله قد اضطرتهم إلى القسوة أو تجاوز الحد في بعض الأحيان ، إلا أنهم كانت لهم إيجابيات كثيرة ، وكانوا إداريين ممتازين . والدراسة المنصفة والمتجردة لمثل هذه الشخصيات التاريخية لا بد أن تأخذ في الاعتبار الإيجابيات والسلبيات ؛ لتتزن الصورة ويعتدل الميزان ، وتكتمل الفائدة والاستفادة من الإيجابيات والسلبيات على السواء . أما التركيز على الأخطاء وإبرازها وإغفال الأعمال الحسنة وإهمالها فليس من الإنصاف في شيء ، فضلًا عن أن ضرره أكبر من نفعه في دراسة التاريخ .

الدواوين في العصر الأموي

عرف عن خلفاء بني أمية - وبصفة خاصة المؤسسين الكبار منهم . مثل معاوية ابن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان - حرصهم على حسن إدارة دولتهم ، والسهر على مصالح الرعية ، لينتظم لهم أمر الملك ، فلم يدخروا وسعًا في اقتباس الأساليب الإدارية النافعة لتطبيقها في دولتهم وإنشاء الدواوين والأجهزة ، لإدارة مرافق الدولة .

والديوان كلمة فارسية معناها السجل أو الدفتر الذي تدون فيه الأسماء والأموال . وقد أطلق الاسم مجازًا على المكان الذي يعمل فيه الموظفون المختصون بالعمل في الديوان [١] .

وأول من أنشأ الدواوين في الدولة الإسلامية عمر بن الخطاب ، فلم يكن على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق دواوين ، فقد كان الرسول ﷺ يدير أمور الدولة بمعاونة أصحابه ، وكان كل منهم يقوم بالعمل الذي يكلفه به الرسول ﷺ حسبما تقضي به الحاجة ودون أن تكون لهم أماكن محددة تسمى دواوين ، واستمر الحال كذلك في عهد أبي بكر .

فلما كان عهد عمر بن الخطاب ، واتسعت الدولة وزادت مواردها المالية ، اقتضى الأمر خطوة إلى الأمام على طريق التنظيم الإداري والمالي للدولة ، فكان إنشاء الديوان . ويعزو المؤرخون سبب إنشاء عمر الديوان إلى كثرة الأموال التي

---

(١) انظر د. حسن إبراهيم حسن ، د. علي إبراهيم حسن - النظم الإسلامية (ص١٨٦) .

أخذت تتدفق على المدينة من غنائم الفتوحات ومن الصدقات وغيرها [١] . فلما تحير عمر في كيفية التصرف في هذه الأموال الكثيرة استشار الصحابة في ذلك ، فقال عثمان بن عفان : « أرى مالًا كثيرًا يسع الناس ، وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن يشتبه الأمر . فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا وجندوا جندًا ، فدون ديوانًا وجند جندًا . فأخذ بقوله : فدعا عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وكانوا من كتاب قريش ، فقال : اكتبوا الناس على منازلهم » [٢] .

ويفهم من كلام المؤرخين أن عمر أنشأ ديوانين لا ديوانًا واحدًا ، فقد أنشأ ديوانًا للعطاء بدأ فيه بقرابة رسول الله ﷺ وأزواجه وفرض للناس حسب سابقتهم ففضل أصحاب بدر على غيرهم . وإلى جانب هذا كان هناك ديوان للجند ، أي المجاهدين ، تدون فيه أسماؤهم وعطاؤهم ويبدو أن أسماء الجند كانت تدون حسب قبائلهم « حتى تتميز كل قبيلة عن غيرها » كما يقول الماوردي [٣] ، فكأن كل قبيلة تمثل فرقة من فرق الجيش .

وهكذا وضع عمر بن الخطاب أساس نظام الدواوين في الدولة الإسلامية مستفيدًا في ذلك بتجارب الفرس والروم .

ولما قامت الدولة الأموية دعت الضرورة إلى إنشاء دواوين أخرى ، فبالإضافة إلى ديواني العطاء والجند ، أنشأ الأمويون عدة دواوين أخرى رئيسية هي [٤] :

١ - ديوان الخراج :

وهو المختص بالأموال فكل موارد الدولة ، من غنائم وجزية وخراج الأرض وزكاة وعشور ، أي الضرائب التي كانت تؤخذ من التجار على أنواع التجارة ، وهي شبيهة بإيرادات الجمارك في الوقت الحاضر ، وكان التجار على ثلاثة أنواع : تجار مسلمون

---

(١) انظر البلاذري – فتوح البلدان (ص ٥٤٩) وما بعدها . والماوردي – الأحكام السلطانية (ص ١٩٩) ، وابن الطقطقا – الفخري (ص ٨٣) .

(٢) البلاذري – المصدر السابق (ص ٥٤٩) ، ويروي صاحب الفخري (ص ٨٣) أن الذي أشار على عمر بعمل الديوان أحد المرازبة ويذكر الماوردي في المصدر السابق (ص ١٩٩) أنه الهرمزان .

(٣) الأحكام السلطانية (ص ٢٠٤) .

(٤) كان كل ديوان ينشأ في دمشق عاصمة الدولة الأموية ، ينشأ له نظير فرعي في عواصم الولايات يقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها الديوان المركزي .

يؤخذ منهم ربع العشر من قيمة تجارتهم ، وتجار من أهل الذمة يؤخذ منهم نصف العشر ، وتجار من أهل الحرب [١] ، يؤخذ منهم العشر ، ولا يؤخذ من أحد من هذه الأنواع الثلاثة شيء إذا كانت قيمة التجارة أقل من مائتي درهم [٢] . كل هذه الموارد وغيرها كانت تصب في بيت المال ، ويهيمن عليها ديوان الخراج الرئيسي في دمشق - عاصمة الدولة الأموية - فقد كان لكل إقليم ديوان محلي ، ففي العراق ديوان ، وفي مصر ديوان ... إلخ .

وكانت هذه الدواوين تجمع ما يرد إليها من أموال على اختلاف أنواعها ، ثم تصرف ما يلزمها من مرتبات الجند والموظفين ، وما تحتاجه المرافق العامة ، مثل إنشاء الطرق وبناء الجسور وشق الترع والقنوات ... إلخ ، ثم ترسل ما يتبقى لديها إلى بيت المال المركزي في دمشق ، الذي يقوم بدوره بالصرف على ما يلزمه ، وأبواب الصرف كانت كثيرة ، مثل نفقات دار الخلافة ومرتبات الجند والموظفين والإنفاق على المرافق العامة للدولة .

والأعطيات التي كانت تمنح للشعراء والخطباء من مؤيدي الدولة ، وللشخصيات الكبيرة التي كانت الدولة تتألفها .

٢ - ديوان البريد :

وهذا الديوان أنشأه معاوية بن أبي سفيان وكان لهذا الديوان مهمتان رئيسيتان :

الأولى : نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها ، سواء كانت هذه الرسائل داخلية أو خارجية ، فالرسائل الداخلية هي التي كانت تدور بين الخلافة وولاة الأقاليم والقادة وكبار الموظفين . والرسائل الخارجية هي التي كانت تدور بين الخلافة وبين الدول الأجنبية ؛ حيث كانت تقوم بعثات من دار الخلافة بحمل رسائل من الخليفة إلى ملوك الدول الأجنبية ، وبصفة خاصة إلى أباطرة الدولة البيزنطية .

وفي الحقيقة أصل هذا الديوان وجوهر عمله كان موجودًا منذ عهد الرسول ﷺ فقد كان يرسل رسلًا ومبعوثين يحملون منه رسائل إلى الملوك والأمراء المعاصرين له ، كما حدث بعد صلح الحديبية ، حين أرسل إلى كسرى وهرقل والنجاشي والمقوقس وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام .

---

(١) المقصود بأهل الحرب : التجار من الأعداء الذين كان يسمح لهم بالمرور في أراضي الدولة الإسلامية لبيع بضاعاتهم .

(٢) انظر : أبو يوسف - كتاب الخراج (ص ٢٧١) ، والقاسم بن سلام - كتاب الأموال (ص ٤٧٤) .

والجديد في الأمر هو أن معاوية بن أبي سفيان أنشأ لهذا النوع من العمل ديوانًا خاصًّا ، له موظفون مخصوصون يقومون على العمل فيه ، وذلك لم يكن موجودًا قبل معاوية .

وأما المهمة الثانية التي كان يقوم بها ديوان البريد في العصر الأموي : فهي أن موظفي هذا الديوان كانوا عيون الخليفة (١) ، يراقبون له الولاة والعمال وأعمالهم ومسلكهم ، ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك ، حتى يكون الخلفاء على علم بأحوال الولايات وبكل ما يدور فيها .

ومعنى ذلك أن ديوان البريد كان يقوم في العصر الأموي بدور ما يسمى بالرقابة الإدارية في الوقت الحاضر ، وهو دور خطير جدًّا (٢) .

وكلمة البريد ربما كانت من أصل يوناني ، بمعنى المراسلات ، أما المسلمون فقد أخذوها من المسافة التي قدروها بين كل بريد وبريد . كما يقول ابن الطقطقا (٣) . وهي اثنا عشر ميلًا ، حيث قسموا المسافات بين عاصمة الخلافة وعواصم الأقاليم إلى مسافات متساوية ، كل مسافة منها اثنا عشر ميلًا ، ليسهل نقل الرسائل والأخبار بسرعة ، حيث كانت خيل البريد تحمله وتسير هذه المسافة ، فإذا وصلت إلى نهايتها وجدت خيلًا أخرى في انتظارها جاهزة ومستريحة فتحمله إلى مسافة أخرى ، وهكذا إلى أن يصل إلى عاصمة الخلافة إن كان واردًا إليها ، أو إلى عواصم الأقاليم إن كان صادرًا عنها .

وقد اهتم الأمويون اهتمامًا كبيرًا بهذا الديوان لأهميته الكبيرة في دولتهم المترامية الأطراف ؛ لكثرة مشاكلها والخارجين عليها ، حيث كان رجال البريد - كما ذكرنا - يقومون بدور الرقابة على العمال والموظفين .

٣ - ديوان الخاتم :

وهو الذي كانت ترسل إليه أوامر الخليفة ومكاتباته فتنسخ منها نسخ وتحفظ فيه ، حتى يمكن الرجوع إليها عند الضرورة ، ثم يختم الأصل بخاتم هذا الديوان ، ثم

(١) د . إبراهيم العدوي - المرجع السابق (ص٢٧٠) .
(٢) لأهمية هذا الدور الذي كان يؤديه رجال البريد كان عبد الملك بن مروان يوصي حاجبه بألا يحجب عنه رجل البريد في أي ساعة جاء ، وكان يقول : تأخير البريد ساعة قد يفسد عمل سنة .
(٣) الفخري (ص ١٠٦) .

يطوى ويحزم بخيط ثم يختم بالشمع (١) ؛ لئلا يمكن فتحه والاطلاع على ما فيه ، فهو أشبه بإدارة الأرشيف في الوقت الحاضر ، وكان هذا الديوان من أهم الدواوين في الدولة الأموية وأول من أنشأه معاوية بن أبي سفيان ، والذي حمله على ذلك كما يقول ابن الطقطقا (٢) أنه كان أحال رجلًا - هو عمرو ابن الزبير - على زياد في العراق بمائة ألف درهم ، وكتب له كتابًا بذلك ، فلما قرأ الكتاب - وكان غير مختوم - جعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية في نهاية العام واطلع على ذلك أنكره ، وقال : ما أحلته إلا بمائة ألف فقط (٣) . ثم حبس عمرو بن الزبير حتى قضى عنه أخوه عبد اللَّه المائة الألف الزائدة ، وأمر بإنشاء هذا الديوان .

وهذه الحادثة على بساطتها تصور يقظة معاوية ودقته في تفحص أعمال الولاة ، وحرصه على ضبط الأمور كبيرها وصغيرها .

نقول - كما قلنا بشأن ديوان البريد - : إن ختم الرسائل لم يكن جديدًا ، بل كان معروفًا منذ عهد النبي ﷺ على إرسال رسائله إلى كسرى وقيصر وغيرهما ، قالوا له : يا رسول اللَّه إن الأعاجم لا تقبل رسالة إلا أن تكون مختومة ، فاتخذ خاتمًا من فضة نقش عليه : محمد رسول اللَّه ، وكان يختم به رسائله (٤) ، وقد وكل بحمله بعض الصحابة ، مثل معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي ، الذي عرف بحامل خاتم النبي ﷺ وظل الخلفاء الراشدون يستخدمون خاتم النبي ﷺ في ختم رسائلهم ، حتى سقط من يد عثمان بن عفان في بئر أريس فاتخذ خاتمًا غيره ، نقش عليه أيضًا : محمد رسول اللَّه (٥) . فبذور الإدارة والنظم وضعت إذن منذ عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، فالجديد في عمل معاوية هو تطوير هذه البدايات التنظيمية طبقًا لمقتضيات الظروف واتساع رقعة الدولة .

٤ - ديوان الرسائل :

وكان مختصًا بصياغة الكتب والرسائل والعهود التي كانت تصدر عن الخلافة إلى الولاة والعمال في داخل الدولة ، ويتلقى المكاتبات التي تصل منهم ، ويقوم

(١) انظر ابن الطقطقا - المصدر السابق (ص ١٠٧) .
(٢) المصدر السابق (ص ١٠٧) ، وانظر ابن خلدون - المقدمة (٧٠٧/٢) .
(٣) ابن الطقطقا - المصدر السابق (ص ١٠٧) .
(٤) البلاذري - فتوح (ص ٥٦٦) .
(٥) البلاذري المصدر السابق (ص٥٦٧) ، وابن خلدون - المقدمة (٧٠٥/٢) .

موظفوه بعرضها على الخليفة ، وكان كتَّاب هذا الديوان يختارون بعناية كبيرة من بين المشهورين بالبلاغة والفصاحة ، والعلم بالشريعة وأحكامها ، واللغة العربية وآدابها ، ومن أصحاب المرؤة والأخلاق الفاضلة ، وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أرفع الطبقات حسبًا ونسبًا (١) .

ومن أشهر الكتَّاب في العصر الأموي : عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد ، الذي صاغ الشروط والمواصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يقوم بهذه المهمة الجليلة بين يدي الخلفاء والأمراء في رسالة وجهها إلى الكتَّاب يعتبرها المؤرخون أحسن ما كتب في هذا الباب (٢) . ويبدو أن عمل ديوان الرسائل لم يكن مقصورًا على أمر المكاتبات الداخلية ، في الدولة ، بل كان ينظر أمر العلاقات الخارجية ، ويشرف على الوفود والبعثات الدبلوماسية التي كانت ترسلها الدولة إلى الدول الأجنبية ، ويستقبل كذلك الوفود الأجنبية التي تأتي إلى دمشق ؛ سواء لمجرد الزيارة أو للمفاوضات من أجل معاهدات صلح وخلافة ، ويقوم على ضيافتهم وإسكانهم في بيوت الضيافة ، وتعيين المرافقين الذين يصحبونهم أثناء إقامتهم ويطلعونهم على المعالم المهمة في البلاد (٣) . وعلى هذا يكون ديوان الرسائل في الدولة الأموية أشبه بديوان رئاسة الجمهورية والديوان الملكي ، وإدارات المراسم والعلاقات العامة في الدول المعاصرة .

٥ - ديوان العمال :

وهو المسؤول عن جميع الموظفين المدنيين في الدولة من حيث ترتيب أعمالهم ووظائفهم ومرتباتهم (٤) ... إلخ . ولعل جميع أسماء موظفي الدواوين السابقة - ما عدا ديواني الجند والعطاء - كانت مدونة فيه ، فهو أشبه بديوان الموظفين في النظم المعاصرة ، وسبق أن أشرنا إلى ما ذكره الطبري (٥) من أن سجلات هذا الديوان في البصرة في ولاية عبيد الله بن زياد (٥٥ - ٦٤هـ) كانت تحوي مائة وأربعين ألفًا من مختلف الموظفين والعمال المدنيين .

---

(١) انظر ابن خلدون - المقدمة (٢/٦٨١) .

(٢) انظر نص الرسالة في المصدر السابق (٢/٦٨٢ ، ٦٨٣) .

(٣) كثيرًا ما كانت الدولة الأموية تتبادل إرسال هذه الوفود مع الدولة البيزنطية انظر الدكتور إبراهيم العدوي - المرجع السابق (٢٨٠) وما بعدها .

(٤) انظر الماوردي - المصدر السابق (ص٢٠٩) وما بعدها .

(٥) تاريخ (٥/٥٠٤) .

وخلاصة القول : أن الأمويين كانوا يعملون جاهدين على تطوير دولتهم إداريًا ، وإنشاء كل ما تدعو الضرورة إلى إنشائه من الدواوين والأجهزة ، وإسناد إدارتها إلى خيرة الرجال من أهل الشرف والنسب والعلم والثقافة والمروءة والأمانة .

تعريب دواوين الخراج :

كانت الدواوين التي تحدثنا عنها آنفًا تستخدم اللغة العربية منذ إنشائها ، ما عدا دواوين الخراج ، التي كانت تستخدم اللغة الأجنبية ، حيث كان ديوان الخراج في العراق يعمل باللغة الفارسية ، وفي الشام ومصر باللغة اليونانية (١) ، وظل هذا الوضع قائمًا إلى أواخر عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) - الذي رأى أن إبقاء أهم ديوان من دواوين الدولة - وهو ديوان الخراج ، المهيمن على الشؤون المالية - يستخدم لغات غير عربية أمر شاذ ، ويجب إنهاؤه ، وإذا كانت الضرورة قد فرضت ذلك عند نشأة الدولة الإسلامية ؛ لقلة خبرة العرب المسلمين بشؤون المال والجباية من ناحية ، ولانشغالهم بالجهاد والفتح من ناحية ثانية ؛ فإن تلك الضرورة قد زالت وظهر في العرب ومواليهم مهرة في هذه الأمور (٢) . كما أن الدولة استعادت وحدتها وتخلصت من كل مناوئيها ، وبدأت تشهد عهد أمن واستقرار ؛ لذلك قرر عبد الملك تعميم استخدام اللغة العربية في دواوين الخراج . وأمر بترجمتها فكلف سليمان بن سعد الخشني الذي كان يتقلد له ديوان الرسائل وكان يجيد اللغة اليونانية ، بنقل ديوان الشام إلى اللغة العربية ، فنقله في عام كامل (٣) ، وقد أعطاه عبد الملك خراج الأردن لمدة عام كامل مكافأة له ؛ مما يدل على أهمية هذا العمل واهتمام الخليفة بإنجازه (٤) . أما ديوان العراق فقد أمر الحجاج بن يوسف كاتبه صالح ابن عبد الرحمن بنقله من الفارسية ، واستمرت عملية التعريب بعد عهد عبد الملك فترجم ديوان مصر في ولاية عبد اللّٰه بن عبد الملك بن مروان (٨٥ - ٩٠هـ) ، وديوان خراسان في ولاية نصر بن سيار حوالي سنة (١٢٤هـ) (٥) .

ومهما قيل عن السبب الذي حدا بعبد الملك إلى تعريب دواوين الخراج (٦) ، فإن

---

(١) ابن خلدون - المقدمة (٦٧٦/٢) . (٢) المصدر السابق (٦٧٧/٢) .

(٣) الجهشيارى - الوزراء والكتاب (ص٤٠) وابن خلدون - المقدمة (٦٧٧/٢) .

(٤) د . ضياء الدين الريس - عبد الملك بن مروان (ص٢٨٥) .

(٥) د . سيدة كاشف - الوليد بن عبد الملك (ص١٨٦) .

(٦) يعلل بعض المؤرخين عملية التعريب العظيمة التي بدأها عبد الملك بن مروان بأسباب تبدو سطحية ولا تفسر تفسيرًا سليمًا هذه الخطوة الكبرى ، كالذي يرويه الجهشياري في المصدر السابق (ص ٤٠) من أن عبد الملك طلب من كاتب ديوان الخراج سرجون بن منصور النصراني القيام ببعض الأعمال فتثاقل =

هذه كانت خطوة عظيمة الأهمية ، وكانت مدروسة بعناية ، بدليل أن عملية الترجمة استغرقت ما يقرب من نصف قرن ، واستمرت إلى نهاية الدولة ، ولم تكن عملًا سهلًا ، حيث كان على المترجمين أن يقوموا بنقل كثير من المصطلحات المالية من الفارسية واليونانية والقبطية ، وقد قاموا بهذا العمل على درجة عالية من الإتقان . ولم تكن عملية التعريب ذات أثر عظيم من النواحي السياسية والإدارية فحسب ، بل كانت لها آثار عظيمة أخرى من النواحي الاجتماعية والحضارية ؛ فقد فتحت أمام العرب ميدانًا كبيرًا من ميادين العمل كان موصدًا أمامهم وهو ميدان المال ، فبعد أن عُرِّبت الدواوين انخرطوا في العمل فيها وبرزوا في ميدانها كما برزوا في الميادين الأخرى .

كما أن الموظفين غير العرب الذين كانوا يقومون بالعمل في دواوين الخراج لم يستبعدوا منها ، ولكن كان عليهم ليحتفظوا بوظائفهم أن يتعلموا اللغة العربية .

وهذه خطوة حضارية مهمة ، أدت إلى سرعة انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة ، وهذا بدوره أدى إلى تفهُّم الإسلام والإقبال على اعتناقه . وكما كانت هذه الخطوة من أهم إصلاحات عبد الملك الإدارية والسياسية فقد كانت له خطوة أخرى لا تقل عنها أهمية في تحرير الاقتصاد الإسلامي وتخليصه من الاعتماد على الدول الأجنبية ، تلك الخطوة هي إصدار عملة عربية إسلامية خاصة ، وإنشاء دور لصك النقود في الشام والعراق وغيرها ، فقبل عهده لم يكن للمسلمين عملة خاصة بهم (١) . بل كانوا يعتمدون على العملات الأجنبية وبصفة خاصة الدينار البيزنطي ، فرأى عبد الملك إنهاء عهد الاعتماد على النقد الأجنبي ؛ لما فيه من مساس بكرامة الدولة الإسلامية (٢) ، فأصدر أوامره بصك النقود الإسلامية ، وتحريم التعامل بغيرها .

= عنه ، فأمر بترجمة الديوان ، وسواء صح هذا أو لم يصح فإن عبد الملك كان سيقوم حتمًا بتعريب الدواوين وصبغ الدولة بالصبغة العربية الإسلامية .

(١) بذلت محاولات محدودة لضرب عملات إسلامية قبل عبد الملك بن مروان ، حيث يروى أن عمر ابن الخطاب ضرب دراهم على نقش الكسروية ، كذلك فعل معاوية بن أبي سفيان في خلافته ، ومصعب ابن الزبير أثناء ولايته على العراق من قبل أخيه عبد الله .

(٢) يذكر المؤرخون أن من الأسباب التي حدت بعبد الملك إلى إصدار عملة إسلامية خاصة وتحريم التعامل بغيرها : أن خلافًا نشأ بينه وبين إمبراطور الروم جستنيان الثاني حول العملة ، حيث كانت الدولة البيزنطية تستورد الورق من مصر ، وفي مقابل ذلك كانت الدولة الإسلامية تحصل على الدنانير الذهبية من بيزنطة . وكان الورق يصدر إلى بيزنطة مكتوبًا عليه عبارات مسيحية ، مثل عبارة التثليث ، فقرر عبد الملك محو هذه العبارات ؛ لتنافي ذلك مع الإسلام ولما فيه من مساس بكرامة الدولة الإسلامية ، وأمر أن يكتب على صدر القراطيس الآية الكريمة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلما وصلت إلى بيزنطة غضب =

وكان أول خليفة يتخذ هذا القرار العظيم [١] .

القضاء في العصر الأموي

القضاء وظيفة أو ولاية تفيد أهلية الحكم بين الناس للفصل في الخصومات ، وقد كان الرسول ﷺ يتولى القضاء بنفسه في المدينة ، ولما انتشر أمر الدعوة في الجزيرة العربية ، وكثرت المشاكل والقضايا - أذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس على أساس القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص فيهما . ومن هؤلاء عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود وغيرهم ، كما كان النبي ﷺ يرسل قضاة إلى الأقاليم البعيدة عن المدينة ، فقد أرسل معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب إلى اليمن قضاة ومعلمين [٢] .

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وبويع أبو بكر ﷺ ، وانشغل بمحاربة المرتدين ، وتسيير الجيوش لفتح العراق والشام ، وكثرت عليه أعباء الدولة - خص عمر بن الخطاب بالقضاء في المدينة [٣] ، أما خارج المدينة فكان عماله على الولايات في الجزيرة العربية - والذين سبق ذكرهم - يقومون بالقضاء .

ولما جاء عهد عمر وفتحت البلدان : العراق والشام وفارس ومصر - عين على الولايات قضاة من قبله مثل كعب بن سور الذي ولي قضاء البصرة ، وشريح الذي ولي قضاء الكوفة [٤] ، وقد استمر كعب وشريح على قضاء البصرة والكوفة في عهد عثمان ﷺ [٥] . كما كان من أشهر قضاة عمر أبو موسى الأشعري الذي كتب إليه عمر كتابه المشهور في كيفية القضاء والفصل في الخصومات بين الناس .

وفي عهد علي بن أبي طالب تولى قضاء البصرة أبو الأسود الدؤلي ، ثم أقر علي شريحًا قضاء الكوفة ، ثم عزله وولى مكانه محمد بن زيد بن خليدة الشيباني لبضعة شهور ، ثم عزله وأعاد شريحًا فبقي قاضيًا حتى استشهد علي [٦] .

= الإمبراطور وهدد عبد الملك إما بالعودة إلى كتابة العبارات المسيحية أو يكتبون هم على الدنانير ما يسيء إلى النبي ﷺ عندئذ استشار عبد الملك كبار رجال بيته فأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية بإصدار عملة إسلامية خاصة وتحريم التعامل بالدنانير البيزنطية .

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان (ص ٥٧٤) . (٢) تاريخ خليفة بن خياط (ص ٩٧) .

(٣) المصدر السابق (ص ١٢٣) . (٤) المصدر السابق (ص ١٥٤ - ١٥٥) .

(٥) نفسه (ص ١٧٩) . (٦) نفسه (ص ٢٠٠) .

ولما قامت الدولة الأموية سنة (٤١هـ) ، استمر الخلفاء الأمويون على سنة الخلفاء الراشدين في تعيين القضاة على الأقاليم ، وكان الأمويون يحرصون على أن يكون القضاة من العلماء المجتهدين أهل الورع والتقى ، وكان القضاة يصدرون أحكامهم طبقًا للكتاب والسنة ، واجتهادهم الشخصي فيما لم يرد فيه نص في الكتاب والسنة [١] .

وقد استمر القضاة في العهد الأموي يتمتعون بالحرية في أحكامهم كما كان الحال في عهد الراشدين ، فلم يتأثروا بميول الخلفاء والولاة ولم يحاول الخلفاء والولاة التدخل في أعمال القضاة بل كانوا يخضعون لأحكامهم كعامة الشعب [٢] .

وإذا كان نظام القضاء قد استمر في العهد الأموي على ما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين من حيث الجوهر ، إلا أن دائرته اتسعت عن ذي قبل لكثرة القضايا والمشاكل فأدى ذلك إلى تطورات مهمة ، منها تسجيل الأحكام في سجلات خاصة ، وأول قاض سجل الأحكام في العصر الأموي قاضي مصر سليم بن عتر التجيبي ، في عهد معاوية بن أبي سفيان [٣] .

ومن هذه التطورات التي أدى إليها اتساع دائرة القضايا والمشاكل ظهور نظام قضاء المظالم ، ونظام الحسبة لمساعدة القضاة وتخفيف الأعباء عنهم .

قضاء المظالم :

وهو نوع من القضاء المستعجل الذي يحتاج إلى سرعة البت في القضايا ويبدو أن الذي دعا الأمويين إلى استحداث هذا النوع من نظم القضاء هو حدوث خصومات بين أطراف غير متكافئين ؛ كأن يكون أحد طرفي الخصومات أميرًا أو واليًا أو أحد علية القوم ، مما يجعل الأمر يحتاج إلى حزم وإرهاب للخصوم يجل عنه منصب القاضي ، ولذلك يقول الماوردي في تعريفه : « ونظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ؛ فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيئة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ؛ لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة فيحتاج إلى الجمع بين

---

(١) انظر د. إبراهيم نجيب – القضاء في الإسلام (ص ٥٤) ، د. حسن إبراهيم وعلي إبراهيم – النظم الإسلامية (ص ٢٩٥) .

(٢) د . إبراهيم نجيب – المرجع السابق (ص ٥٤) .

(٣) الكندي – الولاة والقضاة (ص ٣١٠) .

صفات الفريقين »[١] .

وأول من نظر في هذا النوع من القضاء رسول الله ﷺ حين حدث نزاع بين الزبير ابن العوام وأحد الأنصار على سقي ، فلما رفعا الأمر إلى الرسول ﷺ قال : « **اسق أنت يا زبير ثم الأنصاري** » ، فقال الأنصاري : إنه لابن عمتك يا رسول الله ، فغضب من قوله وقال : « **يا زبير أجره على بطنه حتى يبلغ الماء على الكعبين** »[٢] وإنما قال الرسول ذلك أدبًا للأنصاري على جرأته وتلميحه باتهام النبي بالتحيز للزبير لأنه ابن عمته ، ولكن لم يصبح هذا القضاء نظامًا ويأخذ له عنوانًا لا في عهد الرسول ، ولا عهد الخلفاء الراشدين ؛ لأن الناس كانوا متناصفين في الغالب ، منقادين للقضاء العادي[٣] .

أما في العهد الأموي فقد تغير الحال ، ولم يصبح الوازع الديني قويًا كما كان في عهد الراشدين ولم يعد القضاء العادي كافيًا للفصل في جميع المنازعات ، حيث تجاهر بعض الناس بالظلم والتغالب . فدعت الضرورة إلى إنشاء نظام قضاء المظالم ، والذي كان يعرف أحيانًا بديوان المظالم ، ويسمى رئيسه صاحب المظالم ، الذي كانت سلطته أعلى من القاضي[٤] ، ولأهمية هذا النوع من القضاء ، ولما يتطلبه من الحزم والهيبة ؛ كان بعض خلفاء بني أمية يتولونه بأنفسهم . وأول من جلس لقضاء المظالم منهم عبد الملك بن مروان . يقول الماوردي[٥] : « فكان أول من أفرد للظلامات يومًا يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان ، فكان إذا وقف منها على مشكل أو احتاج فيه إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبي إدريس الأودي ، فنفذ فيه أحكامه لرهبة التجارب من عبد الملك في علمه بالحال ، ووقوفه على السبب ، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر » ثم يقول : « ثم زاد من جور الولاة وظلم العتاة ما لم يكفهم عنه إلا أقوى الأيدي وأنفذ الأوامر . فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها »[٦] .

وكما كان قاضي المظالم أو صاحبها يقضي بين الأفراد ، فكذلك كانت ترفع إليه

---

(١) الأحكام السلطانية (ص ٧٧) . (٢) المصدر السابق (ص ٧٧) .
(٣) نفسه (ص ٧٧ - ٧٨) .
(٤) د. حسن إبراهيم ، د. علي إبراهيم - النظم الإسلامية (ص ٣١١) .
(٥ ، ٦) المصدر السابق (ص ٧٨) .

ظلامات الأفراد والجماعات من الولاة الذين يظلمون أو يحيدون عن طريق العدل معهم ، ومن عمال الخراج إذا اشتطوا في الجباية ، ومن عمال وكتاب الدواوين . كما كان صاحب المظالم يقضي فيما عجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه . وقد عدد الماوردي عشرة أنواع من القضايا والمظالم التي اختص بها صاحب المظالم ، فليرجع إليه من يريد الاستزادة (١) .

وكانت محكمة المظالم تعقد في الغالب في المسجد ، تحت رئاسة الخليفة وأحيانًا الوالي ، أو من ينوب عنهما ، وكان من يجلس للمظالم يحاط بخمسة مجموعات لا ينتظم مجلسه إلا بحضورهم وهم :

١ - **الحماة والأعوان** : وهم من رجال الشرطة لردع من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القاضي .

٢ - **القضاة** : وكانوا يحرصون على حضور جلسات محكمة المظالم ليلموا بشتات الأمور المتعلقة بالمتقاضين ، ويستفيدوا مما يصدر من أحكام ليطبقوه على ما يعرض عليهم من قضايا .

٣ - **الفقهاء** : وكان صاحب المظالم يرجع إليهما فيما أشكل من المسائل الشرعية .

٤ - **الشهود** : للإدلاء بشهاداتهم عما يعرفونه عن الخصومة والخصوم .

٥ - **الكتّاب** : لتدوين أقوال الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق (٢) .

مما تقدم يتضح لنا مدى أهمية قضاء المظالم ، وما كان يتمتع به صاحبه من القوة والبأس ، وأثر ذلك على تحقيق العدل بين الناس وإنصافهم من بعضهم البعض .

الحسبة

نظام الحسبة من أجلِّ النظم الإسلامية ؛ لأنه النظام الذي عني بتقويم كل أمر معوج في الحياة الإسلامية بعامة ، ولذلك عرفها فقهاء النظم الإسلامية ، بأنها : « أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله » (٣) ، أخذًا من قوله تعالى :

---

(١) المصدر السابق (ص٨٠ - ٨٤) .

(٢) انظر د . حسن إبراهيم ، و د. علي إبراهيم - المرجع السابق (ص ٢١١ - ٢١٢) .

(٣) انظر الماوردي - المصدر السابق (ص٢٤٠) وانظر أيضًا كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة لمحمد ابن محمد بن أحمد القرشي (ص٥١) الذي زاد على تعريف الماوردي للحسبة قوله : « وإصلاح بين الناس » .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٤] ، وعلى هذا فكل مسلم مأمور أن يكون محتسبًا ، لكن المسلم العادي عليه أن يقوم بذلك عن طريق النصيحة فهو عليه من فروض الكفاية ، ولذلك إذا رأى أن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر قد يجر إلى شر أو إلى منكر أكبر وجب عليه الكف عن ذلك .

ولما لم يكن من طبيعة كل الناس الاستجابة إلى النصح بالتي هي أحسن فقد نشأت وظيفة المحتسب للضرب على أيدي العابثين الذين لا يراعون أصول الشريعة في سلوكهم ، أيًّا كانوا موظفين أو صناعًا أو تجارًا ... إلخ أو يضايقون الناس بقول أو فعل ، فجوهر هذه الوظيفة منع الفساد والمحافظة على الأمن .

ونظام الحسبة كغيره من سائر النظم الإسلامية ، بدأ منذ بداية الإسلام ، فقد ثبت أن الرسول ﷺ كان أول من باشر عمل المحتسب بنفسه مما يدل على جلاله وأهميته ، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام – أي قمح – فأدخل يده فيها فنالت بللًا فقال : « **ما هذا يا صاحب الطعام ؟** » فقال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : « **أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ؟ من غش فليس منا** » (١) .

وكما كان النبي ﷺ يباشر عمل المحتسب بنفسه ، فقد كان يعيِّن من الصحابة من يقوم بهذا العمل ، فقد عين سعيد بن العاص على سوق مكة بعد فتحها وكان عمر بن الخطاب على سوق المدينة ، واستمر خلفاء الرسول يباشرون عمل المحتسب بأنفسهم أحيانًا ، وينيبون غيرهم من الصحابة للقيام به أحيانًا أخرى . وكان عمر في خلافته يتجول بين الناس وفي سوق المدينة كلما واتته الفرصة ، في أي وقت من ليل أو نهار ، يوجه المسلمين إلى أحكام الإسلام وقواعد السلوك السوي ، حتى تستقيم حياتهم (٢) .

وبعد أن اتسعت الدولة الإسلامية وكثرت مشاكلها بعد عهد الخلفاء الراشدين وشغل الخلفاء بمهام كثيرة سياسية وإدارية وعسكرية ؛ كان من الضروري أن يختص بهذا العمل من يقوم به فتميزت وظيفة المحتسب وأصبحت في العصر الأموي جهازًا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠٩/٢) .
(٢) الماوردي – المصدر السابق (ص ٢٥٠ – ٢٥١) .

كبيرًا يتبعه كثير من الموظفين يعاونون المحتسب في القيام بهذه المهمة الجليلة .

وقد اشترطوا فيمن يقوم بعمل الحسبة عدة شروط منها : أن يكون مسلمًا حرًّا بالغًا عاقلًا قادرًا (١) ، وهذا الشرط الأخير مهم جدًّا ؛ لأن الحسبة - كما يقول الماوردي (٢) - موضوعة للرهبة أي لإرهاب الخارجين على النظام العام ، وهؤلاء لا يردهم إلى الصواب إلا القوة والبأس . وقد اختلفوا في شرط الاجتهاد في المحتسب فبعضهم رأى لزومه وأغفله البعض ؛ لأن عمله لا يتطلب اجتهادًا ، بل تقوم وظيفته على منع المجاهرة بالمنكرات . وقد تعددت مجالات الحياة التي كان على المحتسب أن يباشرها ويقيم المعوج منها .

وقد لخص ابن خلدون اختصاصات المحتسب على النحو التالي : فقال : « ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العام في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه ، وليس له الحكم في الدعاوى مطلقًا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها ، وفي المكاييل والموازين ، وله أيضًا حمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم ، وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء » (٣) .

وقد اعتبر الماوردي الحسبة وسطًا بين القضاء والمظالم وعقد فصلًا لأوجه الشبه وأوجه المخالفة بينها (٤) . وهكذا نرى أن الإسلام يحرص على راحة الناس ويسهر

---

(١) محمد بن محمد بن أحمد القرشي - المصدر السابق (ص ٥١) .

(٢) الأحكام السلطانية (ص ٢٤٢) .

(٣) المقدمة (٦٣٦/٢) وهناك أعمال كثيرة غير التي ذكرها ابن خلدون كان يقوم بها المحتسب ، تجدها مفصلة في الكتب المخصصة لنظام الحسبة مثل كتاب القرشي السالف الذكر ، حيث استوعب جميع الميادين والمرافق التي كان يشرف عليها المحتسب .

(٤) الأحكام السلطانية (ص ٢٤١) وما بعدها .

على منع المنكرات أن تشيع في حياة المسلمين ، وإذا نظرنا إلى عمل المحتسب في ضوء النظم المعاصرة ، وجدناه موزعًا على عدد من الوزارات والهيئات مثل وزارات التموين والصحة والتعليم والصناعة والزراعة والداخلية والنيابة العامة ومصلحة الدمغة والموازين والمرافق بمختلف أنواعها .

الشرطة

جهاز الشرطة من أقدم الأجهزة في الدولة الإسلامية ؛ لأنه ضروري لاستتباب الأمن وحفظ النظام ، وتعقب الجناة والمفسدين في الأرض والقبض عليهم ، كما كان رجال الشرطة يقومون بتنفيذ الأحكام والعقوبات والحدود التي يحكم بها القضاة والمعاونة في كشف الجرائم ولذلك يعتبر جهاز الشرطة من ألزم الأجهزة للدولة بصفة عامة وللقضاة بصفة خاصة .

وقد عرف هذا النظام منذ عهد النبي ﷺ فقد روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : « كان قيس بن سعد من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير » (١) .

كما كان بعض الصحابة يقومون بدور رجال الشرطة في حراسة المدينة وحفظ الأمن في عهد الرسول ﷺ مثل سعد بن أبي وقاص ، وبديل بن ورقاء وأوس بن ثابت وأوس بن عرابة ورافع بن خديج (٢) ، وقد استمر الخلفاء الراشدون في الاستعانة ببعض الصحابة للقيام بهذا العمل (٣) .

ولما قامت الدولة الأموية ازدادت أهمية جهاز الشرطة للظروف التي كانت تعيشها وكثرة الخارجين عليها ، فكان ذا أثر كبير في حفظ الأمن وتطهير البلاد من عناصر الإفساد والعبث بالأمن ، والقضاء على المناوئين للسلطة الشرعية في الداخل . وكان الأمويون يحرصون على اختيار رجال الشرطة من أهل الشرف والبأس والعفة والحزم ، وكانوا يعطونهم الحرية في اختيار أعوانهم ليؤدوا مهمتهم على الوجه الأكمل ، وكان رجل الشرطة سواء في عاصمة الخلافة أو في عواصم الأقاليم من أركان السلطة ، وعلى قدر أمانته وعفته وقوة شخصيته وسهره على الأمن يكون استقرار الأحوال وحفظ النظام في ربوع البلاد .

---

(١) ابن حجر - الإصابة (١٨٩/٨) . (٢) أبو الحسن الخزاعي - تخريج (ص ٣٠٣) .
(٣) المصدر السابق (ص ٣٠٤) وما بعدها .

ومما يدل على أهمية المنصب ومن يشغله في العصر الأموي ، ما يرويه الشعبي عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قال : « دلوني على رجل للشرطة ، فقيل : أي الرجال تريد ؟ قال : أريده دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، لا يحنق في الحق على جرة ، يهون عليه سبال الأشراف في الشفاعة . فقيل له : عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي ، فأرسل إليه يستعمله فقال له : لست أقبلها إلا أن تكفيني عيالك وولدك وحاشيتك . قال : يا غلام ، ناد في الناس من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت منه الذمة . قال الشعبي : فوالله ما رأيت صاحب شرطة قط مثله ؛ كان لا يحبس إلا في دين ، وكان إذا أتي برجل قد نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وإذا أتي بنباش حفر له قبرًا فدفنه فيه ، وإذا أتي برجل قاتل بحديدة أو شهر سلاحًا قطع يده ، وإذا أتي برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقه ، وإذا أتي برجل يشك فيه وقد قيل : إنه لص ولم يكن منه شيء ، ضربه ثلاثمائة سوط ، قال : فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يؤتي بأحد . فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة » [(١)] .

الحاجب

من الوظائف المهمة والخطيرة في الدولة الإسلامية : وظيفة الحاجب الذي كان يجلس على باب الخليفة لينظم دخول الناس عليه على قدر منازلهم وأهميتهم وأهمية الأعمال التي جاؤوا من أجلها ، وكان الخلفاء يحرصون على أن يكون حاجبهم إما من أهل بيتهم وأقرب الناس إليهم ، أو من أهل الشرف والحسب والنسب ، ومن يتحلون بالعفة والفهم والثقافة العالية ؛ لأنهم كانوا يعتبرون الحاجب وجههم الذي يطالعون به الناس ولسانهم الذي يتحدثون به إليهم .

وقد ظن بعض الباحثين أن النظام الحجابة من مستحدثات العصر الأموي وأنه

---

(١) انظر ابن قتيبة – عيون الأخبار (١٦/١) فانظر إلى الحجاج – الذي صب عليه بعض المؤرخين لعناتهم – وحرصه على استتباب الأمن ، وعلى أن يتحلى رجل شرطته بالأمانة وألا يقبل شفاعة أحد في الحق ، ولا عجب في ذلك فالحجاج نفسه بدأ عمله في جهاز الشرطة ، حيث كان يعمل مع روح بن زنباع صاحب شرطة عبد الملك بن مروان ، حتى لفت نظر الخليفة بحزمه وقدرته على ضبط النظام مما جعله يصطفيه ويتخذ منه ساعدًا أيمن على إدارة الدولة ، وبدون هذا الحزم وبسط هيبة الدولة ما كان ممكنًا أن يستقر نظامها وينبسط سلطانها على هذه الرقعة الواسعة من الأرض .

لم يكن معروفًا قبل ذلك [١] ، ولكن ثقاة المؤرخين يذكرون أن وظيفة الحاجب كانت معروفة منذ عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ؛ فالذين كانوا يترددون على منزل الرسول ﷺ والخلفاء بعده كثيرون ، وكان لا بد من نظام في الدخول ، ولا بد أن يكون هناك من يقوم بعملية التنظيم ، وليس هذا عيبًا ننزه الرسول والخلفاء الراشدين عنه ، بل هو نظام ، والإسلام هو دين النظام والانضباط ، فلا عيب أن يقف على باب الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من ينظم دخول طلاب الحاجات عليهم .

وقد ذكر المؤرخون من حجّاب الرسول ﷺ أبا أنسة مولاه ، وأنس بن مالك ، وعبد اللّه بن زغب الإيادي ، ورباحًا الأسود مولاه [٢] . وقد جاء في صحيح مسلم ، عن جابر بن عبد اللّه قال : جاء أبو بكر يستأذن على رسول اللّه ﷺ فوجد الناس جلسوا ببابه ولم يؤذن لهم ، قال : فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر ، فاستأذن فأذن له » [٣] فهذا يدل على أنه كان للرسول ﷺ حجاب يقفون على بابه ويستأذنونه في دخول الناس عليه .

وكذلك كان للخلفاء الراشدين حجاب يستأذنون للناس عليهم [٤] ، فقد روى ابن قتيبة أن جماعة حضروا إلى باب عمر بن الخطاب ، منهم سهيل بن عمرو ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، فخرج الآذن فقال : أين صهيب ، أين عمار ، أين سلمان ؟ فتمعرت وجوه القوم فقال واحد منهم : لم تتمعر وجوهكم ؟ دعوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا ، لئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعده اللّه لهم في الجنة أكثر [٥] . ويقول : جاء أبو سفيان يطلب الدخول على عثمان فحجبه ، فقيل له : حجبك أمير المؤمنين ! فقال : لا عدمت من قومي من إذا شاء حجبني [٦] .

مما تقدم يتضح أن نظام الحجابة لم يكن من مبتكرات الأمويين ، بل هو نظام موجود منذ عهد الرسول ﷺ وكل ما أدخله الأمويون عليه هو جعله نظامًا من أنظمة دولتهم ، واختصوا به موظفين معينين طبقًا لما اقتضاه تطور الزمن وكثرة

---

(١) انظر : أبو زيد شلبي - تاريخ الحضارة الإسلامية (ص ١٠٠) .
(٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط (ص ٩٩) ، والطبري (٣/١٧١) .
(٣) عبد الحي الكتاني - نظام الحكومة النبوية (١/٢١) .
(٤) تاريخ خليفة (ص ١٥٦) .
(٥) عيون الأخبار (١/٨٥) .
(٦) المصدر السابق (١/٨٣) .

الواردين من مختلف الولايات - من ولاة وقادة وزعماء وأناس عاديين وأصحاب حاجات - على دار الخلافة ؛ بحيث أصبح الحاجب يقوم بمثل ما يقوم به مدير مكتب رئيس الجمهورية أو رئيس الديوان الملكي في النظم الحاضرة . ولأهمية المنصب كان الأمويون لا يعهدون به إلا لخاصتهم ومحل ثقتهم ، وكانوا يحرصون على أن يكون حجاب الولاة في الولايات على نفس المستوى .

انظر إلى وصية عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز ، والي مصر في عهده ، حيث قال له : وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك ؛ فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده » [١] .

والخلاصة : أن الإدارة في العصر الأموي كانت إدارة حسنة بصفة عامة ، تتوخى الصالح العام واستتباب الأمن وتسهيل مصالح الناس ، وإن شابها القصور أو بعض الأخطاء فهذا لا يقلل من شأنها ، فالخطأ والقصور من طبيعة البشر ، وكل بني آدم خطاء ، والذين يخطئون هم الذين يعملون . وحسب الأمويين أنهم لم يكفوا عن تطوير الأجهزة والدواوين التي كانت موجودة قبل عهدهم ، واستحداث ما دعت الضرورة إلى إنشائه من تلك الأجهزة لتواكب تطور الدولة والمجتمع ومتطلباته ، وأنهم كانوا يبذلون جهدهم في حسن اختيار الولاة والعمال والموظفين لمباشرة الإدارة وتسيير شؤون الدولة ، ويراقبونهم باستمرار ويعاقبون المسيء ويكافئون المحسن . وقد رأينا أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يكرسون كل وقتهم لإدارة شؤون الدولة والسهر على إنجاز الأعمال ؛ ولهذا نجحوا نجاحًا كبيرًا في بسط الأمن والنظام في ربوع الدولة ، على هذه الرقعة الهائلة من الأرض التي شملتها رغم ما كانت تعج به من مشاكل ، وما كان يثار فيها من فتن وثورات هنا وهناك . ولعل نجاح الأمويين في الإدارة وسياسة الناس من أبرز أمجادهم ، ومما يدل على عبقرية فذة في فن الحكم والإدارة فليس يخفى على ذوي البصائر أن سياسة الناس وإدارة شؤونهم من أصعب الأشياء خصوصًا في دولة كالدولة الأموية التي بسطت سلطانها على العديد من الشعوب والأجناس .

والناس في عصرنا الحاضر يقيسون تقدم الأمم والشعوب بتقدمها في فن الإدارة والحكم ، وأكثر شعوب الأرض تقدمًا وحضارة الآن هي أفضلها في أسلوبها الإداري وإنجاز الأعمال .

---

(١) ابن الطقطقا - الفخري (ص ١٢٦) .

وإذا نظرنا إلى العصر الأموي بهذا المقياس أمكننا القول : إن إدارتهم كانت إدارة حسنة ، فهم لم يكونوا يعرفون ما يسمى الآن بـ « الروتين » أو « البيروقراطية » ، وهي الأمور التي تئن منها كثير من المجتمعات في الوقت الحاضر وتقف حجر عثرة أمام تقدم الشعوب ، وبصفة خاصة في العالم الإسلامي للأسف الشديد ، فخلفاء وحكام ذلك الزمان لم يكونوا يؤرخون أعمال يومهم إلى غدهم ؛ لأنهم كانوا يعرفون أن للغد أعماله ومسؤولياته ، فإذا تأخر عمل اليوم إلى الغد تكاثرت الأعمال ، وتعطلت مصالح الناس ، وارتبكت الإدارة ، فليت المسلمين اليوم يتأسون بأولئك الرجال في سرعة إنجاز الأعمال ولو فعلوا لانصلح كثير من أحوالهم واستقامت أمورهم .

* * *

خاتمة

المهمة الرئيسية لدراسة التاريخ وأحداثه هي العبرة ، واستخلاص الدروس للإفادة منها ، يقول اللّه تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] وواجب الباحث التاريخي يفرض عليه أن يتجرد من كل العوامل التي تنأى به عن الوصول إلى حقائق التاريخ ، وفهم أحداثه وقضاياه على وجهها الصحيح ، حتى يمكنه أن يقدم تجارب الماضين في حل مشاكل عصورهم ، للاستفادة منها في الحاضر والمستقبل .

وتعتبر الأمة الإسلامية من أغنى أمم العالم - إن لم تكن أغناها على الإطلاق - في مجال التجارب التاريخية التي مرت بها ؛ فقد حققت من الأمجاد والانتصارات في جميع ميادين الحياة - عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية - ما لم تبلغه أمة من الأمم ، كما عرفت من الهزائم والانحدار والتخبط في سياساتها وشؤون حياتها ما أطمع فيها أعداءها ، ومن كان يخطب ودها ويتمنى رضاها . وكان لها من كل ذلك رصيد هائل من العبر والدروس ، يفرض على أبنائها المشتغلين بدراسة التاريخ ، والباحثين في أحداثه وقضاياه أن يعكفوا على دراسته ، دراسة تحليلية جادة ، وأن يثيروا فيها روح الاطلاع على نتائج هذه الدراسات ؛ علها تستفيد ، وتقال من عثرتها ، وتستعيد مكانتها اللائقة بها بين الأمم .

وتاريخنا الإسلامي تاريخ مشرق في جملته ، يمتلئ بالأمجاد والصفحات البيضاء ، وقوائم الرجال الأبطال في كل ميدان من ميادين الحياة فيه طويلة ، وليس فيه ما نخجل منه ، حتى أحداثه المؤلمة وانتكاساته لا تخلو دراستها من فائدة ، فليس هناك أمة على وجه الأرض سار تاريخها في خط مستقيم ، من النجاح الدائم أو الفشل المستمر ؛ بل كل الأمم تمر في تاريخها بفترات من الازدهار والنجاح ، ثم تعتريها فترات من الذبول والفشل والإحباط . والأمم الحية هي التي تدرس أسباب وعلل ونتائج كل ذلك وتستفيد منه ، وهي التي لا تنال من عزيمتها الهزائم ، ولا تثبط همتها النكسات ، بل تعتبر كل ذلك شيئًا عابرًا في مسيرتها ، عليها أن تتخطاه ، وتستأنف السير لتحقق الأمجاد . ولا يجادل عاقل في أن أمتنا الإسلامية أمة حية بدينها وقيمها ورصيدها الحضاري الهائل ، فقد تبوأت في تاريخ البشرية

مكانًا عاليًا على مدى قرون عديدة ، وقدمت للإنسانية خدمات لا ينكرها إلا جاحد ، وهي حرية أن تتبوأ هذه المكانة مرة أخرى ، وأن تنهض من كبوتها ، وأن تتقدم ركب البشرية لتنقذها من التردي الذي تسير إليه ، فكم خسرت البشرية بانحطاط المسلمين ؟

ولن يتسنى لها ذلك إلا إذا نظرت في تاريخها نظرة جادة ، وعرفت متى وكيف حققت أمجادها ، وأصبحت لها الريادة في العالم في شتى الميادين ، وحاولت السير على ذلك الدرب ، ومتى وكيف ولماذا انحطت وساءت أحوالها فتتجنب السبل التي أدت بها إلى ذلك .

وتاريخنا الإسلامي على مدى عصوره ، وبصفة خاصة قرونه الأولى ، يحتاج إلى إعادة نظر ، ولا أقول إعادة كتابة - كما يطالب البعض - فهو قد كتب ودون بخيره وشره ، وحلوه ومره ، بل ربما لا تعرف البشرية أمة دونت تاريخها بكل حسناته وسيئاته كما صنعت الأمة الإسلامية ، فلم يحاول المؤرخون المسلمون أن يتستروا على سيئات تاريخهم أو يخفوها ، وذلك من أعظم أمانتهم العلمية ، وإذا كان تاريخنا - أثناء التدوين - قد تعرض للتشويه والدس والكيد ، من عناصر معادية للأمة الإسلامية ، أو ممن أعماهم التعصب والتحزب من بعض أبنائها ، فواجبنا الأول هو تنقيته من كل هذه الشوائب وتقديمه ، لا للمسلمين وحدهم ، بل للدنيا كلها كما كان ، لا كما حاولت أن تصوره الروايات الزائفة .

ومن ناحية أخرى ؛ فإن لدينا كثيرًا من المصادر التاريخية الموثقة التي سجلت كل شيء بأمانة ، والتي تنتظر الباحثين المنصفين ، ليعكفوا عليها ببصيرة نافذة ، وعزيمة صادقة ، وحيدة ونزاهة ؛ بغية الوصول إلى الحقيقة وحدها .

ولقد اخترت لهذه الدراسة الجانب السياسي لفترة من فترات تاريخنا الإسلامي ، تعرضت أكثر من غيرها للتشويش والتشويه وطمس الحقائق ، وهي فترة العصر الأموي . وجعلتها كالمدخل لدراسة لاحقة تتناول الجوانب الأخرى - اقتصادية واجتماعية - والتي ستكون بإذن اللّٰه موضوع كتاب آخر .

بدأت هذه الدراسة بفصل عن قيام الدولة الأموية ، تحدثت فيه عن العلاقات بين البيتين : الهاشمي والأموي قبل ظهور الإسلام ، وقد اتضح أنها كانت علاقات مودة وصداقة ، تحكمها قرابة قريبة ، وصلة رحم ماسة - وإن شابها شيء من التنافس على

الشرف والسيادة - واتضح أن ما يزعمه بعض المؤرخين من أن هذه العلاقات كان يحكمها العداء الشديد ، هو زعم باطل ، ولا أساس له من التاريخ ، فلما بعث النبي ﷺ وقف بعض أبناء البيت الأموي ضد دعوته ، وناصبوه العداء ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك الموقف السيئ والخاطئ ، هو التنافس الذي كان أبرز ما يميز الحياة العربية في ذلك الزمان ، وربما إلى يومنا هذا .

ولم يدرك الأمويون ، كما لم يدرك كثيرون غيرهم من قريش - أن النبوة هبة من الخالق ﷻ ، يهبها لمن شاء من عباده ، وليست من قبيل ما يتنافسون عليه . وظل عداء الأمويين للرسول ﷺ إلى فتح مكة ، ويوم الفتح أسلموا - كبقية قريش - وسر الرسول ﷺ بذلك ، وقربهم إليه وعرف لهم مكانتهم ، واستعان بهم في دولته ، واتخذ منهم ولاة وكتابًا . وكذلك صنع خلفاؤه الثلاثة ، أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعًا .

وبينت الدراسة أن الأمويين منذ أسلموا حسن إسلامهم ، وأبلوا بلاء حسنًا في خدمة الإسلام ، وبذلوا أقصى طاقاتهم ، سواء أكان ذلك في ميادين الجهاد والغزو ، أم في مجال الإدارة والتنظيم .

وكان من الضروري أن تتعرض هذه الدراسة إلى الفتنة التي حدثت في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ، محللة أسبابها ودوافعها ؛ لأن تلك الفتنة ، وما تمخض عنها من نتائج - كان أسوأها مقتل الخليفة نفسه ظلمًا وعدوانًا - هي السبب الرئيسي في الصدع الذي حدث في العلاقات بين الهاشميين والأمويين ، كما أنها تركت آثارها الضارة على مسيرة المسلمين إلى يومنا هذا .

ولقد كشفت هذه الدراسة أن تلك الفتنة كانت بفعل العناصر المعادية للإسلام ، والحاقدة عليه ، وأن أيدي ظاهرة ، يمثلها أبرز تمثيل : اليهودي عبد الله بن سبأ ، وأخرى خفية - هي التي حركتها ، وأحرقت المسلمين في أتونها . ولم يكن ما نسب إلى عثمان ﷺ ، وبعض عماله من أخطاء وتجاوزات - وهو أمر مختلق في جملته - إلا ستارًا اختفت خلفه كل العناصر التي أرادت ضرب الإسلام من الداخل ، وهدم كيان الأمة الإسلامية بأيدي بعض من ينتسبون إليها .

ولما تدارك كبار الصحابة الموقف ، وبايعوا علي بن أبي طالب ﷺ ليقود الأمة ، ويستأنف مسيرتها ، نشطت عناصر الفساد من جديد ، وعملت على إفساد الأمر ،

وساعدها على ذلك ما نشب من خلاف بين علي وبعض الصحابة ، حول مقتل عثمان ، والقصاص من قتلته ، وكان لكل منهم وجهة نظر أداه اجتهاده إلى أنها هي الحق . وتوالت الأحداث المؤلمة ، فكانت موقعة الجمل بين علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير ، ومعركة صفين بين علي ومعاوية ، وما ترتب عليها من التحكيم الذي لم ترض نتيجته عليًا ، فاستمر التوتر في العلاقات بينهما إلى سنة (٤٠هـ) ، ثم تصالحا على أن يكون لعلي حكم العراق وتوابعها ، ولمعاوية حكم الشام ومصر ، ويكف كل منهما عن التدخل في شؤون الآخر . ولما استشهد علي ﷺ ، بعيد ذلك على يد أحد الخوارج ، وبويع ابنه الحسن ، رأى أن الأمة عانت الأمرَّين من الفتن والحروب وسفك الدماء ؛ فمال إلى المصالحة وحقن الدماء ؛ وتنازل عن الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان سنة (٤١هـ) . ومن هنا بدأت الدولة الأموية رسميًا .

حكم الأمويون العالم الإسلامي إحدى وتسعين سنة (٤١ - ١٣٢هـ) وتولى الحكم منهم خلال هذه الفترة أربعة عشر خليفة ، أولهم معاوية بن أبي سفيان ، وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، ولقد خصصت فصلًا للتعريف بهؤلاء الخلفاء ، وسياساتهم وأسلوبهم في إدارة الدولة ، وأبرز أعمالهم وأحداث عهودهم ومشاكلها ، واتضح من الدراسة أن معظم هؤلاء الخلفاء لم يكونوا على تلك الصورة القاتمة التي حاولت أن تصورهم بها مصادر التاريخ القديمة ذات الاتجاهات الحزبية المعادية لهم ، والدراسات الحديثة ، التي استقى أصحابها معلوماتهم من تلك المصادر ، وأنهم كانوا رجالًا على مستوى المسؤولية ، كرسوا كل وقتهم وجهدهم لإدارة الدولة ، والسهر على مصالح المسلمين ، وإن كانت لهم أخطاء وتجاوزات أشرنا إليها في معرض الدراسة ، وهو أمر لا يسلم منه من يتصدى لإدارة دولة كالدولة الأموية .

أما أبرز أمجاد الأمويين الباقية على الزمن ، فهي جهودهم في ميدان الفتوحات الإسلامية ، فرغم المصاعب الجمة التي كانت تعترض طريقهم ، والقوى العديدة المعادية لهم ، والتي كانت تشدهم إلى الوراء ؛ فقد نفذوا برنامجًا رائعًا للفتوحات ، ورفعوا راية الإسلام ، ومدوا حدود العالم الإسلامي من حدود الصين في الشرق إلى الأندلس وجنوب فرنسا في الغرب ، ومن بحر قزوين في الشمال حتى المحيط الهندي في الجنوب .

ولم يكن هذا الفتح العظيم فتحًا عسكريًّا لبسط النفوذ السياسي واستغلال خيرات الشعوب ، كما يدعي أعداء الإسلام ، وإنما كان فتحًا دينيًّا وحضاريًّا ، حيث عمل الأمويون بجد واجتهاد على نشر الإسلام في تلك الرقعة الهائلة من الأرض ، وطبقوا منهجًا سياسيًّا في معاملة أبناء البلاد المفتوحة هيأهم لقبول الإسلام دينًا ، حيث عاملوهم معاملة حسنة في جملتها ، واحترموا عهودهم ومواثيقهم معهم ، وأشركوهم في إدارة بلادهم ، فأقبلوا على اعتناق الإسلام عن اقتناع ورضًا ، وبذلك تكوَّن في العصر الأموي عالم إسلامي واحد على هذه الرقعة الكبيرة من الأرض ، أخذ يشق طريقه تدريجيًّا نحو التشابه والتماثل في العادات والتقاليد والأخلاق ، ومعاملات الحياة ، وأخذت أممه وشعوبه تنسلخ من ماضيها كله ، وتنصهر في بوتقة الإسلام - الذي حقق لها العزة والكرامة والحرية والمساواة - مكونة الأمة الإسلامية .

ثم حاولت هذه الدراسة تحليل أسباب نشوء الفرق والأحزاب التي ناصبت الأمويين العداء ، مثل الخوارج والشيعة وغيرهم ، وسياسة الأمويين في مواجهة هذه الأحداث الهائلة ، وما تكبَّدته من خسائر في تلك المواجهة ، والنتيجة التي خلصت بها هذه الدراسة أن الأمة الإسلامية لم تكسب شيئًا من هذه الثورات ، التي أشعلتها هذه الأحزاب في وجه الدولة ، بل بالعكس كانت خسائرها فادحة ، في الرجال والأموال والجهود .

وإذا كانت الدولة الأموية قد حققت تلك الأمجاد الرائعة في مجال الفتوحات وانتشار الإسلام ، رغم هذه الفتن والثورات ، فماذا كانت ستحقق من أمجاد أخرى ، لو لم تواجه بهذا السيل من الثورات الداخلية التي استنفدت الكثير من طاقاتها ووقتها ؟ أغلب الظن أن الإسلام كان سيسود العالم المعروف وقتذاك كله .

ومن ناحية أخرى أظهر الأمويون مقدرة فائقة في مجال الإدارة ، وكان معاوية بن أبي سفيان ، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، وأبناؤه : الوليد وسليمان وهشام ، وعمر بن عبد العزيز ، وحتى آخرهم مروان بن محمد ، كان هؤلاء الخلفاء رجال دولة من الطراز الأول ، لم يركنوا إلى الدعة والراحة ، وإنما كرسوا كل وقتهم لإدارة دولتهم المترامية الأطراف ، ولم يكفوا عن تطوير الأجهزة الإدارية التي بدأت بذورها منذ عهد الرسول ﷺ ، واستحداث ما دعت الضرورة وظروف تطور المجتمع والدولة إلى إنشائه من أجهزة ودواوين .

كما كانوا - في أغلب الأحوال - يستعينون بأمهر رجال السياسة والإدارة في عصرهم ، مثل عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبي سفيان ، والحجاج ابن يوسف الثقفي ، والمهلب بن أبي صفرة وأولاده ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، وقرة بن شريك ، ونصر بن سيار ، وغيرهم .

ولقد أثبتت هذه الدراسة أن معظم هؤلاء الرجال - الذين حاولت المصادر التاريخية المعادية لبني أمية تشويه صورتهم - كانوا رجالًا ممتازين في مجال الإدارة وسياسة الشعوب ، وإذا كانوا قد ارتكبوا بعض الأخطاء بسبب الأحداث الهائلة التي واجهتهم ، فإن ذلك لا يقلل من جهودهم في نشر الأمن والنظام في ربوع العالم الإسلامي .

ولا بد لدارس هذا العصر أن يأخذ في اعتباره الظروف والمشكلات التي واجهت رجاله ، وأنهم كانوا يحكمون عالما إسلاميًا فسيحًا ، يضم أممًا وشعوبًا مختلفة .

وكما أشرنا في ثنايا البحث ، فإن الرقعة التي كان يحكمها الأمويون من دمشق ، يقوم عليها في الوقت الحاضر أكثر من ثلاثين دولة كل منها تعاني الكثير من المشاكل في مجال السياسة الداخلية والإدارة ، وميادين الاقتصاد والاجتماع ، هذا مع تقدم المواصلات ووسائل الاتصال ، وعلوم الإدارة والاقتصاد والاجتماع ، فكيف يتصور إدارتها في القرن الأول وبداية الثاني الهجري بدون عثرات وأخطاء وتجاوزات ؟

ولهذا فإن الدراسة الموضعية القائمة على أساس الواقع التاريخي ، تجنب الباحث كثيرًا من المزالق .

وبعد ؛ فلا أريد أن أتحدث عن الجهد والعناء الذي بذل في إعداد هذا الكتاب ، فذلك أمر متروك لتقدير القراء . ومن اللّه وحده ﷻ أرجو المثوبة على عمل ، هو وحده الذي يعلم أني ما قصدت به إلا خدمة الحقيقة ، واللّه من وراء القصد .

* * *

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري (توفي ٦٣٠هـ) :

١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - طبعة دار الشعب - القاهرة تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا وآخرين .

٢ - الكامل في التاريخ - طبع دار صادر - بيروت (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) .

الأشعري : أبو الحسن علي بن إسماعيل (توفي ٣٢٤هـ) :

٣ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م) .

الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (توفي ٣٥٦هـ) :

٤ - مقاتل الطالبيين - تحقيق السيد أحمد صقر - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م) .

البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (توفي ٢٥٦هـ) :

٥ - الجامع الصحيح - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (توفي ٢٧٩هـ) :

٦ - أنساب الأشراف جـ١ تحقيق الدكتور محمد حميد الله - دار المعارف - القاهرة (١٩٥٩م) .

٧ - فتوح البلدان - تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - النهضة المصرية - القاهرة .

ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (توفي ٨٧٤هـ) :

٨ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة .

ابن تيمية : أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي (توفي ٧٢٨هـ) :

٩ - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية - المطبعة الأميرية - القاهرة (١٣٢١هـ) .

١٠ - السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - دار الكاتب العربي بيروت .

١١ - سؤال في يزيد بن معاوية - تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - دار الكتاب الجديد - بيروت (١٣٦٩هـ/١٩٧٦م) .

الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي (توفي ٣٣١هـ) :

١٢ - الوزراء والكتاب - طبع القاهرة (١٩٣٨م) .

ابن حجر : أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (توفي ٨٥٢هـ) :

١٣ - الإصابة في تمييز الصحابة - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

١٤ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - مطبعة الحلبي القاهرة .

ابن حنبل : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الإمام (توفي ٢٤١هـ) :

١٥ - فضائل الصحابة - تحقيق وصي الله بن محمد عباس - مؤسسة الرسالة - بيروت (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) .

الخزاعي : أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالخزاعي (٧٨٩هـ) :

١٦ - تخريج الدلالات السمعية على ما كان على عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية - طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة (١٤٠١هـ/١٩٨٠م) .

الخزرجي : أبو عبيدة (توفي ٥٨٢هـ) :

١٧ - بين الإسلام والمسيحية - تحقيق الدكتور محمد شامة مكتبة وهبة - القاهرة (١٩٧٩م) .

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي (توفي ٨٠٨هـ) :

١٨ - المقدمة - تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر - الطبعة الثالثة - القاهرة .

١٩ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - مؤسسة الأعلمي - بيروت .

ابن خياط : أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري (توفي ٢٤٠هـ) :
٢٠ - تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق الدكتور أكرم العمري - مؤسسة الرسالة - بيروت (١٩٧٩م) .

الذهبي : أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن عثمان (توفي ٧٤٨هـ) :
٢١ - سير أعلام النبلاء - الأجزاء الخمسة الأولى - مؤسسة الرسالة - بيروت .
٢٢ - دول الإسلام - تحقيق محمد فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (١٩٧٤م) .

ابن سعد : أبو عبد اللّٰه محمد بن سعد بن منيع - كاتب الواقدي - (توفي ٢٣٠هـ) :
٢٣ - الطبقات الكبرى - دار صادر - بيروت .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (توفي ٣١٠هـ) :
٢٤ - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الثانية - دار المعارف - القاهرة .

ابن الطقطقا : أبو جعفر محمد بن علي بن طباطبا (توفي ٧٠٩هـ) :
٢٥ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية - دار صادر - بيروت (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) .

ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّٰه (توفي ٢٥٧هـ) :
٢٦ - فتوح مصر وأخبارها - تحقيق محمد صبيح - دار التعاون للطبع والنشر - القاهرة (١٩٧٤م) .

ابن عبد الحكم : أبو محمد عبد اللّٰه بن عبد الحكم بن أعين (توفي ٢١٤هـ) :
٢٧ - سيرة عمر بن عبد العزيز - مكتبة وهبة - القاهرة .

أبو عبيد : القاسم بن سلام (توفي ٢٢٤هـ) :
٢٨ - كتاب الأموال - تحقيق محمد خليل هراس - دار الفكر - القاهرة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) .

ابن عذاري : أبو عبد اللّٰه محمد (أو أحمد بن محمد) المراكشي توفي نحو (٦٩٥هـ) :

٢٩ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - تحقيق ج . س كولان ، إ .ليفي بروفنسال - دار الثقافة - بيروت .

ابن العربي : أبو بكر محمد بن عبد اللّٰه بن محمد المعافري الإشبيلي (توفي ٥٤٣هـ) :

٣٠ - العواصم من القواصم - تحقيق محب الدين الخطيب مكتبة أسامة ابن زيد - بيروت (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

العصامي : عبد الملك بن حسين (توفي ١١١١هـ) :

٣١ - النجوم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي - المطبعة السلفية - القاهرة .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد اللّٰه بن مسلم الدينوري (٢٧٦هـ) :

٣٢ - عيون الأخبار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة (١٩٧٣م) .

٣٣ - المعارف - تحقيق الدكتور ثروت عكاشة - دار المعارف الطبعة الرابعة - القاهرة .

٣٤ - الإمامة والسياسة « المنسوب له » - تحقيق الدكتور طه الزيني - مطبعة الحلبي - القاهرة .

القرشي : محمد بن محمد بن أحمد (توفي ٧٢٩هـ) :

٣٥ - معالم القربة في أحكام الحسبة - تحقيق الدكتور محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (١٩٧٦م) .

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (توفي ٦٨٢هـ) :

٣٦ - آثار البلاد وأخبار العباد - دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) .

القيرواني : أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم (توفي ٣٣٣هـ) :

٣٧ - طبقات علماء إفريقية وتونس - تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي - الدار التونسية للنشر (١٩٦٨م) .

ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (توفي ٧٧٤هـ) :

٣٨ - البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت .

الكندي : أبو عمر محمد بن يوسف (توفي ٣٥٠هـ) :

٣٩ - كتاب الولاة وكتاب القضاة - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت (١٩٠٨م) .

مالك بن أنس : أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي (١٧٩هـ) :

٤٠ - الموطأ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الشعب - القاهرة .

الملكي : أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله القيرواني (توفي ٤٥٣هـ) :

٤١ - رياض النفوس - تحقيق الدكتور حسين مؤنس النهضة المصرية - القاهرة (١٩٥١م) .

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي (توفي ٤٥٠هـ) :

٤٢ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية - مطبعة الحلبي - الطبعة الثالثة - القاهرة (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد (توفي ٢٨٦هـ) :

٤٣ - الكامل - نهضة مصر - القاهرة .

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (توفي ٣٤٦هـ) :

٤٤ - مروج الذهب ومعادن الجوهر - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر - القاهرة (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .

مصعب الزبيري : أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب (٢٣٦هـ) :

٤٥ - نسب قريش - دار المعارف - القاهرة (١٩٧٦م) .

المقريزي : أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (توفي ٨٤٥هـ) :

٤٦ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - دار التحرير - القاهرة .

٤٧ - النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم - تحقيق محمد عرنوس - المطبعة الإبراهيمية - القاهرة .

النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري (توفي ٦٧٦هـ) :

٤٨ - صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية - القاهرة .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (توفي ٢٣١ أو ٢١٨هـ) :

٤٩ - سيرة النبي ﷺ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة .

ابن الوزان : أبو علي الحسن بن محمد الغرناطي الفاسي - المعروف بليون الإفريقي - (توفي نحو ٩٥٧هـ) :

٥٠ - وصف إفريقية - نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - بالرياض - (١٣٩٩هـ) وترجمه من اللغة الفرنسية الدكتور عبد الرحمن حميدة .

ياقوت الحموي : أبو عبد اللّٰه ياقوت بن عبد اللّٰه الرومي (توفي ٦٢٦هـ) :

٥١ - معجم البلدان - دار صادر - بيروت - (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) .

اليعقوبي : أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (توفي نحو ٢٩٢هـ) :

٥٢ - تاريخ اليعقوبي - دار بيروت للطباعة والنشر - (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) .

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي (توفي ١٨٢هـ) :

٥٣ - كتاب الخراج - تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا - دار الإصلاح - القاهرة .

٥٤ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها لمؤلف مجهول - مكتبة المثنى - بغداد .

ثانيًا : المراجع :

أحمد أمين : (توفي ١٣٧٣هـ) :

١ - فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (١٩٧٥م) .

٢ - ضحى الإسلام جـ١ مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (١٩٧٢م) .

أرنولد : توماس ووكر أرنولد (توفي ١٣٤٩هـ) :

٣ - الدعوة إلى الإسلام - ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين - مكتبة النهضة المصرية (١٩٧٠م) .

بارتلود :

٤ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى - ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان . مكتبة الأنجلوا المصرية - القاهرة (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) .

بدران : عبد القادر بن أحمد (توفي ١٣٤٦هـ) :

٥ - تهذيب تاريخ ابن عساكر - مطبعة روضة الشام - دمشق (١٣٣٢هـ) .

بينز : نورمان بينز :

٦ - الإمبراطورية البيزنطية - ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة سنة (١٩٥٧م) .

جيبون : إدوارد جيبون :

٧ - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - جـ٢ ترجمة لويس إسكندر - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهر (١٩٦٩م) .

حسن : الدكتور حسن إبراهيم حسن (توفي ١٣٨٨هـ) :

٨ - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (١٩٦٤) .

٩ - النظم الإسلامية (بمشاركة الدكتور علي إبراهيم حسن) مكتبة النهضة المصرية (١٩٧٠م) .

حمادة : الدكتور محمد ماهر حمادة :

١٠ - الوثائق السياسية العائدة للعصر الأموي - مؤسسة الرسالة - بيروت (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) .

الخربوطلي : الدكتور علي حسني الخربوطلي :

١١ - تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي - دار المعارف - القاهرة (١٩٥٩م) .

الخضري : الشيخ محمد عفيفي الخضري :

١٢ - تاريخ الأمم الإسلامية - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة (١٩٧٠م) .

خليل : الدكتور عماد الدين خليل :

١٣ - ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز - الدار العلمية - بيروت (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) .

دبوز : محمد علي دبوز :

١٤ - تاريخ المغرب الكبير جـ٢ مطبعة الحلبي . القاهرة (١٣٨٢هـ/١٩٦٣م) .

الراوي : ثابت إسماعيل الراوي :

١٥ - العراق في العصر الأموي - مكتبة الأندلس - بغداد (١٩٧٠م) .
ريسلر : جاك ريسلر :
١٦ - الحضارة العربية - ترجمة غنيم عبدون - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة .
الريس : محمد ضياء الدين الريس :
١٧ - عبد الملك بن مروان - مكتبة مصر - القاهرة (١٩٦٢م) .
١٨ - النظريات السياسية الإسلامية - مكتبة دار التراث - القاهرة (١٩٧٩م) .
زيتون : الدكتور محمد محمد زيتون :
١٩ - المسلمون في المغرب والأندلس جـ١ دار الوفاء للطباعة - القاهرة (١٩٨٣م) .
سالم : الدكتور السيد عبد العزيز سالم :
٢٠ - تاريخ الدولة العربية - مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية .
٢١ - المغرب الكبير جـ٢ - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (١٩٦٦م) .
أبو سعيد : الدكتور حامد غنيم أبو سعيد :
٢٢ - انتشار الإسلام حول بحر قزوين - جـ١ مطبعة دار نشر الثقافة - القاهرة (١٩٧٥م) .
سيد قطب : سيد قطب إبراهيم (توفي ١٣٨٧هـ) :
٢٣ - العدالة الاجتماعية في الإسلام - طبع القاهرة (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) .
شلبي : الدكتور أبو زيد شلبي :
٢٤ - تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي - مكتبة وهبة - القاهرة (١٣٨٣هـ/١٩٦٤م) .
الشناوي : الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي :
٢٥ - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - جـ١ مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة (١٩٨٠م) .
الطرازي : الدكتور عبد الله مبشر الطرازي :

٢٦ - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب - عالم المعرفة - جدة (١٤٠٣هـ) .

طه حسين : الدكتور طه حسين :

٢٧ - الفتنة الكبرى - دار المعارف - القاهرة (١٩٦١م) .

عاشور : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

٢٨ - أوربا العصور الوسطى جـ١ - الأنجلو المصرية - القاهرة - (١٩٧٨م) .

العبادي : الدكتور أحمد مختار العبادي :

٢٩ - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس - طبع الإسكندرية - الطبعة الأولى سنة (١٩٦٨م) .

٣٠ - في تاريخ المغرب والأندلس - مؤسسة الثقافة الجامعية - الإسكندرية .

العدوي : الدكتور إبراهيم أحمد العدوي :

٣١ - الأمويون والبيزنطيون - الطبعة الثانية - الدار القومية - القاهرة .

العقاد : عباس محمود العقاد (توفي ١٣٨٣هـ) :

٣٢ - معاوية بن أبي سفيان في الميزان - الطبعة الأولى دار الهلال - القاهرة .

عوض : الدكتور إبراهيم نجيب عوض :

٣٣ - القضاء في الإسلام تاريخه ونظامه - مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) .

فامبري : أرمينوس فامبري :

٣٤ - تاريخ بخارى - ترجمة الدكتور أحمد الساداتي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة (١٩٦٥م) .

فلهاوزن : يوليوس فلهاوزن :

٣٥ - تاريخ الدولة العربية - ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة - لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (١٩٨٥م) .

فيصل : الدكتور شكري فيصل :

٣٦ - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - دار العلم للملايين - بيروت (١٩٦٦م) .

٣٧ - حركة الفتح الإسلامي - دار العلم للملايين - بيروت (١٩٥٢م) .

القاسمي : ظافر القاسمي :

٣٨ - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي - جـ١ ط٢ دار النفائس - (بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) .

قدورة : الدكتورة زاهية قدورة :

٣٩ - الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول - دار الكتاب اللبناني - بيروت (١٩٧٢م) .

كاشف : الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف :

٤٠ - مصر في فجر الإسلام - دار النهضة العربية - القاهرة (١٩٧٠م) .

٤١ - الوليد بن عبد الملك - مكتبة مصر - القاهرة (١٩٦٣م) .

الكتاني : عبد الحي الكتاني :

٤٢ - نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية - دار الكتاب العربي - بيروت .

كرد علي : محمد بن عبد الرازق بن محمد بن كرد علي (توفي ١٣٧٢هـ) :

٤٣ - الإسلام والحضارة العربية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة (١٩٦٨م) .

مؤنس : الدكتور حسين مؤنس :

٤٤ - أطلس تاريخ الإسلام - دار الزهراء للإعلام العربي - القاهرة .

٤٥ - فتح العرب للمغرب - مكتبة الآداب - القاهرة سنة (١٩٤٧م) .

ماجد : الدكتور عبد المنعم ماجد :

٤٦ - التاريخ السياسي للدولة العربية - جـ٢ مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة (١٩٧٩م) .

ماهر : الدكتورة سعاد ماهر :

٤٧ - البحرية في مصر الإسلامية - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة (١٩٦٧م) .

محمود : الدكتور حسن أحمد محمود :

٤٨ - الإسلام في آسيا الوسطى - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (١٩٧٢م) .

٤٩ - الإسلام والثقافة العربية في إفريقية - جـ١ مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (١٩٥٨م) .

٥٠ - العالم الإسلامي في العصر العباسي (بمشاركة الدكتور أحمد إبراهيم الشريف) - دار الفكر العربي - القاهرة سنة (١٩٧٧م) .

النجار : الدكتور محمد الطيب النجار :

٥١ - الدولة الأموية في المشرق - دار الاتحاد العربي للطباعة - القاهرة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) .

هيكل : الدكتور محمد حسين هيكل :

٥٢ - الصديق أبو بكر - دار المعارف - القاهرة (١٩٧٩م) .

٥٣ - الفاروق عمر - دار المعارف - القاهرة (١٩٧٧م) .

وافي : الدكتور علي عبد الواحد وافي :

٥٤ - حقوق الإنسان في الإسلام - دار نهضة مصر - القاهرة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٩م) .

* * *



العالم الإسلامي في العصر الأموي

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

مقدمة ٥

الفصل الأول : **قيام الدولة الأموية** ١٣

شهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين ١٥

الأمويون في عهد النبي ﷺ ٢٢

الأمويون في عهد أبي بكر ٢٤

الأمويون في عهد عمر بن الخطاب ٢٦

الأمويون في خلافة عثمان ٢٧

ولاية مصر في عهد عثمان ٢٩

ولاية الكوفة في عهد عثمان ٣١

ولاية البصرة في عهد عثمان ٣٨

ولاية الشام في عهد عثمان ٤٠

المؤامرة الكبرى على الأمة الإسلامية ٤٤

عبد الله بن سبأ ٤٤

أبو ذر الغفاري ودعوته ٤٩

أبو ذر وعبد الله بن سبأ ٥٢

إجراءات عثمان ضد مثيري الفتنة ٥٤

مسيرهم إلى المدينة ومقتل عثمان ٥٥

خلافة علي بن أبي طالب ٦٦

علي وعمال عثمان ٦٧

موقعة الجمل ٦٩

معركة صفين ٧٧

علي والخوارج ٨٤

معركة النهروان ٨٦

الموقف يميل لمصلحة معاوية ٨٨
الصراع حول مصر واستيلاء معاوية عليها ٨٩
اتساع نطاق دولة معاوية ٩١
اتفاق علي ومعاوية ٩٢
مقتل علي ٩٢
خلافة الحسن بن علي ٩٤
عام الجماعة وقيام الدولة الأموية ٩٧
الفصل الثاني: **الخلفاء الأمويون** ٩٩
١ - معاوية بن أبي سفيان ١٠١
صفاته ومكانته ١٠٥
منهج معاوية وأسلوبه في حكم الأمة الإسلامية ١٠٨
سياسة معاوية الخارجية ١١٢
معاوية وولاية العهد لابنه يزيد ١١٤
٢ - يزيد بن معاوية ١١٩
يزيد الخليفة ١٢١
٣ - معاوية بن يزيد ١٢٦
٤ - مروان بن الحكم ١٢٨
مروان والخلافة ١٣٠
تعديل الموقف لصالح بني أمية ١٣٠
مروان الخليفة ١٣٢
مروان يستولي على مصر ١٣٢
٥ - عبد الملك بن مروان ١٣٤
عبد الملك وتوحيد الدولة الإسلامية ١٣٥
عبد الملك وإدارة الدولة ١٣٨
سياسة عبد الملك الخارجية ١٤٠

٦ - الوليد بن عبد الملك ١٤٢
٧ - سليمان بن عبد الملك ١٤٥
٨ - عمر بن عبد العزيز ١٥١
عمر بن عبد العزيز والي المدينة ١٥٣
عمر بن عبد العزيز والخلافة ١٥٤
سياسة عمر بن عبد العزيز الداخلية ١٥٦
سياسته الخارجية ١٦١
وفاته ١٦٢
٩ - يزيد بن عبد الملك ١٦٣
١٠ - هشام بن عبد الملك ١٦٦
١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٧٣
الثورة على الوليد وقتله ١٧٤
الأسباب الحقيقية للثورة على الوليد ١٧٦
أثر مقتل الوليد على الدولة الأموية ١٧٧
١٢ - يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٧٨
اضطراب أمر بني أمية ١٨٠
ثورة أهل فلسطين ١٨١
١٣ - إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٨١
١٤ - مروان بن محمد بن مروان ١٨٢
ثورة أهل حمص على مروان ١٨٥
ثورة أهل الغوطة ١٨٥
ثورة فلسطين ١٨٦
عقد مروان البيعة لولديه ١٨٦
ثورة سليمان بن هشام ١٨٦
اضطراب الأمر على مروان ١٨٧

الفَصلُ الثَالِثُ : الفتوحات في العصر الأموي ١٨٩
الفتوحات قبل العصر الأموي ١٩١
المسلمون والفرس ١٩٢
المسلمون والروم ٢٠٠
الفتوحات البحرية في العصر الأموي ٢٠٩
معاوية والقسطنطينية ٢١٢
الحصار الأول للقسطنطينية ٢١٨
الحصار الثاني للقسطنطينية ٢٢٠
الحصار الثالث للقسطنطينية ٢٢٢
سليمان بن عبد الملك والقسطنطينية ٢٢٥
الفتوحات البرية في العصر الأموي ٢٣٠
الفتوحات في شمال إفريقيا ٢٣٠
معاوية بن أبي سفيان وفتح إفريقية ٢٣٣
عقبة بن نافع وفتح إفريقية ٢٣٤
فتوحات أبي المهاجر ٢٤٠
حملة عقبة الثانية ٢٤٤
استشهاد عقبة ٢٤٦
أثر معركة تهوذة على المسلمين ٢٤٨
زهير بن قيس وجهاده ٢٤٩
مرحلة حسان بن النعمان الغساني ٢٥٣
مرحلة موسى بن نصير ٢٥٨
فتح الأندلس ٢٥٩
أولًا : الناحية السياسية ٢٦٠
ثانيًا : الوضع الاجتماعي ٢٦١
ثالثًا : الوضع الديني ٢٦٣

دوافع المسلمين لفتح الأندلس ٢٦٣
المفاوضات التي سبقت فتح الأندلس ٢٦٥
مرحلة الاستطلاع واختبار النوايا ٢٦٦
حملة طارق بن زياد ٢٦٧
عبور موسى بن نصير إلى الأندلس ٢٧٣
لقاء موسى وطارق ومواصلة الفتح ٢٧٤
تفكير ابن نصير في غزو القسطنطينية من الغرب ٢٧٥
الأندلس بعد عودة موسى بن نصير إلى دمشق ٢٧٦
معركة بلاط الشهداء ٢٨٠
الفتوحات الأموية في المشرق ٢٨٣
تثبيت الفتوحات في فارس ٢٨٣
أحوال بلاد ما وراء النهر عندما فتحها المسلمون ٢٩٠
فتوحات قتيبة بن مسلم فيما وراء النهر ٢٩٣
المرحلة الأولى ٢٩٥
المرحلة الثانية ٢٩٧
المرحلة الثالثة ٢٩٨
المرحلة الرابعة ٣٠٠
نهاية قتيبة ٣٠٢
مرحلة ما بعد قتيبة ٣٠٣
فتوح السند ٣٠٤
محمد بن القاسم وفتح السند ٣٠٧
نهاية محمد بن القاسم ٣١١
السند بعد محمد بن القاسم ٣١٢
الفَصْلُ الرَّابعُ : **انتشار الإسلام في العصر الأموي** ٣١٥
عوامل انتشار الإسلام ٣١٩

أولًا : عالمية الإسلام ٣١٩
ثانيًا : حسن معاملة المسلمين لشعوب البلاد المفتوحة ٣٢٢
ثالثًا : إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم ٣٣٠
رابعًا : الوضع الديني في البلاد المفتوحة ٣٣٢
سياسة الأمويين وأثرها في انتشار الإسلام ٣٣٤
انتشار الإسلام في مصر ٣٣٧
انتشار الإسلام في المغرب ٣٤١
انتشار الإسلام في الأندلس ٣٥١
انتشار الإسلام في الشام ٣٥٣
انتشار الإسلام في العراق ٣٥٧
انتشار الإسلام في فارس ٣٦٢
انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر ٣٧١
انتشار الإسلام في السند ٣٧٧
الفصل الخامس : **الأحزاب والثورات المعادية لبني أمية** ٣٨٧
الخوارج ٣٩٠
أشهر فرق الخوارج ٣٩٢
ثورات الخوارج ٣٩٣
ثورة شبيب بن يزيد ٣٩٩
شوذب الخارجي ٤٠٠
ثورة الضحاك بن قيس الشيباني ٤٠١
ثورة أبي حمزة الخارجي ٤٠٢
الشيعة ٤٠٣
ثورات الشيعة ٤٠٥
ثورة الحسين بن علي ٤٠٥
خروج الحسين إلى الكوفة ٤٠٦

مسؤولية يزيد في مقتل الحسين ٤٠٩
التوابون ٤١٠
ثورة المختار الثقفي ٤١٣
ثورة زيد بن علي بن الحسين ٤١٦
ثورة أهل المدينة على يزيد بن معاوية وموقعة الحرة ٤١٨
عبد اللّه بن الزبير والدولة الأموية ٤٢٢
بيعة عبد اللّه بن الزبير ٤٢٦
عبد اللّه بن الزبير ومروان بن الحكم ٤٢٧
عبد اللّه بن الزبير وعبد الملك بن مروان ٤٢٧
القضاء على عبد اللّه بن الزبير ٤٣٠
أسباب فشل ابن الزبير ٤٣٢
ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ٤٣٣
ثورة يزيد بن المهلب ٤٤١
انتشار القلاقل في معظم الولايات في أواخر الدولة الأموية ٤٤٤
الثورة العباسية ٤٥٣
الدعوة العباسية ٤٥٣
مراحل الدعوة العباسية ٤٥٥
إعلان الثورة والقضاء على الدولة الأموية ٤٥٦
معركة الزاب وهزيمة مروان ٤٥٨
فرار مروان إلى مصر ومقتله ٤٥٨
الفصل السادس : **الإدارة والنظم في العصر الأموي** ٤٦١
الإدارة ٤٦٣
أسماء لامعة في فن الحكم والإدارة والسياسة ٤٦٧
الدواوين في العصر الأموي ٤٧٨
١ - ديوان الخراج ٤٧٩

٢ – ديوان البريد ٤٨٠
٣ – ديوان الخاتم ٤٨١
٤ – ديوان الرسائل ٤٨٢
٥ – ديوان العمال ٤٨٣
تعريب دواوين الخراج ٤٨٤
القضاء في العصر الأموي ٤٨٦
قضاء المظالم ٤٨٧
الحسبة ٤٨٩
الشرطة ٤٩٢
الحاجب ٤٩٣
خاتمة ٤٩٧
المصادر والمراجع ٥٠٣
فهرس المحتويات ٥١٥

* * *

رقم الإيداع

٢٠٠٧/١٧٠٧٠

I.S.B.N **الترقيم الدولي**

977-342-587-8

السيرة الذاتية للمؤلف



- الاسم : أ.د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف .
- تاريخ الميلاد : ١٠/٧/١٩٣٦م .
- حصل على الإجازة العالية [الليسانس] في التاريخ والحضارة الإسلامية من قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م ، وعين معيدًا بقسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية بالقاهرة في ١٦/١٠/١٩٦٦م .
- حصل على الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية سنة ١٩٦٨م ، وعين مدرسًا مساعدًا بنفس القسم في ١٠/٢/١٩٧٢م ، وحصل على الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية سنة ١٩٧٤م ، وعين مدرسًا بنفس القسم في ٣١/٧/١٩٧٤م ، ثم أستاذًا مساعدًا في ١٩/٩/١٩٧٩م ، ثم أستاذًا في ١٠/١٠/١٩٨٤م ، ثم أستاذًا متفرغًا في ١١/٧/٢٠٠١م حتى الآن .
- له الكثير من المؤلفات ، منها : تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة - مؤتمر السقيفة وبيعة أبي بكر الصديق ﷺ [دراسة نقدية تحليلية] - تاريخ الحركة الوطنية المصرية في مواجهة الاستعمار والصهيونية [بالاشتراك] - التاريخ الإسلامي من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية [بالاشتراك] - الجيش المصري من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الإخشيدية - دراسات في تاريخ الدولة الأموية - الإدارة في الإسلام - بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي (قراءة ورؤية جديدة) - العلمانية في الفكر الإسلامي .
- وهو عضو بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة ، وجمعية الدراسات الإسلامية بالقاهرة ، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ، واتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، واللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة في التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة ، ولجنة ترقية الأساتذة بجامعتي الملك عبد العزيز بجدة وأم القرى بمكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية .

● واشترك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية في داخل مصر وخارجها ؛ مثل : المملكة العربية السعودية - الجزائر - إيطاليا .

● وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية .

* * *

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « العالم الإسلامي في العصر الأموي - دراسة سياسية » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملاً : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب : ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طبعي في أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

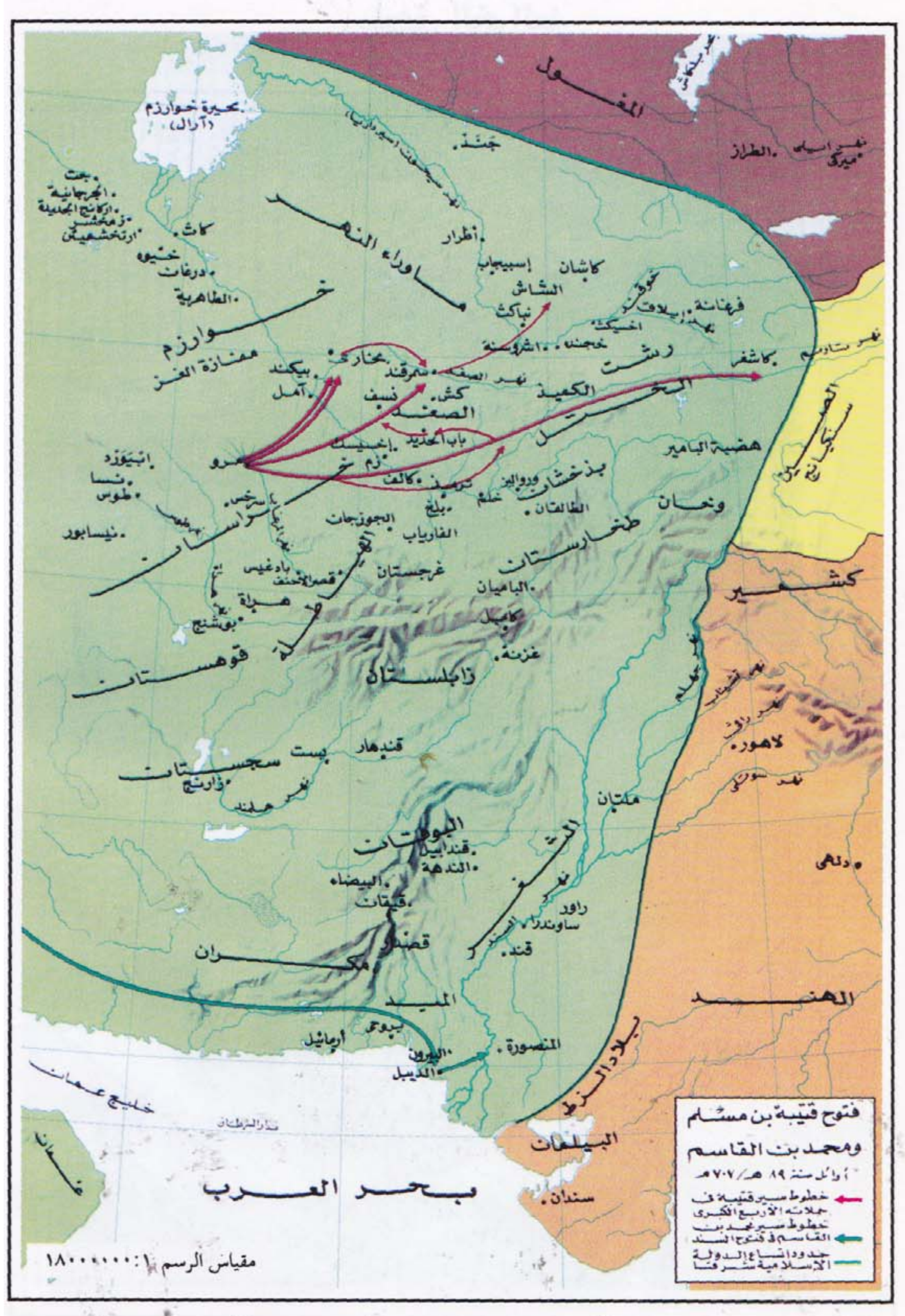
الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

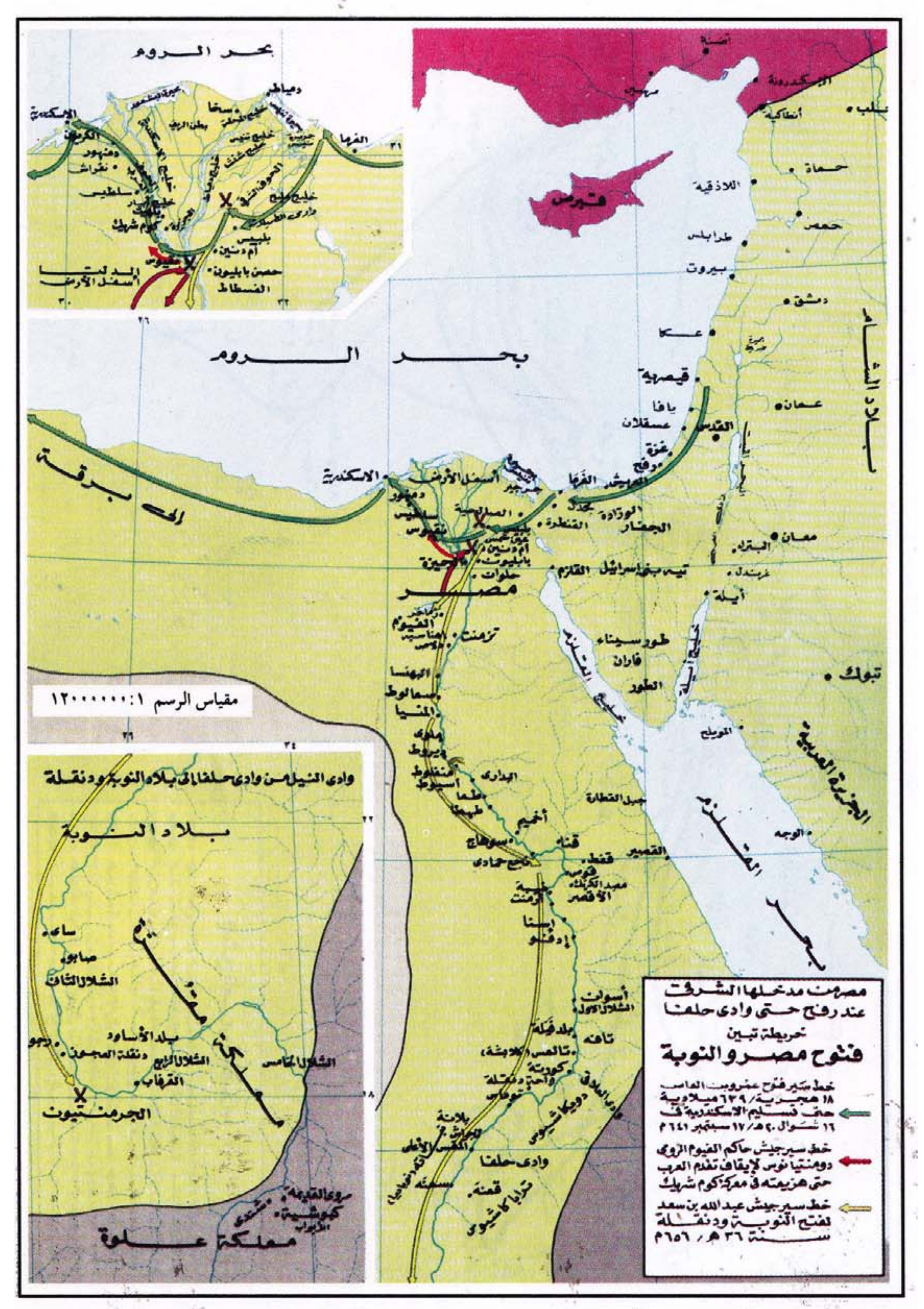
(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

ملحق الخرائط

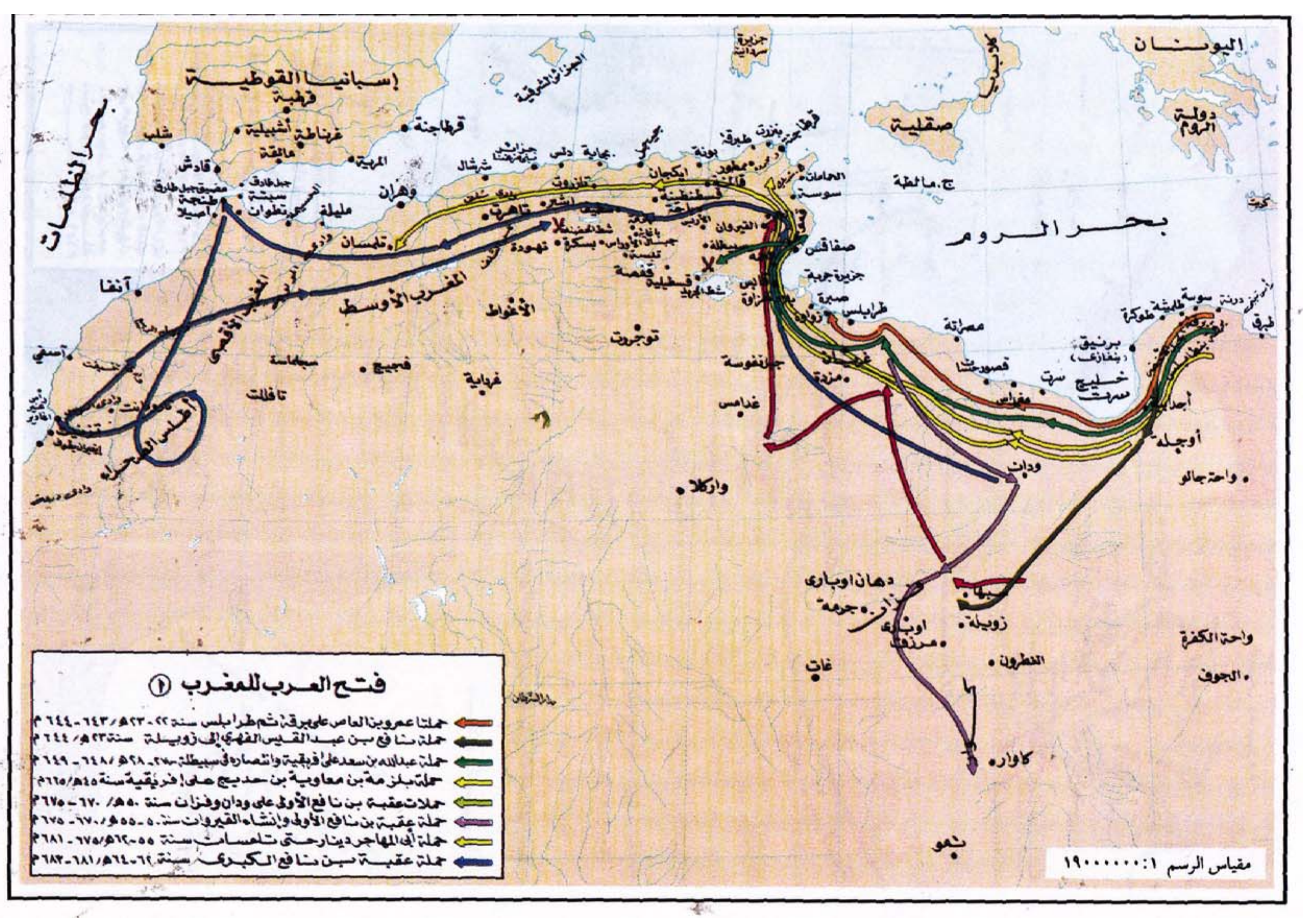
خريطة رقم (١) نقلًا عن خريطة (٦٣) من أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ص ١١٦ ، ١١٧



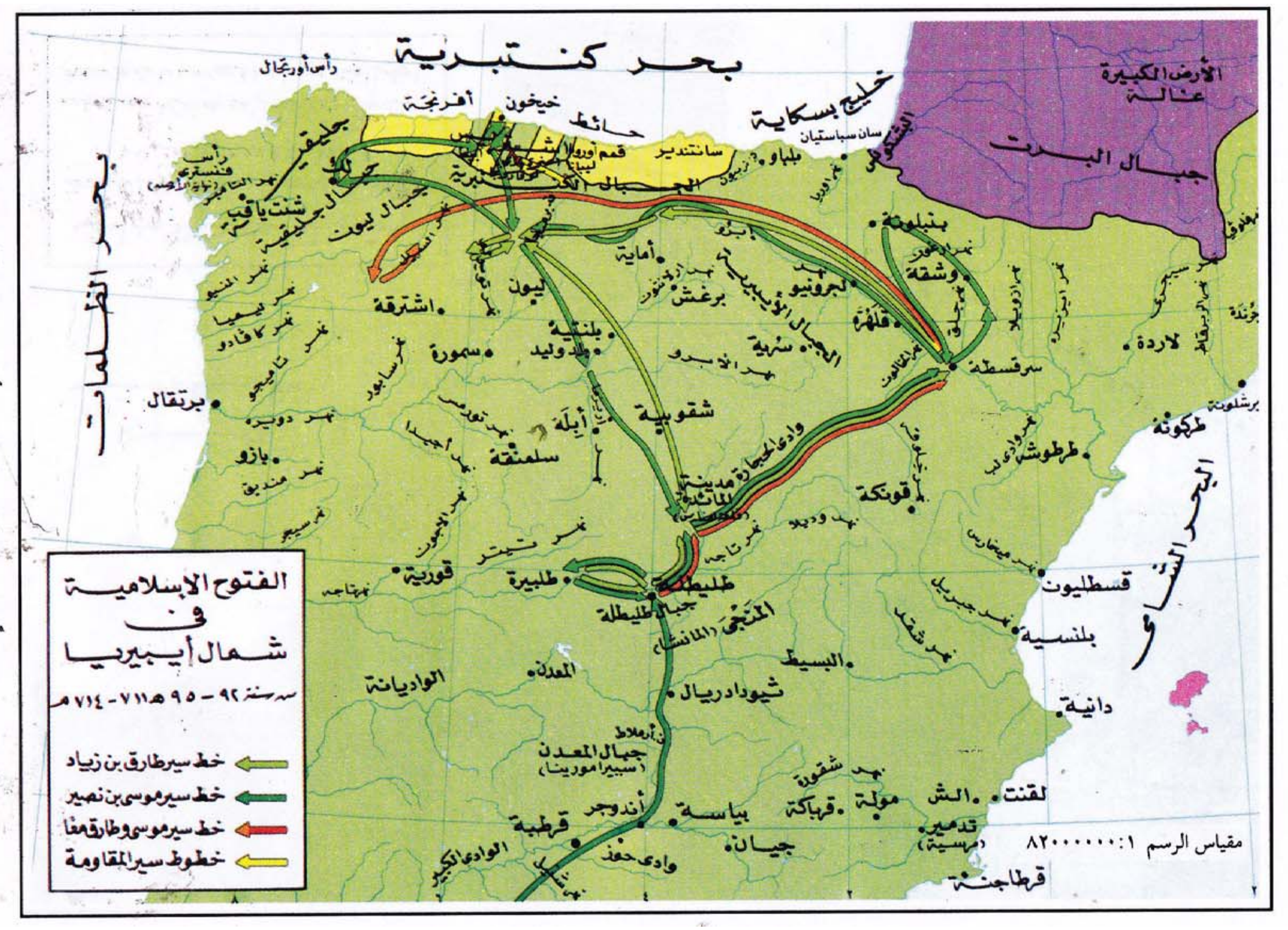
خريطة رقم (٢) نقلًا عن خريطة (٦٤) من أطلس تاريخ الإسلام ص ١١٨



خريطة رقم (٣) نقلًا عن خريطة رقم (٦٥) من أطلس تاريخ الإسلام ص ١١٩



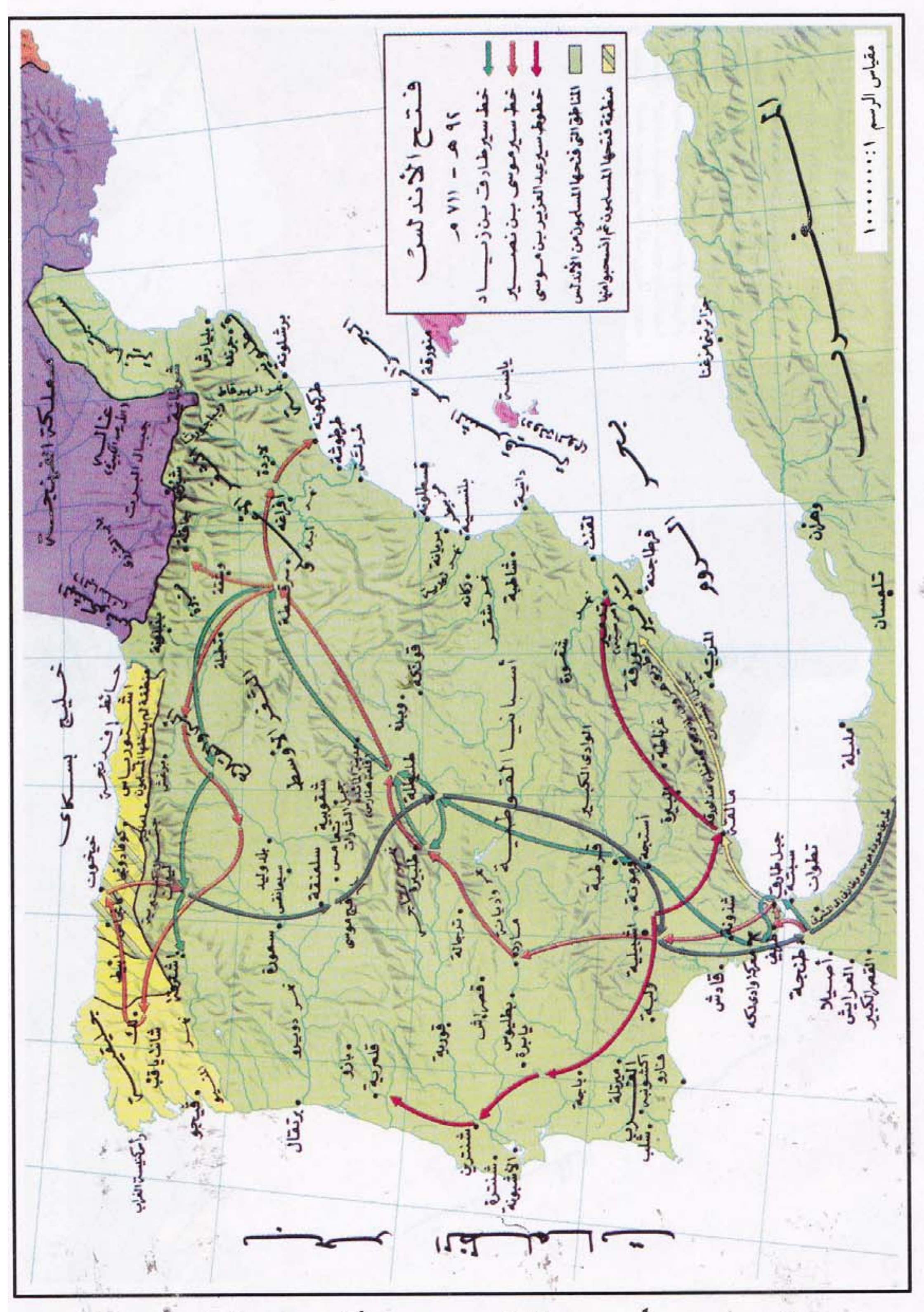
خريطة رقم (٤) نقلاً عن خريطة رقم (٦٦) من أطلس تاريخ الإسلام ص ١٢٠



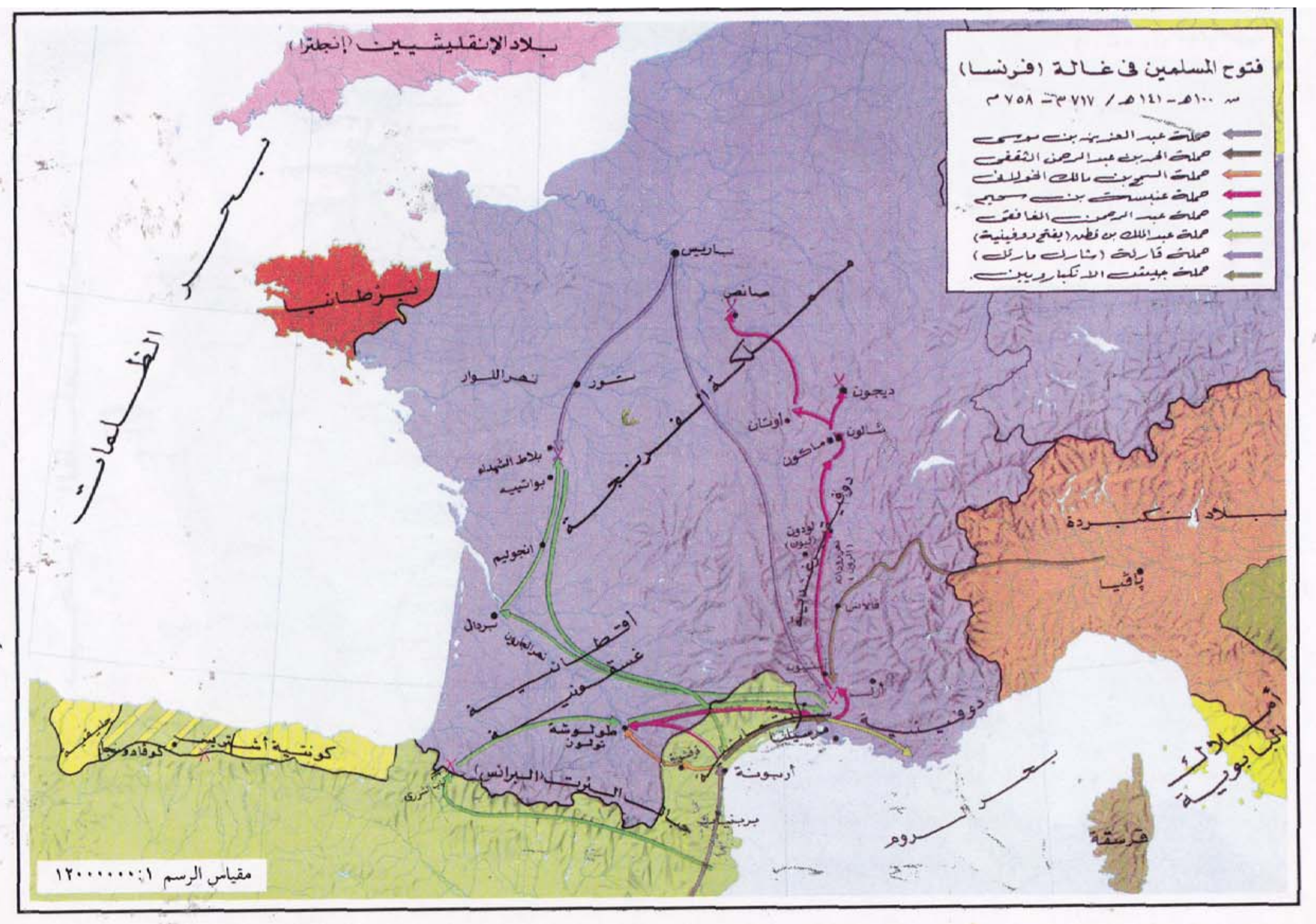
خريطة رقم (٥) نقلاً عن خريطة (٦٨) من أطلس تاريخ الإسلام ص ١٢٢



خريطة رقم (٦) نقلاً عن خريطة (٦٩) من أطلس تاريخ الإسلام ص ١٢٢



خريطة رقم (٧) نقلًا عن خريطة رقم (٧٠) من أطلس تاريخ الإسلام ص ١٢٣



خريطة رقم (٨) نقلًا عن خريطة رقم (٧١) من أطلس تاريخ الإسلام ص ١٢٤


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



دراسة للجانب السياسي للعالم الإسلامي في عصر الدولة الأموية ، الذي يعتبر من أكثر عصور التاريخ الإسلامي في تعدد قضاياه السياسية ، وتشعب حوادثه التاريخية . ولقد كان الدافع لهذا العمل أن تلك الحقبة من تاريخ المسلمين لا تزال في حاجة إلى دراسة واعية متأنية ، يكون رائدها البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة ، مستقاة من أوثق مصادرها ، وإلى كلمة حيادية منصفة تقوم على تحليل الروايات ومقارنة الحوادث واستنطاق النصوص التاريخية ؛ ذلك لأن معظم الكتابات المعاصرة - وهي كثيرة - التي تناولت هذا العصر اتخذت موقفًا معاديًا للأمويين ، معتمدة في ذلك على روايات خصومهم ، أو آراء ذوي الهوى والميول من المؤرخين ؛ فجاء تاريخ خلفائهم وولاتهم مشوهًا ، يشوبه كثير من الزيف والتحريف والبعد عن حقائق التاريخ ؛ فجاء الكتاب متجردًا من الميول والأحكام المسبقة بهدف استخلاص التاريخ الصحيح للأمويين وحقيقة عصرهم ووضعهم في المكان اللائق بهم في مسيرة التاريخ الإسلامي .

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)
email:info@dar-alsalam.com
www.dar-alsalam.com